

معلمة الإسلام
أنور الجندي
الجزء الأول
دار الصحوة للنشر والتوزيع

معلمة الإسلام

الجزء الأول

أنور الجندي

المراد بالمعلمة: المعجم الذي يحوى مصطلحات العلوم والفنون وقد اخترنا هذا المصطلح لهذه المحاولة التي قصدنا بها إلى إنشاء:

دائرة معارف إسلامية جامعة تربط بين الأصالة والمعاصرة في ضوء الإسلام وتختص بالمصطلحات وتضم ٩٩ مادة - أي مصطلح - في مختلف أبواب الشريعة والأخلاق والتربية والاجتماع والاقتصاد والنفس والثقافة والحضارة والعلم والفن والتاريخ واللغة والسياسة والفلسفة ومقارنات الأديان.


معلمة الإسلام

الطبعة الثانية

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

٧ شارع السراى بالمنيل ت ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان مدينة الهدى ت ٦٨٨٠٧١

آفاق البحث

فهرس القسم الأول من موسوعة معلمة الإسلام

الباب الأول: العقائد:

الباب الثاني: الإنسان:

الباب الثالث : قضايا النفس والأخلاق

الباب الرابع: العلوم والعلوم الإنسانية:



بسم الله الرحمن الرحيم

إلى شباب الإسلام

الحديث في هذه المَعْلَمة موجه إلى شباب الإسلام والعرب فهم عدة الوطن الكبير وجيل الغد الحافل بمسئولياته وتبعاته، وهم الذين سوف يحملون أمانة الدفاع عن هذه العقيدة في مواجهة الأخطار التي تحيط بها من كل جانب، فمن حقهم على جيلنا أن يقدم لهم خلاصة ما وصل إليه من فكر وتجربة وأن نطلعهم صادقين مخلصين على حقائق الأمور، وأن نعبِّد لهم الطريق إلى الغاية المرتجاة: غاية العزة والكرامة والسيادة لهذه الأمة في أرضها وأهلها بما يمكنها من أن تحقق رسالتها وتنشر دعوتها في العالمين.

ومن هنا فقد كانت هذه مسئوليتنا إزاءهم فإذا لم نقم بها كنا آثمين وكان علينا تبعة التقصير وعجز التبليغ. .وهذا مفهوم الإسلام في بذل العلم وإنفاقه وتبيينه للناس، والكشف عنه والامتناع عن كتمانه، وتقديمه خالصاً لله مجرداً عن الهوى أو الغرض أو المطمع، وهو غير ما تحاول الفلسفات أن تقدم للناس من شكوك وشبهات وتساؤلات لا إجابة لها، إمعاناً في تعميق الحيرة وتوسيع نطاق القلق، وخلق أجواء اليأس والتشاؤم، وليس الإسلام كذلك، إنما الإسلام عطاء للقلوب ونور للنفوس وهدى للعقول، فما من كلمة تثار لكشف باطل إلا ومعها كلمة الحق تشفى الصدور المؤمنة وترضى العقول المستنيرة.

.وشبابنا المسلم والعربي اليوم هدف من أهداف أعداء الإنسانية وخصوم الأديان وكل ما يوجه إليهم من سهام الغزو في عقائدهم وأخلاقهم وقيمهم عن طريق الكلمة أو الصورة أو الشاشة إنما يراد به هدم هذه الأجيال وتدميرها حتى تسقط قلعة الإسلام في أيدي أعدائه وتسيطر القوى الظالمة على البشرية كلها، وسوف لايقع

هذا ما دمنا متيقظين واعين لما يراد بنا قادرين على التماس طريقنا الذي هدانا الله بالحق.

ولقد عمل الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه ودعا إلي اليقظة إزاء الحرب النفسية والغزو الفكري مما يهدف إلي تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم. ذلك أن الإسلام إنما يريدهم أمة متميزة لها خصائصها ولها رسالتها فلا يضيعون في غمار الأمم ولا تحتويهم الدعوات ولا تصهرهم الحضارات ليكونوا الدعاة إلى الله قائمين على كلمة التوحيد الخالص، لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة.

ولقد قصدنا بتقديم هذه المَعْلَمة أن نقدم للشباب تفسيرات واضحة صريحة وصادقة لكل ما يثار في أفق الفكر الإسلامي والثقافة العربية من مصطلحات ومفاهيم وقيم لنكشف وجه الإسلام فيها.

ولقد بدأنا هذه المحاولة منذ بضعة عشر عاماً وتقصينا أغلب ما كتب ونشرنا في ذلك عشرات الكتب التي هي بين يدي القارئ إذا أراد التوسع في التفاصيل - أما في هذه المعلمة فقد رغبنا أن نقدم العصارة الموجزة والخلاصة المركزة في أسلوب بسيط يسير، بحيث يمكن للشباب المثقف أن يحيط بأكبر قدر من المعلومات في حيز قليل من الكتابة، من خلال مواد الفكر كله حتى يتم بذلك تأصيل مفهوم الثقافة الإسلامية الجامع التي ينتظم معرفة جميع أبعاد الإسلام فكره وعقيدته وشريعته وأخلاقه ولا يقتصر على جانب أو عدة جوانب، وبعد فتلك أمانتنا إلي شباب الإسلام خالصة لله مبرأة من الغرض والهوى والمطمع هادفة إلي الحق على صراط الله المستقيم. والله جل جلاله من وراء القصد.

* * * * *

ما هي المَعْلَمة؟

المراد بالمعلمة: المعجم الذي يحوي العلوم والفنون، وهي من الصيغ التي تدل على المكان الذي يكثر فيه الشيء والمكان قد يكون وعاء أو أداة، ووعاء العلم الكتاب كما لايخفى وقد تكسر الميم حملاً لها على معنى الوعاء كما قالت العرب سابقاً «مقلمة» لوعاء أقلام الكتابة لأنها تكثر فيه.

والمعلمة هي التي سماها بعضهم «دائرة المعارف» وهي تعريب لفظي لكلمة (انسكلوبيدية) الإفرنجية لكنها في العربية لاتفيد فائدة المعلمة، وسماها بعضهم «كتاب موسوعات» هذا ما نقله العلامة أحمد تيمور عن الكرملي في تفسير كلمة «المعلمة»، وقال: إن اللغويين لم يتفقوا على لفظة عربية مفردة يصح إطلاقها على نوع المعاجم المعروفة عند الإفرنج باسم (انسكلوبيديا) ولهذا اضطر مؤلفو هذا النوع عندنا إلى اختيار أعلام مركبة لمعاجمهم تدل بالتقريب على ما تحتويه.

ونقول إن أول من أطلق على هذا الصنف كلمة (دائرة معارف) هو البستاني وتبعه فريد وجدي وقد استعمل البعض كلمات: قاموس ومعجم وموسوعة على التوالي ولم يستعمل أحد بعد مصطلح (معلمة) مع أنه أوفى وأكثر إحاطة وشمولاً، وبالجملة فالمعلمة في تقديرنا (موسوعة قاصرة على المصطلحات في الفكر والعقيدة) وهذا ما قصدنا إليه. وما يتميز به هذا العمل الذي نقدمه عن المعاجم المختلفة.

* * * * *

لماذا أصدرنا معلمة الإسلام؟

عرفت اللغة العربية في العصر الحديث الموسوعة والقاموس والمعجم ودائرة المعارف وكان ذلك امتداداً لتاريخ عريق متصل في الأدب العربي والفكر الإسلامي منذ بدأ أئمتنا الأجلاء كتابة دوائر المعارف الإسلامية وهو العمل الذي لايزال بين أيدينا يهدى إلي ضياء العلم ونور الثقافة. ولقد أهدى إلينا على المدى الطويل عديداً من هذه الموسوعات أبرزها:

الفهرست لابن النديم، وإحصاء العلوم للفارابي، ومفاتيح العلوم للخوارزمي، ومفاتيح السعادة لطاشي كبرى زادة، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (محمد على بن على).

هذا بالإضافة إلي موسوعات اللغة أمثال لسان العرب لابن منظور، والمخصص لابن سيده، وموسوعات الأعلام أمثال وفيات الأعيان لابن خلكان، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، والوافي للصفدي.

والذي يعنينا في هذا العصر هو أمر المصطلحات المحدثة المتصلة بمفاهيم القيم والمعارف والعلوم والفلسفات وما أطلق منها في الغرب ثم ترجم إلى اللغة العربية دون أن يصل بمدلولات الفكر الإسلامي وظروفه ومصادره.

ومن ثم فقد وجدت في مجال الفكر الإسلامي كلمات كثيرة لها ترجمات عربية دون أن يكون هناك ما يكشف عن ظروفها وارتباطاتها في بيئاتها أو التحديات التي نشأت فيها وقد جرت محاولات ماكرة لأن تحل هذه المصطلحات محل كلمات عربية معروفة فكان ذلك من أخطر ما قصد إليه التغريب، نظراً للاختلاف الواضح البين بين الكلمة المعربة والكلمة العربية.

فهل يمكن أن تؤدي كلمة (رليجون) الغربية معنى كلمة دين في اللغة العربية، وهل تؤدى كلمة (ديمقراطية) معنى كلمة (شورى) العربية، وهل تؤدي كلمة (اشتراكية) معنى كلمة (عدالة اجتماعية) العربية، وهل تؤدي كلمة (قومية)

معنى كلمة (عروبة)، في الواقع أن هناك فوارق عديدة بين مدلول هذه الكلمات وفي عشرات أخرى من المصطلحات التي وضعت في اللغات الأوربية سواء في مجال السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الدين والتي ترجمت، ثم جرت المحاولة بعد الترجمة لوضعها بديلاً للكلمة العربية التي لاتحمل نفس المعنى ولا تؤديه.

ذلك لأن الكلمات التي تتخذ كمصطلحات إنما تحمل وضعية خاصة ترتبط بالعصر والبيئة والظروف والتحديات وتمثلها، وهذا ما لا يمكن أن يتوفر لها بالترجمة التي تواجه عصراً وبيئة وعقائد تختلف وتتباين.

كذلك فإن الكلمات تتغير مدلولاتها مع الزمن وتتطور بالاستعمال في نفس لغتها وبيئتها فما بال الأمر حين تنقل إلي لغة أخرى، ومن ناحية أخرى فإن القيم التي تعرفها البشرية تكاد تكون واحدة ولكن الخلاف بين الأمم والثقافات إنما يتمثل في أمرين (أولاً) في ترتيب هذه القيم وجعل أولويات معينة لبعضها على البعض الأخر، (ثانياً) في تفسير هذه القيم وتصورها وذلك كله يرجع أصلاً إلى ذاتية الأمم من خلال مفهومها الخاص للثقافة والعقيدة والتاريخ.

ومن هنا فليس من المسلم به أن تكون القيم عالمية في ترتيبها أو تفسيرها وإن تشابهت في أسمائها.

ونحن المسلمين لنا فكر متميز يستمد جذوره وأسسه من القرآن الكريم، وتتمثل فيه ذاتية المسلمين الخاصة التي تختلف بهم عن الأمم في أمور كثيرة من المقدرات والقيم والمقومات.

ومن هنا كان من الضروري أن تجرى مراجعة هذه المصطلحات المختلفة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي واستقصائها والكشف عن حقيقتها وموقف الإسلام منها وذلك حتى لاتختلط في أذهان المثقفين أو يظن أن هناك تشابها ما، يمكن أن يسمح بإذابة الفوارق بين الفكر الإسلامي الرباني المصدر وبين الفكر البشري الذي يمثله الفكر الغربي بشقيه أو بأجزائه الثلاثة: (الغربية والماركسية والصهيونية).

والحقيقة الأساسية التي يجب أن تكون نصب أعين كل باحث مسلم أو مثقف مسلم إنما تتمثل في التفرقة الواضحة بين مفاهيم القيم في الإسلام وفي غيره، الأمر الذي لا مفر منه في هذا العصر حتى يسأل المثقف المسلم نفسه دوماً وإزاء كل أمر:

«ما هو موقف الإسلام منه؟»

وعلينا أن لانتسامح في الأمر ظناً بأن هناك قيماً إنسانية عامة تشترك فيها الأمم والأديان، ذلك أن السنوات الأخيرة قد أجرت تغييراً خطيراً في أمر هذه القيم الإنسانية العامة بعد أن استعلى المذهب المادي وسيطر على مفاهيم الفلسفة ومقارنات الأديان والعلوم الاجتماعية والإنسانية إلى أن احتوى: الأدب والتاريخ والحضارة.

وهذا هو التحدي الذي يجب الاحتراز منه والخطر الذي يجب تقدير أثره، فلقد كانت في المراحل السابقة لعصر المادية - المسيطر الآن على الفكر الغربي - محاولات تتمثل في الفلسفات المثالية التي هي قريبة من روح الأديان، غير أن هذه المحاولات لم تلبث أن انهزمت تماماً ولم تبق منها إلا ذيول قليلة ما تزال تكافح، فقد استطاعت الفلسفة المادية التي حملت لواءها اليهودية الصهيونية أن تجتاح الفكر الغربي كله بشقيه، وأن تسيطر عليه، وأن تحتويه وتستوعبه تماماً، ومن هنا انقطع ذلك الضوء الخافت الذي كان يومئ بأن هناك قيماً إنسانية عامة يشترك فيها المسلمون وأصحاب الأديان والثقافات الأخرى.

ومن هنا فقد أصبح على الفكر الإسلامي أن يعيد النظر بالنقد والمراجعة لمختلف المصطلحات الجديدة في مجال النفس والأخلاق والتربية بوصفها علوماً اجتماعية وإنسانية وأن يكشف عن نظرته الواضحة ومفهومه الصريح وموقفه الكاشف في مختلف قضايا الاجتماع والسياسة والاقتصاد.

ذلك أنه من الحتم أن لايستسلم الفكر الإسلامي لنظريات الفكر الغربي استسلاماً كاملاً، ولا يقبلها بحذافيرها، وإنما عليه أن يعرضها على الأصول الأساسية له أولا،

وأن يقبل منها ويرفض في ضوء قواعده الثابتة الراسخة وفي مقدمتها التوحيد الخالص.

ولقد كان الفكر الإسلامي دائماً وسيظل في موقف الحذر والمراجعة بل والمعارضة حين يتصل الأمر بالفلسفة المادية ذاتها.

وقد امتدت حركة المواجهة والكشف عن الزيوف ودحض الشبهات منذ وقت طويل وعمل في حقلها عشرات من الأبرار، وجاء الوقت الذي يجب أن يوضع في أيدي الشباب المثقف عمل متكامل جامع ميسر، هو بمثابة ضوء كاشف يحول دون السقوط في هوة التبعية أو الاستسلام في مجال التقليد، ويستهدف بالدرجة الأولى إطلاق الإشارات الحمراء المانعة من التردي في الهاوية.

ولقد توالت الأصوات مرتفعة بالدعوة إلي الأصالة والتماس الذات والتحرر من التبعية حتى استطاعت أن تتكون بمرور الزمن وبالوعي واليقظة مناعة قادرة على معرفة الأصيل من الدخيل، ولقد كان للتحديات التي واجهها الفكر الإسلامي نتيجة محاولات التغريب والغزو الثقافي في مواجهة التيارين الغربي والماركسي أثرها البعيد في الكشف عن زيف الفكر الغربي في مجالات كثيرة، وقصوره وانهياره إزاء معضلات الحضارة والمجتمعات الحديثة، كما كشفت هذه التحديات عن مدى قدرة الفكر الإسلامي على العطاء في مواجهة هذه المعضلات التي وقفت أمامها الحضارة الغربية عاجزة بينما يستطيع الإسلام أن يحل مشاكل البشرية هذه ويهديها إلى النور.

غير أن خطراً مازال متسلطاً لما يكشف الفكر الإسلامي أبعاده وأثاره، لأنه لم يتمثل في صورة مؤسسات، ذلك هو خطر الفكر التلمودي اليهودي الصهيوني الذي يتغلغل في مفاهيم العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية ويسيطر على علوم النفس والاجتماع والأخلاق والتربية.

فنظريات هذه العلوم ليست في الحقيقة إلا مخططات التلمود مصوغة في قوالب

ذات صبغة علمية براقة، ولقد كشف عن هذه الصلة كثير من الباحثين في الآونة الأخيرة وهذا هو ما نحتاج إلى الإشارة إليه حتى يتعرى تماماً هذا الفكر الزائف أمام الشباب المثقف، ذلك أن الفكرة التي يحملها الفكر التلمودي اليهودي، والتي تمثلت بوضوح في بروتوكولات حكماء صهيون إنما ترمي إلى احتواء العالم المعاصر كله بالسيطرة على الثقافات والعقائد والنظم السياسية، وهي قد استطاعت أن تصل في ذلك إلي غايات بعيدة، يمكن القول معها بأن الفكر الغربي كله غربياً وماركسياً قد سقط اليوم في قبضتها وأنه أصبح يصدر من منطلقات الفلسفة المادية القائمة على إنكار مقررات الأديان وقيم الأخلاق.

وفي ظل ذلك قد تكشفت حقيقة تظهر الآن وتتضح بأجلى معانيها ويزيدها مرور الأيام قوة: هي إخفاق الحضارة الغربية بجميع مذاهبها العقائدية وأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية إخفاقاً ذريعاً في تقديم منهج حياة مسعد للبشرية وليس ذلك إلا مقدمة لأحد أمرين: إما الاستيعاب الصهيوني التلمودي الذي سوف يلتهم كل شيء وإما أن تفيق البشرية لتبحث عن الحقيقة وهي موجودة بين أيدينا، ويبدو الآن أن الطريق ما زال مفتوحاً أمام مغامرة أصحاب البيروتوكولات الذين يمهدون الأرض منذ أكثر من ثمانين عاماً ويتوقعون تحقيق أملهم قبل نهاية القرن العشرين.

فمتى يستطيع المسلمون تقديم مفهوم أصيل مستمد من دينهم الخاتم لهداية البشرية والسير بها إلي الطريق المستقيم.

إن المفكرين المسلمين مطالبون اليوم بأن يقدموا (الإسلامية) للبشرية بديلاً عن هذه المناهج التي انهارت وفسدت وتعفنت، ومطالبون قبل ذلك أن يتعرفوا إليها ويأخذوا بها في أنفسهم وفي أسرهم، وهذا يقتضى الكشف عن الحقائق وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم من دخائل التفسيرات الغربية والماركسية والصهيونية جميعاً، وإزاحة ذلك الظل المظلم وكسر هذه الدائرة المغلقة التي خلفها التغريب والغزو الثقافي، وعلى المسلمين أن يعلموا أنه لم يعد هناك مجال للتوفيق أو المواءمة بينهم

وبين المذاهب الوافدة أو الحضارة المنهارة، فليسوا هم في الحقيقة جزءاً منها وليسوا مرحلة تالية لها.

والذين حاولوا العمل للتوفيق بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، أو بين الفكر الغربي الإسلامي لم يستطيعوا أن يحققوا شيئاً بل انتهت تجربتهم بالفشل الذريع في المحاولتين اللتين جرتا خلال هذه السبعين عاماً سواء مع تجربة الغرب أو تجربة الشرق، بل كان من نتائج هذه المحاولة أن منى المسلمون والعرب بالهزيمة مرة بعد أخرى.

ولقد كان أصحاب هذه المحاولة أعجز عن تقدير الإسلام وفهمه، فقد ظنوا أنه شأن العقائد والمذاهب الأخرى التي تقبل الإضافة والحذف، ولم يقدروا شأن المنهج المحكم الرباني المصدر الإنساني الطابع، وما تزال محاولتهم ضالة ولن تصل إلى شيء.

ولقد دفعت هذه الهزائم المتوالية المسلمين والعرب إلي التطلع لأفق جديد فلم يجدوا أمامهم إلا منهجهم الأصيل بعد أن جربوا كل نظرية وأيدلوجية فلم يعد لهم بد من التماسه ولم يعد لهم طريق غيره وهم يعودون إليه اليوم بعد أن أغلقت في وجوههم كل الأبواب وعجزت كل التجارب وبعد أن وجدوا من وراء إغرائهم بهذه المذاهب تآمراً ومكراً ورغبة في تحطيمهم واحتوائهم والقضاء عليهم، وقد أثبتت التجربة التي بين أيديهم أنهم بعد سبعين عاماً لم يتحقق لهم ما يدفعهم إلى الأمام، وقد تكشف لهم أيضاً أن حاجتهم إلى الغرب ليست إلا حاجتهم إلى العلم التجريبي ومعطياته على أن تنقل إلى اللغة العربية أساساً وتتحرك من داخلها. أما مناهج العيش والحياة والمجتمع فإن لديهم مفاهيمهم وقيمهم المتصلة بذواتهم وطبيعتهم والمرتبطة بعقائدهم وثقافتهم.

إن الإسلام ليس إلا شيئاً مستقلاً منفصلاً مختلفاً، له ذاتيته الخاصة وطابعه المفرد، وهو لايمكن أن ينصهر ولا أن يحتوى، ولا أن يكون تابعاً للحضارات والأمم، أو مبرراً للأوضاع التي تأخذ بها الأقوام في تجاربها الخاصة أو في فكرها البشري،

وإنما هو النظام المتكامل المفرد الذي لايتجزأ، فإما أن يؤخذ كله أو يترك كله والذي لايصلح فيه التلفيق أو الاختيار أو الانتقاء، ذلك لأنه جاء منذ أنزل الله به رسوله جامعاً لكل الأصول التي تتعلق بالفرد والأمة والحياة والمجتمع والعقل والقلب والدنيا والآخرة، وهو في حد ذاته متسق مع الفطرة والعلم والعقل متجاوب مع النفس البشرية في مختلف حالاتها.

ومن هنا كانت أصالة المنهج الإسلامي للمسلم أولاً وللإنسان كله ثانياً في مختلف ضروب النشاط والحركة.

أما النظرية الوافدة فهي من صنع مجتمع له ظروفه وتحدياته وقيمه وعقائده، ولقد ولدت هذه النظرية من خلال عصر وبيئة محدودين، فهي مرتبطة بهما، وهي بهذا التحديد لاتصلح لكل عصر ولا لكل مجتمع، ولن يصادف نقلها في هذا الأوان طقساً مشابهاً من قريب أو بعيد لظروفها في بيئتها وعصرها، ذلك أنه حتم على كل مجتمع أن يبحث عن حاجته في ثقافته وتراثه وتجربته، ولا بأس عليه أن يعرف تجارب الآخرين وينقلها كمادة خام يشكلها كيفما يشاء أو يستغنى عنها.

هدف الموسوعة هو الإجابة عن سؤال واحد:

" ما هو موقف الإسلام؟ "

ونرجو أن نكون قد أجبنا على ذلك بعون الله وفضله وهداه في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أنور الجندي

الباب الأول

العقائد

(١) الإسلام
(٢) التوحيد
(٣) الإيمان
(٤) القرآن
(٥) الدين

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإســـلام

١- الإسلام هو الدين الخاتم للأديان السماوية أوحى به الحق تبارك وتعالى إلى (محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ﷺ) في بطن مكة: دعوة إلى التوحيد الخالص وكتابه هو القرآن الكريم.

يقوم الإسلام على توحيد الله وإلغاء الوثنية والتعدد ونبذ عبادة الأصنام، والاعتراف بجميع الأنبياء السابقين والكتب المنزلة والملائكة والإيمان باليوم الآخر، وقد جاء ديناً عالمياً للبشرية كلها وللإنسانية كافة، قام على أساس العلاقة المباشرة بين الله والإنسان وشجب كل الوسائط والعلائق، وجاءت دعوته جامعة بين الدين والدنيا وبين القلب والعقل وبين الروح والمادة، ومستهدفة إقامة منهج رباني وأسلوب إنساني قوامه إقرار الإرادة الإنسانية وحرية الاختيار والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي.

وقد جمع الإسلام بين العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق في كل جامع متكامل بوصفه أسلوب حياة ونظام دولة ودستوراً شاملاً للإنسانية جمعاء، والإسلام لغة هو: الطاعة والانقياد وتطلق في الشرع على الانقياد إلى الأعمال الظاهرة.

والإسلام شرعاً: هو الأعمال الظاهرة من التلفظ بكلمتي الشهادة والإتيان بالواجبات والانتهاء عن المنهيات، وعلى هذا المعنى فهو يغاير ا لإيمان ولا ينفك عنه وقيل إن الإيمان تصديق قلبي والإسلام طاعة وانقياد ظاهر.

٢- جاءت الأديان إقليمية وقومية ﴿ وما من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ وجاء الإسلام عالمياً للبشرية كلها، خاتماً لهاجميعاً، ونزل في الأمة العربية بلسانها رابطاً

أول الدين بآخره، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من لدن آدم ونوح وهو دين إبراهيم أبو الأنبياء الذي امتد في إسماعيل وإسحاق ومنه جاء موسى وعيسى فالإسلام الذي دعا إليه محمد ﷺ هو امتداد لدين الله الخالص ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ولقد جاء الإسلام دينا عاماً عالمياً للبشرية كلها بعد أن كانت الأديان خاصة لأممها، وجاء كاملاً (شريعة وعقيدة وأخلاقاً) بعد أن وصلت البشرية مرحلة الرشد وجاء خاتماً للأديان وكتابه خاتم الكتب ونبيه خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد نزل في العرب الذين اختارهم الله لحمل رسالته إلى العالمين.

٣- من أبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار:

(١) تطابقه مع الفطرة الإنسانية.

(٢) قدرته على العطاء لكل العصور والأزمنة والبيئات.

(٣) طابعه الإنساني في الإخاء البشري ورفع إصر عبودية النفس في المجتمع وعبودية الوثنية في الفكر.

ويقوم مفهوم الإسلام أساساً على تحرير الإنسان من كل القيود والوثنيات التي تدفعه إلي عبادة غير الله، فهو يحرر عقله وروحه وجسده جميعاً. يحرره من العبودية الإجتماعية، ومن العبودية الفكرية ويحرره من الرهبانية والزهادة في نفس الوقت الذي يحرره من الترف والانحلال.

وتحرير الفكر في الإسلام هو تحرير الإنسان من الوثنيات والمادة، فالإسلام أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين حيث لاتقف العقيدة فيه عقبة دون انطلاق الفكر، بذلك يكون المسلم صحيح الإسلام وفي نفس الوقت حر الفكر.

وقد قامت الوحدة في الإسلام متكاملة، فهي وحدة الألوهية في العقيدة ووحدة الجنسي البشري في الاجتماع ووحدة الفكر الإنساني في الثقافة، وقد وصل

المسلمون إلى أعلى الغايات في العلم والثقافة ومع ذلك ظل مجرى عقولهم سليم الإيمان بالله.

ومن أعظم معطيات الإسلام أنه جعل العلاقة بين الله والإنسان علاقة مباشرة دون واسطة.

٤- أفرغ الإسلام مفاهيمه وتعاليمه ومقاصده التي تشمل مختلف جوانب الحياة (من سياسية واقتصادية وأخلاقية وتربويه) في صيغة كلية وأصول عامة ثم أطلق لأهل العصور والبيئات المختلفة حرية الحركة لوضع النماذج والتطبيقات التي تتناسب معهم وتعاليم الإسلام تتميز بالكامل فهي تتفاعل متساندة لايطغى بعضها على بعض ولا يعلو أحدها على الآخر، وهي جامعة لاتتجزأ ولكنها تتلاقى وتتواءم في حركة عامة لاتعرف التمزق ولا الانشطار، فكل فرع يؤثر في الفرع الآخر ويتأثر به، والجانب المادي لايطغى على الجانب المعنوى.

الإسلام لايحتقر الأمور الدنيوية ولايرفضها، ولا يضحي بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع من أجل الفرد، وإنما تقوم التعاليم متكاملة في نظام متسق فيه التقاء وتوازن ومن هنا لايوجد في الإسلام تناقض بين المثل الأعلى والواقع العملي للناس.

وتقوم التعاليم الأخلاقية كحارس ومنظم لتطبيق الشريعة وبغيرها تفقد القوانين الاجتماعية والنظم الاقتصادية روحها وفاعليتها.

وليس الإسلام دينا بمعنى العبادة واللاهوت ولكنه حركة اجتماعية ومنهج حياة وإنما يمثل الدين جانباً من جوانبها.

ولذلك فإن الشريعة الإسلامية هي شريعة تطبيقية يلزم بها الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي في مختلف المعاملات كالبيوع والإجارة والرهن وأمور المال والاقتصاد وكذلك في شئون الأسرة والمجتمع والزواج والمرأة.

وقد جمع الإسلام بين الثبات والتطور، فأقام الثوابت في الفرائض والحدود وهي الأصول، وأباح التغيير والحركة في الفروع.

كما فتح الإسلام باب الاجتهاد بما يحقق المرونة والقدرة على مواجهة اختلاف العصور والبيئات.

٥- جاء الإسلام بالحقيقة الكبرى الناصعة فقرر أن الله واحد، وأنه لا إله إلا الله،ونفي كل أنواع التعدد، وقرر أنه سبحانه لايشبهه شيء من خلقه ولا يسعه شيء منها، وأنه تبارك وتعالى متصف بالكمالات كلها، منزه عن النقائص كلها.

كما قرر أن العقل الإنساني ليس لديه القدرة الكافية لأن يدرك كنه ذات الله وحقيقة صفاته، ولذلك جاء الوحي كاشفاً عن هذه الحقيقة وجعل العقل مصباحاً هادياً إليها.

وقد تناول القرآن مختلف الشبهات التي لصقت بمعنى الألوهية فكشف عن زيفها ونقضها، ودعم النفي بالحجة، ثم كشف عن صلة الإنسان بالله وكيف أنه مربوب لله وأن الله مع الناس أينما كانوا وأنه هو الذي يرحمهم ويهديهم.

وكذلك رفض الإسلام الخرافات الوثنية وتعدد الآلهة وطابع الإباحة الذي عرفته بعض الأمم والنحل، ودعا إلى التوحيد الخالص ولا ريب أن الإيمان بالله وحده والإيمان بالبعث والجزاء والحساب وأن كل نفس بما كسبت رهينة هو الذي أهل الإنسان ليكون مستخلفاً في الأرض. لقد كان تحرير النفس الإنسانية من الوثنية والعبودية والعصبيات والمظالم طريقاً إلى الأخوة الإنسانية.

لقد أحدث الإسلام رقياً عظيماً حين أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة. وقد دعا توحيد الله المسلم إلى العزة والاستعلاء عن الخضوع للإنسان ثقة بأن الله وحده هو الرازق.

٦- فضل الإسلام العلم على العبادة، وفضل العلم على إطلاقه فهو (علم الدنيا وعلم الدين) وأعلن الإسلام أن العلم يزكو بالإنفاق وقد أخذ الله الميثاق على الذين يعلمون أن يبينوه للناس ولا يكتمونه.

وفي الإسلام يلتقى الدين والعلم فالعلم جزء من الدين لايتناقض معه وقد جاء منطلق العلم من دعوة الله في القرآن إلى النظر في الكون.

وقد دعا الإسلام المسلمين إلى استخدام حواسهم الظاهرة في التأمل والنظر كما حرضهم على طلب العلم والمعرفة والتأمل في الكائنات والتنقيب عن أسرار الوجود.

كما طالب بترقية الشخصية الإنسانية بالضرب في الأرض وتعرف أحوال الأمم وطبائعهم ودراسة ما هي عليه ومعرفة العبرة من قيام الحضارات وسقوطها.

وقد بني الإسلام على منهج جامع بين العقل والوحي، والعقل أساس التكليف وقد أقام البحث على التجربة والدليل وأطلق حرية البحث وحث على الاجتهاد وإدراك الحقائق وطالب بالتمسك بالدليل وقرر للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً إذا أخطأ وحرم التقليد والتبعية، والعبادات في الإسلام تمتاز بآثارها الاجتماعية والصحة النفسية فهي ليست مفروضة لمجرد التعبد.

٧- أقام الإسلام أصول الأخوة العالمية هادماً للعبودية للعبيد والاستعلاء للطبقة الخاصة، ولاغيا للرق والسخرة محرراً للعبيد حيث لايقر التفرقة بالعنصر أو التعصب للدماء والأجناس والألوان، وتقوم دعواه إلى المساواة الشاملة والأخوة الإنسانية أمام الدولة وأمام الله، ودعا الإسلام إلى الإنصاف في النظرة إلى الغير ودعا إلى الحكم العادل للقريب والبعيد بدرجة واحدة.

والإسلام لا يفرض قومية على قومية أو عرق على عرق ولكنه دعوة إلى «نشر صيغة إنسانية للحضارة».

وكما دعا الإسلام إلى روح الإخاء الصحيح التي تقرر أن إيمان المرء لايكتمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ومن حيث أقر الإسلام المساواة ومحا الفوارق البشرية فالناس في الإسلام تتكافأ دماؤهم وأموالهم والمسلم للمسلم كالبينان المرصوص يشد بعضه بعضاً، لقد طبق الإسلام الإخاء بين الناس قبل أن يدعو إليه الغرب بألف عام كما عارض الإسلام

وجود جماعة معينة بينها وبين الله عقد خاص للسيادة العالمية أو وساطة للمغفرة كما قرر أن عقد الله مع الناس جميعاً هو التقوى وحدها.

٨- وفق الإسلام بين سلطة الحاكم وحرية المحكوم وجعلهما متكاملين وعمهما بالضوابط حتى لايفسد أحدهما الآخر وأعلن احترامه للملكية الفردية ودعا إلى توجيهها بالتعاون والتضامن بين الأغنياء والفقراء وأقام نظاماً فيه على الغنى حق وللفقير فيه حق.

ودعا إلى قدر معين من الآدب والاحتشام في الرابطة بين الرجل والمرأة ومع تسويتهما في الحقوق والواجبات وجعل للرجال على النساء درجة. وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع هو كل الأفراد. وقرر الإسلام أن الرقابة لاتأتي من شخص على شخص وإنما هي رقابة الإنسان لربه.

وفرض الإسلام على المجتمع كفالة أبنائه من العجزة والضعاف والمحرومين وجعل الجزاء قاصراً على صاحب الذنب وحده ولا يضحى الإسلام بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع من أجل الفرد بل يقيم بينهما تناسقاً متكاملاً، ويقرر الإسلام التضامن والتكافل بين كل أفراده ويجعل العجزة والضعاف والمحرومين موضع تقدير كبير فيطالب برعايتهم ولا يطالب بإسقاطهم أو قتلهم بل ويعتبرهم مصدراً للرزق.

٩- أكد الإسلام أنه لايحتقر الأمور الدنيوية ولكنه يجمع بينها وبين أشواق الروح، ويجعل مثله الأعلى بعيداً عن النفعية والرهبانية وجامعاً بين الدين والدنيا، وقد نظم الحرية الفردية وأقام علاقة الفرد بالمجتمع على أساس العدل والمساواة بين القوى والضعيف والغنى والفقير، ودعا إلى التسامح حتى خلال شدائد الحروب، ودعا إلي الزهد في وسط مغريات الحضر، وحث على الكرامة والإباء في الفقر والعوز، ولقد أقر الإسلام أن الزهد في الدنيا ليس تحريم الحلال أو إضاعة المال ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وجعل الإسلام لكل عمل أجراً ولكل أجر جزاءً فلا عداء للدنيا ولا تكالب عليها، ولا تعطيل لما كرم الله به الإنسان من قوى التفكير والإرادة والعمل.

كذلك جعل حفظ الدنيا وتنميتها أصلاً من أصول الإسلام.

وكذلك دعا الإسلام إلى الأخذ بالأسباب فإن الله ربط الأسباب بالمسببات.

١٠- أقام الإسلام الفطرة ودعا إلي نقائها ونهى عن إفسادها بالتعاليم الضارة ونبه إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة، ودعا إلى طلب الدليل المقنع على كل عقيدة فالإسلام يدعو إلي الدليل ويطالب بالبرهان، ويدعو إلى أن يغير الإنسان رأيه متى تبين له الدليل على صحة رأي الغير ولا يأنف المسلم أن يبحث عن الحقيقة ويأخذها ممن يخالفه في دينه ولغته وأن لايتعصب لرأي أو مذهب تعصباً يمنعه عن النظر فيما وراء ذلك.

والمسلم لايأنف أن يأخذ العلم ممن يخالف دينه ولغته وهو لايتعصب لرأي تعصباً يمنعه عن النظر في وجوهه المختلفة وبذلك يصبح قادراً على أن يغير رأيه في أمر من الأمور متى اقتنع بما هو خير منه، والإسلام براء من فكرة الجبر أو تعطيل العقل.

ويفصل الإسلام بين الألوهية والبشرية، كما يفصل بين الله والعالم، ولا يقر الإسلام الحلول أو الاتحاد ولا الإشراق أو التناسخ.

وليس هناك من المسلمين من يمكن أن يسقط عنه التكليف ولو بلغ أعلى درجات العبادة.

١١- جمع الإسلام بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبين السماء والأرض في نظام الكون، والدنيا والآخرة في نظام الدين، الروح والجسد في نظام الإنسان، والعبادة والعمل في نظام الحياة وسلكها جميعاً في نظام موحد هو: الطريق إلى الله.

١٢- أعطى الإسلام المرأة حق المساواة وحق التعامل وللمرأة في الإسلام أن تزاول التجارة والصناعة والزراعة، وأن تتولى العقود والمعاملات، وأن تملك كل أنواع الملك، واختص المرأة بنصيب من الميراث يتكافأ مع مسئوليتها المادية، فجعلها مكفولة العيش قبل الزواج وبعده ولا تحرم المرأة حقها إلا إذا ثبت أنه يلحق ضرراً

بالمجتمع، وقد اختلف مفهوم الإسلام للمرأة عن مفهوم الشرائع الأخرى التي تجعل ضعف المرأة عقاباً إلهياً، ولقد صنع الإسلام من المرأة حصناً للإسلام بأن أقر لها حريتها ومسئوليتها في البيت والزوج والولد وجعلها بذلك من أقوى الحواجز التي تحمى الأسرة من التصدع، وحمى الإسلام الأمومة والأنوثة في صور متعددة، ومنحها حق المهر وشرط الكفاءة ورعاية لمنزلتها فلولى الأمر أن يعترض على زواج المرأة بمن هو أقل منزلة منها رعاية لها وصوناً لكرامتها، ومن تكريم الإسلام للمرأة أن أقر عدم كفاءة الفاسق للزواج بالمرأة العفيفة، كما وضع لها النظم المتعلقة بالطلاق حماية لها وللأسرة.

كذلك رعى الإسلام حقوق الطفولة قبل الميلاد وبعده فأوصى باختيار الزوجة (تخيروا لنطفكم) وأوجب على الوالدين حسن اختيار اسم الطفل وتعليمه الكتابة وتزويجه إذا بلغ مبلغ الرجال وجعل عليه لـوالده حق السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فمصاحبة بمعروف من غير طاعة فيما يغضب الله.

وقد أقر الإسلام حق الجار وحق الخادم وامتدت الحقوق إلى الحيوان.

١٣- كرم الإسلام الإنسان وجعله سيداً لايذل ولا يخضع إلا لخالقه، فالمسلم وفق مفهوم الإسلام لم يخلق ليندفع في التيار أو يساير الركب حيث سار بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته (على حد تعبير الشاعر محمد إقبال) والإنسان المسلم ثابت الجوهر متغير الصورة.

ودعا الإسلام إلى العمل والتعمير والتنافس في الصنائع والفنون النافعة وجعل للمبتكرين الثواب في قول النبي ﷺ «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها».

وكل إيقاف للحياة على العبادة والزهادة والنسك مخالفة لمفهوم الإسلام لأنه ابتعاد عن الحياة العملية التي هي المحل الرئيسي الصادق لمعرفة مدى إيمان الإنسان وقد جمع الإسلام بين الإيمان والعمل والكلمة والسلوك ولقد دعا الإسلام الإنسان إلى

الارتفاع فوق الصغائر، وحرضه على استكمال إيمانه حتى إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له، ويربأ الإسلام بكرامة الإنسان من أن تخضع لسلطان غير سلطان الله خالقه ورازقه ويأنف أن يكون الإنسان عبداً لإنسان أو أن يرى نفسه أقل من سواه وبذلك ارتفع عن الخضوع لغير الله حيث لافرق بين الغنى والفقير والكبير والصغير والأسود والأبيض إلا بالتقوى.

وهذا الإيمان الذي يصنعه الإسلام في المسلم هو سر قوته فإذا نودى للقتال لايهاب الموت لأنه يعتقد في قرارة نفسه أنه يقاتل في سبيل الله وبأمر من الله، ولقد ناط الإسلام بكل إنسان تبعة أعماله وتصرفاته وأقام له حرية الاختيار وهي مناط المسئولية والجزاء الأخروي.

وقد حرم الإسلام الانتحار وجعله خروجاً على الدين وعلى حق الحياة.

١٤- اعترف الإسلام بميول الإنسان وعواطفه ودعاه إلي ممارستها في إطار من الضوابط التي تحفظ الشخصية البشرية وتحمى الإنسان من الجمود ومن التحلل معاً وقبل الإسلام كانت الدعوة إلى الحرمان ووقف تيار هذه الميول بالرياضات، فجاء الإسلام داعياً إلى الاعتراف بهذه الميول منظماً لها، وقد دعا الإسلام الإنسان إلي عدم استهلاك طاقاته الجسدية والمادية وأمره بالقصد لا الإسراف، والتوسط لا الانحراف، وفرق الإسلام بين حرية السلوك وتنظيم السلوك، وقرر أن مقومات الخلق والدين ليست قيوداً بقدر ما هي وسائل حماية ودعوة إلى التوسط بين الانحراف والجمود.

«ونجد الإسلام وحده من بين الأديان - على حد عبارة ليوبولد فايس - يبيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلي أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة، ذلك أنه ليس في الإسلام خطيئة أصلية موروثه وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية، إن كل مسلم رهين بما يكسب والمسلم ينظر إلى الحياة بهدوء واحترام ولكنه لايعبدها، إن النجاح المادي مرغوب فيه ولكنه ليس غاية في

ذاته بل يقود الإنسان نحو الشعور بالتبعة الأدبية في كل ما يعمل والغاية من جميع نشاطنا العقلي يجب أن يكون خلقياً».

١٥- للمعرفة جناحان روح وعقل أو وحي ونقل - الوحي أساس والعقل مصباح وهو في حدود مهمته وقدرته خادم للوحي والنقل اجتهاد وقياس، وأساس منهج المعرفة الإسلامي: المفهوم القرآني وليس المفهوم البشري الفلسفي.

وقد دعا الإسلام إلى المطالبة بالبرهان والدليل، ونهى عن تحكيم الهوى أو العصبية في الكشف عن الحقيقة، وفتح باب الاجتهاد في فهم الحقائق وقرر دستور العلم فدعا إلى عدم الانخداع بالأوهام والاغترار بالظن وسؤال أهل الذكر، ونهى عن القول بغير دليل وأمر بإعمال العقل بغير تقليد كما دعا إلى حرية النظر، وقرر أنه لاكتمان للعلم بل جعل فرضيته في إذاعته وبثه في الناس والعقاب لمن يكتمه، وليس في الإسلام سر ولا تناقض ولا ما يصدم العقل البشري أو الذوق، ولذلك يرفض الإسلام كل المفاهيم المستقاة من خارجه، ولا يقر فلسفات الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود أو غيرها من نظريات الفرس القديمة والهنود واليونان.

والإسلام يرفض تقديس الأبطال ويرفض إعلاء ما سوى الله، ولم يجعل الإسلام لطائفة من الناس حق السيطرة على الأفراد في الاعتقادات والمعاملات، بل قرر أن كل امرئ بما كسب رهين، وللإسلام ذاتيته الخاصة ومقاييسه الخاصة، فهو ليس خادماً للحضارات أو مبرراً لها، بل إن له مقوماته المستقلة التي لاتخضع وقد جاء حاكماً على الناس والمدنيات ولم يجئ محكوماً بها وهو ليس مطية ذلولاً للحضارة الحديثة.

وقد حرص الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه.

١٦- المال وسيلة لا غاية وطريق لا هدف، والمال مال الله وحده والإنسان مستخلف فيه للانتفاع به ولتوجيه العمل في سبيل مصلحة المجتمع وقد دعا الإسلام إلى الإنفاق، والمال تطهره الصدقة، والزكاة ركن وهو نظام التعاون والتكافل بين

الغنى والفقير.

ويرمي الإسلام إلي تداول المال بين الناس، ويحرم تداوله بين طائفة خاصة، وقد قيد الشرع حق التصرف بالإنفاق بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار، وينكر الإسلام احتكار الثروة في طبقة واحدة وينكر احتكار التجارة في الأسواق العامة، وينهى عن حصر المال في عدد من الأفراد ويمنع كنز الذهب والفضة ويحرم أكل أموال الناس بالباطل.

وقد فرق الإسلام بين البيع والربا وحرم الربا تحريماً تاماً وأحل البيع.

١٧- والحرب في الإسلام جهاد مقدس في سبيل الدين والحق ودعوة إلى احترام العهود والأصل في الحياة السلام ولا تستخدم القوة إلا لرفع ظلم أو التحرر من عدوان أو إصلاح معوج.

والسلم في الإسلام قاعدة والحرب ضرورة، والإسلام لايقاتل غير المسلمين لإنكار عقيدة، ولكن يقاتلهم إذا حاربوا دعوته وقاوموا فكرته وعمدوا إلى إيذاء أهله، ولا يمتنع عن إقامة العلاقة بينه وبينهم إذا هم لم يحاربوا الإسلام والمسلمين.

وقد حرم الإسلام في الحرب قتل الأطفال والشيوخ والنساك والرهبان إلا من اشترك في الحرب فعلاً وأضر بالمسلمين.

والجهاد ذروة سنام الإسلام وأعلى مقرراته وفرائضه.

١٨- نظر الإسلام إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة أخوة وتسامح ورفق وقد عاشت طوائف أصحاب الأديان في ظل مجتمعات المسلمين سعيدة راضية فقد حفظ لها الإسلام كنائسها وأديرتها وسمح لها بإقامة شعائرها ونظمها.

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن الأقليات المسيحية واليهودية لم تجد اضطهاداً في ظل حكم العرب والمسلمين بينما وجدت الأقليات المسلمة في أوربا ذلك والمسلمون يكرمون الرسل والأنبياء والكتب السابقة والمنزلة من عند الله تكريماً فائقاً.

ولم يكره الإسلام أحداً من أرباب الأديان على ترك دينه وأعلن حرية العقيدة

تامة ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ .

وجعل لمن يظهر الإسلام حق معاملة المسلم العريق فيه.

١٩- الإسلام دعوة إلى التقدم بالمفهوم الجامع والمانع: التقدم الجامع المانع هو: التقدم المادي والمعنوى على السواء دون تضحية القيم الروحية بالتقدم المادي الخالص، وتقدمية الإسلام ليست موافقته للنظريات الاجتماعية أو مخالفة لها، بل هي تتمثل في أنه يدفع الإنسان دوماً إلى الأمام، والتقدم المادي في الإسلام لابد أن يرتبط بالقيم الأساسية ويدور في فلك التقوى والعدل والإخاء.

ولا توجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلمين أو يمنع زيادة حقهم من الثروة والقوة والمعرفة.

ولم يجعل الإسلام سيادة الإنسان في سيادة هيكله المادي ونموه الحيوي بل في سيادة القيم الإنسانية، ويبسط الإسلام طريقاً وسطاً أمام معتنقيه لا تتجرد فيه الروح من البدن ولا يتجرد البدن من الروح، بل يكون جامعاً لهما على أساس التكامل، وهي ليست موازنة فحسب ولكنها مجاوبة أيضاً، ويرى الإسلام أن كل محاولة ترمى إلى الفصل بين المادي والروحي إنما هي محاولة لتدمير الإنسان نفسه، وقد كشف الإسلام عن أن انهيار الأمم مصدره شيوع الترف وتحلل روابط الأسرة وتحول الحياة من عمل وجهد إلى استمتاع وغفلة عن القوة وحماية الثغور والدفاع عن القيم.

قرر الإسلام أن العالم ليس سرمدياً ولا أزلياً بل هو حادث وكل شيء فيه له أصل مقرر، كما أعلن وجود العالم الآخر والبعث بعد الموت حيث الحساب والجزاء، وقد أقام الإسلام مفهوماً كاملاً لعالم الغيب ودعا الإنسان إلى الإيمان به وتخليص عقله من البحث عنه كما دعا إلى التفكير في خلق الله وحده لأن العقل الإنساني أعجز عن التفكير في ذات الله.

٢٠- الأخلاق في مفهوم الإسلام تقوم على قاعدة التقوى، والتقوى تعنى

الاتقاء والامتناع عن كل ما حرم الله، وهي تحمل معنى الكظم والمقاومة واجتناب كل ضار وفاسد ولقد كانت التقوى سر تقدم المسلمين ومصدر ازدهار حضارتهم، حتى إذا ما تراخى استمساكهم بها كان ذلك مصدر ضعفهم وهزيمتهم.

والتقوى دعوة عامة إلى العمل مع ضبط الموازين،وليست دعوة إلى العزلة والنسك والانفصال عن المجتمعات.

وما تزال عقيدة القضاء والقدر من أعظم معطيات الإسلام.

وقد كانت مصدر الانتصارات العظيمة التي حققها المسلمون على مدى تاريخهم ومفهومها الأصيل هو أن الله لم يجعل الإنسان مكرهاً على فعل شيء أو ترك شيء، ولكنه أراده عاقلاً ومنحه تمييزاً واختياراً وعقلاً مدركاً جعله به مكلفاً مختاراً بالتكاليف الشرعية، أي جعله حراً يفعل ما يختار، وهذه الحرية قد أرادها الله له ومنحها إياه فهي من إرادة الله فلا يأتي الإنسان شيئاً ولا يقرره إلا بعلم الله وتقديره وإن معنى تقدير الله للأشياء إنما هو جعلها بمقدار مخصوص ونظام محدود وهو ربط لأجزاء الكون ربطاً محكماً دقيقاً لا تفاوت فيه وبحيث لايصطدم فيه شيء بآخر، ولا يتناقض جرم مع غيره، وينطبق هذا مع قول الرسول الكريم: إنك لن تنال حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك».

٢١- قدم الإسلام إلى البشرية منهج حياة ونظام مجتمع قوامه عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد وتشريعاً كاملاً يرسم علاقات الأفراد مع بعضهم البعض وعلاقات الأفراد بالأسرة والمجتمع والمجتمعات الأخرى ومنهجاً أخلاقياً يعطى هذا العمل كله طابع الإرادة الحرة والخير والبر والرحمة، وقد امتد منهج الإسلام إلى جميع جوانب الاقتصاد والسياسة والاجتماع والقانون والتربية فوضع لها إطاراتها الواسعة وضوابطها المحكمة. هذا المنهج الرباني المصدر الإنساني الاتجاه جاء للبشرية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً فكان نوراً كاشفاً حررها من الوثنية والعبودية، وفتح لها طريق الحضارة والمدنية في مفهومها المعنوي والمادي، وسرعان ما انتشرت دعوته في الآفاق

فبلغت حدود الصين شرقاً وحدود فرنسا غرباً، بل لقد اقتحم الإسلام قارة أوربا من الغرب حتى بلغ نهر اللوار، واقتحمها من الشرق حتى وصل أسوار فينا، وإذا كانت أوربا لم تقبل به ديناً فقد قبلت بدقائقه ومعطياته في العلم التجريبي الذي وضع الإسلام منهجه، وفي العلوم الإنسانية كلها، غير أن الإسلام بعد أن أضاء البشرية أكثر من ألف عام مسته دورة الحضارات والأمم فضعف المسلمون عن حمل رسالته وتخلفوا عن حماية بلادهم فاقتحمهم العدو الذي كان يتربص بهم فأدال منهم وفرق جمعهم وبدل نظمهم، وفرض مناهجه في القانون والاقتصاد والتربية والاجتماع، وطرح في أفق مجتمعهم الجوانب المادية من حضارته والجوانب السلبية من فكره، وحاول إخراج المسلمين عن منهج حياتهم بإثارة الشبهات حول قيمهم وفكرهم، ولكن الإسلام الذي هو عطاء الله الأكبر للبشرية والمؤيد بنصر الله كان لابد أن يقاوم ويواجه الحملة التي ترمى إلى تزييفه بعد تدمير مجتمعه، ومن ثم كانت تلك اليقظة الكبرى التي عرفها المسلمون قبل وصول الحملة الفرنسية والإرساليات التبشيرية بأكثر من نصف قرن، على يد أبنائه الدعاة إلى التماس المنابع في قلب الجزيرة العربية وفي مصر الأزهر وهي دعوة التوحيد المجددة التي حمل لواءها المصلحون وقاوموا بها الغزو الاستعماري السياسي والعسكري ثم الفكري، ثم قاوموا بها قوى الغزو الفكري والثقافي والاجتماعي ودعوات التغريب والشعوبية والإلحاد والإباحية ممثلة في الصهيونية وما يتصل بها من مذاهب ودعوات في مجال الاقتصاد أو النفس أو الاجتماع أو الأخلاق، كان لها أثرها البعيد فيما أصيب به المسلمون من نكبة وهزيمة ونكسة جاءت نتيجة انصرافهم عن منهجهم الأصيل والتماسهم مناهج الأمم التي لاتنفعهم بل تضرهم والتي بلغت بهم مبلغ التخلف والإنحدار، ولقد عرف المسلمون الإسلام اليوم والتمسوه ووجدوا فيه حقيقة أنفسهم وحققوا به النصر.

٢٢- ومن ثم فقد كان ضرورياً أن يواجه المسلم كل ما يوجه إلى الإسلام من سهام الغزو في العقائد والأخلاق، هذه السهام التي ترمي إلى هدم الأجيال الشابة وتدميرها، ولقد عمل الإسلام دوماً على تحرر أتباعه من التأثير الأجنبي بكل

أنواعه ودعا إلى اليقظة إزاء الحرب النفسية والغزو الفكري وكل ما يهدف إلي تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم، ذلك أن الإسلام إنما يريدهم أمة متميزة لها خصائصها ولها رسالتها فلا يضيع أهله أبداً في غمار الأمم، ولا تحتويهم الدعوات ولا تصهرهم الحضارات، بل يكونون دائماً الدعاة إلى الله القائمين على كلمة التوحيد الخالص لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة، ولقد كان من أبرز خصائص الإسلام أنه حرر الإنسان من زيف الفكر البشري الوثني والمادي الذي تشكل على مدى العصور نتيجة استعلاء الدعوة العنصرية أو تحت تأثير أخطاء تفسير العلاقة بين الألوهية والبشرية، ومن ثم حفل الفكر البشري بالشبهات المثارة حول وحدة البشرية ووحدة الدين وثبات الأخلاق وحول الفصل بين الدين والأخلاق، وبين العبادة والشريعة، كما حفل بالدعوة إلى إنكار الغيب والجزاء ودعا إلى الدهرية وإسقاط التكليف وعبادة قوى الطبيعة، وتناثرت في جنباته نظريات الإشراق والحلول والاتحاد، وطرحت في جوانبه النظريات المادية المنكرة لوجود الخالق والنظريات الإباحية الداعية إلى التحرر من الضوابط والحدود، ولقد جاء القرآن الكريم كاشفاً لوجه الحق في هذه القضايا جميعاً ومحرراً لأهله منها، ومصححاً لكل المفاهيم الزائفة التي استشرت وتمثلت في فلسفات ومذاهب ودعوات سواء منها ما ذهب نحو العقلانية الخالصة أو الروحية الخالصة فقرر منهج الفطرة وجمع بين قوى الروح والمادة والعقل والقلب والنفس والحياة والموت والدنيا والآخرة في إطار التوحيد الخالص لله.

٢٣- واليوم تواجه البشرية حملات عنيفة متجددة يشنها هذا الفكر الوثني المادي ممثلاً في مذاهب جديدة وفلسفات براقة، تحاول أن تخطف الأبصار الكليلة وتؤثر في النفوس الساذجة، ولكن الإسلام الذي تكفل الله بحفظه وحمايته ما يزال قادراً على أن يرد هذه الموجة، وأن يواجه هذه الشبهات بكلمة الحق وبنور الإيمان، بأن يقدم الحقائق التي تحرر العقول وتشفى الصدور وما زال الإسلام هو الأمل المرجي للبشرية للخروج من أزمتها، فهو وحده الحقيقة الباقية التي تتطلع إليها نفوس

المصلحين وهو القادر على العطاء الصحيح للنفس البشرية والعقل البشري بما يحقق للإنسانية القدرة على التماس الصراط المستقيم بعد أن تفرقت بها السبل.

وبعد فنحن المسلمين لنا فكر متميز يستمد جذوره وأسسه من القرآن الكريم وتتمثل فيه ذاتية الإسلام الخاصة التي تختلف عن الأمم في أمور كثيرة في المقدرات والقيم والمقومات.

٢٤- ومن هنا كان من الضروري أن تجري مراجعة هذه المصطلحات المختلفة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي واستقصائها والكشف عن حقيقتها، وبيان موقف الإسلام منها، وذلك حتى لاتختلط في أذهان المثقفين أو يظن البعض أن هناك تشابهاً ما يمكن أن يسمح بإذابة الفوارق بين الفكر الإسلامي الرباني المصدر وبين الفكر البشري الذي يمثله اليوم الفكر الغربي بشقيه أو بأجزائه الثلاثة (الغربية والماركسية والصهيونية).

والحقيقة الأساسية التي يجب أن تكون نصب عين كل باحث مسلم أو مثقف مسلم إنما تتمثل في التفرقة الواضحة بين مفاهيم القيم في الإسلام وفي غيره من النظريات والدعوات، الأمر الذي يجعل كثيراً من المثقفين المسلمين يسألون في كل أمر: وما هو موقف الإسلام، ومن الحق أن تقول إن هناك قيماً إنسانية عامة تشترك فيها جميع الأمم والأديان ولكن هناك تحفظاً خطيراً يجب تقدير أثره ومفعوله هو أن المذهب المادي قد استعلى في السنوات الأخيرة، وسيطر على كل مفاهيم الفلسفة ومقارنات الأديان والعلوم الاجتماعية والإنسانية إلى أن احتوى الأدب والتاريخ والحضارة، وبذلك خفتت الأصوات التي عرفها الفكر البشري داعية إلى التماس طريق الله والدين، وهذا هو الخطر الذي يجب تقدير أثره فلقد كانت هناك في الغرب الفلسفة المثالية القريبة من روح الدين غير أنها قد انهزمت فعلاً تحت سيطرة الفكر الصهيوني التلمودي على الفكر الغربي واحتوائه تماماً.

ومن ثم وجب على الفكر الإسلامي أن يعيد النظر بالثقة والمراجعة لمختلف المصطلحات والمفاهيم المطروحة في مجال النفس والأخلاق والتربية من ناحية، وفي

قضايا الاجتماع والسياسة والاقتصاد من ناحية أخرى ومن المحتم أن لايستسلم الفكر الإسلامي لهذه الموجة المادية العاصفة وله سابقة في المقاومة والتحرر إزاء الموجه الهلينية والمجوسية القديمة.

(٢)
التوحيد

١- التوحيد أكبر عقائد الإسلام: وجود الله ووحدانيته وتفرده بالخلق والتدبير والتصرف وتنزيهه عن المماثلة، وإذا كان لكل دين صفة رئيسية يوصف بها فإن الإسلام يوصف بأنه دين التوحيد، وذات الله سبحانه وتعالى توصف ولا تدرك، وتتحقق الهداية إلى الله بمعرفة آثاره في الكون والخلق، ويقرر الإسلام الطريق الصحيح إلى معرفة الله في حديث الرسول: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا» وفي حديث آخر «فإنكم لن تقدروا قدره» وبذلك وضع المسلمون على الطريق الصحيح الذي يتقرر معه التعرف إلى الله سبحانه وتعالى وأوصد باب محاولة التعرف إلي الله عن طريق البحث المجرد: ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وبذلك تقرر أنه في سبيل التماس الحجة العقلية فإن الطريق هو النظر والتفكير في هذا الكون وهذا الخلق الدال على صانعه وخالقه.

والقرآن حينما أراد أن يرشد الإنسان إلى الله الخالق أرشده بآثاره الدالة على صفاته وكمال جلاله وجماله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقال لموسى: ﴿ لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ﴾ ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ والعجز عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله، وبذلك تسمو الألوهية الحقة عن الدخول في دائرة التفكير العقلي المحدود والذي لايستطيع أن يتخطى ما وراء الكون.

٢- ويعتقد المسلم بأن لهذا الكون إلهاً واحداً قديماً، وليس النهي عن التفكير في ذات الله حجراً على العقل ولا جموداً في البحث، ولكنه عصمة له من التردي في مهاوي الضلالة، وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ولا

تحتمل قوته مهما عظمت علاجها، فالمسلم الحق يحصر همته في إدراك عظمة ربه بالتفكير في مخلوقاته وقد تعرف الحق تبارك وتعالى إلى خلقه بأسمائه الحسنى التي يجد المسلم عن طريق معرفتها صفات الله وأفعاله.

٤- ويقرر الإسلام أنه لايصح أن يطلق على الله تبارك وتعالى اسماً أو وصفاً لم يرد به الشرع بقصد اتخاذه اسماً لله، فلا يصح أن نقول مهندس الكون الأعظم أو المدير العام لشئون الخلق وقد نهينا عن ما لم يرد في كتاب ولا سنة، وعلى المسلم أن يفرق بين المعنى الذي يقصد بالنسبة لله تبارك وتعالى وبين ما يقصد بالنسبة للبشر، فالمعنى الذي يقصد باللفظ في صفات الله تعالى يختلف اختلافاً كلياً عن المعنى الذي يقصد بهذا اللفظ عينه في صفات البشر فالله يجب أن يكون في عقيدة المسلم باقياً سميعاً بصيراً متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن صفات النقصان، وأنه خالق كل شيء وإليه المصير وإليه يخلص الإنسان العبادة والمراقبة موقناً أنه مطلع عليه وأنه وحده الضار النافع وبيده الخير وهو على كل شيء قدير فلا يُدَعى معه غيره ولا يسأل سواه حاجة من الحاجات التي لايقدر البشر على مثلها ولا يستعين إلا به ولا يخاف حق الخوف إلا منه ولا يسخطه ليرضى الناس ولا يبالي في سبيل رضاء الله بسخط أحد كما يعتقد المسلم أن الله خالق كل شيء، خالق الإنسان والملائكة والجن والحيوان وخالق الكواكب والأفلاك والسماء والأرض.

٣- ويعتقد المسلم بأن ذات الله تبارك وتعالى أكبر من أن تحيط به العقول البشرية أو تدركها الأفكار الإنسانية، لأنها مهما بلغت من العلم والإدراك محدودة القوة محصورة القدرة، إذ ليس للعقل البشري القدرة على إدراك حقائق الأشياء، ولكنه يعرف من خواصها ما يعود بالفائدة على المخلوقين. فأنت تقول: الله عالم والعلم صفة لله تعالى، وتقول: فلان عالم والعلم صفة لفلان من الناس، وفرق بين التركيبين فإن علم الله تبارك وتعالى علم لايتناهي كماله، ولا يعد علم المخلوقين شيئاً إلى جانبه، وكذلك الأمر بالنسبة لألفاظ الحياة والسمع والبصر والكلام والقدرة والإرادة ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لايشبه أحداً من خلقه.

٥- يؤمن المسلم بوحدانية الربوبية فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف سوى الله، كما يؤمن بوحدانية الألوهية فلا معبود ولا مسئول ولا مستعان سوى الله، ولا ريب أن توحيد الألوهية هو أخطر ما دعا إليه الإسلام ، وهو عمل الإنسان كالعبادة ويدخل فيه الاستعانة والاستغاثة، وقد كان توحيد الربوبية معروفاً عند العرب قبل الإسلام كالإيمان بالله خالقاً ورازقاً وكان مفرق الطريق بين الشرك والتوحيد هو (توحيد الألوهية) الذي لم يقر به المشركون في الجاهلية حين أخذوا يوجهون عباداتهم إلى الإله ثم العلم، وقرر القرآن في وضوح تام أن الإسلام ابتدأ بهداية البشر وأن دعوة التوحيد هي كلمته الأولى، ثم حدثت الانحرافات بين فترة وأخرى فكانت تأتي الأديان بالتوحيد، ثم تظهر دعوات الوثنية وعبادة الأصنام بمرور الزمن، وقد وجد التوحيد والوثنية في كل عصر ولكن الوثنية لم تسبق التوحيد.

لقد بدأت البشرية موحدة ثم انتقلت إلي التعدد والشرك وكانت رسالات السماء تردها مرة بعد أخرى إلى أن جاء الإسلام دعوة عالمية وخاتماً للأديان.

وتقوم الأدلة من الفطرة ومن العقل ومن التاريخ على بطلان هذه النظرة، فإن آدم أبا البشر وأول إنسان كان على علم ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ وكان يعرف التوحيد والإله الواحد ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت.

٧- نزه الإسلام الحق تبارك وتعالى عن المماثلة للحوادث، وندد بالذين عبدوا الأصنام فلم ينفعهم الإيمان بتوحيد الربوبية وبقى كثير منهم على شركه ومات عليه.

٦- ويقوم الإسلام على التوحيد وينكر التعدد في كل ما صوره كل من (الثنائية والتثليث وعبادة الشمس والقمر) ومفهوم التوحيد هو: أن يتحرر الإنسان من عبادة كل ما سوى الله فلا يعبد إلا إياه ولا يخضع لغيره ولا يؤمن لسطان إلا سلطانه، فالأصل الأول للوحدانية هو التحرر من عبودية غير الله والتحرر من كل سلطان غير سلطان الله، هذا المفهوم هو دعوة الله تبارك وتعالى إلى البشر جميعاً منذ خلق آدم وهي دعوة كل رسول أرسله الله تبارك وتعالى من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ وعليهم جميعاً. ولا يعترف الإسلام بأية نظرية عن تطور الأديان

وينكر إنكاراً باتاً النظرية القائلة بأن البشرية مرت بثلاثة بنود (الخرافة. التدوين. العلم)، كما ينكر النظرية التي تقول: إن فكرة الألوهية بدأت بعبادة الحجر والحيوان والإنسان لخلقه أو الإتحاد أو الحلول، وفكرة الحلول تنقض مفهوم التوحيد من الأساس وتعارض وحدة الله وتنزيهه عن الخلق، وهي لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله جل شأنه موجوداً متنقلاً، وذلك يتنافى مع بعض صفاته تعالى كالبقاء والقيام بالنفس، ولا ريب أن القول بوحدة الوجود هو نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها، ويرى بعض العلماء أن وحدة الوجود هو عنوان آخر للإلحاد في وجود الله وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط ما دام لايوجد شيء وراء هذا العالم فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بإنكاره، والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم ينبعث من تصور أن العالم أزلي أبدي وأن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى، وقد تكون أجساد حيوانات، ولا ريب أن اتحاد المخلوق بالخالق، أو حلول الخالق في المخلوق، أو تجسد الخالق هي من المعتقدات التي تناقض مبدأ التوحيد، لأن الله هو الموجود الحقيقي، وأن الإنسان ما هو إلا ظاهرة تفنى، فالكائنات لاتوجد لذاتها بل تستمد وجودها من الله وفكرة الحلول تناقض مفهوم الإسلام في وحدة الله وتنزيهه عن خلقه، فالله سبحانه وتعالى مستقل عن الكون، فهو خالق والكون مخلوق له وهو واجب الوجود الذي لايسبقه شيء وهو على وجود كل شيئ قدير ما جد سرمد لايحده زمان ولا مكان وهو الله تعالى. وكل شيء غير الله ممكن الوجود، مخلوق، صادر عن فاعل، لايقوم بنفسه، ولا يستقل بذاته.

٧- أسقط الإسلام النظرة التي كانت موجودة حول الإله المخيف الجبار، رب الجيوش، وأقام المفهوم الحقيقي لله سبحانه وتعالى: الرحمن الرحيم الذي يقبل التوبة ويدعو إلى المغفرة ولا يجعل التكليف إلا على قدر الاستطاعة فلا يكلف نفساً إلا وسعها.

٨- يقرر الإسلام أن الله خلق هذا العالم من العدم وأن الله يعمل في العالم دائماً فكل ما حدث وكل ما يتجدد حدوثه هو من عمله المستمر، ﴿ وعنده مفاتح

الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ، وهو سبحانه يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة وأنه لو تخلى عنه لتلاشي وانتهى. ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ وقد أرشدنا الحق تبارك وتعالى إلى أن للكون نواميس وضعها الله سبحانه وتعالى وسنناً يسير عليها وتسير عليها الأمم والحضارات، وهو واضع هذه النواميس والسنن، وهو وحده تبارك وتعالى الذي يملك حق خرق هذه النواميس، وهو الذي يحيط بالعوامل التي تخفى علينا، والله سبحانه وتعالى هو مصدر الحياة وهو واهبها لكل حي، وحياة الله تبارك وتعالى منزهة عن الزوج والولد، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن فالله هو الأول أي قبل كل شيء بلا بداية والأخر أي بعد كل شيء بلا نهاية والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء.

١٠- عارض الإسلام الوثنية والإلحاد والإشراك بالله، فالوثنية عرض طارئ وعقيدة التوحيد أصل ثابت فهي أقدم ديانة ظهرت في البشر، والإلحاد انحراف في مفهوم حقيقة التوحيد - والإشراك بالله هو عبادة الأصنام والقوى الطبيعية والأجرام السماوية، وهي جميعها دعوات تهدف إلى تقويض دعائم الاعتقاد بالله الواحد وهي قديمة قدم البشرية نفسها، تستهدف خضوع البشرية لمن يجوز عليه التغير والفناء، وتهدف الفلسفات المادية في العصر الحديث إلى هذا الغرض بدعواتها إلى ألوهية الإنسان أو ألوهية المادة أو اتخاذ الغريزة أو لقمة العيش محوراً لتفسير الوجود. والدعوة الجديدة أي عبادة الإنسان أو عبادة الأبطال، أو عبادة المال إنما هي استمرار للدعوات القديمة إلى عبادة الأوثان والأشجار والأجرام، وهذه كلها نتاج الوثنية التي ما زالت وستظل تصارع التوحيد على مر الزمان وكر الدهور، ولقد كان الناس على التوحيد ثم اختلفوا حين قامت الوثنية وصدق الله العظيم ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً

بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ .

١١- أعلن القرآن الكريم فكرة «الخلق»: أن الله خالق كل شيء، وأنه خلق ذلك كله من لا شيء وأوجد العالم من العدم، أنكر القرآن فكرة (قدم المادة) وأعلن بدء الزمان كما أعلن نهايته، أنكر القرآن سرمدية المادة وعدم فنائها، أعلن القرآن حدوث المادة وحدوث العالم، فقد خلق الله الأرض وموج البحر وأقام الجبال وأعد موطن الإنسان المستخلف على الأرض وكشف بذلك على قدرته سبحانه التي لاتحد، رسم القرآن للمسلمين «منهجاً كاملاً عن ما وراء الغيب» وطلب إليهم ألا يتجاوزوا حقائق، هذه الحقائق القادرة على أن تمنح الإنسان الأمن وهي حقائق توقيفية لا مجال للعقل أن يرتادها، أعلن القرآن وحدة الله وعلويته مقابلاً لكل تفكير يوناني عن فكرة الله وما يتصل بها من أخطاء، صحح القرآن كل الفكر الوثني والبشري القديم فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالله وأنه مربوب له، وأن الله مع الناس أينما كانوا وأنه هو الذي يرحمهم ويهديهم، ورد القرآن على كل الأخطاء والتفاسير الضالة التي وقعت فيها بعض الديانات والفلسفات سواء منها ما كان قبل الإسلام وما جاء بعده.

١٢- في معرفة الله سبحانه وتعالى أصول عامة منها: أنه جل شأنه:

(واجب الوجود): أي أنه موجود من غير موجد فهو الذي أوجد الأكوان ولم يوجده أحد، «أزلي» أي أنه جل شأنه كان موجوداً قبل أن توجد الخليقة،ويبقى إلى الأبد بعد أن تفنى الخليقة ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

(أنه جل شأنه غير محدود) أي لايحده زمان ولا مكان وأنه جل شأنه لايحل في شيء ولا يحل فيه شيء، ولا يحويه مكان، ولا يخلو منه مكان ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ .

(وهو سبحانه واحد أحد لاشريك له ولا مثيل) ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ﴿ لو كان فيهما (أي السماء والأرض) آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

(وهو سبحانه لاشبيه له): أي ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض كما أنه جل شأنه ليس مركباً ولا يتجزأ ولا يتخذ شكلاً قابلاً للتصور «كل ما خطر ببالك فهو منزه عن ذلك».

(وهو سبحانه حي قيوم. فعال لما يريد. على كل شيء قدير) لايعتريه تغير أو مرض أو نوم أو موت.

وللخالق جل وعلا أسماء وصفات تليق بجلاله، علينا أن نعرفها ونحفظها ونستعملها وهي أسماء الله الحسنى التي أمر الله سبحانه بأن يدعى بها ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ وقول رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة وفي رواية «من أحصاها» وقد وردت الأحاديث بغيرها من الأسماء مثل (الحنان - المنان، البديع، المغيث، الكفيل، ذو الطول، ذو المعارج، ذو الفضل، الخلاق) وقد جمع أبو بكر بن العربي من أسماء الله تعالى ألف اسم.

وفي هذه الأسماء علم واحد وضع للذات القدسية، وهو لفظ الجلالة: «الله» وكلها ملاحظ فيها معنى الصفات، ولكل اسم من أسماء الله تعالى خواص وأسرار تتعلق به جل شأنه.

١٣- علمنا القرآن كيف نفكر في خلق الله تبارك وتعالى تعرفاً إلى ذاته جل شأنه، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من ذكر آلاء الله ونعمه ومظاهر قدرته وحكمته وحث الناس على تجديد النظر في ذلك ودوام التفكير فيه:

«وأنت إذا نظرت إلى هذا الكون وما فيه من بدائع الحكم وغرائب الخلق ودقيق الصنع، السماء الصافية بكواكبها وأفلاكها وشموسها وأقمارها ومداراتها وأفلاكها. الأرض بنباتها وخيراتها، ومعادنها وكنوزها وعناصرها ومواردها، عالم الحيوان ما فيه من غريب الهداية والإلهام. تركيب الإنسان وما احتواه من أجهزة كثيرة، عالم البحار وما فيه من غرائب وعجائب، القوى الكونية وما فيها من حكم وأسرار من كهرباء ومغنطيس وأثير وراديوم، ولو نظرت إلى هذا لخرجت من هذا كله من غير

أن يؤيده دليل أو برهان أو وحي وقرآن بهذه العقيدة السهلة: أن لهذا الكون خالقاً موجداً «وأن هذا الصانع لابد أن يكون عظيماً فوق ما يتصور العقل البشري الضعيف من العظمة، وقادراً فوق ما يفهم الإنسان من معاني القدرة، وحياً بأكمل معاني الحياة، وأنه مستغن عن كل هذه المخلوقات لأنه كان قبل أن تكون، وعليماً بأوسع حدود العلم وأنه فوق نواميس هذا الكون لأنه واضعها وأنه قبل هذه الموجودات لأنه خالقها، وبعدها لأنه الذي سيحكم عليها بالعدم.

صانع هذا الكون ومدبره متصف بكل صفات الكمال فوق ما يتصورها العقل البشري الصغير ومنزه عن كل صفات النقص».

١٤- ومن الأدلة العقلية والمنطقية على إثبات صفات الله تعالى:

الدليل الأول: هذا الوجود الذي يدل بعظمته وأحكامه على وجود خالقه وعظمته وكماله.

الدليل الثاني: إن فاقد الشيء لايعطيه فإذا لم يكن موجد هذا الكون متصفاً بصفات الكمال فكيف تكون آثار هذه الصفات في مخلوقاته.

الدليل الثالث: هذا الخالق واحد لا يتعدد، وأن التعدد مدعاة للفساد والخلاف والعلو ولا سيما وأن شأن الألوهية الكبرياء والعظمة.

ولا ريب أن أمر التوحيد مركوز في فطر النفوس الصافية، مستقر في أعماق القلوب السليمة ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

١٥- دعا الإسلام إلى وحدانية صريحة منزهة لاشائبة فيها، ولم يلجأ في إثبات الدعوة إلى خوارق العادات أو القوارع التي تخرس الألسنة، وإنما احتكم إلى الفطرة والعقل، والتوحيد في حد ذاته اعتراف بعبودية المخلوقين لله والوهية يتفرد الله سبحانه بخصائصها ويتجرد العبيد من هذه الخصائص، وهي أيضاً إنكار للوساطة بين الله والعبد وإنكار عبادة الإنسان أو البطولة، وبهذا يكون التوحيد هو مصدر المساواة بين الناس والاعتراف بأنهم من درجة واحدة، ولقد فتح التوحيد بهذا كله

الآفاق أمام حرية الفكر والتخلص من الصورة والصنم والأسطورة وتأليه الملوك والقياصرة، والتوحيد اعتراف بأن الله هو الحاكم والمشرع والمنظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون والأحياء والناس، وقد اتسم الإسلام بأنه الدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة الوحدانية من شوائب الشرك، فالإله في عرف اليهود إله قومي لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين وفي عرف الآخرين متعدد، والتوحيد بمفهوم الإسلام يطهر العقل ويحرر النفس من جميع الأوهام فهو بقيامه على أساس أن الله وحده خالق الكون لايترك مجالاً للاعتقاد بقدرة أي كائن من الكائنات المخلوقة على التأثير في الخليقة، كما لايسمح بالقول بأن الله جل شأنه قد ظهر في صورة الإنسان أو الحيوان، أو أنه قاسى الآلام في وقت من الأوقات في سبيل المخلوقات، وفي هذا يقول جوستاف لوبون: إنه يمكن للإسلام أن يدعى شرف كونه أول من أدخل التوحيد إلى العالم. ويقول بارتلمي سانهلير: إن التوحيد في الإسلام قد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة وأنه خلص الفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى، واضطر العالم إلى أن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه - ويقول العلامة مسمر: إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم وأن في بقاء الإسلام أمل العالم كله وشعيرة الحج تعد عاملاً قوياً في تطبيق مبدأ توحيد العالم.

١٦- إن وحدة الله في الإسلام دليل على الرقي والتقدم من الطفولة البشرية إلى الرشد الإنساني، وطريق إلي وحدة الجماعة الإنسانية لمحو الفوارق خاصة فيما يتصل بالجنس أو القبيلة، وقد اختلف مفهوم الإسلام وارتفع واتسع عن كل المفاهيم التي طرحته الفلسفات والنحل عن الله سبحانه وتعالى، فالفلسفة اليونانية القاصرة لم تثبت لله إلا الخلق الأول ولم تعرف عنه جل شأنه الاختيار والعلم والإرادة، وقد نفت عقيدة التوحيد الإسلامية القول بأن الله والعلم حقيقة واحدة، أو أن الله جل شأنه حال في مخلوقاته، فقد جاء القرآن بالحقيقة الكبرى الناصعة التي تصك وجوه

الوثنيين والمثنية والمثلثة والملاحدة والمشركين والتي قررت أن الإله واحد ونفت كل أنواع التعدد وأعلنت أنه لايشبهه شيء من خلقه وأنه متصف بالكمالات كلها منزه عن النقائص كلها كما قررت أنه غير مستطاع للعقل البشري أن يدرك كنه ذاته وحقيقة صفاته.

١٧- «لا إله إلا الله» أداة التوحيد وهي مسقطة لجميع الآلهة المدعاة هادمة لمختلف أنواع العبادة، ومعنى (لا إله) هو نفي لكل معبود في الوجود وإبطال لعبادته ومعنى (إلا الله) إثبات لعبادة المعبود بحق وحده وهو الله، وهي تأكيد لتوحيد الله بربوبيته (أي أفعاله) وبألوهويته أي بعبادته، وهي تختلف عن قولهم لا خالق إلا الله أو ما هو في معنى ذلك من أفعال الربوبية كالرزق وغيره وإنما تعنى إسلام الوجه لله، والتوحيد بمعناه ينفى تعدد الآلهة والشرك والتجسيم ويقرر أن الله فاعل مختار وأنه مريد وأن كل شيء يقع في الوجود يكون بقدرته وإرادته لا يصدر عنه صدور المعلول عن علته بل يصدر عنه صدور الفعل عن المختار المريد الذي أراد الفعل وربما يريد ضده، وفي ذلك تكذيب ودحض لما تقوله الفلسفات من أن الكون إنما نشأ عن الخلق الأول نشوء المعلول عن علته والمسبب عن سببه أي ليس للخالق جل شأنه إرادة مختارة فعالة. فالله تبارك وتعالى قادر على كل شيئ بالاختراع من العدم وعلمه واحد يعلم به الموجودات بتفاصيلها من غير حس ولا بديهة ولا استدلال وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات ولا يحدث شيء في العالم إلا بإرادته وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن والله حي بلا روح ولا اغتذاء وكلام الله صفة أزلية وهو (كلام الله) غيرُ مخلوق ولا محدث ولا حادث وأسماء الله تسعة وتسعون وهي ثلاثة أقسام: صفات أزلية نحو (واحد، أول) وصفات أزلية قائمه بذاته نحو (حي، قادر) وصفات مشتقة من أفعاله نحو (خالق، رازق) والله تبارك وتعالي يراه المؤمنون في الآخرة.

وتنتفى عن الحق تبارك وتعالى صفات المشابهة والنقص والتجسيم، لأن هذه صفات المادة والخالق ليس مادة فهو بعيد عن وصف التحول. وكذلك الأبوة والبنوة

بعيدان عن صفاته لأنهما تجزئة وانفصال والخالق لايتجزأ.

والإسلام يأمرنا بعدم التعرض للماهية في الذات والصفات من حيث هما، ويدعونا إلى الاحتراس الدقيق بتقرير المخالفة التامة بين ماهية ذات الإله وصفاته وماهية المخلوقات وصفاتهم، والوصول إلي معرفة صفات الخالق وإدراك كمالات الألوهية ومميزاتها وأثارها إنما يكون عن طريق النظر في الكون نظراً صحيحاً وتحرير العقول والأفكار من الموروثات والأهواء والأغراض حتى تصل إلى الحكم الصائب.

١٨- إن عقيدة التوحيد تعطى المسلم عزة وقوة وإيماناً راسخاً بأنه ليس سوى الله يقصد أو يطلب منه، وأن الله سبحانه وحده هو المقصود والمطلوب وبذلك لايعبد المسلم الأفراد ولا الأبطال ولا الأولياء، ولا يقدر مكانة الناس إلا بأعمالهم ويفتح التوحيد الباب على مصراعيه بين الإنسان والله بغير واسطة أو وصاية. فالله خالق كل شيء وإليه يرد كل أمر ولا يقع أمر في ملكه إلا بإذنه. والإيمان بالله مرتبط بالإيمان بالبعث والجزاء والحساب وأن كل نفس هي رهينة بما كسبت وهذا هو أكبر صور الحرية الإنسانية: تحرر الإنسان من سيطرة الوثنيات والمادة.

فالإسلام بمفهوم التوحيد الخالص هو الذي علم البشرية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين، ولقد آمن المسلمون بتوحيد العبودية وذلك بتوجيه العبادة لله وحده فلا توجه إلى سواه، كما آمنوا بتوحيد الربوبية إيماناً بأن الله رب العالمين وخالق الخلق ومدبر الأمر، وهو الذي وضع الدين والشرع،فلا يقبل من أحد قول أو تحريم أو تحليل: ذلك أن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله.

١٩- والتوحيد هو المحرك الأول للفكر الإسلامي في ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو تقرير وحدة العقل ووحدة النفس ووحدة البشرية ووحدة المعرفة الحقيقة، وهو بذلك يمثل المنطلق الحقيقي للنهوض والبناء والتقدم في هذا العصر وفي كل عصر، وما نهض المسلمون وما كونوا حضارتهم ومجدهم إلا بمفهوم التوحيد الذي لفتهم إلى فهم الكون ومعرفة سنن الله فيه فاستطاعوا أن ينشئوا المذهب التجريبي الذي نقل البشرية إلي عصر العلوم التجريبية ولا ريب أن منطلق الفهم الحقيقي للعلوم هو

معرفة القوة القادرة الصانعة وهي الله تبارك وتعالى ورد كل شيء إليها أصلاً. هذه القوة التي صنعت هذا الكون من العدم وما تزال تديره لحظة بعد أخرى، والتي لايمكن أن توصف بأنها قوة عمياء لاعلم لها ولا مشيئة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. فالقول بالصدفة أو بالقوة العمياء أو بغير ذلك هو انحراف في الفهم، وفساد في التصور،ومصدر ذلك في الأغلب هو محاولة التعرف إلى الله تعالى عن طريق العقل وهو قاصر،والأسلوب الصحيح لمعرفة الله تبارك وتعالى هو ما دعانا إليه وصوره رسول الإسلام في قوله: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فإنكم لاتقدروه».

ومعرفة الله فطرة، والنظر في الكون طريق، أما الأجهزة البشرية من عقل وبصر فإنها تعجز أن تحيط بالحقيقة الكبرى (أمن يملك السمع والأبصار) ﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ والعقل البشري المحدود بالزمان والمكان لايستطيع أن يصل وحده إلى خالق الزمان وخالق المكان والموجود قبل الزمان والمكان،ولكنه يستطيع أن يصل عن طريق الوحي والذكر والنظر في الكون. ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ .

٢٠- إذا كان التوحيد هو سمة الأديان السماوية جميعاً فإن الوثنية هي سمة الفكر البشري الذي صنعته محاولات العقل حين يستقل بنفسه بعيداً عن دائرة الوحي وحين تسيطر الرغبة والهوى، وتحاول أن تخلق أسلوباً متحرراً من الفكر الرباني، أو تسلك طريقاً معارضاً للصراط المستقيم الذي هدى الحق تبارك وتعالى البشرية إليه، ولقد كانت الوثنية ذائعة قبل بزوغ الإسلام بصور شتى ممثلة في الانحرفات في تفسير النصوص، أو مندفعة وراء المادية القائمة على الحس وحده، ولقد كانت هناك الفلسفة الهلينية بمفاهيمها الوثنية العريقة التي زحزحتها المسيحية وأدالت منها كثيراً، وكانت هناك المجوسية بانحرافاتها وتعددها، وفي جزيرة العرب كانت هناك وثنية ساذجة لم تكن عميقة الجذور لأنها جاءت بعد أن عرفت التوحيد الخالص في دين إبراهيم ودعوة إسماعيل، وكانت هناك عبادة الشمس والقمر

والنجوم، وعبادة الآلهة المتعددة وعبادة القيصر والامبراطور وهي ما يطلق عليها عبادة المحسوس المشخص، وقد عرض القرآن لكل هذه الدعوات وكشف عن زيفها وكان التوحيد هو الضوء الكاشف الذي أنقذ البشرية من رق العبودية لكل أحد من البشر مهما سما مكانه وإسلام الوجه لله وحده، وهذا ما عبر عنه الباحثون الغربيون بأنه إطلاق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة، وفي هذا يقول العلامة مسمر الباحث الفرنسي: إن التوحيد الذي هو أساس الدين الإسلامي كان السبب الأول في نجاح دعوة محمد، إن إعلان محمد هذا التوحيد في عصر ملت فيه الأمم لخرافات اللاهوت كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقول، حتى أنه ماكاد يفوه بالدعوة إلى توحيد الله حتى استثار بدعوته العالم كله، وقال آخر: إن عقيدة التوحيد الخالص التي جاء بها الإسلام هي أصح العقائد التي عرفها البشر وهي كاملة في توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وإعلان صفات الكمال للباري جل جلاله.

٢١- كانت الوثنية العربية قبل الإسلام تتخذ من الأصنام وسائط وشفاعات تقربهم إلى الله، وكانت عبادتهم ضرباً من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة في الهياكل، وليس على ما يرى في الوثنية اليونانية وغيرها من أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم، وقد صور القرآن الوثنية العربية في قوله تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وقد بدأت الوثنية ابتعاداً عن دين التوحيد الأول: الحنيفية دين إبراهيم، بأنه كان إذا خرج خارج من مكة ظاعناً حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له وتكريماً وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به طوافهم بالكعبة، وبمرور الزمن نسي الناس العلة في تقديس الحجارة على أنها أثر من آثار الكعبة وذكرى لها، فانتقل التقديس للحجر نفسه وتطور الحجر إلى صنم. ومع ذلك فقد ظلت فئة تتطلع إلي دين التوحيد: دين إبراهيم وعرفت هذه الفئة بالأحناف ودينهم بالحنيفية، وكانوا قد اعتزلوا الأوثان وعافوا الميتة والدم والذبائح التي تذبح على

النصب لغير الله، وعرف من الأحناف زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل، ولم تكن الحنيفية امتداداً أو تقليداً لليهودية أو النصرانية اللتين كانتا قد دخلتا إلي جزيرة العرب وقد عرف عنها كثير من هؤلاء، والوثنية لاتعد ديناً كالأديان وإنما هي انحراف عن الدين الحق، وقد عرفت الجزيرة العربية إلى جانب ذلك المجوسية وهم ثنوية يؤمنون بإلهين، وظهرت أيضاً في الجزيرة عبادة الكواكب عند بعض القبائل من آثار الصابئة وبقايا الكلدانيين، وعبد فريق من العرب نجم الشعري، وعبد بعض أهل اليمن الشمس، وكانت هناك جماعة من الدهريين الذين ينكرون الخالق والبعث والجزاء، وهكذا عرفت بالجزيرة العربية قبل الإسلام مختلف الفرق والأديان والنحل التي يمثلها الفكر البشري وقد عرض القرآن لهذه الفرق جميعاً وكشف وجه الحق فيها وأبان عن أن التوحيد هو دين الله الخالص الأوحد الذي هو أساس دعوة جميع الأنبياء والأديان التي أنزلها الله سبحانه إلى العالمين.

(٣)

الإيمــــان

تقوم العقيدة الإسلامية على التوحيد وهو الإيمان بالله الواحد الأحد المنفرد بالخلق والتدبير. ويتبع الإيمان بالله الإيمان برسل الله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والإيمان بالبعث والجزاء والإيمان بالغيب والإيمان بالقضاء والقدر وبدون هذه لايتم إيمان المسلم.

والإسلام لغة: هو الطاعة والانقياد وتطلق في الشرع على الانقياد إلى الأعمال الظاهرة والإسلام شرعاً هو الأعمال الظاهرة من التلفظ بكلمتي الشهادة وأداء الواجبات والانتهاء عن المنهيات - والإيمان: اعتقاد بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان والإسلام يغاير الإيمان ولا ينفك عنه.

وبين الإسلام والإيمان تلازم في المفهوم فلا يوجد شرعاً إيمان بلا إسلام ولا عكسه، وبينهما ترادف لأن الإسلام هو الخضوع والانقياد للأحكام بمعنى قبولها والإذعان بها وذلك حقيقة التصديق.

والإيمان عبارة عن تصديق قلبي والإسلام عبارة عن طاعة وانقياد ظاهر ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ .

وفي قول الإمام أحمد: الإسلام علانية والإيمان في القلب، وقد فسر الإيمان بالأعمال، وقيل: أي الإسلام أفضل قال: الإيمان، وقيل: من ضيع الأعمال فهو مؤمن عاص ناقص الإيمان لايكفر.

٢- الإيمان: عقيدة وعمل: دعامته التصديق بالقلب والعمل بالجوارح، وهو شهادة باللسان وعمل بالأركان ولا يتحقق الإيمان إلا بالسلوك والعمل، ويكون ارتباط الإيمان وتمامه بالأعمال.

وشرط الإيمان تقدير المسئولية الفردية التي هي مناط الحساب والجزاء، وليس

الإيمان فعل العبادات فحسب بل هو سلوك كامل في كل صغيرة وكبيرة من حياة الإنسان يرتضي بها الله ويبتعد بها عن محرماته.

والإيمان في اللغة: التصديق، آمن بالشيء صدق وضده التكذيب، والإيمان في الشرع إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي، واعتقاده وتصديقه، فمن اعتقد وشهد وعمل فهو مؤمن.

والإيمان هو الثقة المطلقة بشخص أو بقول مضمون الصدق، وهو الإيمان بالله والنبي والقرآن. وقد ارتبط الإيمان بفكرة الأمن: ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن ﴾ ، ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ فالإيمان تأمين الإنسان من الجهل بمصدر وجوده ومن الحرمان من رحمته، والإيمان لايتجزأ فهو الإيمان بالحق كله: الإيمان بوجود الله خالق هذا العالم وبكل ماله من صفات الكمال (من الوحدانية ومخالفة الحوادث والخلق والتدبير والرحمة) والإيمان بوجود عالم لاتدركه حواسنا المادية هو عالم الغيب والإيمان بالرسالات الإلهية والرسل الذين حملوها وهو الإيمان بوجود الرسالة الإلهية وبجميع الرسل والأنبياء وجميع ما أنزل إليهم. والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء وبالتدبير الإلهي الشامل المحيط بكل شيء.

ومن شأن هذا الإيمان أن تتحقق معه محبة الله والخشوع لجلاله والعمل بحسب أوامره ومراقبته.

والإيمان هو نقطة المبدأ التي تقود المسلم إلى حياة إذعان لله، وكلما كان إيمان المسلم كاملاً كلما استطاع أن يعيش الحياة المؤمنة الكاملة.

٣- من شرط الإيمان: الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالبشرية أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين ومبلغين عنه سبحانه حقائق دينه القديم: «الإسلام» المتجدد على لسان كل نبي وهؤلاء الرسل أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ .

وهؤلاء الرسل اختارهم الحق تبارك وتعالى وكلفهم، وعصمهم من الكبائر ونزههم

عن النقائص، ثم بعث إليهم جبريل (وهو واحد من الملائكة) فأبلغهم رسالة الله وعلمهم ما يسعدهم ويسعد أممهم وكلفهم إبلاغ هذه الرسالة إلي أقوامهم. وكذلك أنزل الحق تبارك وتعالى على هؤلاء الرسل كتباً وقد اقتضت حكمته أن يرسل لكل أمة رسولاً، وأن يكون التكامل في الرسالة تدريجياً حتى إذا بلغت البشرية رشدها أرسل إليها الرسالة الخاتمة والكتاب الخاتم والنبي الخاتم، والرسالات كلها واحدة في دعوة التوحيد وإن اختلفت في الشرائع تبعاً للأزمنة والأمم، وفي كل الرسالات تذكير بالرسالة الخاتمة وتبشير بالنبي محمد ﷺ حتى إذا بعث في أمة من الأمم كان عليهم أن يتبعوه ويؤمنوا به.

ولذلك فإن رسالة الرسل كاملة، فعلى المسلم الإيمان بهم جميعاً وكذلك فإن كتب الله متكاملة فعلي المسلم الإيمان بها جميعاً.

وعلى المسلم أن يعتقد بأن الله أنزل على أربعة من رسله كتباً:

التوراة على موسى والزبور على داود والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد، وقد وكل إلى كل قوم حفظ كتابهم فبدلوه وحرفوه وتعهد الحق تبارك وتعالى بحفظ القرآن ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقد جعله الحق تبارك وتعالى مهيمناً علي الكتب جميعاً.

ومن شرط الإيمان: الإيمان بالملائكة والجن وعالم الغيب كله كما صوره القرآن الكريم.

٤- والإيمان بالغيب: عنصر أصيل من عناصر الإيمان ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ وبالإيمان بالغيب تتكامل المعرفة عند المسلم ويمتلك المفهوم الجامع فلا تكون معرفته قاصرة على عالم الشهادة وحده بل متكاملة مع عالم الغيب الذي أعلمنا الله تبارك وتعالى به، وكشف لنا عنه، لأنه مما يقصر العقل أو الحس أو النظر النفاذ إليه وبدونه لاتكمل المعرفة الصحيحة، فالإنسان قد جاء من عالم الغيب وسيعود إليه وعالم الشهادة ليس إلا مرحلة من حياته، وقد أطلعنا الحق تبارك وتعالى على

مسار الإنسان من حياته في دنياه إلى حياته في الآخرة، ولقد عجز العلم ولم يزل عاجزاً عن دخول مجال الغيبيات بوسائله التجريبية ولم يزل قاصراً علي دراسة الظواهر وكشف الخصائص للعالم المادي وحده، وما زال العلم عاجزاً عن كشف سر الروح وسر الموت وسر الحياة ومهمة الإنسان فيها، وهذا هو الجانب الذي كشفه الدين للبشرية وقدمه لنا الإسلام وصوره القرآن، ومن هنا فقد كان من شرط استيفاء الإيمان : الإيمان بالغيب.

الإيمان بالغيب هو القوة الدافعة للعمل الصالح والتعرف إلي الوجهة الصحيحة والمسلم لايخلط بين الغيب وبين الأسطورة كما تفعل العقلية الوثنية والمادية، وإذا كانت الأسطورة هي محاولة عقلية لملء الفراغ فيما لايوجد نص حقيقي عنه، فما حاجة المسلم إليها وعنده النص الحقيقي الثابت وهو القرآن، الذي ملأ الفراغ فيما يتعلق بهذه الجوانب وأعطى الحقيقة الأصيلة وليس الخيال أو الوهم الذي تعطيه الرؤية الساذجة في الأسطورة؟

ولقد اعترف العلم الحديث مرغماً بعد انشطار نواة الذرة بأن هناك عالماً غيبياً لايعرف كنهه، ولكنه وجد أن ثمة علاقة حتمية بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وما يزال عاجزاً عن إدراك مدى هذه العلاقة لأنها مما لايتيسر معرفته عن طريق العلم التجريبي وإن كان أمره يسيراً عن طريق العلم الرباني.

لقد كان من الضروري للمسلم أن يفهم العلاقة بين الحياة والكون وبين الدنيا والآخرة وبين الأرض والسماء، ولذلك جاء علم الغيب الذي هداه إليه القرآن ضرورة يتكامل بها الإيمان، لأن علم الغيب يمثل الكثير من الحقائق التي هي موضع التساؤل من النفس الإنسانية وفي الرؤية البشرية للحياة القائمة وعلاقتها بالكون. ومن هنا كان التصديق بالغيب هو صمام الأمان النفسي إزاء كل محاولات التمزق والشك والصراع والقلق والضياع التي يسقط في هوتها الماديون اليوم في كل مكان.

ولقد كان الإيمان بالغيب هو القوة الكبرى التي يعتصم بها المؤمن إزاء كل

الأزمات والأحداث والمواقف إلتي تهز النفس الإنسانية وهو بها يمتلك صحة نفسية وصحة عقلية وتكاملاً في اليقين وعمقاً في الوعي بأبعاد الوجود كله، وهذا مصدر تحرر عقل المسلم ليرتفع فوق كل الأساطير والأوهام وضد عجز العلوم التجريبية التي ما زالت قاصرة وستظل عن اكتناه سر الكون والحياة.

ولقد أصبح علم الغيب تساؤلاً واضحاً وحقيقة لاريب فيها في عصر الذرة.

فحيث يقول العلم: الكهربا، المغناطيس، الأثير: تقول ما هو الكهرباء وما هو المغناطيس وما هو الأثير، ولا جواب، يقول العلم إنها أشياء مجهولة لم يدرك العلم التجريبي كنهها.

ولقد تحطمت الذرة فما هي الذرة، لا جواب،ومعنى لاجواب أنه غيب، ومن هنا يتبين أن الغيب هو الحقيقة العلمية الوحيدة الثابتة:

﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ﴾ .

٥- والإيمان بالغيب والجزاء: دعامة كبرى من دعامات الإيمان، وهو ميزان العمل في الحياة الدنيا، إذ لايمكن أن يكون خلق الإنسان وتكليفه في الحياة الدنيا محض عبث أو لهو ولا بد أن يكون لأعمال الدنيا جزاء وامتحان وحساب.

والإيمان باليوم الآخر حقيقة عظمى لايؤمن بها المسلم عن طريق الدليل والإثبات المادي فحسب وإنما يؤمن بها عن طريق الفطرة.

والمعرفة بالحياة بعد الموت أمر جوهري جداً في سبيل هذه الغاية والمسلم يؤمن بالحقيقة التي تقرر أن الموت لايعنى نهاية الحياة بل نهاية مرحلة العمل فيها،وأن هناك بعثاً ونشوراً وجزاءً لما قدم كل إنسان في هذه الحياة.

ومن أجل إقرار هذه الحقيقة ركز الإسلام على المسئولية الفردية والإرادة الحرة للإنسان التي هي مناط مسئوليته وحسابه الأخروي.

وإذا دعت بعض المذاهب إلى إنكار البعث والجزاء فإنما تستهدف دعوة الناس إلى التحلل من مسئوليتهم وتبعة أعمالهم، وهي دعوة لاتجد إلى العقل أو الفطرة سبيلاً

إذ لايمكن أن تكون غاية الإنسان الذي وهبه الله العقل والعلم وكشف له أسرار الكائنات ونواميس الكون وحمله الأمانة التي عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها، لايمكن أن تكون نهايته هي نهاية سائر الحيوان ولذلك اقتضت حكمة الله أن تجعل وراء هذه الدار داراً أخرى يرى فيها الإنسان جزاء أعماله.

وقد أولى القرآن الكريم شأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً فقلما تجد سورة من سوره إلا وتذكر البعث على نحو من الأنحاء وتقرر أمره، وترجع عناية القرآن بهذه العقيدة إلى أنها أصل عظيم من أصول العمل في الدنيا فهي مصدر المسئولية الفردية والإرادة الإنسانية، ومن شأن الإيمان بعقيدة البعث والجزاء أن تدفع الإنسان للعمل في الحياة محلاً ما أحل الله ومحرماً ما حرمه، ويقرر الإسلام أن الحق تبارك وتعالى يحيى الموتى ويبعث الناس جميعاً في خلق جديد ليس بينه وبين الخلق الأول أدنى فرق، والقادر على الخلق الأول هو قادر كذلك على إعادة الخلق وهو أهون عليه، والبعث يتم بالروح والجسم وحياة الآخرة تكون بالروح والجسم أيضاً ولا ريب أن الإيمان بالجزاء الأخروى له أثره الكبير في حياة المسلم،فهو الباعث على الحيوية والعامل على استمرار حركة الحياة نحو أهداف الخير والحق خوفاً من حساب الله وعقابه، إيماناً بأن الجزاء واقع لا محاله.

وإذا كان الإيمان بالبعث والجزاء الأخروى عاملاً هاماً في دفع الإنسان نحو العمل الصالح،فإنه مصدر قوة وثقة كبرى في مواجهة الأحداث،ولا ريب أن المرء الذي يعوزه اعتقاد راسخ بالحياة الآخرة لايستطيع الصمود أمام غمرات الحياة الهائجة بكل مغرياتها، فهو معرض للخطأ والجريمة والشر.

ومن هنا فإن البعث والجزاء حقيقة جوهرية لايسقطها المسلم من حسابه أبداً،بل يضعها دائماً نصب عينيه ويجرى حركته كلها في أعمال الدنيا على ضوئها وفي دائرتها.

ولقد كانت الأعمال الكبرى في الحياة الإنسانية ذات مصدر رباني وثيق الصلة بالبعث والجزاء، إيماناً بأنها تعطى ثمراتها في الدنيا وتعطى جزاءها في الآخرة،

وبدون ذلك الفهم تكون رسالة الإنسان في الحياة عبثاً ويكون وجوده اعتباطاً.

ولا ريب أن من أخطر مفاهيم الفكر الوثني المادي التي طرحها الفكر التلمودي اليهودي في عصور مختلفة وفي العصر الحديث هي دعوى «لا حياة بعد الموت» التي تقوم عليها بعض مقومات الحضارة الغربية الحديثة والفكر البشري العالمي، وترى المفاهيم اليهودية أنه لابعث في حياة أخرى، ومن هنا تنطلق دعوتها إلى المتعة واللذة في حياة قصيرة ليس بعدها جزاء فليس للإنسان فيها إلا أن يأكل ويشرب، وتلك أسوأ الدعوات التي تواجه الفكر الإسلامي وعليه أن يدحضها ويكشف عن زيفها.

وليس من شك أن فهم الحياة معبراً إلي الآخرة هو أصح فهم، وهو لايحول دون تحسينها أو بنائها،ولكنه على العكس من ذلك يدفع إلى العمل بالحق،وتجريد العمل لله،وتقدير المسئولية وانتظار الجزاء لصالح العمل، وبه يكون الإنسان أكثر أصالة وأعمق أثراً لأنه يزداد تقديراً للمسئولية عليه والمحاسبة عنه.

وليس تصور حصول البعث مستحيلاً بل إن القول باستحالته هو الذي يوجب التناقض ويعارض الفطرة،ذلك لأن المحاسبة والمراجعة لأعمال الإنسان لا تتم إلا في حياة أخرى ليجزى كل إنسان عن عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون ﴾ .

ومن هنا تقول: إن المعاد حقيقة ثابتة وإن الأمور كلها فيما بين الإنسان والله وبين الناس وبعضهم معلقة إلى يوم المعاد، وإن الفصل في القضايا الكبرى التي كانت ولا تزال موضع الخلاف بين أهل التحريف والفكر البشري وبين مفهوم الدين الحق سيفصل فيها يوم الميعاد،وكذلك جزاء السعي في الحياة إنما يكون في الآخرة.

٦- والإيمان بالقضاء والقدر من شرط الإيمان.

وما تزال عقيدة القضاء والقدر من أعظم معطيات الإسلام، وقد كانت مصدر الانتصارات الكبرى التي حققها المسلمون في تاريخهم الزاهر، ومفهوم هذه العقيدة

«أن الله لم يجعل الإنسان مكرهاً على فعل شيء وترك شيء ولكنه أراده أن يكون عاقلاً مكلفاً ومنحه تمييزاً واختياراً وعقلاً مدركاً جعله به مكلفاً مختاراً بالتكاليف الشرعية، أي جعله حراً يفعل ما يختار، وهذه الحرية التي أرادها الله له ومنحها إياه هي من إرادة الله فلا يأتي العبد شيئاً ولا يذره إلا بعلم الله وتقديره، وإن معنى تقدير الله للأشياء إنما هو جعلها بمقدار مخصوص ونظام محدود وهو بمثابة ربط لأجزاء الكون على نحو محكم دقيق لاتفاوت فيه وبحيث لايصطدم فيه شيء بآخر ولا يتناقض جرم مع غيره، فمن زعم أن لا إرادة له ولا حرية فقد انسلخ من إنسانيته،والمسلم لايحكم على شيء مقدر إلا بعد وقوعه لا قبله،وبهذا لايناقض العمل القدر ولا القدر العمل، (إنك لن تنال حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك).

والمؤمن الذي يعتقد أن الأجل محدود والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء لن يرهب الموت ولن يخاف أحداً من البشر، وهو يدافع عن حقه ويعلي كلمة ربه وبهذه العقيدة تحرك المسلمون الأولون فنشروا الإسلام في كل مكان.

ولا ريب «أن الإيمان بقضاء الله وقدره إيماناً لا يتزعزع باعتباره قوة دافعة، هذا الإيمان يعصمنا من الغرور إذا حالفنا نجاح ويبعد عنا الضعف واليأس إذا نزلت بنا كارثة. لأن المؤمن بالقضاء يصبر على ما نزل به ويستمد من صبره قوة على مغالبة عوامل القنوط واليأس. والمؤمن بالقضاء شجاع لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق في علم الله من موت أو حياة وهو أبي عزيز النفس لايذل لأحد كذلك فإن الإيمان بالقضاء يحفظنا من رذيلة الحقد والحسد والسخط.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ويقول الله للنبي: ﴿ قل: لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾.

٧- إن الشك نقيض الإيمان والشك هو العجز عن الوصول إلى الحقيقة في أمور الغيب التي لايستطيع العقل الفصل فيها لقصور أدواته، هذه الحقيقة التي لاتعرف إلا عن طريق ما بلّغه الوحي للبشر عن طريق الأنبياء، ولما كانت مهمة العقل

قاصرة على النظر في الحياة فقد جاء الوحي بما يكمل النظرة إلى ما يجاوز الحياة نفسها من عالم الغيب.

والشك كما يقول الجرجاني هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما عن الآخر عند الشاك، والشك مرادف للظن وهو ما يسمى باللاأدرية أو تعليق الحكم، واللاأدرية هي نوع من عدم المبالاه التي يتوقف معها التقدم، فهي عجز عن الحياة وجمود عن السعي فيما تتطلع النفس إلي كماله، ولما كان العقل أحد وسائل المعرفة وليس كلها فقد كان للمعرفة الغيبية وسيلة أخرى هي الوحي ذلك أن العقل والعلم معاً لم يتيسر لهما سبيل معرفة ما سوى ظواهر الأشياء المادية والمنهج المادي لا قدرة له على تفسير ما سوى المادة.

وإذا كان الشك هو العجز عن المعرفة فإن اليقين هو القدرة على المعرفة عن طريق الإيمان بالله ورسله وكتبه.

والشاك يصدر عن نظرة مادية لاترى سوى المحسوس ولذلك فهو لايؤمن أصلاً بعالم الغيب ولا يؤمن برسالة السماء.

٨- والإلحاد ضد الإيمان والإلحاد هو محاولة التماس طريق في الحياة لايعترف بإرادة الله وتوجيهه جل شأنه فيها، الإلحاد يعنى التنازل عن جميع القيم الأخلاقية والإنسانية التي هي من خصائص الإنسان باعتباره كائناً واعياً عاقلاً، والإيمان بالإلحاد هو إيمان ضمني بعدم جدوى القيم الأخلاقية التي تضبط سلوك الأفراد وتنظم فعاليتهم في المجتمع.

وإنما ينبعث الإلحاد من العقائد التي تصادم الفطرة وتعارض العقل وتخالف طبائع الأشياء.

ويستمد الإلحاد مفهومه من النظرية المادية التي تتصور أن الإنسان خلق من العدم وصائر إلى العدم وأن ليس للإنسان إلا حياته المحدودة.

والإلحاد ضد الإيمان والإلحاد إنكار لوجود الله، ويقول لودفيج بخنر زعيم ملاحدة

القرن التاسع عشر: الإلحاد هو الجحود بالله وعدم الإيمان بالخلود والإرادة الحرة، ويرى البعض أن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته وأنه ثمة لاشيء وراء هذا العالم وقد جاء هذا الفكر الفلسفى من الغرب بعد صراع طويل مع الدين، وهو رد فعل لما وقع بين المفكرين والكنيسة في عصر النهضة، وقد احتضن المذهب المادي هذه المفاهيم ثم تلقفتها الماركسية من بعد ذلك فجعلتها أساساً لنظريتها، ولا ريب كان لدعوى العلم العريضة بالقدرة على تفسير الحياة أثرها في هذا الاتجاه، غير أن هذه الدعوى تضاءلت الآن تماماً وقنع العلم بأنه تفسير لظواهر الأشياء كما عجزت الفلسفة المادية عن إعطاء إجابة صحيحة أو إجابة ما عن سر الحياة ومهمة الإنسان فيها.

وقد اتجهت كل النظريات الحديثة سواء الماركسية أو علم النفس الفرويدي أو نظرية المدرسة الإجتماعية الفرنسية (دور كايم وليفي بريل) وكلهم من اليهود، اتجهت إلى تحويل المفاهيم التلمودية إلى نظريات لها طابع علمي براق، ولكن النفس الإنسانية بفطرتها السليمة ما زالت قادرة على التعرف إلى الإيمان بالله إذا ما تيسرت لها أسباب الفهم والعلم والنظر.

ويرى البعض أن الإلحاد هو استعمال العقل دون فهم مهمته ووظيفته ومقدرته، في مجال أبعد من طاقته ودون ضياء له من القلب أو الوحي، ولقد علم الحق تبارك وتعالى عجز العلم والعقل عن كشف هذا الجانب من الحقائق الغيبية فقدمه للبشرية عن طريق الأديان والأنبياء والكتب المنزلة قبل تحريفها، وبذلك حرر الإنسان من البحث فيه ووجه العقل للعمل في ميدانه الطبيعي الأصيل في الكشف عن خيرات الأرض وعمرانها.

ولا شك أن الانشطارية التي عرف بها الفكر الغربي حين آمن بالعلم وأنكر الوحي، وحين آمن بالمادة وأنكر الروح، وحين آمن بالدنيا وأنكر الآخرة، هذه الانشطارية لها آثارها البعيدة في العجز عن فهم الأمور.

ولا ريب أن الإلحاد كسائر أنواع الشر طارئ على النفس البشرية، وليس من

طبيعتها ولا هو متأصل فيها. وأن الدراسة العميقة لطبيعة النفس الإنسانية قد كشفت عن تدينها وحاجتها إلي الدين، والتماسها لربها وخالقها.

٩- أبرز مظاهر «الإيمان» العبادة: وتحويل الاعتقاد إلى عمل، ولقد فهم المسلمون الأولون هذا الترابط الوثيق بين العقيدة والعبادة، وعرفوا هذه العلاقة الجذرية بين الإسلام والإيمان، فهم المسلمون الأول: الإسلام كلاً متماسكاً وطبقوه تطبيقاً كاملاً في مجال العبادة والعمل، آمنوا بأن الدين المعاملة فالعبادات كلها من الفرائض التي لاتصح العقيدة الصحيحة إلا بتطبيقها والتي تعطى لهذه العقيدة منطلقها الحقيقي إلى تشكيل حياة المسلم وكيانه على النحو الرباني الكريم القائم على التوحيد الخالص، والعبادات في الإسلام تمتاز على غيرها بأنها لاتقصد لمجرد التعبد وإنما ترتبط بحماية الفرد صحياً واجتماعياً وعقلياً وترقيته والسمو به عن أن يصبح خاضعاً للرغبات والأهواء، فلا يكون ذليلاً لها وعبداً، وحياة الإنسان كلها عبادة: سواء أكانت عبادات أو معاملات أو أعمال، وكل عمل الإنسان ووسائله تكون أساساً موجهة إلى الله، والعبادة تتناول حياة الإنسان العملية حتى في الأعمال التي يظهر أنها عادية محضة، ولا يبلغ الإنسان كماله الإنساني إلا بتحقيق العبودية لله في كل عمل، والعبادة هي الصلة الدائمة والمتصلة بالله، ليس خوفاً مثل خوف الأديان الوثنية أو ليس خضوعاً مكرهاً. فليست علاقة المسلم بربه هي علاقة المغلوب على أمره، وإنما هي عرفان بفضل الله، وعبادة للرحمن الذي أنشأنا من عدم ورزقنا من فضله وحده، وهي بالتالي رفض لعبادة غيره.

وما تقرب عبد إلي ربه بشيء أحب مما افترضه عليه، وإذا تقرب العبد إلي ربه ذراعاً تقرب الله إليه باعاً، وإذا أتاه يمشى أتاه الله جل شأنه هرولة.

والعبادة هي حقيقة الإيمان، وهي تشمل الحياة كلها وهي ترتبط بشعائر موزعة على اليوم كله وعلى العام كله بمثابة حد أدنى أو إطار للعبودية المتصلة في كل لحظة. والعابد هو من جعل حياته كلها عبادة، وجعل طعامه ونومه ومشيه قوة على طاعة الله ولم يجعله قوة على معصيته،وحقيقة مفهوم العبادة هي الاتصال

الدائم بالله، لا أن تقتصر العبادة على فترات متقطعة من الزمن،وتكون العبادة نبراساً لكل عمل يعمله المسلم،ولكل حركة وخاطرة وبادرة، وبذلك يمتد التعبد إلى مختلف جوانب نشاط الإنسان،فلا يمارس عملاً إلا وهو يستشعر رضاء الله والخوف منه، وبذلك تقوم الصلة بين الإنسان وربه على أساس التقوى وتقوم على الخوف والرجاء معاً ومن العبادة: الاستعانة بالله والتماس رحمته وهديه وفضله، ولا ريب أن التفكير في الله فريضة وأن الغفلة عن ذكره والتفكير فيه سبحانه ذنب، وتكون العبادة متكاملة للروح والجسد معاً،وللعقل والعاطفة معاً،ويتمثل ذلك في تجربة الصلاة التي تستوعب كل مقومات الإنسان،وطاقاته العقلية،والجسدية،والروحية.

١٠- والصلاة: هي العبادة الحركية التي تتمتع خلالها أكثر من ثلاثمائة عضلة في أنحاء الجسم البشري بالتقلص والانبساط،لتعيد حيويتها ونشاطها، وتجدد فعاليتها عشرات المرات في كل فترة من مواعيد الصلوات الخمس التي تجري حسب نظام زمني ثابت يتابع حركة الكون الفلكي والنظام الشمسي، وهي تختلف في آثارها عن العبادات الصامتة في الأديان القديمة، وقد قال رسول الله في شأن الصلاة أنها: «العهد الذي بيننا وبينكم الصلاة فمن تركها فقد كفر» رواه ابن ماجه وليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة، ولا ريب أن الصلاة من وسائل إعداد المسلم ليكون أهلاً للحياة في العالم الآخر وفي الجنة،وإن توقيت الصلاة في أوقات معينة له حكمة عليا لها ارتباط بعوامل خاصة بهذه الأوقات مما فضله الله وأعد الإنسان ليتقبل فيها نفحات معينة واستعدادات خاصة تجعله قادراً على الحياة في العالم الآخر، والصلاة في نظر الإسلام رباط دائم يصل العبد بربه،وهي وسيلة من وسائل الاستعانة بالله على الشدائد وحاجز عن الفحشاء والمنكر، وهي تتسم بشرطين أساسين: الفرضية المسجلة على العباد ثم الأداء في وقت مخصوص محدود معلوم ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ والصلاة أم العبادات وأكبرها قدراً ولا يصح إسلام المرء واكتمال إيمانه إلا بأدائها فهي أعظم مظاهر العقيدة،وأبلغ صور التوحيد،وهي الصلة القائمة الدائمة بين الإنسان وربه.

ومن فضل الصلاة أنها تنمي ملكة حصر الذهن وتقوية النفس والالتجاء إلى الله في الأزمات،وهي أصدق الأساليب التي سنها الإسلام لتربية رجاله وأهله وإحكام الرابطة بين الإنسان وربه خمس مرات في اليوم في أوقات محددة من خلال ساعات العمل والراحة واليقظة والنوم والطعام والسعي تخلطها بها فتتصل النفس بربها دوماً وتجدد هذه الصلة آناً بعد آن.

والصوم فريضة فردية وجماعية،وهي امتحان للحرمان ومجاهدة للنفس في التغلب على شهواتها وملذاتها، وهي بمثابة كفاح موجه من نفس الإنسان ضد رغبات جسمه وبدنه، والصوم زكاة الجسم،وهو نصف الصبر،وهو امتحان صادق للضمير،ودعوة إلى التمسك بالأمل وتجنب اليأس، وإعداد للنفس لتكون قادرة على مواجهة الأحداث بالصبر، والأزمات بالتصبر، والنازلات بالمجاهدة، وهي مران على إضعاف سلطان العادة وتقوية للإرادة وتحقيق سلطان الروح على الجسد،وبها يتمكن الإنسان من أن يعيش مالكاً لزمام نفسه.

والزكاة فريضة اجتماعية تقوم على البذل والتنازل عن جزء من المال الذي يملكه المسلم وتوجيهه إلى الله خالصاً، وحكمة الزكاة أنها تبني القدرة على الإنفاق في سبيل الله وتطهير النفس من البخل والقسوة والأثرة،وتبني المجتمع بتنظيم حياة أفراده، وقد ارتبطت الزكاة بالصلاة فهما دعامتا الإسلام إحداهما بالاتصال بالله، والأخرى بالإنفاق لمرضاته، وهو المعنى الذي حرره القرآن وأكده دوماً.

والزكاة ليست صدقة،ولكنها فريضة إجبارية،وحق للفقراء في مال الله الذي أعطاه لهم ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ وهي ضمان اجتماعي يرفع مستوى المجتمع كله ويحول دون وجود المحتاجين وهي نظام جماعي يحفظ التوازن بين طبقات الأمة، وكان الإسلام أول من سبق العالم كله إلى وضعه وتنفيذه.

والحج فريضة القادرين وهي تعبير عن وحدة المجتمع الإسلامي ودعامة تعارفه ولقائه في مهرجان كبير يتجه إلى الله بالتسبيح والتكبير من فوق جبل عرفات،

وهو في نفس الوقت عمل اجتماعي يدعو إلى التعارف والتعامل، يدعم الإخاء الإنساني ويزيل فروق الجنس واللون والوطن ويوحد الغايات ويؤكد حقيقة الهدف، وهكذا تترابط عبادات الإسلام وتتكامل في حياة المسلم تجدد فيه تلك الرابطة العميقة بين العقيدة والعمل، وبين الإسلام والإيمان، وكلها تقوم على مفهوم الاتجاه إلى الله والصبر والتضحية والبذل والاحتمال وتجديد النفس من الجمود وتحرير الجسد من السرف، وهي في مجموعها تؤكد الحقيقة التي تتمثل في أن الفرد المسلم هو لله أصلاً وأنه مؤهل بذلك كله ليكون مستخلفاً في الأرض وأن يكون دائماً على نية الجهاد والتضحية والبذل في سبيل الله وفي سبيل دعوته.

(٤)

النبـــــــوة

من أجل أن يبلغ الحق تبارك وتعالى إلى الإنسان رسالته ومهمته في الحياة، ويكشف له عن أمانته التي حملها،وعن مسئوليته إزاءها،بعث الله الأنبياء والرسل إلى الأمم جميعاً مبشرين ومنذرين.

وكان الوحي هو واسطة التبليغ بين الله سبحانه وبين الرسل، والنبي أو الرسول فرد من الناس اختصه الله سبحانه بالوحي إليه، فالنبوة منحة إلهية يهديها الله لمن يصطفيه من البشر؛ليكون مبلغاً بين الله وعباده، ويعد الله سبحانه من يصطفيهم لهذا الغرض إعداداً،ويؤهلهم لأن يكونوا أكفاء في حمل الرسالة وأداء المهمة، فيزودهم بالفطرة السليمة، ويؤدبهم بأدبه الرباني، فتصل نفوسهم إلى قدر من الكمال يتميزون به ويكونون به أهلاً للتلقى عن الحق تبارك وتعالى، ويتم الوحي بين الله سبحانه وبين رسله عن طريق الملائكة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ .

والأديان كلها وحي إلهي ومن منبع واحد، أرسل الله سبحانه بها الرسل ليحرروا الناس من استرقاق هوى النفوس، ولقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يجعل لكل أمة رسولاً من أنفسهم،وأرسل إليهم كتباً بلغاتهم وألسنتهم.

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ .

٢- لم يكن الإنسان حين أخذ يدرج في الأرض ليعرف لماذا جاء وما هي رسالته ولا من أين جاء ولا إلى أين ينتهي ولا ما هي علاقته بالكون وبالحياة أو بخالق الحياة والكون تبارك وتعالى: ولذلك فقد جاء الرسل مبلغين بهذه الرسالة ﴿ لكي لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ .

إن الخالق تبارك وتعالى للإنسان ولهذا الكون قد رسم نظاماً للحركة والحياة،

على المؤمن بالله أن يسير عليه وكل البشر مدعو إلى هذا إن شاء، فما هو هذا النظام، ذلك هو ما ناط به الحق تبارك وتعالى الأنبياء والرسل، الذين اختارهم من أصفى الناس سريرة وأحسنهم خلقاً ﴿ ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ فبيَّنوا وبلَّغوا وحذَّروا من خطر الانحراف عن المنهج الحق،وكانوا بأعمالهم وسلوكهم قدوة للبشر،ونموذجاً عالياً لتطبيق رسالة الله في الأرض ومنهجه في الحياة.

٣- أيد الله الأنبياء والرسل بالآيات البينات والمعجزات الباهرات؛ليجعل من ذلك قوة تهدي إليهم القلوب وتكشف عن حقيقة صلتهم بالله تبارك وتعالى، والأنبياء معصومون عن ارتكاب الذنوب مبرءون من العيوب،وإن كانوا يتعرضون للصحة والمرض،والقوة والضعف،والحياة والموت، ويجب في حقهم الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة، ويستحيل في حقهم: الكذب والخيانة والكتمان والبلادة، ويجوز في حق الأنبياء من الأعراض البشرية ما يجوز في حق الناس: الأكل والشرب والنوم واليقظة والزواج والتوالد، ولكنهم مع أنهم بشر فهم مؤيدون بالوحي في أمور الدين منزهون عن السيئات والمعاصي.

٤- جاءت النبوة بعد أن تنازع الناس وأفسدوا في الأرض وحادوا عن الطريق المستقيم فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وموجهين إلى الحق والهدي، فالرسل في حقيقة أمرهم منقذون لقومهم من ظلمات الجهل والضلال والشرك والوثنية، مخرجون لهم من الظلمات إلى النور ﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ وقد شاءت رحمة الله بالبشرية أن لايعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً يدعوها إلى الخير وينهاها عن الشر.

ولا ريب أن في اختيار الله سبحانه لرسله من البشر حكمة عالية، تتمثل في سهولة اتصال البشر بهم والأخذ عنهم، وهم المعروفون فى قومهم من قبل الرسالة بالبر والخير والإيمان، ولو كانوا ملائكة لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم ولأنهم من جنس آخر غير الجنس البشري الذي أرسلوا إليه بالهدى ذلك ان الملائكة ليسوا بشراً

وتختلف طبيعتهم عن طبيعة البشر، ولذلك قال تعالى: ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ ذلك لأن البشر ليس في استطاعتهم رؤية الملك في صورته إلا بعد أن يتجسد في الصورة البشرية ولو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لنفروا من مقابلته.

ومهمة النبي والرسول هي دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار وتبليغ أوامره عز وجل ونواهيه إلى البشر، وهداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وليكون الرسول قدوة حسنة وأسوة صالحة للبشر، ومن مهمتهم التذكير بالنشأة والمصير،وتعريف الناس بما بعد الموت من بعث وحساب وجزاء، وتحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.

٥- والأنبياء لهم مكانتهم الخاصة بين البشر، وتميزهم بحمل رسالة الله إلى الخلق والدفاع عنها ومباشرة الاتصال بالناس يوماً بعد يوم، وهم في طبيعتهم وهدفهم ربانيون، لايطلبون أجراً على رسالتهم بسطاء غير معقدين ولا جبارين، يخلصون دينهم لله، ويوضحون الأهداف والغايات،وهم في حياتهم الخاصة يؤثرون الآخرة ويزهدون في الدنيا، وهم في مجموعهم يمثلون صفة الجهد الإنساني الكريم المؤيد بالوحي الذي قدم للبشرية خير ما عرفت من العلم والحكمة، وهم الذين وجهوها إلى الخير والرحمة والعمل الصالح ودورهم أكبر من دور الأبطال والقادة والزعماء الذين تمتلئ بآثارهم الكتب والمؤلفات.

ويمثل الأنبياء في مجموعهم وحدة الرسالة الإلهية فهم منذ رسالة نوح عليه السلام إلى خاتم الرسل محمد ﷺ إنما يمثلون منهجاً واحداً على المسلم أن يؤمن به كله من غير تفرقة ولا تفضيل، دون تفرقة بين أحد من الرسل، رسالتهم رسالة واحدة هي رسالة الإسلام ودعوتهم دعوة واحدة هي التوحيد، وهي رسالة عامة موجهة إلى الناس في جميع أجناسهم ولغاتهم إلي يوم الدين.

والأنبياء في صميم وظيفتهم يقومون بالإرشاد والتعليم مبشرين ومنذرين، لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فهم القادة الحقيقيون للأمم وللبشرية،وهم ليسوا

وكلاء أو مسيطرين أو دعاة إلى حق خاص بهم.

٦- ودعوة الأنبياء ليست عملاً ذاتياً،وليست زعامة فردية، فهم إنما يحملون رسالتهم ويؤدون واجبهم بوحي وتكليف من الله تبارك وتعالى، «فليست دعوتهم نابعة من نفوسهم وليست نتيجة للعوامل الاجتماعية في زمانهم أو مما تمخضت عنه أفكارهم أو مشاعرهم مما يعانيه الناس، بل هي وحي وتكليف، ومن هنا فإن العلم الذي ينشرونه بين الناس والعقيدة التي يدعون إليها والدعوة التي يقومون بها لاتنبع من ذكائهم أو حميتهم أو من شعورهم، وإنما مصدرها الوحي والرسالة،ولذلك فهم لايقاسون على الحكماء والزعماء والمصلحين أو القادة الذين عرفهم تاريخ البشرية،ومن أجل ذلك لايخضع الرسول لعوامل نفسية خاصة أو حوادث وقتية، ولا يدور برسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع أو شاء المجتمع، ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلاً أو تحويراً في رسالته ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ ومن هنا فلا يقاس الأنبياء على ما يقاس عليه الزعماء والقادة، لأنهم ليسوا قادرين بحكم عصمتهم وتكليفهم الرباني من الله أن يعرفوا أو يصطنعوا ما يسمى المرونة أو مراعاة المصلحة، وهم لايقبلون المساومة على شيء من أمور الدعوة مهما كان الثمن.

٧- الوحي هو ما يلقى إلى الأنبياء من ربهم وهو مصدر الدعوة التي يدعونها والرسالة التي يحملونها إلى الناس، والرؤيا الصادقة هي أولى مراتب الوحي، ومن الوحي: إلقاء الملك في روع النبي وقلبه من غير أن يراه «أن روح القدس نفث في روعي» أو يتمثل الملك للنبي بصورة رجل فيراه عياناً ويخاطبه حتى يعي عنه ما يقول، أو يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده فيلتبس به الملك حتي يتفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد أو أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحى إليه ما يشاء.

وأول ما بدئ به رسول الله محمد ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى جاءه الملك جبريل وهو في غار حراء

فقال: اقرأ قال: ما أنا بقارئ، قال رسول الله ﷺ : فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني قال: اقرأ: قلت: ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق،خلق الإنسان من علق،اقرأ وربك الأكرم ﴾ .

ويقول أصحاب العلم: إن الوحي يقتضى من صاحبه استعداداً يهيئه الله تعالى في أولئك الأخيار الذين اصطفاهم من خلقه لهذه المنزلة.

قالت عائشة رضي الله عنها: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال: يارسول الله كيف يأتيك الوحي فقال ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي،فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال،وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول.

وقالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وقال أصحاب العلم: إنه في حالة الوحي ينخلع النبي من صورة البشرية إلى صورة الملائكة، وينخلع الملك إلى البشرية حتى يأخذ الرسول منه، وكان النبي إذا نزل عليه الوحي سمع عند وجهه دوي كدوي النحل، وكان إذا نزل عليه الوحي ثقل جسمه حتى يكاد يرض فخذه فخذ الجالس على جانبه،وكان إذا نزل عليه الوحي بركت به راحلته.

وهناك التلقى للوحي من الله تبارك وتعالى من غير واسطة وهو أعظم المراتب وأسماها شرفاً.

٨- والوحي في اللغة: إعلام الله لنبي من أنبيائه بأمر من أمور الدين بواسطة أو بدونها، وقيل هو عرفان يحسه النبي في قلبه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى بواسطة أو بدونها، وهناك فرق بين الوحي والإلهام، فالوحي للأنبياء فحسب، ولكن

الإلهام قد يكون لغير الأنبياء،والوحي مصدره الوحيد هو الله تبارك وتعالى، والإلهام اكتساب ووجدان تستيقنه النفس وتنساق إلي ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، أما الوحي فإنه يكون مصحوباً بيقين النبي بأنه من قبل الله تعالى.

والإيمان بالوحي من دعامات الإيمان بالله، وهو باب الإيمان بالغيب وما يتصل به من كل ما لايدخل في دائرة المحسوسات.

ولا ريب أن كان تصور الإنسان لله تبارك وتعالى ولمهمته كإنسان ولعلاقته بالكون والحياة يكون قاصراً شديد القصور بغير معرفة حقائق الوحي، وقد عجزت الفلسفة أن تقدم للإنسان مفهوماً صحيحاً يستقر في النفس وتسكن إليه الروح.

كذلك فإن النفس الإنسانية تلتمس دائماً أهواءها ومطامعها أما العقل فإنه يقصر عن ممارسة ما ليس من وظيفته البحث عنه ولذلك جاء تصور الفلسفات لله تبارك وتعالى قاصراً عاجزاً، ومن أجل ذلك ومن قبل ذلك جاء الوحي حاملاً للبشرية المفهوم الصحيح والأصيل.

ولقد تبين أن العقل وحده غير كاف لفهم هذه الأمور ولا بد من الحاجة إلي نبي ووحي، وهذا النبي يعاضد العقل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقاً فيما يستقل العقل بمعرفته فيكونان دليلين على مدلول واحد، يرشد العقل ويهديه فيما لايتصل بمعرفته مثل المعاد، ويكشف عن وجوه الأشياء التي لايدرك العقل حسنها وقبحها.

وقد التقى الوحي والعقل في القرآن لأول مرة، وعلى العقل أن يتخذ من الوحي هادياً ومرشداً إلا أنه يعجز كل العجز عن الوصول إلي المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة ولأمور كثيرة.

ولقد أشار كثير من الباحثين إلى هذه الحقيقة: ذلك أن العقل وحده لايستطيع التعرف على المصلحة بل إنه في حاجة إلى إرشاد الشرع،والعقل قد تحجبه الأهواء والشهوات والأمراض والأعراض النفسية،أما الشرع ومصدره الوحي فإنه هو القاعدة

الثابتة التي لاتتأثر بمتغيرات النفوس لأنها من عند الله.

والمسلم يؤمن بأن القرآن ليس انطباعاً في نفس النبي، كما تحاول بعض الشبهات المثارة أن تقول، ذلك أن هناك فارقاً واضحاً بين كلام النبي وكلام القرآن، فالقرآن من عند الله وهو وحي إلهي ويختلف في أسلوبه وطريقته ونظمه عن كلام النبي.

وكذلك فالمسلم لايقبل القول الذي تطرحه الدعوات الهدامة بأن القرآن فيض من عقل النبي الباطن، ولا تغرينا الإشادة بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه خداعاً من أجل نسبة القرآن إليه، فالقرآن وحي إلهي نزل على قلب النبي وهو مبلغ له، وتلك واحدة من المحاولات التي تستهدف قطع الصلة بين المسلمين والقرآن، فإن القرآن إذا قيل إنه من عمل البشر فقد معناه الأسمى وتفرق المسلمون وانتهى أمر الإجماع عليه، ونحن نعرف أن رسول الله محمدا كان أمياً لايقرأ ولا يكتب فمن الذي أطلعه على أن ما في القرآن مصدق لما في التوراة؟ ولقد كان علمه بشئون قومه لايزيد عن علم غيره فمن الذي أطلعه على قصص الأولين؟

٩- للوحي أثران: القرآن والسنة فكل من القرآن والسنة وحي من الله بدليل قوله تعالى: ﴿ وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى،علمه شديد القوى ﴾ أما وحي الله تعالى إلى نبيه في القرآن فهو باللفظ والمعنى معاً أما السنة فهي وحي أيضاً ورد به جبريل ولكنه ليس في مرتبة القرآن.

١٠- اتسمت دعوة الأنبياء بأسلوب الفطرة وعدم التكلف والتعقيد ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ ثم فهي دعوة إلى الحكمة والموعظة الحسنة ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ .

وأسلوب الفطرة بعيد عن المناهج الفلسفية والكلامية ويقول الإمام الغزالي: إن أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون، بل إن أدلة القرآن مثل الماء الذي ينتفع به

الصبي والرضيع والرجل القوى وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولاينتفع بها الصبيان أصلاً، ولقد تبين لكثير من علماء المسلمين بعد أن خاضوا في أساليب الفلسفة والكلام والجدل أن أسلوب القرآن هو أسلوب الفطرة، وأنه الوحي المنزل من السماء، وفي هذا يقول الرازي: في آخر عمره: «لقد تأملت الطرق والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً، ورأيت أقرب الطرق هي طريقة القرآن في وضوح الغاية وسلامة القصد ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾.

وفي هذا قول الرسول الكريم: ﴿ لقد تركتكم على المحجة البيضاء: ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك ﴾.

ونحن نعرف أن الفلسفة تنافي النبوة وتعارضها على خط مستقيم منذ النقطة الأولى، لأنها تبدأ من منطلقات: الشك والفرضية والظن والاحتمال، وتصف الكون بأنه صدفة أو قديم، بينما تنطلق النبوة من الوحي الصادق المنزل من عند الله بالحقيقة الأصيلة التي لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

١١- يقرر العلماء أن عقيدة التوحيد وصلت إلي العالم والبشر بإلهام إلهي ثم جاء العقل مدللاً عليها، ولقد حاولت البشرية أن تفهم الألوهية ومهمة الإنسان بهواها، فضلت وشقيت، لأنها انحرفت عن عقيدة التوحيد التي أهداها الحق تبارك وتعالى إلى الناس جميعاً ليهتدوا بها وليسعدوا، فكانت النبوة عاملة دائبة على تصحيح فكرة الناس عن الألوهية، والتوحيد الخالص كلما انحرف الناس جيلاً بعد جيل، ولذلك كان مصدر الدين الحق هو الوحي، وكان مصدر العقيدة الإسلامية خاتمة الرسالات هو النبوة المحمدية التي أوحى الله إليها القرآن.

ولقد كان نزول الوحي بالرسالة على محمد ﷺ آية من آيات الله في تقرير اختيار من شاء لرسالته ودعوته، وان هذا الاختيار لايستتبع بالضرورة أي معنى من المعاني البشرية التي يقيس الناس بها عظمة الزعماء والأبطال فقد اختار الله

تبارك وتعالى محمداً ليكون خاتم المرسلين وسيد الخلق وأنزل رسالته الكبرى عليه وهو: (اليتيم، الفقير، الأمي)، الذي لايملك من أسباب القوى والغنى والجاه شيئاً وليس له من مظاهر السلطان والملك مما يجعله في نظر قومه عظيماً بمقاييس البشر، حتى قال أهل مكة: ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ فأجاب الحق تبارك وتعالى: ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ومعنى هذا أن الحق تبارك وتعالى يعلم أين يجعل رسالته.

وفي ذلك تحد واضح للقيم المادية التي تقوم عليها مناهب البطولة والعظمه في العصر الحديث،إذ تفترض أن يكون العظيم أو البطل مستكمل الصورة المادية بينا يختار الحق تبارك وتعالى لأعظم مراتب العظمة النبويه محمداً اليتيم الفقير الأمي، ذلك لأن مقاييس الحق تبارك وتعالى تختلف تماماً وتقوم على معنويات أساسية: فهو الأمين الذي ما عرف عنه قومه كذباً قط، وهو النقي الذي ما عرف الخنا لحظة واحدة في حياته، وهو المختار من الأصلاب والأنساب بتقدير الله تبارك وتعالى، ثم هو الذي علمه ربه وأدبه وأعده للمسئولية الكبرى.

ولقد ظنت قريش أن النبوة لابد أن تكون في أشرافهم وظن اليهود أن النبوة لاتخرج عن بني إسرائيل.

وذلك مفرق واضح: بين النبوة والملك، فالنبوة لاتكون بالإرث،والغني والسلطان حظ مشترك بين المؤمن والكافر، وقد كان النمروز وفرعون وهامان أصحاب بأس شديد وسلطان وغنى ولكنهم كانوا من أعداء الله.

إن النواميس العامة التي تقوم عليها النظريات الوافدة تقول: إن من يولد يتيماً وفقيراً وأمياً لا يستطيع أن يصل إلى مكان القيادة،ولكن الله سبحانه وتعالى حطم هذا القانون باختياره الأنبياء على نحو آخر غير هذه المقاييس المادية، ذلك أن الله سبحانه قدم نماذج من بني البشر ممن كانوا رعاة للأغنام فأصبحوا قادة لأممهم، فلم يكن الاختيار بمقاييس البطولات أو الأسر أو الأجناس أو الأنساب،ولكنه كان بمقياس آخر: وقدم الله أنبياء من غير أب، وخلق أنبياء من أباء كبار وأمهات

عجائز، مخالفاً للقانون القائم على الأسباب؛ ليعلموا أن الله على كل شيء قدير هؤلاء الأنبياء الذين يختارهم الله على نسق خاص، إنما يصنعهم على عينه ويجعلهم نماذج خاصة ممتازة قادرة على حمل أعباء التكليف الصعب، أولئك هم أولو العزم من الرسل الذين عرفوا بالصبر والحكمة ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ .

١٢- والأنبياء ليسوا على درجة واحدة في الفضل والمكانة بل إن بعضهم أفضل من بعض وقد جعلهم الله درجات ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ .

وهناك أولاً: الفرق بين النبي والرسول «فالنبي إنسان من البشر أوحى الله إليه الشرع ولكنه لم يكلف بالتبليغ، أما الرسول فهو إنسان من البشر أوحى الله إليه بشرع وأمر بتبليغه، فالرسالة إذا أعلى مرتبة من النبوة لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً».

وعدد الأنبياء لايحصى إذ يزيد عددهم على ما جاء في بعض الآثار عن مائة وعشرين ألفاً، أما الرسل فهم قلة والذين ذكروا في القرآن يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهم خمسة وعشرون وكلهم من الرسل:

آدم، ونوح، وإبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سلميان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، اليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد (صلوات الله عليهم أجمعين).

وهؤلاء يتعين الإيمان بهم تفصيلاً والتصديق برسالتهم وأشخاصهم وأسمائهم لأنهم ذكروا في القرآن الكريم، أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم جملة نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز، لأن الرسول أخبر عنهم بقول القرآن ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليماً ﴾ .

وفي حديث رواه الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت: يارسول الله أي الأنبياء كان أول قال: آدم، قلت يارسول الله: ونبي كان، قال : نعم نبي مكلم، قلت يارسول الله: كم المرسلون قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر: قلت يارسول الله كم وفاء عدة الأنبياء، قال مائة ألف وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً (رواه أحمد).

والرسل مأمورون بتبليغ الرسالة وأنهم يختلفون عن الأنبياء في هذه النقطة بالذات: ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾.

﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾.

وأولوا العزم هم قادة الأنبياء وسادتهم، وقد أمر الحق تبارك رسوله أن يقتدى بهم في جهادهم وصبرهم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾.

فقد كان ابتلاؤهم شديداً، وجهادهم كان شاقاً مريراً فمنهم من صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة وتعاقبت عليه الأجيال العديدة، ولكن حياته كانت محناً وشدائد، كنوح عليه السلام الذي لبث في قومه قريباً من ألف عام ولم يؤمن معه إلا قليل:

(ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾

﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾.

ومنهم من وصلت به الشدة والكربة وناله من قومه الشدائد والأهوال إلى درجة أنهم حكموا عليه بالتحريق بالنار، كإبراهيم عليه السلام، خليل الرحمن فقد كانت عقوبته في سبيل تبليغ دعوة الله، الإحراق بالنار، ولكن الله عز وجل نجاه فأمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه.

وبقية أولو العزم كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كلهم أوذوا واضطهدوا وشردوا، فتحملوا الأذى والعذاب وصبروا على البلاء والشدة: ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ .

ولقد كان محمد ﷺ خاتم المرسلين، والإيمان به ثابت في كل الكتب السماوية بل وما بعث نبي أو رسول قط إلا أخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق إن أدرك محمداً في حياته ليؤمنن به وليكونن من أنصاره وأتباعه.

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه: قال: أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري (أي عهدي) قالوا أقررنا: قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ .

وتلك أفضلية رسول الله محمد ﷺ على سائر الرسل وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم، ولقد خاطب الله سبحانه وتعالى الأنبياء بأسمائهم التي سموا بها إلا محمداً فقد خاطبه الله تبارك وتعالى بوصف النبوة والرسالة إظهاراً لعظمة قدره وجلال فضله.

﴿ ياأيها النبي: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ .

﴿ ياأيها الرسول: بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾.

ولا تجد في القرآن آية فيها خطاب للنبي باسمه الصريح مثل ماجاء في خطاب الأنبياء، وإنما تخاطبه كل الآيات الكريمة بلفظ النبوة أو الرسالة.

والرسول محمد ﷺ نبي ورسول فقد أوحى إليه من ربه بكل أنواع الوحي من مكالمة وإرسال ملك وإلهام ومقام وأمر تبليغ شرع عام خالد إلي الناس كافة بل إلى الإنس والجن ﴿ قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .

١٣- لما كان الإنسان بطبيعته لايستطيع إقامة الحق فقد أرسل الله الأنبياء بالوحي وبالرسالات لتكون دعائم أساسية لإقامة الحق بعيداً عن أهواء الإنسان

ورغائبه وحجة للتكليف الرباني الذي هو أمانة البشرية لله وتقريراً للمسئولية الفردية التي تقوم على الإرادة البشرية والتي هي مناط المسئولية والحساب والجزاء.

وكذلك زود الله الإنسان بالوحي وبالعقل فالوحي قد قدم له صورة كاملة عن الغيب ورسم له منهجاً كاملاً للحياة وأبان له عن رسالة وأمانة ومسئولية. أما العقل فهو دليل الشرع ومناط التكليف وهو أداة العمل لعمران الأرض والسعي فيها واستخراج كنوزها وكشف مجاهلها.

وما زال الإنسان بالرغم من الوصول إلى أعلى درجات العلم المادي - غير قادر على تحقيق رسالته وأمانته على الوجه الأكمل وما تزال أدواؤه تدفعه إلى الخطأ والظلم والتردي.

١٤- «النبوة» سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم، ومدار «النبوة» على «الوحي» والإخبار عن الله تبارك وتعالى، فالنبي هو المخبر عن الله والنبي سفير بين الله وخلقه، ومن هنا فلا يوصف النبي بالعبقرية أو البطولة أو الزعامة. ذلك أن هذه الأوصاف كلها ليست مبنية على الوحي من الله وإنما هي نوع من الزعامات الاجتماعية التي تحاول امتلاك القدرة على إيجاد الحلول.

ومن أبرز ما عنى به القرآن في أمر النبوة أنه فصلها فصلاً تاماً عن الألوهية وجعل من المستحيل تحولها إليها. فمحمد رسول الله يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وهو ككل البشر عرضة للموت أو القتل، ولقد كان رسول الله ﷺ يؤكد هذا المعنى في كل تصرفاته حماية لمقام الألوهية الأكبر خالق البشر والأنبياء جميعاً والذي يقف الأنبياء والبشر منه موقف العبودية التامة، وقد حرص القرآن على تأكيد هذا المعنى حتى لايقع المسلمون فيما وقعت فيه الأمم السابقة من تأليه أنبيائهم وزعمائهم.

وبطولة الرسول ربانية وليست بشرية، وخطأ الذين ينظرون إليه على أنه زعيم قومي أو عبقري أو بطل محارب أنهم يقيسونه بالمقياس المادي وحده وهو غير

مقياس الإسلام وإذا كان الأبطال إما عسكريون أو قوميون أو فكريون، فإن النبوة جامعة لهذه الصفات الثلاث في إطار الوحي، ومحمد ﷺ هو الوحيد بين البشر الذي جمع بين الرسالة والدولة أو بين المنهج والتطبيق، فبطولته تختلف عن البطرلات البشرية وهذه هي المعجزة الإلهية.

ومن أبرز مميزات النبوة في رسول الله ﷺ أن تاريخه كامل، وأن سننه بين أيدي الناس جميعاً ترسم طريقته وسلوكه وشمائله على أوفي ما يكون الهدف في التماس القدوة والتطبيق لشريعة الله الغراء، ومن علامات ارتفاع مفاهيم النبوة المحمدية عن الوثنية والمادية أنه ليس له تمثال أو صورة، ولم يتخذ مولده مبدأ للتاريخ الإسلامي ولا سمي الدين باسمه ولم يصب كتابه أي شبهة ولقد كان ولا يزال وسيظل النموذج الأسمى والمثل الكامل والأسوة الحسنة القائمة أمام كل المجاهدين والمصلحين والنوابغ وعامة المسلمين.

(٥)

القـــــرآن

١- القرآن: خاتم الكتب السماوية المنزلة بالوحي من رب العزة إلى الأنبياء والمرسلين: أنزل على محمد بن عبد الله ﷺ برسالة الإسلام وبلغة العرب منجماً على ثلاثة وعشرين سنة بدأ بآية ﴿ اقرأ ﴾ وانتهى بآية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الآية وهو المعجزة الباقية على مدى الدهور فقد تحدى الله سبحانه وتعالى العرب والعالمين جميعاً أن يأتوا بسورة من مثلة أو آية من مثله وما يزال التحدي قائماً بعد أربعة عشر قرناً وسيظل دليلاً على معجزة القرآن الخالدة التي لايستطيع البشر مهما بلغوامن العلم والبلاغة أن يتجاوزها بل أن يبلغوها.

والقرآن منزل من عند الله بلفظه ومعناه وليس من كلام النبي في شيء، والبرهان على ذلك في قوله تعالي: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين ﴾ .

ويتميز القرآن بذاتية خاصة في نظمه ومعانيه ومنهجه تفرق وتميز بينه وبين الكتب السماوية السابقة له وهي (التوراة، الزبور، الإنجيل).

ولقد تكفل الحق تبارك وتعالى ببيانه وحفظه ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ ، ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، وهو خاتم الكتب ومهيمن عليها: يقول العلامة أبو السعود العماري (أي رقيباً على سائر الكتب المحفوظة من التغيير، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات، ويقرر أصول شرائعها وما يتأيد من فروعها ويعين أحكامها المنسوخة ببيان مشروعيتها المستفادة من هذه الكتب، وانقضاء وقت العمل بها ولا ريب أن في تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبداً عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمناً عليه.

وقد جدد القرآن دعوة الأديان السابقة في أصولها باعتبارها واحدة في مصدرها

وواحدة في دعوتها إلى توحيد الله وعبادته، وأكد وحدتها في جوهر الدعوة إلى الله وإلى حياة أفضل، وهو تصحيح لما وقع فيها من تحريف وتبديل وتكميل لها بما شرعه الله من أحكام ومعاملات دعا إليها تطور البشرية وبلوغها مرحلة الكمال.

وقد جاء كل رسول بكتابه إلى أمته، وجاء محمد ﷺ بالقرآن إلى الناس كافة بعد أن استشرفت الإنسانية رشدها وأصبحت أهلاً للرسالة العالمية الخالدة.

٢- أنزل القرآن على قلب النبي محمد ﷺ آية آية، فبماذا وصفه من أنزل عليه: قال عليه الصلاة والسلام: كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن اتبع الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الأراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجباً، من علم به سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

وهو بهذا المفهوم الواضح العميق كان ولا يزال وسيظل المعجزة الباقية الدائمة في اللفظ والمضمون، وقد جاءت معجزات الأنبياء متفرقة على تحديات عصورهم وبيئاتهم ثم انتهت، فلم يبق منها إلا روايتها، أما القرآن فقد جاء بمعجزة باقية خالدة على البشرية، وهي ما تزال قائمة بتحديها وتفوقها على العالمين وأبرز ما يمثله القرآن الكريم هو مطابقته لحقائق الماضي والحاضر والمستقبل، فهو يحمل بين دفتيه الحقيقة الباقية على مر العصور وكر الدهور دون أن يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل، ويرجع ذلك إلى تميزه بالأصل الإلهي المطابق للفطرة والعقل والعلم والمنطق.

وإذا كان أحد من البلغاء لم يستطع خلال أربعة عشر قرناً أن يعارض القرآن، فإن مذهباً ما من المذاهب لم يستطع أن يضاهي منهج القرآن من حيث الخلود

والشمول والاستجابة لكل عصر وبيئة».

ونحن نعرف من صفة خلود القرآن ما نعرف من تقلبات الأيام بالنظريات والكتب وكيف تتغير الظروف فتصبح الآراء قديمة والنظريات متخلفة والمناهج جامدة، أما القرآن فإنه مازال سابقاً للزمن والعصر متقدماً على البيئات والمجتمعات.

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .

٣- وإعجاز القرآن: بياني وعلمي، وقد عرف القرآن بإعجازه البياني منذ عصر النبوة حيث لم يقبل أحد التحدى منذ أربعة عشر قرناً حتى الآن في أن يأتي بسورة أو آية، ثم عرف بالإعجاز العلمي فيما بعد ذلك وعلى توالي الأجيال، ومن ذلك إشاراته الواضحة إلى لقاح النبات وحركة الكواكب وعلم البصمات والجاذبية ويضع القرآن (العلم) في مقدمة أمور الحياة فيذكر مادة العلم ومشتقاته في (٨٧٠ آية) ويركز القرآن على (السلم) ومشتقاته فتبلغ آياته (١٣٨ آية) بينما تظهر ندرة الآيات التي يذكر فيها (الحرب) فإنها لم تزد على ست آيات.

والعلم الذي يشير إليه القرآن هو العلم بمفهومه الشامل الذي ينتظم كل ما يتصل بالحياة ولا يقتصر على علم الشريعة وحدها، فقد دعا إلى النظر في ظواهر الوجود ودراسة الكائن البشري ووجه العقل إلى علوم النبات والجماد والحيوان والأجناس.

ويتمثل إعجاز القرآن من جهة ثالثة في إخباره بالمغيبات وإشارته لبعض نواميس الكون التي لم تكن معروفة على عهد محمد ﷺ لبشر على ظهر الأرض، ومن جهة إحاطته بكل شيء وأن فيه الإيمان والعلم والعبادة والأخلاق مع أنه ليس كتاب تاريخ ولا علم.

ومن هنا حظر تأويل القرآن تأويلاً لايحتمله نظمه الكريم ولا يتفق مع مبادئه العليا، ولقد كان التأويل من أخطر الأسلحة التي استعملت لتفسير الآيات تفسيراً

يخرجها عن مدلولاتها الأصلية ولقد حذر القرآن من هذا الخطر وأولي الرسول هذا التحدي اهتماماً كبيراً حتى لايقع المسلمون في محاذيره.

٤- للقرآن أسلوبه الخاص ونهجه المميز في الدعوة والإقناع فقد اعتمد في مخاطبة الناس على أسلوب الفطرة فخاطب في الناس العقل حين قدم الدليل وطالب بالبرهان وخاطب في الناس القلب في دعوة الإيمان وخاطب في الناس الفكر في عبرة التاريخ والأمم والحضارات، وخاطب في الناس السمع بالنظم القرآني في جرسه ونغمه، وخاطب في الناس البصر بالدعوة إلى النظر في ملكوت السماء والأرض فهو بذلك قد خاطب في الناس كل عوامل التأثر والالتفات وهو لم يؤلف براهينه على مقدمات وقضايا ونتائج وإنما التمس الأسلوب البسيط المنطلق الذي يصل إلي كل النفوس والقلوب ويتأثر به رعاة الإبل والعامة والأميون.

كما استخدم القرآن أسلوب الترغيب وأسلوب الترهيب واستخدم طريقة التمثيل بالأمر المحسوس تقريباً للمعاني. «ومن الأساليب التي استخدمها القرآن في الدعوة والإقناع مطالبة الإنسان بالاحتكام إلى نفسه في تصرفاته الاجتماعية التي تتصل بالغير وتوجهه إلى التفكير فيما يكون عليه الأمر إذا كان هو نفسه أو من يهمه أمره من أقرب الناس إليه في مكان الشخص الآخر الذي يتصرف معه».

كذلك استعمل القرآن الأسلوب العقلي والمنطقي وذلك عندما يسوق المقدمات وينطق بالنتيجة أو يطالب السامع باستنتاجها أو عندما يزيل الشبهة التي أدت إلي اختلاط الأمر أمام النظر وهو أسلوب أرباب الثقافة والفكر.

واستخدم القرآن الأسلوب التلقيني وذلك عندما يسوق القضايا على أنها مسلمات لاتحتاج إلى دليل ولا تحتمل المناقشة.

وحكمة العلي القدير في ذلك أن الناس يختلفون في مستوياتهم العقلية والوجدانية والعاطفية ومن شأن ذلك أن يتطلب اختلاف الوسيلة عند مخاطبتهم.

٥- اختار الحق تبارك وتعالى أسلوب المتابعة للحالات الماثلة في المجتمع، فكلما

وقف المسلمون أمام أمر من الأمور واجههم القرآن بالموقف الصحيح، وتلك حكمة عالية يختلف أثرها عما لو أن القرآن نزل جملة واحدة، فقد استهدف نزول القرآن منجماً، أن يكون نزول الآيات في أوقاتها عاملاً من عوامل الثقة المتجددة، وبناء النفوس مرحلة بعد مرحلة، وبذلك نمت الجماعة الإسلامية نمواً طبيعياً من حيث الزمن ومن حيث معرفة أبعاد الأحداث والقضايا فتركزت في النفوس علامات اليقين وهو ما لم يكن يحدث لو نزل القرآن جملة واحدة وترك للمسلمين أن يدرسوه ويستوعبوا منهج الإسلام منه.

ولا ريب كان أسلوب القرآن من حيث اشتماله على وجوه الإقناع العديدة ومن حيث نزوله منجما هو آصل الأساليب في الدعوة إلى الله، وهو بذلك يتميز تميزاً واضحاً عن أساليب الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة من حيث منهجهم المعقد وأساليبهم المتداخلة التي تقف النفس الإنسانية إزاءها مضطربة عاجزة، أما أسلوب القرآن فهو أقرب الأساليب إلي الفطرة وأصلها من حيث النفاذ إلى كل ما في الإنسان من عقل ووجدان وحس وعاطفة وكيان فضلاً عن أن النماذج التي قدمها القرآن في طريق الإقناع هي نماذج بشرية تعيش على أرض الواقع تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وهي قصص صادقة ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ الآية ليس فيها تعمل ولا تزويق ولا تحريف، تقصد إلي الغاية وتستهدف العبرة ولا تعنى بالتفصيلات أو الأسماء.

وقد قدم القرآن للبشر آيات كبرى للإقناع لاينفك عنها العقل السليم والفطرة الصافية، فقد أقنع بالطبيعة ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ﴾ وأقنع بعنصر الحياة ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ وأقنع بأحداث الطبيعة ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ وأقنع بالروح ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وأقنع بقدرة الله على تحويل الإرادة الإنسانية ﴿ أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى ﴾ وأقنع بالاختلاف في المتشابه ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ وأقنع بالفصل بين المجريين المختلفين ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً ﴾ وأقنع

بالنفس ﴿ ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها ﴾ .

٦- احتوى القرآن الكريم على:

(١) «العقائد» التي يجب الإيمان بها ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر «وهو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر».

(٢) الأخلاق الفاضلة التي تهتدي بها النفوس وتصلح من شأن الفرد والجماعة.

(٣) الدعوة إلى النظر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ليعرف المسلم أسرار الله في كونه وإبداعه في خلقه.

(٤) قصص الأولين: أفراداً وأمماً، أوردها على النحو الذي يثير الاعتبار والاتعاظ وأرشد إلى سنن الله في معاملة الصالحين منهم والمفسدين.

(٥) الإنذار والتخويف أو الوعد والوعيد: وللقرآن في ذلك طريقان: (الأول) الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا بالتمكين في الأرض أو بتقلص العز والملك وتسليط الظالمين (الثاني) الترغيب والترهيب بنعيم الآخرة وعذابها.

(٦) الأحكام العملية التي وضع أصولها وكلفنا اتباعها في تنظيم علاقتنا بالله سبحانه وتعالى وعلاقتنا ببعضنا البعض وهذه الأحكام يطلق عليها فقه القرآن وهي العبادات، وأحكام المعاملات (الزواج والطلاق والمعاملات المالية، والجنايات كالقتل والسرقة، والسلم والحرب، والشورى والعدل).

ويمكن القول بأن القرآن جاء بالأسس العامة الخالدة الثابتة والقواعد الكلية لنظام الفرد ومنهج المجتمع، وفي القول الجامع: إن القرآن مصدر العقائد والشريعة والأخلاق.

والقرآن يفسر بعضه بعضاً ويرد مشتبهه إلى محكمه كذلك وضع القرآن أساس المعرفة واستوعب أساليبها ووسائلها وجعلها كلاً متكاملاً غير قابل للانشطار أو التجزئة، وتقوم نظرية المعرفة في القرآن على أساس التعادل بين الكم والكيف والتوازن بين الروح والمادة والمواءمة بين الغاية والسبب.

وقد ربط القرآن في وحدة جامعة بين الحواس والعقل والوجدان، ودعا إلى استعمال السمع والبصر، وأثبت القرآن أن للاجتماع نواميس ثابتة وقرر أن للجماعات كما للآحاد آجالاً لاتستطيع أن تتعداها، وأن الفكر الإسلامي إنما يتحرك في نطاق القرآن فإذا خرج عنه وقع الحرج الذي لايرتفع إلا بالعودة إلى القرآن، وقد وضع القرآن قانون الارتقاء قبل العلم الحديث بأكثر من ألف عام.

٧- القرآن الكريم هو أساس الوحدة وهو مصدر التغيير الجذري في حياة العرب الذي خرج بهم من نطاق القبيلة والوثنية والعبودية وهو الذي ما زال يهدي في كل معضلة أو مشكلة، فيه لكل قضية حل ولكل أمر توجيه، ولقد صدق الخليفة الأول أبو بكر الصديق حين قال: لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ وتأثير القرآن في المسلمين لاينقطع، لأنه يحمل الأحكام والمبادئ والحدود التي تتناول حياتهم الفردية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولقد صحح القرآن الأخطاء التي نسبت بغير حق إلى الأديان والكتب السابقة ودحض التفسيرات التي حاولت إخراج دين الله عن طريقه الصحيح.

وقد ركز القرآن تركيزاً شديداً على قيم ثلاث:

(أولاً) وحدة الله تبارك وتعالى وإفراده بالخلق والأمر.

(ثانياً) المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي.

(ثالثاً) البعث بعد الموت والجزاء.

وقد تضمنت مبادئ القرآن إلى ذلك حقائق هامة:

أولها أنه لا نبي بعد محمد ﷺ ، وأنه لا عذر لأحد في عدم معرفة الخالق المدبر لهذا الكون، وأن إقرار الإنسان بوجود الله لاينفعه ما دام يخالطه شيء من الشرك، وأنه لا سبيل إلى الإيمان بالله وبعض رسله وبعض كتبه ولابد من الإيمان بالرسل جميعها والكتب كلها، وهو ما امتازت به أمة محمد.

(ثانياً) دعا الإسلام إلى البرهان ونفر من التقليد وحث على استعمال العقل

ورسم منهج تربية المسلم على تحمل الشدائد حتى يكون قوي العزيمة.

وأوجب الله على المؤمنين الدفاع عن عقيدتهم بجهاد العلم واللسان والسيف.

٨- القرآن هو النموذج الأعلى لبلاغة اللغة العربية وهو أصل الشريعة الإسلامية وعمودها، وقد أشار القرآن إلى عربية القرآن في أكثر من عشر مواضع من سورة: الشعراء والأحقاف وطه وفصلت والزخرف والشورى والرعد والنحل.

والقرآن وحده هو الذي أعطى اللغة العربية مكانها ومنح الكلمة محتواها الكامل ورسم لها حجمها الحقيقي وجعل منها المعجزة الإلهية الباقية».

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب: القرآن هو سياج اللغة العربية، شغل المفكرين من المسلمين والعرب ببلاغته وبيانه ذلك أنه نزل بلغة قريش أفصح لغات العرب، لأن رسول الله قرشي وليكون هذاالكلام زعيم اللغات كلها لما امتازت قريش من العرب بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وقد ألف العرب أمرهم ذلك واحتملوهم عليه «فردوهم به فلأن يألفوا مثله في كلام الله أولى».

ويقول الإمام الشافعي: إن الله أقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية، ثم أكد ذلك بأن نفي عنه - جل ثناؤه - كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى: ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ (النمل) ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته: أأعجمي وعربي ﴾ (فصلت).

ويقول الإمام الشافعي: إن على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ولا يجوز (والله أعلم) أن يكون أهل لسانه (أي العرب) أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف، بل كل لسان تبع لسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه».

ويقول الثعالبي في فقه اللغة: «الإقبال على تفهم العربية ديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين».

ويقول العلامة أبو الحسن الندوي: إنه لا بقاء لدين ولا بقاء لشريعة ولا بقاء للغة إلا ببقاء الأمة التي نزل في لغتها هذا الكتاب الخالد وشرع في لغتها هذا الدين العالمي، اندثرت أمم فاندثرت أديان، وقد يسبق اندثار الأمة اندثار الدين، وقد تندثر أمة وقد تطوى من سجل التاريخ ومن سجل العالم فيأتي دون الدين الذي كانت تدين به، وقد يندثر دين لأنه قد أدى رسالته وفقد صلاحيته ثم تندثر هذه الأمة التي كانت تدين به، أما «القرآن» فإنه مضمون البقاء مضمون الخلود، مكفول القراءة، مكفول التلاوة مكفول الفهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ وقد تحقق أن هذه الأمة العربية كانت ولا تزال بإذن الله مكفولة البقاء مكفولة الحياة فإنه لافائدة من بقاء هذا الكتاب إذا ضاعت اللغة وإذا ضاع أهلها فمن يفهمه ويفسره، ومن يعرف مبادئه ومضامينه ومكوناته، إن هذه الأمة تبقى مهما توالت النكبات وتتابعت الأزمات صاحبة الرسالة الإسلامية وصاحبة النبوة الآخرة وصاحبة الكتاب الآخر.

وأن من أعظم ما يجب أن يركز عليه المسلمون هو الحفاظ على (النص القرآني) الذي وصل إلينا كاملاً خالياً من التحريف أو التغيير سالماً من التناقض الذي أصاب ما سبقه من الكتب المقدسة بحيث اختلط من هذه الكتب ما كان من كلام الله بما هو من حكايات البشر ووضع الكهان وتخيلات أصحاب الأهواء.

كذلك تلزم رعاية (الترتيب القرآني) هذا الترتيب التوقيفي الذي وضعه النبي محمد ﷺ بتوقيف جبريل عليه السلام، ومن الثابت تماماً أن اليوم الذي أكمل فيه نزول القرآن أكمل فيه ترتيبه، ومرتبه هو الذي أنزله والذي أنزل القرآن على قلبه رتب القرآن على لسانه وما كان لأحد غيره أن يتدخل فيه.

٩- إن عظمة القرآن الفريدة لاتتجلى في شيء قدر ما تتجلى في الحقيقة الهامة: وهي أننا كلما اتسعت معلوماتنا عن العالم وزادت تجاربنا التاريخية وقطع العلم مراحل جديدة كلما تكشفت لنا معان جديدة في القرآن الكريم لم يكن لنا بها عهد من قبل.

وليس القرآن عند المسلمين مجرد كتاب صلوات أو أوراد أو غذاء للروح أو تسابيح فحسب بل هو قبل ذلك القانون الأساسي للنظام الإجتماعي الإسلامي وكنز العلوم ومرآة الأجيال.

والقرآن عقد اجتماعي بين الله والبشر - قال الإمام ابن حزم: (القرآن هو عهد الله إلينا الذي ألزمنا الإقرار به) ولقد كان من الحقائق التي أمسكت العالم الإسلامي من أن ينهار وأمسكت الإسلام من أن يزول بقاء القرآن بنجوة من كل التيارات والأحداث سليماً لم يمسه سوء.

«والقرآن فيما يقر وينفى قسطاس الحق، وميزانه فيما يأمر أو يحرم خير مثال يحتذى في السلوك، وفيما يحكم به صادق دائماً ومنصف، وفيما يبحثه يعطى الحجة القاطعة والقول الفصل وفيما يقوله أصفى وأجمل تعبير ممكن في الحديث، إنه خير ما يبعث الطمأنينة أو يثير النخوة في النفوس» والقرآن كلام الله لانقول إنه مخلوق، وتفسيره لايتم إلا عن طريق أهل الاجتهاد من العلماء الفاهمين لبيان العربية وقد أجمع العلماء على جواز ترجمة معاني القرآن، لاالقرآن نفسه وليس في القرآن كلمات أعجمية كما يدعون: يقول الإمام الباقلاني: إن كل كلمة مستعملة في القرآن هي عربية والأعاجم هم الذين أخذوها من العرب، وإن اشتمال القرآن على بعض ألفاظ أعجمية (كلمتين أو ثلاثاً) لاينافي عربيته ولو لم يكن القرآن لما اتفق للغة العربية الفصحى هذه الوحدة، ولولاه لتعددت لغات العرب تعدد لهجاتهم العامية اليوم، فقد حال القرآن دون تفكك اللهجات العامية، وحافظ على اللغة العربية من الدثور والضياع، فقد حفظ القرآن للعرب نحوهم وصرفهم وأساليبهم في منثور الكلام، وأثر في الشعر فأضعفه وأثر في النثر فأحياه ونقله إلى الأسلوب العملي، وقد استعمل في التأثير على العقول والقلوب أسلوب التكرار وأدوات الاستفهام للتبيين والاستنكار للإثبات عن طريق النفي واستعمل السجع والازدواج والكلام المرسل وخالف سجع الكهان مع وضوح العبارة وقلة الغريب فلم يصعب فهمه على القارئ الوسط ومن حيث إن القرآن هو من نوع كلام العرب أصلاً مع محتواه

الجديد ونهجه الفريد فقد هز النفس العربية والقريحة العربية وكان شديد الاستيلاء على القلوب.

وقد حفظ القرآن اللغة العربية من العجمة حين دخل الناس أفواجاً في الإسلام كما صانها بعد أن اختلفت اللهجات ولولا القرآن لتقطعت الأسباب بين ألسنتهم ولتشعّبت لغتهم وتلك ميزة القرآن البالغة أنه جمع العرب على اللغة.

وهكذا فالقرآن إلى جانب كونه كتاب الإسلام فهو كتاب العربية «ومجتلى أصالتها» «تم تدوينه كله بإشراف الرسول وتحت رقابته والاحتياط له حتى منع الرسول أصحابه من كتابة الحديث، فسلم القرآن من كل ما تعرضت له النصوص الأخرى من شوائب الرواية الشفهية فهو النص الموثق الذي تم تدوينه منذ أربعة عشر قرناً وهو النص المعجز الذي بهر العرب فأعياهم أن يأتوا بسورة من مثله.

وقد أثار القرآن قضايا جديدة وألقى إلى الفكر البشري بحصيلة ضخمة من القيم والمفاهيم ظلت تشغله زمناً في صراع ضخم ومعارك لا حد لها بين مختلف العقليات وعلى ضوء ثقافات الأمم وفلسفاتها القديمة حتي انصهر ما صلح من تلك القيم في إطار الإسلام وفي بوتقته، فالقرآن هو مناط الوحدة الفكرية والذوقية والوجدانية ومهما تعددت اللهجات المحلية واختلفت البيئات الإقليمية يبقى القرآن على نقاء أصالته وعمق نفوذه وبالغ تأثيره وانفراده بهذا كله مما لايعرفه كتاب آخر.

والقرآن بعد هذا هو المرجع الأخير فيما يخص اللغة العربية وقواعدها والإلمام به ضرورة بالنسبة لكل من يريد تعلم العربية.

ولم يحفظ القرآن اللغة من ناحية البلاغة وحدها أو من العامية واللهجات فحسب، ولكنه حفظ اللغة العربية من أن تذوب في اللغات الأجنبية التي تغلبت على اللغة العربية بحكم ظروف الاحتلال والسياسة، ولقد كانت محاولات النفوذ الأجنبي المتصلة خلال قرن ونصف كافية لأن تمحق اللغة العربية محقاً، ولكن القرآن الكريم وحده هو الذي عصم هذه اللغة من الضياع.

١٠- لاريب أن القرآن هو الذي مهد لصياغة المنهج العلمي والنظرة العلمية القائمة على تقدير سنن الله في الكون والمجتمعات فقد دعا القرآن إلي النظر العقلى والمحاجة بالدليل وإلى حرية الفكر واحترام العقل وتكوين شخصية الفرد عن طريق البحث والعلم ودعا إلى استخدام الإنسان للتفكير والتدبير والذكر ودعا إلى اعتناق الرأي نتيجة الاقتناع والتأمل دون إكراه وفتح باب الاجتهاد تقديراً لتطور الحياة وما يجد فيها من الأحداث والمعاملات، هذا من ناحية خصائص المنهج العلمي، كذلك دعا إلى النظر في الكون وتدبر آياته وعجائبه وحرض الإنسان على فهم أسرار الكون والحياة وأعلن في صراحة ووضوح أن كل ما في الكون خلق للإنسان، ومن حقه الانتفاع بما فيه من خامات ومعادن وركاز ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ وبذلك أعطى الإنسانية مفتاح المعرفة في العلوم المختلفة: كذلك دعا إلى أهمية العناية بدراسة الطبيعيات والعلوم الكونية ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وتحدث عن القوة: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وتحدث عن الحديد ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ ومن هذا المنطلق وصل المسلمون إلي ما لم يصل إليه غيرهم من قبل وهو بناء المنهج العلمي التجريبي: أساس الحضارة العالمية الحديثة.

وقد وصل المسلمون في ضوء القرآن إلى ما وصفه الدكتور جورج سارطون بأنه يتجاوز حد التصديق يقول (وقد بلغ المسلمون في مجال البحث العلمي ما يجوز أن نسميه معجزة العلم العربي، وقد أوردت كلمة معجزة لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق وليس لذلك شبه في تاريخ العالم كله) ومن هنا يمكن القول بأن القرآن هو مصدر المنهج العلمي الحديث ومنطلق العمل فيه.

١١- ولقد واجه القرآن الكريم حملة مستمرة عليه على مدى العصور يحمل لواءها خصوم الإسلام وأصحاب الفلسفات الهدامة الذين يثيرون الشبهات والشكوك، وسر تلك الخصومة أن القرآن الكريم يمثل بالنسبة للإسلام وللمسلمين وللفكر الإسلامي: «المصدر» الأول و«الأساس» المكين و«المنهج» الرباني الذي رسم للحياة الإنسانية أصفى أسلوب وأنقى طريق: طريق الأصالة «الصراط المستقيم» الذي أقامه الحق تبارك وتعالى للناس هدى ورحمة.

ولقد كانت أهمية القرآن في نظر أهله، وما تزال، خطراً في نظر خصومه إنه يحمل قيماً ثلاثا: أنه آخر الكتب السماوية، وأنه ناسخ لهذه الكتب وقائم بها ومهيمن عليها وأنه النص الموثق الذي لم يصبه تحريف أو تغيير.

ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة عليه ومحاولة إثارة الشبهات حوله، ولقد عجز كثير من الساسة والمستعمرين أن يخفى الخطر الذي يواجه نفوذهم وسيطرتهم إزاء بقاء القرآن وفهمه وتطبيقه، ولذلك جرت المحاولة على تصويره بأنه كتاب عبادة ودين وتجاهل أهميته الأساسية في أنه نظام مجتمع، ومنهج حياة. كما عمدت السياسة الاستعمارية على إبعاده عن مجال الحياة والفكر، وإخراجه من مناهج التربية والتعليم، وعزله عن القانون والمجتمع والاقتصاد والسياسة. غير أن حركة اليقظة الإسلامية منذ فجرها وعلى مدى أطوارها كانت حريصة على تأكيد مفهوم القرآن الصحيح ومهمته الأصيلة في بناء المجتمع الإسلامي بتطبيق شريعته ونظامه وقانونه.

وقد تأكد للمسلمين وما يزال يتأكد أنهم لن يستطيعوا امتلاك إرادتهم والسيطرة على بلادهم وتحقيق وجودهم الحر الكامل، وإذاعة دعوتهم ورسالتهم إلا إذا انطلقوا من القرآن نفسه نظاماً لمجتمعهم ومنهجاً لحياتهم، ولقد عرف عتاة السياسة هذا الخطر، واعترفوا به فقال (هج. ولز): في القرآن أشياء كثيرة حسنة تكاد تهمل فحبذا تجدد الحياة بها، ناهيك أن القرآن وهو عروة الإسلام الوثقى، أو هو على الأقل أحسن وسيلة تستخدم في تحقيق الوحدة الإسلامية، ولو لم يكن

لدي المسلمين من واسطة إلي اتحاد لوجب عليهم اختراعها ولكن كتابهم خير واسطة. ويقول (مراشي): من تأمل كلام القرآن رأي أن محور الإسلام هو الوحدانية وقطبيه: المؤاخاة وتحسين شئون العالم بالتدريج بواسطة العلم وهذه أسباب نصرة الإسلام.

وقد رد كثيرون على الحملات التي وجهت إلي الفصل بين أسلوب الكتابة العربية وأسلوب القرآن وقال العلامة مصطفى صادق الرافعي: إن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه، إلا من لا يحفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق، إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومه ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء بها، وأحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها، وكل هذا مما يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها ضرب من الفساد والجهل.

١٢- لقد لفت القرآن نظر الكثيرين من الكتاب الغربيين المنصفين إلى أصالته وعظمته بالرغم من ثقافتهم الغربية ومفاهيمهم المسيحية فقال اميل درمنهجم: القرآن هو معجزة محمد الوحيدة فإن جماله الأدبي الفائق وقوته النورانية لايزالان إلى اليوم لغزاً لم يحل وهما يضعان من يتلونه في حالة خاصة من الحماس، لقد تحدى محمد الأناسي والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان صدق رسالته بالمعنى الكامل.

ويقول إدوار مولييه: القرآن في الحقيقة ذو قيمة خارقة للعادة فهو بين الكتب الدينية من أعظمها شأناً ويقول العلامة نيني: إن مرشد المسلمين هو القرآن وحده، والقرآن ليس بكتاب ديني فقط، بل كتاب علم وآداب، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الإنسان إلي وظائفه اليومية والأحكام الإسلامية ويقول الكونت دي طرازي: القرآن هو الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأوطانهم، وأحدث انتشاره تأثيراً كبيراً في أخلاق الشعوب التي دانت بالإسلام وفي عقولهم وآرائهم وميولهم فادمجوه في كل شأن من شئونهم

دينية ودنيوية، واتخذه مصدراً لقضائهم ودعامة لمنازعاتهم السياسية وسائر أمورهم حتى طعامهم وشرابهم وكسوتهم ومعيشتهم المنزلية وأعمالهم التجارية.

ويقول مارسيل كاني: القرآن باسم الإيمان الثابت على وجه الإطلاق يحمل إلى الناس بدون سفسطات بيانية ولا خيالات غير طبيعية أصول العدالة والنظام الاجتماعي الذي يخضع كل فرد لمراعاة أدب الاجتماع ويفرض على الجماعة حماية الأفراد وهو بهذا الأسلوب يوافق أحدث القواعد الاجتماعية العصرية.

وقال جيبون: القرآن مسلم به من حدود الأقيانوس الأتلانتيكي إلى نهر الجانس بأنه الدستور الأساسي ليس لأصول الدين فقط بل للأحكام الجنائية والمدنية والتشريع التي عليها مدار نظام حياة النوع الإسلامي وترتيب شئونه.

ويقول أميل درمنجم: إنه لأجل بعث حضارة إسلامية جديدة تضاهي حضارة السلف بل تفوقها، يكون بالرجوع إلي القرآن (والحديث) فما تزال هذه التعاليم السامية حية نابضة متدفقه قوة وحكمة، فإذا ما استمد منها المفكرون فإنهم يقيمون بدورهم صرحاً يبعث من جديد حضارة إسلامية تتبوأ مكانها بين حضارات العائلة البشرية.

ولقد حفلت الدراسات الغربية الاستشراقيه وغيرها بأبحاث كثيرة عن القرآن وترجمات لمعانيه.

١٣- ومن أبرز الدلائل على أن القرآن من عند الله أنه سجل جميع الشبهات التي أثارها معارضوه زاعمين عن طريقها بأن القرآن كتاب بشري لا إلهي، وقد رد عليها القرآن واحدة واحدة ومن آياته أن القرآن من عند الله ما وجه إلى النبي من عتاب لتصرفاته في الأسرى وفي مقابلة الأعمى، وما يزال القرآن قائماً بالتحدي في وجه كل مدع أن يأتي بسورة من مثله أو آية من مثله قد عجز البشر ولا يزالون عاجزين، وقد انكسرت منذ سنوات طويلة تلك الدعوى المبطلة. ومضى القرآن يكسب قلوباً ونفوساً لم تجد في الفكر البشري ما يهديها . بينما وجدت فيه الهدى

والرشاد، وقد كانت أبرز مقاصد القرآن وما تزال إقامة منهج البرهان، وإعلان المساواة العامة والإخاء بين الناس جميعاً، وتطهير عقيدة التوحد وإسقاط الوساطة بين الله وخلقه، ووحدة الجماعة البشرية وإهدار الفوارق الجنسية، والعودة إلى التكافل والارتقاء والسلام.

(٦)

الـــــــدين

١- حقيقتان يكاد الإجماع ينعقد عليهما، أن الدين من عند الله وأن التدين فطرة، فإن أصالة الدين والتدين في تاريخ الأمم الماضية يؤكد هاتين الحقيقتين، وأنه كما قال (بلو تارك) من الممكن أن توجد مدن بلا أسوار وبلا ثروة وبلا آداب وبلا مسارح ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد أو لا تمارس الصلاة، فالدين طابع الإنسان وإحدى ضرورات الإنسانية، ويؤكد (توينبي) أن الأيدولوجيات عجزت عن أن تسد مكان الدين وأن من الخصائص الأساسية للإنسان (الإدراك): إدراك وجوده وإدراك العالم المحيط به وأن هذا الإدراك هو ما جعل الإنسان مختاراً في تصرفاته فيما يتخذه من قرارات، وقد قاده هذا الإدراك إلى اكتشاف أنه لا يعلم من العالم الذي يعيش فيه إلا القليل من القشور وأن هذا القليل الذي يعرفه لايفسر له سر الحياة والكون، وأن الكلمة الأخيرة في مصيره ليست في متناوله، ولكنها ملك قوة قاهرة عليه أن يتعرف عليها، وأن يعيش متوافقاً معها متصلاً بها ومعنى هذا أن التدين جزء من الطبيعة البشرية وأن الإنسان لايستطيع أن يعيش دون دين.

وتقرر العلوم الحديثة والدراسات الانثروبولوجية أن الدين أسبق من الفلسفة، وأنه هو الذي أعطى البشرية تلك الحصيلة الضخمة من الفكر والعلم والمفاهيم والقيم التي ما تزال يتداولها حتى الآن، وأنه هو الذي زود العلم بمجموعة من الصور يختار من بينها تمثلاً أولياً للكون وزود الفلسفة بمعنى اللامتناهي والعدل والظلم والحق والخير والشر والفاني والخالد وهي قيم لاتزال تحتفظ حتى الآن بمفهومها الأول.

ونحن نؤمن بأنه بغير الدين ما استطاعت البشرية أن تنشئ هذا الفكر الحي الخالد ولظلت تتخبط في الأساطير التي تنسجها العقول المكدودة والنفوس الخائفة

من عوالم المجهول، وأن الدين هو الذي هدى البشرية إلى الأمن النفسي والسكينة والرحمة والثقة بالله تبارك وتعالى، والحقيقة الأولى في الدين هي التوحيد وعبادة الله الحق، وهي التي جاء بها كل دين وكل نبي، ثم حرفت أو بدلت أو غيرت بالإضافة أو الحذف، والتي قدمت في صورتها الصحيحة بعد ذلك في الإسلام.

وقد تأكدت هذه الحقيقة بوسائط كثيرة منها الحفريات والأبحاث الانثرويولوجية ووقائع التاريخ بحيث لم يعد معها مجال للقول بأن الوثنية وعبادة الأصنام كانت سابقة للتوحيد، كذلك فليس يصدق ما أذاعه خصوم الأديان من القول بتدرج البشر من معتقد قوامه السحر والكهانة والتنجيم والتمائم والطقوس إلى عقيدة للتوحيد، ذلك أن الإنسان بالقطع واليقين بدأ موحداً، وآدم عليه السلام أبو البشر هو أول من حمل رسالة التوحيد إلىٰ الناس، أما السحر والكهانة والتنجيم فتلك هي تحولات الإنسان من التوحيد إلى الوثنية تحت تأثير الانحراف عن الدين الحق.

والتدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني والفطرة البشرية وهو عامل إيجابي أعطى الحياة طابع القوة والتقدم.

٢- عملت الأديان السماوية على ترقية الإنسان فوجهت المؤمن بها إلى الجانب الاجتماعي الذي يدور على نفس الناس بعضهم لبعض والتأكيد على الجانب الأخلاقي لأنه أساس الصلة بين الأفراد ودعامة المجتمع السليم، ولقد عملت الأديان السماوية على نقل الإنسان ومجتمعه من الفوضى إلى النظام، ومن الصراع إلى التعاون، ومن الخيال النظري إلى الواقع العملي ومن الخرافه والظن إلى الحقيقة والبرهان.

ولقد كشفت وقائع التاريخ عن أن للدين وظيفة كبرى في المجتمعات أبرز مظاهرها البعث القوى لتهذيب السلوك وتصحيح المعاملة وتطبيق العدل ومقاومة الفوضى والفساد والربط بين قلوب معتنقيه برابطة المحبة والتراحم وهو رباط لايعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار.

كذلك فقد قدم الدين للمجتمع البشري القوة الأصلية التي لاتدانيها قوة في كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع، واستقرار النظام والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه، ولما كانت المجتمعات في حاجة إلى رقيب أخلاقي يوجه الناس لخير الإنسان وعمارة الأرض فإنه لايوجد رقيب أشد قوة من العقيدة والإيمان، من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة وكان لذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية.

ومن هنا فإنه من المستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها وأبرز الحوافز لدعم المجتمعات وضبطها ولا توجد أمارة تدل على أن فكرة التدين ستزول من الأرض قبل أن يزول الإنسان وستبقى في الكون أسرار ومجاهيل لايستطيع العلم أن يكشف عنها، يقول (أرنست رينان) إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحى التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية.

٣- يقول علماء اللغة والفقه المسلمين: إن الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الإصلاح في الحال والفلاح في المآل، وهذا يشتمل العقائد والأعمال، ويطلق على ملة كل نبي، وقد يخص بالإسلام ويضاف إلى الله تعالى لصدوره عنه وإلى النبي لظهوره منه إلى الأمة لتدينهم وانقيادهم هذا في الفكر الإسلامي.

فما هو مفهوم الدين في الفكر الغربي؟

يطلق على الدين في الغرب كلمة (Religion) يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق إنها تعني:

١- نظام اجتماعي لطائفة من الناس يؤلف بينها إقامة شعائر موقوته وتعبد ببعض الصلوات والإيمان بأمر هو الكمال الذاتي المطلق، وإيمان باتصال الإنسان بقوة

روحانية أسمى منه حالة في الكون أو متعددة، أو هي الإله الواحد.

٢- حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن أعمال عادية تتعلق بالله.

٣- احترام في خشوع لقانون أو عاطفة.

والدين في الماركسية، أفيون الشعوب ويستعمل لتخدير الفقراء والعمال حتى يقنعوا بالقليل في هذا العالم جزاء الكثير في العالم الآخر.

والدين عند مدرسة العلوم الاجتماعية: ظاهرة من الظواهر الاجتماعية - على حد قول دروكايم والدكتور طه حسين نقلاً عنه - لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحي وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

ورجل الدين في اللغة الفرنسية (Religuieux) يوصف بأنه لايصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس.

أما علماء الدين في الإسلام - لأنه ليس في الإسلام رجل دين - فهم أئمة في شرح القوانين المدنية، ويرجع ذلك إلى أن كل مسلم عليه أن يفهم دينه، وكلمة (Religon) مأخوذة من الفعل (Religors) بمعنى العبادة المصحوبة بالرهبة والخشية وكلمة (Religon) رأى جيبو مشتقة من الفعل Religors بمعنى جمع أو ربط أي أنه ارتباط جماعة إنسانية بإله أو آلهة.

ولقد وجه الفكر الغربي إلى الدين في القرون الأربع الماضية حملات حمقاء عنيفة وصفه فيها بأنه قد انتهى عصره وأنه لايستطيع أن يقدم شيئاً للبشرية: وقال فولتير وهو على رأس أصحاب الحملة على الدين: إن الديانات مخالفة للإنسانية لأنها سببت الاضطهاد وسفك الدماء، وثانياً لأن الديانات مخالفة للعقل لأن فيها أسراراً لايستطيع العقل أن يفهمها وأن الديانات من خصائص الطبقات المنحطة، ولا تتصل بالطبقات العليا (وهو يقصد الدين الغربي الذي عرفه وعاشه).

وقد توالت الحملات على الدين والفكرة الدينية في الغرب وقدموا بديلاً عن

الدين السامي أدياناً جديدة بشرية تعني الإيمان بالإنسان بدلاً من الإيمان بالله، وقد قررت هذه الدعوات أن الكتب المقدسة لاتختلف عن كتب الأدب والفلسفة.

ونحن نعتقد أن كل ما وجه إلى الدين سواء من الفكر الغربي أو الفكر الماركسي هو موجه لحالات خاصة ولظروف تاريخية معينة وضعت الأوربيين في وضع جعلهم يفهمون من الدين ما وجدوه مرتبطاً بتاريخهم ومجتمعهم، ولقد قام بين أصحاب هذه التفسيرات الدينية وبين رجال العلم خصومات واسعة وخلافات عميقة مصدرها أن المفاهيم التي كانت مطروحة ذات طابع روحي خالص، وأنها كانت تعلى من شأن الزهادة والانصراف عن الدنيا وتسلم أمر الناس إلى قوى عاتية، فضلاً عن أن جملة القيم والمعارف لم تكن قادرة على استيعاب مقدرات النهضة ولا معطيات العلم ولم تكن مستطيعة الالتقاء بهما وأن الأمر في ذلك كله لايتصل بالدين بعامة إلا من حيث إطلاق اللفظ بينما يختلف الإسلام عن ذلك اختلافاً عميقاً، ولقد تنبه إلى هذا المعنى بعض كبار الفلاسفة الغربيين أمثال (هـ. ج. ولز) الذي يقول: إن كل دين لايسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط ولا تبال به لأن الدين الذي لايسير مع المدنية جنباً إلى جنب فهو شر مستطير على أصحابه يجرهم إلى الهلاك، وأن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية أني سارت هي الديانة الإسلامية، وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً عن هذا فليقرأ القرآن وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع فهو كتاب ديني علمي اجتماعي تهذيبي خلقي تاريخي وكثير من أنظمته وقوانينه تستعمل حتى وقتنا الحالي وستبقى مستعملة إلى يوم الساعة.

وليس "ولز" وحده الذي يقول هذا ولكنها مجموعة ضخمة من الفلاسفة يمكن الرجوع إلى آثارهم في كتابنا (الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني).

٤- ويختلف مفهوم الدين بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي في نقاط متعددة: أهمها التوحيد، والجمع بين العبادة والشريعة، والمسئولية الفردية المرتبطة بالبعث والجزاء وثبات قيم الأخلاق، وقيام نظام لاحركة داخل إطار الثوابت، وتلازم التقدم

المعنوي مع التقدم المادي، إقامة مبدأ الإخاء الإنساني ونبذ العنصرية، الإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب وجميع الأديان السابقة، إقامة العلاقة المباشرة بين الله والإنسان دون وساطة، حرية الاعتقاد.

أما بالنسبة للإسلام فهو الدين الخاتم للبشرية كلها، الذي جاء جامعاً بين العبادة والشريعة والأخلاق، كمنهج حياة للفرد ونظام للمجتمع. كما جاء بنواميس للكون وسنن للمجتمعات والأمم والحضارات لاتتخلف، ويعلن أن وراء هذاالعالم المادي المحسوس عالما آخر أرقى منه تنتهي إليه النفوس البشرية بعد الموت.

وأن الإنسان جامع بين الروح والمادة لأن خالقه صنعه من الطين ثم نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وجعله مستخلفاً في الأرض، فالإنسان في الأرض له رسالة وأمانة ومسئولية تستهدف بناء الحياة والتقدم في إطار المنهج الرباني الذي أرسل الأنبياء والرسل به.

وفي الإسلام لاينفصل الدين عن الأخلاق ولايمكن وجود أخلاق مستقلة عن الدين، فإذا انفصلت الأخلاق عن الدين لم يكن لها وجودها الذي لايتم إلا بتحركها في دائرة العقيدة، وفي الإسلام يرتبط الدين بمفهوم الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد، وهو لايحول بين أهله وبين ضروب النشاط المختلفة للعقل، وهو يحقق الانسجام والتوازن والمواءمة بين العقل والقلب ويقضي على الصراع بينهما - والدين هو رابطة الفكر والإيمان والثقافة ومصدر وحدتها، والعبادات وسيلة إلى حسن المعاملات وتهذيب الحياة وإلى منحها القوة والإيجابية والاستقامة.

وليس في العربية كلمة بمعنى Raith أو Credet فالإيمان دائماً يقين واليقين دائماً معرفة لاتفنى.

٥- وفي الإسلام ليس بين الدين والعلم صراع، فالإسلام يحث على البحث والنظر ويقرر حرية الإيمان والاعتقاد في النفس والفكر، ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ولما كان العلم سلاحاً له حدان يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير، فقد كان

استعماله في إطار الدين الحق خير رقيب على توجيهه لخير الإنسان وعمارة الأرض لا إلى نشر الفساد والشر. من أجل ذلك كان الدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قوانين العدالة.

ولقد حاول العلم أن يستعلي على مختلف جوانب الفكر البشري بعد أن توصل إلى سر المادة وتركيبها وسار في طريق معاد للدين، غير أن العلم لم يلبث أن عرف أن مهمته قاصرة على دراسة ظواهر الأشياء، وأنه لايستطيع أن يعرف ما يتجاوزها، من فهم الكون وغايات الحياة: يقول أميل برتوا في كتاب العلم والدين: بعد أن كان العلم ينادي بالحتمية أخذ يتراجع ويرى أن القانون الذي حكم العالم هو قانون الاحتمالات وبذلك انفسح مجال القول بأن هناك قوة عليا تسير العالم من خارجه، ولذلك نجد في الوقت الحاضر موجة من التدين تعم أرجاء العالم باسم العلم ذاته.

ولقد أنذر العلم بفناء الأديان ولكن الأديان ظلت راسخة وأنذرت المادية بفناء الأديان ولكن الأديان ظلت قائمة.

ويقول: إن تقدم البشرية في البحث والتأمل والتفكير أفضى إلى أمرين:

الأول: الخروج من التعدد إلى التوحيد.

الثاني: تجريد الآلهة من مظهرها المادي واعتبار الإله الواحد هو القوة العليا والكمال المطلق.

ويقول إنه لم يعد في الإمكان إخضاع الدين للمناهج المادية، ذلك أن أساس الدين هو الوحي وهذه الصلة بين الله والإنسان.

٦- يقول دكتور فيكتور فرانكل: إن الحاجة إلى التدين عنصر دفين في النفس البشرية، وقد نستطيع أن نخفى على غيرنا شعورنا الديني، ولكن إذا تعمدنا إخفاءه على عقولنا الواعية وحاولنا أن نساير الاتجاه العصري في اعتبار التدين والشوق إلى التعبد من مخلفات العقائد التي ورثناها من الماضي العتيق، وليست

هناك حاجة جوهريه إليهما، لتعرضت نفوسنا لصراع داخلي عنيف أشد خطراً على الأعصاب والصحة النفسية والجسدية من كبت الغرائز الجنسية، ولذلك فإن الكبت الروحي في العصر الحديث هو علة العلل وسبب ما يعانيه الكثيرون من شقاء ومرارة نفسية بالرغم مما هيأته لهم المدنية من رغد وترف، وبرغم ارتفاع مستوى المعيشة بالنسبة لآبائهم وأجدادهم، ويرجع ذلك إلى إنكار الجانب الروحي الذي يؤثر في فلسفة الناس وسلوكهم في الحياة فهو يحفزهم إلى الشعور بتفاهة الغرض الذي من أجله يعيشون ويعملون، وإلى الاعتقاد بعجزهم عن وقاية أنفسهم وذويهم عن المصائب والأخطار المحدقة بهم، مما يبعث في نفوسهم القلق الدائم أو الفزع وهو يؤدي إلى أنهم يسلمون زمام حياتهم إلى الغالبية لتحدد لهم أهدافهم ونظام حياتهم. كما أنه يؤدى إلى عدم المبالاة بشعور الآخرين والاستهتار بالمبادئ السامية وبذلك كله تصبح الحياة لاقيمة لها ولا مغزى، وتمتلئ النفس البشرية يأساً ومرارة وضيقاً. إنه من العسير الآن على الناس أن يواجهوا كوارث الحياة والحروب بغير عقيدة دينية صحيحة قوية تشجعهم وتعينهم وتواسيهم، إن فلسفة الإلحاد التي ازدهرت في السنوات الأخيرة قد عجلت بالعمل على تحطيم الكرامة الإنسانية عندما نسى الناس الجانب الروحي في الإنسان وفاتهم أنه بالفطرة يتوق إلى الاستجابة لنداء الخير والمثل العليا ويجد فيهما من اللذة والمتعة ما يجده في الاستجابة لنداء الجنس أو الجوع.

٧- قام الدين بدور واضح الأثر قوي النتائج في تاريخ الإنسانية كلها سواء كانت تلك الآثار سياسية أو اقتصادية أم اجتماعية وتاريخ الإسلام الاجتماعي في هذا المضمار فريد، فقد صهر الشعوب التي اعتنقته في وحدة عاطفية واجتماعية وسياسية على نحو عجزت كل النظم السياسية الحديثه في إحداث شبيه له، ولقد فشل التفسير المادي للتاريخ في فهم دور الدين عامة وفهم دور الإسلام بصفة خاصة إذ عجز عن تصور الآثار النفسية والأخلاقية والروحية التي يكون مصدرها الدين والإيمان بالله في تغيير وجه الحياة وإعادة تشكيلها بصورة أو بأخرى.

وقد جاء الإسلام لبناء شخص الإنسان وفق مفهوم الدين الحق، فكان في ذلك

مختلفاً في مفاهيم كثيرة عما كان يعرف باسم الدين أو بتفسيرات الدين التي جنحت نحو العنصرية أو التعدد أو الوثنية أو المادية.

ولقد كانت ولا تزال للإسلام أصالته وطابعه المميز فمن أصالته أنه يرفض كل عنصر غريب عليه وسرعان ما يتخلص منه مهما حاولت القوى أن تفرضه.

وما يزال الكثيرون من أصحاب دراسات مقارنات الأديان لايفهمون الإسلام على حقيقته لأنهم لاينطلقون من منطلقه الذي يقوم على تكامل القيم وتجمعها وخاصة المادة والروح والنفس والجسد بينما تعلى النحل القائمة من شأن واحدة منهما: الروحية وحدها أو المادية وحدها وكل منها تعادي الأخرى وتصارعها في عنف.

كذلك ارتقى الإسلام بمفهوم الدين من الصور والتماثيل التي كانت تعرفها البشرية في عصر طفولتها يقول: خالدشلديك (إن رجولة الإنسان ترى على أتم كمالها في تعبدها لله عز وجل في المساجد حيث لاصور ولا تماثيل تصرف قلوب المتعبدين إلى غير الله تعالى المتصف بصفات الكمال).

كذلك فإن الإسلام كخاتم للأديان وبوصفه الدين الحق يقدس الحرية ويقرر المسئولية، ولا يفرض الإيمان ولاينصر الدين بالخوارق، ولكنه يترك نواميس الكون لتعمل عملها في الفرد والمجتمع.

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ ﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ﴿ ولو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

٨- يقول هاملتون جب: إن الإسلام ليس ديناً كسائر الأديان ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والأخلاق، وقد خلق الإسلام العرب خلقاً جديداً وحفظ عليهم وحدتهم بل زاد تلك الوحدة قوة وكان السور المنيع الذي دفع عنهم الاستعمار.

ولقد جاء الإسلام حاكماً على المدنيات والأمم ولم يجئ محكوماً بها ويقول الين

بروديك: إن الإسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب التبشيرية الذي لم يضعف في الأرض التي نبت فيها ويلاحظ أنه عندما يفتح الدين الإسلامي بلداً ما يسيطر عليها كلية فإنه لم يحدث ليومنا هذا أن خرج منها.

ويقول أحد الباحثين: إن الإسلام قد جعل الدين للدنيا كالروح للجسد وأنه قد أعطى إجابات واضحة وكاملة لكل معضلات البشرية التي تواجهها: وخاصة العدل الاجتماعي والإخاء الإنساني والتطور والتقدم والوحدة الإنسانية والمساواة وهدم التفرقة العنصرية، وأن الرقابة في الإسلام لاتأتي من شخص على شخص ولا من هيئة على هيئة وإنما هي رقابة الإنسان لربه.

ومن هذا التمييز والوضوح لذاتية الإسلام نجد أن منهج علم الأديان اعتبار لايستطع أن يعالج الإسلام كبقية الأديان (الذي يسيطر عليه الماديون) ذلك إن هذا الدين هو دين الله أي أنه فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والعلمية، فهو ليس من صنع البشر بل من صنع الله، وستفشل كل المحاولات التي يجريها المستشرقون في المقارنة بين الأديان وبين ما ورثته الشعوب من أساطير في محاولة الاستنتاج بأن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير، ستفشل هذه المحاولات إزاء الإسلام لأنه هو الدين الذي شجب الأساطير وكشف عن زيفها وقدم الحقائق الأصيلة.

كذلك لم يلقن الإسلام قومه ما لقنه رجال الأديان لأقوامهم من التفويض الإلهي للحكام أو الحق في الغفران من دون الله ولم يقل علماء المسلمين للناس إن ما كشفه العلم الحديث من كشوف يتعارض مع الدين ولم يفصلوا بين الدين والضمير.

٩- يواجه الدين في العصر الحاضر موجات متعددة من التحدي منها الموجة المادية التي تحمل لواءها الماركسية وموجة التحلل من القيم الدينية اندفاعاً مع حرية الغريزة والعاطفة والأهواء وتطرح المذاهب الاجتماعية والنفسية في هذا المجال مفاهيم زائفة ترمي إلى دفع البشرية إلى السقوط في هوة الوثنية والمادية والإلحاد.

وديانة الغرب اليوم هي مفهوم الدولة القومية والقوة البشرية وعبادة الأيدلوجيات

الجديدة، وتحاول هذه المذاهب أن تفسر حركة الإنسان بالطعام أو الجنس، وتقوم في الغرب حرب مستعرة بين الأديان السماوية وبين النظم الديمقراطية والماركسية والقومية، حيث تضحى بعضها بالعدالة في سبيل الفردية وتضحى الأخري بالحرية في سبيل العدالة وتعجز كلاهما عن أن تحقق للمجتمع البشري نهجاً سليماً أو طوبياء سعيدة ، وفي هذا يقول (تونتني) أن كلا منهما يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر وكلتا النظريتين مادية، الإنسان لايستطيع أن يحيا بالخبز وحده فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان، وهما بالرغم من صراعهما هنا فإن لهما صراعاً آخر مع القومية والوطنية، ثم يقول: إن نقطة ضعف الأيدلوجيات هي منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير،وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجة إلى الله وحده، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة، فتضاءل ليصبح نملة في مجتمع النمل، لقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار، ولكن الأيدولوجيات لاتستطيع أن تعلمه هذه الحقيقة لأنها لاتستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحته إياه الأديان، لقد وجدت الأديان لتحرير الإنسان من آثار المجتمع وبصفة مباشرة أمام مسئولياته، واستطاعت الأديان أن تمنح معتنقيها هداية لاتستطيع أن تجاريها فيها الأيدلوجيات الحديثة.

لقد منحته الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح، ومنحته الراحة الروحية وحررته من سجون المجتمع.

ولا غنى للإنسان عن الدين ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلاً من المحبة والتعاون، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي، والمؤكد أن الأيدولوجيات والمذاهب (وهي جميعها من نتاج الغرب وحضارته) لن تستطيع أن تنهى علاقة الأديان بالبشر،

والمؤكد أن عودة البشرية إلى الأديان هو سبيل خلاصها من التحلل والانهيار والدمار الروحي لقد تبين أن ما وصل إليه الإنسان من فهم عن هذا الكون لايمثل إلا قليلاً من القشور وأن هذا الذي يعلمه لايفسر له سر الكون والحياة، وأدرك الإنسان أن الكلمة الأخيرة في مصيره ليست في متناوله ولكنها ملك قوة قاهرة.

وأنا أعتقد وأومن إيماناً قاطعاً لاتردد فيه أن الإنسان كائن روحي ، وهو في نفس الوقت كائن مادي قد وجد نفسه في عالم له وجهان: مادة وروح وعليه أن يزود نفسه بأجهزة مادية قدر استطاعته ليحقق أسمى ما في حياته الروحية، إن هناك كلمة عليا في الديانات لها دلالة مادية: لا انفصال بين المادة والروح، وأن الجسم وكل ما هو مادي هو وسيلة الروح إلى ما تريد أن تحققه في هذه الحياة.

إن القوة المادية ليست في حد ذاتها خيراً أو شراً ولكن الإنسان يستطيع أن يجعلها خيراً وأن يجعلها شراً، هنا إذن مسافة بين القوة وبين استخدامها، هذه المسافة هي «الأخلاق» ولقد زادت هذه المسافة في العصر الحديث والدين وحده هو القادر على أن يضيق هذه الهوة وأن تصبح به القوة في خدمة الأخلاق أي في خدمة السلام.

١٠- إن كل ما يقوله ارنولد توييني منصب على مدى فهم الغرب في العصر الماضي للدين ومدى صراعه معه اليوم أما في بلاد الإسلام فإن الأمر يختلف فإن الدين نفسه بمفهومه الجامع المتكامل لم يشكل ولن يشكل خلافاً أو صراعاً، سواء بين الدين والحضارة، أو بين الدين والمجتمعات الحديثة. ذلك لأن الإسلام قدم للبشرية منهجاً متكاملاً وضع فيه مختلف القوانين التي تربط علامات الأشياء بعضها ببعض فلا يقع صراع من أجل تفسيرها.

فالإسلام هو الذي فتح الطريق إلى العلم بالدعوة إلي النظر في الكون ومن ذلك قام المنهج التجريبي، وهو الذي فتح الطريق إلى المدنية بتحرير الإنسان من عبودية الرومان والفرس والهنود والفراعنه، وهو الذي حرر عقل الإنسان من الوثنية وعبادة الأصنام والصور والتماثيل وعبادة الناس والأبطال وما سوى الله.

وبذلك أعلن قيام «الرشد الفكري» وانتهاء عهد الطفولة البشرية، وقد جعل الإسلام أسسه وقواعده واسعة مرنة، عبارة عن أطر عامة تجرى الحركة من داخلها وتتطور بتطور الأزمنة والعصور والأمكنة وبتعطيل الملابسات المختلفة وظروف الجماعة المتغايرة، وقد أقام قاعدة الثوابت وأباح الحركة من فوقها وجعل الاجتهاد علامة على الاستجابه لحاجات الجماعة المتغيرة والمتطورة، والإسلام لم يعارض التقدم بل دفع إليه دفعاً، ودعا إلى العلم وحمل على الخرافة والجهل والكهانة والسحر ووضع قانون ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وكفل لغير المسلمين حرية العقائد وحماية الأموال والأعراض مع التسامح والمحبة والرحمة ودعا إلى شجب العنصرية والقبلية وأعلن الإخاء البشري كما أقر (وحدة الألوهية) ووحدة الدين ووحدة البشرية ووحدة الفكر الإنساني.

وكشف عن النواميس الاجتماعية والسنن الطبيعية وأثبت أن وراء هذا العالم المادي عالماً روحياً أرقى منه ستنتهى إليه النفوس بعد الموت.

ولقد عرفت هذه الأرض أصالة التدين منذ قرون طويلة، وبها نزلت الأديان السماوية وقامت المعابد، وليس من اليسير فهم هذه الأمة أو تصور فكرها بعيداً عن التفسير الديني الذي هو جماع فكرها، فالدين فيها متصل بالسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وهو لاينفصل عن مقومات فكرها الأساسي، فاللغة العربية هي لغة القرآن، ولغة الإسلام في مختلف أجزاء العالم التي لاتتكّلم العربية.

ويقرر الإسلام أن الغيب الذي تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه المادة المادية المنفعلة بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤثرة وله أسلوب في تصرفاته مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة فيما حولها، والقوة الربانية التي يؤمن المتدين بها يفهمها على أنها قوة عاقلة مدبرة تقصد ما تفعل وتتصرف بمحض إرادتها ومشيئتها، وهي ليست قوة منطوية على نفسها منعزلة عنه وعن العالم بل يرى لها اتصالاً معنوياً به، فالقوة الإلهية التي يقدسها المسلم ليست مجرد فكرة وصورة عقلية محضة بل هي حقيقة خارجية، هذه الحقيقة ليست مادة يقع عليها الحس بل

هي سر غيبي لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

والدين في مفهوم الإسلام الاعتقاد بوجود هذه الذات الغيبية العلوية التي لها شعور واختيار ولها تصرف كامل وتدبير مطلق لشئون الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية رغبة ورهبة وفي خضوع وتمجيد.

ومن هذا كله نعرف أنه لايجوز الخلط بين الواقع الديني في أوربا والواقع الإسلامي، وذلك لاختلاف المفاهيم والتطبيقات والظروف بل ولاختلاف فهم كلمة الدين نفسها.

والواقع أن الدين في تاريخ أوربا قد اختلط بالكنيسة وامتزج بالأسطورة وغلبت عليه في العصر الحديث دعوات الإلحاد والإباحه وغيرها فله موقفه ودفاعه، وقد افتقرت بعض الأديان إلى تعاليم دنيوية لتنظيم الحياة الاجتماعية فاضطرت إلى إيجادها وما تزال حائرة في قبول بعضها ودفع بعضها الآخر، بينما لم يجد المسلمون أنفسهم في حاجة إلى ذلك، نظراً لما يذخر به القرآن الكريم والحديث الشريف من أصول منهج متكامل لبناء الفرد والمجتمع.

ومن هنا كان الدين في الإسلام من مصادر التوجيه، ولكن الذين ينكرون ذلك إنما ينكرون الفطرة ويتجاهلون شطراً كبيراً من طبائع الأشياء والنفوس ويقيسون أمورنا بما ليس مشابها لها، ولن يكون مفهوم الإسلام أبدا أنه دين عبادة واتصال بالله فحسب، ولكنه كذلك ومضاف إليه أنه منهج حياة ونظام مجتمع وتشريع اجتماعي وأخلاقي كامل.

وليست العبادة في الإسلام طقوساً كما يصورها البعض ولكنها شعائر، وهي في مجموعها أداة إصلاح النفس ودفعها إلى خير الفرد والجماعة إيماناً وتقوى وتواصياً بالحق وتناهياً عن الفحشاء والمنكر، وهي شعائر واعية وليست طقوساً شكلية بلهاء أو حركات صماء فقدت مغزاها وحكمتها، إسلاماً لله وتصديقاً بكتبه وإعدادا للنفس الإنسانية لتسلك الطريق الصحيح في حياتها العملية التي هي في حقيقتها عبادة

دائمة متصلة.

١١- من المقرر الذي لايقبل الجدل أن الدين واحد على لسان جميع الأنبياء: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ولقد تتابع الدين في الأمم حتى كان إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء من بعد فقد تجمعت فروع الدين في أبنائه إسماعيل وإسحاق، ومن إبراهيم تبدأ رسالة التوحيد الحنيفية التي جاء محمد ﷺ مجدداً لها ومكملاً، ومن خلال هذه الدعوة يتمثل تاريخ الدين في المرحلة الأخيرة منه، ومنه الوضع القائم في العالم اليوم (اليهودية والمسيحية والإسلام) ولقد كشف القرآن عن هذه الحلقة من بدايتها: من إبراهيم إلى محمد: ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ، ﴿ وأوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ والحنيف هو المائل عن عبادة الأصنام فقال عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفة السمحة، وأبرز مفاهيم الحنيفية السمحاء هو التوحيد والأخلاق وهما القاعدة المفرقة بين الفكر الرباني الموحي به وبين الفكر الوثني صناعة العقل البشري، وقد جمعت رسالة السماء بين الروح والمادة، فانحرفت الناس بها إلى المادية المغرقة، فلما جاء الوحي يعدل الاتجاه بقدر من الروحية انحرف الناس مرة أخرى إلى الروحية المغرقة. ولذلك جاء الإسلام مجدداً دعوة الله إلى الصراط المستقيم: التكامل بين الروحية والمادية وبين العقل والقلب، وكل ما عرف عن العرب قبل الإسلام من مكرمة أو أريحية أو حماية للذمار أو غيرة على الجار أو نصفة للضعيف، فهي من بقايا الحنيفية دين إبراهيم وكل ما عرف عنها من وأد للبنات وشرك ومكاء وتصدية في طواف البيت، وزواج الأخت وصنوف الإباحية التي صورها القرآن فمما انحرفت به عن الحنيفية بما دخل إلى العرب من الوثنيات المجاورة ولذلك كان قبل بعث النبي محمد في مكة جماعة من الحنفاء يتعبدون على دين إبراهيم، ولقد حرفت اليهود الدعوة الإسلامية العالمية الإنسانية، التي جاءت بها التوراة على لسان موسى عليه السلام وحولتها إلى

دعوة عنصرية غالية، حين أعلت من شأن بني إسرائيل ووصفتهم بأنهم الشعب المختار وحاولت أن تجعل دعوة الله لإبراهيم وذريته بالتوسع في الأرض دعوة خاصة لفرع من أبناء إبراهيم وقصرها في أولاد إسحاق وحجب إسماعيل وذريته العرب، كذلك جعلوا إمامة إبراهيم العظمى إمامة خاصة بهم ولقد حاجهم القرآن في هذا وقال: ﴿ ياأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ .

كذلك جعلت اليهودية (الرسالة السماوية) ديناً خاصاً وعنصرية غالية، ويقول الدكتور الفاروقي: الإله في تلك العهود لم يكن الله فالله يعنى تعريفاً كائناً لاشريك أما كلمة إله فهي إما كنية الله الأحد وإما رمز البشر، وهي تعنى زعيماً أو ملكاً أو شعباً من الشعوب ويقارن الدكتور الفاروقى بين التوراة والقرآن فيقول: جاءت التوراة، وجاء القرآن يؤديان رسالتهما كلاهما يوجه إلى حوادث التاريخ التي هي واحدة، فالتوراة صهرت هذه الحوادث في قالب يؤكد العنصرية أما القرآن فقد قدمها في قالب يؤكد الحنيفية.

الباب الثاني

الإنســـــان

(٧) الإنسان (روح وجســـــد)

(٨) الإنسان (إرادة وحريــــة)

(٩) الإنسان (العقل والقلــب)

(١٠) الإنسان (الحيــاة والموت)

(٧)

الإنســـان

(أولاً) تركيبه من الروح والجسد - أمانته

اختلفت الفلسفات والمذاهب والعلوم الاجتماعية والنفسية في فهم الإنسان ومعرفة سر وجوده وهدف حياته ورسالته ومسئوليته وأمانته، وبالرغم من كل ما قالته في شأن الإنسان فإنها لم تستطع أن تضعه في مكانه الصحيح ولا في موضعه الأصيل الذي أراده له الله: خالقه ومنشئه وباعث الحياة فيه.

فالفلسفات القديمة والحديثة متباينة النظرة لم تتفق على شيء من أمر الإنسان، فبعضها يقول إنه حيوان وبعضها يقول إنه سيد الكون وبعضها يقول إنه ترس في آلة وبعضها تقول إنه مطلق الحرية وبعضها تقول إنه وجد صدفة وإنه كائن عارض وإنه يعيش في دائرة الجبرية أو الحتمية التي تجعله غير مسئول عن شيء مما يأخذ أو يدع، وبعض الأديان القديمة تقرر أنه آثم، بحكم ولادته لأنه جاء من الخطيئة، والبوذية والهندية تقول إنه مجبور بالتناسخ، بينما تقول الفلسفات كل هذا يقف الإسلام موقف السلامة والدقة والصدق في نظرته إلى الإنسان.

يرى الإسلام أن الإنسان هو أشرف المخلوقات وأسماها تحت حكم الله، وأن الله قد صنعه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها وحمله الأمانة والمسئولية وجعله مستخلفاً في الأرض وجعل كل ما في الأرض والسماء في خدمته، وجعله صاحب إرادة ووجهه إلى العمل والسعي والكسب ليحقق إرادة الله في الأرض، وليقيم المجتمع الرباني العادل الكريم على أساس الأخوة الإنسانية والرحمة والكرامة وإعزاز كلمة الله ونشرها في العالمين.

وخير ما يقال في الإنسان «إنه كائن كريم له في الدنيا رسالة تترتب على ما له من عقل وقدرة واختيار وإدراك لمعنى الحق والخير والأمر والنهي، ليس بالكائن

الساقط أو المعاقب ولا هو كائن عارض في هذا الكون، بل هو محور الكون المادي وخليفة في هذه الأرض ليعمرها باسم الله مهتدياً بإرشاده على أساس العلم بالحق وإفاضة الخير والبر، وحياته ممتدة قبل هذه الدنيا وبعدها وهو في الدنيا يؤدى رسالة ويحمل أمانة ويجاهد ويكافح ويخضع الطبيعة ويجاهد نفسه في داخل خطة الخلق الحكيم ثم ينتقل إلي عالم آخر أعلى هو عالم الحساب والجزاء بعد عالم الاختبار والابتلاء».

ولقد سجل الحق تبارك وتعالى هذا المعنى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أي لعبادة الله ومعنى العبادة هنا هو العمل في نطاق النظام الذي رسمه الحق تبارك وتعالى للحياة والنهج الذي أنزله ليطبقه الإنسان في الحياة وهو الإطار الأخلاقي للاستخلاف في الأرض والاستعمار فيها.

فالعمل في الحياة والسعي للكسب فيها هو جزء من مهمة الإنسان،وهو في نفس الوقت داخل ضمن إطار العبادة،لأنه قائم على الالتزام بشرعة الله فيما أحل وفيما حرم طريقاً وسطاً بين الضوابط والحدود.

ويروى كثير من علماء المسلمين ومنهم الراغب الأصفهاني أن أي كسب بالدنيا وإن كان معدوداً من المباحات لكنه واجب من وجه.

ولما كان على الإنسان أن يعرف الغاية التي خلق لها والمهمة المنوطة به فقد جاءت رسل الله بالأديان لتكشف للبشرية هذه الحقيقة وتضعها أمام مسئوليتها، ومن هنا فإن أصحاب الأديان والمسلمون يعلمون هذه الغاية ولا يختلفون في أمرها، ومن هنا فهم يلتمسونها أساساً دون أن يشغلهم كثيراً ذلك القلق النفسي العميق الذي يصدع القلوب حين تعجز الفلسفات أن تهدي الناس إلى هذه الحقيقة أو حين تصور لهم أن وجودهم في الحياة هو من أجل الحياة نفسها أو من أجل متاعها أو أنه صدفة عارضة، وبذلك يعجزوا عن التماس الطريق الصحيح وهذا هو سر أزمة الكفر الغربي والحضارة المعاصرة.

٢- نظر الإسلام إلى الإنسان نظرة متفقة مع الفطرة والعقل والعلم، وهي نظرة إنسانية أساساً، فهو المستخلف في الأرض، صاحب الإرادة والمسئولية وهو المسئول المحاسب المجزي بالثواب أو العقاب في بعث جديد بعد أن يموت ويدفن في التراب - هذا الفهم من شأنه أن يشكل كل علاقات الإنسان بالله وبالناس وبالحياة ويرسم له الطريق المستقيم للسعي وللعمل والكسب.

وقد جاوزت هذه النظرية مفهوم الفلسفات القديمة والحديثة في شأن الإنسان ومنها ما دعا إلى تقديس فرديته واعتباره مركز الكون ومنها ما ألغى شخصيته واعتبره حيواناً، ومنها ما ألغى قيمة الإنسان واعتبره مجرد فرد في القطيع، كذلك فإن نظرة الإسلام اتسمت بسمة لها أثرها البعيد في فهم الإنسان والتعامل معه، فقد فهمت الإنسان كاملاً وليس مجزءاً، فهمته على النحو الذي صنعه عليه خالقه، روحاً ومادة، نفساً وجسداً، بينما أخذته الفلسفات الشرقية والغربية على نحو آخر فقد اعتبرته أحدها روحاً خالصة واعتبرته الأخرى مادة خالصة وبذلك عجزت كلتاهما عن فهمه والحكم عليه لأن كلتيهما أنكرت منه جانباً صحيحاً حياً.

يقول الدكتور الكس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول (إننا - أي في الغرب - لانفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا كون من موكب الأشباح يسير في وسطها حقيقة مجهولة).

ومعنى هذا أن الفهم الفلسفي والعلمي الحديث للإنسان حاول أن يدرس الإنسان وهو مقطوع الصلة بكل الأوضاع حوله والأجيال قبله، ففسره عن طريق الجنس مرة، ومرة عن طريق الاقتصاد والإنتاج وفي كل مرة يقرر أنه لايوجد كيان ثابت للإنسان ويعتبره حصيلة الظروف المتغيرة ويرى أن التغيير يشمل أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه.

ويرى العلماء الغربيون أنهم يجهلون حقيقة الإنسان جهلهم حقيقة الكون، وذلك واقع لأن هاتين الحقيقتين لم يكشف عنهما غير الوحي،وأن الله سبحانه هو الذي

أعطانا الفهم الصحيح لهما، ولولا الأديان ما أمكننا أن نفهمها فهماً صحيحاً فإن وسائلنا المادية قاصرة في فهمهما.

٣- كرم الله الإنسان وجاء الإسلام ليرد اعتباره وليضعه في مكانه الحق وليرفع عنه إصر العبودية الذي ظل مسلطاً عليه في حضارات الرومان والفرس والفراعنة والهنود، ومن تكريم الله للإنسان تكريمه للمرأة وأعطاؤها حقها وكرامتها، ولقد جعل الإسلام عبودية الإنسان لله وحده، وأمر الإنسان بأن يعيش متحررا لايخضع ولا يذل لأحد مهما كان، لأن الله وحده هو خالقه ورازقه، وقد جاء الإسلام داعياً إلي كرامة الله للإنسان بالسيادة والأمة بالعزة والقوة، وجعل الاعتداء على كرامة الفرد أو الجماعة يعتبر تهديداً للنظام الإسلامي تجب مقاومته: وفي هذا قول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي:

«إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

ومن تكريم الإسلام للإنسان أنه حرم قتل النفس وحرم التمثيل بالإنسان بعد قتله، ولم يقر عقوبة الإعدام للإنسان إلا في جريمة واحدة هي جريمة القتل العمد، ومع ذلك فقد جعل لولي المقتول سلطاناً فلا يسرف في القتل، بينما كانت عقوبة الإعدام في أوربا إبان نزول الإسلام تقع في الزنا والسرقة والكذب، كذلك جاء تكريم الإسلام للإنسان تكريماً ذاتياً بصرف النظر عن دينه أو لونه أو ثروته أو جنسه.

وفتح الإسلام الباب دعماً لتكريم الإنسان إلى عتق العبد وتحرير الأرقاء وإلغاء ديون الغارمين وتزويج من لايجدون صداقاً وإعانة القاصرين والنساء والعجائز وإعالة الفقراء والمحتاجين من أبناء السبيل وطلبة العلم، ودعا إلى الإنفاق المستمر على ذوي الحاجة والفاقة.

وأقر حرية الاعتقاد والحرية المدنية والحرية الاجتماعية.

كما أقر المساواة بين الناس جميعاً، فالله هو الذي خلقهم ومن ثم فهم جميعاً سواء لا فرق بين هذا وذاك إلا بالعمل الصالح.

﴿ ياأيها الناس: إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وفي هذا قول الرسول: «إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي أو عجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمرمن فضل إلا بالتقوى».

وبذلك حطم الإسلام قيود الدم واللون والجنس.

(٤) ولد الإنسان على الفطرة ثم صرفته المفاهيم والمذاهب والفلسفات عن وجهته الصحيحة فانحرف عن فهم ربه وفهم نفسه وفهم مهمته.

وفي الإنسان استعداد فطري لمعرفة الله تعالى، فيه تلك الطاقة التي تهدي إلى الإيمان والتي تملأ يقينه بأن في الكون قوة عليا أوجدته حسب نظام معين وتسيره طبقاً لنواميس وسنن مقدوره، وقد أودع الله في الفطرة نوراً يهديها إلى الله، وقد جاء الوحي وجاءت الرسل لتدل الفطرة على الطريق وتذكر الإنسان بما هو مطمور في حافظته ووجدانه وأعماقه:

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾

لقد ألهمت الفطرة الإنسان أنه لابد له من دين يسكن إليه، فلا يمكن أن يكون ذلك الدين إلا موافقاً لتلك الفطرة، وكذلك جاءت أحكام الإسلام وسننه مطابقة للفطرة.

٥- ومن فطرة الإسلام أن يولد الإنسان طاهراً نقياً بينما ترى بعض الأديان أن الإنسان يولد والخطيئة ملء إهابه وملء عروقه، وأن الناس كلهم هم أبناء الخطيئة الكبرى وبذرة الثمرة المحرمة التي أكل منها الأب الأكبر (آدم) عاصيا بذلك أمر الله.

يقول الدكتور محمد مندور إن هذا المذهب يرى أن: «الطبيعة البشرية فاسدة أفسدتها الخطيئة منذ نشأتها ومن ثم فواجبنا ليس إصلاحها بل القضاء عليها لإعادة خلقها، يجب أن نقتل في أنفسنا الرجل القديم بتعذيب الجسم أعنى أن نموت لنحيا من جديد» ثم يعلق على ذلك بقوله إن النظرية تكلف الطبيعة البشرية فوق ما تستطع.

أما الإسلام فيرى أن الإنسان يولد طاهراً نقياً مؤهلاً لأن يكون خيّراً ولأن يكون شريراً وأنه ليس ثمة خطيئة أصلية وما وقع فيه آدم أبو البشر هو خطا خاص به هو لاينسحب على أحد من بعده أبداً، وأن ربه تاب عليه بعد ذلك وغفر له، ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ لقد رفض الإسلام الخطيئة الأصلية التي ارتكبها آدم وورثها عنه البشر وأنكر وجودها كلية وحرر العقل البشري من شرورها التي توالت على مدى القرون ونشأت من أجلها حروب ومعارك.

والإسلام يقرر أنه ليس هناك خطيئة موروثة، وأن أعمال الآباء لايؤخذ بجريرتها الأبناء وأن كل امرئ، رهين بما كسب وأن معصية الإنسان تعود إلى فعل عوامل خارجية، ومعنى هذا أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن أحدا لا يؤخذ بجريرة أحد ولا يؤخذ الخلفاء بجريرة سابقتهم وأسلافهم، وأن ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وأن كل امرئ بما كسب رهين.

٦- خلق الإنسان مميزا بعقله وروحه وخلقه عن كل من في الأرض، ويعجز الباحث عن التمييز بين آحاد الحيوان من أي نوع، ولكنه يستطيع أن يميز بين الإنسان وآخر من نفس النوع، له من صفات الوجه وملامح العينين والأنف والقامة ما يميزه بين ألوف الملايين من البشر، وذلك أنه مع تشابه الصورة الإنسانية العامة فإن كان لكل واحد ما يميزه عن الآخر، في كل جزء من هذه الأجزاء أو كل عضو من هذه الأعضاء، وهذا ما يسمى بالتغيير في إطار الثبات والتنوع في إطار الوحدة، بل أن لكل إنسان بصمات ليست لإنسان مثله في هذا العالم سواء منهم الأحياء أو من رحلوا من قبل، ومن شأن هذا المعنى أن يثبت إيمان الإنسان بالله

وقدرته وإرادته الواضحة وأنه ليست الصدفة هي التي صنعت كل هذا.

ومن هذا التمييز الواضح عن المخلوقات جميعاً، وهذا الاختلاف العميق في إطار البشرية نفسها والذي يتمثل لحكمة عليا في أن يكون الإنسان ليس حيواناً ولا ترساً في آلة ولا من أنصاف الآلهة.

يقول برتراند رسل: إن الإنسان في ثلاث فلسفات: (عادي: مجرد ترس: بطل) عادي في الديمقراطية، بطل في الفاشية، ترس في الماركسية، والنظام الصالح هو الذي ينجح في مزج هذه العناصر الثلاثة في كيان نفسي منسجم متكامل، فيمكن إرضاء النزعة البطولية في الإنسان بتشجيع المغامرة و(الترس) بمطالبته أن يكون عضوا مفيداً في الحياة الاجتماعية، و(عادي) بتوفير أسباب الراحة والاستمتاع بحياته وتوفير المقومات الفردية.

ولا ريب أن برتراند رسل لو درس الإسلام لوجد فيه ما يريد على نحو محكم ممتاز.

ومن يدرس الإنسان في الإسلام يدهش لتلك الإحاطة الواسعة والفهم العميق، فقد اعتبر الإسلام الإنسان (كلا لايتجزأ) وقرن بين طبيعته المادية والروحية في تشكيل دقيق يحقق الرغبات ويفتح الطريق للأشواق الروحية العليا وقد اتجه الإسلام من نقطة إصلاح الفرد، وكانت الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله منطلق تحريره من الشعوذة والخرافة والكهانة والأوهام والأساطير.

ثم عمد إلى بناء الإرادة الذاتية الخلقية التي تقاوم هواه ونزعاته الأنانية الفردية لتوجيهها إلى المشاركة الاجتماعية واستخدام ملكاته وطاقاته في سبيل الخير واجتناب الشر، ثم أعده ليقوم بدوره الإيجابي الحضاري بالجهاد والعمل في سبيل رسالة وأمانة وعقيدة.

ولما كان من خصائص الإنسان أنه مهيأ للخير والشر ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فقد وجهه الإسلام إلى الخير والحق وزوده بالقوة القادرة على تقوى الله وخشيته

وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاعدة أساسية لحياته، فكل إنسان بها ناضج ورقيب على تصرفات الآخرين، يوجههم وينصحهم ويردهم عن الشر ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ .

كما دعا إلى إقامة التوازن بين القيم في النفس وبين القيم في المجتمع، ودعا إلى الخروج من النفس بالإنفاق، والإنصاف من النفس بقول الحق ولو على الأقربين.

٧- خلق الإنسان: ثابت الجوهر متغير الصورة، هذا الثبات يرتبط بالأخلاق والتصرفات في طبيعة الإنسان فهو في كل زمان ومكان، إذا مسه الضر دعا الله وإذا كشف عنه طغى، وإذا أعطى النعمة قال إنما أوتيتها على علم عندي، وهو يجبن ويخاف من الحادثات فإذا انقضت اندفع في غرور، ولذلك فقد كانت طبيعة الإنسان في حاجة إلى توجيه إلهي،وطبيعة الإنسان لاتتخلف مع تغير الأزمان ولا يزيدها نمو الحضارة ومكتشفات العلم إلا مزيداً من الغرور والاستعلاء، حتى إنها تنسب إلى نفسها كل ما ينجزه العلم وتنسى إرادة الله التي هي قائمة بالحق من وراء كل شيء.

والإنسان كما ذكر القرآن خلق هلوعاً، وإن الإنسان بعد أن خلقه الله في أحسن تقويم رده إلى أسفل سافلين ولذلك كان الإيمان بالله هو الحجة الواضحة التي تفصل بين طبيعة الإنسان وبين قدرته على الصبر وعمل الصالحات، فالإنسان إذ خلق هلوعاً جزعاً استطاع مقاومة ذلك بالإيمان، وعلامة المؤمنين أنهم يعبدون ربهم ويقيمون الصلاة.

إن علاج الطبيعة الإنسانية وتقويمها إنما هو في الإيمان بالله، فالإيمان بالله يوازن الطبيعة الإنسانية في مواجهة الأحداث سواء كانت خيراً أم شراً، عطاءاً أم منعاً، نصراً أم هزيمة، فتبقى الصلة بين الإنسان وربه قائمة لاتتغير، بل وواعية لكل تغيير، فالحياة لابد أن تتراوح بين عوامل القوة والضعف والعطاء والمنع، فالمؤمن إذا أصابته سراء شكر وإذا أصابته ضراء صبر، وهو عندما تقبل النعمة يعرف أنها امتحان وابتلاء، وليست أمراً ثابتاً، ولذلك فهو حين يقتنصها يجعلها موجهة إلى

الله، وكذلك عندما تقبل المحنة فهو يصمد لها ويتجه إلى الله الذي هو وحده الذي يرفع الضر ويوقن بأنها سوف تنجلى، وفق نواميس الكون التي علمنا القرآن إياها فلا يجزع ولا يصخب ولا ينتحر ولا يكفر.

ولذلك فإن الإنسان حين يؤمن يصبح ثابتاً صامداً لاتغره النعمة التي قد تزول ولا يخاف المحنة التي لن تطول، وهو متصل بالله في حالتي فرحه وكربته سائلاً في الأولى أن يديم الله عليه والنعمة في الأخرى أن يرفع الله عنه الشدة.

وموقف هذا المؤمن يختلف مع موقف غيره ممن لايلجأ إلى الله إلا في ساعة الشدة فإذا جاء اليسر نسي ما كان يدعو إليه من قبل.

وهكذا كانت الطبيعة البشرية ولا تزال ثابتة في هذا الفهم لا يصلحها إلا الإيمان، وهي دائماً في حاجة إلى موقظ هو القرآن وفي حاجة إلى هدى هو هدي الله، فإن قدرة الإنسان على العمل واندفاعه فيه قد يحقق الخير، وقد يؤدي إلى غيره ولكن التماس العون من الله والهدي منه يجعل أمره في الحالين صائباً سليماً.

وبهذا الفهم تتحرر النفس الإنسانية من التمزق والشك والقلق لأنها أسلمت أمرها إلى الله جميعاً في نفس الوقت الذي سعت فيه بالعمل ولم تركن إلى الجمود.

وسعي الإنسان وعمله: طبيعة لامفر منها، فهو لابد أن يتحرك ويغالب ويقاوم ولكن إلي أين، ما هي الوجهة في سعي الإنسان؟ أإلى غاية خاصة، أإلى خدمة عظيم أو كبير أم إلى الوجهة المثلى الأصيلة: وجهة الله؟

كل امرئ بائع نفسه فهو إما معتقها أو موبقها، إن جهة الولاية هي علامة على الغاية والجزاء، وليس هناك إلا وجهة واحدة هي الوجهة إلى الله أما ما سواها فإنه مهما ارتفع شأنه وعلا نجمه فإنه لايثبت لحظة أمامحكم الله وحسابه وجزائه.

ومن هنا كان التوكل هو السعي مع إحسان الوجهة، والتماس هدى الله في العمل والحركة، وليس كل ساع إلي رزق فالرزق قد كفله الله ولكن السعي إلى عمل يكون في خانة الحسنات أو خانة السيئات.

كفل الله الرزق لكل كائن متحرك على الأرض ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ولكن العمل من أجل مسئولية الإنسان نفسه فإلى أين يوجه: ﴿ فأما الذين آمنو وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ .

٨- من أجل هذا كان خطأ الفلسفات الحديثة لأنها مادية الأصل في القول بأن الإنسان يستطيع تفريج أزماته وحل معضلاته دون الاستعانة بقوة خارجية كبرى.

ويقولون لمن يجدونه حائراً (اعرف نفسك) أو انظر إلى أعماقك، فإذا نظر لم يجد شيئاً،ذلك أن الضوء الذي تحمله النفس ليهديها لابد أن يكون قادماً من الخارج أولاً ثم يستقر في النفس: ذلك هو نور هداية الله ورسله وكتبه ووحيه، فإذا لم يكن هذا كله قد وصل إليه أو آمن به فإنه لن يجد في نفسه إلا خراباً يباباً.

إن النقص الحقيقي في الفهم العصري هو فقدان هذا الإيمان القوي واليقين الراسخ، واتخاذ النزعة العقلية التي تعجز عن أن تحرك العواطف أو تثير الأحاسيس أو توجه المشاعر، وليست هذه مهمة العقل، وكذلك العلم فإنه عاجز عن العطاء في هذا المجال، فهو لا يعمل إلا في محيط الظواهر الخارجية، ومن ثم فليس سوى الدين سبيل إلي إضاءة القلوب.

ولقد شاء الله لحكمة عالية أن يعطى الإنسان (طريقاً) في أمر العلم ويعطيه (حقيقة) في أمر النفس فهو تبارك وتعالى قد فتح له باب القدرة على فهم سنن الطبيعة في عالم المادة وسخرها له وذلك مرتبط بأمر استخلافه في الأرض ورسالته في العمران والبناء والتقدم فهو يبحث وينقب في مشقة وجهد.

أما في شأن (النفس) فإنه أعطاه الحقيقة ولم يكلفه البحث عنها، ذلك لأن إرادته وقدرته البشرية المحدودة لاتمكنه من الوصول إليها، ولقد حاول الإنسان في العصر الحديث أن يبحث أمر نفسه فعجز وتخبط وما وصل إليه من فروض مازال مصدراً للشقاء والتمزق،ولذلك فإن الله تبارك وتعالى أعفاه من ذلك ووضع له المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته في الأرض وقدمه إليه عن طريق الوحي والنبوة

والكتاب وخيره بين أن يؤمن به أو يكفر، فإذا آمن فقد ملك سكينة النفس وطمانينة القلب وسعاده الدنيا والآخرة.

٩- إن أخطر ما قدمته الفلسفات القديمة والحديثة من مفهوم عن الإنسان هو الفصل بين الروح والمادة وبين الواقع والمثال بينما يقرر الإسلام تكاملها واتصالها دون متناقضات أو صراعات فالقيم المادية وحدها لاتؤدي إلى تدين الإنسان لأنها تقتل خاصية أساسية فيه: هي روحه ونفسه.

ومن هنا كانت مأساة الإنسان في العصر الحديث هو عجزه عن «أن يتوحد مع ذاته» فتسحقه المتناقضات كما يقول دعاة الوجودية، وذلك راجع أساساً إلى أن النظرة الأولى ليست سليمة ولا مستوعبة لكل الأطراف والأبعاد، لأنها نظرة مادية صرفة أما في الإسلام فإن الإنسان متوحد مع ذاته دائما لايقع لحظة واحدة في تمزق ولا صراع ولا تناقض.

وليس سوى الدين الحق حل لهذه الأزمة الخطيرة التي استفحلت في الغرب اليوم، «لقد جاء الإسلام بالتجربة الوجودية الكبرى وهي تجربة التوازن بين القيم الروحية والقيم المادية التي بدونها لايتوحد الإنسان مع ذاته أو يحقق وجوده أو يتخلص من عذاب التمزق والازدواج».

وما تزال الوجودية تضل الناس عن الحقيقة،وتدفعهم إلى أتون التمزق في الدنيا بينما يهديهم الإسلام إلى الأمن.

وسر ذلك أن المادية والنظرية الوجودية مادية بناء على إنكارها لله لاتعترف بوجود بعث أو جزاء عن سعي الإنسان في حياته الدنيا، ومن شأن هذا أن يطبع نفسية الإنسان بطابع اليأس والخوف المرير من الموت: نهاية الحياة الأبدية وبالتالي تعذيب الإنسان الذي يجد في الحياة على قصرها فرصته الوحيدة لتحصيل أكبر قدر من العمل النافع للجزاء الأخروي.

ويلتقي الفكر المادي والعلماني (بل الفكر الغربي جميعاً بكل أيدلوجياته) على

إنكار البعث ومن هنا علت تلك الصيحة القاسية: صيحة التمزق الداخلي للإنسان واليأس من الخلود.

١٠- يعيش الإنسان بين مجهولين كبيرين:

«الأول بداية وجوده والثاني نهاية مطافه» وتلك عقدة الفكر الغربي والحضارة الحديثة وعلقمها ومرارتها، لأنها لاتستطيع أن تقدم للإنسان المفهوم الذي يتفق مع فطرته ويتفق مع العلم ويحقق له الطمأنينة والسعادة.

أما رسالة الدين الحق، ممثلة في الإسلام،فإنها تقدم أصفى مفهوم وأروع تفسير مسعد للنفس والحياة والعقل،ولا يتعارض مع العقل أو العصر ومن هنا كانت رسالة الدين خالدة: لأنها تعطى الجواب الصحيح الوحيد في هذه المسألة مما تعجز عنه الفلسفات والأيدلوجيات والنظريات قديماً وحديثاً والجواب: إننا من عالم الروح أتينا وإلى عالم الروح نعود.

لقد اختارنا الخالق لنكون مستخلفين في الأرض برسالة وأمانة وميثاق، ليعلم إلي أي مدى تستطيع أن تثبت في هذه المهمة وتؤديها على الوجه الصحيح وتقيم في الأرض المجتمع الرباني، ونحن إزاء عملنا هذا مسئولون ومحاسبون ومجزيون وذلك هو الامتحان:

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون ﴾ .

إن حياة الإنسان هنا في هذه الأرض ليست صدفة وليست فرصة للمتعة الزائفة وليست الدنيا رواية هزلية،وإنما هي مسئولية ضخمة وغاية إيجابية،فإذا استطاع الإنسان أن يجتازها بعد أن يكون قد أعد نفسه في نضوج وتكامل وسمو، كان مؤهلاً لأن يجد مكانه في الحياة الأخرى التي ليس فيها مكان إلا للذين استطاعت نفوسهم وإرادتهم أن ترتفع فوق كل الشوائب، هذه الآيات التي أرسل الله بها المرسلين إنما جاءت لترفع الإنسان ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ حتى يكون مؤهلاً لأن يجوز الطريق إلى السماء.

فإذا عجز وأخلد إلي الأرض واتبع هواه فلا يلومن إلا نفسه.

١١- علم الإسلام الإنسان حقيقة مكانه ليفهم رسالته: مكانه من الله سبحانه ومن الكون ومن عالم الغيب ومن الحياة جميعاً، فكشف له عن ذلك في القرآن بأوضح بيان وقرر أن الله سبحانه وتعالي هو خالق هذا الكون وصاحبه ومدبره وأنه مصرف الأمر كله عطاءً ومنعاً وإليه يرد كل شيء،ومن هنا فتح الإسلام للإنسان الآفاق الواسعة للعمل في إطار مسئوليته الفردية والتزامه الخلقي.

من أجل أن يجد الإنسان طمأنينتة وسكينة لنفسه هداه إلى التماس توجيهه في كل أمر ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقرر أن الاعتصام بالله وحده هو القوة المانعة من الرزايا وفي نفس الوقت هي القوة الدافعة إلى الخير.

فالإيمان بالله قوة دافعة تعطى الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة المتجددة وتحرض على المعاودة في حالة الإشفاق.

وليس الإسلام مضاداً للمعرفة بل هو ظهيرها، ويدعو الإسلام الإنسان إلى حياة وسطى بعيدة عن تعقيدات الترف وتكاليفه وآثاره الخطيرة التي تقضى على قدرة الإنسان على المقاومة وتفسد طبيعته الحية المدفوعة إلى العمل، ذلك أن الرفاهية والترف هما من أخطر المعاول في بناء الأمم حيث تقضى على إرادة المقاومة وتقضى على رغبة العطاء والبذل والإنفاق في سبيل الله وتحول بين الإنسان وبين الرحمة وتدفع إلى الطغيان والاستعلاء وتحجب المسئولية الأخلاقية،ولذلك ربط القرآن بين الترف وبين إنكار البعث والجزاء.

ولقد صدقت الأبحاث الاجتماعية الحديثة مفهوم القرآن وكشفت عن مدى الخطر الذي يواجهه الإنسان حين تصل الأمم إلى مرحلة الترف والرفاهية فالأمراض العصبية والنفسية تجتاح أغلب السكان بالانتحار والجنون، وقد بينت هذه الأبحاث أن دول الرفاهية لاتزيد من سعادة الفرد كما هو متوقع، وإنما تضعف شخصيتة وإحساسه بالمسئولية، مما ينتج عنه خلق شخصية متحللة، نعم لقد أعطت الحضارة ما عندها

من ثروة ومتعة ولكنها عجزت عن أن تعطى النفوس حاجتها إلى السكينة والرضى والطمأنينة التي تحول بينها وبين تدمير نفسها بالمخدرات والمغيبات وتدفعها إلى الانتحار أو تجعلها تسقط في هاوية الأمراض العصبية والنفسية التي لم تعد تحدث نتيجة الكبت كما توهم بعض علماء النفس ولكنها جاءت نتيجة الإسراف والاندفاع دون ضوابط وقيود.

إن الإسلام الذي أعلن أنه لايوجد صواع بين الجسم والروح قد حرر أتباعه من الأخطار المترتبة على هذا الفصل فأسقط مفهوم العزلة والزهادة في متاع الحياة كما أسقط مفهوم الإسراف والإباحية.

لقد آمن الإسلام بالروح والجسد معاً ونظر إلى الإنسان نظرة متكاملة فكرمهما معاً ودعا إلى الاهتمام بهما طهارة ونظافة وزينة من غير سرف ولا خيلاء.

١٢- وكذلك أعلن الإسلام مفهوم المجاهدة والكظم وجعله من قمم الإيمان وجعل المجاهدة بمعنى السير ضد تيار الأهواء والمطامع والرغبات المذلة، وبمعنى تأجيل الرغبة بعد الاعتراف بها، هذه المجاهدة لاتقع تحت خطر التهويل الوهمي الذي تدعيه بعض النظريات عن خطر الكبت، ذلك أن المجاهدة غير الكبت وأن الكبت يستمد معناه وأثره من إنكار الرغبات أساساً واحتقارها وعدم الاعتراف بها وخاصة في العلاقة بين الرجل والمرأة، وهذا مالا يدخل مطلقاً في إطار مفهوم الإسلام أو مجتمع الإسلام الذي يقوم على أساس الاعتراف بالرغبات النفسية والحسية اعترافاً كاملاً دون إنكار لها بل في دعوة إلي تحقيقها وممارستها في إطارها الصحيح ووفق ضوابطهاالصائبة.

ويسمح الإسلام بعد الاعتراف الذي يملأ النفس طمأنينة إلى هذه الدوافع، يسمح بالتأخير والإعلاء حتى تتحقق المقدرة المادية والظرف المناسب ومن هنا فالمسلم لايقع مطلقاً تحت تأثير ما يسمى غول الكبت المتسلط لأن العصاب الذي يهدد به بعض النفسانيين لايحدث إلا نتيجة الإنكار والاحتقار أما الاعتراف مع التأجيل فذلك مما تقبله الطبيعة البشرية وترضاه.

(٨)

الإنســـــان

(ثانياً) إرادة وحرية ومسئولية

يؤكد الإسلام مكانة الإنسان في الأرض ويؤكد حق استخلافه وأمانته ومسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقي الذي يستتبع الجزاء بعد البعث، ويؤكد الإسلام أهمية الإنسان كفرد له وجوده الخاص وأهميته أيضاً كفرد في مجتمع، ويؤكد حاجته إلى التقدم المستمر ولذلك فهو يحرر طاقاته كلها (فكرية وخلقية وعملية) لينطلق في خدمة المجتمع ككل ووفق ضوابط خارجية وفي إطار حركته الخالصة لوجه الله تعالى انتقالا بالإنسانية من الفردية المغرقة في الأنانية إلى الإيثار والبذل والتضحية والإنفاق في سبيل الجماعة.

وإن كون الإنسان له أفعاله الاختيارية وإرادته التي عليها تقوم المسئولية الفردية هي أبرز مقررات الإسلام فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى ومن مفهوم هذا كله نجد أنفسنا أمام حقيقة أساسية تقوم عليها دعائم الحياة الدنيا والجزاء الأخروي، ولكي نفهم إرادة الإنسان يجب أن نعلم أن هناك إرادة الله وهي الكبرى الشاملة وإرادة الإنسان وهي الخاصة به والمحدودة، فإذا التقت إرادة الإنسان مع إرادة الله تحقق الأمر، أو كما يقول العلماء إن إرادة المخلوقين تسبق فتختار وتأتي إرادة الله وفق ما أرادوا:

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾

﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ .

فإرادة الإنسان «كسبية مصحوبة بعزم مسبوق برغبة وتفكير: يقول الإمام أبو الحسن الأشعري: «إن الله خلق الأعمال كلها وجعل للإنسان استطاعة يختار بها

بعضها دون بعض وبذلك يحاسبه على ما كسب واكتسب وحرية الإرادة عنصر جوهري من حرية الإنسان الكاملة.

والإنسان مكلف وشرط التكليف الاختيار وقد أبان الله للإنسان طريق الخير وطريق الشر فترك له التحرك إلى أحدهما بمحض إرادته ومسئولية اختياره، وعلى الإنسان الرشيد أن يتحمل تبعة التكليف الذي يقوم أساساً على الاختيار.

والإنسان بين قهر الإرادة أو تطويعها أو فقدانها على حسب ما تمكنه قدرته، وفقدان الإرادة فهو فقدان القدرة على التحول من الاعتقاد إلى العمل، وقهر الإرادة هو صدها عما حرم الله،وتطويع الإرادة هو تذليلها حتى تكون قادرة على عمل الطاعات، وقد دعانا الإسلام إلي تربية الإرادة وبنائها حتى تكون قادرة على حمل التكليف وإطاعة أمر الله،وتبني الإرادة بالفهم والسلوك حتى تصبح قادرة على تحمل المصاعب والتلذذ بالجهد والعمل والتعب والاستعداد للتضحية بالنفس، وتقوم تربية الإرادة على الإيثار وتقديم الغير على النفس وحب الشجاعة والاقتحام في سبيل الخير والشعور بالمسئولية الاجتماعية، والإسلام يدعو إلى بناء الإرادة بإقامة الضوابط وإقامة الحدود،لأنها مناط المسئولية الفردية،فالإرادة تكبح جماح النفس، وتعارض تدافع الشهوات وتدعو إلي بناء الفرد على الكظم والمجاهدة.

ولا ريب أن قيمة الإرادة تكمن في ثباتها وفي موقفها أمام الملذات والمتع وأسباب التحلل والأهواء التي تقتل العزيمة وتحول دون التضحية،ولا ريب أن الحفاظ على حرية الإرادة من شأنه أن يدعم مبدأ التكليف خروجاً من الجبرية، كذلك فإن الحفاظ على بناء الإرادة من شأنه أن يمكن الإنسان المسلم من معايشة العزم والمجاهدة، وهذه بدورها تعطيه القوة على الصمود في وجه الأحداث: أحداث حياته وأحداث مجتمعه وأمته فيكون قادراً على الاستجابة السريعة في الأزمات لاتثقله الأهواء والشهوات.

ولذلك فإن بناء الإرادة إنما يؤدي أساسا إلى الحفاظ على الشخصية الإنسانية من التمزق والانهيار والتحلل.

ذلك أن أكبر سعي الإسلام هو بناء الإنسان المسلم ليكون سيد الكون المستخلف بإذن الله في الأرض بالحق،وأن قاعدة البناء إنما تقوم على أسلوب القوة والمجاهدة لا على أسلوب الترف والرفاهية.

ومن هنا أراد الإسلام أن يبني الإنسان على أسلوب القوة والمجاهدة بحيث يكون قادراً على الوقوف في وجه الغزو والصمود أمام زحف الغزاة.

ولذلك كان بناء الإرادة دعوة إلى المجاهدة،ومعارضة لأهواء النفس ورداً لها عن مطامعها.

٢- إن دعوة الإسلام إلى بناء الإرادة وإقامة الضوابط لها كان هدفاً مقصوداً من أجل عزة الأمة الإسلامية، ولا ريب أن بوادر الانحطاط والضعف والتخلف لم تظهر في المسلمين إلا في اليوم الذي بدأوا فيه ينتقلون من هذه العزائم إلى الرخص، وأخذوا بالتأويل، وهذا هو الذي جعلهم يعجزون عن صد الغارات التي اجتاحتهم ، إن هذا التراخي قد خلقه شعور بالأمن والضعف وفقدان التحدي، فخالفوا بذلك تحذير القرآن الدائم لهم من الغفلة، وعندما ترك المسلمون الضوابط التي تكبح جماح الشهوات والغرائز والأهواء واستسلموا للترف والمتاع، ضعفت الإرادة، وسقطت ودخلوا مرحلة الجبرية والتبرير والتأويل والرخص وتقبل الواقع والاستسلام له في ذلة.

٣- أبرز نتائج «الإرادة الحرة» هي «المسئولية الفردية» وهي أن يكون الإنسان مسئولاً عن كل فعل من أفعاله وعن كل سكنة من سكناته ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وبذلك أصبح لايناط بالإنسان غير عمله، وليس لنبي ولا لرسول أن يفدي المجموع، ذلك مفهوم الإسلام الحاسم القاطع، فالإنسان معه إرادته وعقله وفطرته وأدواته كاملة،وبها تتم المسئولية،وأمامه طريق الخير وطريق الشر،وقد جاءت رسالات السماء تهديه إلى الأولى وترده عن الأخرى، ويقع الثواب والعقاب في عالم آخر يبعث إليه الإنسان بعد الموت.

ولم يشأ الله تبارك وتعالى إجبار الإنسان وسلبه ميزة الاختيار؛ لأنه إذ ذاك سوف لايكون له أي ميزة في اتباع الهداية، وشاء الله أن يكون الإنسان قوة فعالة في هذا الكون مخيراً غير مجبر، وكل ما ظهر من فساد فهو بما كسبت أيدي الناس، والتعلل في هذا بمشيئة الله تعلل باطل.

فالإسلام لايقر جبرية الإنسان على النحو الذي تقول به المذاهب المادية قديمها وحديثها ولا بعض تفسيرات الأديان، والمسئولية الفردية من شأنها أن تطلق الحرية وتقيدها.

فإطلاق المسئولية واضح إذ لا مسئولية بغير سلطة، أما أنها تقيدها فذلك لأن المسئولية إنما تقوم أصلاً على موازنة دقيقة بين الإرادة وبين حدود الله وضوابط المجتمعات والأفراد، فإذا انحرفت فاستعملت ما ليس من حقها من الحرية الممنوحة للفرد وقعت في دائرة المسئولية والعقاب.

والحرية الفردية في الإسلام: هي حرية مسئولة ومقيدة باستعمالها على الوجه الذي شرعت من أجله، ولهذا تنتفى مشروعية استعمالها إذا ترتب عليها ضرر بالغير أو بمصلحة صاحبها بقطع النظر عن الغير سواء من الفرد أو الجماعة.

ومن ذلك أنه لايجوز للمالك تضييع ماله أو القاؤه في البحر، ولايجوز له التصرف في ماله إسرافاً، وشرع من أجل ذلك الحجر على السفيه، ولا يجوز للفرد التصرف في حق الحياة في غير غاية يقرها الشرع، فالشرع إذ فرض الجهاد وفيه هلاك النفس في سبيل إعلاء كلمة الله حرم الانتحار لأنه تصرف في حق الحياة في غير الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، ومن هنا ندرك أن حق الحياة ليس خالصاً للفرد يتصرف فيه كيف يشاء، بل هو مقيد بالغاية التي من أجلها وجد الإنسان وهي عبادة الله وعمارة الكون، أما تصرفه بالنسبة لغيره من الفرد أو الجماعة فإن حريته مقيدة في هذا التصرف أيضاً بما يمنع الضرر عنهما.

ونحن في هذا الموقف نواجه خطرين: أما الأول فهو ما تقوله بعض الفلسفات

المادية من أن المجرم غير مسؤل عن جريمته؛لأنه واقع تحت تأثير الأوضاع الفاسدة في المجتمع أو ضحية التوجيه الفاسد في التربية أو نتيجة الغدد وأجهزة الجسم، وكل هذا غير مقبول على علاته، وهو دعوة إلى الجبرية وإلى إسقاط المسئولية الفردية التي هي مناط الحياة البشرية، وكل هذه العوامل مهما كان لها من أثر فهي لاتنفي مسئولية الفرد ولا تستطيع أن تتجاهل قدرة الفرد الفطرية على التمييز وقدرته على ضبط تصرفاته وقدرته على مقاومة غرائزه،ولا ريب أن مسئولية المجتمع والبيئة موجودة ولكنها لاتلغى المسئولية الفردية.

هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى فإن هناك دعوات تحاول إسقاط المسئولية والالتزام الأخلاقي ومنها الدعوات الباطنية والبهائية وغيرها، التي تقول إنه لامعنى للتكليف البشري إذا ما اتصل الإنسان بالله، ووصل في ذلك إلى درجة كبيرة وأمامنا في الرد على هذا حياة رسول الله ﷺ وصحابته وهم أكبر من استطاع إحسان الاتصال بالله ومع ذلك فإنهم لم يتخلوا لحظة واحدة وإلى آخر الحياة عن التكليف الذي كلفه إياهم الدين.

وكل الدعوات الفلسفية الحديثة المادية الاتجاه: من الداروينية إلى الماركسية تسقط الإرادة الحرة وتعلن الجبرية على النحو الذي نراه في المذاهب النفسية والاجتماعية الحديثة،وكان منطق العلم الحديث إلى المادية والجبريه،ومن العجيب أن لامارك سبق دارون في نظريته البيولوجية،ولكن القوة الخفية أسقطت لامارك وأعلت من شأن دارون، لأن لامارك قال بالإرادة الحرة بينما قال دارون بالجبرية.

فالمسلم المؤمن بالله لايسلم بالجبرية المادية ولا التاريخية التي تقول إن الإنسان ليست له إرادة وإنما هي الوسيلة المادية التي ترسم الواقع الاجتماعي وأن الإنسان مراقب فقط.

٤- ما هي الجبرية: الجبرية هي القول بأنه ليس للإنسان فعل ولا إرادة مع إضافة العمل إلي غير الإنسان كالمجتمع وغيره، وهي في الفسلفات الحديثة محاولة لتحرير الإنسان من المسئولية وما يتبعها من جزاء وعقاب،وهي تفتح الباب واسعاً

أمام إنطلاق الإنسان إلى الشهوات والمطامع وهي معارضة تامة لأحكام الشريعة.

فالإنسان مسئول في حدود عمله وسعيه وحركته الخاصة وسط حركة الكون والمجتمع التي هي من إرادة الله الكبرى، وهو يقوم بها في هذا الحيز الخاص عن إرادة واختيار ودون أن يكون مجبوراً في ضوء ما منح من عقل يجعله قادراً على توجيه التصرف.

والإنسان على هذا النحو يتحرك بين إرادة كبرى عليا هي إرادة الله سبحانه وتعالى التي ليس لأحد عليها سلطان فيما تجري به من أحداث أو من رزق وموت وبين إرادة صغرى هي إرادته الخالصة التي تتعلق بتصرفاته وأعماله.

ومن هنا لايمكن أن يقال: إن الإنسان في حدود عمله وسعيه الخاص مجبور - ذلك أنه يملك الوجهة التي يتجه إليها في ضوء معرفته لرسالته والفهم لطرق الخير والشر التي هدي إليها، وليس للمجتمع في واقعه أو الحركة العامة للحياة أثرها في توجيهه أو فرض غير ما يريد عليه.

ومن هنا فإن كل الدعوات والعقائد التي تحاول أن تخدع الإنسان بأنه مجبور أو يعيش في إطار الجبرية هي محاولات مضلله ترمي إلى التعطيل، فالإنسان مخير في جانبه الخاص الذي سيكون موضع حسابه وجزائه.

ولا ريب في أن الإنسان حر في هذا الكون إلى الحد الذي يمكنه من عمل الخير واتقاء الشر في حدود التكليف الذي فرض عليه وفي إطار رسالته في الحياة الدنيا وأمانته التي هو مسئول عنها، في هذا النطاق الذي يعمل فيه ويسعى ويتعامل مع الناس، وفي حدود تكاليفه من العبادات والتصرفات التي يقوم بها بإرادته الخاصة، هو في هذا النطاق مسئول؛ لأنه يملك حرية التصرف بالخير أو الشر، بالحق أو الباطل، بالهدى أو الضلال، وهو في علاقته بالناس من أهل وجيران وزملاء وكل من يتصل بهم قادر على الحركة والعمل والتصرف، في حدود هذا تكون مسئوليته.

فحرية الإنسان على قدر مسئوليته في علاقته بالناس، وتنتهى حرية كل فرد

حيث تبدأ حرية الآخرين، ومسئولية الإنسان إنما تجري في هذه الحدود: حدود الاستخلاف والسعي والكسب.

٥- إن الإنسان مسئول في حدود الإرادة الإنسانية أي أن الإنسان مطالب بالعمل والحركة،وهذه الحركة تتم في إطار المجتمع، وهي التي يؤكد الإنسان فيها قدرته على العطاء أو المنع، الكرم أو البخل، العفو أو العقاب، الإحسان أو الإساءة فكيف يمكن أن يقال: إن الإنسان مجبور وهو قارد على الحركة المطلقة فيما بين يديه من مال أو ثروة أو خدم أو أهل أو زوجة أو أبناء.

وفي حدود هذا السلوك مع هذه المجموعة التي يتصل بها الإنسان يكون تطبيق نظام المعاملات الذي شرعه الله تبارك وتعالى بين الناس: وقد سجل القرآن هذا في وضوح تام:

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ .

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾

ولا تناقض بين هذه الإرادة البشرية المحدودة وبين إرادة الله المطلقة العليا في الكون والناس، ولا ريب أن هناك صلة بين قدرة الله وأفعال العباد،أما ما يتصل بإرادة الله فهو من شأنه تبارك وتعالى،وأما ما يتصل بإرادة الإنسان في عمله فهو محاسب عليه،ولذلك فإن الدعوة إلى الجبرية التي تذاع في هذا العصر وتحملها أغلب مذاهب الفلسفات هي عمل مضاد تماماً للإسلام معارض له، تستهدف الهدم والتدمير لمقومات هذا الدين وهذه الأمة وللبشرية كلها.

٦- ومن هنا نصل إلى قدرة الله:

إن قدر الله يعني علمه الأزلي بما سيكون من شئون خلقه،فإن علمه الأزلي سبحانه لايتضمن الإجبار ولا يعني الإكراه والاضطرار،وليس الشر من الله ولكنه من عمل الإنسان وبما كسبت يداه.

«إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً».

يقول الإمام ابن تيمية: جمهور أهل السنة المثبتين للقدر من جميع الطوائف يقولون: إن العبد فاعل حقيقة،وإن له قدرة حقيقية واستطاعته حقيقية، وهم لاينكرون تأثير الأسباب الطبيعية،وإن الله خالق الأشياء بالأسباب،والله خلق العبد والقدرة التي يكون بها فعله،فإن العبد فاعل لفعله حقيقة؛فقولهم في خلق العبد بإرادة وقدرة كقولهم في خلق سائر الحوادث بأسبابها.

ويقول ابن القيم: تقع الحركة بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه،ويضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة المسبب إلي سببه، ويضاف إلي قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق. إنما المقدور واقع بالقدرة الحادثة وقوع المسبب بسببه، والسبب والمسبب والفاعل كلها لله،وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الله وقدرته وكل ما سواه مخلوق الله.

والفعل يقع بقدرة الرب خلقاً وتكويناً، كما وقعت سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه،وبقدرة العبد سبباً ومباشرة.

٧- فالقضاء والقدر هما عبارة عن إثبات النظام والحكمة في خلق الله تعالى بحيث يقوم كل شيء بنظام محكم ومقدار معين لايعدوه.

﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ .

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

إن معنى تقدير الله للأشياء هو جعلها بمقدار مخصوص ونظام محدود، وهو ربط لأجزاء الكون ربطاً محكماً دقيقاً لاتفاوت فيه،وبحيث لايصطدم فيه شيء بآخر ولا يتناقض جرم عن غيره.

والله لم يجعل العبد مكرهاً على فعل شيء ولا ترك شيء، وأراد الله أن يكون الإنسان عاقلاً مكلفاً ومنحه تمييزاً واختياراً وعقلاً مدركاً جعله به مكلفاً مختاراً بالتكاليف الشرعية، أي جعله حراً يفعل ما يختار والحرية هذه التي أرادها الله له

ومنحها إياه، هي من إرادة الله، فلا يأتي العبد شيئاً ولا يذره إلا بعلم الله وقدره، ولو كان الإنسان مفطوراً على (الجبر) لكان ملكاً ولما احتاج إلى العقل والإدراك، ولما كان في أمره ونهيه حاجة ولا في إرسال الرسل إليه ولا إنزال الكتب، وهناك لايكون هذا الإنسان (المكلف) المختار.

فالاختيار يوازي التكليف ولا تكليف بغير اختيار، ومن زعم أنه لاإرادة له ولا حرية فقد انسلخ من إنسانيته.

والمسلم لايحكم على شيء مقدر إلا بعد وقوعه لا قبله»وبهذا لايناقض العمل القدر، ولا القدر العمل «إنك لاتعلم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك» إن من أول شروط صحة التكليف أن يكون المكلف مختاراً فيما يتعلق بالتكاليف المنوطة به فلا يبدأ التكليف إلا حيث يتوافر الاختيار وينتهي حيث يصبح الإنسان مسيراً فاقداً لإرادته وطواعيته.

﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ .

وقد جهز الله سبحانه جميع المكلفين من عباده بقدر مشترك من الطاقة والعقل والاختيار، حتى إذا فقد أحدهم الطاقة أو العقل أو الاختيار انقطعت عنه تبعة التكاليف واستثنى من عموم الجماعة.

ولو كان قضاءً مجبراً وقدراً قاسراً لبطل الثواب والعقاب.

ومن قال بأن القضاء ساقه فهي مقالة الوثنيين.

ويختلف الناس في مدى استعمالهم للأجهزة التي ملكهم الله إياها من طاقة وعقل وإرادة، وتختلف بهم السبل فمنهم من يميل إلى الخير أو يميل إلى الهوى، ثم تأتي بعد ذلك هداية الله التي يقذفها في قلب من يشاء من عباده والتي هي جزء من العبودية ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

٨- والإيمان بالقضاء والقدر هو الذي به أقدم المسلمون على المخاطر يدفعون بأنفسهم إلى ساحة الموت غير خائفين ولا وجلين مؤمنين بأنه لن يصيبهم إلا ما كتب

الله لهم.

والمعنى الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر هو أن يوقن المرء بأن الله خلق عالماً يسير وفق نظام دقيق،وعلى المرء أن يعمل وفق طبيعة ذلك العالم،فإن على من يؤمن بالقضاء والقدر أن يؤدي عمله إن كان يراه عملاً صالحاً، أما إذا حدث له سوء فليس له أن يأسف أو يلوم غير نفسه،وليس له أن يقول عندئذ إنه قضاء الله وقدره.

وليس في القدر الإسلامي ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدي إلى فتور همته،فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على حياة البشر وتنظم حركتهم وأعمالهم. والمسلم يؤمن بالقدر ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والمؤمن بقضاء الله أبي عزيز النفس لايذل لأحد ولا يدنس ضميره أو كرامته لقاء ثمن ما؛لأنه يعتقد أن النفع والضر بيد الله وقد سبق به علمه وقضاؤه.

والمؤمن بالقضاء راض دائماً،مستبشر دائماً،متفائل في جميع حالاته.

والإيمان بالقدر شرط في صحة الإيمان: والقدر قسمان:قسم ظاهر يطالب المؤمن باعتقاده، وقسم خفي هو سر القدر الذي نهى رسول الله عن البحث عنه «إذا ذكر القدر فأمسكوا».

٩- لم يشأ الله تبارك وتعالى أن يجعل الإنسان مسيراً كالمخلوقات الأخرى كل التسيير بل كرمه وأعطاه حظاً وافراً من الاختيار بعد أن يسر له سبل الاختيار وبين الخير والشر، فالمؤمن يختار والكافر يختار، ولكل اختيار جزاء في الدنيا والآخرة، والمؤمن حين يختار يطمئن إلى اختياره لأنه «سلّم لله تعالى» ومن هنا جاءت مسئولية الإنسان عن عمله واستحقاق الثواب والعقاب مع الإيمان بعدل الله المطلق وحكمته البالغة،والتسليم بتوجيهه الخطاب الشرعي إليه بلزوم التكليف.

فالإنسان مهيمن على سلوكه ضمن دائرة وجوده المحدودة، فهو مسئول عن أعماله وعن إساءة استعمال القوة التي منحها، وهو قد يقع وينهض حسب رغبته

غير أن هناك مساعدة سامية له إذا ما سعى إليها وإذا ما اتجهت النفس إلى ربها ليمنحها العون.

١٠- ومن حيث إن الإنسان ذو حرية وإرادة واختيار، يفعل الخير مختاراً فيثاب عليه،ويفعل الشر مختاراً فيعاقب عليه،فإنه بذلك يكون مستعداً للخير والشر.

يسعد نفسه بالخير ويشقيها بالشر، والخير هو ما ينفعه وينفع جماعته في الدنيا. والخير والشر حقيقتان لايتبدل مضمونهما مع اختلاف البيئات والعصور فلا يصبح الخير شراً ولا الشر خيراً.

ولم يكن العرف هو الذي ولد قانون الخير والشر كما يقول أصحاب الفلسفات ولكنه الدين الأول، والدين القديم،وكذلك الحلال والحرام، وتعرفهما النفس معرفة فطرية،وتقرب من أحدهما بقدر ما تبتعد عن الآخر من غير توجيه خارجي.

«الإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس».

والخير هو ما رغبت له النفس واستراحت.

لقد كانت النفس البشرية منذ وجودها عارفة بالطريق الصحيح، ولكن أهواء الحياة هي التي تضل، ومفاهيم المذاهب والدعوات الهدامة هي التي تغري ببريقها الألباب البسيطة والنفوس الساذجة.

وفي الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، ثم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً».

ومن هذا يتأكد ثبات الإنسان وثبات القيم وثبات الفطرة، وهذا يعني «أن الكليات المقامة على الثبات ينبغى أن يستمر اعتبارها وترسخ جذورها ما دام الإنسان إنساناً،وما دامت الدنيا من حوله هي الدنيا،وما دامت حاجاته الفطرية هي نفس حاجاته التي شعر بها منذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض يلتمس أسباب الحياة من فوقها.

وقد قرر علماء الإسلام أن لباب المصالح الإنسانية في هذه الحياة تتجمع في كلمات خمس، وأن هذه الكليات ينبغى أن ترتب إلي جانب بعضها في سلم يبدأ بالأهم فما دون ذلك هو سلم القيم:

أولاً: الدين. ثانياً: الحياة. ثالثاً: العقل. رابعاً: النسل. خامساً: المال.

وأن تحقق المصالح فيها يتدرج على ثلاث مراحل: الضروريات فالحاجيات فالتحسينات.

١١- إن مفهوم الحرية في الإسلام هو التحرر من ربقة التقليد ومن الجهل ومن العقائد الفاسدة الموروثة التي عرفتها المجتمعات السابقة. أما فهم الحرية بأنها الانطلاق من الضوابط والحدود والنظم فليس من مفهوم الإسلام، ذلك أن الحرية لاتكون مطلقة في المجتمع السليم، لأنه لا شيء في الوجود الإنساني يعد مطلقاً من كل قيد، والمجتمع يتكامل بقيمه ومفاهيمه دون أن يضحى بحريات أناس في سبيل إطلاق حرية آخرين، فإذا ما جاءت بعض الفلسفات لتصور الحرية على أنها انطلاق بغير حدود، قال الإسلام إن ذلك معارض لطبائع الأشياء، مضاد للفطرة، يتحدى النواميس والقوانين التي قام عليها الوجود وقامت عليها البشرية.

ولذلك فإن الحرية في الإسلام حرية منظمة ذات ضوابط تقيدها مسئوليات اجتماعية واعتبارات خلقية، فلا يقر الإسلام حرية السرقة ولا حرية الكذب.

وإنما يحرر الإسلام الناس أساساً من الوثنية والجهل وعبادة غير الله.

ويحررهم من سلطان القوى الغامضة المتوهم، فقد أعلن الإسلام أنه لامبرر للخوف من المجهول لأن من وراء المجهول خالق الكون.

ولقد نزلت الشرائع من أجل تنظيم حرية الإنسان، وسنت القوانين المختلفة حتى لا يقع عدوان من إنسان على حرية الآخرين وحقوقهم.

١٢- من أبرز مقررات المسئولية الفردية أن تكون مقترنة بالالتزام الأخلاقي، فالضوابط الأخلاقية مقررات أساسية في حياة الإنسان وحركته وسعيه، وهي طابع

واضح في كل ما يقصد إليه الإنسان وما يدع، ذلك أن الأخلاق في الإسلام ترتبط بالدين ارتباط الجزء بالكل، وتكون بذلك ثابتة بثباته، فهي غير قابلة للتغيير تبعاً لمرور الزمن،أو انحراف المجتمع،أو نزوات الفرد،ومصدرها هو مصدر الدين، ومنبعها هو منبعه، وهو الله سبحانه وتعالى،والمحاولات التي ترمي لفصل الأخلاق عن الدين قديمة ومتصلة،وهي ترمي إلى ربط الأخلاق بالعصور والبيئات،فيتكيف الإنسان أخلاقياً من تغيرات تلك العصور والبيئات،وهذا مالا يتفق مع الفطرة السليمة ولا مع الوحي أو العقل، فالأخلاق متصلة بالإنسان نفسه ثابتة بثبات طبيعته، مستقرة استقرار تركيبه النفسي والاجتماعي، فليس في وسع الإنسان أن يتحكم فيها وهو محمول على التزامها، فإذا أصبحت الأخلاق نسبية فسد المجتمع وفسد كل شيء وأصبح من حق الإنسان أن يفعل ما ليس مباحاً،وأن يأخذ ما ليس حقاً،وقد اعترف الباحثون الغربيون المنصفون بقيمة الحقيقة الأساسية وأنها من أعظم مآتي الإسلام دون غيره من سائر النظم المختلفة، يقول محمد أسد (ليوبولد فايس) «من أهم ما أتى الإسلام به التوفيق التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الناحية الإنسانية،وهذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الإسلام في إبان قوته أينما حل – نحن نعد الإسلام أسمى من سائر الأنظمة الحديثة لأنه يشمل الحياة بأسرها – إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة،والنفس والجسد،والفرد والمجتمع،ونجد الإسلام وحده من دون سائر الأديان يبيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من دون أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة – ليس في الإسلام خطيئة أصيلة موروثة،وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية، إن كل مسلم رهين بما كسب،والإسلام ينظر إلى الحياة بهدوء واحترام ولكنه لايعبدها، إن النجاح المادي مرغوب فيه،ولكنه ليس غاية في نفسه بل يقود الإنسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل،والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب أن يكون خلقياً».

(٩)

الإنسان

(العقل والقلب)

في الإنسان: روح ومادة، وعقل ونفس، وقلب وجسم ومن هذه القوى جميعاً يتشكل الإنسان ويتكون كيانه كإنسان ومن أجل أن يكون سوياً سليماً لابد أن يقوم توازن دقيق بين هذه الأدوات والقوى، وأن كل ما يصيب الإنسان من اضطراب أو أزمات عقلية أو جسدية إنما يرجع إلى سوء التصرف بإعلاء جانب منها على آخر.

ولقد كشف الإسلام للإنسان عن حقيقة تكوينه وأفسح له الطريق إلى تحقيق رغباته دون أن يرده عنها، أو يصورها له بصورة المحرمات، ولكنه دعاه إلى ضبط النسب بين هذه الرغبات ووضع له حدوداً لايتعداها هي في الواقع قليلة يسيرة إزاء ما أحل له وأباح، وهي في نفس الوقت مقصود بها حماية كيانه من الاضطراب والتدمير.

فالإسلام يقيم قاعدة التوازن بين مختلف القوى في الإنسان: بين الروح والجسد، والعقل والقلب، فيحول دون الكبت والإنطلاق، وبين الإباحية والرهبانية وبين الترف والحرمان فهو لايقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة ويوفق بينهما في تناسق وتوازن ومواءمة تجعلهما متصلين بالإنسان نفسه من حيث هو جسم وروح، كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو في المجتمع، وبذلك يتفادي انحرافات الشطط والتطرف ويتجاوز ما يسمى بالصراع والتناقض وبهذا كله يحفظ الإسلام للإنسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذي يجيء نتيجة الانطلاق الذي يفرضه اعتبار الإنسان مادة أو الجمود الذي يفترض اعتبار الإنسان روحاً خالصة، وكلاهما ليس من فطرة الله التي فطر الناس عليها.

٢- جاء الإسلام بالحقيقة الكبرى التي عجزت عنها المذاهب والنحل والدعوات وهي (تكامل القيم) في الإنسان وفي المجتمع، وأن هذه القيم لاتتصارع ولا تتخاصم كما تحاول هذه الدعوات أن تصورها كذلك، وإنما هي تتكامل وتتلاقى في توازن وفي اتساق، ومرجع هذا كله إلى أن الإنسان نفسه الذي يطبق هذه القيم، أو الذي تقوم في كيانه هذه القوى قد صنعه خالقه تبارك وتعالى أولاً من الطين ثم نفخ فيه الروح فهو كيان تلتقى فيه المادة والروح، والعاطفة والعقل، دون أن يكون من هذا اللقاء صراع ما، بل إن هذا اللقاء هو الذي يحقق «وجود» هذا الإنسان وأن هذين العنصرين لو انفصلا فلن يكون هو ذلك الإنسان الذي تعرفه.

ومن هنا فقد ألغى الإسلام الفكرة القديمة التي كانت سائدة حول الصراع بين الجسم والروح والقول بأن الجسد والمادة سجن للروح، وليس صحيحاً أن الجسم والروح في خصومة متبادلة، والحقيقة التي يقرها العلم وتقبل بها الفطرة أنهما متكاملان، وأن كلا منهما مرتبط بالآخر لاينفك عنه، لكل منهمامجاله الخاص من النشاط الذي يلتقي بالآخر وينصهر معه ليؤدي في مجموعه إلى غاية متكاملة، وليس الجسد في الإسلام محبساً للروح أو سجناً لها، بل هو «معملها» الذي تقوم من خلاله بالعمل الذي يؤهل الإنسان إلى أداء رسالته وتحقيق وجوده،ومن هنا فقد فشلت تلك المحاولات الضالة التي اتجهت ببعض الناس إلى الرياضات البدنية الشاقة التي يكبتون فيها غرائزهم ويدمرون بها أجسادهم وقواهم في سبيل تزكية الروح.

فقد كانت هذه الدعوة من صناعة الفكر البشري بأوهامه وأهوائه ولم تكن من دين الله الحق، ولذلك فقد أفسدت الحياة وشلت ميدان العمل، ووكلت الناس إلي الجمود والتوقف عن الحركة، بينما لايدعو الدين إلا إلي العمل والحركة وتعمير الحياة ودفع عجلة التقدم.

ومن هنا كانت نظرة الإسلام الأصيلة الصادقة إلي الإنسان نظرة متكاملة فقد أعلنت الإيمان بالروح والجسم معاً،إذ دعا الإسلام إلى صقل الروح بالعبادة والتفكر في خلق الله،ورعاية الجسد بالنظافة والزينة.

فليس في الإسلام روحية خالصة ولا مادية خالصة وإنما هناك (إنسانية) من جماع ذلك كله مشتركاً ممتزجاً في كيان واحد هو: الإنسان.

والشخصية الإنسانية تتكون من العاملين معاً: الروح والجسد، ولا يكون الإنسان سوياً إلا إذا كان متوازن الروح والجسد، فالمظهر الجسدي عنصر هام من عناصر الشخصية ممثلاً في الملبس والكلمة والطبع والسلوك ولكن هذه المظاهر لاتكون سليمة إلا إذا كان وراءها قلب نقى ونفس طاهرة فهناك علاقة جذرية بين الجسد والروح، وبين مظهر الإنسان ومخبره.

وهذا معنى قول الرسول ﷺ :

«إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله: ألا وهي القلب».

٣- في الحديث عن الروح لايفصل الإسلام بينها وبين الجسد فليست هناك عقيدة روحية منفصلة ولا عقيدة مادية منفصلة وإنما هناك قاعدة قوامها (رغائب المادة وأشواق الروح) فالإنسان روح ومادة، والميل إلى إحدى الناحيتين بالإغراق فيها أو إقرارها كأساس للنظرة العلمية انحراف، وهذا هو مصدر انحرافات الحضارات الشرقية والحضارات الغربية، فقد انحرفت الحضارات الشرقية إلى الروح وأفردتها بالنظرة وكذلك فعلت الحضارات الغربية إلى المادة وقد عجزت كل منهما عن النظرة الكاملة المستوعبة لكل الأبعاد وكان من نتيجة ذلك أن عجز الإنسان في هاتين الحضارتين عن تحقيق الأمن النفسي.

ولقد كانت المجتمعات الغربية روحية خالصة حتى بلغت في ذلك مبلغاً قاسياً من الاضطراب والجمود، ثم ما لبثت أن تحولت إلي مجتمعات مادية خالصة تواجه الآن أقسى صور التحلل والتمزق النفسي وهذه تجربة يجب أن توضع بين يدي البشرية لتدرس دراسة وافية، فالذين آثروا الروحية بعدوا عن الدنيا وانفصلوا عنها تماماً وأهملوا أمر الجسد واتخذوا رياضات بدنية شاقة قضت على رغبات النفس، والذين

آثروا المادية بعدوا عن الدين وانفصلوا عنه تماماً،وأهملوا أمر الروح وعكفوا على اللذات الحسية وأعلوا شأن الغريزة والجنس والمادة.

وكلاهما منحرف عن «الصراط المستقيم» الذي دعا إليه الدين الحق منذ قديم، وأوضحه الإسلام كمنهج وحيد للحياة الحقة.

٤- الروح: هو ذلك السر الإلهي الذي حين وضع في الجسد المصنوع من الطين أصبح حياً بصيراً سميعاً مريداً، فهو كما يصوره العلماء التجريبيون مبدأ الحياة في البدن، وعند الأطباء هو جسم بخاري لطيف يتولد من القلب وينتشر بواسطة العروق في سائر أجزاء البدن، وهو عند الفلاسفة الجوهر العاقل المدرك لذاته باعتبارها مبدأ التصورات،والمدركه للأشياء الخارجة من جهة ما هي مقابلة للذات المدركة.

وتوضع كلمة روح في مواجهة ثلاثة أشياء: في مقابلة المادة، وفي مقابلة الطبيعة، وفي مقابلة البدن.

وفي القرآن للروح عدة معان: (١) ما به حياة البدن. (٢) بمعنى الأمر. (٣) بمعنى الوحي. (٤)بمعنى القرآن. (٥) بمعنى الرحمة. (٦) بمعنى جبريل (والمقصود من هذا البحث هنا هو ما به حياة البدن).

وجملة القول في هذا أن الروح «سر إلهي» أودعه الله في هذا الهيكل الجسماني فهو بعيد عن سلطان الحس، رفيع عن متناول الفكر، وقد عرفها الحق تبارك وتعالى بتعريف هو غاية ما يسع عقولنا فهمه.

﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

وهي غلاف ألطف من هذه المادة التي يتكون منها الجسد وأرفع منها رتبة وهي في شكل الجسد تماماً، فالروح حالة في الجسد، فمتى خرجت الروح خرجت بغلافها هذا،وهو من لطافته يدق عن أن يرى.

وهي مصدر جميع مظاهر الإنسان الحيوية والعقل يعجز عن إدراك الروح لأن

الروح من أمر الله.

هذا وتبالغ المذاهب المادية والروحية في دعوى الفصل بين الروح والمادة أو باستقلال الروح عن البدن أو بالقول بأن للإنسان غايتين إحداهما: متعلقة بالحياة الحيوانية المادية والأخرى متصفة بالحياة الروحية المحضة، وقد فصل الإسلام في هذا الأمر، وكشف عن أن كلاً من الحياتين مرتبط بالأخرى، وأن إحداهما تسلم للأخرى، وأن عمل الإنسان في الحياة الدنيا هو عمل مادي وروحي في نفس الوقت وأنه من أجل تعمير الحياة، وفي نفس الوقت من أجل تزكية الحياة الأخرى، ولا يمكن أن يفصل المسلم بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، وأن حدود الله التي وضعها للإنسان في منهج الحياة تجعل اتجاه الإنسان للعمل قائماً على تبين وجهة الحلال والحرام فإذا تحرى الحلال كان عمله للروح وللأخرة أيضاً في نفس الوقت الذي هو من عمل الدنيا والمادة.

وقد تنبه لهذا العلامة ويتهدحيث يقول: إن التفرقة بين العقل والجسم وبين المادة والحياة تعطى صورة مشوهة فالحقيقة الكونية مرتبطة بعضها ببعض بعلاقات ونظم دقيقة، مرتبطة بماضيها وحاضرها ومستقبلها ومحيطها وبغيرها من الأشياء.

٥- يراد بالنفس المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان:

﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾.

وللنفس أن تسلك أحد طريقين: طريقاً إلى العمل الصالح وطريقاً إلى الشر، ولذلك جاء الدين الحق بالدعوة إلى مجاهدة النفس وملاحظة انحرافها ودفعها دائماً إلى الخير.

وذلك من أجل إيجاد التوازن بين الروح والمادة في نفس الإنسان فلا يصعد إلى الزهادة ولا يهبط إلى الإباحية، ولكنه يظل موازناً بينهما في إطار الضوابط والحدود التي دعا الدين إلى عدم تجاوزها، والإسلام يكره فقدان التوازن ولو إلى أعلى، فإن

الاستجابة لنوازع الأرض ضرورة ولا رهبانية في الإسلام.

وحين يعترف الإسلام بالكائن البشري ككل يعترف برغباته وبالنشاط الحيوي وبحق الإنسان في مزاولة هذا النشاط ثم يرسم له الطريق والضوابط والحدود حتى لايؤذي نفسه، ولا يؤذى المجتمع ولا يتعدى حقوقه، وقد أباح الإسلام له شهوتي الطعام والجنس، ودعا إلى الاستمتاع بالحياة في هذا الإطار.

والإسلام لايمنع الإنسان شيئاً من رغائبه،ولكنه يضعها في قوالب ويضع لها ضوابط، وحاجات الإنسان الرئيسية هي الطعام والمال والجنس والحرب.

إن أبرز مفاهيم الإسلام: الاعتراف بالواقع البشري وتقدير النوازع الفطرية، فهي نوازع حقيقية من حق الفرد الإحساس بها ومزاولتها، كل ما هنالك أن تجرى ممارستها في إطار من الضوابط والحدود، بذلك لاتكون هناك أزمة جنس ولا مشكلة صراع ولا حالة تمزق.

إنما ينتج الصراع من المنع والحرمان، عندما يحس الإنسان أن دون تلك الرغبة قيوداً وسدوداً، ولكن إذا كان هناك اعتراف بالرغبة نفسها مع العجز عن الحصول عليهافإن الأمر يختلف، هنا لايوجد في أعماق النفس أزمة ولا ضرورة للصراع وهناك الإعلاء والترقب لوجود العوامل التي تحقق ذلك، وفي هذا المجال يحضر مثال علاقة الرجل بالمرأة فالإسلام يقر هذه العلاقة، بل ويحث عليها ولكنه يفرض أن تجرى في إطار من الضوابط والنظم الشرعية،فإذا وقعت خارج هذه الضوابط حدث الحرج والصراع لأنها تكون بمثابة شيء مما يحيك في النفس وكرهت أن يطلع الناس عليه.

وفي الإسلام حدود أخرى إزاء رغائب الإنسان بعد الاعتراف بها، في المال يقر الإسلام تملك الإنسان للمال ولكن في حدود واضحة، أن يكون مورده من الحل وأن ينفق في اتجاه الخير وأن تقدم عنه زكاة،وحقوق أخرى غير الزكاة وكذلك الأمر في الطعام والزينة، نفس الاعتراف بالحل ونفس الضوابط حتى لايقع في السرف ويكون

ذلك اعتداء على حق الآخرين، وكذلك نظم الإسلام علاقات الحرب والأخذ بالثأر ووضع لها ضوابطها، أما الخمر والميسر والزنا والربا فقد حرمها الإسلام تحريماً تاماً ولم يجعل هناك نافذة واحدة لقبولها؛ لأن هناك في دنيا الحل ما يغنى عنها. إن ضوابط الإسلام وقيوده للنفس الإنسانية ضرورة ملحة لازمة لحفظ كيان الفرد ولحماية المجتمع، ولعدم تضارب الحريات ولإقامة روح السكينة والأمن النفسي.

ولو أن النفس الإنسانية أطلق لها العنان لكان ذلك أخطر عليها هي، فإنه سبيل إلى تدميرها فضلاً عن أثره على حرمات الآخرين، وأخطار الإطلاق واضحة وهي بين أيدينا كل يوم في المجتمعات التي أسلمت نفسها له، ولا ريب أن إطلاق الطعام واللذات لايؤدي إلى المتعة بل يؤدي إلى التدمير؛ وقد حرم الإسلام الترف لهذا الغرض حتى يظل الإنسان في حالة القدرة، وحالة القوة التي تمكنه من الحركة والمقاومة في إبان الأزمات.

وليست إباحة الجنس أو الإسراف في الطعام أو في غيره مما يقلل من ضغط الرغبات أو يوقفها فالشهوات لاتشبع من العطاء بل تزيد اشتعالاً، ويكون ذلك على حساب الجسم الإنساني نفسه.

٦- والإسلام يقرر ترابط العقل والقلب في مجال العقيدة وفي مجال المعرفة، والمؤمن هو الذي يقوم إيمانه على العقل والوجدان معاً، أي بين الفكر والشعور، فالعقل يلتقى بالقلب، على الغاية الواحدة، ووظيفة العقل النظر في الغايات والأسباب والمسببات، والوجدان يطلعنا على الشعور الروحي الباطني وما يحدث في النفس من لذائذ وآلام فهما (أي: العقل والوجدان) عينان للنفس هي في حاجة إليهما معاً ولا ينتفع بأحدهما حتى يتم الانتفاع بالآخر والمعرفة ليست عقلية خالصة ولا وجدانية خالصة ولكنها مزيج منهما؛ والمذاهب التي أعلت من شأن المعرفة الوجدانية انحرفت إلى الصوفية والمذاهب التي أعلت من شأن المعرفة العقلية انحرفت إلى الاعتزال وكلاهما لايمثل مفهوم الإسلام الجامع حيث يلتقى العقل مع الوجدان.

٧- القلب في الأصل «عضو صنوبري الشكل مودع في الجانب الأيسر من

الصدر يستقبل الدم من الأوردة ويدفعه إلي الشرايين، ويطلق القلب على تلك اللطيفة الربانية التي لها بالقلب الجسماني تعلق، وهي حقيقة الإنسان التي يسميها الحكماء بالنفس الناطقة أو العقل ويدرك القلب الحقائق عن طريق الحدس والإلهام لا بطريق القياس والاستدلال فالإمام الغزالي يقرر أن الإيمان نور يقذفه الله في القلب وأن الله سبحانه إذا تولى أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فيه وانشرح الصدر.

والقلب هو منبع الأحاسيس والعواطف والمشاعر وهو بذلك مكمل للعقل الذي هو مصدر المفاهيم والإدراك والمقايسات لأن حقيقة المعرفة إنما تتم بنظرة جامعة بين العقل والقلب.

وفي العصر الحديث وفي إطار التقدم العلمي برزت صيحات إعلاء العقل ومحاولة استخدامه وحده في فهم الكون والطبيعة والمبدأ والمعاد، وهي مهمة يقصر دونها العقل حسب مقدرته الحقيقية ووظيفته الأساسية.

وكما لايقيم الإسلام فاصلاً بين العالمين الروحي والدنيوي فإنه لايقيم فاصلاً بين العقل والقلب، بل إن علماء المسلمين حين يعرفون العقل يربطون بينه وبين القلب برباط محكم دقيق، فالعقل جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ وجعل نوره في القلب أو كما عبر عنه البعض بأن العقل مصباح وزيته الذي يضيء به هو القلب.

وعن الإمام الغزالي أن القوة المدركة العالمة يطلق عليها عقل وروح ونفس وقلب وأن العقل نور في القلب يعرف الحق من الباطل والخير من الشر والحسن من القبح ومن هنا تعرف أن هذا الفصل بين العقل والقلب ليس من مفهوم الإسلام أصلاً.

٨- وترد كلمتا العقل والقلب في القرآن الكريم مترادفتين، فالعقل حجة الله على عباده وهو مناط التكليف، ولكنه وحده عاجز عن أن يصل إلي كل الصواب أو الفهم المطلق وليس مستقلاً بالإحاطه بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء في جميع المعضلات.

وقد تحدث علماء المسلمين طويلاً عن حاجة العقل إلي نبي ووحي، وأن هذا النبي يعاضد العقل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقاً فيما يستقل العقل بمعرفته فيكونان دليلين على مدلول واحد، ويرشد العقل ويهديه فيما لايستقل بمعرفته مثل (المعاد) ويكشف عن وجوه الأشياء التي لايدرك العقل حسنها أو قبحها.

وأنه لابد للعقل من أن يتخذ من الوحي هادياً ومرشداً وإلا فإنه يعجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة - والدين وحده هو الذي يقود العقل إلى الصواب، والدين هنا هو الدين الحق الذي لم تنحرف تفسيراته نحو الجبرية أو نحو الجمود، ولا ريب أن نظرية الفكر الغربي في تقديس العقل أو إعلاء ما يسمى سلطان العقل واعتباره المصدر الوحيد للبحث والمعرفة ليس مفهوماً إسلامياً وليس هو في ذاته مفهوماً أصيلاً، والعقل وحده لايستطيع التعرف على المصلحة، فهو في حاجة إلى إرشاد الشرع الذي نزل به الوحي، فإن العقل قد تحجبه الأهواء والشهوات والأغراض النفسية، وقد يتخذ من المنطق مبرراً لرغباته.

٩- ولا ريب أن للعقل رسالة ومهمة ووظيفة، ولا بد من التعرف على حدودها حتى لا يكلف العقل ما ليس في استطاعته أو مقدرته، ولقد سجل العلماء قصور العقل عن إدراك الماهيات وقدرته على إدراك الظواهر، وقد وصل الفلاسفة المنصفون أمثال برجسون إلى أن الذهن البشري وحده لايستطيع فهم حقائق الحياة.

ويرى بعض الباحثين أن العقل ملكة سلبية أي أنه أداة الوعي والإدراك حقاً ولكنه لايملك طاقة الفعل وإرادة التصرف فالفعل والتصرف من خصائص الإرادة الإنسانية، والعقل مضطر للاعتراف بوجود علاقة خاصة بين الكون وخالق الكون لأنه بما يملكه من الأدوات التي هي الحواس الخمس لايستطيع أن يتجاوز الأبعاد المحسوسة للكون.

وفي مراجعة لمهمة العقل في القرآن كما تصوره الآية الكريمة: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو أذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ .

يبين أن مهمة العقل هي مهمة استكشافيه.

كذلك فالعقل يقوم بمهمة البحث عن العلاقات بين الأشياء متعاوناً مع العلم لإمكان الاستفادة منها.

ولكن الخطأ يقع حين يحاول العلم تفسير مظاهر الوجود والكون بقدرات العقل القاصرة.

١٠- يرمي الإسلام إلى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله، والعقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك معه في الألوهية، وقد أودعه في الإنسان لا ليعبد من دون الله بل ليعرف الكون ويكشف ما يلزمه منه ويهتدي به في الظلمات التي ليس للدين أن يكشف عنها فمن شأن العقل أن يجول فيها ويتأمل ويدرك ويستخرج منها ما يهتدي إليه، وعليه أن يسلم بالأمور التي بينها الله في القرآن ولا يشتط فيدعى أنها غير صحيحة.

فالعقل واسطة لاغاية، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تتحدي ما يقوله الله.

والعقل نور مصباح يكشف الظلمات، ولكنه ينكسف أمام نور الله وهو لايستطيع أن يكشف سر الخلق والكون أو أن يضع مبادئ المعرفة، وليس هناك عقل مطلق محرر من النقص والشهوة، وليس العقل هو الحكم الأخير.

وطبيعة تكوين العقل مرتبطة بوظيفة الإنسان في الأرض ومجالها القدرة على التقدم في إدراك قوانين المادة وتسخيرها، ومن هنا يكون عجزه عن الوصول إلى أسرار التكوين الإنساني، وسيظل سر الحياة وسر الموت خافيين تماماً عنه وسيظل سر الروح الإنساني بعيداً عن مجال إدراكه لأن شيئاً من هذا ليس من وظيفته الأساسية، وهو مع عجزه عن وضع التفسير الكامل للكون أشد عجزاً في وضع منهج حياة، أو نظام مجتمع أو شريعة أمة أو قانون جماعة.

١١- ظهرت أحاديث زائفة منسوبة إلى الرسول ﷺ وضعها دعاة الأفلاطونية

المحدثة مثل قولهم أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل إلخ، لقد انطلق الغنوصيون أفلوطين بلسان النبي وقد هاجم الإمام ابن تيمية هذا الاتجاه هجوماً عنيفاً وأثبت أن هذه الأحاديث موضوعة وكشف عن صلتها بالفلسفة اليونانية.

وقد قال بوضع هذا الحديث وضعفه كثيرون منهم السيوطي والحافظ الذهبي، وتكمن خطورة الحديث في الصيغة الفلسفية التي تشيع فيه مصورة العقل بصورة مادية.

وفي رسالة الفرقان لابن تيمية فرق بين النظرتين الإسلامية واليونانية في العقل فقال إنه يراد بالعقل عند المفكرين المسلمين: الغريزة التي وضعها الله تعالى في الإنسان يعقل بها أما عند اليونان فهو جوهر قائم بنفسه.

١٢- يقول الإمام الغزالي في كتاب (المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى): إن العقل لايستطيع أن يحكم على شيء حتى يحصره في اثنين: الزمان والمكان، فيقول متى وأين فما لم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان فالعقل لايستطيع أن يحكم على إلله (تبارك وتعالى) ولا على صفاته ولا على قضائه وقدره، والعقل محدود لايستطيع أن يتصور غير المحدود ولا يحكم على غير المتناهي والله عز وجل غير محدود فالعقل لايستطيع أن يحكم عليه، والعقل لايتصور الخلود ويختل ميزان العقل إن حاول الحكم علي غير المحدود ويقع في التناقض المستحيل، والعقل لايستطيع أن يحكم ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية، أما (ما وراء المادة) أي عالم الغيب فلا حكم للعقل فيه.

هذا الذي قال به الغزالي إعادة الفيلسوف كانت في كتابه نقد العقل بعد ثمانمائة سنة.

وإذا عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية فإننانجد لها مصدراً آخر أكثر وثاقة من العقل هو الوحي والنبوة، إذ لايحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لاندركها بحواسنا.

فالعقل يتكامل مع القلب في الجسم الإنساني وفي المعرفة، والعقل متكامل مع الوحي في معرفة غير المحسوس، وتلك حكمة الله في حاجة العقل إلى المعرفة الخارجية لإرشاده إلى الأمور الإلهية التي لايمكن الاطلاع عليها إلا عن طريق الوحي - والعقل محتاج إلي الاهتداء بالشرع، والمعونة الخارجية لاتنفى بداهة العقل بل تقتضيها. فإن نور العقل يصدق حقائق الوحي.

ولما كانت الحقائق: إلهية وعامة فإن العقل قادر على إدراك الحقائق العامة بدون عون خارجي، وقادر على إدراك الحقائق الإلهية بعون من الوحي فإذا حاول الفلاسفة عن طريق العقل استنباط أحكام في جانب الوحي عجزوا وتخبطوا ولم يصلوا إلى شيء.

ولا ريب أن المعرفة التي يتوصل إليها العقل بنفسه لاتشمل جميع الحقائق، وأن الأمور التي يتوصل إليها عن طريق الاستدلال والنظر هي معرفة مقصورة على أمور الحس والتجربة، وليس في مقدرة العقل معارضة الوحي أو تقديم تفسير آخر.

والمسلم مسئول عن استعمال عقله في الفكر من أجل الوصول إلى معرفة الله عن طريق خلقه وإبداعه، مسترشداً بالوحي جارياً مع الفطرة غير أن العقل لايرتفع إلى مرتبة التقديس ولا الإقرار المطلق بالنظر في كل الأمور.

أما العقل الحديث فإنه يسخر في ترويج الأهواء والباطل وتبرير الفساد والمحرمات، بتداخل الهوى والرغبة والمطمع وانفصاله عن الوحي والفطرة.

ومن هنا فإن استقلال العقل بتوجيه الإنسان على الدوام له محاذير شديدة ومخاطر جمة.

١٣- أخطر ما يواجه العالم الحديث هو انحراف منهج المعرفة واعتماده على العقل والعلم المادي التجريبي، ومن هنا نشأت الأزمة العنيفة التي هي أساس أزمة البشرية الشاملة ومصدرها اتخاذ «المادية» طريقاً للحياة واتخاذها مصدراً للقوة والسعادة.

كذلك فقد تكشفت حقيقة واضحة رددها الباحثون وهي مسافة الخلف بين العقل والروح، فقد تقدمت علوم المادة وتأخرت العلوم الإنسانية فحدث اضطراب شديد كان من آثاره ظهور طوابع القلق والتمزق.

ولما جاء دور البحث في العلوم الإنسانية تولتها المناهج المادية التي تنكر الروح والدين والخالق ومن هنا كانت تفسيراتها أشد اضطراباً.

ويتزعم الفكر الغربي اليوم ما يسمى بالعقلانية وهو التيار الغالب الذي يجعل للعقل الأولوية في تحصيل المعرفة، ويصل إلى الحد الذي يجعل من العقل الأداة الوحيدة لها، ولقد كان لسيطرة الاتجاه العقلاني آثارها البعيدة في ظهور طوابع اليأس والتشاؤم وإغلاق أبواب الأمل، وتزايد أسباب القلق والتمزق التي تصورها ردود الفعل في الكتابات الوجودية والهيبية.

أما مفهوم الإسلام فهو الوحيد الجامع المتكامل، المسعد للنفس الصادق النظرة المتصل بالفطرة.

(مقارنة بين مواقف الإنسان من التاريخ)

قارن المفكرون بين موقف الإنسان في الأديان من التاريخ.

يقول الفريد كانتون سميث:

١- موقف الإنسان الهندي:

إن الرجل الهندي لايأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس، والهندي دائماً مشغول بعالم الروح، عالم اللانهاية، ومن ثم فكل شيء في عالم الفناء المحدود لاقيمة له عنده ولا وزن والتاريخ بالنسبة له شيء ساقط من الحساب.

٢- موقف الإنسان المسيحي:

أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة أو في عالمين منفصلين لايربط بينهما

رباط. فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق، والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود، ويسير هذان الخطان في نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن بغير اتصال، والتاريخ عنده هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه.

٣- موقف الإنسان الماركسي:

أما التاريخ في نظر الماركسي فهو الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لايؤمن إلا بهذا العالم المحسوس، بل لايؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده، وكل شيء عداه باطل، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها.

٤- موقف الإنسان المسلم:

أما المسلم فإنه يحس بالتاريخ إحساساً جاداً، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض، ويؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً، يسير البشر في الأرض على مقتضاه، يحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو جماعي، بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق.

والتاريخ في نظر المسلم: هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر، فالمفهوم الإسلامي واضح الإيجابيه، فبينما غير المسلم يضحى بنفسه لأنه لايريد أن تمر عجلة الحياة الخاطئة وهو حي فلا يسمح لها بالمرور فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به إلى الله فإن المسلم حين يضحى بنفسه ففي حسه أن هناك نظاماً إلهياً يراد أن يطبق في واقع الأرض، وفي حسه وهو يضحي أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الأمام.

(١٠)

الإنســـان

(الحياة الدنيا - الموت)

إن النظريات التي وضعها الإنسان عن نفسه وعن الحياة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الله مدفوعاً بدراسته الشخصية وخضوعه لسلطان الأهواء، هي نظريات لم تثبت قدرتها على الصمود والتماسك، ثم إن المواقف التي اتخذها على أساس تلك النظريات هي في حقيقتها مهلكة للإنسان، وهي مرجع تلك الأزمة القاسية التي يمر بها اغتراباً وتمزقاً وهلعاً.

وإنما العلم الحق عن الإنسان وعن مهمته ورسالته وعمله واستخلافه في الأرض هو ما علمه الله إياه عن طريق الوحي والدين الحق.

ولقد جاء القرآن في ذلك بأقوم منهج وأصدق سبيل.

قدم الإسلام الحقائق التي لاسبيل للإنسان أن يجد منهجاً قوياً إلا بها مهما غير وبدل وما زال يفعل منذ خمسة قرون أو يزيد.

أولاً:

لقد قرر القرآن أن للعالم وحدة وانسجاماً وأنه خاضع لنواميس ثاتبه وسنن لاتتغير لا في الزمان ولا في المكان، وأن الله وحده خالق السنن وهو الذي يستطيع أن يخرقها ويتجاوزها بإرادته القادرة.

ثانياً:

إن الإنسان خاضع لإرادة عليا هي إرادة الخالق، فإذا قضى الله أمراً فلا مرد لقضائه، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهذه تختلف عن نظرة الفكر البشري الذي يرى أن الأمور تسير وفق قوانين ونواميس ثابتة، وأن الإنسان لايستطيع أن يفعل

شيئاً فهو متفرج على ما يحدث له وللمجتمع وللطبيعه على حد سواء.

وهذا هو ما يطلق عليه اسم «الحتمية» في المفهوم المادي،ومعنى هذا أن الأشياء تخضع لقوانين ضرورية، وأن الأحداث تترابط فيما بينها وأن الماضي كان يحمل الحاضر في جوفه،وأن الحاضر يحمل المستقبل ومعنى هذا أن الأمور تسير في طريق واحد لايتغير.

ومن هنا تنكر الحتمية: إرادة الله العليا وتصرف الإنسان وسعيه وتسمى الأمور الغيبية باسم المصادفة والاحتمال، وأبرز مظاهر فساد الحتمية أنها تقف عند الجوانب المادية وحدها لأنها في الأصل تصدر عن مفهوم مادي، فهي لاتحسب حساباً لإرادة الله المطلقة ولا للعوامل الروحية أو النفسية والاجتماعية.

والفهم الإسلامي للقوانين والنواميس أنها من صنع الله تبارك وتعالى وأنها من طبيعة الأشياء ولكن لصاحب النواميس الحق في خرقها وتغييرها متى شاء، وهناك دور الفرد وإرادته الذاتية ذات الأثر القوى في عوامل التغيير من خلال النطاق المحدود الذي يتحرك فيه،فالفرد يستطيع أن يمارس إرادته في تغيير المجتمع.

أما الحتمية فإنها لاتتفق مع إرادة التغيير حيث لايكون معها إرادة من جانب الإنسان، ولا ريب أن جبرية التاريخ التي دعا إليها ماركس تجعل التاريخ محكوم المسار وبذلك لايكون في خطواته جديد يبديه، مع أننا نرى من وقائع التاريخ على مر الأزمان ما يخالف ذلك تماماً.

والحتمية لاتتفق مطلقاً مع مسئولية الإنسان والجزاء الأخروى: هذه المسئولية التي هي نابعة من إرادته الحرة القادرة على التغيير.

فالإنسان له إرادة فاعلة،وهي جزء من إرادة الله تميز بها عن الحيوان،و الجبرية من شأنها أن توكل الإنسان إلى الانحراف اعتماداً على أنه مجبور، وهي تشوه مزية الإنسان وتحول دون تقديره لمسئوليته وقدرته وما يتصل بها من حساب الله عليهما.

٢- تلك هي أزمة الإنسان الحديث، ترك المنهج الرباني ومضى يتخذ لنفسه

منهجاً حاول أن يصفه بأنه علمي، وهو مليء بالأهواء والثغرات «فقد أقامه على نظرة جزئية للإنسان فهو لم يعترف في الإنسان إلا بالمادة والجسد، وبما يتصل بذلك من رغائبه في لقمة العيش والجنس،ومن هنا اتصلت مذاهب النفس والاقتصاد واجتماع بالبحث حول هذين الأمرين.

لقد رأى الفلاسفة العلم والعقل والنزعة التجريبية، وقصروا أمرهم عندها وهي ليست كل شيء ثم جاءوا ليعرضوا قضية الإنسان كله عليها، فعجزوا عن أن يحصلوا على نتائج صحيحة، حتى مذاهب الوجودية فلأنها اتخذت الفكرة المادية أساساً لها وهي خاصة ببحث النفس والوجود والحياة والإنسانية فقد اضطرب نهجها ووصلت إلى الغثيان والتمزق والخوف والغربة.

وقام أمامها خطران: هما الحرب والموت وكان نتيجة ذلك ظهور دعوات تدميرية كالهبية وغيرها.

لقد تنبه لذلك كثير من الباحثين المنصفين يقول: جاك ماريتان: إن أي مجتمع بشري يحتاج إلى مجموعة من القيم المطلقة ذات المصدر الإلهي الذي يعلو على الإنسان نفسه وإلا فإنه سيكون طرفاً قاضياً في نفس الوقت، إذن لابد لكي يحتفظ المجتمع باستقراره من وجود حقائق مطلقة يسلم بها الأفراد جميعاً».

ولكن (جاك مارتيان) الذي استطاع أن يصل إلى تحديد خطر الأزمة لايستطيع أن يتجاوز ذلك إلى الحل الصحيح، وهو أنه لن يجد ذلك في هذا العصر إلا في الإسلام.

٣- أخطأ الفكر الغربي في فهم علاقة الإنسان بالطبيعة: فصور تاريخ البشرية المادي على أنه سلسلة من المعارك خاضها الإنسان مع الطبيعة وانتصر فيها بفضل ذكاء الإنسان ولم يعرف الفكر الغربي أن الله من وراء النواميس الطبيعية وأنه هو الذي هدى الإنسان إليها وأن الأمر لم يكن مع الطبيعة أمر معارك أو تحديات، وإنما أمر تذليل، وإقرار لإرادة الله في الكشف عن كنوز الأرض وذخائرها.

ومنهجه هذا دعاه إلى أن يفهم الحياة فهماً معقداً مضطرباً فظن أن الحياة لعبة، وأن له حق الاستمتاع بها بغير حدود أو ضوابط،وأن ليس لهذه الحياة وجهة ولا غاية.

وهل يمكن أن تكون الحياة بلا هدف ولا رسالة؟.

إن طبيعة الحياة الدنيا ووظيفة البشر فيها، في مفهوم الإسلام: أنهامعبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه: الجنة أو النار لابد أن يبتلى بما يصقل معدنه ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح المؤمنون في التغلب على العقبات التي ملأت طريقهم وتظل صلتهم بالله واضحة عميقة مهما ترادفت البأساء والضراء فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم: ﴿ ياعبادي لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

ما ضرورة الابتلاء؟ إنه من أجل التمرس بالتجارب والتعرض للمتاعب،وهي القانون السائد في الحياة القصيرة،حتى يستصفى الإنسان نفسه من كل أدران الفردية والأنانية.

٤- إن الإسلام يحذر الذين يمضون في طريق الحياة دون أن يسألوا (ما هو المعنى الحقيقي للحياة) ولقد يغلب على ظنهم أن الحياة حق مطلق ليست فيه مسئوليات ولا تبعات، وأنها مباحة بقدر ما يستطيع الإنسان أن يأخذ منها، وأن عليه أن ينطلق فيها ما دام قادراً على أن يكون بعيداً عن المحاسبة أو المسئولية، ولكن الحياة الدنيوية ليست كذلك في مفهوم الإسلام.

إن الإسلام دعا إلى التحذير من الانقطاع عن الدنيا كالبوذية أو عبادة المال كاليهودية أو تغذية الغرائز كالأبيقورية واتخذ موقفاً بعيداً عن الرهبانية والإباحية والانحلال.

رفض الإسلام التحلل والرهبانية معاً وحذر من الترف الفاحش والتحرر من زيف المادة واستعباد الدرهم والدينار وأعلن أن الرفاهية تتعارض مع فكرة الواجب

والتضحية.

وإذا كان الغرب يعتبر الرفاهية المثل الأعلى له والدافع الأول للعمل، فإن الإسلام يري أن التقوى والبذل والإيثار هو المثل الأعلى.

كذلك ركز الإسلام على الضوابط: وهي العقل، والإرادة، والدين، والقدوة والجزاء ودعا إلى العناية بهذه الضوابط وتنميتها، والإرادة هي كبح جماح النفس، وإخضاع عنان الشهوات.

٥- تراوح الغرب بين الرهبانية والرفاهية أما الإسلام فإنه يرفضهما معاً ويرى فيهما انحرافا عن السوية وأن كليهما خارج عن طبيعة الإنسان وفطرة الله التي فطر الناس عليها، أما الرهبانية فقد حالت دون أداء الإنسان لرسالته في الحياة عملاً وتعميراً وكفاحاً ونضالاً، أما الرفاهية فهي تعزل الإنسان بالترف عن أن يكون قادراً وقوياً.

فالترف يضعف الإرادة ويجعلها مصدراً للرخاوة، وقد قرر القرآن أن الترف مهلك للأمم لأنه يعلى من شأن جماعة صغيرة، بينما يسبب الحرمان لعدد كبير من الناس.

والترف كالبأساء تماماً بالنسبة للنفس الإنسانية وهو هدم لركن أساسي من أركان المجتمع هو الصمود والاخشيشان والقدرة على مواجهة الأحداث، ومن شأن هذا أن يهدر الشخصية ويضعفها ويجعلها عاجزة عن الصمود.

ومن أجل هذا حض الإسلام على القصد والاعتدال في المعيشة ونعى على الإسراف والتبذير والابتعاد عن مصادر المال الحرام، وكشف عن أن كل زيادة في جانب هي بمثابة حق مضيع للجانب الآخر، وأن ما يسرف به أصحاب الترف والرفاهية هو ما ينقص الفقير والمحتاج، وأن هذه الزيادة لاتنفق في شيء ذى بال ولكنها تنفق في الكماليات والمظاهر والانغماس في اللهو.

ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى ضبط نوازع النفس وأهوائها في المفاخرة

والمكاثرة بالأموال والإسراف في اقتناص أطايب الحياة وإعلانه بأن الاعتدال هو أصلح الأمور، وأن المال يجر إلى المعاصي غالباً وأن الترف يحرك نوازع النفس وأهوائها إلى اقتحام مجال الشهوات.

وكذلك كشف الإسلام عن أن الترف والنعمة حين تصل إلى درجة السرف تؤثر في الصحة فتخلق أمراضاً مستعصية فضلاً عما يقاسيه أصحاب الثروات الطائلة التي لم تكتسب من الحلال ولم توجه إلى ما أراد الله من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى تربية الأبناء على الخشونة والحركة.

«اخشوشنوا فإن النعمة لاتدوم».

ومن شأن الحياة الوسيطة أن تمكن الإنسان من الاحتفاظ بقدراته وكفايته الذاتية النفسية والجسمية ومن هنا كانت ضرورة إعداد الأجيال الناشئة القوية المدربة القادرة على العمل.

ومن شأن الترف ـ وهو سرف ـ أن يفسد أخلاق الإنسان وبه تضيع الحقوق وتقسو القلوب وينضب الخير من المجتمع وترتفع راية الأنانية والجفاء وتنقطع المعونة عن ذوي الحاجة، وصدق في هذا قول الإمام على «لم أر إسرافاً إلا وفي جانبه حق مضيع» وقد وصف القرآن المسرفين بأنهم خصوم الحق وأعداء كل إصلاح، كما صورهم دعاة للجمود وتقليد الآباء، ووصمهم بالعجز عن تقبل الحق والخير الذي سيغير من أوضاعهم، وفي الإسلام دعوة حارة إلى الاعتبار بتجربة الحياة الدنيا، وبالمترفين الذين ماتوا دون أن يأخذوا معهم شيئاً سوى بخلهم وشحهم وهلعهم، والذين هم مسئولون عن موارد أموالهم وعن مصادرها، ومن هنا حذر الإسلام من الاغترار بالدنيا واستمرار الغنى أو الترف فيها، فإنها سرعان ما تتحول ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ كذلك فإن الإسلام ينقل الإنسان من المعاني المادية الصرفة إلى القيم الجامعة بين المادة والروح فالغنى عنده ليس في كثرة المال ولكن الغني غني النفس،

وإن المال القليل مع القصد المستقيم أسلم عاقبة وأصح طريقاً من المال الكثير مع السفه والعجز عن الاتجاه إلى الوجهة الصحيحة.

ولقد وصف كثير من الباحثين: الرفاهية بأنها مرض وبأنها تتعارض مع جميع القيم الإنسانية يقول أحد الباحثين:

«إن الإنسان لم يخلق ليوفر جهده ولا يعمل، بدليل أنه متمتع بقوة وقدرة على العمل، ولا يعقل أن يمنح شيئاً لايستعمله هنا، كذلك فإن الإنسان لايمكن أن يعيش عالة على ما ورث بل عليه أن يستأنف رسالته».

وفي الرفاهية معارضة مع فكرة الواجب والتضحية، لأنها تقوم على الأخذ دون العطاء وعلى الحرية المتحللة من المسئولية، فهي معول هدام للحضارة.

وهي الآن في موقف خطير من حيث إنها كادت تطغى على فكرة البقاء الأساسية للبشر، حيث إن غريزة (الكفاح من أجل البقاء) قد تحول معناها بوجه عام إلى معنى (الكفاح من أجل الرفاهية) وما يضحى به في سبيل ذلك فإنما هو أغلى شيء: إنه القيم الروحية.

٦- الزهد: وإيقاف الحياة عليه مفهوم مخالف لمفهوم الإسلام كما صوره القرآن؛ لأنه يحول بين الإنسان وبين خوض تجربة الحياة ومواجهة الحق والباطل والخير والشر والتماس الطريق الصحيح بينهما بالمعاناة والأزمة والامتحان والفتنة والابتلاء وكلها ضرورية لاتصال الناس والتعامل معهم، وذلك هو المحك الدقيق لإيمان الإنسان ومدى قدرته على امتلاك الإرادة أمام مغريات النظر واليد والتملك.

ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلي «التقوى» فالتقوى ليست احتقاراً للحياة ولكنها معارضة للجشع والسرف والطمع، وهي لاترد دعوة العمل في الحياة ولكنها تضع لها ضوابطها، وتطبعها بطابع السماحة والرفق، وتحررها من الظلم والعنت والانبهار المادي.

٧- ويجيء «التوكل على الله» كأساس للسعي في الحياة.

وفرق بين التوكل والتواكل،فالمسلم يتوكل على ربه ويعمل، يكافح وهو مؤمن بقضاء الله، مقدر لمسئوليته الفردية فإن كل ما يلقاه إنما هو ثمرة أعماله وأن عليه أن يأخذ مع التوكل على الله بالأسباب ويأخذ مع التوكل على الله بسنن الله في الحياة، حتى ينجح ويفوز ومن سنن الله النظام والدوام والمبادرة والدقة وترك الكلفة.

والتوكل على الله قوة نفسية لها فاعليتها، تدفع المؤمن إلى الثقة فيما يصمم على تنفيذه ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ .

وللتوكل عناصر ثلاثة تتم بها فاعليتها: (١) الإيمان بالله. (٢) الإيمان بالحق والخير، (٣) العزم والتصميم، وبغيرها لايفيد التوكل على الله، والتوكل مرتبط بالسعي كالطير تغدو وتروح، ذلك أن الله قد ربط الأسباب بالمسببات ولولا غدوها ورواحها، ما وصلت إلى ما أرادت «تغدو خماصاً وتعود بطاناً».

ولا بد أن يصحب التوكل التسليم ثم التفويض:

(التوكل بداية والتسليم واسطة والتفويض نهاية).

وقد دعانا الله إلي العمل فقال: ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها ﴾ وقال: ﴿ وقل اعملوا ﴾ .

٨- والإنسان في هذا الكون ليس وحده، ولن يغنيه شيئاً أن يقول له أحدهم (ابحث عن أعماقك) أو (ادرس نفسك) وما يغنيه هذا إن لم يكن قد عرف ربه وارتبط به، وإن المسلم الذي يعرف ربه أولاً هو الذي يجده في أعماله هادياً يضيء له الطريق، ولا يمكن أن يستغنى الإنسان عن هذه العناية الكبرى أو أن يسعى وحده في الطريق الطويل، فإنه لن يصل إلى شيء إلا الظلام والغشيان.

إن الدعوة إلى التحرر من هداية الله لكي يتحمل الإنسان تبعة حريته كاملة فيرفض كل قوانين الكون لأنها مفروضة عليه ويرفض صوت الدين لأنه قيد على حركته، هذه الدعوى باطلة وسوف تورد الإنسان مورد الهلاك،لأنها تجرده من الأمن والسكينة وتلقى به إلى الهلكة والتمزق والصراع والغربة.

إن حرية الإنسان لاتتعارض مطلقاً مع هدي الله الذي هو ضرورة لازمة، إن هذا الهدي (وهو ليس وصاية ولكنه نور) هو عامل حماية الإنسان في خطواته إلى طريق لايتعرف مسالكه بغير معونة الله.

يقول اليكس كاريل: (لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التي كدسها العلماء والشعراء والفلاسفة والروحانيون في جميع الأديان فإننا لم نستطع أن نفهم إلا جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لانفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء انتزعتها وسائلنا فكل واحد منها مكون من موكب من الأشباح يسير وفي وسطها حقيقة مجهولة، إن أغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة».

أما أنت أيها الإنسان المسلم فأي شيء لاتعرفه، لقد هداك ربك وأعطاك منظوراً كاملاً تعرف منه نفسك في حالة غضبك ورضاك، وفي حالة علاقتك بالآخرين: زوجة وأماً وابناً وأهلاً وجاراً وعملاً، وفصل لك علاقتك بالكون وعلاقتك بالدنيا وبالآخرة وبالله سبحانه وتعالى. هذه المعرفة من شأنها أن تعطى اليقين والسكينة والضياء والنور في هذا الطريق.

لقد أعطاك المنهج الرباني هذا الضياء، أما أولئك فقد عجزوا، عرفوا الإنسان مفرقاً، وعرفوه مادة، وعرفوه طالب لقمة أو شهوة، أما غير ذلك فلم يعرفوه، وهو مازال في داخلهم يلح عليهم فلا يجيبوه، ومن هنا تمزق وصارع وانصرع، ومازال.

إن أخطر ما في حياة الإنسان المعاصر هو التناقض إنهم يقولون:

«لقد انتزع لنفسه الحرية في أن يريد وأن يصنع ما يريد دون أن يجعل لإرادة علوية الحق في أن تشل يده، وحقق بذلك سلطانه البشري في معارضة منهج الله، غير أن هذا الاتجاه لم يحقق لهم شيئاً إلا التمزق، ولم يتحقق إلا على حساب صدع

كبير بين الإنسان وقوى الكون الأخرى وكان معنى هذا: إما أن يمضي في تحقيق ذاته واستغلال حريته، وعندئذ تنقطع الوشائج بينه وبين القوى الأخرى، ويؤول أمره إلى عزله داخلية عن الحياة ويفرض عليه المجتمع حكمه بالمروق.

وإما أن يلتمس الطريق الصحيح ويعترف بالإرادة العليا التي تفرض عليه التطابق مع مجتمعه والمواءمة مع نظام الكون والتوازن مع ناموس الحياة وعندئذ تنحسر عنه عوامل الصراع.

ولكن أنى للإنسان المعاصر أن يفعل ذلك من غير أن يهتدي إلى كلمة واحدة؟.

٩- لم يذهب الإسلام مذهب من أعطوا (الفرد) الاهتمام بلا حدود، كما لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد في الجماعة، فالإنسان له دائرتان متداخلتان: دائرته كفرد ودائرته كفرد في مجتمع.

والبناء الإسلامي مشكل من لبنات قوية في تكوينها الداخلي وهم الأفراد مترابطة في اجتماعها بلا اختلاف.

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم من بعض».

وأخطر ما يواجه الإنسان اليوم تلك الدعوة إلى حل رابطة الفكر الجامع حتى يصبح الإنسان له فكره الخاص وطريقه الخاص فتتفرق الجماعة، وتتحطم الأسرة وذلك هو ما يصورونها في عبارة «كل إنسان له حقه في أن يفعل ما يشاء» ومن هنا تغتاله عشرات المذاهب والدعوات التي تمضى إلى الفردية فلا تجمع الجماعة وحدة دين أو عقيدة أو فكرة جامعة.

إن من حق كل إنسان أن يفعل ما يشاء حين يتحرك في إطار عام،وأن تكون حركته مضبوطة بحيث لاتعتدى على حق الآخرين.

إن عمل الإسلام هو أن يحفظ شخصية الإنسان المسلم من الخروج عن الفطرة أو عن الجماعة.

ذلك لأن الجماعة هي الحجاب الحاجز الذي يحول بين الإنسان وبين تدمير نفسه أو

التردي في مهاوي الشقاء، فإذا اقتحم الإنسان سياج الجماعة وخرج عليها كان مصيره الهلاك.

لقد حرص الإسلام على تحقيق المصلحة العامة للمجتمع مع الاحتفاظ بفردية كل فرد في الوقت نفسه، فالإسلام حين يحافظ على مصلحة الجماعة إنما يحافظ في نفس الوقت على مصلحة كل فرد.

«إن مثل المجتمع والفرد مثل جماعة ركبوا سفينة في عرض البحر ثم أراد أحدهم أن يخرقها فإن تركوه يعبث بالسفينة غرقوا وإن وقفوا في وجهه أنقذوا».

ومعنى هذا أن الفرد ليس حراً في أن يفعل ما يشاء ولكنه مقيد، فليست الفردية في الإسلام ملازمة للفوضى وإنما مقيدة بقيود شديدة.

إن فردية الإنسان تبرز في ولادته وفي نسبه وعمله، وفي موته وفي حسابه والعبادات مفروضة على كل فرد على حدة، كل فرد في علاقته بالله له مسئوليته وكيانه الخاص، ولكن الإنسان له جماعيته في أشياء كثيرة: في الصلاة وفي الزكاة وفي الحج وفي الزواج والأسرة حتى يقال: «الفردية في المحراب والجماعية في الشارع».

وللإنسان علاقة مع الأهل والأبناء والأسرة، وهي علاقة رحمة وتوجيه، حفاظاً على العرض والكرامة وبذل للأباء والكبار والشيوخ، والفرد في خدمة الجماعة والجماعة في خدمة الفرد، والإنسان مطالب بالإيثار والإسلام دين إيثار لا أثرة.

ولقد أكد الإسلام ملكية الفرد ووجهها إلى العطاء بالزكاة وفتتها بالميراث، والمسلم يعلم أنه ليس مالكاً ولكنه مستخلف، ومن هنا فعليه أن يحقق ما كلفه به المالك الحقيقي وهو الله: من عدل ورحمة وإنفاق.

١٠- حرص الإسلام على استبقاء الصورة الطبيعية التي خلقها الله للإنسان: وعمل على حفظ شخصية الإنسان وكيانه من التغيير أو الخروج عن الطبيعة أو الفطرة، وعنى في نفس الوقت بدعوته إلي تغيير أخلاقه وسلوكه إلى الأحسن

والأعمق والأوسع، ولذلك عارض الإسلام: الواصلة والواشمة ومغيرات الصور والدعوة إلى تجميل الطبيعة أو تغيير خلق الله سواء بالتصوير أو الرسم أو الكتابة أو التمثيل.

ومن ذلك كان حرص الإسلام على (ثبات الشخصية) وحضورها بعيداً عن المغيبات أيضاً، بالتخدير أو السكر، حتى يكون الإنسان مريداً حاضراًكما حال في نفس الوقت دون العوامل التي تدفعه إلى التخدير وغياب الشخصية، وهو التمزق أو الأزمة النفسية، وذلك بتوجيهه إلى الإيمان بالله إيماناً يستتبع تقبل كل الأوضاع والتأقلم معها، ومحاولة تحسينها، وفي نفس الوقت الذي دعا فيه إلى اليقظة والحرص على المواجهة، والمعاودة في حالة الإخفاق.وتقبل أوضاع اليسر والعسر، والنجاح والفشل جميعاً.

ومن هنا فهو لايجد نفسه بحال في حاجة إلى أن يغيب عن واقعه أو ينفصل عنه، وكذلك في أمر ما خلق الله من صورة فالمسلم يؤمن بأن الصورة الظاهرة ليست هي كل شيء، وإنما العبرة بالسلوك والخلق، والإيمان يضفى على الطبيعة البشرية جمالاً ونوراً وإيماناً ولاتبدو نقائص الإنسان في تركيبه عيباً مع سماحته وإيمانه وتصدقه وعبادته وحسن تصرفه.

والإسلام لايقيم وزناً كبيراً لما يسمى بمفهوم (الأناقة) الذي هو في حقيقته تغيير لخلق الله بالزيادة أو النقص، وإنما يؤمن الإسلام بالنظافة والبساطة وعدم التكلف مع الخلق والكرامة والسماحة ويرى أنها أفضل وأنها تعطى الصورة الظاهرة كمالاً بل جلالا.

وفي نفس الوقت ينكر الإسلام ما تورده بعض المناهج اليونانية من تجميل الطبيعة أو محاكاة الطبيعة ويرى أن الإنسان أعجز عن ذلك وأن هذا ليس مجاله الحقيقي في الأدب والفن، ولقد اتجه الفنان المسلم منذ عصر بعيد إلى منهج آخر أكثر سماحة وصدقاً.

١١- أما الموت فالإسلام يقف منه موقفاً إيجابياً سليماً، فهو نهاية كل حي، ولذلك فهو حقيقة واقعة لايتطلب استقبالها انزعاجاً ولا خوفاً. والمسلم لايخاف الموت لأنه يعرفه ويضعه دائماً أمام ناظريه وتقديره على أنه واقع لا مفر منه فهو نهاية الحياة، وهو لايخاف ما بعده إذا ما أحسن تصرفه في حاضره وأموره.

وخير مفهوم للحياة والموت والبعث هو مفهوم الإسلام، فالمسلم يعلم أنه يعمل في الدنيا إلى أن ينتهى الأجل ثم يموت لتبدأ له حياة أخرى،فالموت عنده ليس إلا مرحلة من حياته التي تبدأ بالحياة الدنيا ثم ينتقل إلى حياة البرزخ ثم ينتهى إلى حياة الدار الآخرة - حياة الخلد.

يعلم هذا فلا يزعجه الموت لأنه يتوقعه ويؤمن به ويترقبه في كل لحظة ويجعل عمله موازياً له، إنما يخيف الموت الذين يظنون أن تدوم الحياة إلي مالا نهاية وهي نظرة باطلة غير واقعية، أو الذين غفلوا عن الجزاء.

وهناك دعوة قديمة، تحملها المذاهب النفسية والفلسفية الحديثة تقول:بأنه لاحياة بعد الموت ولا جزاء، والذين يتقبلون هذه الدعوة واهمون وهم يعلمون بالقطع من الدين أن أمر المعاد أمر محقق فهم، إنما يخدعون أنفسهم عن حقيقة لا سبيل إلى نكرانها.

وما يزال الموت هو الحقيقة الرهيبة التي تصغر أمامها مقدرات العلوم أو الاكتشافات أو تقدم الطب، وهي آية الله الكبرى التي تملأ القلوب بالعبرة الكافية.

والمسلم واع لأمره كله، أمر حياته ومعاده، وحسابه وجزائه فلا يخدعنه شيء، إن الخوف والهلع الذي تمتلئ به كتابات الوجودية والدعوات المادية النفسية إنما يجيء من أمر واحد، هو محاولة إنكار الحقيقة وعدم مجابهتها والاستعداد لها.

إن الإنسان لكي يكون صامداً وقادراً على الحياة يجب أن يعلم أن الحياة والموت وحدة مزدوجة وأنه لاسبيل إلى الفصل بينهما، وأن الروح التي تملأ جسد الإنسان بالحياة والحركة والفكر والإيمان ستنسحب يوماً ولا يبقى إلا ذلك العمل الذي سجلته

الصفحات خيراً وشراً.

لقد قرر الإسلام أمر البعث والجزاء كركن أساسي في عقيدته، وقد قدمها الدين الحق عن طريق الوحي إلى الإنسان منذ وجد على ظهر الأرض، وهي مناط السلوك الأخلاقي والإرادة الحرة في الحياة الدنيا، ولا ريب أن العمل الإيجابي ا لصادق يملأ القلب ثقة بما بعد الموت.

ليس هناك فناء كما تقول المذاهب المادية ولكن هناك بعث وبقاء وتجدد وإن الذين يعرفون أبعاد مسئولية الإنسان في الحياة الدنيا:

﴿ لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ وهذا هوالفوز العظيم للإنسان المسلم الذي آمن وأسلم وسار على الطريق إلى «الخلود».

ليس الخلود في الدنيا، وإن عبارة الخلود التي تستعمل الآن باطلة وزائفة، إنما الخلود هو تلك الحياة التي تجيء بعد البعث لكل إنسان وجد على ظهر الأرض سواء أكان خلوده في الجنة أو في النار.

إن وصف الحياة الدنيا بالخلود هو قول زائف لأنه لايصدق عن الواقع الزائل والإيمان بحقيقة البعث والجزاء لايقضي على يأس الإنسان وتخوفه من المصير المظلم فحسب وإنما يمنحه قوة نفسية خارقة بها يستطيع أن يحقق المعجزات.

إن الخوف الذي تبديه النظريات الفلسفية من الموت إنما ينم عن ذلك الصراع الداخلي العميق بين فهم الفطرة الإنسانية للموت وبين الحجب الكثيفة التي وضعت دونه.

والحقيقة التي يقدمها الإسلام هي: أن الموت مرتبط بالحياة ارتباطاً جذرياً، ارتباطاً لاينفك عنه ولا يرى إلا به.

والحياة الآخرة ليست روحية وليس الجزاء الأخروي معنوياً كما تحاول المذاهب الفلسفية أن تدعى وإنما هي حياة تامة، بكل معنوياتها ومادي اتها، وإن الجزاء الأخروي هو جزاء حسي كامل.

١٢- كان لابد للإنسان لكي يكون أهلاً للخلود والحياة في دار النعيم أن يمر بالتجربة الكبرى والامتحان العظيم والاختبار الكبير في الدنيا لكل يؤهل حياته للارتفاع إلى مصاف الخلود،من هنا جاءت هذه التجربة الضخمة تجربة الحياة الدنيا لأجل مسمى، لكي تمكنه من تحقيق القدرة على الارتفاع فوق الشهوات والأخطاء والمغريات في امتحان ضخم عنيف. لاينجح فيه إلا من يهديه الله أولاً، ولمن فهم الدنيا على أنها دار ممر لا دار مقر، ومن فهم وجوده على أنه رسالة لا على أن الدنيا لعبة أو رواية هزلية وإنما هي اختبار كبير، لمن فهم أن ما يملكه في الدنيا ليس للاكتناز ولكن للإنفاق في سبيل الله، لمن فهم أن عطاء الله له ليس تملكاً وإنما هو استخلاف، لمن فهم أنه عابر سبيل، لمن فهم أن هذه الحياة ليست إلا «موقفاً» يستظل فيه الإنسان بظل شجرة ثم يمضي ويتركها.

الباب الثالث

قضايا النفس والأخلاق

(١١) النفس
(١٢) علم النفس
(١٣) الجنس
(١٤) الوجودية
(١٥) الأخلاق
(١٦) الشباب
(١٧) المرأة

(١١)

النفـــــس

إن فهم النفس الإنسانية جزء من فهم الإنسان،والنفس الإنسانية من أجل ذلك لها مفهوم مختلف في كل ثقافة وكل نظرية اجتماعية وكل فلسفة، وموقف الإسلام منها شأنه في موقفه من الإنسان: من أرحب هذه المناهج نظرية،وأوسعها أفقاً وأعرفها بميول الإنسان وغرائزه ورغباته،وأكثرها للنفس تحريراً ودعوة إلى الخير والهدى والارتفاع عن الدنايا، ولا ريب من أجل ذلك يقال إن للإسلام علم نفس خاص مختلف عن المفاهيم التي طرحتها بعض النظريات التي قامت على الخطيئة والخلاص وإذلال النفس بتحريم الطيبات وكراهية الرغبات وسد باب الغرائز، ثم إن هذه المفاهيم الإسلامية في مجموعهاتختلف عما يطلق عليه في العصر الحديث: «علم النفس» الذي هو في حقيقته مجموعة من العقائد التلمودية مصوغة في أسلوب له طابع علمي خادع.

ولا ريب أن فيما طرح من أفكار ونظريات نفسية عن طريق المدارس المختلفة الموجودة الآن حقائق وأخطاء، وتصورات صحيحة وفاسدة، وفرضيات قد تصدق في بعض المجتمعات ولا تصدق في البعض الآخر،غير أن الأصول الأصيلة لمفاهيم «النفس» إنما هي ميراث النبوة، وما قدمه القرآن، وصاغه العلماء المسلمون مما لازال هو خير ما هنالك.

فلقد قدم علماء المسلمين مجموعة من الأصول العامة لفهم النفس الإنسانية تمثل نظرة الإسلام الجامعة الكاملة المتوازنة القائمة أساساً على المجاهدة والكظم في مواجهة الرغبات المذلة والتماس الفطرة والاعتدال في الرغبات المباحة.

ولقد جعل الإسلام معرفة النفس سبيلاً إلى إصلاحها وإلي تهذيب الأخلاق، وكلمة (اعرف نفسك) التي تطرحها الفلسفات الوافدة كلمة مضلة، فإن الإنسان

لايعرف نفسه إلا إذا عرف ربه، ولذلك كانت القاعدة الإسلامية الأولى (اعرفوا ربكم تعرفوا أنفسكم) ومن عرف ربه جل ومن عرفه نفسه ذل، وتهذيب الأخلاق لايتأتي إلا بمعرفة عيوب النفس التي ينبغى على الإنسان أن يتجنبها حتى يسير في «الطريق المستقيم» فلكي يري الإنسان النفس عليه أن يراقب سلوكها الظاهر.

يقول ابن عباس: إن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس، والنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفس والتحرك، إلا أن النفس والروح يتوفيان عند الموت، في حين أن النفس وحدها هي التي تتوفى عند النوم.

ويتبع هذا المعنى: أن النفس ليست بجسم وإنما هي من الجسم بمثابة العرض من الجوهر، كما أنها هي الحياة التي بها يصير البدن حياً بوجودها فيه، وأن البدن هو صورتها ومظهرها، مظهر كمالاتها وقواها في عالم الشهادة.

ويفسر الإمام الغزالي مظاهر سلوك الإنسان بأربع دوافع أساسية: هي شهوة الطعام والجنس والمال والجاه، وأساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام، إذ تتفرع الرغبة الجنسية وحب المال والسلطان منها ويسمى الغزالي هذه الغريزة: شهوة البطن.

ويقول: إن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك، والخروج عن حد الاعتدال إلى الإفراط أو التفريط هو مصدر الأمراض النفسية، والعلاج هو العودة إلى الاعتدال الواجب.

والغاية من كل سلوك: معرفة الله ومراعاة ما أمر به في كتابه ليهتدي الناس إلي الصراط المستقيم واتباع سبل التقوى.

والغريزة الجنسية عند الغزالي ركبت لفائدتين: اللذة وبقاء النسل، ومع ذلك فإن اللذة ليست مطلوبة لذاتها، أو لبقاء النسل، بل لشيء آخر أسمى وأرفع، هو أن يدرك الإنسان للذاته فيقيس لذات الآخرة، والغزالي يرى أن للشهوة مراحل ثلاث: إفراط وتفريط واعتدال.

فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجل إلى الاستمتاع بالنساء

والجواري، فيحرم من سلوك سبيل الآخرة، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش، والتفريط في هذه الشهوة هو الضعف وهو مذموم، أما المحمود فهو أن تكون معتدلة ومطابقة للعقل والشرع.

ورسم الغزالي لعلاج هذه الشهوة أموراً ثلاثة هي:

الجوع - غض البصر - الاشتغال بشيء يستولي على القلب.

وإذا نظرنا في مفاهيم علم النفس المطروحة الآن نجد أن (فرويد) رد السلوك الإنساني إلي (الغريزة الجنسية) وأن (ادلر) رد السلوك الإنساني إلى غريزة السيطرة وأن الغزالي رد السلوك الإنساني إلى:

(شهوة الطعام ومن شهوة الطعام إلى سائر الشهوات) وكان ذلك شأن النظرة الإسلامية في كل الأمور أوسع أفقاً وأقدر على معرفة الأبعاد المختلفة للشخصية الإنسانية.

والإسلام ينظر إلى النفس الإنسانية في إطار (التوازن) بعيداً عن طرفي الزهادة والإباحة، فهو يعارض الإسراف والجمود معاً.

وقد أباح الإسلام شهوة الطعام والجنس والاستمتاع بطيبات الحياة،ولكنه وضعها في إطار يحمى به النفس الإنسانية من الانحراف، وحفظها لكي تكون قادرة على التماس طريقها إلى أشواقها الروحية ودون أن يغلق عنها هذا الباب الذي هو أحد بابيها الأصليين: من حيث هي سلالة من طين ونفحة من الروح.

٢- إذا التمسنا مطالع علم النفس الإسلامي من القرآن وجدناها واضحة صريحة ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ .

هذه هي الحقيقة الأولى التي تقرر أن النفس الإنسانية مؤهلة لطريق الخير، وطريق الشر، وأن إرادتها الحرة هي التي تتجه بها إلى أحدهما، ومن أجل ذلك جاء الدين الحق عن طريق الوحي «ليهدي» الإنسان إلى أحسن السبل وتحذيره من

الطرق المنحرفة.

وقد سبق الإسلام علم النفس الحديث في ذلك بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، وقد وصل المسلمون إلى أن النفس شيء ليس بالجسم وليس بجزء من الجسم وأنه شيء آخر له جوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله، يتشوق إلى العلوم والمعارف كتشوق البدن إلى المأكل والمشرب.

وقد أورد القرآن ثلاثة نفوس، هي مراحل للنفس الإنسانية.

(النفس الأمارة، النفس اللوامة، والنفس المطمئنة).

أما النفس الأمارة فهي التي تمثل الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب إلى الأهواء.

أما النفس اللوامة فهي التي تنورت بنور القلب، وتنبهت عن سنة الغفلة كلما صدرت عنها سيئة بحكم طبيعتها أخذت تلوم نفسها وتتوب عنها.

أما النفس المطمئنة: فهي التي وصلت إلي درجة اليقين، وتحررت من صفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة.

٣- وللنفس أثرها في الجسم، نتيجة الارتباط الوثيق بينهما فإن ما يصيب النفس من الشك أو الملل أو القلق أو الخوف له أثره في الجسم، وإذا كانت البحوث النفسية قد تقدمت في السنوات الأخيرة وقررت استحالة الفصل بين الجسم والنفس وأن الفصل بينهما فصل لجوهرين متلازمين يتأثر أحدهما بالآخر، وأن العلاج الصحيح ينبغى أن يوجه إليهما معاً. فإن هذا كله مما قرره علماء المسلمين منذ أكثر من عشر قرون.

فالحكمة في النفس. والإيمان والرضى والغضب والسخط من النفس، وأن الوعد بالجنة كان للنفس ولم يكن للجسم: ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة: ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلى جنتي ﴾ فالوعد بالجنة والخلود للنفس وليس للجسم، وكل الفضائل والرذائل منها وهي التي تقود إلى الشر وتقود إلى

الخير.

وفي كل نفس منطقة للخوف ومنطقة للأمان بتوازيان في الحالة السوية،فإذا طغت إحداهما على الأخرى كانت النفس غير سوية، والإيمان هومصدر السكينة والطمأنينة والأمن، فإذا تنكرت له النفس وانطلقت إلى الأهواء عاشت في الخوف والقلق والتمزق حتى تعود إليه مرة أخرى، وإذا كانت أزمة الإنسان المعاصر الآن هي الخوف والقلق، وما أحدثت من تدمير خطير فإنما يرجع ذلك إلى أن النفس أنكرت وجودها الحقيقي وهذه واحدة من الحقائق التي قررها علم النفس الإسلامي:

«إذا تغلب الخوف على الإنسان فقد اتزانه وقدرته وأصبح إنساناً خائفاً من الحقيقة والخيال، ومن الممكن وغير الممكن».

. والمسلم يقف بين الخوف والأمان وهما لايستقران في النطاق المعقول إلا بالإيمان بالله ومعرفته التي هي العاصم من الخوف - والإيمان ضياء ونور فهو يبدد ظلمات النفس حتى تطمئن، والإنسان يخاف ما يجهل،فكلما كان نطاق الجهل كبيراً كان الخوف أعظم.

كذلك دعا الإسلام الإنسان إلى أمرين:

اتقاء شح النفس بالإنفاق.

والإنصاف من النفس بالاعتراف بالخطأ.

فإذا استطاع الإنسان التغلب على نفسه كان على غيرها أقدر؛ ولن يكون الإنسان قوة فعالة إلا إذا تحرر من مطامعه وأهوائه واستطاع كبح غرائزه وشهواته.

كذلك دعا الإسلام «الإنسان» إلى تغيير النفس، وأن تغيير النفس هو مصدر الانتصار الحقيقي، فإذا استطاعت الأمة أن تغير نفسها فإنها تصل إلي مرحلة أعظم من درجات القوة والسيادة.

﴿ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾.

٤- أعلن القرآن قيام الحارس والرقيب اليقظ في النفس الإنسانية يذودها عن الشر ويدعوها إلى الخير، وينقلها من الخطأ إلى الصحيح.

ويسمى القرآن هذا الرقيب باسم النفس اللوامة:

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ .

وهذا ما يسمى في العصر الحديث بالضمير، فالنفس اللوامة حافظة للإنسان من الانحرافات.

وقد أودع الله النفس البشرية هذه الملكة «الرقيب» أو الحارس اليقظ تحاسب الإنسان على تصرفاته وقد تؤرق نومه إذا تلكأ في إصلاح أمره، ولكن هذا الرقيب يبدأ ضعيفاً في نفس الإنسان،ثم يستطيع الإنسان تنميته وتقويته،وقد يتركه الإنسان فيضعف عن المقاومة وقد يتلاشى أمام التبريرات الوهمية.

٥- يدعو الإسلام الإنسان أن يفهم ذاته ويفهم الكون وما وراء الطبعية وذلك من منطلق رسالة الدين الحق، أما فكرة اكتشاف الفرد لنفسه بغير معين أو دليل أو علم أصيل فإنها وسيلة إلى تدميره.

ولقد هدى الدين الحق الإنسان إلى مكانه في الكون ورسالته ومسئوليته وأمانته وعلمه فهم العلاقة بين العوالم الثلاثة: عالم الطبيعة وعالم الإنسان وعالم الغيب.

ودعاه إلى الحذر من أن تبهره الكشوف الطبيعية فإن في نفسه ما هو أدق من ذلك صنعاً ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

كذلك أعلن الإسلام وحدة النفس البشرية فهي من أصل واحد، ووحدة الإنسان جماعاً بين الروح والجسم؛ ووحدة الحياة جماعاً بين الدنيا والآخرة.

وأرسى التوازن بين النفس الإنسانية والجماعة، وحدد علاقة الإنسان بنفسه

وبالإنسان وبالجماعة، وأشاع روح الطمأنينه إلى فضل الله والأمل فيه وبه، فألغى بذلك فكرة التشاؤم والقلق.

كذلك رفض فكرتي التهافت على الحياة والهروب من الحياة.

وحال بين الجفاف العقلي والجمود العاطفي، فأعطى النفس عطاء العقل، وكرم الوجدان الذي هو منبع فياض إلى جوار العقل الذي هو مصدر المقايسات، فخاطب الوجدان بالكون والطبيعة، وخاطب العقل بالعلم، ولما كانت النفس البشرية معرضة لموجات من الشك والطمع والأهواء، فقد دعا الإسلام إلى تزكية النفس وتطهيرها الدائم وتحريرها، وإظهار الفطرة، وإتاحة الفرصة لها، وكشف الأغشية عنها، وذلك بتربية الفرد وتطهير الإنسان مما يغشى القلوب المريضة، والنفس المنحرفة.

٦- لايستطيع الإنسان أن يفهم حقيقة النفس إلا إذا التمس الخيط الذي كشف عنه الدين الحق وهو أنه مخلوق لغاية ورسالة، ولم يخلق عبثاً أو سدى، وأن الدين هو العامل الذي رفع الإنسان من ضعف البشر إلى سمو الإنسان، ورقاه من الحيوانية المتصلة بتركيبه الجسماني إلى الروحانية المتصلة بتركيبه النفسي، فإذا عجز الإنسان عن أن يرقى ويرتفع فوق ماديته، فقد سجل على نفسه الفشل في رسالته وأمانته في هذه الحياة.

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ .

٧- إن النفس الإنسانية فيما قدم الدين الحق للإنسان واضحة المعالم والاتجاه تمام الوضوح لو أن الإنسان في العصر الحديث التمس هذا العلم، أما العلم التجريبي فإنه ما زال قاصراً عن فهم الإنسان، وسيظل قاصراً إلا في المجال المادي فقط، لأن فهم النفس الإنسانية مما لا يستطاع بالأدوات الموجودة الآن في أيدي العلماء وهي العقل والتجربة والعمل.

يقول الدكتور اليكس كاريل: إن أغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك

الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة مازالت غير معروفة، فنحن لانعرف الإجابة على أسئلة كثيرة مثل: كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية التي تكون المركب والأعضاء المكونة للخلية، كيف تتقرر (الجينيس) ناقلات الوراثة الموجودة في نواة البويضة الملقحة، كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها، مثل الأنسجة والأعضاء فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع.

ما هي طبيعة تكويننا النفسي والفسيولوجي: إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والوسائل والشعور، ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً. إننا ما زلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا العصبية، أي إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم، كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء.

على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام المتاح، هذا التعقيد في تركيب الكائن الإنساني وفي وظائفه وأوجه نشاطه هو الذي يتسق مع ضخامة وتشعب وظيفته الأساسية في خلافة هذه الأرض، تعقيداً ما زال مستعصياً على العقل البشري لأنه فوقه وأكبر منه، أهـ.

وصدق الله العظيم: ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ .

ويرد كاريل دراسة الإنسان المعقدة إلي أنه: كائن له عالمه الفرد الخاص الذي لامثيل له في سائر أفراده،وله عالم جامع للخصائص الإنسانية المشتركة.

يقول: إن الفردية جوهرية في الإنسان: إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم، إذ أنها تنفذ إلي كل كياننا، وهي تجعل الذات حدثاً فريداً في تاريخ العالم ، إنها تطبع الجسم والشعور كما تطبع كل مركب في الكل بطابعها الخاص وإن ظلت غير منظورة، وتميز الأفراد كلا منهم عن الأخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم

وإشاراتهم وطريقتهم في المشي، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة. ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة في مظهر الأفراد، إلا أنه يمكن دائماً معرفة كل فرد بواسطة إبقاء أجزاء معينة من هيكله، وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد، ومن ثم فإن بصمات الأصابع هي التوقيع الحقيقي للإنسان.

ومن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين البشر الذين استوطنوا هذه الأرض وكان تركيبهما الكيماوي متماثلاً، وترتبط شخصية الأنسجة التي تدخل في تركيب الخلايا والاختلاط بطريقة ما زالت غير معروفة حتى الآن،ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل جذورها في أعماق ذاتنا.

«إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه، فضلاً عن أننا أكثر عجزاً عن اكتشاف إمكانياته».

ويصل اليكس كاريل إلى حقائق ثلاثة:

حقيقة أن الإنسان كائن فريد في هذا الكون.

حقيقة أن الإنسان كائن معقد أشد التعقيد.

حقيقة أن الإنسان يشتمل على عوالم منفردة عددها عدد أفراده.

ويقول: إن هذه الحقائق تقتضي منهجاً للحياة الإنسانية يرعى تلك الاعتبارات كلها يرعى تفرد الإنسان في طبعيته وتركيبه، وتفرده في وظيفته وغاية وجوده. وتفرده في مآله ومصيره كما ترعى تعقده الشديد وتنوع أوجه نشاطه،ثم ترعى فرديته هذه مع حياته الجماعية.

وبعد هذا كله تضمن له أن يزاول نشاطه كله وفق طاقاته كلها بحيث لايسحق ولا يكبت كما لايسرف ولا يفرط، وبحيث لايدع طاقة تطغى على طاقة، ولا وظيفة تطغى على وظيفة، ثم يسمح لكل فرد بمزاولة فرديته الأصيلة، مع كونه عضواً في جماعة.

ولذلك فإن مناهج الحياة التي اتخذها البشر لأنفسهم لم تستطع وضع شيء

مناسب لأنها لم تصل بعد إلى أغوار حقائق هذا الكائن، والمنهج الوحيد الذي راعى هذه الاعتبارات كلها هو المنهج الذي وضعه للإنسان خالقه العليم بتكوينه وفطرته، والخبير بطاقاته ووظائفه، المنهج الذي يحقق غاية وجوده،ويحقق التوازن في أوجه نشاطه،ويحقق فرديته وجماعيته».

ونحن نرى أن هذا الموقف الذي وقفه العلم الحديث إنما جاء من اعتقاد هذا العالم بقدرته على أن يكتشف الإنسان بينما لم يكن ذلك في مقدوره، وبينما وجد المنهج الخاص بالإنسان والنفس الإنسانية كاملاً عميقاً ما زال متدفقاً بالحياة منذ جاء الإسلام وما زال صالحاً للتطبيق ومعلناً أن كل هذه المذاهب التي صنعها الإنسان لم تكن بقادرة على أن تدله أو تهديه أو تكشف له أعماق نفسه.

إن «المنهج الرباني» في الإنسان والنفس هو الأمل الوحيد الآن للبشرية كلها بعد أن تساقطت المذاهب والنظريات كما تساقطت أوراق الخريف.

ولقد كشف كارل يونج الباحث النفسي عن الخطر الذي يواجه النفس الإنسانية في هذا العصر بالتمزق والمرض.

يقول في مقدمة كتابه (النفس غير المكتشفة):

استشارني خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة،وعالجت مئات من المرضى فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر (أي الخامسة والثلاثين) لاترجع في أساسها إلا إلى افتقارهم الإيمان، وخروجهم على تعاليم الدين، ويصبح القول بأن كل واحد من هؤلاء وقع فريسة المرض لأنه حرم سكينة النفس التي يجلبها الدين - أي دين - ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة.

٨- ويقول يونج: إن سر أزمة الإنسان وهو أنه لم يستكشف ذاته وأن تحرر الإنسان من التحديات التي تواجهه إنما يرجع إلى فهم النفس والتغلغل في أعماقها

والوصول إلى معرفة كافية للإنسان وإلي إقامة تقييم سليم له، هذا الإنسان الذي يسحقه الآن التطور الآلى، وتعصف بقلاعه، وأن لذة المعرفة هي السلام الوحيد الذي يقف أمام التدهور الروحي والاستخذاء الجماعي أزاء أنظمة الاستبداد، ويقول إن النظريات العلمية لاتنفع فيها،فبقدر ما تكون النظرية شاملة بقدر ما تعجز عن الإلمام بالواقع الخاص بالذات، وكل نظرية تعتمد على التجربة هي بالضرورة نظرية إحصائية، فهي لاتقدم إلا متوسطاً حسابياً، ويرى يونج أن عملية اغتيال الذات الفردية ليست قاصرة على الشرق أو على الغرب فهما معاً يسلبان الحرية الفردية.

ويقرر أن نفس الإنسان كائن مستقل هو نقيض المادة والجسم وعنه تصدر ظواهر الوعي والشعور والإرادة،وله وجوده القائم بذاته وقوانينه الخاصة المميزة.

ثم يقف يونج على مفرق الطريق ليرى المنهج الصالح لدراسة النفس الإنسانية فهو يرى أنه ليس مذهب زميله وصديق شبابه فرويد وليس مذهب الفكر الغربي وليس مذهب الماركسية.

والواقع أن المنهج الصالح هو الذي يقدمه الإسلام، والذي لم يحاول الفكر الغربي بعد أن يدرسه أو يجربه ولو فعل لوجد فيه عامل تحرره.

أما الدعوة إلي الوجودية أو منهج الاستيطان الذاتي أو منهج البوذية أو غيرها من الدعوات المادية الخالصة أو الروحية الخالصة من الشرق أو من الغرب فإنها لن تؤدى إلى فهم حقيقة النفس،لأنها غالباً ستحجب تلك العروة الوثقى القائمة على الترابط الأصيل بين الروح والمادة والنفس والجسم التي يمثلها منهج الإسلام.

٩- لقد مرت البشرية بمرحلتين من الدعوة إلى فهم الإنسان، والنفس الإنسانية، لم تفلح كلتاهما، لأن الأولى غلبت المادية الصرفة، وجاءت الأخرى فغلبت الروحية الصرفة، وتركت كل منهما تراثاً فلم تجد البشرية أمامها طريقاً صحيحاً حتى جاء الإسلام فوقف موقفاً وسطاً فهو «لايفرض القيود إلى الحد الذي يرهق النفس ويبط دفعة الحياة ولا يطلق الإنسان من عقاله إلي الحد الذي يرده حيواناً ويلغى ما

تعبت الإنسانية في الوصول إليه في جهادها الطويل من ضوابط لنزعات الحيوان».

وفي هذا المجال الواضح يقدم الإسلام مفهوماً واضحاً:

أساسه الاعتراف بحقوق الإنسان وميوله وعواطفه والنظر إلي كل ما يتصل بعلم النفس على أنه نظرية وفروض وليست حقائق علمية مقررة قامت أساساً على تجارب خاصة للباحثين، ومنهم من له ظروفه الخاصة العقلية والاجتماعية من اضطراب عقلي أو اضطهاد ويرى ضرورة الحذر من أهواء الفلاسفة والباحثين التي لاترتقى إلى مستوى القيم الثابتة التي لاتتغير بتغير الظروف أو الأزمان أو البيئات واعتبار أن العلم هو كل ما يتعلق بالمختبرات العلمية والتجريب، أما النظريات الفلسفية فهي ليست سوى وجهات نظر تخطئ وتصيب.

كما يلاحظ أن الموجات السياسية المختلفة من استعمارية وشعوبية وصهيونية إنما تحاول الاستفادة من بعض النظريات التي يتفق مع وجهة نظرها أو التي تستهدف احتواء الأمم والشعوب وتحويلها عن نظرتها الأصيلة.

ولقد أولى الإسلام تقديره واهتمامه لميول الإنسان وعواطفه وغرائزه الطبيعية باعتبارها فطرية ولم يمنعها حقها أو يدمرها أو يقضي عليها كما فعلت بعض الأديان،بل أفسح لها الطريق الطبيعي والمعتدل ووضع لها ركائز وضوابط، وأجراها في طريق معبد قوامه التوسط والبعد عن الغلو والإسراف من ناحية والتجميد من ناحية أخرى أو الإلغاء من ناحية ثالثة، واعتبر الإنسان السوى هو الذي يحتفظ بقواه العقلية والروحية والجسمية ويطبقها في الاتجاه الطبيعي.

ويرى الإسلام أن وقف تيار هذه الميول بصنوف الرياضات وأشكال الحرمان سبباً لتعطيل قوى النفس الإنسانية وصدها عن استخدام جميع وسائلها وبذلك يتوقف ظهور آثارها في عالم الحس، لذلك جاء الإسلام معترفاً بهذه الميول الطبيعية داعياً إلي الاعتدال: ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

وصفوة القول في الصلة بين عالم النفس والإسلام أن دراسات العلماء تجمع الأدواء

النفسية كلها في داء واحد هو داء الضمير المدخول أو الضمير المنقسم على نفسه، وأنها تجمع الطب النفساني كله في دواء واحد، هو دواء اليقين والإيمان وذلك دواء الدين وليس منه عند العلم إلا القليل، لأن العلم سبيل ما يعرف، ولا حاجة به إلى ثقة وتسليم، وإنما يؤمن الإنسان ليعرف كيف يثق وكيف يبصر موئل الأمان ثم يركن إليه ركون العارف الآمن.

ويشير الإمام محمد عبده إلى أن الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد في راحة الإنسان، أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها عليه، حتى يعرفها ويعود إليها، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كانت من الحديد اللامع المصفى، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا الصدأ الذي غشى الفطرة الإنسانية ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود إليها لمعانها الروحي، فالدين هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها إلي أربابها في كل زمان ولكنهم يعودون فيجهلونها، وأن العقدة النفسية الكبرى في أعمال النوع البشري قد تتلخص في كلمتين: «المخاوف المجهولة» وأن الشفاء في تلك العقيدة يتلخص في الإيمان لأنه أمان وائتمان.

ويصور «جون كارل فلوجل» في كتابه الإنسان والأخلاق والمجتمع عجز العلوم الحديثة عن الوصول إلى الحقيقة فيقول: إن موقف علم النفس الآن أشبه بموقف الطبيب يشاهد مريضاً بين الموت والحياة دون أن يستطيع تشخيص الداء عن طريق الحدس والتخمين، وأن مكتشفات التحليل النفسي ونظرياته في ميدان الغريزة الجنسية قد صدمت شعور كثير من الناس، فهم يشعرون أن علماء النفس حين يحاولون فهم البواعث التي ترتكز عليها القيم الخلقية والدينية قد يحطمون هذه القيم عينها بل لعلهم يعملون فعلاً على تحطيمها.

وحذر فلوجل من نتائج هذه الأبحاث وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد، وقال: ربما كان علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين بتلك العقد التي يحلو لهم الحديث عنها، ولذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبة بالهوى، قائمة على معرفة مبتسرة.

وقال: إن علم النفس علم مهمته مقصورة على وصف حقائق الحياة العقلية وتصنيفها، فلا شأن له بالقيم ذاتها.

ويقول العقاد: إن أكبر معالجات علم النفس هو (القلق): مصدر المرض النفسي والانقسام الداخلي وانفصام الشخصية، ويقترن بهذا الخطر وقد يكون من أسبابه داء الحيرة بين حياة الروح وحياة الجسد، وبين تغليب الروح بالجور على المتعة الجنسية، وتغليب حياة الجسد بالاسترسال مع الشهوات والإقبال على اللذات الحيوانية دون غيرها، وفي الإسلام عصمة من كل داء من أدواء هذا الفصام الذي يمزق طوية الفرد أو يمزق صورة الوجود كله بين خصومات الفكر وخصومات العقيدة وخصومات المثل العليا في كل قبلة يتجه إليها،فليس في الإسلام عداء بين الروح والجسد، وليس للجسد فيه محنة تمتحنه بالصراع بين الطيبات من متعة الروح أو متعة الجسد.

١٥- ومن كل هذه المراجعات في موقف الأديان والفلسفات والمذاهب تجد أن التصور الإسلامي هو أعمق هذه التصورات وأوسعها وأكثرها عمقاً، وأصدقها تعرفاً إلى الفطرة وأقربها إلى علم والعقل، فالإنسان في نظر الإسلام كائن كريم لا هو بالملاك ولا هو بالشيطان، له مطامع تربطه إلى الأرض وله أشواق تربطه بالسماء، والإسلام من أجل إقامة التوازن بين نوازعه وأشواقه يرسم لها طريقاً وسطاً ويعمد إلى إيجاد المواءمة في نفس الفرد بين قواه المختلفة مما يؤدى إلى سلامة الكيان البشري وحسن تناسق الفرد مع المجتمع،فهو يحفظه دون أن يجمد بالرهبانية أو يتمزق بالإباحة حتى يستطيع أن يكون قادراً على أداء رسالته ومسئوليته،وهو يحقق له رغبات جسده وعقله وروحه، واعتراف الإسلام بالطبيعة البشرية وبحق ممارستها مع وضع الضوابط والحدود لها يحول دون كل ما يسمى من كبت أو تمزق أو ضياع.

كذلك فإن من أبرز معطيات الإسلام: التفاؤل برحمة الله فليس في الإسلام أي ملمح ليأس أو انهزامية أو ضعف أو تشاؤم كذلك، فإن هذا الاتجاه الجامع الوسط يحول دون طوابع الوثنية أو عبادة الشهوة أو عبادة الفرد،كذلك فإنه يدفع إلى

التضحية والتقوى والبذل والفداء.

(١٢)
علم النفس (الفرويدية)

كان علم النفس قبل هذا القرن يبحث في الإنسان وكأنه روح بلا جسد، وكان يهمل دراسة الحيوان وبعض بني الإنسان كالأطفال والبدائيين والشواذ وكان معظم دراسته للإنسان كفرد منعزل.

أما الآن فقد سيطرت العلوم الوضعية كالطبيعة والكيمياء وعلم الحياة عليه منذ أواخر القرن الماضي،وأصبح يدرس الإنسان كأنه مادة فقط، ثم انحرف عن أسلوب العلاج إلى أسلوب التقرير، فأصبح «جبرياً» يرى أن الإنسان مسير أمام جملة من العوامل التي يحكمها العقل، وأصبح عاجزاً عن أن يخلق المثل الأعلى لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء، ولأنه علم وضعي يسير في نطاق ضيق عن التجارب؛ لم يدع علم النفس إلى المجاهدة، وإنما دعا إلى الإستجابة للأهواء والرغبات المذلة، لم يرفع الإنسان أمام نفسه إلى الاستعلاء فوق الغرائز، ولكن دعاه إلي الاستجابة لها ولقد كان من جراء استسلام علم النفس الحديث إلى الجبرية أثر بالغ في انبعاث روح الشك في العقائد والأديان.

ولأنه علم تجريبي فقد عني بالحالات الشاذة وجعلها أساس البحث، من غير أن يقيم المعايير التي يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية، وعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع وبما يشينها من العقل الباطن غير المفكر، وكان حقيقاً بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك وأن يزعزع إيمان الناس في سمو المثل الأعلى، فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير الملوم لأنه يتخذ من وجوده في الجماعة ذريعة للتبرؤ.

٢- يتصل علم النفس بالأخلاق اتصالاً أساسياً، فالأخلاق معرفة وسلوك،وعلم

النفس هو ماكان يطلق عليه علم السلوك، وقد قطع الفكر العربي الإسلامي شوطاً طويلاً في مجال دراسة النفس مستمداً مفاهيمه الأساسية من القرآن الكريم، هذه المفاهيم التي تتمثل في حقائق مترابطة ألقت الضوء الحقيقي على هذه اللطيفة الربانية، وقد عمد الفكر الإسلامي في معرفة النفس أن يكون سبيلاً إلى إصلاحها وتهذيب الأخلاق الذي لا يتأتي إلا بمعرفة عيوب النفس حتى يمكن إصلاحها فليست معرفة النفس هدفاً مجرداً في ذاته،ولكنها وسيلة إلى مراقبة السلوك، وقد التمس الإسلام طابع الاعتدال في السلوك والتوسط في الحركة، وقد نما علم النفس في العصر الحديث على الأسس التي رسمها المفهوم الإسلامي، غير أنه لم يلبث أن تحول تحت تأثير المذاهب الفلسفية وخاصة الفلسفة المثالية ثم لم يلبث أن انحرف بعد ظهور الفلسفة المادية حتى انتزع كل مقومات التوجيه والخلق وأصبح علماً إحصائياً محضاً يتوقف عند تصوير الواقع ولا يتعرض للعلاج، ثم هو يتحول عن طبيعة العلوم النفسية والاجتماعية في الدعوة إلى ضبط النفس،وحماية الإنسان،ومعارضة الشهوات المذلة، إلى الإسراف في الدعوة إلى الإطلاق.

وهذه النقطة بالذات هي مفرق الطريق عن قيام مفهوم علم النفس على تقدير كامل للإنسان روحاً وجسماً،وبين تحول علم النفس إلى المادية وسقوطه تحت سيطرة المدرسة المنكرة للدين جملة.

ولقد ظهرت مدرسة علم النفس الحديثة ممثلة في ثلاثة: هم فرويد وادلر ويونج، الذين سرعان ما ظهرت عوامل الخلاف بينهم، ثم علا شأن المفهوم الأبعد عن الفطرة والذي يرده العالمان الآخران، مفهوم فرويد في إعلاء الجنس.

٣- تقوم نظرية فرويد في النفس على الأصول الآتية:

(أولاً) الحياة النفسية للإنسان ليست حيوانية فحسب ولكنها تنبع كلها من الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان.

(ثانياً) إن غرائز الإنسان هي التي تحكمه وتسيطر علي نشاطه،وأن الجانب

المسمى بالروح لاوجود له على الإطلاق.

(ثالثاً) الدين والأخلاق ليست قيما أصيلة في الحياة البشرية ولكنهما انبثاق جنسي.

(رابعاً) القيم خرافة، وهي نفاق العقل للنفس والمجتمع.

(خامساً) تفسر النفس كلها من خلال الجنس.

(سادساً) رد كل الحوافز الإنسانية إلى الجنس.

ويرى فرويد أن الإنسان في جوهره (حيوان) كغيره من الحيوانات، وأن الإنسان يولد جنسياً خالصاً، وأن كل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس،وأن الطفل يعشق أمه بدافع الجنس،ثم يجد الأب حائلاً بينهما فيكبت هذا العشق،فتنشأ في نفسه (عقدة أوديب) والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس،فتكبت هذا العشق،فتنشأ في نفسها (عقدة اليكترا).

وهكذا يدخل فرويد الإنسان حظيرة الحيوان،ويثبت أنه عبد لنزواته،وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان.

وأن غرائزه وميوله الفطرية هي الأساس لسلوكه في الحياة،وهي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه.

ومن نظرية فرويد ظهرت نظريات في الأدب والفن والأخلاق وفي مقدمتها السريالية ثم الوجودية.

ولكن هذه النظرية لم تكن مقبولة منذ اللحظة الأولى بين علماء النفس، وقد وجدت معارضة شديدة من حيث معارضتها للفطرة،ومن حيث تغليب عنصر الجنس ورد كل حوافز الإنسان إليه.

٤- من حيث المصادر فقد اعتمد فرويد على الأساطير القديمة واعتبرها حقائق علمية، كذلك فقد اعتمد على حالات المرضى الفردية واتخذ منها أسساً عامة

للأسوياء، وقد أشار العلماء إلى أن فرويد أقرب إلى المتنبئين منه إلى العلماء، وأنه مخترع للفرضيات أكثر منه مجرباً لها، وأنه يرمي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمي والسند الواقعي، وأنه يفترض ثم يصدق ما يفترض ويبنى عليه وكأنه حقيقة علمية لايأتيها الباطل.

وأن ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص، ومن ثم يجب ألا تعمم الاستنتاجات النابعة منها بحيث تشمل الأشخاص العاديين، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازاً عصبياً قوياً وسيطرة على أنفسهم.

كذلك أشار العلماء إلى أن نقطة الضعف الأساسية في فرويد كعالم هي أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة، وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه كيهودي في النمسا المتعصبة ضد اليهود قاعدة لكل تحليلاته.

٥- خالف فرويد في نظريته كل من: ادلر ويونج وستيكل.

وقال يونج إن آراء فرويد ذات جانب واحد وإنها غير ناضجة كل النضوج، وإن مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء يجب ألا يوصف بأنه جنسي أبداً، وذلك على اعتبار من أن الدافع الجنسي لم يتميز في نفسه بعيداً عن الميل الابتدائي للحياة، وينكر يونج أن اللبيد جنسياً بكليته وهو يعتبر اللبيد هو إرادة الحياة.

ويقول يونج إن الجنس ليس أساس الدوافع الإنسانية، وإنما هو دافع واحد من عدة دوافع.

وهو يخالف فرويد في صميم النظرية يرى أن الدافع الإنساني الأول هو الرغبة الملحة في التفوق وأن الغريزة السائدة في الإنسان هي الرغبة في التفوق والسيادة وليس الحق، ويقرر: أن إرادة القوة هي الإرادة الصادقة الأصيلة في نفس كل إنسان، ويرى ادلر أن النقص يكاد يكون هو السبب الأساسي للنبوغ.

وقد دعا ادلر إلى نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله،وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة في القوة وحاجة الإنسان إلى التعويض عن أي نقص في كيانه،ويقول ادلر: إن الدافع الجنسي ليست له هذه الأهمية الشاملة التي ينسبها فرويد إليه.

وأن حافز توكيد الذات (Self asnerive empulse) وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة.

وقال ادلر: إن الطفل قبل الخامسة لايعرف القيم والمعايير الخلقية،بل يكتسب أسلوب الحياة بالقدوة والمثال من البيئة التي يعيش فيها.

ويقرر ادلر الاضطرابات التي تعتري حياة الأطفال النفسية ترجع إلى عدم شعورهم بالمحبة، وهو يذهب إلي أن قسوة المستبدين وكراهيتهم ترجع إلي ذلك العامل الذي يثبت في نفوسهم عند الطفولة.

وأن الأبناء الذين يفقدون حب آبائهم يصبحون مصدر مشكلات كثيرة،لأن الطفل الذي يلتمس الحب فلا يجده يركبه الحسد والغيرة ويميل إلى سلوك يحاول به لفت الأنظار وإثبات سيطرته،وقد يدعى المرض أحياناً التماساً للعطف.

كذلك أثبت يونج ومكدوجل أن العقل الباطن ما هو إلا خرافة، وقد نوقش فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما أخيراً.

٦- ولقد توالت المعارضات لمفاهيم فرويد في النفس ولكن نظرية فرويد شقت طريقها في عنف وسيطرت على جميع ميادين الدراسات النفسية، وكانت من ورائها قوى تدفعها إلى الأمام.

وقد سجلت بروتوكولات صهيون إشارة إلى فرويد فقالت: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لايتبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه».

ومن هنا يرجع الكثيرون أن هدف فرويد كان داخلاً ضمن المخطط الذي رسمته الصهيونية للسيطرة على العالم بعد تدمير أخلاق البشرية.

ولقد امتد أثر فرويد نتيجة لذلك حتى شمل الأدب والقصة والسينما والمسرح والإذاعة والتليفزيون، ووصل إلى بيوت الأزياء وأدوات الزينة وفي أصول نظرية فرويد يبدو وهو غير منطقي مع الفطرة بل معارضاً لها ذلك أنه يرى أن التسامي نوع من الشذوذ، وأن الأخلاق تتسم بالقسوة وتعوق التطور، كل ذلك دون سند علمي وأنه في أخطر من هذا كله يقف عند عرض المسائل، ثم يترك الشباب بدون توجيه رغبة في إثارة القلق والاضطراب.

ويقرر الباحثون أن ليهودية فرويد دخلاً كبيراً في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته، ذلك لأنه كان ينتمي إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة التي أقل ما ينسب إليها حب المال، والانغلاق، والتعصب، ومن هنا انبعثت فلسفته التي وصفت بأنها ميكانيكية جبرية، لأنها تنظر إلى الإنسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لايمكن التغلب عليها إلا بالحيلة، وهو بذلك قد فرض على علم النفس مبدأ الجبرية وأنكر الإرادة الفردية القادرة على مقاومة الغرائز.

وقد وصف فرويد بأنه كان يمر بأزمات نفسية، وهو يعالج مريضة مصابه بالهوس الجنسي - هي سيسلي المصابة بعقدة أوديب وبينما فرويد يقوم بعلاج هذه الفتاة يتكشف له في نفسه أنه مصاب بعقدة أوديب وأنه كان يتجه إلى أمه ويغار من أبيه وأنه اتهم أباه ظلماً بجريمة أخلاقية رهيبة؟! .

إن أسطورة أوديب الإغريقية التي تتحدث عن ابن ارتكب جريمتين فقتل أباه وارتكب خطيئة أخرى، ثم عاقب نفسه بأن فقأ عينه، هذه الأسطورة جعلها فرويد حقيقة يؤمن بها ويفسر بها سلوك الآخرين، وقد رسمت وقائع حياة فرويد صورة شخصية مضطربة مريضة، جديرة بأن تبحث عن من يعالجها، لا أن تكون مصدراً لرسم أسس لدراسة النفس البشرية.

فقد كان فرويد مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة،ولم يستطع أن يشفى عقله الباطن من هذه العقد النفسية إلى آخر حياته، كان ينسى الأسماء ومنها اسم أحد معارفه الدكتور فرويد، وكان يتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فيحرقها، وكان يؤمن بأن سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى فمات في بداية الحرب العالمية الثانية، وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليهدئ من ثوراته العصبية.

وكان فرويد عرضة للإغماء على أثر المفاجآت.

وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقته بغيره، وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلي دلائلها في سريرته الباطنة،وكانت له ضروب من القلق تنم على باعث من بواعث الحيرة المكتومة،وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب التشبث في العقائد الدينية والعادات الخلقية، ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات تشبثاً يربو في إصراره وشدته على تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه.

ومن قوله ليونج: عدني أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية غير أن يونج لم يلبث أن تزحزح تفكيره شيئاً فشيئاً عن ذلك الإغراق في العصبية الجنسية التي تحيط بكل علة ويتغلغل وراء الأسرار في أعماق كل طوية وقد خالفه تلميذه الفرد إدلر كما خالفه يونج.

وكان في طفولته ينسى نفسه ليلاً في فراشه، وكان يخشى من السفر بالقطار، ويحضر إلى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة، وكان دائم العزلة لايسمح لأحد أن يصاحبه طويلاً.

٧- ولقد حاولت نظرية فرويد السيطرة على مناهج التعليم والتربية والدوائر العلمية، غير أنها في السنوات الأخيرة انكشف عورها وبان فسادها، حتى أن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو عام ١٩٥٦ وعدتهم نحو أربعة آلاف قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه

يتولاها رجل مسئول عن مركزه العلمى هو الدكتور بوسيفال بيلى مدير معهد النفسيات بولاية النيواز، وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لايؤبه لها، وأن آراءه لاتضيف شيئاً إلي القيم الإنسانية، لأنه يرتد بالإنسان إلي أغوار الباطن، ويهمل جانبه المنطقى الشاعر، وأنه لم يكن يفهم المرأة، ولم يكن يتذوق الموسيقى، ولا يحس جلال العقيدة.

وهكذا يرى المراقبون أن العالم استطاع أن يضع فرويد على المشرحة قبل أقل من عشرين عاماً من وفاته، وأن الدكتور أرنست جونس هو تلميذه الوحيد من غير اليهود.

ومما أورده أرنست جونس في كتابه (حياة وأعمال فرويد) خطابه إلى صديق له يقول: لست في الحقيقة رجلاً من رجال العلم، ولا من رجال الملاحظة ولا التجربة، لست مفكراً، أنا لست إلا مغامراً بطبيعة مزاجي وتكويني، ولدي كل ما عند المغامر من فضول ومثابرة وجسارة.

ويقول الباحث: إن نظرية فرويد عن العقل الإنساني لاتقوم على أكثر من افترضات خيالية انتزعت مادتها من الأساطير والتخمينات التي سبق رفضها في مجال الدراسات المتعلقة بتاريخ الإنسان، ونقول: والتي جاءت حقائق الأديان وفي خاتمها الإسلام لتقضى عليها وتكشف عن زيفها وعدم صلاحتيها لأن تكون قاعدة لأي مذهب علمي في فهم النفس الإنسانية.

وقد كشفت الأبحاث التي نشرها الكتاب اليهود في السنوات الأخيرة عن علاقة جذرية وعميقة بين نظريات فرويد وبين نصوص التلمود، وقد ظلت هذه النظرية تخدع مئات العلماء ببريقها الزائف سنوات طويلة حتى أعلنت هذه الحقائق، ومن بين الذين كشفوا هذا الدكتور صبري جرجس في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني في علم النفس ونظرية فرويد) حيث أشار إلى التركيز الخطير الذي قامت به القوى المسيطرة على الإعلام والآداب والفنون والجامعات في الغرب على نظرية فرويد واحتضانها على هذا النحو المريب بالرغم من أنها لم تكن صحيحة علمياً، بينما أخفتت أصوات

النظريات الأخرى الأكثر قرباً من الحقائق العلمية، يقول الدكتور صبري جرجس: لفت انتباهي حقيقة كبرى، تلك العلاقة الوثيقة بين فرويد رجل العلم والتحليل النفسي والفكر العالمي من ناحية وبين التراث اليهودي الصهيوني والصهيونية والعمل السياسي الديني العنصري من ناحية أخرى، وكما تبدى لي ليست علاقة مصادفة ولكنها علاقة أصل ومسار وهدف وأشار إلى أن فرويد وأصحابه الذي حملوا لواء فكرته من بعده كانوا جميعاً من الصهيونية (ساخس، رايك، سالزمان، زيلبورج، شويزي، وتيلز، فرانكل، كاتز، فينكل) وأشار إلى عدة عبارات وردت في كتابات يهودية لفتت نظره إلي ما يراه الآن من علاقة بين الصهيونية وبين نظرية فرويد وذلك ما أشار إليه باكان في بعض خفايا التراث اليهودي الصهيوني لها علاقة بالتحليل النفسي بل إلى ما ذكرته صراحة الكاتبة (ترود، وايز، دوز، مارين) عن كيف تحتقر اليهودية العقل الغربي مزيفة في سبيل ذلك وقائع الماضي وأحداث الحاضر، آمنة بعد ذلك من الافتضاح، ومطمئنة آخر الأمر إلى التصديق.

ثم يتساءل الباحث كيف لم يتنبه أحد وقد ناهز عمر التحليل النفسي الفرويدي سبعين عاماً؟ وكيف لم يتنبه أحد إلى هذا الأمر؟ وكيف فاتت هذه العلاقة بين الفكرالتحليلي والفكر الصهيوني، جميع من شغلهم التحليل النفسي ومن تابعوه ومن نقدوه؟

ويقول: إن مفاهيم التحليل النفسي قد قدمت في أواخر القرن الماضي في إطار علماني، ثم ما لبثت الأبواق الخفية والمقنعة للدعاية اليهودية والصهيونية أن أحاطت هذا الفكر وصاحبته بهالة من النزاهة الفكرية، منعت حتى أعنف معارضية من أن يستريبوا حتى في أصوله وإن أنكروا مفاهيمه، ذلك على الرغم مما تسرب في كتابات (فرويد) وأصحاب فكره من عبارات تكشف عن يهودية صهيونية واضحة التعصب.

وقد فات مدلول هذه العبارات الأكثرين من الناس، حتى رفعت الصهيونية العالمية كل الأقنعة التي تتستر وراءها وظهرت واضحة لاخفاء فيها منذ نهاية الحرب

العالمية الثانية من ناحية، وحتى انصرف أحد أبنائها (دافيد باكان) ينقب في حفريات التراث اليهودي الصهيوني محاولاً الربط بينه وبين الفكر الفرويدي.

ويقول: إن الفكر الفرويدي المنبعث أصلاً من التراث اليهودي والصهيوني كان يهدف أساساً إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغرب، وأن هذا الفكر لم ترد به أية دعوة انحلالية صريحة (وكذلك الوجودية) وإنما كانت الإيحاءات الانحلالية تتخلل المفاهيم الفرويدية، ثم قامت أجهزة الإعلام الصهيوني بتقديم هذه المفاهيم لتنظيم الأدب والفن على نحو يغري الناس بالتحليل وييسر لهم سبيله، والمعروف أن الدعوة الفنية وخاصة إذا مست (قيماً) يحرص الناس على بقائها قد تكون أشد فاعلية في زعزعة إيمانهم بها من الهجوم الجريء السافر عليها، ويلاحظ الدكتور صبري جرجس أن التحليل النفسي (الفرويدى) يكون لدي أصحابه وحدة عضوية وأيدلوجية، إما أن تقبل كلها، أو ترفض كلها، ولا سبيل فيها إلى التجزئة ثم يصل من ذلك إلى الحقيقة التي تقول بأن هناك علاقة أكيدة بني نظرية فرويد (في النفس) التي هزت الفكر الإنساني كله وأثرت فيه وبين الصهيونية ومخططاتها.

وأن هذه النظرية وتطوراتها تسير جنباً إلى جنب مع المخطط الصهيوني في مجالاته المختلفة عاملة على تحقيق الأهداف الصهيونية، وأن التحليل النفسي الذي ابتدعه فرويد مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين عاماً لم يكن (علماً مجرداً) ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معاً بالفكر اليهودي الصهيوني الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها.

وأنه من أجل ذلك سخرت الصهيونية اليهودية حربها الإعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة له في أوسع نطاق مستطاع،حتى أصبحت الفرويدية من أقوى العوامل أثراً في التوجية الفكري والخلقي لعالم الغرب.

وقد كان فرويد يهودياً قحاً وعضواً عاملاً وفخرياً في بعض منظمات الصهيونية وصديقاً شخصياً لهرتزل أبي الصهيونية.

وعندنا أنه لا نستبعد أن يكون قد دخل عمله ضمن مخطط البروتوكولات لأنه جرت الإشارة إليه فيها على أنه دعامة من دعامات الخطة إلي تدمير العالم والسيطرة على الأمم والمجتمعات العالمية عن طريق هدم قيمها وأخلاقياتها.

ويقول الدكتور صبري جرجس أخيراً: إن العلاقة العضوية والمصيرية، والمصلحية بين اليهودية والصهيونية والاستعمار الإمبريالي من ناحية وبينها وبين التحليل النفسي الفرويدي من ناحية أخرى، قد جعلت من الحركات الثلاث (ثالوثاً) قوامه العنصرية، وروحه الاستعلاء، ووسيلته الإفساد، وهدفه الاستغلال، وهو بشكل يواجه البشرية ومستقبلها».

ويمكن العودة إلي ما دعت إليه الصحافة الصهيونية في أعقاب عدوان يونية ١٩٦٧ حين طالبت بالمزيد من الحرب النفسية ضدنا ودعت إلى استخدام علم النفس الفرويدي طبعاً أعمق وأدق، وذلك لأن علم النفس علم يهودي وخليق باليهود بصورة تجعلهم أقدر الناس على استخدامه.

وقد تبين في وضوح أن تعاليم فرويد تؤازر الدعوة التلمودية إلى إشاعة الفاحشة في الناس، ومعارضة التعاليم الدينية التي تدعو إلى إعلاء الغرائز ومغالبة الشهوات وإرساء القيم الأخلاقية، وهي أساس من أسس الفلسفات الحديثة التي تدعو إلى إطلاق الغرائز وإشعالها بالفنون واستثارتها بالصورة والكلمة والملابس.

وقد نبذت بلاد كثيرة طريقة فرويد في العلاج النفسي والعقلي، وأعلنت فساد نظريته أساساً التي ترد كل الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحته.

وقال الدكتور ناثان كلاين الطبيب النفسي السوفيتي: إن هذه النظرية ليست سوى معول هادم لعقول الشباب، ومخدر مميت لنفوس أبناء الشعب، وهو يرجح عليها نظرية إيفان باملتوف التي ترى أن البيئة هي المسئول الأول عما يصيب الإنسان من انحراف نفسي وعقلي.

والإسلام يرد كلا النظريتين ويرى أن كلاً منهما تتركز على واحد من جملة

عوامل هي مصدر الإرادة الإنسانية.

٨- وفي أخطر نظرية قدمها فرويد أثبتت الأبحاث التجريبية خطأه وفساد رأيه وهي مسألة الطفولة وما يدور حولها فقد أعلن فرويد بأن معارضة رغبات الطفل في صغره ومحاولة الأهل في أن يروضوه على النظام وأصول السلوك تؤثر في تصرفاته إذا كبر.

ولذلك فإنه يجب أن يترك الطفل حراً بدون توجيه، حتى لايكون ذلك مصدر انحرافات وعقد في حياته.

وقد روج علماء النفس والتربية لهذه النظرية على نحو اتخذ منها وسيلة لهدم أصول التربية وبناء الشباب تحت تهديد وهمي، غير أن العلماء الذين قاموا بإحصائيات وتجارب في البيئة نفسها تبين لهم فساد هذه النظرية وعدم جدواها.

وأن بعض العلماء الأمريكيين أعلن بعد دراسات طويلة بضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل، وقد التقى في ذلك بعلماء المسلمين القدامى من أمثال الغزالي وابن خلدون والقابسي.

كذلك دعا إلى أخذ الأبناء بالرفق واللين حتى لايكون نقدهم مصدر الإحساس بالحيرة والقلق، وهو ما دعا إليه علماء المسلمين أصلاً.

وقال: إن مسلك الطفل لايتأثر بعامل واحد كما ذكر فرويد، ولكنه يتأثر بعدد كبير من العوامل منها البيئة والوسط والحالة الاجتماعية، فلا سبيل لإخضاع الطفل إلى نسق واحد.

وقد أجرى الدكتور اسكندر توماس عدداً من البحوث بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين انتهى منها إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة.

وأنهم درسوا في تجربتهم أحوال ١٥٨ طفلاً غير منحرفين منهم الفقراء والأغنياء، وقد نشأ الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود القاسية في تربيتهم، ودل ذلك على أن مسلك الطفل لايتأثر بالتوجيه الأبوي، ولا بالزجر أو بالضرب.

كذلك أثبتت الدراسات العلمية بما لايقبل الجدل أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدافع إلى الهواء أو الشراب أو المال، ثم إن هذا الدافع الجنسي يخضع للتربية والتوجيه، بمعنى أننا نستيطع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه.

وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضرورياً.

كذلك أثبتت الأبحاث أن هناك تنظيماً طبيعياً للشهوة في الإنسان، بحيث يستطيع كثير من الوسائل كالرياضة الجسدية أو الروحية أو الشعر أو الموسيقى أن تستوعبه.

كذلك قال الباحثون إن عدوى فرويد الأساسية هي أن المرض العصبي (العصاب) ينشأ عن أمور جنسية طفولية مكبوته، ولكن البحث أثبت أن الأمور الجنسية الطفولية المكبوته ليست وقفاً على الذين أصيبوا بعصاب في وقت ما في حياتهم ولكنها موجودة عند كل إنسان، وتشكل عاملاً هاماً في حياته.

وهكذا نجد أن ما دعا إليه فرويد من أن الطفل يعاني مما أسماه كبت الميول الجنسية ليس إلا أكذوبة أراد بها تبرير الإباحة، وأثار بها الخوف في النفوس حتى يحول بين إعداد الشباب وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خلقياً. وأن ما يرمي إليه من ترك الميول حرة تسلك سبيلها إلى ما تشاء، وأن ييسر لها هذا السبيل، ليس إلا دعوة صريحة إلى الإباحية.

٩- وقد تختلف المذاهب الغربية عن الماركسية في تفسير فرويد، ولكنهما يجتمعان في الواقع عند المادية والجبرية، ونظرية فرويد هي قمة الجبرية.

ووجه الخلاف الوحيد هو أن نظرية فرويد في نظر الماركسيين وضعت لتبرير النظرية الفردية ودعمها، غير أنهم يرون أن فرويد عامل هام يحقق أهدافهم في تحطيم المقدسات، وتلويث المجتمعات، وتصوير القيم والحدود، والضوابط الدينية والأخلاقية على أنها قيود ابتدعها المجتمع لحماية ذاته. فإذا تحطمت كسبت

الماركسية نصف المعركة. ولا ريب أن المخططات كلها ملتقية، وأن الماركسية تتصل بنسب إلى الفرويدية.

وتلتقى الماركسية والفرويدية في أكثر من نقطة وأهمها: النظرية المادية والحيوانية إلى الإنسان، تلك النظرة التي تنفى الجوانب الروحية والمثل العليا والأخلاق، وتؤمن بعالم الجسد وحده، وبالواقع الذي تدركه الحواس وحده، ولكنها تختلف مع الماركسية في تقديم أيهما: لقمة العيش أو الجنس.

وهكذا نرى أن أبرز تفسيرين للتاريخ والإنسان، وهما الاقتصادي والجنسي مصدرهما يهودي، والإسلام يرفض خضوع الإنسان للتفسير الاقتصادي أو الجنسي أو المادي جملة والمعتقد أن الفكر الإنساني قد تجاوز هذين التفسيرين تماماً بعد أن تمزقت النظريتان بالتناقضات، وثبت إخفاقهما بالتجربة، مما أكد عجزهما عن البقاء والاستمرار.

(١٣)
الجنـــس

علت صيحة (الجنس) في السنوات الأخيرة وقد حاولت أن تأخذ حجماً أكثر من حجمها الطبيعي في مجال الثقافة، والصحافة والسينما والمسرح، ولم يكن ذلك ناتجاً عن وجود مشكلة أساسية بقدر ما كان نقلاً عن أجواء أخرى وبيئات مغايرة وظروف غير طبيعية.

ذلك أن الجنس في نطاق الفكر الإسلامي والمجتمعات الإسلامية لايشكل ظاهرة خاصة منفصلة عن الحياة الاجتماعية،وليست له أزمة معينة فرضتها عوامل قديمة تغيرت من النقيض إلى النقيض.

ذلك لأن الإسلام بطبيعته يلتمس فطرة الإنسان،ويعترف برغائبه،ويفتح له الطريق إلى تحقيق الصلة بين الرجل والمرأة على أحسن أسلوب وأسمى طريق.

ومن ثم فلا تقوم في المجتمع الإسلامي حالة من حالات التحدي التي تدعو إلى الصراع النفسي بالمنع، أو الكبت،أو احتقار الصلة الطبيعية القائمة بين الرجل والمرأة على النحو الذي شهدته بيئات الغرب والتي كانت مصدر الدعوة الصارخة إلى إطلاق الجنس وتحرير وسائله وأسبابه.

ذلك أن الأزمة التي عرفتها أوروبا والتي جاءت من تفسيرات قدمت الدين على أنه دعوة إلي مطالبة البشر بأن يزهدوا في رغائب الجسد،وأن يكبتوا النوازع الفطرية،إعلاء للروح وسموا بها، وبذلك علت الدعوة إلى إنكار الصلة الطبيعية مع المرأة، ووصفت المرأة، ~~ووصفت المرأة~~ بأنها شيطان مريد، واعتزال الناس الحياة إلى الجبال والأكنان في اقتناع بأن هذا هو الطريق الصحيح إلى مرضاة الله.

ولقد كان لهذا المفهوم أثره البعيد المدى على النفس الإنسانية، والحياة الاجتماعية جميعاً، فقد عاشت النفس الإنسانية حياة مريرة تمزقها المحاولة التي

تعمل على العزلة عن الحياة بقهر النوازع الفطرية بحجة أن هذه النوازع دنس يجب أن يتطهر منه الأتقياء.

وبذلك أوشكت الحياة أن تتعطل، فقد انصرف الناس إلى الأديرة وهجروا السعي في الأرض، ولم يكن ذلك إلا فهماً باطلاً لدعوة الدين في إعلاء القيم الروحية والنفسية دون الحرمان من الاستجابة للرغبات والنوازع الفطرية.

ومن هذا الانحراف الشديد الذي استمر مسيطراً على الحياة الاجتماعية في الغرب قروناً طويلة تولدت الدعوة إلى الانطلاق والتحرر وإعلاء الجنس، انطلاقاً من القاعدة التي تقول إن كل فعل له رد فعل مساوٍ له في القيمة مختلف عنه في النتيحة.

وهكذا انتقلت أوروبا من النقيض إلى النقيض؛ وجاء فرويد فدعا إلى إعلاء الجنس وإطلاق الجنس،وحمل راية التهديد والوعيد بالمرض والعصاب لكل من يعترض على دعوته، وبذلك انفتح الباب واسعاً أمام الفكر الغربي والمجتمع الغربي إلى معارضة النظرة القديمة وحربها دون هوادة على أسلوب حاد عنيف لايلتمس الاعتدال أو التوسط أو النظرة الموضوعية، ولكنه يجرى في اندفاع خطير فيدمر كل شيء.

ولقد كانت نتيجة هذا التحول خطيرة وبالغة الأثر، وقد ظهرت آثارها سريعاً، فقد هدمت القيم الروحية والنفسية والأخلاقية، وفكت القيود والضوابط، ودفعت الناس دفعاً إلى الفاحشة والتحلل والإباحية على نحو، كان له آثاره الخطيرة في هذه الأزمة التي يمر بها الإنسان الغربي والمجتمع الغربي نتيجة التمزق والشك والصراع والاندفاع الجنوني نحو إرضاء الغرائز دون تقدير لأي نتائج تتعلق بكيان الإنسان نفسه أو بالمجتمع الذي يعيش فيه.

٢- أما الإسلام فقد نظر إلى الجنس نظرة الفطرة، وحرره من معتقدات الرهبنة والرياضات القاسية، كما حماه من أخطار التحلل والتدمير، وأعلن أن الرغبات من

طبيعة الإنسان التي لا سبيل إلى الوقوف في وجهها، وإن كان من المقدور ضبطها وتعديل مسارها وتخفيف أخطارها وتذليلها؛ لتؤدي الغاية منها دون إسراف أو فساد أو تجميد، ومن هنا وضع لها ضوابط من الحلال والاعتدال والعفة.

كذلك فإن الإسلام كشف عن مهمة الجنس ودوره، وكيف أنه جزء من مهمة كبرى للإنسان وليس الغاية الكبرى في حياته، وأنه وسيلة إلى بناء الأسرة وإنشاء الجماعة وتوالي حركة المجتمع ونموه ليحقق إرادة الله الكبرى في تعمير الأرض، وليس الجنس هو غاية الحياة كما تقول الفلسفات الغربية وليس هو أكبر أهدافها.

ومن هنا فقد عجزت قضية الجنس التي هي نبت غربي خالص أن تجد مجالاً في محيط الإسلام، لأنها لم توجد أصلاً، نظراً لسماحة الإسلام واعترافه بالرغبات وإباحة الاستجابة لها في إطار العقد الشرعي.

وأن السر في انطلاق هذه الظاهرة بشدة وعنف هو انتقال الغرب من القسر الشديد إلى الإطلاق الشديد، أما الإسلام فقد أعلن منذ يومه الأول وجود الرغبات في كيان الإنسان من مال وطعام وجنس، ولكنه وضعها في إطارها الصحيح ولم يجعل الطعام قضية فوق القضايا لتسيطر عليها، ولم يجعل الجنس كذلك قضية أولية، ولكنه نظر إلى الحياة نظرة متكاملة في عناصرها؛ متوائمة في رغباتها وحدودها، متوازنة، تهب النفس الإنسانية السكينة والطمأنينة وشفاء القلوب وقضاء الحاجات، بعيداً عن السرف والزهادة والكبت، وبعيداً عن التحلل والانطلاق.

ومفهوم الإسلام في الغرائز والرغبات يقوم على تحقيقها في حال القدرة وفي حدود قواعد الزواج، ويقوم على التسامي والإعلاء في حال عدم القدرة دون أن يفقد ذلك الإعلاء هذه الرغبات حقها المعترف به في حالة الاستطاعة.

كذلك أقام الإسلام إلى جانب ذلك نظام الطهارة الجسدية والنفسية وأباح المصادر الشريفة للمال والطعام والجنس، كما أباح ظروف الاضطرار وعفا عنها.

والإسلام لا يفتح الباب أمام الكبت بل يزيله قبل أن يحدث، ولا يترك فرصة مهيأة

لحدوثه، فهو يعترف بالرغبات ويقرر إقامة الحدود التي تحفظ النفس البشرية من الإنهيار في نفس الوقت، هذه الحدود تنظم مدي القيام بالنشاط الحيوي وتحدد له ميادين معينة يكون فيها مأمون العاقبة، دون أن تحرم الإنسان من الإحساس به والرغبة فيه، ودون أن تحول بينه وبين حقه في أنه مباح له، مسموح به، ليس في مزاولته أي نوع من الحجر، حلالاً ليس حراماً، بل وهناك ترغيب فيه ودعوة إليه حتى لايوضع في غير مكانه، كل ذلك شريطة أن يتم في إطاره الشرعي ومع ضوابطه.

ومن هنا فإن النفس الإنسانية عند المسلم هي دائماً مستريحة راضية مطمئنة إلى أن الطريق إلى الغاية مفتوحة وشرعية ومأجور عليها صاحبها، أما أمر الوسائل فهو شأن من يسرع بسرعة القادرين أو يتأخر حتى يفسح الله له:

﴿ وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتي يغنيهم الله من فضله ﴾ .

ومعنى هذا أن الإسلام يحول دون الكبت، لأنه يعترف بالواقع البشري ويضع الضوابط في حالة التنفيذ.

٣- إن من أعظم معطيات الإسلام هو أنه ضبط الرغبة ولم يحقق لها الإباحة الكاملة، ذلك لأنه لايريد أن يظن الإنسان أن هذه الرغبة هي غايته الكبرى، أو أن يدمر كيانه الخاص من جراء الإسراف في مزولتها، فجاءت تلك القيود ضرورة ملحة لازمة لحفظ كيان الفرد ذاته، وحماية المجتمع نفسه، ودفع الإنسان إلى الأمام إلى الغايات الكبرى التي هو مؤهل لها، في تعمير الأرض وتحقيق إرادة الله في تنفيذ النظام الرباني بالعدل والإخاء، والبر والرحمة، وتلك هي رسالته الكبرى وليست الرغبة الحسية العاجلة.

ولقد حفظ التاريخ عشرات المواقف التي انهارت فيها الأمم نتيجة التحلل والانهيار الخلقي.

وفي السنوات الأخيرة خلال الحرب العالمية انهارت أمم تحت أول ضربة من

خصومها،وأعلن قادتها أن مصدر ذلك هو التحلل الخلقي.

فالإسلام يعمل على حفظ أمته من هذا الخطر.

كذلك فإن القول بأن إطلاق الحرية في الرغبات يزيد المتعة أو يعطي النفس حال الاكتفاء، هذا القول مردود بالتجربة والدراسة،فإن اللذات لاتنتهى ولا تشبع منها النفس ولا يحس صاحبها أبداً بالاكتفاء فينصرف عنها، سواء أكان ذلك في مجال الطعام أو مجال الجنس.

وإنما تنشأ من الإسراف طبيعة نهمة مسرفة من شأنها أن تهدم الجسد الإنساني، ومن أجل هذا دعا الإسلام إلى التوسط والاعتدال ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ ودعا إلى حماية البدن: «إن لبدنك عليك حقاً».

فالنظرية التي تقول بأن إطلاق الحرية يؤدى إلي أن يفرغ الإنسان من ضغط الغرائز على أعصابه يمكن أن تتحقق بالمنهج المعتدل الذي شرعه الإسلام في أمر الجنس والطعام وغيره، وذلك بالتوسط وعلى فترات منظمة، أما إطلاق اللذات إطلاقاً كاملاً فإنه لايؤدى إلى الغاية المرجوة، بل إنه يزيد الشهوات اشتعالاً، إن الطعام يقوى شهوة النهم» فالإسلام لايقبل هذا النهج، ولا يسمح بالانطلاق الذي لاتحده ضوابط أو حدود، ذلك لعجز الجسد نفسه عن احتمال الجهد الدائم مهما تقوى بالطعام أو بغيره.

ومن شأن «كل شهوة يباح لها التفريغ الدائم الذي يؤدي بدوره إلى الظمأ الدائم أن تفسد العقل،وتذهب الصواب،وتجعله عرضة للهبوط والانحلال» ومن هنا كانت الضوابط والحدود عاملاً هاماً في ضبط كيان الفرد ومصلحة الجماعة.

والقيد المفروض على الشهوة الجنسية هو قيد لصالح المجتمع،حماية له من اختلاط الأنساب،وتفكك الأسرة،واضطراب عواطف الناس، وهو في نفس الوقت حماية للفرد ذاته من الاضطراب النفسي.

ومن شأن هذا التنظيم أن يقيم العلاقة الطيبة بين الفرد والمجتمع.

ولما كانت شهوة الجنس ليست غاية في ذاتها، وإنما هي عامل بقاء النسل واستمراره، فقد وضعت في حجمها الطبيعي حتى لاتفسد الرسالة الأساسية للإنسان ولا الهدف الصحيح له، وحتى يظل الكيان الإنساني محتفظاً بقدرته وقوته فترة طويلة سليماً قادراً على النسل لحفظ النوع في الأرض.

٤- وليست نظرية فرويد في الجنس وإطلاقه مما يقبله علماء النفس والطب على علاته بل هو قول مردود في نظر أصحاب التجارب.

ومن ذلك ما يقوله الدكتور لويس بنس الطبيب النفسي: إن الدافع الجنسي لدى الفرد دافع غريزي فطري، ولهذا فهو شأن كل الدوافع الفطرية يحاول أن يعبر عن نفسه، ويطالب بالإشباع وفي المحاولة الدائمة لاستمرار البقاء تدفع الحياة الأفراد إلى أن يتناسلوا، ولن يتم التناسل إلا عن طريق الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث.

إن الدوافع الغريزية الجنسية دوافع غريزية تحاول أن تعبر عن نفسها، ولكن هذا لايعني أبداً أن عدم الإشباع أو على الأصح وضع هذا الإشباع في المقام الأول من حياتنا يؤدى إلي دمار البشرية.

والواقع أن هناك ثمة رجالاً ونساء أفلحوا في تجنب الجنس، والحياة بدونه نهائياً، وهناك آلاف النساء لم يتزوجن لأنهن لم يقعن في الحب، أو لأن فرصة الزواج لم تتح لهن، والقول نفسه يسري على رجال كثيرين لم يتزوجوا أيضاً، ومعنى ذلك أن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة، وليس هناك ثمة ضرر جسمي أو عقلي ينتج عن الامتناع عن الجنس.

ويقول: وقد سألتني إحدي السيدات: هل الجنس ضروري لكي يتم للإنسان اتزانه العقلي، قلت وأنا أعنى كل حرف مما أقول: بالطبع لا: إن كل ما سمعته من أن السعادة ليست ممكنة فقط بالزواج فهناك رجال ونساء عاشوا سعداء دون أن يمارسوا الجنس.

ودعوني أكرر مرة أخرى أن الجنس في أصله مسألة عقلية قبل كل شيء، وبالرغم

من أن الدافع الجنسي غريزي فينا،وغالباً ما يطلب الإشباع،إلا أنه في معظمه ينشأ في عقولنا قبل كل شيء،والتفكير هو الذي يدفع الجسم إلى الفعل.

ورغم أن أغلب أجزاء المثير الجنسي تتكون بتأثير العالم الخارجي إلا أن العقل يلعب في ذلك دوراً كبيراً يفوق في أغلب الأحيان الدور الذي يلعبه المثير الأجنبي، وبعبارة أخرى: إن ما تتخيله عقولنا عن الجنس يكون أشد إثارة من الجنس في واقعه الموضوعي الخارجي.

ومن ثم نستطيع أن نقول إن الكتب الجنسية وأفلام السينما والنكات الخارجة وما إلي ذلك هي المسئول الأول عن إثارة الحيوان الكامل في أعماقنا وليس الجنس في حد ذاته،إن التخيل وهو من نتاج الذهن يلعب الدور الرئيسي بالنسبة لدوافع الإنسان الجنسية؛ وما أكثر الصور المجموعة غير الواقعة التي يقدمها لنا، وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذي لن يضر شيئاً.

ولا ريب أن هذه وجهة نظر أخرى تختلف مع مفهوم الإسلام في بعض النقاط، ولكنها تعارض ما ذهب إليه فرويد.

ويصور ليوبولدفايس (محمد أسد) مفهوم الإسلام بالنسبة إلى الجسد والجنس بالنسبة إلى مفاهيم الأديان والمذاهب والنظريات الغريبة فيقول:

«يعتبر الإسلام من دون الأديان السماوية جميعاً روح الإنسان ناحية واحدة من شخصيته وليست ظاهرة مستقلة، وبالتالي فإن نمو الإنسان الروحي في نظر الإسلام مرتبط ارتباطاً لاينفصم بجميع نواحي طبيعته الأخرى، إن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته، فهي ليست نتيجة أي خطيئة أولى، ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الإسلام، بل هي قوى إيجابية وهبها الله للإنسان، فيجب أن يتقبلها،ويفيد منها بحكمة على أنها كذلك.

ومن هنا فإن مشكلة الإنسان ليست في كيف يكبت مطالب جسمه، بل كيف يوفق بينها وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة».

٥- هل علاقة الرجل بالمرأة هي علاقة جنس؟

هذا ما تحاول النظرية النفسية والاجتماعية الغربية أن تصوره، لتجعل هذه العلاقة قاصرة على الغريزة، وبذلك تنهدم كل الروابط الروحية والنفسية والاجتماعية بين الرجل والمرأة التي هي دعامة قيام الأسرة. ولا ريب أن هذه المحاولة إنما ترمي إلي هدم الكيان الاجتماعي كله، بالعمل على تغيير التركيب الفكري للجنس البشري، وبإضعاف العوامل الأساسية لقيام الأسرة، وهي محاولة لم تتوقف على مدى التاريخ من جانب القوى الهدامة، ولكنها لم تحقق شيئاً، وكان مصيرها دائماً الهزيمة والانحدار لأنها ضد طبيعة الأشياء ومعارضة للفطرة.

إن نظرة الإسلام إلى علاقة الرجل بالمرأة هي نظرة واقعية، وهي في نفس الوقت كريمة وسامية، فقد وضع الإسلام غريزة الجنس في موضعها الصحيح، فهو لم يحتقر ذلك النداء الطبيعي، ولم يعتبر الترفع عنه رقياً، أو عبادة، وقد صور الإسلام هذه العلاقة في أدق عبارة ﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فالأمر إذن أكبرمن اللذة العارضة، وأكبر من الجنس، ولكنه محيط ضخم من التعارف والمودة، وأساس مكين لبناء شامخ فيه الأبوة والأمومة والبنوة، والتربية، والتكوين، والرعاية، والجنس جزء منه.

ولما كان الهدف الأكبر هو حفظ النوع، فقد أباح الإسلام هذه العلاقة ووضع لها إطارها الصحيح، وجعل الضوابط أساساً لحمايتها، فوضع أساس الاختلاط: وهو التقوى وحرم الخلوة،ودعا إلي غض البصر،وإدناء الملابس، وإذا بلغت المرأة المحيض فلا يرى منها إلا الوجه والكفان، وكره الإسلام للمؤمنات التبذل والابتذال، وجعل الإشباع الكامل لنداء الجنس هو الزواج دون سواه.

والمرأة في الإسلام ليست أداة كما تصورها بعض الفلسفات وليست شيطاناً، وقدم الإسلام تربية الأطفال،وحماية الأسرة،ودعم البيت على العمل.

والإسلام في هذا يكرم المرأة ويحمى عرضها وشرفها، ولا يجعلها كما تريد

الحضارة الحديثة متعة وأداة يتمتع الرجل بها كيفما شاء ودون قيد يقيده أو نظام صحيح يكفل لها حماية وجودها وكيانها.

وقد جاء ذلك نتيجة فلسفة اللذة والإباحة التي سيطرت على الفكر الغربي، والتي خدعت بها المرأة حينما أبيح لها مشاركة الرجل في صالات الرقص، والنوادي الليلية، هذه الحرية الجنسية المطلقة مما كان له أبعد الأثر في انهيار الأسرة وانحلالها، وانتشار القلق الاجتماعي، وظهور بدعة صديق الأسرة، وتبادل الزوجات وغيرها مما يدمر الكيان الإنساني للمرأة، ويجعلها تعيش حياة أشد خطراً وعنفاً من حياة الرقيق القديمة.

وقد جاء هذا الاتجاه في ظل مخطط بروتوكولات صهيون التي تستهدف السيطرة على العالم البشري بعد تدميره أخلاقياً واجتماعياً. وقد استطاعت الصهيونية احتواء الرأي العام الغربي المسيحي وتجريده من قيمه الروحية والأخلاقية، والسيطرة على الفكر العالمي عن طريق التعليم والإعلام والصحافة وزرع بذور الشك والريبة، ومن هنا احتضنت كل الدعوات الخاصة بالإباحة والإلحاد والوثنية وفي مقدمتها دعوة فرويد وماركس ودور كايم وهي التي تهدم أساساً مفهوم الدين الحق، وكان فرويد هو الرجل الذي «أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطيماً كاملاً، ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً»حين أراد أن يصم الجنس البشري كله بأنه جنس متحلل ينطوي على أسوء النوايا وأخس الرغبات»حتى أنه أقام مفهوم الجنس على أن الطفل يعشق أمه ويريد أن يقتل أباه، وكان من نتيجة فكرته ودعوته العمل على تنظيم جماعات من الناس يرونهم أحراراً لايخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نوادى العراة»وقد كانت الماسونية هي الأداة الأولى لإذاعة هذا الفكر الإباحي الوثني، فقد عمدت إلى تلقين الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال وتعليمهم مبادئ تقديس أعضائهم التناسلية. ثم كانت الانطلاقة الكبرى في مجال الفن والأدب: فظهر دعاة الجنس الصارخ والأدب المكشوف: إميل زولا وه. لورنس، وأوسكار وايلد، وبودلير وفولتير انطلاقاً من

دعوة فرويد المضللة التي تقول إن الجنس هو الجذر الأصيل لجميع نشاطاتنا» وظهر ذلك في آثارهم وإنتاجهم.

كذلك اتجهت الدعوة إلى هدم الأسرة بإعلان كراهية الأب وتحقيره في مختلف المواقف التي رسمت له» وكراهية الأخ الأكبر» وإعلان الحرب على الوصاية والتوجيه والأبوة والعلاقة التي تقوم بين الأجيال» ووصفها بأنها صراع الأجيال لالقاء الأجيال، ودعوة الشباب إلى التحرر من كل قيود التوجيه سواء من الآباء أو الأساتذة أو رجال الدين.

وقد عجزت الآداب المسيحية عن معارضة هذا الاتجاه وذلك حين دمر اليهود التعليم الديني وأزعجوا رجال الدين المسيحي بأسلوب القتل والتخويف.

وعملت هذه الآثار الأدبية الحرة على» إفساد المجتمعات والاستهانة بالعفة والحصانة» ودعت إلى شيوعية النساء والتسامح بين الرجال والنساء ما به يطلق كل من الرجل والمرأة حرية الآخر، وانتقلت إلى أفق أشد خطراً بأن قامت العلاقات دون قيد شرعي أو ضبط اجتماعي.

وغلب على المجتمع الغربي صراع نزق، كانت الفلسفات تبريراً له وإثارة للتدافع حوله في معارضة كل الضوابط والحدود التي جاء بها الدين مع السخرية اللاذعة بكل هذه المقومات.

هذه الصورة كلها هي رد فعل التحدي السابق الذي عاشه المجتمع الأوربي والغربي بالكبت والحرمان، وهو ليس مما يتصل من قريب أو بعيد بالمجتمع الإسلامي الذي لم يعرف هذه التحديات.

٦- لايتصور الإسلام المرأة جنساً صرفاً، بل هي إلى ذلك أخت وأم أو عقل وإرادة، ولا يرى في الجنس رجساً بل ينظمه بالزواج، ويرقيه في رسالة التربية وبناء المجتمع، وقد يضعف الإنسان رجلاً كان أو امرأة أمام الجنس المحرم، ولكنه قادر على التماسك والسمو إذا أراد، والشعور الجنسي ليس محرماً حتى قبل الزواج لأنه

سبيل يؤدى إليه، وفي إطار الجنس ذاته لايكون الجنس لوناً واحداً ولا درجة واحدة. نعم إن الشعور الجنسي يشغل من نفس الإنسان مساحة لايشغلها من مساحة الحيوان والنبات والجماد ولكنه يظل متوازناً مع جوانب النفس الإنسانية الأخرى في النفس السليمة ثم إن الجنس وسيلة لا غاية، وسيلة في الذرات المادية للتماسك، ووسيلة في النبات والحيوان لحفظ النوع، أما في الإنسان فهو وسيلة لحفظ النوع وترقيته، فالجنس جزء من ناموس الكون الأكبر ومن أخرجه عن وجهه بالكبت أو الإسراف خرج على هذا الناموس.

وكذلك وضع الإسلام الجانب الجنسي في العلاقة بين المرأة والرجل في موضعه الطبيعي وحجمه الطبيعي بحيث لايطغى على الجوانب الأخرى، متطور إليه من خلال التكامل النفسي والتوازن الفطري، والخطأ في كل القصص تصور لحظة الضعف الإنساني على أنها هي الحياة كلها وبذلك تمجد الرذيلة وتصور المجتمع وكأنه قد سقط كله في هذا الانحراف، وأن الانحراف قد بدأ طبيعياً في كل بيت، وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه ولكنه من دعوة القوى المضللة لهدم المجتمعات.

وقد بلغ الأدب الغربي في هذا الاتجاه المنحرف غايته حتى قالت الكاتبة الأمريكية في مؤتمر برلين: «إن الأدب الغربي مرآة في سقف بيت الدعارة».

وقد عجزت الآداب والفنون في الغرب من أن تحتفظ بطابعها الأخلاقى، وغلب عليها مذهب اللذة والفن للفن، ولما كانت نظريات علم النفس في الجنس وغيره هي عبارة عن محاولات وفروض لم تصل بعد إلى أن تكون حقائق، فإن الخطر يتمثل في أن يحملها الأدب ليرسم على ضوئها صورة مثيرة في ظل دعوة صارخة إلى انفصال الأدب عن الأخلاق وقيامه على التماس وقائع فردية مع الإغراق في المبالغة حولها،وقد كان لهذه الروايات آثارها الخطيرة في نفوس الشباب والشابات من نقل عواطف الأبناء اليافعين إلى تصورات مزعجة مليئة بالأهواء والصراعات التي تقوم بين الرجل والمرأة حول الرغبات الجنسية وهي ليست في حقيقتها من واقع الحياة، وإذا كان فإنها لاتمثل إلا نسبة قليلة جداً من الحياة الطبيعية،حتى ليمكن القول

بأنها لم تكن تمثل ظاهرة واضحة في إبانها.

ولقد تدافعت هذه القصص بالترجمة إلى محيط العالم الإسلامي وإلى مجال النشر في طبعات رخيصة وافرة الانتشار، وصاحبها في الوقت نفسه كتب شعبية لم يكتبها العلماء، ولا الباحثون المتخصصون حول الجنس وعلاقات الرجل والمرأة كتبت بأسلوب هابط وإباحي، وكل هذا وضع في يد الشباب المسلم فكان له أثره الخطير، والواقع أن فتح هذه المجالات أمام الشباب يجب أن يعالج بحكمة وأن يقدم عن طريق العلماء المتخصصين وفي ضوء توجيهات الإسلام، يقول الدكتور زكي شافعي: لابد من حرمان الذين لم ينضجوا عقلاً وعاطفة من الاطلاع على مشاكل العلاقات الجنسية وأسرار الحقائق الجنسية. فالشاب الذي تغطى غريزته الجنسية على عقله تضره الصراحة في المسائل الجنسية أيما ضرر وتؤذيه أبلغ الأذى، وإذا تمادينا في إطلاعه على دخيلة الأمور الجنسية لفتنا باله عن السير في الطريق الطبيعي وشغلنا وقته بما يؤخره في الدرس والتحصيل، ومن هنا خطأ إلحاح الصحف على مسائل الشذوذ الجنسي وآلام الحب، فإن ذلك يلقح عواطف الشباب بسموم خلقية هي شر من المخدرات.

ومن واجبنا أن نوجه الرغبة الجنسية نحو غايات ثلاث:

(١) الحياة الجنسية السليمة عن طريق الزواج.

(٢) تحسين النسل وتربيته.

(٣) علاج الأمراض والالتواء والشذوذ.

والمفروض أن هذه الدراسات يقدمها إخصائيون في علم التناسليات ليكون المدرسون على بينة مما يجب الإفضاء به من الحقائق الجنسية وما يتحتم عليهم تجنبه، ويقوم هؤلاء الأساتذة بوظيفة الحارس الخلقى الذي يحافظ على صيانة الرغبات التناسلية من التلوث،ويوجه برفق غريزة الناشئين من الجنسين.

٧- ولقد عالج الإسلام الغريزة الجنسية والرغبات الحيوية للإنسان بالملطفات

والمبردات وبالإعلاء والتأجيل مع الاعتراف بهذه الرغبات بوصفها جزء من كيان الإنسان لايتخلف، وهو في هذا يعارض المذهب الغربي الذي يعالج الغريزة الجنسية بالإثارة والإشعال عن طريق الأغنية الخليعة والصورة العارية والقصة المكشوفة والكتب الجنسية، فلا يزيدها بذلك إلا ضراماً بما يؤدى إلى هزيمة النفس الإنسانية وفسادها.

وقد وضع الإسلام توجيها خاصاً للتربية الجنسية فدعا إلى اختبار الأم الصالحة والاهتمام بأمر الطفل قبل أن يولد، وأمر بالاستئذان في حالات ثلاثة: قبل طلوع الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، فلا يدخل الطفل المميز على أبويه أو أحد من أهله من غير استئذان في هذه الأوقات.

كذلك دعا الإسلام إلى عدم إظهار زينة المرأة للطفل الذي يفهم ويعقل شيئاً من زينة المرأة وجمالها، ودعا النبي إلى التفرقة بين الأبناء في المضاجع إذا بلغوا سبع سنوات، ودعاهم إلى الصلاة.

«مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع».

إذا سأل الطفل عن الجنس يكون الجواب بالصدق مع استعمال المجاز والكناية والتلميح.

والعلمْ بالجنس يأتي عن طريق السؤال فإذا سأل الشاب أو الفتاة يجابان والإجابة عن طريق أهل الحكمة والتقوى، لا عن طريق صاحب الهوى والغرض.

وقد تناول فقهاء المسلمين أمور التربية الجنسية تناولاً كريماً في إطار الحلال والحرام والأمر والنهي، والإسلام يفهم أن السلوك الجنسي هو تواصل وجداني بين رجل وامرأة في إطار الزواج، ومن هنا فإن كل النظريات التي يقدمها علماء النفس التحليلي على أنها علم ليست سوى تصورات وفروض قد تصلح في بيئاتها وقد تخطئ في بيئات أخرى وهي ليست علمية بالمعنى الحقيقي.

٨- حرم الإسلام الزنا وتحريم الزنا هو تكريم للمرأة وحماية لها من أن يأخذ منها

الرجل ما ليس من حقه، والرجل الذي يمارس الجنس مع المرأة دون أن يرتبط بها رباطاً شرعياً ودون أن يحمل أولادها اسمه، هذا الرجل إنما يحتقر المرأة،ولا ريب أن اكتمال الحرية الشخصية للرجل والمرأة إنما يتم بحق الزواج والطلاق لا بالإباحة الجنسية،فليست الإباحة مرادفة للحرية، وتحريم الزنا في الإسلام لاينبعث من كراهية للجنس، بل من احترام للمرأة وتنزيه لعلاقتها عن العبث، وحتى لاتكون المرأة زينة ومتعة وأداة للرجل، وحتى لاينسب الطفل إلى غير من أنجبه، ولقد عبرت عقوبة الزنا عن احترام عميق للمرأة،وتقدير عميق للجنس، كذلك فإن الإسلام أحل الطلاق حتى لايقيد الرجل والمرأة دون رغبتهما الحقيقية،وحتى يتمكن كل منهما من إعادة التجربة من جديد، وإنقاذ الأسرة من الكراهية والفشل.

والطلاق في الإسلام هو رد اعتبار المرأة المطلقة عندما لم يعد الزواج قائماً على العدل والحق.

٩- إن الدعوة التي يقودها الفكر اليهودي التلمودي المسيطر الآن على الفكر الغربي إنما تحاول أن تدمر النفس الإنسانية عن طريق الجنس،فإنه يبعث الآن عشرات الكتب القديمة،ويقدم دوائر المعارف الجنسية في دعوة صارخة إلى إطلاق الجنس والغريزة إطلاقاً كاملاً مع الادعاء بأن ضبط هذه العواطف من شأنه أن يؤثر في الكيان الإنساني،وحيث تتعالى الصيحات إلى تمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة والكشف عن ما يسمى حقائق الجسد البشري وعلم وظائف الأعضاء البيولوجية، وتجري الدعوة إلى تقديم ذلك للأطفال والمراهقين والشباب على نحو مثير وبالغ الخطر ومن غير تحوط أو تحفظ في قدرة العقول في هذه السن على تلقي هذه المفاهيم على هذا النحو الحر المسرف الذي تطرح به،وذلك بدعوى إحلال نظام جديد فيما يخص العلاقة بين الجنسين قبل الزواج ومدى إباحتها،وفي أثناء الزواج وما يترتب عليه من إجهاض وطلاق وإنجاب، كذلك تجرى الدعوى إلى تدريس مادة الجنس في الجامعات ومن خلال هذه المفاهيم الزائفة أصلاً، والتي ليست سوى فرضيات محرفة، ودون أن يكون للأطباء أو الباحثين الاجتماعيين المخلصين

تدخل ما، ومن شأن هذا أن يعجل بالوصول إلى النتيجة التي تهدف إليها بروتوكولات صهيون وهي تدمير المجتمعات البشرية قبل السيطرة عليها. والهدف واضح وهو إسقاط نظام الزواج وبناء الأسرة ودحر القوة المذخورة متى يستعين بها المجتمع على دعم كيانه، وحتى تخرج الأجيال بعد ذلك مفرقة لاتعرف لها ضابط ما أو جامع ما من فكر أو عقيدة أو قيمة.

ويقول أحد الباحثين إن الصراع الفكري في أوروبا وأمريكا ينحصر في توجيه السلوك الإنساني لا على أساس العقل كما شرحه الفلاسفة، ولكن على أساس الغريزة والانطلاق النفسي وكسر الصلة بين الفلسفة المثالية المسيحية، وبين الفلسفة المادية الوثنية الإباحية والاتجاه بالسلوك الإنساني إلى فلسفة بدائية في جوهرها ومضمونها تمجد الغريزة وتناقض العقل، وهذا أبرز مفاهيم الأدب، والفن، والمدرسة الاجتماعية والتحليل النفسي.

يقول وليم جيمس: إن هذا الخوف والبلبلة النفسية ليست إلا وليدة إنكار الفرد، لغريزته الدينية: حقها ووظيفتها، وتجاهله لأهميتها، والدور الذي تلعبه في السلوك الإنساني، ونفوره من إنمائها ورعايتها.

(١٤)

الوجــــودية

ظهرت الفسلفة الوجودية بعد الحرب العالمية الثانية كرد فعل للآثار الخطيرة التي أحدثتها الحروب في أوربا والنتائج الضخمة التي أصابت الأسر والأمم بفقد زهرة شبابها وخيرة أبنائها، حتى لم يعد بيت في أوروبا بدون قتيل أو جريح، ومن ثم علت الصيحة إلى الفزع من الخطر الذي تفرضه أخطار السياسة وصراع الدول على المجتمعات الآمنة بما يهدد الحياة ويجعل أهلها يعيشون في خطر الحرب الدائم، وقد زاد من هذا الخطر الجديد الذي خلفته القنابل الذرية،كل هذا استجاش النفس الغربية بالدعوة إلي تأكيد الذات وإعلائها والدعوة إلى تحريرها من كل قيود المجتمعات واندفاعها إلى الرغبات تسابق فيها خطر الحرب الماثل، وتشفى غلتها من مطامعها ما دامت لا تضمن الحياة الرخية المستمرة، وما دامت ليست للحياة غاية واضحة إلا هذا المتاع السريع الذي قد يزول في أي لحظة حين تنفجر الحرب وينتقل الملايين من الشباب إلى ساحة الموت.

ذلك هو العامل الحقيقي الذي واجه الفكر الغربي الذي هو بطبيعته فكر يقوم على الحرية والفردية والديمقراطية والرأسمالية، من خلال إيمان بسيادة الرجل الأبيض وسيطرته على مقدرات الشعوب والأمم الضعيفة واعتصار ثرواتها وخيراتها ونقلها إلى هذا المجتمع المترف الحافل بكل أدوات النعيم والمتعة والرخاء. فلما أحس الناس بخطر الحرب تأكل الملايين ثارت في النفوس الرغبة إلي مزيد من الاندفاع نحو الترف والمتعة حيث لاتوجد غاية واضحة للحياة إلا الرفاهية والحرية.

ومن هنا نجد أن انتقال مفاهيم الوجودية إلى أفق المجتمع الإسلامي العربي لاتستطيع أن تجد أسبابها ولا استجاباتها فإن الأمر جد مختلف، ذلك أن الفكر الغربي لم يصل إلى الدعوة الوجودية على النحو الذي ظهر في الحرب العالمية

الثانية إلا بعد أن قطع مراحل كثيرة من التحرر من العقيدة والدين، وإنكار قيود الشرائع الربانية، والسيطرة الظالمة على الأمم الملونة واعتناق فكرة الرجل الأبيض سيد الأرض الذي لايهزم والذي يعلم البشرية ويرقيها ويملك في يديه كل ثرواتها والمتصرف فيها بما يشاء.

كذلك فإن المسلمين والعرب يختلفون مع الغرب فيما يتصوره الغربيون من أخطار الحروب وتحديات الذرة، ذلك لأن الصراع قائم بين طرفيه، فهم يخافون الحرب ويرهبون الموت لأنهم يريدون استئناف حياة رخية مترفة أما المسلمون والعرب فإنهم يواجهون قضايا التحرر والتخلص من الاستعمار والصهيونية ويعدون أنفسهم للمواجهة الدائمة بكل أخطارها،فضلاً عن أن مفاهيمهم الأصلية تجعلهم بمنأى عن الخوف من الموت أو الحرب أو الخطر، فقد صاغهم الإسلام ليكونوا على حذر دائم وعلى تعبئة كاملة في كل وقت لمواجهة أخطار عدوهم وللعمل على نشر رسالتهم وتحقيق إرادة عقيدتهم، فضلاً عن أنهم لايؤمنون بالحياة المترفة الرخية ويرفضونها ويرونها نهايات الأمم وعلامات الفناء القريب.

٢- تركز الوجودية على الفرد والاعتزاز بحقه وهو الكيان الثابت وتقدم وجود الفرد على وجود المجتمع وترى أن الفرد له الحرية التامة في تحديد مكانه في الحياة، فإذا اختار لنفسه فعليه أن يتحمل نتائجه، وهو صاحب الحق في أن يحكم على الأمور بأنها خير أو أنها شر حتى لو كان الحق في نظره شراً في نظر غيره أو في نظر المجتمع.

وترفض الوجودية: قيم الإلزام، والضمير، والفضيلة،والخير،والعدل،والمسئولية، وتقف في أنانية عالية النبرة تقول: لاتنكر وجودك حتى تصير مجرد أداة للآخرين، وتجنح الوجودية إلى الوجدان،وتعلى شأن الحدس،وترفض العقل والحكمة،وتسخر بهما.

ولا ريب أن رفض فكرة الالتزام هي أخطر مقومات الوجودية وأخطر معارضاتها للفطرة الإنسانية وللدين الحق.

وهي في مجموع القيم التي ترفضها إنما ترفض كل ما يضبط الشخصية الإنسانية، ويحميها ويرتفع بها ويقيم لها وجودها الحق، فهي بذلك تدفع الإنسان إلى أهوائه لتدمره، وإلى مطامحه لتحطمه.

فالالتزام هو حق الجماعة، والفضيلة هي حماية الذات من حق غيرها، فإذا رفضت النفس الإنسانية المسئولية فماذا يكون موقعها في المجتمع، وفي الحياة نفسها.

وعلى هذا النحو يصدق قول الباحثين: من أن الوجودية إنما تعنى التحرر من المجتمع ومسئوليته، ومن كل القيم التي جاءت بها الأديان والشرائع، ومن الضوابط التي استقر عليها مفهوم الأخلاق.

ويتصل بهذا المفهوم موقف الوجودية من الزواج والطلاق وحرية الصداقة وإسقاط الدين كله من حساب الحياة والاندفاع إلى الأهواء والرغبات بغير حساب يحسب لشيء ما.

وبذلك تتجاوز الوجودية حدود الحرية وضوابط المجتمع إلى الاعتداء على حقوق الآخرين والعودة بالإنسان إلى عهود الهمجية وشريعة الغاب.

٣- يحاول الباحثون في الفكر الغربي تقسيمه إلى فكرين: فكر مادي. وفكر وجودي؛ أما الفكر المادي فهو الفكر العلماني الذي انبعثت منه المناهج السياسية والاقتصادية سواء الديمقراطية منها أم الماركسية؛ أما الفكر الوجودي فهو الفكر الإنساني المتصل بالوجدان والنفس والحياة، ويرى أتباع الفكر الوجودي أن الفكر المادي صهر الإنسان وحوله إلى ترس في آلة؛ولذلك فهو يبحث عن وجوده ويريد أن يختار موقفه في الحياة وطريقه ويتحمل مسئولية اختياره،ثم يخطو سارتر بالفكر الوجودي خطوة أخرى فيتحرك داخل إطار الفكر المادي،فينكر الإله والبعث والجزاء ثم يتجه مرة أخرى إلى الارتباط بالفكر الماركسي، ثم يأتي مذهب الشخصانية فرع من الفكر الوجودي فيختلف معه.

ونظرتنا نحن أهل الفكر الإسلامي إلي ذلك كله هي نظرة واحدة، فالفكر الغربي

منذ انفصل عن المسيحية ما زال يصارع في سبيل تكوين منهج للحياة ومفهوم للنفس والإنسان وهو ما يزال مضطرباً غاية الاضطراب، متحولاً دائم التحول لايتوقف عن الجري إلى غاية غير واضحة.

قد سيطر الاتجاه المادي على الفكر الغربي في طرفيه الليبرالي والماركسي، وسيطر على الفكر النفسي (فرويد) والفكر المتصل بوجود الإنسان (الوجودية) وسيطرة الاتجاه المادي تعني غلبته الكاملة على الوجهة بحيث لم يعد هناك سبيل للاعتراف بالجانب الديني والروحي الذي يشكل الشق الثاني للتكوين الإنساني والذي يفقد الإنسان بتجاهله وحجبه الضوء الصحيح إلى الطريق الصحيح.

ومن هنا فنحن نرى ثمرة الوجودية واضحة أشد الوضوح في آثارها وإنتاجها وكتاباتها: وهي مزيج من التشاؤم والقلق والاغتراب والخوف من الموت والتمزق والضياع.

ويمكن القول بأن الفلسفة المادية أنشأت الآن فلسفة الجماعة في الماركسية وفلسفة الفرد ممثلة في الوجودية.

ومعنى هذا أن كلا من المذاهب الثلاثة: الماركسية والفرويدية، والوجودية قد انبثق من المذهب المادي واختار فكرة العدمية وإنكار وجود الله أساساً له، وهذه المذاهب ليست إلا إمتداداً للحملات التي بدأت في الفكر الغربي ممثلة في فولتير ونيتشه وكير كجورد وموجهة إلى الدين، وإذا كان ماركس قد افترض أن تفسير التاريخ والإنسان يبدأ من الطعام وأن الفردية جعلت حركة الإنسان منبعثة من الغريزة، فإن الوجودية ترمي إلى كسر جميع القيود والضوابط سواء منها الدينية أو الاجتماعية أو الأخلاقية التي تحيط بالإنسان، حتى يتمكن من تحقيق ذاته منفصلاً عن كل قيد، وفي سبيل هدف الوجودية هذا، ولانفصالها عن الشطر الروحي والديني القائم في أعماق الإنسان وجدت الوجودية أن العالم كله خداع وأن الإنسان موجود بدون سبب وأن العالم يمضي لغير غاية.

ومن حق الوجودية أن تفهم هذا، لأن الإجابة الصحيحة التي تكشف عن هدف وجود الإنسان وغاية العالم إنما تكمن في الدعوة التي وجهتها الأديان إلى الإنسان من خالقه لتفسير ما ليس في استطاعته الوصول إليه دون عون من الوحي والنبوة ورسالة السماء.

فإذا تجرد الإنسان باعتناق الوجودية من هذا الفهم، فإنما تبدو الحياة له وهماً كبيراً وظلاماً كبيراً لأن الغاية الحقيقية التي جاء من أجلها قد أصبحت محجوبة عنه.

وتصدق الوجودية حين ترى أن أزمة العصر هي غربة الإنسان: ونقصد هنا الإنسان الغربي وذلك حين نرى أن التقدم التكنولوجي قد جعل منه ترساً في ماكينة أو قطعة غيار في جهاز، ولكن المسلم ليس كذلك ولا يفهم هذا الفهم؛ لأن دينه علمه مهمته ورسالته وكشف له عن الغاية، وبذلك عرف أن له دوراً وسعياً وحركة واسعة هو مقبل عليها في صدق وإيمان، لأنه يعرف أن من وراء سعيه كسباً حقيقياً وبلوغاً لدرجة أرقى، ومكانة أعظم، ثم إن المسلم يؤمن بأنه له إرادة مسئولة يجزى عليها بالخير أو بالشر في حياة أخرى، وأنه مطالب بأن يخوض معركة الحياة في أخلاقية التقوى والثقة بالله والرحمة بالإنسان ومن هنا يحس أن حياته جزلة وعامرة وحافلة بالضياء والخير.

وهو في سعيه إلى الغاية الربانية وفي توكله على الله واستعانته به لايواجه أبداً أزمة القلق ولا أزمة التشاؤم، ولا يخاف الموت. فالحياة الإسلامية لأنها تعرف أبعاد وجودها ورسالتها وغايتها جميعاً تواجه الحياة مواجهة الطمأنينة والسكنية والعمل الجاد الدائب دون أن تفقد لحظة واحدة وجهتها أو تقع في بيداء اليأس سواء أكانت الحياة يسيرة أو عسيرة، فإن النفس المسلمة ترضى باليسير وإذا جاء العسر جالدته صابرة حتى ينطوي دون أن تحس بالقلق أو الحزن.

وهي تعرف أن مع العسر يسراً وأن الفرج مع الكرب.

٤- ولا ريب أن الوجودية ليست إلا اسماً جديداً لطابع التشاؤم القائم في أعماق الفكر الغربي منذ وقت بعيد، وأن طابعها موجود في كثير من الفلاسفة السابقين غير أن ميزة الصورة الجديدة على يد سارتر هو غلبة الطابع المادي عليها غلبة مطلقة، أما الفكر الغربي فهو مصبوغ منذ يومه الأول بصبغة التشاؤم، هذا التشاؤم الذي ينبعث من عدم الاقتناع العقلي بوراثة البشر جميعاً لما يطلق عليها الخطيئة الأصلية. فقد ساد الغرب طابع الوجدان المتشائم نتيجة هذه القضية، وظهرت آثارها القوية واضحة على مختلف نماذج الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق، ومن خلال هذه الإيدلوجية السوداوية المتشائمة تنتشر على أوسع نطاق في عالم الغرب أفكار عن «لامعقولية الحياة» وعبث الوجود حتى أصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر معارض.

ويرى الباحثون أن (الوجودية) هى أعلى مراتب التشاؤم ويرد البعض ذلك إلى أثر الماكينة التي انقلبت على صاحبها وأصبحت وحشاً مدمراً يحاول أن يقضى على عقله وقلبه ويجعله آلة طيعة له.

ويرى البعض أن الفرويدية والسرياليه كانت نتاج الحرب العالمية الأولى وأن الوجودية والهيبية هي نتاج الحرب العالمية الثانية في طريق واحد.

يقول الدكتور حامد عمار: كانت محنة الحرب العالمية الثانية وما أنشأته من وسائل الدمار والفتك تجربة بشرية قاسية،وفي مثل هذه الظروف كان الجو ملائماً لظهور أفكار الوجوديين وتفسيراتهم التشاؤمية، هذا الوجدان القلق عند الإنسان الذي يشعر بأن الكون سائر نحو العزلة والعدم،وهذا الشعور المرضي الذي يشبه الغثيان على حد تغبير (سارتر) وهذا الذي نعيش فيه عالم هش قابل للانكسار السريع والتحطم المروع.

ما سبيل النجاة من هذه الغاشية التي تحيط بهم، صورة الحياة القاتمة. يقولون: إن الوجود الذاتي هو الشيء الوحيد الذي يملكه الإنسان ومن ثم عليه أن يخلق نفسه بنفسه وأن يختار بنفسه حيث يحيا الإنسان وجوده الحقيقي غير عابئ بل

مجاهد لما يمكن أن يجد في هذا الوجود الذاتي من حدود أو يعترضه من قيود ».

ومعنى هذا أن سارتر والوجودية ترى أنه إزاء هذه الجائحة المجنونة للحرب والموت فإن على الإنسان أن يحطم كل قيود الخلق والاجتماع والدين،وأن ينطلق إلى لذاته وغاياته غير عابئ بشيء، ذلك لأنه لايؤمن للحياة بغاية فمن أجل أي شيء يبقى على شيء.

وهذا حل ساذج أرعن لايؤدي إلا إلى مزيد من تدمير الحياة، وهي صيحة الضعف البشري والقصور الذاتي والعجز عن فهم هدف الحياة ورسالة الإنسان،وهي استجابة للحيرة والقلق بمزيد من الحيرة والقلق وهو دعوة انهزامية للتدمير.

ولا ريب أن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الإنسان أن يتخطاها،وهي كما يقول جال بيرك: ليست روحاً وهي فلسفة عدمية سلبية من ألفها إلى يائها،تود أن تقتل في الإنسان التفكير وتشل القدرة على استعمال العقل والمنطق،وتقول: إذا أردت خلاصاً فاقتل في نفسك العقل والمنطق هذا فضلاً عن إنكار الخلق والدين.

٥- أبرز نتائج الوجودية القلق والتمزق: والخوف من المجهول والرعب.

ولا تقع النفس الإنسانية في هوة القلق والتمزق إلا بنتيجة الصراع بين الروح والمادة وانفصال الإنسان عن اليقين الذي يملأ روحه وعقله بالثقة.

فقد عزلت الوجودية: الإنسان عن كل ركيزة يمكن أن تحميه أو تطامن نفسه أو تملأه بالثقة، هذه الركيزة لاتأتي إلا من مصدر واحد هو الدين، ومن ثم كان إنكار الدين منطلقاً للعدمية التي تفجر كل أنواع القلق والخوف والرعب،فنظرة الإسلام للإنسان هي نظرة التكامل بين رغائبه وأشواقه،بين المادة والروح، ولكن النظرة المادية الخالصة من شأنها أن تخلق طابع التشاؤم والشك الذي يحس معه الإنسان بأنه وحيد وشقي وغريب،وهذا معنى التمزق والضياع، أما حيث يحل في النفس الإيمان بالله فإنما تحل معه الثقة والتفاؤل فالإيمان بالله قوة دافعة تعطى الأمل،وتحول دون اليأس وتبعث الثقة،وتدعو إلى المعاودة في حالة الإخفاق.

ومنذ انعزلت المجتمعات الغربية عن الدين وعجزت عن أن تبحث عن الدين الحق فقد حلت فيها روح اليأس والقلق والتمزق، وعجزت الأيدلوجيات المختلفة عن أن تحقق السعادة.

إن الإنسان الذي صنع من قبضة الطين ونفخة الروح، لايمكن تفريغ كيانه من مضمونه أو النظر إليه على أنه الهيكل البشري الخالي من الروح والوجدان والقلب والبصيرة ومن هنا فقد بدت هذه المفاهيم غريبة عنا وعن مجتمعنا وعن قيمنا كل الغرابه لسبب أنها ثمرة من ثمار تحديات مجتمع معين في ظروف معينة، إن الإنسان الغربي يمر بأزمة خطيرة فهو ضحية الصراع الذي أعلى من شأن المادة وأنكر القيمة الروحية والدينية والأخلاقية.

لا ريب أن القلق النفسي الذي يجتاح الإنسان المعاصر بنتيجة مفهوم الوجودية هو قضاء ماحق للوجود الإنساني الحقيقي.

ولذلك فإن دعوة الوجودية إلى الانطلاق لتحقيق اللذة بحسبان أنها الحل الوحيد، هذا الحل لن يحقق التكامل أو الطمأنينة أو السكينة النفسية، بل سيزيد الإنسان نهماً واضطراباً حتى يصبح ضحية لمطلب نهم ما يكاد يتم إشباعه حتى يعدو الإلحاح على صاحبه (سواء الخمر أو المخدرات أو أي لذة أخرى) فإن الامتلاء الذي تلوح لنا به اللذة لايهيئ الشعور بالطمأنينة أو الإحساس بالسلم وهيهات أن يشبع الامتلاء نهم الإرادة البشرية.

ولا ريب أن الإنسان إذا ما قطع صلته بالله وبالبعث والجزاء فإنه يعيش مرارة اليأس والظلام ومدافعة المصير المحتوم الذي ينتظر الجميع دون جدوى فليست هناك فرجة للحياة، ويرون أنهم أشبه بـ(سيزيف) المسكين بطل قصة (العبث) الذي حكم عليه بأن يحمل صخرة ثقيلة ليصعد بها إلى قمة الجبل وسرعان ما تهوى إلى قرار سحيق فيعيد الكرة. أما المسلم فإن حياته غنية خصبة ثرية مليئة بالثقة والتفاؤل والأمل في الغد وفي البعث وفي الحياة كلها؛لأنه ينطلق من رسالة واضحة إلي هدف محدد، يستهدي فيه الله ربه لإقامة المجتمع الرباني الكريم.

وهكذا تتجدد فلسفة العدم التي عرفتها الفلسفات المادية قبل الإسلام، حيث كان الإنسان يبحث عن الخلود فيصدمه الموت ويحاول أن يتوحد مع ذاته فتسحقه المتناقضات، ولم يكن ثمة أمل إلا في الدين فلما جاء الإسلام كان نصراً ساحقاً للإنسان المعذب على مأساته في كل مكان وزمان، فقد جاء له بالخلود عندما علمه أنه على موعد مع الله وأنه سوف يبعث بعد موته، ليحاسبه على مدى فاعليته في الحياة الدنيا: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ وفهم سارتر زائف وبعيد عن الحقيقة، فلو فهم سارتر (الله) تبارك وتعالى حق الفهم عن طريق الدين الحق لوجد أن الله قد أعطى للإنسان إرادة حرة تجعل له حق التغيير والإضافة، وأنه في ظل هذه الإرادة التي أعطاها له كرم عمله إذا كان خيراً وحقاً ونوه به في الدنيا وجزاه أحسن الجزاء في الآخرة، أما هذا الفهم الذي يصدر عن سارتر فهو إنما يستمده من الأساطير الإغريقية ومن بعض تفسيرات الغرب للدين وهي تفسيرات زائفة، لأن الفكر الغربي فهم العلاقة بين الله والإنسان فهماً غير صحيح تداخلت فيه أخطاء العلاقة بين النبي والله وبين النبي والإنسان، كذلك فإن اعتقاده بنظرية الخطيئة جعله أشد اضطراباً في فهم العلاقة بين الله والإنسان.

وإذا كانت الغاية من الوجودية هي أن يحقق الإنسان وجوده فإن ذلك مقرر في الإسلام في إطاره الطبيعي وضوابطه الأصيلة التي تحمى وجوده وكيانه، وليس للإنسان أن يطلق العنان للذاته ومتعه أو يتمرد على أوضاع المجتمع أو القيم الأخلاقية، لأنه بذلك يكون قد خرج عن رسالته الحقه التي جاء إلي هذه الأرض من أجلها، والوجودية بهذا تكون فلسفة الانحلال والعدم والفوضى التي لم تفهم رسالة الإنسان وحقيقة وجوده في الحياة على النحو الصحيح.

وإذا كانت الماركسية الفرويدية هي رد فعل لمفاهيم التفسيرات الدينية الغربية فإن الوجودية هي أيضاً رد على تحديات الدعوة إلى العزلة والرهبانية والخطيئة، كذلك جاءت الوجودية رد فعل على طغيان المذاهب المادية على عقول الناس.

لقد خدعت كل فلسفة من هؤلاء خدعت الناس بمظهرها ثم تكشف من بعد هدفها حين دعت الماركسية إلى العدل الاجتماعي ثم تبين أنها ترمي إلى هدم الدين والأخلاق، وحين دعت الفرويدية إلى حل العقد النفسية ثم تبين أنها ترمي إلى تدمير المجتمعات، وحين دعت الوجودية إلى كرامة الفرد لتجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بالقنوط والانحلال.

٦- أشار الباحثون إلى أن الوجودية قد قدمت إلى الفكر البشري في العصر الحديث أزمات الغربة والغثيان، والعبث والتمرد واللامعقول.

وأشار كولن ولسن في كتابه اللامنتمي إلى أن الغربة مرض متصل بتصدع الذات أو انشقاقها نتيجة لعدم تواؤمها أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه، وأن التصدع بين الذات والجماعة مشكلة اجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصام عن مجتمعه. وقال إن الرومي القديم برغم حيرته وشكه في سبيل العثور على الحقيقة لم يفقد الإيمان بها، وهو لم ييأس اليأس التام.

أما غريب العصر فهو لايفهم ما يعنيه الناس بالحقيقة فهو إنسان عاجز عن الإيمان بوجودها فالعالم في رأيه عالم مفتقد للحقيقة، عالم زائف قائم على اللامعقول والفوضى، وهما وحدهما في نظره هما الحقيقة ويعتقد كثيرون أن العقل وحده ليس بقادر إذا عمل منفرداً على بلوغ الحقيقة وراء هذا العالم، ومن هنا جاءت الغربة التي هي أزمة الإنسان الذي فقد إيمانه بالله ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص. إنها أزمة العقل المسيطر على الإنسان الذي أضعف مركز الإشعاع العاطفي في الإنسان وهو العقيدة الدينية.

ويقول إنه ليس الإنسان بقادر على أن يجلو عن نفسه ما يعتريه من صدأ أو يغلف إحساسه من سماكة إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي.

ولكن كولن ولسون عندما يصل إلى هذه النقطة الصحيحة يعجز عن الانتقال منها إلى الحل الصحيح وهو التماس الدين الحق، فإنه ما زال يعيش في دعوات

المتصوفة الهنود حيث يدعو إلى تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفي أما المسلمون فيعرفون الطريق الصحيح، وهو الإيمان بالله والتماس رحمته، فليس للإنسان في حالة الغربة أو التمزق أو الخوف إلا ملجأ واحد وسناد واحد هو الله، وبالالتجاء إليه يجد الإنسان السلام والأمن والسكينة، ولكن هذا الطريق ما زال بعيداً عن أصحاب الأزمة فهم لايرونه، إن الإسلام يدعو إلى أسلوب أشد عمقاً من الرؤيا والكشف: هو النظر في ملكوت السماء والأرض ذاكراً عظمة صنع الله وجلال قدرته وهذه وحدها هي القوة التي تملأ النفس باليقين، وتحقق الوحدة بين الإنسان والوجود.

أما تلك النظريات المهومة التي تتحرك من فراغ، ولا تجرى في دائرة التوحيد والإيمان بالله والتماس منهجه في الحياة والعبادة، فإنها لاتصل بالإنسان إلا إلا مزيد من القلق والاضطراب لأنها لم تجد طريقها الصحيح.

وكل ما نستطيع أن نصل إليه مما أورده الباحثون أمثال كولن ولسن وغيره إلى أن أزمة الغربة هي أزمة فقدان الإيمان، وأن هذه الأزمة يظل صاحبها على حال من القلق والتململ والعذاب حتى يعود إلي منطقة الإيمان.

ولقد أصبحت هذه الحقيقة معروفة الآن في الغرب، ولكن السبيل إلى تحقيقها مازال غامضاً ومغلقاً .لأن الغرب لايجد فيما بين يديه ما يدله على ذلك الطريق الذي هدى الله إليه المسلمين وكل من حاول أن يهتدي برسالة القرآن.

والعقيدة الدينية هي المفقود الأول وهي البلسم الأخير ولكن على صورة بعيدة عن تشوهات الفلسفة والمنطق، وأهواء النفس المتداخلة إلي الحقائق.

إن الفكر العقلى المجرد كما يقول ولسون لايحل أزمة الغريب، هذا حق، وأن العاطفة الدينية هي التي تستطيع أن تحل أزمته وهذا حق، ولكن كيف السبيل إلى هذه العاطفة إلا بإيمان صادق راسخ بالله رب العالمين خالق كل شيء، وخالق الإنسان، وواهب الحياة.

ويدعو كولن ولسن إلى حلول جزئية فيقول إن تحرير الإنسان يجب أن يبدأ أولاً

بتحريره من فكرة الخطيئة الأولى التي تسيطر على الإنسان الغربي والتي تقف حائلاً بينه وبين رؤية الحقيقة.

ويقول إن هذا الجزء من الحرية الكاملة التي يعطيها الدين الحق للإنسان، والتي تجعله يؤمن أولاً بأن لوجوده رسالة وغاية وهدفاً وأمانة ومسئولية وأن الحياة ليست عبثاً وليست لعبة وليست صدفة بحال.

فالإيمان بالله الواحد الخالق المدبر الذي إليه يرجع الأمر كله هو المصدر الوحيد للأمن والسكينة، وسوف تفشل كل هذه المحاولات الجزئية أو الحلول التي تستمد مصادرها من فلسفات باطنية أو هندية.

على الإنسان الحديث أن يسلم وجهه لله أولاً ويعتقد بأنه الخالق وبأنه صاحب الإرادة العليا وأنه خلق الإنسان لغاية، ورسم له نهجاً فإذا ما التمس الإنسان غايته ونهجه، طابت نفسه واستقرت، وبدت الحياه تأخذ طابعها المستقر المليء بالطمأنينة والسكينة، وما دام الإنسان الحديث مصراً على أنه سيد نفسه، وأنه القادر على إدارة الحياة هازئاً بكل قوة عليا ساخراً من الوصاية والمنهج الرباني فإنه سوف يلقى هذا الألم الذي يسحق نفسه سحقاً دون أن يقر له قرار.

٧- إن أخطر ما تقدمه الوجودية للإنسان المعاصر هو إنكار كل محصول البشرية من التجارب والقيم، فهي لاتأبه به بل تنادي بضرورة تجاهله وأن يبدأ الإنسان من جديد كالإنسان البدائي فضلاً عن احتقار الوجودية للعلم وإنكار قيمته، ولعل أسوأ ما يتعارض مع طبيعة الحياة ومع فطرة الإنسان شجبها للدين وإنكار الوجود الإلهي حيث لاتجد لها أي قاعدة تلتقى مع حقيقة الإنسان ووجوده وذاته.

ثم هي تجعل الفرد منعزلاً عن الوجود العام لاجزءاً منه، أما الأخلاق الوجودية فهي الأخلاق المرضية القائمة على القلق والقنوط والتشاؤم والرغبة في الموت والغموض والأنانية المفرطة.

ويرد الباحثون ذلك كله إلى عجز الفكر الديني الغربي عن أن يقدم ترضية

كافية إلى مطالب العقلب الذي يتوق إلى فهم كل شيء، حيث تصطدم بعض هذه المفاهيم مع العقل الذي لم يكن معداً لقبولها.

كذلك فإن العلم قد سقط بجميع وسائل البحث والدراسة إزاء الأسئلة المطروحة في وجهه، وعندما سقط العلم عن إرضاء النفس البشرية جاءت الوجودية لتعترف بعجز الإنسان عن فهم الحياة ومعقوليتها فساقت الناس مرة أخرى إلى تعمق الشك والقلق وتأكيده.

ومعنى هذا أن الوجودية ليست حلاً وإنما هي اعتراف باليأس وتعبير عن الفراغ الروحي المخيف: وقد جاء ذلك نتيجة أمرين:

(١) الانفصام بين الروح والمادة.

(٢) والانشطار بين الدنيا والآخرة.

هذا اليأس والتمزق النفسي إنما ولدهما الخواء الروحي والكسل الذي تعانيه الحضارة المعاصرة نتيحة الإسراف في الرفاهية والترف، حيث لاتعرف المجتمعات الآن غير اللذات المسرفة والمفاسد والخمر والسموم.

وليس هذا في تقدير العارفين بسنن الله في الكون والمجتمعات بغريب، فإن الإنسان حين يخرج عن طريق الله وعن منهج الله فإنه يورث الحيرة والقلق التي تجعله يقتل نفسه حياً، ولقد حاول إنسان العصر أن ينحي عنه كل ما هو رباني فلا ينظر فيه اعتماداً على العقل والعلم فلم تحقق جولته خلال هذه القرون إلا مزيداً من الخسارة، وهو الآن في كبريائه عاجز عن أن يعود إلى الدين بعد أن هجره، ولذلك فإنه يعود إلى فلسفات الهنود والبوذية وغيرها متخطياً الإسلام الذي يقف شامخاً كالمنار أمام حيرة الإنسان المعاصر وتمتد حيرته دون أن يجد منقذاً إلا في كلمة الدين الحق.

أما الذين تزدهيهم الوجودية ويعجبون بها فإنهم ينساقون وراء أهوائها فحسب، حيث يرون فلسفة تبرر الانحراف بدعوى القيم، وتعفى الإنسان من القيم الأصيلة

وتطلق له عنان الأنانية؛ وليس الإنسان منطلقاً في الحركة في هذه الحياة على النحو الذي يريده لأهوائه ورغباته.

وإنما لابد أن تتم هذه الحركة داخل إطار من الدين ومن ضوابط الأخلاق ومن الحدود التي تحمى الشخصية الإنسانية نفسها، والتي تجعل الإنسان أهلاً لتحقيق إرادة الله في الأرض؛ قوياً عاقلاً قادراً على الحركة والمقاومة والعطاء. أما الإنسان المنحل المنحرف المدمر الذي حطمته الأهواء فهو ليس الإنسان المكلف الملتزم بإرادة الله ومنهجه.

وفي كل ما تعرضه الوجودية لانجد أكثر حكمة وتوسطاً من الإسلام حيث لاتتصارع فيه إرادة الإنسان سواء في علاقته مع نفسه أو مع غيره، والإنسان في الإسلام ليس هو الموجود الذي ينبع منه كل شيء، بل هو جزء من الكون متوازن مع كل القوى نفسياً واجتماعياً واقتصادياً على أساس الاعتدال، والإنسان في الإسلام يعتمد على العقل تحده قوة الإيمان، فلا صراع عنده بين المادة والروح؛ أو الجسد والعقل.

"ويعالج الإسلام قضايا الإنسان معالجة متوازنة (فكرية ونفسية) دونما طغيان لقيمة على قيمة، أو تراجع لقيمة أمام أخرى، ولقد جاء الإسلام كنصر ساحق للإنسان على آلامه وكثورة نفسية عظمى حققت له توحده الذاتي، وشيدت أمامه أروع أمل في الخلود المطلق في النعيم".

ولكن الإنسان هو الذي ترك هذا الأسلوب الرباني الذي جاءت به الأديان: وحاول أن يحل مشاكله بنفسه فاضطرب وعجز، وبدا ذلك في معالجات الفلسفة اليونانية، والفلسفة الشرقية الغنوصية والفلسفة المثالية والفلسفة المادية الحديثتين، لأن الإنسان لايعرف حقيقة جوهره أما الإسلام فإنه يعرف أن عنصر التوازن أصيل في الإنسان، وأنه لابد من التقاء الفكر والنفس والروح والمادة والدنيا والآخرة في أي فهم لدراسة الإنسان وفهم نفسيته وذاته.

(١٥)
الأخـــلاق

الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق، فالعقيدة: هي الصلة بين الإنسان وربه، والشريعة: هي الرابطة بين الإنسان ومجتمعه، والأخلاق هي: الطابع الذي يطبع العلاقات والروابط كلها بطابع الالتزام، فالإنسان في الحياة مكلف وله أمانة ورسالة وله حرية الإرادة التي تحكم عمله وتكون مناط الجزاء، ومنها كان الالتزام الأخلاقي هو أبرز معالم المسئولية الفردية، وهو التزام من الإنسان في مواجهة البشرية كلها.

والأخلاق في الإسلام تقوم على قاعدة {التقوى} بمعنى الاتقاء والامتناع عن كل ما حرمه الله، فالتقوى هي السلوك المقابل للفجور والإباحية، والتقوى صفة عامة لكل أعمال الإنسان في مختلف المجالات، فهي دعوة إلى العمل مع ضبط الموازين وليست دعوة إلى العزلة والنسك والانفصال عن المجتمعات وهي عمل بناء ومفهوم بالغ الإيجابية والقوة.

والإسلام يربط بين العقيدة والأخلاق فهما حقيقتان لاتنفصلان، والقرآن أصل الأخلاق الإسلامية، وليس في الإسلام انفصال بين الكلمة والسلوك العملي، والصلة بين العقيدة والأخلاق عميقة جداً حتى أنها لتبلغ حد التوحد بينهما، فالعقيدة وسيلة لتكوين الخلق، والأخلاق مستمدة من العقيدة، ولا غنى لصاحب الأخلاق عن عقيدة تسمو على مطالب الحياة الدنيا.

وفي ربط الإسلام العقيدة والأخلاق مفهوم مميز وواضح الاختلاف عن النظرية القائلة بأن الأخلاق تختلف عن الدين أو يمكن أن تنفصل عن الدين وتنمو بمفردها. أو القول بأن غير المتدين يمكن أن يكون أخلاقياً وكذلك فهو دحض للنظرية التي حاولت أن تقول بأن الأمم ليست في حاجة إلى الدين ولكنها في حاجة إلى الأخلاق.

٢- والأخلاق في الإسلام طابع يطبع كل جوانب الحياة والفكر له سلطانه وأثره

في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والآدب والقانون - وأخلاق الإسلام ليست «مثالية» بمعنى أنها نظرية فوق التطبيق، فالأخلاق في الإسلام منهاج عملي وليست نظرية وهي تقوم على مبدأي الالتزام والجزاء الأخروى، وتستمد وجودها من حرية الإنسان وإرادته في الاختيار وتحمل المسئولية فالفرد مسؤول عن عمله.

وتتسم الأخلاق الإسلامية بسمة الثبات، وثبات الأخلاق من ثبات القيم العليا التي قدمها الإسلام في إطارات واسعة ولم يسمح بتجاوزها، وإن أتاح لها فرصة الحركة في ظل الضوابط والحدود التي جاءت سمحة يسيرة، بتقرير عامل الزمن ومراعاة الظرف والوسع والطاقة والتوبة.

وهنا تتمثل وسطية الإسلام وواقعيته في ارتباط المطلق بالنسبي،والمثالي بالواقعي.

ومن نقطة ثبات الأخلاق يتبين الفارق بين الأخلاق والتقاليد، فالأخلاق ثابتة لأنها جزء من الدين الموحي به وهي بذلك شطر كيان متكامل رباني المصدر إنساني الهدف، أما التقاليد فهي وسائل عارضة - من صنع المجتمعات لامن روح الدين تختلف وتتغير باختلاف الزمن والبيئة، ولما كان بعض الباحثين تنطلق نظرته من الفلسفة المادية التي لاتؤمن بالوحي والنبوة فإنه يشتبه عليه الفارق الدقيق بين الأخلاق التي هي جزء من الدين والتقاليد التي هي من صنع البشر، ومن الحق أن تتغير التقاليد كلما فسدت، ولكن ليس في الإمكان تغير الأخلاق، وذلك لأن القيم الأخلاقية إنما تقوم على أسس ثابتة: كالحق والعدل والخير وهذه القيم لها مفاهيمها التي عرفت بها منذ جاءت الأديان وما تزال وستظل.

كذلك يبدو ثبات القيم في الحلال والحرام والخير والشر والحق والباطل، ويتجلى ثبات القيم في العلاقة بين الرجل والمرأة وبين الأسرة والأبناء، ويخضع لقانون الثبات الإنسان نفسه في طبيعته وتدرجه من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة، ومن ثبات القيم: ثبات حقيقة الموت.

٣- ربط الإسلام بين مفهوم الأخلاق وبين التطبيق العلمي ورسم للناس قواعد العمل الصالح التي ينبغى أن يسيروا عليها استمداداً من القرآن والسنة.

فالقرآن يتضمن القواعد العملية التي تتناول أغلب أحوال الناس في معاشهم وفي صلاتهم بغيرهم من الناس وفي معاملاتهم بعضهم لبعض وغاية الأخلاق: الاستقامة على ما أمر الله به، وتغليب الفرد لحاجة الناس على حاجته بالإيثار فإذا تعارضت المصلحتان ضحى الفرد بنفسه في سبيل - الجماعة والتوسط والاعتدال في الإنفاق - وفي ممارسة الحلال دون إفراط أو تفريط.

ومن شأن الأخلاق أن تغير موروث الإنسان وأثر بيئته، وأن تمكنه بالإرادة والعزم والتقوى أن يتحول عن الطمع والبخل والشح والكبر والإسراف إلى السماحة والعطاء والتواضع والبذل والرحمة.

فكل موروث في نظر الإسلام يمكن تغييره ولا تستطيع البيئة أو الوراثة أن تفرض على الإنسان ما يجعله مجبوراً أو أسيراً لخطأ أو فساد، ذلك أن الإنسان سوف يحاسب على عمله ولن تكون آثار البيئة والوراثة شافعاً له عن الانحراف، والإنسان في إطار العقيدة قادر على تغيير أخلاقه والتحول إلى الأسمى والأعلى فمن شأن دين الله أن يرتفع بالإنسان ويسمو به ويغيره ويحوله خلقاً جديداً وتلك مهمة الأخلاق الإسلامية ومن الخطأ القول بأن الإنسان يولد وتولد معه أخلاقه، ذلك أن الإنسان بالإسلام قادر على التحول إلى الأحسن بإرادته الحرة وخشيته لله ورغبته في حسن الجزاء، ومن شأن التربية الإسلامية والقدوة والإيمان أن تحدث هذا التحول.

٤- الالتزام هو دعامة الأخلاق الكبرى، وزوال فكرة الالتزام يقضى على جوهر الغاية التي تحققها الأخلاق فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة العدالة.

يفسر القرآن مصدر الإلزام الخلقى على هذا النحو: أن النفس الإنسانية قد عرفت

في تكوينها الأول معنى الخير والشر ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فالإنسان كما ألهم طبيعة الخلق فعرف طريقي الفضيلة والرزيلة ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ومن شأن الطبيعة الإنسانية أن تندفع نحو الشر ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ ولكن الإنسان قادر على أن يكبح جماح شهواته، وفي مقدور كل إنسان أن يغالب نفسه فيغلبها، وهناك من يتيسر لهم ذلك وهناك من يجدون مشقة فيه ولكن هناك عنصر هام هو عون الله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فمن تصبر صبره الله ومن قاوم أعانه الله.

ومعنى هذا أن في الإنسان قوة كامنة تهيئ له النصح والتوجيه، وتضيء له الطريق، وتحدد ما يجب عمله وما يجب تحاشيه، هذه القوى تنمو بالإيمان والتقوى حتى تصبح قادرة على أن ترد الإنسان عن الشر والباطل والظلم، هذه القوى هي العقل الذي هو مناط التكليف في الإنسان والسلطة الشرعية الوحيدة فإذا فقد الإنسان العقل أصبح غير مكلف وغير مسئول.

ولذلك فالإسلام يدعونا إلى تزكية النفس ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ حتى نستطيع أن نواجه الخطر ونتجاوزه، والأمر يتوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله إيانا وتنمية هذه القوى وتزكيتها والقرآن يدعونا بعد إيقاظ قوانا العقلية إلى إيقاظ مشاعرنا النبيلة بشرط أن تعمل تحت رقابة العقل، وهو يدعونا لأن نزن الأمور بميزانها الصحيح قبل أن نحكم على قيمتها ومن المشاعر النبيلة التي يثيرها القرآن: مشاعر الأخوة واحترام الكرامة الإنسانية.

وهذا الالتزام هو أخطر ما في المفهوم الأخلاقي كله وهو ما تفتقده النظريات الأخلاقية الغربية، وقد أشار كثيرمن الباحثين الأوربيين إلى هذا النقص حيث لايمكن قيام أخلاق بلا إلزام ولا جزاء، ومن هنا فإن ماجاء به القرآن في مجال الأخلاق - كما يقول دكتور محمد عبد الله دراز - ذو قيمة عظيمة ليس بالنسبة للحياة العملية للمسلمين أنفسهم فحسب بل بالنسبة لأبناء البشر جميعاً وهو يكمل النقص في تاريخ المذاهب الأخلاقية ويترتب على الالزام: المسئولية والجزاء فلا إلزام

بغير مسئولية وقد حمل الإنسان أمانة المسئولية غير أنه ليس في الإلزام عنف أو قسوة، بل فيه سماحة الإسلام بالتيسير والاستثناء في حالة الضرورة: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فالإسلام يجعل من الاستطاعة حد الإمكان ويفسح الطريق إلي مراجعة الخطأ ﴿ ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ فالإنسان في حالة الشك له أن يعود إلى قلبه وأن يستوحي منه الجواب، والحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن شأن المسلم أن يدع ما يريبه إلي ما لا يريبه فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة وله أن يستفتى قلبه وأن يستفتى نفسه فإن البر ما اطمأنت له النفس واطمأن إليه القلب وأن الإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وكرهت أن يراه الناس.

وتلك هي التربية الحقيقية للضمير ولذلك الوازع القائم في الأعماق والمؤثر الواضح الذي يهدى إلى الطريق المستقيم.

والإنسان مدعو أن يفعل بالناس ما يريد أن يفعله الناس له، ومن هنا يبدو السبيل أمام المسلم واضحاً جلياً.

وميزة الالتزام الأخلاقي أنه عام وشامل وأنه حق على الناس جميعاً، القريب والبعيد، الغني والفقير، والصديق والعدو، وتلك ميزة شمول الإسلام وتساوي الناس جميعاً أمام شرعته.

كذلك فإن الالتزام الأخلاقى يفرض حرية الاختيار بدون إكراه أو إجبار، فهو يترك لنا العمل به أو تجاوزه ﴿ لاإكراه في الدين ﴾ ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ فنحن أحرار أمام مسئوليتنا الفردية.

وليس هناك تكليف مع عدم الاستطاعة.

﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ .

ولذلك فإن حالات النفس التي لاتخضع للإرادة لاتكون موضع إلزام فإن أمور

الحب والكراهية والرغبة والرهبة تحتاج معها إلى الإنصاف من النفس حتى لايقع صاحبه في أسر متابعة هواه، وعلى المسلم أن لاينقاد إلى الغضب، وعليه أن يقاوم كل ما يحول بينه وبين سلامة التصرف.

وعلينا أن نعلم أن زوال فكرة الإلزام يقضى على الغاية التي تهدف الأخلاق إلى تحقيقها لأن انعدام الإلزام يقضى على المسئولية فإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة أسس العدالة.

٦- أن مفهوم التقوى يهدف إلى الاتقاء والامتناع عن كل ما حرمه الله، وهو يحمل معنى الكظم مصدر من مصادر المرض النفسي أو الجنون كما تدعى بعض الفلسفات، ولكنه سر قوة النفس وقدرتها على قبول حدود الله وعدم تجاوزها، ولقد كانت التقوى سر تقدم المسلمين وازدهار حضارتهم، حتى إذا تراخي استمساكهم بها كان ذلك مصدر ضعفهم وتخلفهم.

والتقوى ثمرة تربية الإرادة بحيث يصبح الإنسان قادراً على القيام بالتكاليف والعزائم، ولا ريب أن في النفس الإنسانية قدرة على احتمال الشدائد ومرونة على تحمل التكاليف، وأن نمو ذلك من شأنه أن يحول بين عبودية الإنسان وسقوطه وانحرافه، والإرادة هي الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان وهي ميزان ضبط الرغائب، والسمو بها.

٧- إن الفرق بين مفهوم الأخلاق في الإسلام ومفهوم الأخلاق في الفكر الغربي يرجع إلى نقطة واحدة أساسية: هي الاعتراف بالدين المنزل من عند الله على أنبيائه بالوحي للبشرية بالتزاماته وضوابطه ومفاهيمه، أو إنكار الدين جملة.

ولربما كان لتفسيرات الدين التي واجهت الفكر الغربي أثرها في موقفه من الدين جملة، هذا الموقف الذي نقل إلى أفق الفكر الإسلامي في غير موضع أو مشابهة ذلك لأن الإسلام في هذا الأمر كما في غيره من الأمور يختلف تماماً، ولو قدر للغرب أن ينظر إلى الإسلام نظرة بريئة من التعصب أو الخطأ لوجد شيئاً آخر، غير

ما وجد بين يديه من تفسيرات عن الدين قصرت أو اضطربت أمام نهضة العلم وحرية الفكر، أما في الإسلام فإن الدين جزء من منهج الحياة والأخلاق شريحة من شرائع الدين وشرعة من شرائعه تقوم به وتستمد منه ولا تنفصل عنه وهي من الأصول الثابتة التي لاتتغير بتغير الزمان أو المكان وهي من هذه الجهة تختلف عن العادات والتقاليد المتغيرة التي هي من صنع المجتمع نفسه والتي يجب الفصل بينها وبين الأخلاق لأنها حين تفسد أو تجمد تكون مضادة لقيم الإسلام الثابتة ومعارضة لها.

ولما كان الإسلام وهوالدين الحق الذي قام على دعائم العقيدة والشريعة والأخلاق دون فصل بينها، قد أقام منهجاً أخلاقياً لبناء الإنسان فإنه قد عمد إلى «إحكام» هذا المنهج على النحو الذي جعله مرناً واسع الأفق قابلاً لضرورات التغير والتحول والتطور التي تتأثر بها المجتمعات، ولم يجعله جامداً أو مناهضاً للطبيعة البشرية أو معارضاً للفطرة الإنسانية غير أنه في كل الأحوال ربط هذا المنهج بالإنسان فجعل له طابع «الثبات» ولم يربطه بالعصور والبيئات حتى لايتحول مع الأهواء فتتصدع قوائمه إزاء الأحداث.

وعلى هذا النحو اختلفت الأخلاق في الإسلام عن الأخلاق المسيحية وعن الأخلاق اليونانية اختلافاً أساسياً، وأبرز ما هنالك أن الأخلاق قبل الإسلام كانت تمثل جانباً من النشاط العقلي موضع الجدال والنقاش، أما الإسلام فقد صيرها منهجاً عملياً غايته التعاون في الحياة وحسن المعاملة واحترام القيم الإنسانية، ولقد حاولت الفلسفة الإسلامية في عصر النقل أن تجمع آراء سقراط وأفلاطون وأرسطو، وظهرت كتب تبحث في الأخلاق على الطريقة اليونانية أمثال (تهذيب الأخلاق لمسكويه ولكن هذه الكتب لم تؤثر في حياة المسلمين وإن اهتم بها المستشرقون وحاولوا أن يلتمسوا منها تبعية الأخلاق الإسلامية للفلسفة اليونانية. وأبرز وجوه الخلاف التي غابت عنها: أن أخلاق اليونان أخلاق سعادة ومتاع وأن أخلاق الإسلام أخلاق تقوى ودين.

ولقد كان واضحاً أن الفكر الإسلامي لم يلتزم بالنظريات الأخلاقية السابقة له، سواء بالنسبة للسعادة كغاية أو للزهادة كأسلوب، ولكنه أقام مذهبه الأخلاقي من القرآن الكريم على أساس الإرادة والمسئولية والجزاء ووجهته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطهير النفس، فالإسلام لم ينه عن الدنيا ولم يطالب بالابتعاد عنها ولم يدع إلى عبادتها والاندفاع وراء ملذاتها وشهواتها، ولكنه أقام منهجاً منضبطاً مستمداً من الفطرة دافعاً الإنسان إلى البذل والعطاء وإيثار الجماعة.

ولقد كان سلوك النبي ﷺ هو النموذج الأمثل للأخلاق الإسلامية والتطبيق الفعلى للمنهج القرآني في الأخلاق.

وفي العصر الحديث ما يزال الفرق واسعاً بين مفهوم الأخلاق الإسلامية والأخلاق في الفكر الغربي على اختلاف نزعاته: مثالية ومادية ووجودية.

فهي ليست السعادة عند أرسطو ولا الواجب عند كانط، ولا المنفعة عند جيمس، وليست هي تغير الأخلاق بتغير الأوضاع والأزمنة عند ليفي بريل.

ذلك أن الإسلام قد سلك إلى النفس الإنسانية مسلكاً مختلفاً عن مسلك الفلسفة، هو مسلك الفطرة وقد دعا إلى تربية الإرادة كوسيلة لتغيير أخلاق الإنسان الموروثة والمستمدة من البيئة. وليس من شأن المسلم أن يخضع لأخلاق المجتمع إذا فسدت ولكن عليه أن يكون قادراً على أن يلتمس المثل الأعلى الذي رسمته له عقيدته.

ومن هنا فالإسلام لايقر ما تقول به المدرسة الاجتماعية من أن الإنسان الذي يعيش في مجتمع معين لابد أن يعكس المبادئ الأخلاقية والعادات السائدة في مجتمعه، وهذا يعنى جدية السلوك وهو من أخطاء المدرسة الاجتماعية التي يعرف الباحثون علتها وغايتها فهي لاتدعو إلى منهج سام أو مثل أعلى أو خلق رفيع ولكنه تصور الواقع القائم وتدعو إلى الاستسلام له، أما الإسلام فيدعو النفس الإنسانية إلى مجاهدة واقعه إذا كان معارضاً للمفهوم الأخلاقى، بحيث يصلح

الإنسان وضعه ويدعو الناس إلى ذلك بالحكمة فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن أساسي في بناء الجماعة.

والإنسان في تقدير الدارسين هو الكائن الوحيد الذي "ينزع بمحض إرادته إلى مجاهدة ميوله ورغباته وضبط دوافعه ونزواته والتحكم في أهوائه والانصراف في كثير من الحالات عما يحبه ويشتهيه والنفور من واقعه من التطلع إلى ما ينبغي أن يكون".

أما محاولة هدم "ثبات الأخلاق" كما يدعو إلي ذلك دور كايم ومدرسة العلوم الاجتماعية لإقامة التطور المطلق فهي عودة بالإنسان إلى الوثنية.

وليس هناك ما يحول دون التقدم الحضاري مع التمسك بالقيم الأخلاقية ولا ريب أن محاولة جعل التطور قانوناً أخلاقياً أمر يتنافى مع الفطرة ومع العلم ومع واقع التاريخ فليس كل طور جديد أفضل من الطور الذي سبقه على الإطلاق. وإنما تتراوح العصور بين التقدم والتأخر وبين الإيجابية والسلبية فلا يكون كل تطور تقدماً.

٨- إن إنكار الدين بوصفه مصدر الأخلاق يحمل على وصف الأخلاق بأنها عادات صنعها المجتمع، ومن هنا يصعب التمييز بين الأخلاق التي مصدرها الدين والعادات، والتقاليد التي مصدرها المجتمع، وبين الأخلاق التي تقوم على أساس الثبات والعادات التي تقوم على أساس التغيير.

والواضح الآن والمسلم به أن المدنية الحديثة لم تتمكن من الموازنه بين القوة والأخلاق، فقد ظل العلم في ارتقاء بينما تأخرت الأخلاق حتى بعدت المسافة بينهما، وقد جاء الخطأ من العجز عن فهم الإنسان والجنس البشري الذي توجد بينه صفات نفسية وخلقية عامة، وأن الاختلاف بالزيادة أو النقصان لايكون إلا في الصفات العرضية أما الصفات الجوهرية للأفراد فإنها ثابتة، وكل وقائع التاريخ والنظريات المؤيدة بالتجربة تعارض القول بأن الطبيعة البشرية تعجز عن أن تحتفظ

بقيمها وضوابطها مع تغير الزمان والمكان. لقد انبثقت الأخلاق عن عنصر ثابت هو الكيان الإنساني ذاته وليس من المجتمعات المتغيرة، وكما ينحرف الإنسان عن العقيدة السليمة، فكذلك ينحرف عن الأخلاق، والانحراف يحدث عن الأساس الثابت حين تفسد الفطرة ومن مزايا الإنسان القدرة على الضبط والإرادة وحرية الاختيار بين الدوافع وعدم الخضوع المطلق لدافع الغريزة، تلك ميزته التي ميزته عن الحيوان فإذا استخدمها فهو إنسان فاضل ذو أخلاق والدين يدعوه إلى امتلاك هذه القوى والمحافظة عليها وعدم الاستسلام أمام المغريات التي قد تدمر كيانه وتفسد وجوده، أما الفلسفة المادية الحديثة فهي تدعوه إلى الاستسلام والتراخي وتفرض عليه الجبرية فيسقط ويحاول أن يبرر سقوطه بالقول بأن لكل عصر نظاماً أخلاقياً.

٩- يقرر الإسلام ثبات الأخلاق وثبات ميزان القيم إيماناً بأن القيم الخلقية فطرية وثابتة ومن هذه القيم الأخلاقية الثابتة: استنكار جملة أشياء منها: الغضب، والإضرار بالغير، والزنا والإفساد في الأرض، ولن تتغير هذه النظرة يوماً فيقر الناس الغضب أو الزنا أو الإضرار بالغير، فالحقائق الأخلاقية (من خير وشر وحق وباطل وعدل وظلم) حقائق مطلقة، فإذا وصفت بالتطور أصبحت مجموعة من المبادئ النسبية التي يمكن أن تتطور وتتطور إلى ما لا نهاية.

وفي ضوء الإسلام لايكون صحيحاً قيام أخلاق مستقلة عن الدين أو قيام نحل أخلاقية ليست لها عقيدة توحيد (كالبوذية وغيرها).

كذلك فإن العودة بالأخلاق إلى المصلحة العامة يجعلها نسبية لأن المصلحة العامة غير محدودة. كما أنها ليست خالية من الهوى العام كذلك فإن اللذة والمنفعة لاتصلح أساساً للأخلاق.

والربط بين الأخلاق وبين الضمير أمر يحتاج إلي مراجعة ونظر فالضمير ليس إلا جهازاً يتكون ويتشكل حسبما تكون البيئة ومفاهيمها، وهو يتكيف حسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط فهو إذن مقياس خاطئ للأخلاق. أما الوازع الديني الذي يشكله الإيمان فهو شيء آخر غير الضمير.

١٠- إن نظرية الغرب لعلائق الأخلاق بالحياة قد حجب عنها حقائق كثيرة: خاصة فيما يتصل بعلاقة الأخلاق بالعلم فقد غاب عن الغرب أن العلم والأخلاق وجهان متلازمان بالضرورة للبناء الحضاري، لأن العلم بلا أخلاق تحويل لقدرة الإنسان نحو الشر والباطل، والأخلاق بلا علم تحويل لقدرة الإنسان إلى سراب حضاري قائم على الفقر والعجز.

والعلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم كما يصلح للبناء ولا بد لكي يتم استعماله استعمالاً صحيحاً أن يتم ذلك في إطار الأخلاق، ولقد كان يقال إن تقدم العلم هو تطور إلى الأمام يضمن ارتقاء الأخلاق، ولكن التجربة كشفت عن عكس ذلك، فقد وسعت منتجات العلم دائرة اللذات والشهوات وفتحت أمام الغرائز أبواب المتعة، وجاءت الفلسفة المادية فبررت ذلك كله وأعانت عليه، وعادت فلسفات اليونان القديمة إلى الحياة وخاصة الإباحية الأخلاقية والدعوة إلى الانهماك في اللذات الجسمية بأنواعها وأن الإنسان يجب أن يغمض الطرف عن المستقبل وله اللحظة الراهنة وأنه لابد من اقتناص اللذة والسرور.

كان هذا الاتجاه مع تقدم منتجات العلم حائلاً دون قيام طابع أخلاقي للحضارة وكان مقدمه صيحات التمزق والغربة والانقسام النفسي نتيجة إعلاء جانب الرغبات الحسية على الأشواق الروحية التي عمد الدين الحق على إقامة التوازن بينهما والمعادلة لهما حفاظاً على كيان الإنسان نفسه، ولذلك فإن من الخطأ أن يتخذ العلم مرشداً للسلوك لأنه لايملك هذا العلم التحكم بميدان النفس الإنسانية.

حاول الفكر الغربي تبرير الشر والجريمة والباطل وذلك بالقول بجبرية أثر البيئة والوراثة على الإنسان وأن الإنسان ليس مسئولاً عن الجريمة التي يرتكبها لأن الغدد التي في داخله هي السبب.

ولا ريب أن هذه النظريات لاتقوم على أساس إذا ذكرنا أن الإنسان مكلف مريد له حرية الاختيار وله القدرة على الفعل وعلى الامتناع وأن إرادة الإنسان من شأنها أن تبرم وتنقض ما ورثه من أبويه وما تأثر به في بيئته وإذا كان أثر الوراثة

والمحيط معترفاً به فإن للإنسان من كفايته الشخصية وإرادته ما يجعله قادراً على مقاومته وأن له من إيمانه بالله ما يعصمه ويميزه عن غيره.

إن الأخلاق لاتذعن أبداً للحواس ولا تستسلم لها، إذ أن مهمتها الأساسية هي السيطرة على هذه الحواس وترويضها وجعلها منتظمة متناسقة.

إن للإنسان قدرة على الاكتساب والتعبير بواسطة الكوابح والحواجز والضوابط وهو يستطيع أن يغير الصفة الموروثة وأثر البيئة، ولما كانت الصفات الموروثة تخضع لمؤثرات البيئة فإنها هي والبيئة تخضع للتغير الذاتي الذي يوجبه الدين والخلق.

ولن يعجز عن الانتقال من الوضع الموروث إلى الوضع المكتسب إلا الذين فقدوا إرادتهم الذاتية وإيمانهم أما المؤمنون بالله المتقون الحافظون لحدود الله فإنهم قادرون على الانتقال من الأقل إلى الأحسن والترقى إلى الصورة المثلى للشخصية الإنسانية التي أرادها الإسلام للإنسان.

والإسلام يقرر أن الإنسان عن طريق الإيمان بالله قادر أن يغير نفسه إلى الأحسن، وأن يظل قادراً على العمل الصالح مستمسكاً بالعدل والحق والخير مهما كانت البيئة مضطربة أو مهما كانت عوامل الوراثة شاذة، وتلك هي قدرة الإيمان بالله على تغيير النفوس وفصل الممتازين من الناس عن الآثار الضارة في المجتمعات وتحريرهم من آصارها.

ولذلك فالإسلام لايقول بأن الأخلاق هي استجابة النفس إلى الوسط ولكنه يقول بأن الأخلاق هي ترقية النفس إلى الكمال وترقيها عن أخطاء الوسط وآثار الوراثة الضارة.

كذلك فإن الإنسان يرفض نظرية الفلسفة المادية التي تقول إن الإنسان ابن غرائزه والحقيقة أن الإنسان ابن عقيدته، وقد بدل الإسلام طابع الناس وغيرهم تغييراً جذرياً وأزال آثار وراثياتهم وأخطاء بيئاتهم وجعلهم قادرين على تغيير مجتمعاتهم، وأمامنا نموذج عمر بن الخطاب في العصر الأول والخنساء فيما بعد ذلك مثلاً عالياً

على قدرة العقيدة الصحيحة على تغيير النفوس.

١١- إن الطريق إلى تهذيب النفس في الإسلام إنما يتم بالتكاليف اليسيرة التي تجري في حدود الطاقة الإنسانية وكل تكليف فيه نوع من المشقة ولكنها محتملة وأدنى ما في التكليفات من مشقات: رياضة النفس على ترك الممنوع والأخذ بالمشروع، وتهذيب النفس في الإسلام لايتم بتعذيب الجسم على حساب الروح، وإنما يتم بتقوية الإرادة الإنسانية لتكون قادرة على التحكم في الشهوات فتقوى الجسم والروح معاً ويسيران في طريق الخير، والصبر وسيلة من وسائل تربية الإرادة، وهي باب القدرة على معارضة الهوى والشهوة المذلة مع إباحة ما أحل الله بوسيلته الشرعية ومن ذلك فطم النفس فتكون الشهوات خاضعة لها وأبلغ التكاليف الجهاد.

إن الإسلام يقرر أن الآفة التي تدخل إلى النفوس فتفسدها هي سيطرة الهوى والخضوع اللشهوة وتغليب المصلحة والمنفعة على الحق والواجب وبالجملة فالقانون الأخلاقي قانون ديني زمني اجتماعي في وقت واحد وهو لايدعو الإنسان أن ينفصل عن الحياة أو ينصرف عن متاعها كلية ولكنه يدعوه إلى ممارستها ويحقق رغبته فيها على قاعدة التوازن الذي يقوم على طبيعته الجامعة بين المادة والروح، فلا يأخذ بجانب واحد دون سائر الجوانب بل يحقق الحياة الطيبة مع دعوة إلى الإحسان والبر والقول بالمعروف والبذل للجماعة والارتفاع عن الأهواء والمحرمات.

(١٦)
الشـــــباب

إن الشباب هو الطور الحاسم في حياة الإنسان،وهو الدور الذي تنبني فيه كل العقائد والمثل، وتتشكل فيه النفس الإنسانية والعقل البشري بحيث تكون متأهبة لأداء دورها في حمل أمانة الحياة ومسئولية المجتمع، ومن هنا كان تركيز الأمم على بناء شبابها بحيث يكون قادراً على حمل التكليف والاستخلاف وحماية الكيان والإضافة إليه وتجديده، ومن هنا فقد كان من حق الشباب أن يعرف الأمانة التي سيحملها والدور الذي قطعه السابقون له من الآباء والأجداد،حتى يستطيع أن يبدأ من حيث انتهوا، وأن يجدد ما رم ويحفظ ما صلح وأن يواصل المسيرة على طريق الحق والخير.

ومن شأن الشباب في هذه المرحلة أن يشكل ذاتيته على أناة،فلا يكون صورة مشابهة للأجيال السابقة،لأن ذلك معارض لطبيعة الأشياء وأن يكون في نفس الوقت قادراً على الانتفاع بالإيجابيات في مجتمعه وعصره حفيظاً علي القيم التي هي ميراث الأمة من عقائد وأخلاق وآداب ومفاهيم ترتبط أساساً بوجود هذه لأمة الذي هو زهرها اليانع وشبابها الطالع.

فإذا غفل الشباب عن هذا الإرتباط بالحاضر الموجود والماضي القائم فإنه سوف يجد نفسه في فراغ لايستطيع معه أن يشيد بناء،أو ينمي حياة، ذلك لأن الارتباط بين الأجيال قائم ومستمر وأن الأمانة منذ أن أعطاها الله للإنسان متداولة بين الآباء والأبناء، ولكل جيل سمته وطابعه،ولكن لهذا الطابع جانب ثابت متصل بالمواريث والقيم التي تشكل الأمة كلها أساساً والتي لايمكن الخروج عليها.

إن من حق الأجيال الجديدة أن تشكل نفسها في إطار التطور الذي تجرى فيه المجتمعات بتأثير الحضارة والعلم والتقدم، وأن تكون لها ذاتيتها الخاصة،ولكن مم

تتكون هذه الذاتية التي ستحمل أمانة العمل في المرحلة القادمة؟ أليست تتكون من الواقع الذي نعيشه ثم تصبح امتداداً له، إذن فلا سبيل لها أن تنفصل عنه، وإنما هي تبدأ منه أساساً، ثم تنمو فتجدده، لتضيف في المرحلة القادمة لبنة في البناء القائم، إذن فليس هناك حركة في فراغ، وليس في وسع الشباب أن ينفصل عن أمته ومجتمعه والجيل المعاصر له، وليس من مصلحته أن يتجاهل تجربة من سبقوه، لأن فيها الكثير المستمر والقليل المنقطع، وهي تلقى الضوء على الأحداث المماثلة والمعالجة السابقة، ولا ريب أن مما يجده الشباب في جيله الكثيرمن الخير الذي يوفر الجهد والوقت في إعادة التجربة، وكذلك الأمر في السلبيات والأخطاء فإنها تكشف للأجيال الجديدة ما يمكن أن تتوفر على تجاوزه وتخطيه.

ومن شأن هذا الالتقاء بالعطاء والأخذ أن يكون سمحاً ويسراً من أصحاب العطاء والتجربة ومن الآخذين، ليس فيه وصاية، ولا استعلاء، ولا إلزام، وإنما شأن الأجيال في اللقاء أشبه بمرافقة النبت الصغير حتى ينمو وحمايته من العطب وتسديد خطاه في رحلة تقصر العيون عن النظر البعيد كما تقصر العقول عن الاستيعاب الواسع، ولا ريب أن من حق الشباب أن ينتفع بكل ما في طريقه من خبرة وتجربة سابقة حتى يبني وجوده على نحو أكثر قوة وإيجابية وحيوية، ولذلك فإن الشباب الصاعد الطامح، هو الذي يسعى للبحث عن تجارب السابقين، سواء في مجال الحياة الاجتماعية، أو في تطور التاريخ والحضارة، لأنه لن يستطيع أن ينظر في الواقع القائم إلا إذا كان قد ألم بالمراحل التي مضت من قبل وجوده.

وبالتجارب الماضية بأخطائها وانتصاراتها، ولن يستطيع أن يبني لبنة واحدة إلا إذا عرف إلى أي حد وصل البناء وتجارب الأمم هي زاد الأجيال المؤهلة لتولى زمام الأمور في بلادها فإذا انفصلت أجيال الشباب الجديدة عن هذه التجارب فقد فاتها الكثير وقصر أمامها الطريق وضاق.

٢- حرص الإسلام على بناء الشباب وإعداده وجعل قاعدة الإيمان بالله هي مصدر الضوء الكاشف الذي ينير له الطريق ويزيل العقبات، ويعين على فهم

المعضلات وحل المشكلات وفي القرآن الكريم مفتاح الطريق، وهناك طرق أخرى وكتابات منثورة،فيها النافع والضار، فعلى الشباب أن يتخير وأن يبدأ بما يثق أنه نافع كله،فإذا شكل مفهومه،لم يكن هناك خطر من أن يقرأ كل شيء،لأنه عندئذ يكون قد كون قاعدته الأساسية في فهم الحياة.

والقاعدة الأساسية هي أن الإنسان مخلوق لله، ومستخلف في الأرض، وله في هذه الدنيا مهمة ومسئولية ورسالة، وقد أعطى كل متاعها حلالاً طيباً وحرمت عليه أشياء قليلة، وقد جاءت رسالة الأنبياء لتدله على طريق الخير ولترسم له الضوابط التي تحمى شخصيته من الانهيار، فعليه في هذه المرحلة أن يفكر قبل أن يتصرف وأن يطيل النظر قبل أن يقرر، وأن يتخذ من تجربة الأجيال وسيرة العظماء وهدى النبوة عبرة تعينه في الخطو حتى لايسقط.

وعلى الشباب أن يعرف أن هناك خطراً يواجه الأمة كلها: ذلك هو العدو الرابض المتمثل في الاستعمار الكامن وراء الغزو الثقافي، ومن هذا المصدر يأتي خطر الدعوات المثارة الداعية إلى الشر والإباحية والحرام، بينما يدعو الدين إلى الخير والقصد والسداد، وليس في الإسلام ما يحول بين الإنسان ورغائبه،ولكنه يرسم لذلك طريقاً ويضع ضوابط للحماية والتوقى، فلا خطر من تأخر تحقق رغائب الإنسان ومتطلعاته،فتلك من طبيعة الإنسان التي يقرها الإسلام،والتي يدعو في نفس الوقت إلي الإعلاء والتسامي بها،حتى تأتي مرحلة تحقيقها على الوجه الطبيعي فليس فيما يتحفظ به الإسلام إلا الحماية والحفاظ على ذلك الكيان الإنساني من أن يستهلك ويبدد قبل أن يؤدى واجبه ورسالته.

وهذا هو الجانب الذي يحتاج فيه الشباب إلى الضوء الكاشف والتجربة السابقة، وتأتي هذه التجربة من ذلك النبع الثري: كتاب الله وسنة رسوله وذلك التراث الواسع الضخم من البطولة والهدي والتوجيه.

٣- ويعطى الإسلام الشباب حصانة واسعة في مواجهة الفكر الذي يقدم إليه، فله أن يفحصه وأن يعرضه على دينه، وعليه أن يتعرف على كتابه، وأن يعرف

حياتهم وسابقتهم وهل هم أهل لأن يؤخذ منهم وأن تصدق كلمتهم، إذ ليس كل ما يقدم إنما يراد به النفع فهناك ما يراد به الشر وما يراد به تزجية الفراغ وما يراد به اللهو، وحياة الشباب في حاجة إلى ثراء سريع يجعلها مؤهلة لحمل الأمانة والمسئولية، فعليها أن لاتستسلم للفكر المسموم ولا للفكر الذي يراد به تزجية الفراغ، وإنما عليها أن تبحث عن الأصول وعن القيم وعن الثروات الحقيقية التي تزود الروح والعقل معاً بالزاد الذي يدفع عنها الشر ويمكن لها في طريق الخير حتى تمر بسلام من مرحلة المراهقة الخطرة وهي لم تفقد الكثيرمن قواها ومن ثرواتها النفسية والجسدية.

وإن من أخطر ما يقدم للشباب وما يحتاج إلى يقظة كبيرة في النظر إليه: تلك المذاهب الفلسفية والدعوات والنظريات التي ليست من أصول فكرنا،وليست من ثمرة بيئاتنا، والتي عجزت عن أن تقدم خيراً لأهلها وقومها هذه التي قامت في أمم لها نظرتها المادية إلى الحياة والمجتمع والمرأة والتي هي تختلف اختلافاً واضحاً مع المزاج العربي الإسلامي.

وكلها دعوات لاتدعو إلى عزيمة ولا إرادة ولا إيجاب ولا بناء وإنما تدعو إلى أن تحل عرى الكيان البشري واحدة بعد أخرى بالدعوة إلى التحرر والانطلاق والاستهانة بالأخلاق وتجاوز الضوابط ومعارضة كل ما أعطاه الدين للإنسان من أجل حماية كيانه وحفظ وجوده ورضاء ربه.

من هذه ما تدعو إليه الدعوات من أن الحياة الدنيا التي نعيشها هي الحياة وأنه ليس وراءها حياة أخرى، ومن هنا فإن على الإنسان أن يأخذ حظه من كل متعة ولذة دون أن يعمل حساباً لأى شيء آخر.

وهذه الدعوة ليست لها دعوة في الإسلام الذي يعترف برغائب الإنسان ويدعوه إلى ممارستها ولا يمنعه منها، بل ينظمها له ويضع لها الضوابط التي تجعله قادراً على أداء واجبه في الحياة، إنما يقال هذا لقوم تدعوهم عقائدهم إلى تحريم زينة الحياة أو متعتها، هذا فضلاً عن أنه ليس مما يقبله العقل أن تكون الحياة فوق هذه

الأرض هي كل شيء وأن يكون الموت هو نهاية هذه الحياة، ذلك أن للوجود الإنساني فوق الأرض حكمة وللإنسان رسالة وأن لحركة الإنسان وسعيه إلى الخير أو إلى الشر مسئولية وتبعة لها بعد ذلك حسابها وجزاؤها، ومن ثم فإن ارتباط حياة الإنسان على هذه الأرض بحياته الأخرى هو ارتباط الجزء بالكل، وتكامل العمل والجزاء،وليس الموت إلا فاصلاً رقيقاً بينهما ولا قيمة للحياة إذا لم تكن لها رسالة يقف فيها الإنسان موقف التجربة ومواجهة التحدي، بين أخطار الشر ودوافع الخير،ولا بد لهذه الرسالة من حساب وجزاء، وأجر كبير للذين استطاعوا الصمود في التجربة، وعقاب أيضاً للذين عجزوا عن احتمال التبعة وسقطوا تحت أقدام الشهوات، ولذلك فالعمل في هذه الحياة محسوب له وزنه وتقديره،ولن يكون أبداً انطلاقاً لا رقابة عليه.

ومن الحق أن يقال إن مثل هذه الدعوات الخطرة هو مما تروجه القوى الاستعمارية والصهيونية كأسلوب بعيد المدى في محاولة تدمير الجيل القادم الذي سيتولى مصائر الأمور في هذه الأوطان بعد عقد أو عقدين من السنين،وأن محاولة تدميره من الآن إنما تجعل أمر سيطرة هذه القوى على المسلمين والعرب سهلة ويسيرة،فإنها تضمن من الآن أنها لن تجد مقاومة وأنها ستجد أمامها جيلاً هشاً ضعيفاً مدمراً في قيمه ومعتقداته ومن ثم تسهل السيطرة عليه ويسهل احتواؤه.

٤- «المراهقة» انتقال جسدي وعاطفي وعقلي واجتماعي من الطفولة إلى الشباب أي إلي الرجولة أو الأنوثة،وليس هو انتقال مفاجئ،ولكنه انتقال طبيعي وتطور متدرج في النمو، فإذا فهم هذا مرت المرحلة بسلام، وهي في جوهرها دلالة على أن الشباب أصبح في مرحلة المسئولية وتكوين الشخصية القادرة على أن تكون في مكان العمل والتأثير والفاعلية في المجتمع.

وخير حماية لفترة المراهقة: الفهم واليقظة وتنمية المواهب والهوايات وشغل أوقات الفراغ والاتجاه إلى الإيمان والعبادة، وإلى الثقافة والمطالعة،لتوسيع آفاق النفس والعقل.

وكلما كات البيئة سمحة مرنة وطابعها ديني خلقي، ونماذجها القريبة طيبة ومعطية كان ذلك عاملاً على تيسير الوجهة وسلامتها.

وأخطر ما يواجه الشباب في هذه المرحلة النموذج الغريب الوافد الذي لايحمل معه طابع الإيمان وسالمة الوجهة وحسن القول وأمانة النصيحة، فإذا وجد الشباب القدوة الطيبة في البيت والمدرسة والشارع أتاح له ذلك قدراً كبيراً من النجاح، وأكبر عوامل النجاح "الثقة" و "الصدق" و "الحنان" فإنها حين تبذل تخفف كثيراً من العوامل النفسية الضاغطة، فإذا اتسعت دائرة العلم والخبرة خف عناد الفكرة وإذا صدقت النصيحة أغلقت أبواب التمرد، وإذا امتلأت الحياة بالعطاء انتهى الفراغ، وإذا وجدت القيم الربانية وقدمت في أسلوب سمح حجبت الدعوات الفاسدة وسدت أمامها الطريق، فالفراغ الذي تجده نفس المراهق هو الذي يدفع إلى البحث عما يملأه فإذا لم يقدم الخير في صورة سمحة بارة مرنة، كان هناك البحث عن أي شيء، ولا يوجد بعد الخير إلا الشر.

فعلينا أن نقدم لشبابنا هذا العطاء الإسلامي في ثوب كريم وفي صورة تطبيقية حتى يقبل عليه ويؤمن به.

٥- خير عطاء الإسلام للشباب إقامة التوازن في نفسه بين القوى المختلفة، حتى لايسرف في إعلاء جانب على جانب، فهو جماع من الروح والمادة والنفس والعقل والفكر والعاطفة: فإنه لن يجد الطمأنينة إلا في هذه الموازنة، والمؤمن بالله يجد دائماً من الزاد ما يخفف عنه القلق ويهون عليه مشقة البحث عن الطريق الصحيح - والإسراف في الأحلام أو الخيال من شأنه أن يباعد عن الواقع، والطموح علامة على سلامة الشخصية، ولكن لابد من الأخذ بأسباب النجاح والوصول إلى الغاية المرتجاه، وخير ما يحفظ الكيان الإنساني هو أن يتحفظ إزاء العالم الوهمي الذي تخلقه القصة أو الشاشة أو معطيات الصورة البراقة والكلمة المهمومة، فإن ذلك إنما ينقله إلى جو من الخيال الذي يترك من بعد آثاراً قاسية من الحرمان والتطلع إلي ما ليس في الإمكان تحقيقه.

ولا بأس على الشباب من أن يعايش هذا كله وإنما البأس أن لايفهم الآثار المترتبة عليه وردود الفعل، فليواجه كل هذه الأوضاع على أنها خيال لاحقيقة ولا يحاول أن يستسلم لها حتى لاتترك آثارها السيئة في حياته.

ومن الخير أن يحمي الشباب نفسه من الأدب الرخيص المبتذل والقصص المسمومة والأغاني الداعية إلى الشر والكتب الهدامة حتى لايجرفه تيار التحلل والإباحة وموجات الضعف والتخاذل.

ومن حق الشباب أن يقرأ كل كتاب وأن يناقش كل فكرة، ولكن لابد له من نقطة بدء،ومن إطار عام يتحرك فيه، عليه أن يعرف هدفه ورسالته وأمل أمته فيه، فلابد أن يكون من أول تفكير الشباب أن يتبنى رسالة للعمل في المجتمع، وأن يضع مشروعاً لحياته،وأن يجعل لنفسه هدفاً، وأن يكون لنفسه شخصية رصينة وسيجد عوناً له في ذلك حين يقرأ سير الأبطال والأعلام الذين يمتلئ بهم تاريخ هذه الأمة.

٦- إن أهم ما يوجه الشباب إليه من اهتمام هو تكوين شخصيته القادرة على اقتحام الحياة،وذلك إنما يكون بالثقافة والتماس الخبرة المنثورة أمامه بين صفحات التاريخ وبين تجارب الأحياء، وإنما تتكون الشخصية السوية بالتوسط بين العاطفة والعقل والتعادل بين الروح والمادة،دون الاستسلام للغرائز والرغبات، والقدرة على بناء الإرادة وتحريرها، والسيطرة على معطيات النفس والجسم وحسن توجيهها فإنما هي الثروة التي إذا فقدت عاش الإنسان بعدها عليلاً ضعيفاً.

إن بناء الإرادة بالخلق والإيمان بالله والتقوى يجعل الشباب قادراً على تغيير الموروثات وآثار البيئة والاستعلاء على معوقات الشخصية السوية، إن الشخصية البشرية كما يقول علماء الطب والنفس لاتستكمل نموها ولا تبلغ ذروة هذا النمو إلا بالتحدي الدائم لذاتها والعمل الدائب على إصلاح عيوبها واستكمال نقائصها.

إن الشباب حين يمضي يجد أمامه طريق الخير وطريق الشر، أما طريق الخير فهو

محفوف بالصعاب والضوابط ويتطلب مشقة في تثبيت الخطوة عليه،ولكنه موصل جيد إلى امتلاك القوة والصحة والحياة الطيبة. أما طريق الشر فإنه سهل ويسير وفيه إغراء وبريق، ولكنه يهدم الشخصية ويحطمها.

وصاحب الهدف والرسالة، المؤمن بالله، الذي يعد نفسه مستجيباً لأمانة الاستخلاف في الأرض من شأنه أن يجنب نفسه الإسراف في تبديد تلك الثروة في هذا السن الباكر فإنه سيحتاج إليها إذا علا به السن،وسيندم على التفريط فيها، فهذا هو الكنز الذي عليه أن يحافظ عليه،لينفق منه إذا ما توقف العطاء، وليست المحافظة في مفهوم الإسلام هي الزهادة أو الرهبانية،ولكنها الاعتدال والمرحلة الوسطى بين الإسراف والتقتير.

إن من حقه أن يأخذ ما يشاء في حدود ما أحل الله فإن من شأن هذا أن يحفظ العقل والقلب،ويحفظ الجسم أيضاً.

إن هذه الغرائز التي تعيش في أعماق الإنسان إنما هي قوة سلح الله تعالى بها الفرد لخيره وخير المجتمع، إنها هي التي تحميه من أخطار الفناء،ولكن استعمالها يجب أن يتم تحت رقابة العقل وفي إطار الوعي الكامل،فلا تتحول غريزة البحث عن الطعام إلي الشره، ولا غريزة الإنسال إلى التحلل والعدوان، ولا غريزة الادخار إلى الطمع والشح، ولا غريزة الظهور والسيطرة إلى الخيلاء والكبر، ولا غريزة الغضب والمقاتلة إلى الجنون وسفك الدماء، ولا غريزة حب الاستطلاع إلي البحث عن عيوب الناس، ومن حق كل إنسان أن يكون حراً، فهذا حق طبيعي، ولكن لكل حق ضوابط، وضابط الحرية أن لاتكون عدواناً على حق الآخرين،والإسلام يقرر أنه إذا اصطدمت الحرية بالحق أو بالخير (خير الفرد أو خير الأسرة أو خير الجماعة) فإن الحرية الفردية تقف وتنكمش،وهناك ممنوعات رئيسية لا سبيل إلى تجاوزها ولا إيجاد تأويل من النصوص لتبريرها وإباحتها: هي الزنا والميسر والربا والسكر بالخمور والمخدرات، هذه الأمور مرذولة لدى الإنسان الكريم والعقل السليم والنفس الطيبة، والدليل أنها لاتمارس إلا في الخفاء.

وما حرمها الإسلام إلا لأنها تهدم الشخصية الإنسانية وتورد مقترفها مورد الهلاك ويريد الإسلام أن يحمى هذه الشخصية (عقلاً وروحاً وجسماً) ويستبقيها سليمة قوية لتؤدى رسالتها،وليكون صاحبها قادراً على أداء واجبه وحمل أمانة الحياة ولا خير في حياة يكون صاحبها عليلاً مريضاً مضطرباً.

وليس صحيحاً ما يقال من أن احتماء الإنسان بالأخلاق أو كظم الغيظ أو التحفظ دون التردي في الرذيلة ـ ليس صحيحاً أن هذا يضر بكيان الإنسان، بل العكس هو الصحيح،وليس صحيحاً ما يقال من أن توجيه حياة المراهق وحمايتها من الزلل له أخطار،فتلك دعوات يريد بها أصحابها إطلاق الناس على الأهواء، وإلا فإن الدين دعوة إلى الضبط والكظم في حدود الوسع والاقتدار الذي تملكه الشخصية الإنسانية،من أجل الحفاظ على كيان ذاتها.

٧- الإيمان بالله هو أساس الفضائل وسند العزائم في الشدائد ونور الأمل في الصدور وعماد الرضى وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة وعزاء القلوب إذا نزل الموت،وهو ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية.

والإيمان بالله هو الرابطة التي تربط الإنسان بالكون والحياة والمجتمع والناس،ولا تكتمل رجولة الرجل وإنسانية الإنسان إلا إذا كانت له عقيدة أساسها إيمان راسخ بالله عز وجل، ولن يستطيع إنسان أن يستغنى عن الإيمان بالله،أو يتخلى عن العقيدة، فإن الطبيعة البشرية قد صيغت والدين جزء منها، ولاسبيل أن ينفصل إنسان عن القوة العليا التي أوجدته. فإذا تخلى وجد فراغاً عميقاً مظلماً يهز النفس،ويبعث فيها اليأس والقلق والتمزق، ولا بد من ملء هذا الفراغ بعقيدة أخرى بديلة لا تعطى الروح طمأنيتها ولا القلب سكينته ولا العقل ثقته.

ومعرفة الله هي عصا التحويل التي تنقل الفرد من حال إلى حال وحسن الاعتماد عليه وحده هو أظهر علامات الإيمان الصادق.

إن ذات الله تبارك وتعالى أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية،أو تدركها

الأفكار الإنسانية،هذه العلوم فهي مهما بلغت محدودة القوة محصورة القدرة، ولقد نهى رسول الله عن التفكير في ذات الله وأمر بالتفكير في مخلوقات الله،عصمة للفكر من التردي في مهاوي الضلالة. والقرآن هو المصدر الأول والمعين الثر، وإليه يرجع الرأي والفكر، وهو نقطة البدء والقاعدة العريضة،فكل ما لايتفق معه باطل وكل ما يتعارض معه خطأ،وكل ما يسير في ضوئه فهو حق، جمع الله فيه أصول العقائد وأسس المصالح الاجتماعية وكليات الشرائع الدنيوية.

ومثل القرآن مثل التيار الكهربائي فيه شحنة كهربائية تؤثر في النفوس تأثيراً مادياً وروحياً،يظهر أثره على من هداه الله.

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ﴾ .

وليس في القرآن أي معنى أو خبر من شأنه أن يحدث تناقضاً مع أحكام العقل أو مع أحكام العلم اليقينية.

والقرآن يجعل العقل هادياً،والعلم دليلاً،ويحذر من الظن الذي لايغنى من الحق شيئاً، كما أنه يفصل بين الألوهية والبشرية.

والصلاة هي الركن الأول وحجر الأساس في بناء الإسلام،وهي منهاج كامل لتربية الأمة الإسلامية،والصلاة تربي الجسم والعقل والروح.

والإيمان بالله يقتضى الإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، والإيمان بالبعث والحشر والجزاء،ومحبة رسول الله ﷺ وتعظيمه وتوقيره،والتوكل على الله عز وجل والحفاظ على العقيدة من الشبهات والمضللات، وطلب العلم ونشره وإذاعته وتعظيم القرآن بتعلمه وتعليمه،وحفظ حدوده وأحكامه وأداء الفرائض والطهارة والصلاة والزكاة، وتلك هي شعب الإيمان،ومقاربة أهل الدين والعلم ومودتهم والانتفاع بهم، وإكرام الجار وإكرام الضيف ورد التحية بأحسن منها وأداء حق الطريق بغض البصر وكف الأذى ورد السلام.

والتقوى هي ذلك الخلق النفسي الذي يجعل من الإنسان رقيباً على نفسه في كل تصرف من تصرفاته وفي كل جانب من جوانب سلوكه، والتقوى هي السلوك الصحيح السليم في كل ناحية وأداء حق الله في العمل والاستقامة والتفاني في أداء الواجب والترفع عن الدنايا وكل هذا من مصادر النجاح في الحياة.

والنجاح في الحياة ليس حظاً يساق إلى الإنسان،ولكنه استعداد وعمل وإرادة وخلق،وقوة الخلق هي العامل الأول، الاستمرار والمثابرة والدأب والصبر وعدم اليأس، ليس المطلوب الوصول إلى الذروة،ولكن العبرة بالوصول إلى الوسط، والعطاء على قدر العزيمة.

وليس معنى الصبر الاستسلام والخضوع،بل هو اليقين بالنصر والمحاولة المتجددة دون يأس والصمود في وجه العقبات، والإنسان بالصبر يكون قادراً على العمل إذا أصابه الإخفاق فيعاود الكرة مؤمناً بنصر الله وقد ربط الله تبارك وتعالى بين الصبر والإيمان، فالصبر خلق إيجابي وقوة ورجولة،وليس عجزاً واستسلاماً.

٨- إن هناك مفاهيم كثيرة أصبحت كالمسلمات علينا أن نصححها حتى تستقيم لنا القدرة على مواجهة الحياة، إن على شبابنا أن يتقبل النقد ولايضيق به، ما هو النقد، إنه وجهة النظر الأخرى التي قد يستفيد منها،فإذا جاءت من صاحب الخبرة وغير صاحب الهوى فهي معرفة أوسع وأفق أرحب.

وعلى شبابنا في الحكم على الأمور أن لايندفع وراء العاطفة أو الغاية الخاصة أو الرغبة والهوى ويجعلها مصدر أحكامه، فإن ذلك ليس مقياساً صحيحاً ولا ميزاناً سليماً.

وليكن الشباب قادراً على أن يربط بين التجدد والأصالة وأن يقبل الحركة والانفتاح والتلقي مع الاحتفاظ بقاعدته الأساسية في الإيمان بالله والقيم الثابتة، وعلى الشباب أن لا يجعل التفاخر بالعصرية والتقدم طريقاً إلى تحقير الإسلام والقرآن وتاريخ الإسلام واللغة العربية، ولا أن يستخف بالصلاة والصوم، والإنسان

القوى هو الذي يكون مؤمناً أولاً بدينه وأمته وتراثه،ولا يرى في الانتساب إلى ذلك نقصاً ولا تعارضاً مع العصرية بمفهومها الحق. فلا تعارض بين الإيمان بالله وبين التقدم وإذا كان هناك من يفاخر بالإلحاد وهو شر فهل نستحى أن نفاخر بالإيمان وهو حق وشرف؟ إن أمتنا لها أمجادها وتاريخها،ولقد قدمت للإنسانية أشرف القيم ومنحتهم العلم التجريبي والتحرر من عبودية الوثنية ومن استعباد الإنسان وسوف تكون قادرة أن تقدم في القريب هذا الدين الحق إلى البشرية كلها،ولكن أخطر الأخطار عليها أن تتخلى عن مقوماتها،أو تنصهر في القوى التي تحاول أن تسيطر عليها فلكل مجتمع مقوماته ومكوناته التي تختلف عن مجتمع آخر. فلتتحرر النفس المسلمة من عبودية الإعجاب بالغرب،ولتحذر الاندفاع في اتجاه الترف والرخاوة والتحلل،ولتتجاوز فرويد وماركس وسارتر إلي آفاق الإسلام الرحبة.

أما الترف فإنه بغيض،لأنه يقتل الشخصية ويحول صاحبه إلى الضعف والجمود، وقد نعى الله على المترفين ودعا إلى البساطة مع النظافة والطهارة، والرجولة مع التواضع والبذل، والترف من شأنه أن يحول بين الإنسان وبين أداء الواجب ويسلبه الخشونة والقدرة والحركة ويجعل صاحبه أليف الضعف والرخاوة والمرض، ويجر على الجسم المرض وعلى النفس السقم، وعلى الشباب أن يحسن اختيار أصدقائه وأن يقيم الاختيار على أساس القيم والخلق، وأن يقترب من المتدينين ذوي الأخلاق ويبتعد عن المسرفين في الجدل أو المبالغين أو المغرورين أو الحاقدين.

والنفس المؤمنة لاتحسد، والاختلاف في متاع الدنيا لايثير الأحقاد، وإنما مجال التنافس الحق هو العمل الصالح صاحب العقبي في الآخرة وعند الله فستذهب الأموال وتبقى الأعمال،فمن استطاع أن يقدم لأمته ولوطنه عملاً نافعاً فإنه سيجد جزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

وليحذر الشباب من الغرور،فهو داء العصر الوبيل. فالعالم هناك من هو أعلم منه، والغني هناك من هو أغنى منه، وهناك من يفوق الأنيق والوجيه ولم يبلغ إنسان غاية العلم، والنفوس التي يملأها الغرور تحتقر الناس وتحس بأنها أرفع شأناً

وتنغلق على نفسها والسنبلة المليئة من القمح تنحنى والفارغة ترفع رأسها.

على الإنسان أن يكون هو نفسه فإذا رأي خطأ أو شراً أو منكراً فلا يقل هكذا يفعل الناس،فإنما يحاسب الإنسان بمفرده ولا يحمل المجتمع مسئوليته أمام الله ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ إن المسلم المؤمن المثقف هو القادر على أن يتحرر من الخطأ الجماعي فإذا تبين له الحق غير طريقه الأول في مرونة ويسر، إن المسئولية فردية ومن حق الإنسان أن يكون إيجابياً وقادراً على اختيار الطريق الصحيح.

وكل إنسان يخطئ ولكن باب التوبة مفتوح دائماً، فليس هناك ما يشغل النفس أو يعقدها، فإنها تستطيع أن تتحرر من خطئها في التو واللحظة وعلينا أن نحسن صحبة آبائنا وأمهاتنا وأهلينا ومعليمنا وجيراننا،ولنؤمن بأن الأب هو رأس الأسرة وأن بيده مقاليد السفينة وأن الأمور لاتسير إلا بربان.

فالمسلم لايعرف اليأس ويعاود الكرة،فلا يتصل اليأس إلا بالنفوس المهزومة الفارغة من الإيمان بالله، أما المؤمنون فإنهم دائماً آملون، ومن اليأس يجيء التشاؤم والقلق، والمسلم يعقل الأمر ويتوكل على الله،فلا يهمل الأمر اتكالاً على القدر يحفظه، والمسلم لايباشر عملاً قبل الاستعداد له،ولا يترك عملاً اتكالاً على ما سيجيء به القدر،فالعاقل من عقل وتوكل.

والاعتماد على الله رأس الأمر كله،فلا تخش مواجهة الناس ما دمت على حق واحمل حاجتك فأنت أولى الناس بها.

وتجويد العمل مع الإبطاء خير من الإسراع فيه مع سوء أدائه، وإخلاص العمل لله شرط من شروط نجاحه وفاعليته والعجلة تفسد العمل وتورث الندامة والتروي مع التجويد أدعى إلى النجاح.

ولا يقنط المسلم من رحمة الله،فإن أخطأ فإن الله غفور رحيم وكل بني آدم خطاء، والإسلام يسر،وليحذر المسلم ممن يقنطه من رحمة الله،أو يجره إلي الخطأ ممن

وقعوا في الإثم، فلا يصدق تهوينهم بالدين وحدوده،ولا يجعلهم حجة على المفاهيم الصحيحة وهم أبعد الناس عنها.

٩- إن الشباب بقواه العقلية وحدها لايستطيع أن يضبط نفسه وأن يأخذها بالاعتدال،فهو محتاج إلى وازع من الأخلاق يحبب إليه الخير وينهاه عن المنكر، والدين هو أثبت قاعدة لتنمية الفضيلة وأضمنها.

وعلى المسلم ضبط الغريزتين: غريزة حفظ النفس وحفظ النوع، وعلى المسلم أن يكون نافعاً لكل من حوله كالشجرة المظلة يعطى ويبذل الجهد في سعادة الآخرين وأهله أحق بعطائه، وليعلم أن ماأخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وليطلب المسلم الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير، ومن أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس من الإسلام،وإنما يعمق الإيمان ويؤكده أن يؤمن المسلم برقابة الله وعدالته، واطلاعه عليه ونظره إليه،فإن هذا الإلهام يبعث يقظة في الضمير وحياة في الشعور، وإن المسلم يرى أن وراء إرادته إرادة الله الغالبة وأن وراء تقديره تقدير الله النافذ،والمؤمن دائماً لايأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه الله.

والمسلم قادر على أن يقول كلمة الحق،وإذا سيم الخسف أن يقول لا،ولا يكون المسلم إمعة (يقول إذا أحسن الناس أحسنت،وإذا أساءوا أسأت) وعليه أن يطابق دوماً بين الكلمة والسلوك.

قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس: «يابني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، ولو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف».

(١٧)
المـــرأة

تعددت وجهات النظر بين فلسفات الشرق والغرب ومجتمعاته وعصوره في أمر «المرأة»:

المرأة: الأم والزوجة والأخت والابنة، شطر الأسرة وشقائق الرجال حاولت فلسفات قديمة كثيرة أن تغض من شأنها، كما حاولت فلسفات حديثة كثيرة أن تعلي من شأنها، تلك بانتقاصها من مكانتها وحقها، وهذه بدعوتها إلى التحرر والانطلاق إلى أقصى المدى في امتلاك الإرادة وغفلت هذه وتلك عن أن الرجل والمرأة كيان متكامل يختلف في الخصائص باختلاف الوظيفة التي تحفظ لهذا التجمع تحت اسم الأسرة أولاً وتحت اسم المجتمع بعد ذلك تحفظ له أداء دوره وتحقق هدفه وأن الأمر لايمكن أن يجري عن طريق الفلسفات وفق أهواء الرجل مانعاً ومطلقاً أو منتقصاً ومريداً، وإنما الأمر أعمق من ذلك وأحكم، وأن الكلمة الأولى فيه والكلمة الأخيرة لشرعة الله التي تنظم الأمور كلها، وتضع كلاً من الرجل والمرأة في موضعه الحق، وقد قرر الدين الحق منذ أنزله الله هذا الأمر، وجاء الإسلام رسالة البشرية الأخيرة ففصله على أوفى سبيل فجعل خطاب التكليف موجهاً إلى الرجل والمرأة معاً، فالرجل والمرأة متكافئان في الحقوق والواجبات، ولكنهما ليسا متشابهين من حيث إن لكل منهما عمله المكلف به وله تركيبه المناسب له، «وإذا كانت المرأة مساوية للرجل فهي غير مماثلة له تختلف عنه بنية وميولاً» فهي تتكامل بتركيبها النفسي والعضوي مع الرجل ولا تماثله فتحقق بذلك نواميس التوازن وسنن التكامل التي تجمع شطري البشرية.

هذا هو مفتاح الفهم الحقيقي لعلاقة الرجل والمرأة: تقوم على أسس التوازن والتكامل فكل من الرجل والمرأة يتولى عملاً مستقلاً ولكنه في نفس الوقت

يتكامل مع عمل الآخر، وكلا الرجل والمرأة يقيمان صرح الأسرة ولكن لكل منهما ملكيته الخاصة التي يحق له التصرف فيها بحرية كاملة، وقد جعل الله القوامة للرجل من أجل سلامة الحركة والحفاظ على السفينة.

وهي لاتعطى أي ضغط ظالم أو سلطان معتسف،بل لها ضوابطها وقواعدها التي تحقق للمرأة العدل والانفصال إذا عز العدل.

قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة في القيم الإنسانية المشتركة وجعلها مساوية للرجل أمام القانون وفي الحقوق العامة، غير أن الإسلام فرق بين الرجل والمرأة في الأعباء الإقتصادية والميراث والشهادة وحق الطلاق، وعندما قرر الإسلام للذكر مثل حظ الأنثيين: راعي أمراً هاماً هو أنه حمل الرجل نفقة زوجته ولو كانت ثرية كما حمله نفقة أولاده وبناته،وأوجب عليه المهر خلافاً لأديان أخرى تدفع فيها المرأة صداقها حين تتزوج، كما حمله فريضة الجهاد وما يتطلبه ذلك من نفقات الأسرة وأوجب عليه نفقة الأقارب الفقراء.

يقول معجم الفلسفة الفرنسي: إن القرآن يختلف عن التوراة في أنه لايجعل ضعف المرأة عقاباً إلهياً كما ورد في سفر التكوين (٣: ١٦) ومن الخلط أن ينسب إلى شارع عظيم كمحمد، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء والحقيقة هي أن القرآن يقول: ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ .

وقبيل بزوغ الإسلام عقدت أوربا مجمع ماكون (٥٨١-٥٨٢) ليجيب على سؤال: هل المرأة إنسان؟

فجاء الإسلام وأجاب على ذلك السؤال، قال رسول الله ﷺ : النساء شقائق الرجال وأن الجنة تحت أقدام الأمهات، وبذلك منحهم المساواة وكرم الأمومة وكانت الجاهلية لاتورث إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة.

أما الإسلام فقد نفى عن المرأة صفة المتاع الذي يورث ثم سوى بينها وبين الرجل فالرجل يرث والمرأة ترث ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء

نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ .

وجعل للمرأة حق الولاية على أموالها متى بلغت سن الرشد فإن لها أن تتصرف فيها وبذلك محا الإسلام من حياة المرأة تهمة القاصر الدائم الذي كانت تتسم بها بعض الأنظمة القديمة، وأعطاها الكفاءة الأهلية في إدارة أموالها والتصرف فيها، قال عمر بن الخطاب: والله ما كنا في الجاهلية نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم».

وقبل الإسلام كانت المرأة تورث مع المتاع محرومة من الإرث والمهر وكانت اليتيمة عند الرجل يعضلها أي يظلمها فدعا الإسلام إلي رفع ذلك، ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ وحرم الإسلام الوأد فلم تكن مَوْءُودة منذ انتشر الإسلام إلى يومنا هذا، وسوى الإسلام بين دم المرأة ودم الرجل وصار يقتل قاتلها.

وكان الاستئثار دونهن بالمهور فجعلها الإسلام حقاً خالصاً لهن وكان تعدد الزوجات غير مقيد ولا محدود فجاء الإسلام محدداً له مقيداً إياه بقيود كفيلة بالقضاء عليه، وكان إكراه الفتيات على البغاء ليكسبن لأسيادهن مالاً فجاء الإسلام معلناً ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ وكانت إساءة العشرة ظاهرة واضحة فأمر الإسلام بحسن المعاشرة، وكان الولد يرث زوجات أبيه في جملة المتاع فجاء الإسلام رادعاً أشد الردع عن هذا المنكر ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ﴾ وكره الشارع الطلاق إلى الناس وبغضه وشدد فيه، وأحل أجلاً للمطلقات، يبقين فيها في بيوتهن ليرجع الرجل إلى نفسه فيتلافى ما فرط منها حتى إذا عزم الطلاق فتسريح بإحسان وبين للمرأة حقوقها في الإرث (زوجاً وأماً وبنتاً وأختاً) فصارت كالرجل ذات حقوق أصلية، كما شرع لها حق افتداء نفسها بالمال تدفعه إلى الزوج لتنقذ نفسها، وأباح لها الفطر في رمضان إن كانت حاملاً أو مرضعاً تخشى على نفسها أو ولدها. وجعل من حقها الموافقة في أمر زواجها الذي يعتبر أخطر حدث في تاريخ حياتها، فأعطى لها مطلق الحرية في أن تختار من تشاء ما دامت بالغة عاقلة رشيدة،وأعطى لها حق مباشرة عقد زواجها بنفسها فليس لأحد أن يكرهها

على الزواج ممن لاتريد، ودعا الإسلام إلى عدم تطويل العدة ابتغاء حبس المرأة عن أن تتزوج ممن يوفر لها رغد العيش، وكان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته حتى إذا قاربت الانتهاء من عدتها راجعها،وطلقها،وهكذا مائة طلقة أو أكثر،لايقصد من وراء ذلك إلا الكيد لها والإضرار بها،فلما جاء الإسلام قضى على هذا الضغن ورفع الحيف عن المرأة فقصر الطلاق على ثلاث:

﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ .

﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ .

وجعل الطلاق أبغض الحلال إلى الله، ودعا إلى الصلح والمراجعة، فإمساك بمعروف.

وأوجب الإسلام للفتاة النفقة شرعاً في حياة أبيها حتى تتزوج،وليس له أن يلزمها طلب الرزق كالإبن،فإذا ما تزوجت ثم طلقت فعادت إلى أبيها عادت نفقتها عليه.

وفي الغرب لم تتمكن المرأة إلي عهد قريب من أن تتصرف في شيء من أموالها إلا بإذن زوجها،وكان القانون الفرنسي قبل الحرب العالميه الثانية يقضى بعدم أهلية المرأة المتزوجة، مع تقييدها في تصرفاتها بضرورة الحصول على إذن الزوج والقانون الفرنسي الآن وإن اعترف بأهلية المرأة المتزوجة إلا أنه أبقى للزوج حق الاعتراض على بعض تصرفاتها المالية.

وتتمثل هذه المعاني كلها في كلمة الرسول الجامعة:

«ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً. أما حقكم على نسائكم فأن لايوطئن فراشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم في أن تعضلوهن وتضربوهن وتهجروهن في المضاجع، حق الرجل على الزوج أن يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يضرب الوجه ولا يقبح ولا يهجر إلا في البيت، عليكم باللطف والرفق بنسائكم لا

تظلموهن ولا تضيقوا عليهن فإن الله يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم".

٢- جعل الإسلام الرجل والمرأة متكافئتان في الحقوق والواجبات ولكنهما ليسا متشابهين في التكوين النفسي والجسمي من حيث إن كلاً منهما له عمله المكلف به وله تركيبه المناسب له، من الحق أن يكون هذا الأمر موضع النظر والتقدير: إن هناك تغايراً وظيفياً بينهما والمساواة لاتقتضى إنكار حكم الطبيعة ونسيان الفوارق الخلقية وما يتبعها من الاختصاص، ولقد أثبتت بحوث العلم وتحقيقاته أن المرأة تختلف عن الرجل في كثير من جوانب الصورة والسمة والأعضاء الخارجية إلى ذرات الجسم والخلايا، ومع بلوغها سن الشباب يعروها الحيض الذي تتأثر به أفعال كل أعضائها وجوارحها وتدل مشاهدات أساطين علمي الأحياء والتشريح على أن المرأة تطرأ عليها مدة حيضها: أن تقل في جسمها قوة إمساك الحرارة فتنخفض حرارتها ويبطئ النبض وينقص ضغط الدم وتقل عدد خلاياه وتصاب الغدد الصماء واللوزتان والغدد اللمفاوية بالتغيير ويختل الهضم وتضعف قوة التنفس ويتبلد الحس وتتكاسل الأعضاء وتتخلف الفطنة وتقل قوة تركيز الفكر، وأشد على المرأة من مدة الحيض زمان الحمل، حيث لاتستطيع قوى المرأة إبان حملها أن تتحمل من مشقة الجهد البدني أو العقلى ما تتحمله في عامة الأحوال مما يختل معه نظام جسمها كله ويستغرق بضعة أسابيع،وبذلك تبقى المرأة مريضة أو شبه مريضة مدة سنة كاملة بعد قرار الحمل وتعود قوة عملها نصف ما تكون عليه في عامة الأحوال».

ومن شأن هذا كله أن يكون له أثره ومخالفته لطبيعة الرجل، وتتصل به الآثار المترتبة على عمل المرأة خارج البيت في غير وظيفتها الأصلية، فإذا أضفنا إلى آثار عوارض الحيض والحمل والولادة خصائص الأنوثة نفسها التي تجعل لديها قدراً كبيراً من العاطفة والوجدان، بينما لاتبلغ ذلك في أمور الفكر والنظر، عرفنا إلى أي حد أعطيت المرأة ما تحتاج إليه مما هو مرتبط بمكانها وواجبها ووظيفتها في الحياة.

ويتحدث الطبيب الكسي كاريل عن الفروق العميقة بين المرأة والرجل في

التكوين والأوضاع فيقول: إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية، وعن وجود الرحم والحمل أو عن اختلاف طريقة التربية، وإنما ينشأ عن سبب جد عميق وهو تأكل أعضاء المرأة بكاملها بالمواد الكيماوية ومفرزات الغدد التناسلية وإن جهل هذه الوقائع الأساسية هو الذي جعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل بأن كلا الجنسين من الذكور والإناث يمكن أن يتلقوا ثقافة واحدة وأن يمارسوا أعمالاً مماثلة، والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافاً عميقاً عن الرجل فكل حجيرة في جسمها تحمل طابع جنسها وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية ولا سيما الجهاز العصبي وأن القوانين العضوية (الفيزيولوجية) كقوانين العالم الفلكي لاسبيل إلى خرقها ومن المستحيل أن تستبدل بها الرغبات الإنسانية ونحن مضطرون لقبولها كما هي فالنساء يجب أن ينمين استعدادهن تجاه طبيعتهن الخاصة دون أن يحاولن تقليد الذكور فدورهم في تقدم المدنية أعلى من دور الرجال فلا ينبغي لهن أن يتخلين عنه، إن الناس عادة يغفلون شأن وظيفة الولادة عند المرأة مع أن هذه الوظيفة ضرورة لكمال نموها، ولذلك كان من الحمق والسخف صرف المرأة عن الأمومة، فلا ينبغي أن يتلقى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة، ولا أن يكون لهم أسلوب واحد في الحياة ولا مثل أعلى واحد وعلى المربين أن يعتبروا الفروق الجنسية والعقلية بين الذكر والأنثى وما بين دوريهما الطبيعيين، فبين الجنسين فروق لايمكن أن تزول ومن الواجب اعتبارها في بناء العالم المتدمن» ومعنى هذا أن مفتاح شخصية المرأة الذي جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً أصبح مقرراً في مجال الطب والعلم والبحث، وأصبحت هناك ملاحظة واضحة موجهة إلى ذلك المنحنى الخطير الذي تتجه إليه الحضارة الحديثة حين تنكر هذه التفرقة الواضحة بين الرجل والمرأة وبين تكوينهما النفسي والجسمي وبين مهمتهما المختلفتين المتكاملتين، وفي مقدمة ما يحتاج إلى نظر وتصحيح أسلوب التربية، وبرنامج التعليم الذي يجرى عليه العالم العصري كله، في العجز عن التفرقة بين ما يقدم للمرأة وما يقدم للرجل، وقد جرى المسلمون وراء برامج الغرب وما زالوا مقصرين في هذا المجال، مأخذوين بجرائر هذه التبعية الباطلة، وحول هذا المعنى تبرز الآن دعوة واضحة

الدلالة في الغرب يجب أن نلتفت إليها نحن الذين كنا أول من أشار إلى هذا التباين من أجل تصحيح أوضاع مجتمعاتنا: يقول العلماء والأطباء الآن: إن الاختلاف في توزيع الأعمال من شأنه أن يقتضى الأختلاف في الخصائص وفي التركيب العضوي وفي التركيب النفسي، فإذا واجهنا هذا الاختلاف في الخصائص: كان لنا أن نعرف أنه مؤشر واضح لاختلاف الوظائف:

ويقول الدكتور مارانون: إنه من المحقق أن كمال الإنسانية في حياة الجنس يتم ويجب أن يتم في اتجاه التطلع إلى التنويع أو التفريق الجنسي الآخذ الدقة بأن أصبح الرجل أكثر ما يكون رجلاً والمرأة أكثر ما تكون امرأة.

ولقد كان الإسلام داعياً في وضوح إلى هذه التفرقة،وإلى ضرورة تعميق الأنوثة والرجولة حتى لاتختلط: فليس الذكر كالأنثى.

وتجرى الآن الدعوة إلى إعادة إنشاء الإنسان في تمام شخصيته، فيكون كل فرد إما ذكراً وإما أنثى،فلا يتقمص مطلقاً صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه الذاتي.

إذا كانت هناك فروق واضحة بين الرجل والمرأة في التركيب النفسي والجسماني نتيجة اختلاف الوظيفة وتكامل بين شقى النواة الواحدة فإن هناك فروقاً بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية،نتيجة اختلاف المفاهيم والقيم والعقائد. ونتيجة الظروف السياسية والاجتماعية التي دفعت بالمرأة الغربية إلى مجالات واسعة من الحرية والعمل وتحت ضغط كثير من الظروف والعوامل الطبيعية والمصطنعة، ولقد أشار الباحثان إلى هذا المعنى حين أشارا إلي اليهودية التلمودية التي أخرجت المرأة في الغرب لتحقيق هدفها في إقامة (عالمية الربا) والمرأة عدة هذا الهدف وأداته وما كان لذلك من معارضة لمفاهيم المسيحية الغربية، فقد أخرجت المرأة إلى المرقص والمسرح والسينما وقضى على الحد الفاصل بين الحرة والأمة، وبين امرأة البيت وأداة السمر، وأقيمت لذلك أندية العراة ومسابقات الأزياء والملابس وملكات الجمال بما أدى إلى زعزعة كيان الأسرة وتحطيم العلاقة بين الرجل والمرأة والقضاء على الأجيال

الجديدة، وكانت وراء ذلك فلسفة ذات بريق ترضى الأهواء وربما تعجب بها المرأة نفسها،وهي وسيلة إلى إعادتها إلى عصر الحريم والبغاء وذلك تحت اسم الحرية والحب والانطلاق، وما اتصل بهذا من الدعوة إلى إلغاء التعاقد الشرعي، وإقامة علاقات حرة بدون عقد،والدعوة إلى إلغاء قوامة الرجل» وقد استهدف ذلك كله القضاء على نظام الأسرة الذي هو دعامة الحياة الاجتماعية الأولى، ونقل مفاهيم العلاقات بين المرأة والرجل من المفهوم الإنساني الذي كرمت الأديان به المرأة إلي المفهوم البشري القائم على الأهواء والشهوات، وإعلاء شأن الغرائز والرغبات المذلة، والقضاء على مهمة المرأة الأصلية وهي إعداد الأجيال الجديدة والسهر عليها وقد أحست المرأة في الغرب الآن مدى هذا الخطر الذي يتهددها وتملأ نفسها الآن علامات الخوف والتمزق،لأنها جاوزت الفطرة وبعدت عن طبيعتها الحقيقية وأخذت تحس بأن القوى الضاغطة إنما تود أن تحطم فيها كل كرامة وأمن بعد أن سلبتها مكانها الطبيعي وعرشها الرصين في البيت.

إن أخطر ما يطرح الآن من نظريات في شأن المرأة هو محاولة خلق تصور يتمثل في قدرة المرأة على الحياة في المجتمع مستقلة عن الأب والأسرة والزوج من حيث هي قادرة مادياً على أن تجد موردها الذي تعيش به ومن هنا فإن هذه الميزة في رأيهم يمكن أن تعطيها الحق في أن تختار الطريق الذي ترضاه في الحياة الاجتماعية وقديماً كانت المرأة قادرة على أمر الرزق من غير أن تعمل ولكنها كانت تعرف أن وضعها في المجتمع على النحو الذي أعدتها له الفطرة هو أسلم الأوضاع، ولم يكن عاملاً من عوامل التمرد،أو فرض الرأي،أو التمييز،بل كانت المرأة تقدم ما عندها لزوجها وتقبل تصرفه فيه وتبقى هي في مكانها الطبيعي دون أن تقيم في الأسرة وضعاً مميزاً تضطرب معه أمورها وينشأ الأبناء بين توجيهين ووصايتين، كل منهما له وجهة مختلفة.

كذلك فإن المرأة في الغرب تواجه أخطاراً أخرى منها قدرتها على اختيار موانع الحمل أو الإجهاض كأسلوب يفتح الطريق أمام تجاوز وضعها الصحيح في المجتمع

كزوجة وأم.

ولقد كان للنظريات التي قدمها ماركس وفرويد ودوركايم وسارتر من العوامل الهامة في تشكيل هذه المفاهيم الجديدة: مفاهيم التآمر على الأسرة وعلى مكانة المرأة الحقيقية، ووسيلة لإغرائها بأن تنحرف وأن تتجاوز الغاية الصحيحة، ومن هنا فسدت العلاقة بين الرجل والمرأة، وكان ذلك على حساب كرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأسرة والبيت والأجيال القادمة.

ولا ريب أن تصوير فرويد للفرد البشري بصورة الحيوان في دوافعه، كانت عاملاً هاماً في الأخطار التي وجهت إلى مفاهيم المرأة، من حيث أصابت العلاقة الكريمة الرفيعة بين الرجل والمرأة في الصميم وقصرت هذه العلاقة الواسعة العميقة على أنها علاقة رغبة عارضة.

ومن ثم تحولت المرأة المكرمة التي ترتفع بمكانتها على الشبهات لأن تكون الأداة المبذولة على نحو ما.

أما الإسلام فقد قرر أن العلاقة بين المرأة والرجل متعددة الأطراف واسعة المدى، وأن تحقيق الرغبات الحسية فيها هو جزء قليل من عطاء مزدوج مشترك فيه العاطفة والرحمة والحب والرعاية والمسئولية إزاء الأجيال الجديدة وتشكيل الأبناء على نحو يجعلهم أكثر قدرة على مواجهة الحياة.

هذا المعنى لم يكن ليتحقق على النحو السليم إلا بأن تستقر المرأة وتقيم، وأن يتحرك الرجل ويعمل، عندئذ تجد من فطرتها القدرة على أداء هذه المهمة الكبرى.

وأخطر ما في ذلك رعاية الطفل بعد حمله وولادته على نحو يجعله سوياً، بالعاطفة والحنان الذي لاتستطيع أي قوة أن تمد به الطفل غير أمه، فإذا لم يتحقق له هذا الحنان بالقدر الكافي في فترة الرضاع والتربية الأولى نشأ شاذاً وكان خطراً على المجتمع، وإذا استبدل هذا الحنان بحنان آخر لم يتحقق الغرض بل إن حرمان الطفل الرضيع من لبن الأم أصبح في تقدير الطب الحديث عاملاً هاماً في التأثير

على كيان الطفل النفسي والجسدي والاجتماعي جميعاً، وأن الأطباء اليوم يدقون ناقوس الخطر من أجل التنبيه إلي أخطار الرضاعة الصناعية وإن امتناع الأمهات عن رضاعة أطفالهن واستخدام اللبن الصناعي المستورد ينطوى على مخاطر صحية، حيث تبين أن هناك علاقة ضخمة بين زيادة الأمراض والوفيات وبين نوع الغذاء وأشار الأطباء إلي مدى خطر تقليد الأم الأوربية والأمريكية، حيث إن شروط الرضاعة الصناعية الصحية يصعب توفرها في البلاد النامية وأن ظاهرة فطام الرضيع عن لبن الأم في الشهر الأول والثاني ينطوي على خطائر فادحة للأم والطفل على السواء وأبرزها حرمان الطفل من الغذاء الطبيعي السحري الذي يؤثر على تكوينه ومدى مقاومته للأمراض وكذلك فإن الحرمان من ممارسة الصورة الكاملة للأمومة أثناء الرضاعة هو خسارة عاطفية للطفل والأم من العسير تقدير مداها بالأرقام.

كما كشف الطب الحديث عن أن لبن الأم من المستحيل تقليده صناعياً فهو ليس مجرد غذاء كامل فحسب بل تسرى في مكوناته عناصر تقاوم الجراثيم وتحصن الطفل، ونقول: ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ فأين من أين؟.

ولقد أشار الباحثون الاجتماعيون في الغرب إلى مدى الخطر الذي ارتكبه المجتمع العصري في ذلك، يقول الكسي كاريل: لقد اركتب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى ينصرفن لأعمالهن أو مطامعهن الاجتماعية، أو مباذلهن أو هوايتهن الأدبية والفنية، وارتياد دور السينما والتمثيل وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل، إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيه الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة، لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلى والعاطفى طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه، إذ أنه لايتعلم إلا قليلاً من الأطفال الذين في مثل سنه، وحينما يكون مجرد وحدة في المدرسة فإنه يظل غير مكتمل».

ولا ريب أن ما يحذر منه الطبيب الغربي هذا نحن في حاجة إلى الأخذ به حيث نجد المشكلة نفسها في مجتمعاتنا اليوم.

ولا ريب أن المرأة في الغرب قد وقعت تحت تأثير محظور شديد الخطر فهي مستغلة اقتصادياً واجتماعياً، وأصبحت تحس اليوم بأنها تجرى ضد الفطرة وتتمنى عودتها إلى الأسرة والبيت، أما المرأة المسلمة فقد حماها الإسلام من الخطر وحفظ لها شخصيتها وكيانها وهيأ لها الظروف لتكون عفيفة طاهرة، وفي سبيل هذه الحماية ومن أجل حماية عفتها وسلامة نفسيتها أعطاها حقوقها الاقتصادية حتى لاتكون أداة في يد الرجل الفاسد، وبذلك حفظها من أن تكون تحت ضغط الحاجة التي يتطلع بعض الناس من ورائها إلى السيطرة عليها واستغلالها فاعتبر سلامة المرأة في سلامة نفسيتها وفي حماية عفتها لأن دمار نفسية المرأة من شأنه أن يهدم حياتها ويجعلها مادية إباحية مندفعة وراء مطامع الرجل وأهوائه.

لقد أعطى الإسلام المرأة من الكرامة والعزة ما يؤهلها بحق لأن تحمل رسالتها الضخمة: رسالة بناء الأجيال المتجددة ومن أجل هذه الرسالة كانت خصائصها الذاتية التي تختلف بها عن الرجل، فهي في هذا العمل المعد لها (زوجة وأماً) إنما تحتاج إلى قدر من العاطفة أكبر من قدر الرجل حتى تسبغ الحنان والرحمة والخير على ذلك المحيط الذي تعيش فيه، وليس ذلك مما ينتقص قدرها، بل هو أمر غريزي متصل بوظيفتها، ولقد جعل لها من العوامل المكونة ما يدعو الرجل إلى الميل إليها، هذا الميل أساس النسل وعمارة الدنيا وليس الميل مقصوداً لذاته وإنما هو وسيلة لغيره وقد نظم الإسلام له شرعة واضحة المعالم، وحد له الحدود وأمر المرأة أن تستتر وأن لاتبدى مواضع الزينة، فلا يليق بها أن تلبس ما يحدد العورة ولا ما يصفها فضلاً عما يكشفها ويبديها، أما كشف الوجه واليدين فإن أمنت الفتنة جاز لها ذلك وإلا فهو حرام أيضاً، كما حرم الإسلام الإسراف في الزينة فليس من حق المرأة أن تلبس ثوباً رقيقاً يصف جسمها وتخرج به إلى الناس، كذلك فقد حرم الإسلام عليها تغيير خلق الله في سبع مواضع منها "والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة." كذلك يحرم الإسلام الخلوة من غير محرم ويسمح لها الإسلام بعد ذلك أن تؤدى حقوقها في حشمة ووقار ومن غير خروج على الحد المشروع ولا يقر

الإسلام غشيان الحفلات ودور السينما والتمثيل وشواطئ البحار، ويجعل الإسلام دائماً ضوابطه وحدوده وقيمه الأخلاقية أساساً لكل نهضة أو حرية بعيدة عن الخلاعة والإباحة والتهتك، وفي سبيل الغاية من العلم أو العمل فإن الضوابط التي وضعها الإسلام لا تحول في بلوغها إلى أقصى مدى، بل إن هذه الضوابط تعطى هذه الوجهة رصانة وثراء وتحول دون طمع ذوي القلوب المريضة.

تقول الكاتبة الغربية التي أسلمت (مريم جميلة) لاريب أن الخطأ إنما يأتي من هذه الفلسفات المسمومة التي تحاول أن تفسر معنى التحرر على أنه الإباحة المطلقة للنساء في الاختلاط بالرجال حيث شئن وأنى ذهبن بدون قيد أو شرط وفي اختيار الأزياء غير المحتشمة وفي توظيفهن خارج البيوت وفي الأسواق والمسارح ودور السينما وفي مساهمتهن في الحياة العامة فبهذا تمزقت أواصر الأسرة وانتهكت الحرمات.

وقد نبه برتراندرسل إلى أثر خطر الاختلاط على الحياة الزوجية حين قال في كتابه (الأخلاق والزواج) هناك شرط مهم في دعم الحياة الزوجية ذلك هو خلو الحياة الاجتماعية من النظم التي تسمح بالمصادقة والمخالطة بين المتزوجين من الرجال والنساء سواء في العمل أو في المناسبات وماشاكلها ذلك أن العلاقات العاطفية بين المتزوجين وغير المتزوجين من الرجال والنساء-خارج دائرة الحياة الزوجية-هي سبب شقاء الأزواج وكثرة حوادث الطلاق، وليس عسيراً أن تجمع أمثلة كثيرة عن البيوت التي انهارت بسبب اتصال الأزواج والزوجات بغير شركائهم في الحياة الزوجية».

وهذا الذي يراه فلاسفة العصر خطراً من أخطار الأسرة والمرأة والحياة الزوجية نبه إليه الإسلام وحرص على حماية المرأة منه منذ فرض لها شرعتها وحين أحاطها بعوامل الأمن والصون، بل لقد ذهب الإسلام إلى أبعد من هذا بأن جعل لها ولولي أمرها أن يعترض على زواج المرأة بمن هو أقل منزلة، كما أنه أقر عدم كفاءة الفاسق للزواج بالمرأة العفيفة.

ومما أقره الإسلام أن العفة هي أن تكون المرأة للرجل وحده دون غيره، روحياً

وجسدياً، وهذا لايتم إلا في ضوء رسالة المرأة الأصلية بجميع محصناتها الاقتصادية والاجتماعية، أما تحرير المرأة اقتصادياً عن طريق العمل فإنه زلزل مكانتها ورسالتها وخفف مكانة الرجل وعرض علاقاتهما للأخطار التي أشار إليها برتراند رسل حين أشار إلى نزول الرجل عن سلطانه وإعطائها الحرية بما يهدد العلاقة الروحية والرابطة النفسية.

وهذا ما رددته مريم جميلة في قولها بعد إسلامها: إن على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذي جاءت أحكامه وآدابه صائنة لحرماتهن راعية لكرامتهن محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك وضياع الأسرة.

* * * * *

عمل الإسلام على صيانة المرأة من جور العرف والمواضعات المتغيرة فحفظ مقامها الاجتماعي من الابتذال المحاط بالمجاملة والرياء على نحو ما نرى في المجتمعات الغربية، فهناك احترام ظاهر لها ثم ابتذال غير رحيم ولا كريم، وقد جعل الإسلام «الصيانة» هي المحور الذي تدور حوله أكثر الأحكام، ولقد كانت دعوة إخراج المرأة من البيت باسم الحرية هي أول معاول الهدم في عرشها الطبيعي وزلزلة مكانها في الأسرة، وقد جارت المرأة الدعوة المسمومة ظناً منها أنها تحقق لها السعادة، وكانت هذه المفاهيم الجديدة من أنها مستقلة عن الرجل وأنها تكسب ولها مورد خاص يمكنها من أن تتمرد على الرجل والأسرة، وما تشكل في نفسيتها نتيجة الدعوات المدمرة من كراهية الولادة والطفولة وتربية الأبناء، كل ذلك كان له أثره على الأسرة عامة وعلى المرأة بصفة خاصة فإن هذا الوضع غير الطبيعي المعارض لفطرتها قد خلق في حياتها قلقاً وتمزقاً بالغاً لاحد لخطره على نفسيتها، وفي هذا قال أوجست كونت: (لو نال النساء يوماً من الأيام هذه المساواة المادية التي يطلبها لهن الذين يزعمون الدفاع عنهن بغير إذنهن فإنهن في هذه الحالة سيكن خاضعات في أكثر المصانع لمزاحمة يومية قوية بحيث لايمكنهن القيام بها، وفي الوقت نفسه تتكدر المنابع

الأصلية للمحبة المتبادلة بين الجنسين).

لقد تبين للكتاب الاجتماعيين في الغرب أن هذه الدعوة إلى إخراج المرأة من مكان سيادتها إنما كان لهدف واضح، فقد دعيت إلي المرقص والتبرج والخروج على التقاليد، وما نالته المرأة من السلطان على عقول الرجال إنما كان تحت تأثير الأضواء وفي نشوة الأهواء، ولكن هذا السلطان كله لم يستعمل في البناء والتشييد، ولكنه حين عمرت السهرات الصاخبة خربت البيوت المقفرة.

كذلك يشير الباحثون الغربيون إلى الأخطار التي نجمت من وجود مخترعات حديثة أصبحت تعجز القانون الأخلاقي في تقييد العلاقات بين الرجل والمرأة وقصرها على الزواج الشرعي.

ونحن في بلاد الإسلام من الخطأ أن نتساق وراء التحرر الغربي مغمضة عيوننا، وإن كانوا قد تراخوا في المحافظة على مكانة المرأة ورسالتها وحماية الأسرة: ذلك الحصن الحصين للأمة فإن علينا أن نبتعد عن مواطن الشر والشبهات وأن للمرأة كرامتها، فالطابع الإسلامي في المحافظة على الخلق هو صورة رائعة لتقدير العفة وتوقير الشرف.

ولا ريب أن في استطاعة المرأة أن تجمع بين حقها في التعليم والعمل والاستقلال الاقتصادي وبين الكرامة والاحتشام ورعاية حق الله وحدوده.

ولقد أشارت سجريدهونكة إلى هذا المعنى حين قالت: إن تعبيرات احترام المرأة دخلت اللغات الأوربية على يد العرب والمسلمين».

واليوم ترتفع الصيحة في أنحاء العالم الغربي بالدعوة إلي عودة المرأة إلى مكانها الطبيعي، وإلى عرشها الخالد، وقال الكاتب الأمريكي نورمان بيلر: إن المسئولية الأولى للمرأة هي أن تبقى أطول وقت ممكن على الأرض لكي تعثر على أفضل شريك لحياتها وتتجنب أطفالاً يحسنون الجنس البشري.

الباب الرابع

العلوم والعلوم الإنسانية

(١٨)
التربيــــــة

التربية هي المحاولة التي تستهدف بناء الإنسان منذ اللحظات الأولى لوجوده، بناء الإنسان الفاهم لمهمته في الحياة ورسالته، القادر على مواجهة الأحداث والخطوب، العارف لمدى التحديات التي تواجه البشرية بالصراع بين الحق والباطل، ومن ثم فإن بناء الإنسان المسلم من شأنه أن يستوعب القدرة على فهم أبعاد وجوده ومحاولة القوى الدائبة السعي لمحاولة إخضاعه والسيطرة عليه والاستيلاء على مقدراته وثرواته وبذلك تختلف التربية الإسلامية عن التربية الغربية المحدثة والتربية اليونانية والفارسية القديمة لأنها تقوم أساساً على وجهة الأمة ومن خلالها عقائدها ومقدراتها وكيانها ولكل أمة وجهة تتجه إليها ومن ثم تكون التربية مرتبطة بوجهة الأمة.

أما المسلمون فهم المكلفون بالدعوة إلى الله الحق وحمل رسالة التوحيد إلى العالم كله فإذا وقعوا في براثن الغزو الخارجي كان عليهم أن يشكلوا أنفسهم على النحو الذي يجعلهم قادرين على المقاومة والمواجهة والصمود، حتى يحرروا بلادهم وعقيدتهم من براثن الاحتواء والتغريب، ليعودوا مرة أخرى إلى أداء رسالتهم الأصلية.

والتربية في الإسلام أوسع مدى من التعليم، فهي مرتبطة بالبيت والشارع والمدرسة، ومتصلة بالنفس والعقل والجسم جميعاً، وتقوم على القدرة العملية وتبدأ في حضن الأسرة عن طريق المحاكاة والتلقين والتقليد، ففي هذا الجو الذي تظله الأبوة الكريمة والأمومة الرحيمة في حياة قوامها أداء حق الله ومظهرها الصلاة والصوم والزكاة ورعاية الجار وإكرام الضيف وحيث تكون آيات القرآن هدى ورحمة، تتمثل صورة التربية التي تخرج الشباب المسلم القادر على فهم مهمته كإنسان

ودوره كابن ومكانه بين إخوته ووالديه وأساتذته وزملائه.

ثم تأتي في إطار التربية مرحلة التعليم ثم مرحلة الثقافة وكلها متصلة بالتربية متحركة في إطارها الأصيل وقوامها الخلق الكريم والعمل النافع، والحركة المتصلة بالهدف الأسمى، ومن هنا فإن التربية الإسلامية تتميز بطابع خاص وتختلف في أهدافها ووسائلها عن ألوان التربية الأخرى التي تتصل بالأمم في عصورها المختلفة، وقد جمعت التربية الإسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم، فهي تعنى بالتربية من أجل سلامة العقيدة والخلق والعقل والنفس والجسم دون أن تضحى بأن نوع منها على حساب النوع الآخر أو تعلى نوعاً منها على جميع الأنواع.

كذلك فقد عملت التربية الإسلامية على إعداد الإنسان، لا (المواطن): الإنسان البشري، القادر على أداء واجبه في إطار أمانته واستخلافه في الأرض وذلك وفق نظرة سمحة كريمة إلى الإنسان، والاعتراف برغباته ودوافعه، وتقبل تحقيقها في إطار الضوابط التي تحمى هذه الشخصية، وفي إطار الارتفاع بها إلى العمل الخالص لله المتمثل في خدمة المجتمع والبذل له والإنفاق وتقديم العون للفقير والضعيف وذي الحاجة، وتعترف التربية الإسلامية بقابلية الإنسان للتهذيب الخلقى وبضرورة العمل على ترقية الإنسان من فرديته المعترف بها أصلاً إلى الغيرية بالبذل واتقاء شح النفس واستعذاب الإنفاق ورعاية الغير.

فالتربية الإسلامية من شأنها أن تنقل الإنسان باختياره ورضاه من فرديته إلي غيرية خالصة للإنسانية كلها وليست غيرية محلية أو وطنية، وهذا الانتقال لايتم إلا عن طريق تزكية النفس، والنفس الإنسانية فيها تقبل واستعداد بالإيماء والحث والتوجيه والقدوة، إلى الانتقال من الأنانية والبخل والشح والإمساك إلي البذل والإنفاق عن طواعية.

والإسلام حين يعترف برغائب الإنسان كلها وحقه في الحصول عليها وممارستها ضمن ضوابط تحقق سلامتها وتبعدها عن التطرف والجمود معاً، فإنه يعمل على

ترقية الإنسان إلى درجة أعلى ومنزلة أسمى وهي الغيرية والبذل للناس جميعاً وتقديم بعض ما يملك لله سبحانه وتعالى ممثلاً في تحقيق التضامن العام بين أفراد المجتمع والتكامل الأوسع بين المسلمين جميعاً والإنسانية كافة.

ومن هنا يرتفع الإنسان فوق طبيعته الطينية المادية إلى درجة أعلى يقترب فيها من أشواقه الروحية التي هي جزء من كيانه الجامع بين المادة والروح وبذلك يصبح مؤهلاً لأن يكون ربانياً.

وبذلك يكون عمل التربية هو نقل الإنسان المسلم من الصورة الواقعية إلي الصورة الأسمى والأعلى والأرقى في درجات حسن الاتصال بالله والاستعداد لمرضاته ببذل بعض عطاء الله على وجوه الخير والرحمة وإسعاد الآخرين، ويصوغ المنهج التربوي الإسلامي قاعدة، وحدة الاتجاه أو (وحدة الفكر) بمعنى أن تقوم قاعدة عامة للنفس الإنسانية تلتقى فيها الأمة كلها على أرض الواقع، ولا يمنع هذا من الاختلاف في الفروع وتمثل الصلاة والصوم والزكاة وغيرها من العبادات هذه الوحدة وتعمل على بناء (جذر) فكري عام، كما يقرر المنهج التربوي الإسلامي أن الطبيعة الإسلامية مرنة ويمكن تشكيلها وتغييرها في ضوء حقائق الدين،وهي أساس بناء الأمم والمجتمعات ويمكن عن طريق بناء الإرادة الإنسانية تغيير العرف العام، ومن هذه النقطة استطاع المصلحون إعادة بناء المجتمعات،لتخرج من الجمود إلى الحركة ومن التخلف إلى النهضة، كذلك دعت إلي مراعاة التمييز بين الأنثى والذكر في الملابس والحركة والتعليم والتوجيه فلكل اتجاهه وطابعه ووظيفته الخاصة ومن الخطر التراخي في تقدير هذه الفوارق، ومن الضروري العناية بتعميقها حتى تحفظ شخصية الفتى في رجولتها والفتاة في أنوثتها. وأن يكون بناء الأبناء على الخشونة والصبر والفروسية «علموا أولادكم الرماية والعوم ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً وروّوهم ما يجمل من الشعر».

والقرآن هو منطلق الفكر واللسان والنظر والتأمل في كيان كل مسلم،فهو المصدر الأول للتربية والتعليم والثقافة والخلق.

٢- قدم الفكر الإسلامي تراثاً خصباً في بناء الإنسان المسلم بالتربية، وما زال هذه التراث حياً نابضاً بالحياة، وقد تفتحت آفاقه فأعطت المناهج الحديثة من تجربته الصادقة وخبرته النافعة، وفي مقدمة من عنوا بذلك الغزالي وابن سينا والعبدري والقابسي وابن خلدون.

ركزت أصول التربية الإسلامية على:

أولاً) بناء الخلق (ويرى الغزالي) أن كل تربية لاترمي إلى ترقية الخلق الإسلامي وتقويته ليست جديرة بهذا الإسم، وأن العلم وحده لايغنى بدون الأخلاق، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية، ويجب ألا ينظر إلى الخلق على أنه شيء شخصى محض لايهم سوى صاحبه، وإذا كان الغرض من العلم كسب المعيشة وحده فإن الأفق العقلى يضيق ويحرم المرء الترقى الصحيح، فالمهارة في فن ما إذا كانت مقرونة بفساد في الخلق وضعف في النفس فهي لاتكسب صاحبها راحة البال ولاتجعله موضع تقدير الناس - وقد كان للتركيز على التربية الخلقية أهمية بالغة، فهو الذي يمكن من مقاومة المغريات ويحول دون تضحية العرض على مذبح الشهوة في حالة الغنى،ولا على مذهب الحاجة في حالة الفقر وأن محل التربية الخلقية في تقدير العلماء هو «ارتفاعها بالنفس».

ثانياً) على المتعلم أن يستعد لتلقى العلم بتطهير النفس من رذائل الأخلاق ومذمومات الأفعال،وأن يكون مقصوده الأسمى معرفة الله وطهارة الخلق وخدمة الناس: (فالطفل أمانة عند والديه - كما يقول الإمام الغزالي - وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، وأن الطفل المستحى لاينبغى أن يهمل بل يستعان في تأديبه بحيائه وتمييزه،ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة،بل يتغافل عنه ولا يهتك ستره، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، وإن على المربي أن ينظر في مرض المريض وفي حال سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته، وقد دعا المربون المسلمون إلى أن يلعب الأطفال بعد المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل،وحتي يستأنفوا دروروسهم بشوق واهتمام، كما دعوا إلى

أخذهم بالرفق ما أمكن.

بل ويرى بعض المربين أن الصبي يجب البدء بتهذيبه منذ فطامه؛ لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعد ذلك نزعها من نفسه، وأن يكون التهذيب بالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى وبالإيناس مرة وبالإيحاش ثانية وأن لايكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإن ذلك يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويخفف وقع الكلام على نفسه، ودعا بعض المربين إلى أن يزجر المتعلم عن سوء الخلق بطريق التعريض لا التصريح، وبطريق الرحمة لا التوبيخ.

ثالثاً) يقرر المربون المسلمون أن الإيمان بالله هو حجر الزاوية في التربية الإسلامية وخلوص النية لله وأن ذلك يستتبع طهارة النفس والصلاة وحفظ القرآن (لأن القرآن ديوان المسلمين فيه جوهر العقيدة وفيه تفصيل العبادات وفيه إرشاد إلى السلوك الصحيح).

وإن على المربين أن يعودوا الأطفال القصد في المطعم وبساطة الملبس والقناعة بالتوسط في أمور الحياة كلها، وأن يجعلوا من الرياضة البدنية طريقاً إلي تعليم الأطفال أن قوة أبدانهم موجهة إلى تحسين العمل، وحمل أمانة استخلاف الله للإنسان في الأرض فلا يفرط فيها بالإنفاق في الأهواء، كما يدعو المربون المسلمون إلى أن يعود الصبي مكارم الأخلاق ويجنب سيئها ويمنع من لغو الكلام وفاحشه ويمنع من قرناء السوء، وأن لايسامح في سن التمييز في ترك الصلاة والطهارة وأن لايؤخذ الغلمان بطريقة واحدة بل يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم وأسنانهم وبيئاتهم.

رابعاً) دعا علماء التربية أن يكون المربون أنفسهم قدوة حسنة للمتعلمين خلقاً وكلاماً وملبساً وسلوكاً، وأن لايكاشفوا الأبناء بمباذلهم وأن يعوضوا لهم ما قد يفقدونه في بيوتهم وأن يكونوا مثالاً عالياً يطابق ما يقرءون عن أعلام الإسلام.

ودعا علماء التربية الإسلامية إلى أن يكون المؤدب (عاقلاً نزيها، وقوراً غير

مبتذل، رزيناً غير مسترسل، بعيداً عن الخفة والسخافة محتشماً رصيناً في تدريسه لايطرق إلى المهازل والمداعبات التافهة ولا يأتي بأعمال مستهينة حتى يبقى في نظر الأولاد «المثل الأعلى» الذي يسعى كل تلميذ للتكيف معه والتأثر به والاقتداء به، ولا يعنى هذا أن يكون المعلم جامداً مقطب الجبين متجهم الوجه بل من الأحسن أن يكون حلو الحديث لبيب الإشارة مرتب الهندام لطيف المظهر).

خامساً) دعا المربون المسلمون أن يمتنع المتعلمون عن الصفات الرديئة: وهي الغضب والحقد والحسد والكبر والعجب، وأن تكون نظافتهم ظاهره وباطنة وأن لايتكبر المتعلم عن العلم ولا يتآمر على المعلم بل يلقى إليه زمام أمره ويذعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته، ويطلب الثواب والشرف بخدمته فإن العلم لاينال إلا بالتواضع وإلقاء السمع:

سادساً) دعت أصول التربية الإسلامية إلى تربية نوازع العزة والكرامة والحب والإيثار والرحمة في نفوس الأطفال، ولما كان مقرراً في الإسلام أن الإنسان يولد على الفطرة النقية المتقبلة للخير والشر فإنه لذلك في حاجة إلى التوجه إلى إحدى الوجهتين ولذلك يتحتم بناء الفرد وتكوين شخصيته بالتربية والموالاة لإخراجه من آثار وراثياته وبيئته إلى نقاء الإسلام نفسه، وذلك بتربية إرادته وتشكيل خصائصة المكتسبة، وذلك حتى يصبح الإنسان قادراً على تغيير المجتمع إلى جانب الخير والرحمة والتقدم والإيجابية.

سابعاً) ركز المربون المسلمون على دور البيت وعلى «القدوة» الأولى المثلة في الوالدين وضرورة حماية الوالدين انفسهما من أن يرى الطفل خلافهما أو يسمع حوارهما في حالات الغضب، وأن يكونا له أمناء معلمين يفتحان له أبواب الفهم والذوق ويدلاه على الخير ويرداه عن الشر، وأن يتعهداه يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة ويسألانه عن أقرانه وعن دروسه وعما وقع في يومه وعن أصدقائه فإن القرين بالقرين ينسب، وأن يكون دور الوالد واضحاً بأنه قائد السفينة وربانها وأن تكون الأم في مكان الاحترام والتقدير له ولتوجيهاته حين يتعهدها مع أبنائها فلا تنقل

لهم عنه صورة تخدش إعجابهم به أو تقديرهم له.

وقرر المربون المسلمون مسئولية الوالدين في تعليم أولادهم الصلاة وتعريفهم قراءة القرآن لضرورتها في الصلاة وأن الوالد مكلف بذلك مسئول أمام الله عن تقصيره في ذلك وفي تعليمهم مبادئ الأخلاق والآداب وحسن معاملة الناس والشفقة بهم والأدب معهم.

ثامناً) أولى المربون المسلمون اهتماماً كبيراً بتربية الفتاة، ودعوا إلى ضرورة حماية الفتاة من الأخطار وتوجيهها إلى أسلوب الكلام والملبس واختلافها في كثير من أمورها الخاصة عن إخوتها الصبيان ودعوا إلى ألا يخلط بين الذكران والإناث في التعليم وأن يفردن بأسلوب خاص في التربية والتوجيه وقد كان من أسلوب التربية حفظ آيات القرآن وتعلم الصلاة وتوجيهه في محبة الأمومة، ورسالتها ودورهن في إعداد البيوت ورعاية الزوج وتربية الطفل.

تاسعاً) وضع عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده منهجاً تربوياً رائعاً قال: (علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن واحملهم على الأخلاق الجميلة وروهم الشعر يشجعوا وينجدوا وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم فإنهم أحسن الناس رقة وأحسنهم أدباً وجنبهم السفلة والخدم فإنهم أسوأ الناس، ووقرهم في العلانية وذلهم في السر، وأضربهم على الكذب فإن الكذب يدعو إلى الفجور، وجنبهم شتم أعراض الرجال، فإن الحر لايجد عن عرضه عوضاً، وإذا ولوا أمراً فامنعهم من ضرب الأبشار فإنه عار باق ووتر مطلوب، واحملهم على صلة الأرحام وأعلمهم أن الأدب أولى من النسب).

ومن نصائح المربين إلي الأبناء: إياك والجود بدينك والبخل بمالك، إذا هززت اهزز كريماً يلين لهزتك ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لاينفجر ماؤها. ما استحسنت من غيرك فاعمل به وما استقبحت فاجتنبه.

ودعا أحد المربين إلى أن يمدح اليافع إذا ظهر منه شيء جميل، وأن يزين لديه

مخالفة الشهوات والترفع عن الحرص في المأكل والمشرب وأن يحبب إليه إيثار غيره على نفسه ويؤاخذه بإسرافه في المأكل والملابس الفاخرة.

وقال عقبة بن أبي سفيان لمربي ولده: ليكن إصلاحك بني إصلاحك نفسك فإن عيونهم معقودة بعيبك فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت، وقال ابن سينا: إن الصبي عن الصبي ألقن.

عاشراً) من أبرز خصائص التربية الإسلامية:

١- إقرار المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي هذه التي يترتب عليها الجزاء الأخروي بعد البعث، وهي مسئولية ذات إطار مرن مفتوح فيها التخفيف وتقدير الاستطاعة ودفع الحرج وفيها المغفرة، ومن هنا أطلق عليها (التكليف الملزم في حدود الطاقة الممكنة).

٢- وفي الجانب الإنساني اعتراف بالرغبات والهواتف الحسية، ودعوة إلى تحقيقها في إطار شريف له ضوابطه مع التوسط والاعتدال وإعلاء لها في حالة عدم القدرة المادية على تحقيقها.

٣- وهناك الحرية المكفولة في إطار مراعاة حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليها.

٤- الدعوة إلي الموازنة بين رغبات الجسم وأشواق الروح من حيث إن الإنسان مادة وروح وهي ما يطلق عليها اسم «التكامل».

٥- مسايرة الفطرة والعقل: فالإنسان جسم وروح وعقل،ولا بد للقوى الثلاث من الاستجابة المتكاملة.

٦- الإيمان بالبعث والجزاء وتوجيه الأعمال كلها لله ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ﴾ .

٧- لاتوجد خطيئة أصلية تقف أمام الإنسان كالشبح،ليحس دائماً بأنه منتقص ولتفرض عليه طابع التشاؤم والضياع.

٨- دعوة إلي مجاهدة النفس واحتمال أسباب المعارضة للأهواء واللذات المسرفة ورغبة إلى الارتفاع بالنفس الإنسانية إلى الغيرية والبذل.

٩- سد الذرائع باتقاء مواضع الشك والريبة والخطر واتقاء الفتنة ومقاومة الإفراط في الترف.

١٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر والمرحمة.

١١-= الإلزام بدوافع النداء الداخلي وذلك بأن يكون الفرد رقيباً على نفسه وعلى المجتمع وطرق الإلزام بوازع العقل وبوازع الترغيب والترهيب وبوازع الكفارات.

١٢- بناء الإرادة، وبناء النداء الداخلي اليقظ وبناء الذوق: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

١٣- التركيز على ميادين الحس والعقل والروح وتزكيتها وعدم إهمال واحدة منها والتنسيق بينها وبين الجوانب المادية والجسدية.

وبالجملة فإن أبرز معالم التربية الإسلامية وخصائصها: بناء الإرادة ومجاهدة النفس وإعداد الإنسان ليكون قادراً على الإنصاف من النفس بالاعتراف بالخطأ وتعديل المسار واتقاء شح النفس بالبذل والإيثار.

حادي عشر) إن نظرية ديوي في فصل الدين عن التربية والتعليم لم تجد قبولاً في وطنها الذي ظهرت فيه ولقيت معارضة شديدة،فهي بالأولى لاتصلح لنقلها إلى المجتمع الإسلامي، ولقد كان الدين في نظر الغرب معوقاً عن النهضة ومن هنا كان موقفهم منه، ولكن الإسلام لم يكن إلا فاتحاً إلى العلم العام والعلم التجريبي بصفة خاصة ولولا التربية الإسلامية القائمة على الخلق والتقوى لما استطاع العلماء المسلمون مثابرة في الأبحاث التي حققوها والإضافات التي قدموها في مجال العلوم المختلفة التجريبية منها والأبحاث الإنسانية أيضاً.

وقد أشار بيارد دودج في كتابه «التربية الإسلامية في العصور المتوسطة» إلى هذا

المعنى حين قال: إن التربية الإسلامية تهدف إلى نشدان الحقيقة والخير لذاتهما وعندما ترى سير علماء المسلمين الذين انقطعوا للعلم تعجب بالتصوف العلمي والتحرر والجلد اللذين كانا يتجليان في العالم الإسلامي، فلا غرض مادي ولا هوى سياسي ولا سعي لشهرة زائلة،بل وقف العقل والنفس للوصول إلى الحقائق والسعي إليها وذلك أن التربية الإسلامية كانت تعنى أولاً وقبل كل شيء الأخلاق والفضائل ولقد أدرك المربون بالبدء أن تدريب العقل واستيعاب الحقائق هما جزء من عملية تدريب الطالب ولكن الغاية القصوى هي تهذيب النفس وتقويم الأخلاق.

ثاني عشر) تجمع المقررات التربوية الإسلامية على أن هدف التربية هي تكوين النفسية الإسلامية والعقلية الإسلامية وأن الغاية هي إيجاد الشخصية الإسلامية القادرة على بناء المجتمع المسلم ومصدر القوة في مواجهة كل تحديات الغزو الخارجي فضلاً عن النمو والاستمرار، ولذلك فإن التربية ترتبط ببناء الشخصية وبالبطولة وتمهد النفس والعقل لتلقي مادة التعليم عامة ثم تلقى مادة الثقافة خاصة وتجعل العناصر الثلاثة لهذا البناء من القرآن والقدوة والتاريخ ممثلاً في المواقف الحاسمة والنماذج الكريمة ومن هذا يتبين شمول التربية الإسلامية وقدرتها على التأثير الكامل من الناحية العقلية والخلقية والدينية،فهي اجتماعية من حيث تربية روح البذل والإخاء والغيرية،وهي قومية وطنية من حيث حب الأرض والأهل،وهي إنسانية من حيث دعوتها إلى القيم العليا للإخاء البشري والعدل والرحمة، وهي في جميع عناصرها متجهة إلى الارتباط بالله جل وعلا ارتباطاً ثابتاً، ثم هي مرتبطة بالعصر متطلعة إلى النهضة والتقدم دون أن يفقدها ذلك قيمها وروابطها الربانية المصدر، الإنسانية الاتجاه، الأخلاقية الهدف.

وفي أبرز معالم التربية وأهم وجهة لها علاج النفس الإنسانية والارتفاع بها،وذلك بتربية القوة الضابطة في المسلم وتنميتها منذ الصغر، ومن شأن الصلاة والصيام تحقيق ذلك، فالصلاة تفرض على المسلم الوقت المحدد الذي يقطع معه كل عمل من أجل أداء الفريضة خمس مرات في اليوم، وبها يتركز الانتباه حول عبادة الله

والتوجه إليه ويصبح هذا التركيز قوة فعاله تمكن الإنسان من التفكير السليم، والصيام أوضح وسيلة من وسائل الضبط التربوية التي شرعها الإسلام فالمسلم يمتنع مختاراً عن الطعام والشراب ولذائذ الحياة المباحة حتى يتعود الارتفاع عن رغبات نفسه فيحقق بذلك السيطرة على كيانه وقوته وإرادته.

ويدعو الإسلام إلى العناية بالجسم: طهارة ونظافة وملبساً ويدعو إلى تقويته ويحرض على السباحة والمصارعة والرمي والجري والفروسية وعليه في مقدمة ذلك أن يعتاد الخشونة «اخشوشنوا فإن النعيم لا يدوم».

ويدعو الإسلام إلى الفكر والتأمل والنظر في الكون والتعرف على الله عن طريق خلقه، في هذه الآفاق الحافلة بعظيم صنع الله ويدعو القرآن إلى هذا في وضوح:

﴿ الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ .

ومن شأن هذا أن يربي الروح ويتحقق هدف وجود الإنسان على الأرض ورسالته في تعمير الكون باسم الله وعلى طريقه الذي رسمه وهذا هو معنى العبادة، وعلى الإنسان ألا يقصر في ربط نفسه بشقه الثاني (الروح) ولا يكتفى بشقه الأول (المادة) فللروح أشواقها إلى مصدرها الأعلى، وهي تحتاج إلي غذائها كما يحتاج الجسم إلى الطعام كذلك دعا الإسلام إلى تنمية العقل بالفكر والنظر والعمل في سبيل إنماء الحياة وتحسينها وتحكيمه في النهي عن الشر، وفي هذا قوله تعالى:

﴿ هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ .

﴿ ودعا الإسلام إلى بناء الإرادة القوية القادرة على العمل التي لاتستسلم إزاء الأحداث، لاتلين في مواجهة الحق شريطة بأن تتحرك بوازع نفسي صادق مؤمن، ومن هنا يتمثل التربية الإسلامية منهجاً متكاملاً جامعاً للروح والجسم

والعقل لاتطغى فيه ناحية من النواحي، يستخدم الإنسان فيها طاقاته المادية والمعنوية جميعاً حتى يحدث (التوازن) الذي يحول بينه وبين الصراع والتمزق والضياع والحيرة.

ومن هنا نعلم أن هدف التربية الإسلامية ليس الانسجام مع الحياة والملاءمة مع البيئة فحسب ولكنها أيضاً القدرة على دفع هذه الحياة إلى الوجهة الإنسانية الكريمة المغلبة للبذل والرحمة وإسعاد الفقراء.

ثالث عشر) حرص الإسلام في منهج التربية على مسئولية الآباء وهي مسئولية أصيلة حاسمة لها خطرها «فالرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته» والأب هو القدوة الأولى وهو ربان السفينة ولا ريب أن الجو النفسي والروحي والثقافي الذي يطلقه في البيت هو مصدر التوجيه الحقيقي للأبناء، حين يرونه راكعاً وساجداً ومتوضئاً وقارئاً للقرآن ومسيراً للأمور في هدى الله بعيداً عن الصغائر والعبارات المبتذلة. فعلى الأب أن يعد الطفل من الناحية النفسية والعقلية ويساعده على إظهار مواهبه وأن يكشف له ارتباطه بالطبيعة وبالحياة وبالله وأن يدعوه إلى الأخلاق الحميدة وأن يجعله عالي النفس عن الصغائر محباً للتبريز في مجال العلم والفهم، وأن يعرف إليه الأخطار المحيطة بوطنه وأمته ودينه حتى يكون قادراً على الملاءمة بينه وبين البيئة مع العمل على تغييرها وتحسينها وإضافة لبنة جديدة إلى بناء الحياة.

وعلى الوالد أن يرعى طفله في مراحله المختلفة بلا توقف، وأن يقيم معه صداقة وثيقة تحول بين الطفل وبين النفرة منه، وأن يكون رحيماً في المراحل الثلاث: مرحلة الوجدان ومرحلة المراهقة، ومرحلة التفكير وصناعة الشخصية.

وعليه أن يؤهله ليأخذ مكانه في الحياة وأن يؤدي وظيفته الاجتماعية وأن يستفيد من مكتسبات الأجيال السابقة وأن يكون له هدف وغاية وفق فهم واضح للوجهة الإسلامية الصحيحة فتكون له قاعدته من الإيمان والفهم والعقيدة التي يجعلها منظاره في رؤية الأشياء ومصدره في الحكم على الأمور.

فإذا ترك من غير عقيدة واضحة والتزام صحيح ومعرفة للضوابط والتحديات فإنه يصبح كريشة في مهب الريح تجتاحه الدعوات المختلفة والنظريات المتعددة، خاصة تلك البراقة المتصلة بالرغبات والغرائز. ولا يتحقق ذلك إلا إذا علمه الربط بين قوة العاطفة والإيمان والعقيدة وقوة العقل والفكر والنظر، وهما قوتان متكاملتان وليستا متضادتين.

رابع عشر) تقف التربية الإسلامية موقفاً جامعاً بين مناهج التربية: فهي تحرص على الربط بين الثوابت والمتغيرات، وهي تعطي الشباب المسلم كفاية روحية ونفسية وجسديه تجعله إنساناً قادراً على حمل أمانة المسئولية مع تربية الإرادة ثم في الوقت نفسه تفتح له باب المتغيرات المرتبطة بالعصر والتقدم والتطور وما يتصل بظروف المجتمعات والبيئات المختلفة، ولكنها تحرص حرصاً شديداً على ألا تضحى بالقيم الأساسية في سبيل المتغيرات وإنما توائم بينها في دقة وسلامة بحيث لايصبح الشباب المسلم مجمداً في إطارات أخلاقية جافة ولا ينزلق إلى مهاوي المغريات العصرية.

فهي بذلك تجمع بين أداء حق القيم التي جاءت بها رسالة السماء دون أن تفقد الأجيال المتجددة القدرة على التجاوب مع عصورها وبيئاتها والعمل فيها وترقيتها وإضافة لبنات جديدة في بناء العمران البشري، فالمسلم يؤمن إيماناً تاماً بأنه عامل هام بعمله وسعيه وحركته في تنمية هذا العمران البشري ودفعه إلى الأمام، ولكنه يتحرك إلى هذا السعي دون أن يخضع لزيف الحضارات وجوانبها الفاسدة المنهارة التي تحاول تدمير الإنسان نفسه والقضاء على وجهته الإيجابية الصالحة النازعة إلى الخير والحق والعدل.

ومن هنا فإن منهج التربية الإسلامية لايقر المناهج التربوية الوافدة التي تحاول أن تدفع الأجيال إلى الاستسلام الكامل لمغريات الحضارات والسقوط في مهاوي أخطارها وأخطائها وتقبلها وتبرير الأوضاع المنحرفة القائمة وهذا يعنى أن تبنى المجتمعات الإسلامية للأسلوب الغربي في التربية إنما يؤدي إلى فقدان الشخصية

وإلى سقوط المجتمع الإسلامي في هوة الأخطار التي تعاني منها المجتمعات الغربية في الوقت الحاضر تحت اسم أزمة الإنسان الحديث.

خامس عشر) إن هناك حملة ضخمة توجه ضد التربية الجامعة التي تجعل (الدين والأخلاق) من أسسها إلى جوار أسس أخرى خاصة بالنفس والجسم، وهي تستهدف بالذات منهج التربية الإسلامية، كذلك هناك دعوة وافدة إلي أن التعليم وحده يكفى لبناء الإنسان وهذا ما لايقره الفهم الإسلامي، فالإسلام يجمع إلى التعليم التربية ويرى أن العلم وحده لايؤدى مهمته الحقة إلا إذا صحبه خلق قوى وغاية واضحة قائمة على تقوى الله ولا بد في الإسلام من بناء العقل وبناء الوجدان معاً، وكذلك بناء الجسم والشخصية وعلى العلم أن يكون وسيلة إلى العمل النافع، ولقد كان من أكبر ما دعا إليه الإسلام وشدد عليه «النهي عن إفساد الفطرة» بالتعاليم الضارة ولذلك فقد حاطها بحوائط قوية فقد نبه النفوس أولاً إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة، وأمر بطلب الدليل المقنع على كل دعوة يتقدم بها داع إلى نحلة وكشف عن أن العلم ما لم يكن له إطار من الغاية الواضحة فإنه لايؤدي إلى غاية صحيحة.

وفي الإسلام يتحرك العلم والتعلم في إطار الأخلاق والعمل الصالح وترقية النفس والارتفاع بها من الذاتية إلى الغيرية.

كذلك فإن المنهج الإسلامي للتربية يتعارض تماماً مع المنهج الغربي من حيث تكامله هو وجزئية الآخر، فبينما الإسلام يأخذ الإنسان ككل ويتعامل معه (نفساً وعقلاً وجسماً) فإن التربية الغربية تتسم بالانشطارية فهي تركز على جانب واحد وتهمل الجوانب الأخرى فهي في مكان ما تربية جسمية خالصة وفي مكان آخر تربية عقلية صرفة، وهي في مكان ما تحاول تربية الفرد حراً كل الحرية لايتقيد بضوابط ولا حدود، وهي في مكان آخر تعتبر الإنسان ترساً في آلة المجتمع الكبرى لا رأي له ولا كيان خاص، ولذلك فقد تقدمت بعض قوى الإنسان وتأخرت قواه الأخرى فانتهى به ذلك إلى التمزق النفسي، أما الإسلام فإن نظرته الجامعة إنما تحقق أولاً

وقبل كل شيء: «السلام الداخلي للنفس الإنسانية» وهو ما تفتقده التربية الغربية الانشطارية التي نحاول أن نأخذ بها.

سادس عشر) لقد عجزت التربية الحديثه عن تحقيق بناء الفرد في بيئتها وكان من نتيجة دعوتها إطلاق الأبناء دون توجيه أو رعاية أشبه بمن دفع مجموعة من العمي إلي آبار محفورة فسقطوا فيها. ذلك أن طبيعة الأمور تقتضى بأن يعان الكائن الصغير حتى يصبح قادراً على أن يعرف طريقه وأن يرى ما حوله وأن يحافظ على نفسه، ولذلك فقد كانت الدعوة إلى إطلاق الأبناء دون توجيه أو رعاية عملاً مسموماً خطير الأثر، وهو الذي أنتج اليوم تلك الصورة التي يعيشها المجتمع الغربي بين جماعة رافضة في أسلوب الهيبية، وجماعة ضائعة في إطار الوجودية، وجماعة متحللة مندفعة مع الأهواء منقسمه على نفسها، ومن هنا وقد تقرر عجز أسلوب التربية الحديثة في بيئتها فإننا في المجتمع الإسلامي أولى الناس بالانصراف عنه والتماس منهجنا الأصيل الذي قدمه لنا القرآن والذي كون هذه الأمة وأحياها وجعلها قادرة دوماً على مواجهة الأخطار: والذي حماها من التمزق والانقسام والضياع.

إن التربية الحديثة التي استشرى منهجها في المدرسة الإسلامية قد حرمت الشباب المسلم من عنصري الإيمان والخلق وحاولت أن تدفعه في طريق مخوف مجرداً من كل سلاح وفهم وضوء فأصبح عاجزاً عن استيعاب حياته وهدفه وغايته، كذلك فإنها أساءت كثيراً حين عجزت عن أن تفصل بين الرجولة والأنوثة في مناهج التعليم فتسطى كلاً منهما ما يحتاج إليه في وجهته التي خلق من أجلها ومن هنا كادت أن تضيع علامات التميز بين الرجولة والأنوثة في الملبس والكلام والمشى، كذلك عجزت عن أن تقدم له أساليب القوة والرجولة وبناء مفهوم المروءة والأريحية وعمل الخير وتوقير الكبير، فلم نجد من يخف إلى عون الضعيف والفقير أو يستشعر في نفسه ذلك الإحساس الروحي القوى، كذلك عجزت التربية الحديثة عن أن تمنح الشباب المسلم فهم دور الإنسان الحقيقي في الحياة ومسئوليته وبناء إرادته

الحرة التي هي مصدر الحساب والجزاء. وأخطر ما تجاوزته التربية الحديثة بناء الخلق: ذلك القاسم المشترك على كل القيم في الإسلام كما حالت دون بناء عنصر المجاهدة والكظم في النفس وهو رأس الأمر كله.

والمسلمون اليوم يرون كيف وصلت بهم نتائج تطبيق مناهج التربية الحديثة وعليهم أن يعودوا إلى التماس منهجهم التربوي الإسلامي الأصيل.

(١٩)
التعليم

إن العلاقة بين التربية والتعليم، هي العلاقة بين الكل والجزء، فالتربية هي الإطار الذي تتحرك فيه وسائل التعليم وترسم لها وجهتها، ولما كانت التربية الإسلامية قائمة على بناء الشخصية القادرة على فهم مسئوليتها إزاء المجتمع والأمة والحياة، وهي أداة بناء الإرادة التي هي عماد الكيان الإنساني القادر على حمل المسئولية بالصدق والاستقامة والعدل فإن التربية تعنى خلق الوعاء القادر على تلقى التعليم في الإنسان، والمسلم يتعلم ليكون علمه كله نافعاً لبناء مجتمعه وحياته،ولترقية كيانه النفسي والاجتماعي. فالعلم النافع هو وحده العلم،لأنه هو الذي يقيم كيان الفرد والأسرة والجماعة والأمة كلها.

وفي ضوء هذا الإيمان يتلقى المسلم العلوم الرياضية والحسابية والطبيعية ويأخذ من آخر معطيات البشرية فيها دون تحرز،لأنه مطالب بأن يكون قوياً وقادراً ومتقدماً ومن العجز أن يكون متخلفاً ومتأخراً.

وهو في مجال العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما يتعلق بالقانون والتربية وما يتصل بالأخلاق والنفس فإنه يستمد أصول هذه المفاهيم أساساً من ثقافته الإسلامية الأصيلة التي تشكلت في ضوء القرآن منذ أربعة عشر قرناً. ذلك أن هذه العلوم الإنسانية مما لاينتقل من وطن إلى وطن ولا من أمة إلى أمة، فلكل أمة ثقافتها الخاصة الذاتية ولها طوابعها النفسية والاجتماعية التي شكلت عليها أصول آدابها وثقافتها.

ولا ضير على التعليم الإسلامي من أن يراجع هذه العلوم الإنسانية الخاصة بالأمم، فإذا نقلها قدمها بمقدمات تكشف عن وجهة نظره إليها وما يجوز اقتباسه وما لا يجوز، وما يلتقى بالنفس الإسلامية وما يختلف عنها، ذلك هو الوضع الصحيح، أما أن تفرض هذه العلوم الإنسانية الوافدة على أنها مسلمات علمية وهي ليست إلا فرضيات ونظريات قدمها فلاسفة وعلماء إلى أوطانهم وأممهم، فما وجدت

تقبلاً أو رفضاً، وواجهت نقداً وإضافة وحذفاً، وكانت لها ظروفها الخاصة وتحديات بيئات وعصور كلها تختلف عن بيئات وظروف وعصور بلاد الإسلام فإن ذلك من شأنه أن يحدث خلطاً عجيباً وخطراً كبيراً، فلكل أمم علومها الإنسانية وثقافتها وتجاربها، وللمسلمين في ذلك باع طويل وتراث ضخم وإضافات قدموها للبشرية ما تزال حية نابضة بالحياة.

ولا ريب أن أخطر ما واجهه المسلمون والعرب في عصرهم الحديث هو هذه السيطرة الاستعمارية التي فرضت عليهم أنظمة في التعليم غريبة ووافدة ومتعارضة مع حاجتهم ووجهتهم، ولقد كان للإرساليات التبشيرية دورها الخطير في هذا الصدد ثم جاءت البرامج التعليمية الوطنية فاستوحت كثيراً من اتجاهات هذه المناهج، ثم رسبت هذه المفاهيم في أعماق مقررات التعليم، وما زالت تعطى الانطباع بأن العلوم الحديثة هذه كلها من صنع الغرب متجاهلين دور المسلمين فيها وهو دور كبير، كذلك فما تزال البطولات الغربية تفرض نفسها وتزيح بطولات المسلمين والعرب، وما يزال التاريخ الإسلامي يعرض عرضاً مشوهاً ممزقاً وفق المنهج الغربي، وما تزال هذه الازدواجية الخطيرة بين منهج مدني خالص ومنهج ديني خالص وما تزال روح الإسلام غير واضحة في كثير من دراسات العلوم والآداب والقانون.

ثانياً- رسم الإسلام أسلوباً عملياً لمنهج التعليم قرر فيه عدداً من الحقائق التي ما تزال تمثل الأساس الصحيح لكل نهضة تعليمية: ومن ذلك أسلوب التدرج، فلا يخوض المعلم في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض وأن يأخذ من كل شيء أحسنه وأن يكون التوجه أولاً إلى أشرف العلوم وهو العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم وألا يدع المعلم من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها أو التشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلي مع التنبيه على الغرض من درس العلوم، وعلى المتكفل ببعض العلوم أن لايقبح في نفس المتعلم العلوم الأخرى، فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين، بل المتكفل بعلم

واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم مع غيره، وأن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلي رتبة، وعلى المعلم أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله وذلك وفقاً لقول النبي ﷺ : «ما من أحد يحدث قوماً بحديث لاتبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم» وعلى المتعلم أن يعلم نسبة العلوم إلي المقصد كما يؤثر الرفيع القريب عن البعيد والمهم على غيره، وعلى الطالب ألا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، طالباً التبحر، لأن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض، وعليه أن يراعي الترتيب ويبدأ بالمهم فإن العمر إذا كان لايتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويصرف جماع قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم.

ثالثاً- ركز منهج التعليم الإسلامي على أن يجعل أساس العلم مراعاة ميول الأطفال واستعداداتهم، حتى لايرهق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها، لأنها لاتجري مع رغباتهم، وعلى المعلم أن يحترم الميول مهما كانت متواضعة وعلى المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء وأن يقتصر على المتداول المعروف وأن لايلقى على التلميذ ما لا يحتمله عقله ولا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله وأن يلقى القدر الكافي المناسب مع العقول.

رابعاً- أعلن منهج التعليم الإسلامي منذ وقت بعيد أن التعليم حق لكل صبي وواجب على الدولة، وهي مكلفة به إذا لم يكن أهله قادرين على الانفاق عليه ودفع أجر معلم الكتاب فينفق عليه من بيت مال المسلمين، كما أشار المنهج إلى تعليم البنات، لأن دين الإسلام عام لجميع الناس وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

خامساً- أن يلقى العلم من الأساتذة بعناية ملحوظة ولا يقتصر على الكتب وحدها فالطالب في حاجة إلى معلم وأستاذ ومؤدب، وعلى الطالب أن يختار مدرساً يكون له به ثقة، وقد أدرك المربون المسلمون أن العلم وحده لايكفى ليكون سلاحاً

نافعاً، وعرفوا أنه لابد أن يضاف إليه فن التربية،ليتمكن المدرس من معرفة نفسية الطفل والنزول إلى مستواه والاتصال الوجداني به كما تحدثوا عن أهمية الدور الذي يلعبه البيت.

سادساً- دعا المربون المسلمون إلى تبسيط المادة،لتتناسب مع العقول التي لم يتم نضجها والبدء بالقريب الملموس قبل الانتقال إلى البعيد المجهول وإعطاء القليل من المعلومات البسيطة في المرة الواحدة ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الأطفال.

وحذر المربون المسلمون من أن يعلّم المسلمين من هم على نحل وأديان ومذاهب أخرى،فإن العلم كله مرتبط بالأخلاق والعقيدة حتى علوم الرياضيات وما في مستواها.

سابعاً: إن هدف التعليم الإسلامي هو تكوين النفس المسلمة والعقل المسلم، وتحرير هذه النفس وهذا العقل من كل العوائق التي تحول بين المسلمين وبين السيادة والتمكن في الأرض ولذلك فإن خطر معاهد الإرساليات والمناهج الغربية الوافدة ما زالت تحول دون تحقيق هذه الغاية فقد عمد الاستعمار إلى اتخاذ التعليم وسيلة إلى استعباد الأمم والأفراد وخلق عقلية مليئة بالإعجاب بالغرب موالية له بينما هي في نفس الوقت تحتقر مقومات أمتها وقيمها وتتخذ من مرحلة الضعف التي تمر بها البلاد الإسلامية وسيلة للتشكيك في مدى أثر القيم الإسلامية، ومن الحق أن مرجع الضعف يعود إلى تهاون المسلمين في تطبيق منهجهم الإسلامي والانطلاق من قيمهم الأساسية على النحو الذي مكن الاستعمار والنفوذ الأجنبي من السيطرة عليهم، ومن هنا فإن القيم الإسلامية نفسها لم تكن مصدر ضعف أو تخلف بشهادة التاريخ نفسه،لأنها هي التي أنشأت هذه الحضارة العظيمة، وكانت عامل انتشار الإسلام في العالمين في فترة قصيرة لم تتجاوز سبعين عاماً مما أدهش المؤرخين. ولكن التخلف الذي وقع فيه المسلمون إنما جاء يوم تخلوا عن هذه القيم وأرخوا قبضتهم عن تطبيق شريعتهم فلما جاء الاستعمار عمد إلى هذه القيم فأثار حولها الشبهات

والشكوك حتى جعلها منتقصة في نظر أصحابها، ولقد ركز الاستعمار على التعليم تركيزاً كبيراً واتخذه مدخلاً له للسيطرة على هذه الأمة وعقليتها ومقدراتها، وكانت مهمته الأساسية إفساد مفهوم الإسلام والقرآن وشخصية الرسول وتاريخ الإسلام واللغة العربية وإثارة الشبهات حولها جميعاً والعمل على إعلاء العاميات واللغات الأجنبية وبطولات الغرب.

ولقد حفلت وثائق التعليم بالتوجيهات المسمومة التي حرص رجال التبشير والإرساليات على تنفيذها من أجل هذه الغاية وكان أبرز هذه التوجيهات استقطاب الأطفال والشباب والفتيات في السنوات الباكرة من العمر، يقول جون موت: «يجب أن نؤكد في جميع ميادين التبشير جانب العمل بين الصغار وللصغار تراناً مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الإسلامية، إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً من أجل محاصرة الأطفال الصغار قبل بلوغهم سن الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية.

إن لهدفنا غاية قصوى هو أن نجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب وأوربا والكنيسة»، كذلك وجهت العناية لمدارس البنات وبذل أقصى الجهد في أن تضم الأقسام الداخلية فيها أكبر عدد من بنات الأسر حتى تضع الإرساليات يدها على أمهات الغد وتقول المبشرة أناமليجبان: في صفوف كلية البنات، بنات آباؤهن من ذوي المراكز الكبيرة وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت نفوذ التبشير وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة».

وما زال تقرير اللورد دوفرين عند بدء الاحتلال البريطاني لمصر يسجل هذا الهدف الواضح حين أشار إلى أن التقدم في البلاد سيظل ضعيفاً طالما أن العامة «تتعلم» اللغة الفصيحة العربية: لغة القرآن.

وإذا كان شبح التبشير قد تقلص من كثير من أجزاء العالم الإسلامي، فإن آثاره ما زالت موجودة في بعض المناهج والدراسات والآثار الثقافية التي تتابعت دون أن

تصحح أخطاؤها ويكشف عن زيفها وترفع نصوصها من كثير من الكتب الدراسية وغيرها.

ثامناً: إن أخطر ما خلفه الاستعمار في نظام التعليم في البلاد الإسلامية: الازدواج بالفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني، وتوسيع نطاق التعليم المدني وسيطرته الكاملة على كل وجوه النشاط الاجتماعي وتجميد التعليم الديني وقصره على الجوانب الخاصة بالمسجد والعبادات، وفي هذا تعارض مع وحدة الفكر الإسلامية ومعارضة لمفهوم الإسلام نفسه الجامع بين منهج العبادة ومنهج المعاملات الدنيوية.

كذلك فإن معظم المناهج التعليمية التي خلفها الاستعمار ما زالت تقطع الصلة بين دور المعلمين في النهضة والحضارة وبين العلوم الحديثة، وما زالت تعلي من شأن الغرب ونهضته وسيطرته حتى تتمثل في هذه المناهج صورة الشخصية الغربية كأنها الأساس الذي نستمد منه ثقافتنا.

ومن آثار ذلك أن مادة الدين الإسلامي تقدم على أنها مادة روحية أخلاقية لا صلة لها بالحياة بينما يضم الدين الإسلامي شريعة كاملة تنتظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمسلم، كذلك فإن حياة الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن حياتهم وبيئتهم «جافة لايثير في نفوسهم أي نزوع أو رابطة، كذلك فإن مادة العبادات والأخلاق تقدم من وجهة النظر النفعية، أما التاريخ الإسلامي فإنه مكتوب على نهج تقدم فيه الخلافات والمثالب وأسباب الصراع على أنها هي أهم مضامينه بينما أن هذه الأمور فيها كثير مما لم يثبت أو أورده الرواة من وجهة نظر معارضة.

تاسعاً: إن أبرز الأخطار التي تواجه الشباب المسلم مشكلة التعلم في معاهد الإرساليات وجامعاتها ومشكله البعثات إلى البلاد الأجنبية، أما بالنسبة لمعاهد الإرساليات التي ما زالت منتشرة في البلاد الإسلامية في مختلف درجات التعليم فإن واحداً من زعماء إفريقيا يحدثنا عن آثارها هو أحمد سيكوتوري حين يقول:

لقد تعلمنا نحن المثقفين الإفريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب

الغال وحياة جان دارك ونابليون وقرأنا أشعار لامرتين ومسرح موليير، ودرسنا التنظيم الإداري لفرنسا كما لو كانت بلادنا أفريقيا بدون تاريخ وبدون موقع جغرافي وبدون ثقافة وبدون قيم وبدون أخلاق، وقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار وهكذا تحددت طبيعة التعلم في ظل الاستعمار، ولقد أراد المستعرون للمعلم الإفريقي أن يظل في حالة ثقافية منحطة،حتى يتخرج المتعلمون على يديه أكثر انحطاطاً. لقد أراد الاستعمار للمثقفين الأفريقيين أن يفكروا بديكارت وبرجسون ولم يسمح لهم التفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الثقافي،لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الأفريقيين أمثال المناضل الوطني الحاج عمر وأحمد ساموري توري، وإذا استمر الأمر بنا على هذا النحو فلن نستطيع أن ننمي شخصيتنا الإفريقية التي هي الطريق الوحيدة للنهضة في أفريقيا » ويمثل هذا النص نموذجاً لكل ما يقع في بلاد العالم الإسلامي.

أما الخطر الثاني فهو خطر الناشئة الذين يرسلون إلى البلاد الأجنبية للتعليم، وقد أرسلوا غير مجهزين بشيء من السلاح المعنوي الذي يمكنهم من المحافظة على عقيدتهم والدفاع عنها في حالة الخطر، ولا ريب أن التعلم في الغرب لازم بل ضروري (ولا سيما العلوم الطبيعية والميكانيكية والتكنولوجية) ولكن تلقى هذه العلوم في الغرب لا يستلزم أن ينسخ عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا وأذواقنا وشخصياتنا القومية ومقوماتنا الاجتماعية.

ومن هنا نجد المحاذير التي تكتنف إرسال الطلاب المسلمين إلي الغرب غير مزودين بحماية إسلامية كافية فإن من شأن هذا أن يعود الأبناء وقد امتلأت أدمغتهم باحتقار بلادهم وتراثهم وفكرهم الإسلامي، ولذلك يلزم إعداد برنامج خاص للذاهبين إلى الخارج يمكنهم من الفهم العميق للعقيدة الإسلامية، لنحفظ لهم كيانهم النفسي والمعنوي من أن ينهار في ظل التحديات التي تعيشها المجتمعات الغربية، ولا بد أن يكون هذا الرعيل تكويناً صحيحاً بحيث يعرف قيمه الإسلامية معرفة

جيدة ويعرف مدى سلامتها وقدرتها على تكوين الإنسان الحق.

ذلك أن التعليم الغربي يحمل طابعاً خاصاً تشكل نتيجة ظروف مجتمع الغرب خلال مئات السنين تعبيراً عن أفكار أهل الغرب وقيمهم فإذا طبق في بلاد مسلمة أو مجتمع إسلامي أحدث صراعاً فكرياً واضطراباً عقائدياً لا حد له، ذلك «أن الإسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً، لايمكن أن يتفقا، فإن كان ذلك كذلك فكيف نستطع أن نتوقع إمكان تنشئة الأحداث المسلمين على أسس غربية تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية.

إن التنشئة الغربية للأحداث المسلمين ستقضى حتماً على زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا وأن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الربانية التي جاء بها الإسلام ودليلنا أن العقيدة الصحيحة آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المثقفين الذين نشأوا على أسس غربية».

عاشراً: إن الغاية من التعليم في البلاد العربية والإسلامية هي تخريج رجال أقوياء النفوس يعتزون بدينهم وأمتهم ويعملون على إحياء الحضارة الإسلامية وتجديدها وتحرير البلاد الإسلامية من القيود الأجنبية: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولأجل أن نصل إلى هذا لابد من إحكام المنهج على مقررات هامة وانبعاثه أساساً من مصدر إسلامي بحيث يكون الإسلام هو الطابع الأصيل لكل فروع المعرفة والتعليم والثقافة، ومعنى أن الطابع الأصيل للتعليم الإسلامي لا يعني أن تكون الوجهة دينية صرفة، وذلك أن الإسلام شريعة وأخلاق ونظام اقتصادي ومنهج اجتماعي والدين بمعنى العبادة لايمثل إلا جزءاً منه وهنا تلتقى العناصر الثابتة بالعناصر المتحركة المتجددة، بما يحقق إنشاء المسلمين الصالحين من حيث إيمانهم وعلمهم وشخصيتهم والذين هم في نفس الوقت المتخصصون في مختلف فروع المعرفة، إيماناً بأن الفكر لايتجزأ ولا ينفصل منه قطاع عن الآخر. ولا بد أن يكون منهج التعليم القائم على ركائز أساسية من الإيمان بالله والإخاء الإنساني وبذل النفع والخير للجماعة كلها، أن يكون متقبلاً لكل معطيات المعرفة الإنسانية المتجددة،حتى يكون

التعليم الإسلامي قائماً على أحدث مستحدثات العلم والمعرفة فلا بد أن يحصل المسلمون على أحدث ثمرات التكنولوجيا على أن يكون ذلك في إطار اللغة العربية أساساً باعتبارها مصدر وحدة الفكر وسيحقق هذا إخراج نماذج جديدة من العلماء والباحثين يجمعون بين المعرفة العميقة بالفكر الإسلامي منهجاً ونظام حياة وبين المعرفة العميقة بالعلوم العصرية مع إخضاع هذه العلوم للوجهة الحقيقية في إسعاد البشرية وفي تحقيق العدل والخير للبشر جميعاً على حد سواء.

ومن أصول المنهج الإسلامي في التعليم إيجاد أساس واحد يضم جوانب التعليم الديني والمدني في كل متكامل وإظهار الوجه الإسلامي لمختلف هذه المناهج والأصول القديمة لها التي قدمها المسلمون إلى الإنسانية.

كذلك يلزم الفصل بين العلوم التجريبية وبين العلوم الإنسانية؛ ذلك أن العلوم الكونية عالمية ليست ملكاً لأمة من الأمم وهي محايدة في غايتها فإن وظيفتها الوحيدة هي اكتشاف القوانين الخاصة بالكون والحياة مما يزيد سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة، أما العلوم الإنسانية فهي أدخل في باب الثقافة الوطنية والقومية والخاصة بأمة من الأمم دون أمة أخرى لأنها تتشكل أساساً وفق عقائد هذه الأمة وآدابها وتراثها ومقوماتها العميقة الصلة بها ومن هنا فهي لاتصلح للانتقال من أمة إلى أخرى.

وبالجملة فإن روح الإسلام يجب أن تسري في جميع العلوم وفي الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية وخاصة في علمي الاقتصاد والسياسة حيث يصعب تجريدها من هذه الروح.

وإن أخطر ما يوجه إلينا الآن إنما يأتي عن طرق العلوم الإنسانية (الاجتماعية والاقتصادية) حيث تحمل مقررات لا تصلح للتطبيق في مجتمع روحه السلام وطابعه التدين.

ولقد دعا كثير من رجال التربية في بلادنا إلى التحرر من خطر تطبيق منهج

التعلم الأجنبي وأشار بعضهم إلى أن أبلغ المحاذير في ذلك هو العلاقة المباشرة القائمة دائماً بين الأمة وبين نظامها التعليمي مما يجعل من الخطأ الكبير تطبيق منهج أية أمة مهما كان ممتازاً في مدارس أمة أخرى لها ثقافتها الخاصة التي تميزها عن غيرها.

ولما كان هدف التربية الأول تخليد كل ما تعتز به الأمة من قيم اجتماعية وإنسانية أصبح من الطبيعي بأن يتجسد في التربية الروح الذاتي والخاص للأمة.

حادي عشر: أشار الباحثون في شئون التعليم إلى المحاذير التي واجهت الأنظمة التي فرضت في ظل الاستعمار والتي ما زالت تتحكم في المجتمعات الإسلامية وبينوا أن أخطرها هو «اقتباس» الأنظمة الغربية بدون ربط كاف لها بالقواعد الإسلامية المتصلة بالدين واللغة والتاريخ والفنون وأن هذا قد أوجد انشطاراً وثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري في البلاد الإسلامية. فضلا عن أن التعليم الغربي قد أهمل اللغة العربية وحرض على تنمية اللغة الأجنبية، وكذلك غلبة القالب والمظهر على الحقيقة والجوهر فأصبح الاهتمام بالألقاب والشهادات أكثر من الاهتمام بالمضامين العلمية.

كذلك فإن من أخطر أدوات التعليم الغربي المقتبس التأكيد على عملية الحفظ أكثر من التأكيد على التفكير والفاعلية والبحث، فضلاً عن أن الذين ينالون قشرة من الثقافة الغربية يصيبهم الغرور والادعاء والبعض الآخر يعوزهم التكيف، ولقد حرصت المناهج الغربية في التعليم أن تتوسع في النوع الأدبي على حساب العلوم والتقنيات، والكثير ممن ينالون قدراً من التعليم الغربي والثقافة الغربية لايعرفون شيئاً كافياً عن دينهم ولا عن حضارة أمتهم فضلاً عن انحرافهم إلى التحلل الخلقى وانغماسهم في الشهوات.

هذا من ناحية التطبيق أما من ناحية المنهج فإن نظم التعليم الغربي - كما يقول الدكتور محمد فاضل الجمالي في بحثه المستفيض - مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية أو انشاطرية فهي فلسفات تفصل الدين عن الدولة والرح عن الجسد والفرد

عن الجماعة، فالدراسات العلمانية قد تؤدي بسهولة إلى اتجاهات فكريه مشككة أو ماديه أو ملحدة أو عدمية ومتى نشأ الشاب المسلم على هذا الطراز من التفكير فهو ينشأ غريباً عن مجتمعه ويعيش في فراغ روحي، والفلسفة الانشطارية - والثنائية - في التعليم الغربي تصبح لعنة في حياة الإنسان حين يفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد، والفكر عن العمل، والعلم عن الدين، ذلك أن الإسلام لا يفصل الدين عن الدولة، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الأخلاق، فالدولة والعلم والأخلاق والعمل والدين يجب أن تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية وأخلاقية ذات مصدر (إلهي) والمسلم الذي لايتفهم دينه على الوجه الكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية الثنائية التي تمارس في الغرب.

كذلك فإن منهج التعليم الغربي فضلاً عن حاجته إلى الوحدة والترابط فإنه يعوزه الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود، فكل عالم في الغرب يمتاز في حقل اختصاصه ولكنه لايعنيه التوافق والانسجام مع المجموع، فالعالم مثلاً لايهمه مصير القيم الأخلاقية والسياسي قد يصوغ مقاييسه الأخلاقية العملية الخاصة به، وتربية الفكر قد لاتسير جنباً إلي جنب مع بناء الأخلاق الفاضلة وتقديم الذوق الجميل، وفي التعليم الغربي اللاديني خطر جسيم ينجم عن نسيان خصائص الإنسان الروحية والاكتفاء بالتأكيد على نواحيه الجسدية والاجتماعية.

إن أهم نقص تعانيه مناهج التعليم الغربية المقتبسة في العالم الإسلامي: هو فقدان الانسجام بين المتطلبات الزمنية للإنسان والمتطلبات الخلقية والروحية، إن هنا الإهمال النسبي للنواحي الروحية والأخلاقية قد تسرب إلى أنظمة التعليم في العالم الإسلامي.

هناك تقصير في التأكيد على نشأة الإنسان روحياً وخلقياً في تربية الجيل الإسلامي الجديد والنتاج التربوي لهذا التوجيه الناقص هو «إنسان منحط في إنسانيته».

والمنهج الصحيح هو الجمع بين أسلوب جامع شامل للروح والعقل وللنفس

والجسم، قائم على الوحدة والانسجام لحياة الإنسان لكل جوانبها.

ثاني عشر: إن حاجتنا الأساسية لإقامة تعلم إسلامي صحيح: هو تحرير المناهج من السموم المبثوثة فيما يتعلق بالإسلام وتاريخ الإسلام ونبي الإسلام واللغة العربية فإن كثيراً من المؤلفات تعرض الإسلام عرض عداء وخصومة واتهام للرسول والقرآن مع محاولة تصوير المسلمين بصورة المهزومين وإثارة الشبهات حول الحروب الصليبية وموقف شارل موتل، كذلك فيما يتصل بتصوير حملات التبشير والغزو التي حاولت أن تفتح الطريق للاستعمار باسم الكشوف الجغرافية، كذلك فقد احتوت هذه المناهج على شبهات تحاول أن تفصل بين العرب والمسلمين وتعمل على إعلاء شأن الإقليميات كالفرعونية والفينيقية والدعوة إلى الوسطية، ومحاولة تصوير العقلية الإسلامية بأنها عقلية مصرية أو عربية أو تركية.

وهناك الحملات الموجهة إلى اللغة العربية وإعلاء شأن العاميات المختلفة، أما في مجال التاريخ فإن منهج التعليم الإسلامي يقتضى أن يكون المتعلم معتزاً بأسلافه الأمجاد وأن تتجلى أمامه مفاخرهم ومظاهر بطولاتهم وتحرير مادة التاريخ من الشبهات الكثيرة التي حاولت المناهج الغربية إثارتها فيها في محاولة تصوير تاريخ الخلفاء بأنه تاريخ صراع وتآمر وقتال وإفساد تاريخ الصحابة وخاصة في مسائل الخلاف بين على ومعاوية وما يتصل بها.

أما اللغة العربية: فيجب أن تكون اللغة الأولى للعلوم التجريبية والعلوم الإنسانية وفي جميع مراحل التعليم وأن تكون اللغة الفصحى هي منطلق الدراسة حتى يمكن المحافظة على مستوى البيان العربي المعاصر مع القرآن الكريم وأن تعلم اللغات الأجنبية في إطار اللغة العربية وأن تتم الترجمة في جو الصلاحية والكشف عن جوانب الفكر الغربي ومقاصده وأن تتشكل مناهج التكنولوجيا وغيرها في إطار اللغة العربية ومفاهيم الإسلام، وإدخال روح الإسلام إلى شرايين كافة العلوم العصرية بصورة يصبح مفهوم الإسلام نفسه هو الغالب، حتى يكون ذلك حائلاً دون انهزام المسلمين أمام فكرة الغرب المادية.

(٢٠)
الثقافـــــــة

أصبحت الثقافة من الركائز الأساسية في بناء الأمم وفي نهوضها، وتتعالى الأصوات اليوم في كل مكان بالدعوة إلى الحفاظ على مقوماتها وأصالتها في مواجهة التحدي بغزو ثقافة أمة أخرى لها خاصة في ظروف الضعف والتخلف الذي قد تأتي نتيجة دورة التاريخ. أو من تأثير الاستعمار الوافد والاحتلال الغريب، والمسلمون اليوم يواجهون تحدياً خطيراً من دعوات تريد أن تميع ذاتيه الثقافات وتخلط بينها تحت أسم (عالمية الثقافة) أو دعوات تريد أن تفصل بين حلقات التاريخ المتصلة تحت اسم (المعاصرة والحداثة) وكل هذه الدعوات إنما تستهدف فك الارتباط الوثيق بين الثقافة الإسلامية العربية التي نعيشها وبين جذورها العميقة المتصلة بالإسلام والتراث الإسلامي العربي في عصوره المختلفة.

كذلك فإن هناك شبهات كثيرة مثارة حول قيم الثقافة ووجهتها وخصائصها، وعلاقتها بالفكر والدين والمعرفة مما يتطلب تحريره والكشف عن وجه الحق فيه، وقد اشتق اسم الثقافة من «ثقف» وهو لفظ قرآني أساساً. والثقافة كلمة عريقة في لغتنا أصلاً بمعنى صقل النفس والمنطق والفطانة وفي القاموس المحيط للفيروزبادي: ثقف وثقفاً وثقافة صار حاذقاً خفيفاً فطناً وثقفه تثقيفاً سواه، وهو بمعنى تثقيف الرمح أي تسويته وتقويمه، ثم استعمل للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات والثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية في السلوك وبها يرسم طريق الحياة إجمالا فيما يتمثل عليه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، وهي الوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تميز بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب، ومن ثم فكل مجتمع له ثقافته التي يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التى تحدد شخصيتها وبالجملة فإن الثقافة «طريقة خاصة»

تميز أمة بعينها عن أمم أخرى، والعلماء الغربيون أنفسهم يرون هذا الرأى في الثقافة يقول «هنري لاوست» إن الثقافة هي مجموعة الأفكار والعادات الموروثة التي يتكون فيها مبدأ خلقى لأمة ما، ويؤمن أصحابها بصحتها وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها ويعرف (أرنست باركر) الثقافة بأنها ذخيرة مشتركة لأمة من الأمم تجمعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ طويل وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية هي جزء من تلك الذخيرة المشتركة من الأفكار والمشاعر واللغة ويقول: (تايلو) إن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات».

ومعنى هذا كله أن الثقافة العربية الإسلامية تختلف عن الثقافة الغربية في أن مقومات كل منها تختلف عن الأخرى، فالثقافة العربية إسلامية المصدر تستمد كيانها من الإسلام والقرآن واللغة العربية وتراث الأديان بينما نجد الثقافة الغربية (أيا كان نوعها غربية أم ماركسية) إنما تستمد مصادرها من الفكر اليوناني والقانون الروماني واللغة اللاتينية وتفسيرات المسيحية التي وصلتها - ومن هنا يبدو الفارق واضحاً في مصادر الثقافات، ويتجلى بوضوح خطأ القول بوحدة الثقافة العالمية، ولو قيل وحدة المعرفة العالمية لكان ذلك مقبولاً، لأن المعرفة تضم المعارف والعلوم العامة التي هي ملك للبشرية كلها، ذلك أن الثقافات ذاتية وخاصة ومتصلة بأممها لاتنفك عنها وهي من أجل ذلك لاتنصهر ولا تذوب في بوتقة واحدة ولكنها تتلاقى وتتعارف، ويأخذ بعضها من البعض الآخر ما يزيده قوة، ويرفض بعضها من البعض الآخر ما يضاد وجوده أو يتعارض مع الأصول الأساسية لمقومات فكره وكيانه وذاتيته.

أما العلاقة بين الثقافة والعلم فتتمثل في أن العلم عالمي بطبيعته يلتقي مع كل أمة وكل مجتمع ولكن الثقافة خاصة بكل أمة بعينها، والعلم يرمي إلي تنمية الملكات وهو في نهاية المطاف وسيلة وإرادة وقد يستعمل للخير والشر على السواء وتتشكل وجهته في بوتقة الثقافة نفسها، كذلك الفرق بين الثقافة والمعرفة، فالمعرفة

هي المعلومات العامة المنوعة المختلفة المتعارف عليها في كل الثقافات والأوليات العامة البديهية، أما الثقافة فهي ليست معارف فقط ولكنها موقف واتجاه وعاطفة وأسلوب حياة، أما المعارف فهي المادة الخام للثقافة، وموقف الثقافة من التعليم والتربية إنها الدرجة الأعلى من التعليم فالتعليم قاصر على الإعداد المدرسي والدراسي لتكوين العقلية المؤهلة للثقافة، أما الثقافة فهي الدرجة الأعلى التي تكون الفرد تكويناً ممتازاً، أما العلاقة بين الثقافة والحضارة، فإن الثقافة في كل أمة هي مقدمة الحضارة، مرتبطة بها في فكرها وفي حركتها أما بالنسبة للأمم الأخرى فإنها ليست مرتبطة، ولذلك فإن من حق الأمم أن تقتبس الحضارة بوصفها أدوات ومواد خام دون أن تقتبس ثقافتها،لأنها ذاتية وخاصة بهذه الأمة وحدها، والمسلمون لهم ثقافة بمعنى أسلوب للعيش، ولذلك فإن حاجتهم إلي العلم الحديث، وإلى وسائل الحضارة الحديثة لايفرض عليهم مطلقاً اقتباس الثقافة المرتبطة بهما سواء كانت في مجال العلوم والمفاهيم الإنسانية أو في مجال أسلوب العيش الغربي، فالحضارة ملك للإنسانية كلها وهي نتاج الحضارات البشرية المتعددة منذ فجر التاريخ، كل منهما تتم حلقة وتسلمها إلى الأخرى وللمسلمين والعرب دور هام في بناء هذه الحضارة وإنمائها فقد قدموا المذهب العلمي التجريبي الذي قامت عليه النهضة العلمية وقدموا مناهج في المعرفة والتاريخ والعمران والتربية والقانون، ومن هنا فإن من حق الأمم المختلفة أن تتطلع إلى نقل أساليب الحضارة والعلم ووسائلهما التجريبية والميكانيكية دون أن يفرض عليهما أي قيد من حيث أسلوب العيش الغربي، ولهذه الأمم[ونحن منها]مطلق الحرية في أن تشكل هذه المادة من العلم والحضارة المقتبسة في إطار قيمها ومفاهيمها وأن تصهرها في بوتقة ثقافتها ولغتها الخاصة، ومن حقها أن تفعل ما فعل الغرب نفسه عندما نقل الحضارة الإسلامية وتجاوز عن الثقافة الإسلامية، وأخطر ما نغري به ويركز عليه التغريب والغزو الثقافي هو نقل العلوم الإنسانية والمذاهب الاجتماعية وهذه تتعارض تماماً مع أصول ثقافتنا القرآنية العربية الإسلامية القائمة على التوحيد وتحرير الإنسان من عبودية الإنسان ومن عبودية الأوثان والجبرية.

وهذا المفهوم أمر مقرر بين جميع الباحثين والمفكرين والعلماء والمصلحين، ولا سبيل إلى نقضه أو معارضته وكل الدعوات التي تدعو الأمم أن تتقبل الثقافة والحضارة معاً هي دعوات مسمومة مضللة هدامة يقف من ورائها الاستعمار والتغريب والتبشير والصهيونية، وتستهدف تحطيم معنويات الأمم وتدمير مقوماتها والقضاء على شخصيتها، وهدم ذاتيتها ودفعها لأن تذوب في بوتقة الأممية والعالمية فتفقد وجودها وتصبح غير قادرة على مقاومة الغزو والاستلاب.

٢- تمتاز الثقافة العربية الإسلامية (العربية اللغة الإسلامية المصدر) بأنها ثقافة محررة فقد كانت ولا تزال وسيلة لتحرير الشعوب والأمم من الخرافات والوثنيات والعصبيات والمظالم، وطريقاً إلى إيقاظ الوعي والوجدان وتحرير العقل والنفس، وقد استقامت على كلمة الله الحق بالتوحيد واستمدت من القرآن الكريم قيمها الأساسية: عبادات ومعاملات وأخلاقاً، نظام مجتمع ومنهج حياة، جامعة بين العقل والقلب، والروح والجسم والدين والعلم، والدنيا والآخرة.

وهي في هذا تختلف عن الثقافات الغربية التي على أساس الفصل بين اللاهوت والحياة، وعزل الأمور الروحية عن الأمور الجسدية، وتقوم على الانشطارية في عالم الفكر والانقسامية في عالم الحياة) كذلك فإن الثقافة العربية الإسلامية تقدم أولية الخلقي على الجمالي، وتوازن بين الروحي والمادي وتتسم بالضبط للرغبات الحيسة، والانسجام بين معطيات العقل ومعطيات العقيدة والثقافة العربية الإسلامية ليست شرقية ولا غربية، وهي ليست مركباً للثقافتين ولكنها ثقافة مستقلة لها ذاتيتها الخاصة، استمدت وجودها من القرآن والإسلام واللغة العربية وقامت على أساس التكامل بين القيم.

(وفي هذا تختلف عن الثقافات الغربية التي تعلى شأن المادي على الروحي وتفصل بينهما وتعلى من شأن الجمالي على الخلقي).

وتقوم الثقافة الإسلامية العربية على مفهوم الحرية بمعنى التحرر من الوثنية وعبودية الإنسان والنظر في الكون وصولاً إلى الملاحظة والتجريب والتكامل بما

يحقق الشمول والإحاطة والشعور بكرامة الإنسان والأخوة العالمية ووحدة الجنس الإنساني والإحساس بالزمن.

وبينما تمزق الثقافة الغربية عوامل الصراع بين الروح والمادة وتخترمها نوبات القلق والضياع تتسم الثاقة العربية الإسلامية بسكينة النفس وسلامة العقل وأمن الوجدان.

(وهي في هذا تختلف مع الثقافات الغربية التي تناقض نموها المعنوي وتزايدت قواها المادية فأدى ذلك إلى اضطراب موازين الإنسان).

ولقد وازنت الثقافة العربية الإسلامية بين جوانب العقل وجوانب الوجدان ورفضت إعلاء المعتزلة للعقل، وإعلاء الصوفية للوجدان وحافظت على المفهوم المتكامل الجامع، كذلك فقد حرصت الثقافة الإسلامية العربية على ارتباطها بالمصدر الأول من القرآن والسنة على مدى مراحلها حتى العصر الحديث دون فصل بين أي مرحلة من هذا التاريخ، فقد تطورت الثقافة دون أن تفقد يوماً عنصر الوحدة والاتصال (وليس كذلك الثقافات الغربية التي أعلت شأن العقل وتجاهلت الجوانب الأخرى من المعرفة، كذلك فقد انفصلت في العصر الحديث عن العصور السابقة لها وخاصة بعد أن انفصلت الثقافات الغربية عن اللغة اللاتينية الأم وقامت اللهجات القومية كلغات خاصة).

كذلك امتازت الثقافة العربية الإسلامية بالقدرة على التحرك والتكيف مع مختلف العصور والبيئات دون أن تفقد خصائصها الأصيلة وسماتها الثابتة، وبذلك استطاعت الصمود في وجه تقلبات الزمن، وتغييرات البيئة، واستطاعت أن تتقبل من ثمرات الثقافات المختلفة ما يمدها بالقوة وأن ترفض منها مايتعارض مع قيمها الأساسية «وليس كذلك الثقافات الغربية التي انتقلت من مفهوم المسيحية إلى الفلسفة المثالية إلى الفلسفة العادية دون ارتباط بالأصل الأول ثم هي تواجه اليوم صراع العلم والأدب من ناحية وصراع الجماعية والفردية من ناحية أخرى» على أن أبرز ما يميز الثقافة العربية الإسلامية هو طابعها الأخلاقي الذي لاينفك عنها.

ويقوم هذا الروح الأخلاقي البارز على أساس الإرادة الفردية التي قررها الإسلام ومنح بها الإنسان حرية الاختيار وهي أساس المسئولية والجزاء، وقد قام ذلك في الإسلام على أساس الاعتراف بأن الإنسان خلق طاهراً متقبلاً للخير والشر وأن رسالة السماء إنما جاءت لتوجيهه إلي الخير وتحصينه من مهاوي الشر فالإنسان في الإسلام مكلف وصاحب رسالة ومسئول، وليس كما تقول بعض النحل من أنه خلق خاطئاً أو كان دنساً وإنما يقرر الإسلام أنه خلق طاهراً وخلق تاماً وأن له إرادته الحرة التي هي مصدر مسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقي.

٣- أن الثقافة العربية الإسلامية: عربية في لغتها، إسلامية في جذورها، إنسانية في أهدافها وأن ثقافتنا شأن كل ثقافة تتكون من مقومات أساسية فكرية وروحية أهمها العقيدة:وهي الإسلام، واللغة العربية وآدابها والتاريخ والتراث ووحدة العقلية والمزاج النفسي وقد تأكد أنه لايمكن لأي ثقافة من الثقافات أن تنمو إلا إذا كانت ذات صلة بدين من الأديان، فالدين هو الذي يكسب الحياة الاجتماعية معناها ويمدها بالإطار الذي تصوغ فيه اتجاهاتها وآمالها ويحمى الجماهير البشرية من اليأس والملل ولما كانت حياة الإنسان إنما تحكمها القوى الروحية والمادية معاً، ولا سبيل إلى الفصل بينهما فإن الإيمان بالله لايتعارض مع الفكر الحر بل إن مفهوم الإسلام الجامع يدفع الإنسان إلى الفكر الحر ويصده عن الجمود والتعصب، كما أن الدين هو الذي يضع القيمة الخلقية للمجتمع.

واللغة العربية مقوم أساسي من مقومات الثقافة العربية الإسلامية، ذلك أن العربية ليست لغة أداة ولكنها لغة أداة ولغة فكر أساساً ولقد كانت اللغة رابطة بين المسلمين قوامها القرآن الكريم،ثم هي رابطة بين العرب أساسها الثقافة. فاللغة العربية لغة قومية ولغة فكر إنساني عالمي هو الإسلام.

والتاريخ العربي الإسلامي مقوم أساسي من مقومات الثقافة،فهو المرآة الواضحة التي سجلت الصفحات الخالدة لهذه الأمة ونضالها في سبيل أداء رسالتها الخالدة ونشر ضيائها في العالمين، ولم يكن تاريخ الإسلام هو تاريخ الملوك والأمراء،ولكنه

كان تاريخ المجتمع الإسلامي بمختلف عناصره وقواه وبطولاته، ونظرة الثقافة العربية الإسلامية إلى التاريخ تتمثل في أنه قوى دافعة تعطى الأمة حيويتها وتشف لها عن تجربتها وليس تاريخنا دوائر منفصلة ولا حلقات مستقلة. ولكنه نسيج كامل.

والتراث في الثقافة العربية الإسلامية ميراث حي متصل بالواقع، متجدد مع الزمن، متحرك في مجال الحياة والمجتمع لم ينفصل ولم يتوقف. ويقوم مفهوم الثقافة العربية الإسلامية للتراث على أن الماضي هو المبدأ والقاعدة فالماضي يعين على فهم الحاضر وتهيئة المستقبل وليس معنى هذا إعادة الماضي أو تقليده فإن المثل الأعلى فيه مرونة قادرة على تقبل الحركة مع الاحتفاظ بالقيم الأساسية الثابتة. وقلما تجد أمة لها مثل مالأمتنا من تراث خالد، فقد خلفت آثاراً مجيدة في ميادين العلم والحياة ولولا نتاج القرائح العربية لتأخر سير المدنية عدة قرون.

٤- وأهم ما تتسم به الثقافة العربية الإسلامية وحدة العقلية والمزاج النفسي ويرجع هذا إلى أصالة الدين في هذه التربة التي نزلت بها الأديان وجاء بها الأنبياء وما يزال أثرهم قائماً في أصول الفكر وتضاريس الثقافة، فقد صاغ التوحيد هذه الأمة منذ أجيال بعيدة وكون لها مزاجها وعقليتها على نحو يختلف عن المزاج الشرقي والغربي على السواء بما عرف فيه من التوازن بين النفس والجسم والتكامل بين الروح والمادة،وهو تشكيل كامل ملتزم عميق الجذور يمتاز بإحاطته واتسعاع أفقه وتعدد أبعاده.

ومن حيث إن الثقافة العربية الإسلامية ثقافة متميزة تختلف عن ثقافات الغرب والشرق فإن معالمها وخصائصها مما لايقع تحت حصر ويمكن أن نستوعب أبرز خطوطها في نقاط رئيسية هي:

التوحيد، والتكامل، الأخلاقية، استقلال الطابع، التوازن بين الروحي والمادي، الترابط بين الماضي والحاضر والنظرة العقلية المؤمنة، الجمع بين الدنيا والآخرة، الحرية المنضبطة، القدرة على التطور، القدرة على التصحيح، الطابع الإنساني، مفهوم التقدم، الوسطية.

٥- عاشت الثقافة العربية الإسلامية حياتها على قاعدتين:

الأولى: النمو والحركة من خلال مصادرها ومقوماتها.

الثانية: الانفتاح على الثقافات الشرقية والغربية مع المحافظة على الأصول الثابتة ودون تجاوزها، وقد واجهت عديداً من التحديات في تاريخها الطويل، وهي تحديات المذاهب الفلسفية والأديان والدعوات المختلفة التي كان يذخر بها العالم إبان بعث الإسلام من بوذية، ومجوسية ووثنية، وهلينية وهندية وفارسية، وقد تحولت هذه المذاهب والفلسفات إلى قوى غازية عرفتها دعوات الباطنية والمانوية والقرامطة والشعوبية، وقد حاولت جميعها إثارة الشبهات وتحريف القيم الأساسية والإدالة من الأمة والدولة والفكر جميعاً، ومن هذه الدعوات محاولة إعلاء العقل إعلاء يقضى على منطق المعرفة الإسلامي القائم على تكامل المعرفة والتوازن بين العقل والوجدان ومحاولة إدخال مفاهيم جديدة مثل وحدة الوجود والحلول والاتحاد، ومحاولة فرض المنطق اليوناني ونظريات أرسطو وغيره وقد واجه المفكرون المسلمون هذه الشبهات والمحاولات وسيطروا عليها، واليوم تواجه الثقافة العربية الإسلامية تحدياً أشد خطراً من ذلك التحدي يتمثل في النظريات والدعوات القديمة المتجددة في أثواب براقة لامعة فقد تستهدف نفس الغرض، انتهزت القوى الغازية فرصة ضعف العالم الإسلامي ووقوعه تحت سيطرة النفوذ الأجنبي لتفرض عليه استعماراً ثقافياً وغزواً فكرياً عن طريق تغيي مناهج التربية والتعليم والثقافة، وعن طريق إزالة منطلقات الشريعة الإسلامية في مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد، وفرض الأنظمة الغربية مماكان بعيد الأثر في التحديات التي واجهها العالم الإسلامي والأخطار التي تمثلت في عديد من أحداث النكبة والأزمة حيث تمكن النفوذ الأجنبي من توجيه حملات ضارية نتيجة السيطرة على مناهج الثقافة وتزييف منطلقها ومفاهيمها.

وإن من أخطر ما يواجه الثقافة العربية الإسلامية اليوم من محاولات: محاولة انتزاع الثقافة من جذورها وفصلها عن ماضيها، وذلك بإثارة الشبهات حول الماضي وتوجيه الحملات المسمومة إليه، والادعاء بأن الثقافة إنسانية وعالمية ولذلك فإنه

ليس هناك من ضرورة لقيام ثقافات عربية وإسلامية، ومعنى هذا أن تنصهر الثقافة العربية الإسلامية في بوتقة الثقافة الغربية الوثنية المادية بينما تختلف قيم الثقافة العربية الإسلامية اختلافاً واضحاً عن قيم الثقافات الأخرى نحكم أنها تستمد جذورها من القرآن الكريم والإسلام واللغة العربية.

ولا ريب أن هناك فوارق عميقة بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافات الغربية منها:

أولا: أن الثقافات الغربية لاترى أن «الدين» جزء أساسي في تكوين فكرها وثقافتها وترى أن المسيحية كانت عارضاً من العوارض التي مرت بتاريخها، وأنها أصابتها بالانحراف؛لأنها نقلت إليها روح النسك الآسيوية، وأن الثقافات الغربية مدينة أساساً لجذور الهلينية الوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة بينما تؤمن الثقافة العربية الإسلامية بالدين كقوة أساسية في وجودها وحركتها لاتنفصل عن القيم الأخرى.

ثانياً: تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والصناعي إنما يهدف إلي خدمة الإنسان الغربي وحده وقبل غيره بل وعلى حساب غيره وليس إلي خدمة الإنسان بصفة عامة من حيث هو بشر، بينما تؤمن الثقافة العربية الإسلامية بالطابع الإنساني أساساً وترى أن قيمها موجهة لخدمة البشرية جميعاً.

ثالثاً: تؤمن الثقافات الغربية بحلول للمشاكل على قاعدة القوة وأسلوب الميكافيلية التي تنفصل فيها الأخلاق عن السياسة وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الواسطة بالحلول الأخلاقية ولا تتخذ من الوسيلة السيئة مبرراً للغاية الحسنة.

رابعاً: تقوم الثقافة الغربية على أساس انفصال الضمير عن العلم وسيادة المال على الضمير، بينما تؤمن الثقافة العربية الإسلامية بأن الوازع الديني والخلقي هو أساس العلم والحضارة ومؤشر وجهتها الأصيل.

خامساً: الثقافات الغربية تتشكل في صورتين: صورة الفردية الرأسمالية وصورة

الجماعة الماركسية وهما مذهبان يتنازعان ويتصارعان بينما تقوم الثقافة العربية الإسلامية على أساس الجمع بين الفردية والجماعية في كل متناسق وطابع متكامل وعطاء ممتزج وحيث تؤمن الثقافة الماركسية بقداسة الجماعة وترى الفرد ترساً في آلة، تؤمن الثقافة العربية الإسلامية بالإنسان سيداً للكون تحت حكم الله وعضواً مكلفاً ملتزماً له أمانته وعليه مسئوليته، وله عطاؤه وبذله للجماعة وانتقاله من الأنانية إلى الغيرية دون أن ينقص ذلك من مكانته كإنسان، ودون أن تكون الفردية مصدراً لتجاهل دوره في الجماعة.

سادساً: تحاول بعض المذاهب في الثقافات الغربية إثبات أن الإنسان يمجد نزواته وغرائزه الحسية وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال في توجيه الإنسان وبهذه النظريات دخل حظيرة الحيوان، وهذه المفاهيم تتعارض مع مفاهيم الثقافة العربية الإسلامية التي ترى للإنسان كرامة تعلو على المخلوقات جملة وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالإيمان.

سابعاً: تفصل مختلف مذاهب الثقافات الغربية بين الروح والمادة، والعقل والقلب، وبين الدين والمجتمع، بينما تؤمن الثقافة العربية الإسلامية بالوحدة بين هذه العناصر وتؤكد التقاءها وتقيم التوازن بينها.

كما تنكر الثقافات الغربية «الغيبيات» وتؤمن بمادية الحياة وبالمحسوس والملموس بينما تؤمن الثقافة العربية الإسلامية بأن هناك جانباً من الحياة لايصل إليه الحس أو النظر ولكنه يفهم بالعقل والإيمان:

ثامناً: تعلى الثقافات الغربية من شأن العنصر وتحاول أن تجعل للأوربيين والبيض والغربيين استعلاء على العرب والملونين والشرقيين وتعمد بهذا الإعلاء أن تجعل للاستعمار سيادة على الأمم التي وقعت تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي، وفي هذا تختلف الثقافات الغربية عن الثقافة العربية الإسلامية التي ترى أن الناس سواسية كأسنان المشط وأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل.

تاسعاً: تنظر الثقافات الغربية إلى الإسلام على أنه (دين) مثل الأديان الأخرى اللاهوتية التي تقف عند العلاقة بين الله والإنسان بينما تنظر الثقافة العربية إلى الإسلام نظرة أكثر عمقاً وواقعية حين تراه (ليس ديناً فقط) ولكنه دين ونظام حياة وحضارة.

عاشراً: تؤمن الثقافات الغربية بما يسمى سيادة أوربا وسيادة الغرب، وأن باقي الأجناس والقارات في الدرجة الثانية، وأن هناك حقاً مقدساً للبيض أصحاب الحضارة في السيادة على الأجناس والأمم وحق تمدينها، وهذا هو التفسير الفلسفي للوجود الاستعماري، بينما تؤمن الثقافة العربية الإسلامية بأن الحضارات ليست استعماراً وسيطرة ولكنها أخوة إنسانية.

حادي عشر: تدعو الثقافات الغربية إلى إطلاق الحياة وتحريرها تحريراً كاملاً من كل القيود، وقد أصبح طابع «الإباحية» هو أبرز طوابع مجتمعاتها بالإضافة إلى الإلحاد الذي هو طابع ثقافتها، ويستتبع ذلك تعرية كاملة للنفس الإنسانية وإعلاء جانب الغرائز والملذات وإطلاقها إلى آخر مدى، والعمل على كشف الجوانب الحيوانية والمادية والجنسية وتبرير حريتها وتوجيه كافة المفاهيم والقيم لخدمة هذا الاتجاه، وتختلف الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الغربية في هذا المعنى وترى أن لكل حرية ضوابط وأن المجتمعات لاتستطيع أن تخرج عن مقومات أساسية قائمة على الأخلاق وترى أن في ذلك حماية للإنسان من الانهيار والانحلال وترى أن الإنسان القوي الصادق هو إنسان الثقافة العربية الإسلامية وأن نظرة هذه الثقافة متفتحة خصبة، ولكنها لاتطلق العنان للغرائز ولا تفتح الطريق أمام الملذات والشهوات.

٦- لاريب أن وجوه الاختلاف بين الثقافتين: «العربية الإسلامية» من ناحية والغربية بشطريها من ناحية أخرى جد عميقة وأنها على هذا النحو تحول دون قيام وحدة الثقافة العالمية التي تدعو إليها بعض القوى، رغبة في احتواء الثقافة العربية الإسلامية والسيطرة عليها وصهرها في بوتقة الثقافة المسيطرة الآن في العالم، ولقد تلتقي الثقافات الغربية في أصل واحد، ولقد تلتقي الثقافة الغربية والثقافة

الماركسية في جذور متعددة ذلك لأن الفكر الماركسي ليس إلا فكراً غربياً انبثق من الفكر الليبرالي وجاء رد فعل لبعض تحدياته، ولقد تجد بين الثقافات الشرقية الغربية جذوراً وصلات ولكن: عندما يتصل الأمر بالثقافة العربية الإسلامية، فإن الأمر يختلف ويظهر مجال التباين وعمق الفوارق، ولقد يتحدث الكثيرون عن الصلة التي ربطت بين الفكر الإسلامي وبين الفكر اليوناني ويظن أنها يمكن أن تكون ركيزة لقيام عملية «انصهار» بين الفكر العربي الإسلامي الحديث وبين الفكر الغربي وتقوم في وجه ذلك محاذير كثيرة أولها: أن الفكر الإسلامي لم يستسلم مطلقاً وخلال أكثر من قرنين كاملين للفكر اليوناني، ولا لما ترجم من الفكر الفارسي أو الهندي، فقد واجه العلماء المسلمون هذا الأمر في قوة وكشفوا عن عمق الخلاقات بين منطلق التوحيد ومنطلق الوثنية، وحين حاول بعض الفلاسفة أمثال الكندي وابن سينا والفارابي وابن رشد إقامة جسور بين الفكرين، ما لبثت هذه الجسور أن انهارت وكشفت عن عدم قدرتها على إدخال الفكر الوثني في إطار الفكر الإسلامي أو احتوائه للفكر الإسلامي، وكل ما يقال في ذلك هو من باب الزيف والضلال، فقد ظل الفكر الإسلامي يقاوم بشدة حتى استصفى أصوله واستعاد تماسكه وكشف عن مذهب السنة والجماعة وامتص كل ما وجده صالحاً له نافعاً دون أن يتأثر في كيانه أو طابعه ثم تجاوز عما بقى من ذلك، وهذا الموقف يتكرر الآن بصورة أو بأخرى مع اختلاف التحدي، ذلك أن القوى الاستعمارية وقوى التغريب والغزو الثقافي قد استطاعت أن تحرث الأرض وأن تزرع كثيراً من البذور، ولكن العبرة بالحصاد، فإن كل ما زرع لم ينبت، وكشفت الأرض عن رفضها لقبول هذا البذر وتمسكت بأصالتها وما تزال المعركة دائرة والنصر فيها للحق، وقد وجدت المقاومة وستجد أعلاماً وأئمة قادرين على مدافعة الزيف والشبهات والسموم المثارة مهما امدت القوى الغازية لهذه الحرب من وقود.

ولقد كان ولا يزال هناك مفهوم واضح هو أن الثقافة العربية الإسلامية قابلة لامتصاص ما تراه نافعة ولكنها قادرة على أن تحول بين كل ما يغير سماتها أو

يزيف شخصيتها أو يحولهما عن مجراها العميق الأصيل الذي حفره لها القرآن منذ أربعة عشر قرناً. وغاية الثقافة العربية الإسلامية: هي المحافظة على الخصائص والمقومات الجوهرية مع القدرة على الحركة والأخذ والعطاء، ولقد كانت الثقافة العربية الإسلامية قادرة على الحركة والتطور والتجدد دوماً دون أن تفقد عنصر الوحدة والاتصال بالماضي والموازنة بين الروحي والمادي مع الحرص على الجوهر حتى لاتطغى عليها الأهواء ولا تجتاحها العواصف ولا تقع في أزمات التمزق والصراع.

٧- إن المشكلة الثقافية إنما تتمثل في أن جانباً كبيراً من المفاهيم المطروحة في أفق العالم الإسلامي سواء عن طريق التعليم أو النشر بالصحف أو الكتب ليست أصيلة المصدر،وهي معارضة للقيم الأساسية الإسلامية. ولا سيما في التاريخ والأجتماع والتربية وفي المواد الفلسفية تتجلى اتجاهات فكرية ومفاهيم مستقاة من عقائد ومذاهب فكرية مخالفة للإسلام، هذه المواد لدى أصحابها وفي حضارتهم قد أسست على مفاهيم فلسفية وأسس فكرية نتيجة لتشوه الدين وانحرافه إلى وثنية جامدة،ومناصرة رجاله لأهل الظلم والاستبداد وقد تجلى هذا الفكر المسيطر على الثقافة العربية الإسلامية في نزعات فكرية تخالف الإسلام والعقيدة الإسلامية وأهمها النزعة الإلحادية بشتى صورها، المذهب الطبيعي، المادية الجدلية، «الماركسية» الدعوة إلى تقديس العقل، إعلاء للغرائز (الوجودية) النرزعة الإقليمية وتعصب العرق، حتى أخذت هذه النزعة العنصرية تحل محل الدين وتزاحمه ويحاول أصحابها أن يجعلوا منها الرابطة الأساسية ومن رابطة العقيدة رابطة ثانوية ومدى خطر هذه النزعة في تفكيك عرى وحدة الفكر والثقافة والعقيدة التي أقامها الإسلام وجعل لها المقام الأول، كذلك فقد ارتفعت الدعوة إلي ثقافة متوسطة يراد أن تكون رابطة بين أهل البحر الأبيض المتوسط في محاولة للقول بأن هذا البحر له وحدة ثقافية تجمع بين شاطئيه قامت بالفكر اليوناني والامبراطورية الرومانية التي حكمت قرابة نصف قرن ثم جاء بعد ذلك من سيطرة الحضارة الغربية الحديثة، ولا ريب أن أخطر ما في هذه الدعوى هو تجاهل الأثر الذي أحدثه الإسلام حين قطع

العلاقات التاريخية واللغوية والعقائدية القديمة بين شطر هذا البحر الجنوبي وبين الماضي القديم كله بوثنياته ولغاته وتاريخه وأحدث له فكراً جديداً قائماً وحياً منذ أربعة عشر قرناً هو الذي صاغ له نظرته إلى الحياة، وأنه من العسير رد التاريخ القهقري مرة أخرى ومن هنا فإن طابع الثقافة في مصر وسوريا والعراق، وليبيا وتونس والجزائر والمغرب مهما كان للوطنية من أثر هو طابع إسلامي، وأن تاريخ هذه الأمة التي وحدها الإسلام قد أكسبها مزاجاً خاصاً لانفكاك لها منه، وقد ظلت هذه البلاد العربية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة إلي أن جاءت هذه الدعوات فأرادت أن تنزع منها هذا اللون المميز لتميل بمزاجها إلى الشيوع في الثقافات الأخرى، ولا ريب أن مصر وهذه البلاد بتاريخها الإسلامي الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية، ولا ريب أن اليقظة الإسلامية الممتدة منذ ظهور دعوة التوحيد في قلب الجزيرة العربية ومن جوار الأزهر قبل وصول الحملة الفرنسية بأكثر من خمسين عاماً دليل علي أصالة عمقها الإسلامي وصدمة قوية لمن يريدون الميل بها عن هذا الينبوع الذي استمدت منه ذاك مئات السنين بعد أن مرت بذلك التاريخ المتصدع من الأزمات والنكسات قد عرفت بما لايدع مزيداً بأن النهج الذي أريد لها بالتغريب هو الذي حكم بالهزيمة المتصلة، فلما عرفت طريقها الأصيل تحقق لها النصر فأولى بها أن تعتمد على هذا الطريق الذي ليس لها طريق سواه، ولا ريب أن حضارة البحر المتوسط هو مرحلة من الحضارة البشرية إلى جوار مراحل أخرى كثيرة، غير أن الركيزة الأساسية للثقافة الإسلامية هي أن أهلها يتوجهون خمس مرات في اليوم إلى محور القبلة الإسلامية التي تجمعهم ولا تزال تربط بينهم بكلمة التوحيد.

٨- لقد تصارعت الثقافة الفرنسية والانجليزية في البلاد العربية فترة طويلة وحاولت كل من اللغتين السيطرة على الثقافة العربية الإسلامية والحد من اللغة العربية، ثم جاءت موجة الصراع بين الثقافة الغربية والثقافة الماركسية، وقد واجهت الثقافة العربية الإسلامية كلا الصراعين بقوة، واستطاعت أن تستفيد خير ما هنالك

دون أن تصرعها واحدة منهما، وأن تظل محتفظة بطابعها وروحها ومزاجها النفسي اعتماداً على أسسها العميقة وجذورها العريقة واستناداً إلي حقيقة تاريخية أساسية هي (الانقطاع التاريخي) بين العالم الإسلامي وبين التاريخ السابق له انقطاعاً تاماً، ليس بالنسبة لمصر وحدها ولكن بالنسبة للمغرب وللعالم القديم الذي كانت صلته قائمة على الاستعمار الروماني الذي امتد في أفق البحر الأبيض كله، كذلك فإن الصلات الثقافية القديمة التي عرفتها فارس والهند ومصر قد انتهت تماماً وكل المحاولات التي جرت في الثلاثينات لإحياء الفرعونية والفينيقية والأشورية وغيرها سقطت وفشلت ذلك لأن هؤلاء الدعاة لم يجدوا خيطاً واحداً يصلون به بين عالم ما قبل الإسلام وعالم الإسلام ثم تبين أن الفراعنة والفينيقيين والبربر وغيرهم كلها موجات عربية خرجت من الجزيرة العربية وانداحت في هذا العالم الواسع.

وأن أكبر ما تتطلع إليه حركة اليقظة الإسلامية هو وضع نظام ثقافي إسلامي موحد يزيل الازدواج الواقع في ثقافتنا ويخضع كل ما يرد لنا من الآفاق لأصولنا الأصيلة ولقاعدة الأساس وتلك هي الدعوة الصادقة إلى (البناء على الأساس) ويستهدف هذا إزالة الخطر القائم بوجود عقليتين مختلفتين إحداهما: متصلة بالقديم وحده والأخرى: متصلة بالوافد وحده، والهدف هو خلق قاعدة من الأصالة تلتقى عليها الثقافة العربية الإسلامية أساساً ثم تتخير وتنتقى من القديم والوافد جميعاً ولابد لذلك من تحرير العلوم الطبعية مما علق بها من صياغة يجعلها تعتقد بأن الإنسان هو صانع القوانين الكونية أو هو الذي يتحكم فيها وننسى أن هذه القوانين كانت موجودة منذ ملايين السنين وأن العلم الحديث الذي استمد أصوله من المنهج العلمي التجريبي الإسلامي الذي ليس له مصدر إلا القرآن هو الذي هدى العقل البشري إلى هذه الحقيقة ولذلك لابد من الاعتراف بخالق النظم والقوانين أساساً والذي هدى البشرية إلي اكتشافها واستعمالها أما المفاهيم المتصلة بالأخلاق والنفس والإجماع فإن لدي المسلمين أصولاً أشد عمقاً وأكثر قوة وإيجابية من كل فكر بشري في صناعة الكيان البشري القادر على حمل أمانة الاستخلاف في الأرض.

(٢١)
الأدب

إن خصائص الأدب العربي التي تميزه عن الآداب العالمية المختلفة في الشرق والغرب ترجع إلى البيئة التي نشأ فيها والفكر الذي تشكل في إطاره والتحديات التي واجهته في طريق مساره الطويل، وقد نشأ الأدب العربي في الجزيرة العربية إلى قرون عديدة سبقت الإسلام، وصاغته مقومات دعوة التوحيد الأولى (الحنيفية) حين قام هذا المجتمع الجديد في قلب الجزيرة بجوار بيت الله الحرام فجمع بين جنوب الجزيرة وشمالها، ووسطها، وصهرها جميعاً في ذلك البناء الذي أقامه الإسلام ببعثة محمد ﷺ حفيد إبراهيم وإسماعيل، ولا ريب أن الإسلام هو الذي أعطى العرب كيانهم الاجتماعي، والقرآن هو الذي صاغ لهم منهج الأدب العربي، ولقد كان قبل الإسلام شعر وأدب وأسواق، وكان الشعر ديوان العرب ومجموعات من سجع الكهان، غير أن صورة الأدب في معالمه الأصيلة إنما وضحت بعد نزول القرآن الذي كان العامل الأعظم في بناء الأدب وظهور فنونه وعلومه ومناهجه والذي أغنى اللغة العربية بالأساليب والمضامين، ولا ريب أن اللغة العربية سابقة على الإسلام وهي عماد وجود الأمة العربية،وهي لغة تطورت ونمت خلال مئات السنين حتى وصلت إلى صورتها التي عرفت بها قبيل الإسلام وإن ظلت لها لهجاتها المتعددة فلما نزل القرآن- كما أعطى الأدب العربي - هذا البيان المعجز الفائق الذي فهمه العرب وأعجبوا به وعجزوا في نفس الوقت عن الإتيان بمثله، ولقد كان لميراث النبوة في إسماعيل جد العرب وبقايا الحنيفية (دين إبراهيم) قيماً خالطت النفس العربية، قامت على الأريحية والمروءة وإن أصابها كثير من فساد عادات الثأر ووأد البنات والشرك وعبادة الأصنام والاستعلاء والتفاخر، فلما جاء الإسلام حرر هذه النفس العربية من جاهليتها،وصاغ كثيراً من طباعها صياغة جديدة، وحول أهداف الكرم وحماية الذمار والنجدة فأعطاها مفهوماً متجدداً هو مفهوم التوحيد الأصيل واستبقى

قدرتها على المجالدة والحمية، ووجه ذلك كله إلى هدف أسمى تحت لواء عقيدة التوحيد الخالص، وبذلك محا درن الجاهلية وحرر قيمها التي كانت عماد القوة الكبرى التي اندفعت في الأرض ترفع راية الإسلام وتعلن اسمه وتمد نفوذه من حدود الصين إلي حدود فرنسا، كل هذ العوامل أعطت أدب اللغة العربية ذاتية خاصة يختلف به عن أدب الأمم الأخرى وظهرت فنون لم توجد في الآداب الأخرى واختفت منه فنون توجد في الآداب الأخرى، وظهور هذه واختفاء تلك منه لا ينقص من قدره، ما دام يصدر عن أعماق روحه الطبعية ومقوماته الخالصة، ومن هنا فإن هذا الأدب لايمكن أن يدرس في ضوء مناهج وضعت لآداب أخرى، ذلك أن أساليب النقد والبحث إنما توضع للآداب بعد ظهورها، ولذلك فهي مستمدة منها وليس العكس .

إن مذاهب الأدب التي يحاول النقاد محاكمة الأدب العربي إليها هي في جملتها مذاهب غربية وضعت مسمياتها ومناهجها بعد قيام ظواهرها في الآداب الأوربية وهي في الحق ليست مذاهب وإنما هي أسماء عصور، كالكلاسيكية والرومانسية وغيرهما،وهي تتصل في مجموعها بتاريخ الأمم التي وضعت هذه المذاهب، فلماذا تنقل لتكون قوانين يخضع لها أدبنا الذي يختلف من حيث تكوينه وطابعه وتاريخه، وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الآداب؟ إن اختلاف المصادر والمنابع بين الأدب العربي والآداب الغربية يجعل من العسير خضوع الأدبين لمقاييس واحدة أو لقوانين واحدة، والمعروف أن الآداب الغربية جميعاً تستمد مصادرها من الأدب الهليني والفسلفة اليونانية، والحضارة الرومانية، فقد اتجه الأدب الأوربي الحديث منذ أول ظهوره في عصر النهضة إلى هذه المنابع وربط نفسه بها وجعلها أساساً ثابتاً لمختلف وجهات نظره ومفاهيمه وقيمه كما اتخذ من النظريات التي قدمها أرسطو في الأدب والنقد والشعر وغيره أساساً له.

ولا ريب أن الأسس التي يقوم عليها الأدب العربي بمختلف فنونه وبيئاته تختلف اختلافاً واضحاً عن الأسس التي يقوم عليها الأدب العربي الذي استمد مصدره

أساساً من القرآن الكريم، والإسلام والقيم العربية الأصيلة التي تلاقت في مفاهيم الإسلام وانصهرت معها.

٢- أما الفكر الذي تشكل الأدب العربي في إطاره فهو (القرآن) وأداته اللغة العربية، ويقوم هذا الفكر على أساس التوحيد الخالص، فقاعدة الإسلام الأزلية هي الاعتقاد بوجود الله الواحد الذي لايتغير بتغير الزمان والمكان، فالله سبحانه وتعالي هو خالق الكون وهو الذي يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة بحيث لو تخلي عنه لتلاشي وانتهى وهو القائم على كل نفس بما كسبت، وهذا المفهوم هو الأساس في الأدب العربي والإنسان في نظر الإسلام مستخلف في الأرض وله طبيعته الجامعة بين الروح والجسد والعقل والقلب، وله رغباته المادية وأشواقه الروحية وله إرادته ومسئوليته، ولما كان القرآن هو المصدر الأصيل للفكر الإسلامي فهو المثل الأعلى للأدب العربي، ولا ريب أن تأثير القرآن في هذا الأدب لاينقطع لأنه متصل بالأداء والمضمون معاً حيث يستمد الأدب العربي أصوله من الإسلام والقرآن الكريم، وفي مقدمتها: الأصالة والصدق، والوضوح والإيمان والتفاؤل والأخلاقية والتكامل والالتزام والمسئولية، والحرية ذات الضوابط وثبات القيم وترابط الفردية والاجتماعية والتوحيد والتجريب والفطرة وقوامة الرجل وتكامل المعرفة وترابط العروبة بالإسلام والطابع الإنساني.

٣- من خلال دراسة الأصول التي استمد الأدب العربي منها وجوده تظهر جلياً وجوه الخلاف والتباين بين الأدب العربي والآداب الغربية وخاصة في أربعة مواقع هامة:

أولاً: تفسيرات العقائد.

ثانياً طبيعة البلاد.

ثالثاً: موروثات الهلينية.

رابعاً: الآثار الخطيرة التي حققتها سيطرة الفكرة التلمودية على الفكر الغربي

كله في العصر الحديث.

ومن هنا نجد الخلاف عميقاً في العقائد والثقافة ومناهج البحث والطبيعة النفسية والطبيعة الجغرافية جميعاً، ولهذا الخلاف أبعد الأثر في مفهوم الأدبين، ذلك أن أبرز طوابع الفكر الغربي (والأدب الغربي بالتبعية) هو تجزئة الأمور لاتكاملها (فهي تفهم شيئاً واحداً وترى الآخر عكسه أو ضده وهي تفصل بين الأشياء فصل العداوة أو المخالفة أو التعارض، ولا تستطيع أن تقبل المواءمة أو المصالحة، أو الالتقاء أو التكامل على النحو الذي يمثل طبيعة واضحة للفكر العربي الإسلامي وحين يستمد الأدب العربي مقوماته من التوحيد يستمد الأدب الأوربي مقوماته من أشياء كثيرة يكاد الدين الغربي أن يكون عنصراً فيها، ولكن أبرز المقومات هي الوثنية الهلينية والأدب الجنسي الصريح.

٤- واجه الأدب العربي عدداً من النظريات الوافدة في مجال النقد الأدبي قدمها بعض الأدباء في نطاق الدعوة إلى تجديد الأدب العربي وقد خالفت هذه النظريات منطلق الأدب العربي وجذوره، وعارضت ذاتيته الإسلامية العربية الخالصة واصطدمت مع مزاجه النفسي والعقلي ومن هنا فقد سقطت واحدة بعد أخرى، ولم تجد مجالاً للعمل والنماء والتشكل مع الأدب العربي، ذلك أن هذه النظريات في أصولها قد انطلقت من طبائع الآداب الأوروبية وذاتيتها وتشكلت وفق مضامين تلك الآداب واعتمدت أساساً على النظريات التي بدأت في دائرة العلم الطبيعي ثم فرضت نفسها على الفلسفات والآداب وهي النظريات التي اعتبرت الإنسان حيواناً خاضعاً لظروف البيئة خضوع مختلف الأشياء لها، وهي نظرية مادية خالصة لاتتفق مع روح الأدب العربي الذي يقوم على أساس ترابط واضح بين المادية والروحية وبين العقل والقلب والتي تعتمد قاعدة التوحيد الإسلامية أساساً لمنطقها.

ويقوم منهج النقد الأدبي العربي (الحديث) الذي فرضه بعض الأدباء «بعد الحرب العالمية الأولى على الأدب العربي» على أساس مادي خالص فهو مبني على أساس النظريات التي استمدت مناهجها من نظرية دارون عن التطور وأصل الإنسان: هذه

النظرية التي قامت في دائرة العلم الطبيعي ثم نقلها الفيلسوف هربرت سبنسر إلى مجال المجتمع فطبقها على مبادئ الأخلاق ثم جاء «برونتير» الناقد الفرنسي فطبقها على الأجناس الأدبية، هذا فضلاً عن أن المفاهيم التي اعتمد عليها دعاة المذهب الغربي في النقد الأدبي إنما استمدوها من برونتير هذا ومن تين وسانت بيف، وهم يرون أن الإنسان ما هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الأجتماعي الواسع وأنه لايكاد يفترق عن النبات والحيوان في انتفاء الحول وانعدام الإرادة، وما يتصل بهذا من أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الأحماض والقلويات. فضلاً عما ترتبط هذه النظرة جميعها به من أثر نظرية النشوء والأرتقاء من حيث إنزال الإنسان من مكان البطولة إلى مكان الحيوان الذي يعيش تحت رحمة القوى المحيطة به وقد نمى هذه النظريات الباحث الفرنسي دور كايم في مفاهيمه التي تلقاها بعض أدبائنا هؤلاء في جامعة السربون، وجعلوا من هذا الخليط كله أساساً لنظريتهم في النقد الأدبي التي جرى تطبيقها على المتنبي وابن خلدون والمعري، ثم جرى تطبيقها على الشعر الجاهلي وعلى أدب القرن الثاني للهجرة وكان لها ذلك الأثر العميق من التضارب الذي أصاب القيم الأساسية للأدب العربي والفكر الإسلامي والثقافة والتي ذهب الباحثون في تعقب آثارها فلم يصلوا إلى هذا المعنى إلا منذ وقت قريب حين تبين محاولة إخضاع الأدب للمنهجين الاجتماعي الذي رسمه دور كايم والذي يعترف بأن الإنسان حيوان اجتماعي، وأن مختلف قيم المجتمع ليست أصيلة فيه والمنهج النفسي الذي التقطه الأدباء من نظرية فرويد والذي يرى أن الإنسان عبد لشهواته وأن الجنس هو المحرك الأول لكل تصرفاته.

وقد غلب المذهب الاجتماعي على دراسات الأدب والتاريخ وغلب المذهب النفسي على دراسات التراجم والشعر، ومن هنا ظهرت تلك الآراء الغريبة التي تمسك بها بعض الأدباء والتي لاتتفق من قريب أو بعيد مع مفاهيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية، ومن ذلك ما قاله الدكتور طه حسين من أن (الدين نبت من

الأرض ولم ينزل من السماء) وقوله إن العالم الحقيقي هو الذي ينظر إلي الدين كما ينظر إلى اللغة،وكما ينظر إلى اللباس،من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة، ومن هنا نصل إلى أن الدين في نظر العلم لم ينزل من السماء،ولم يهبط به الوحي،وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها» أهـ.

والواقع أن قائل هذا كان يردد صيحة معروفة في الغرب على أيدي العلماء اليهود تلاميذ وأحفاد بروتوكولات صهيون، وأن العلم الذي يشير إليه ليس هو العلم بمعناه الحقيقي،وإنما هي الفلسفة المادية،ومدرسة العلوم الاجتماعية،والتحليل النفسي، وكلها تقوم على مصدر مادي خالص ولا تعترف بأن الإنسان روح ومادة ولا ريب أن هذه الآراء واحدة،وأن الدكتور طه لم يبتكرها ولم يصل إليها بعد بحث ولكنه تعلمها من دور كايم وغيره من الكتاب الغربيين الذين أرادوا أن يتحركوا بمفاهيمهم هذه من خلال الفكر الغربي،من الفلسفة المثالية التي كانت سائدة إلى الفلسفة المادية الخالصة.

أما الأدب العربي والفكر الإسلامي فليس له مع هذه القضية أو هذه الأزمة صلة ما، ولذلك فإنه من الظلم البين أن ينقل مجال المعركة إلى الأدب العربي بغير حاجة إليها إلا حاجة واحدة في نفس يعقوب،هي محاولة تغريب الأدب العربي وعزله عن ذاتيته الخاصة،ومقوماته وأرضيته.

وفي نفس مجال الإدعاء بأن هناك صراعاً بين الدين والعلم،فإن الأمر يبدو مضللاً، فليس بين العلم والدين خصومة حقيقية فضلاً عن أنه ليس بين الإسلام والعلم خصومة ما، والنظريات العلمية لم تثبت تناقضاً بين العلم والدين.

٥- وقد عارض كثير من الباحثين هذا المنهج الوافد في نقد الأدب العربي،وقال الدكتور حلمي على مرزوق في كتابه (تطور النقد) إن المنهج العلمي في البحث الذي ينقد به طه حسين الأدب العربي لايصلح استخدامه إلا في مجال الوقائع العلمية التي يدرسها العلماء كأصول الدراسة الكيمائية والطبيعة وما إليها،حيث

لايدخل في مجال الوقائع العلمية معارف الشعوب،ولا يستطيع العلم أن يستقل بالبحث في هذا الموضوع؛لأنه أدخل في مجال الرأي، ويعول طه حسين في المنهج الاجتماعي الذي ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان اجتماعي، ومن هنا يعول على دراسة البيئة والعصر،ولا يدرس البواعث النفسية للأديب التي تحفزه إلى نوع من السلوك دون آخر» وقد فرق الأستاذ محمد أحمد الغمراوي بين مناهج الأدب ومناهج العلم في مناقشته لهذه النظرية فقال: أما العلم فإنه ميدان العقل ومتاعه، وهو لاوطن ولا قومية له، كما أن العقل لا قومية له ولا وطن، فقوانين التفكير واحدة وسبل العقل واحدة في العالمين، ثم أنت لاتشعر أثناء تلقى العلم من أجنبي أنك تتلقى شيئاً خاصاً بجنس من البشر دون جنس،أو بقوم دون قوم، ولكن تتلقى شيئاً مشتركاً أو ينبغى أن يكون مشتركاً بين الناس أجمعين اشتراك العقل بينهم، وليس الأدب كذلك، فبينما أنت في العلم لاتجد علماً ألمانياً ولا علماً فرنسياً، ولكن علماً واحداً إذ تجد الأدب متعدداً بتعدد الأمم، لكل أمة أدبها،كما لكل أمة لغتها، وتجد أدب كل أمة مطبوعاً بطابعها طبعاً لاخفاء فيه، أو هكذا هو إذا استقلت الأمة بأدبها ونسجت لنفسها برداً من روحها وتاريخها وتقاليدها وعاداتها ودينها، بدلاً من أن تلتف بشق من برد غيرها، لا تجد فيه دفئاً ولا قوة ولا جمالاً» وقد وجد هذا المذهب في النقد الأدبي معارضة تستمد قوتها من معارضته للذوق العربي،ومضادته لذاتية الأدب العربي التي تعتبر الإنسان سيد الكائنات،وتعلى من قدر عقله ووجدانه،وتحاكمه إلى مقاييس تختلف اختلافاً كبيراً عن المقاييس المادية التي تراه حيواناً أو خاضعاً للجنس.

وقد سقطت نظرية خضوع الأدب للمذهب الاجتماعي والمذهب النفسي على السواء،وتبين فساد الرأي الذي أعلنه طه حسين في العشرينات من هذا القرن حين قال:إنه يريد أن يدرس الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان وعلم النبات.

٦- كذلك هناك خلاف عميق حول أخلاقية الأدب فقد كان من أبرز ما دعا إليه

المذهب الغربي في الأدب هو تحرير الأدب من طابع الأخلاق،ودفعه إلى تصوير الغرائز والأهواء في غير ما قيد،وذلك باسم (حرية الأدب) التي أطلق عليها مصطلح (الفن للفن) ولقد بدأ هذا الإتجاه بظواهر ثلاث:

(١) الإفاضة في الحديث عن حياة بشار وأبي نواس وغيرهم من شعراء الإباحة في العصر العباسي،ونشر الجوانب الشاذة من أحاديثهم وأسمارهم على النحو الذي كتبه طه حسين في (حديث الأربعاء).

(٢) ترجمة القصة الفرنسية الإباحية، والكشف عن جوانب الصراع الحسي في العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأة وترجمة أشعار بودلير وغيره من شعراء الأدب المكشوف.

(٣) الإذاعة بمذهب حرية الأدب،والدعوة إليه،والدفاع عنه،وفق منهج له طابع علمي زائف،بدعوى أنه منطلق إنساني أصيل.

وقد استهدفت هذه الدعوة التي اتسع نطاقها وقامت من أجلها المناظرات والمحاضرات، فضلاً عن ذلك الفيض الضخم من القصص الفرنسية المكشوفة التي جرى ترجمتها وتقديمها بأسعار زهيدة وإلقائها بين أيدي الشباب والفتيات، وقد حفلت هذه الكتابات بالاستخفاف بالقيم الأخلاقية والغمز لكل ما يتصل بالعقائد الدينية،والسخرية بالفضائل والبطولات، والدعوة إلى الانطلاق بدون حرج والجرأة على المقدسات،بل إن ذلك قد جرى تطبيقه في بيئات مختلفة منها بيئة العلم الأساسية، ولقد لقيت نظرية حرية الأدب ومعارضة الأخلاق نقداً واعتراضاً مصدره تعارضها مع طابع الأدب العربي أصلاً،وكشف الباحثون المنصفون عن أن حرية أبي نواس وبشار لم يكن مصدرها الأدب العربي،أو مفاهيم الإسلام الاجتماعية،وإنما مصدرها تطلعاتهم الحسية،وأهدافهم الشعوبية،التي أرادوا إذاعتها،والجهر بها،لهدم مقومات الأدب العربي الأصيلة،وإعلاء مفاهيم المجوسية والإباحية،التي تحرر منها الأدب العربي بعد الإسلام، ذلك أنه ليس في مفهوم الأدب العربي أصلاً، ما قاله طه حسين حين قال: «خسرت الأخلاق وربح الأدب» وقد واجه الدكتور حلمي رزق هذه

النظرية حين قال: إن حرية الأدب لا جدال في إطلاقها ولكن الخطأ في قصرها على عاطفة دون عاطفة أو وجدان دون وجدان،فضلاً عن عاطفه الهوى ووجدان الشك والمجون، وأخطأ الخطأ أن يوحي إلينا طه حسين أن الأخلاق من مواضعات الحياة الجامدة،كأنها وليدة الإرادة العمياء التي نادى بها (شوبنهور) فهي فرص مكررة أو إلزام أعمى تقتضى الحرب والانكار، والقاعدة الأخلاقية ليست من قبيل المواضعات العمياء، أو الضوابط الجامدة وإنما شأنها شأن الفن، وليدة التجربة العميقة التي يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية بين الأشياء.

وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة في تواريخ الأدب والفنون،ونراها ماثلة فيما يجرى بيننا من شعر المتنبي، وأمثال شكسبير،على أن طه حسين حينما يصرف الأدباء عن الأخلاق إنما يقع في العيب الذي يأخذهم به،فهو يشتط في نفي الحجر على الشاعر ويقع هو فيه، وأي حجر أشد من الوقوف بالأخلاق والفضائل موقفاً بعيداً عن الفن فلا ينبغى للأديب أن يقربها وإلا كان أدبه (قديماً من قوارير) تصطلح عليه علل الكذب،وأدواء الصنع،وتنتفى عنه سمات العصرية أو الأدب الحديث، أو الوجدان الديني،يعد شأنه في الأدب شأن غيره من الأحاسيس ومشاعر النفس لا ينقده ناقد ولا يكون له في قضية الحب نصيب، على أنه سيظل ماثلاً في الأذهان أن الحرية قد تقضى لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج عن الأعراف والمواصفات،وتنتهى إلي التعبير الحر عن الأهواء والنزوات، وخلاصة القول: إن دعوى الاختلاف بين الفن والدين والأخلاق نشأت من اتباع نظرية الفن للفن، ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أزيد ولا أقل،فلا عبرة بالموضوع في ذاته،وإنما العبرة بمقتضيات التعبير، فالفنان لاحجر عليه في تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس اتفقت ومواضعات الجماعة وأعراف الناس أم خرجت عليها،فالفن لايخضع لغير قانون التعبير!!

ومن هنا أيضاً نشأ التضارب وسار عليه طه حسين فيما أسلفنا من القول: «خسرت الأخلاق وربح الأدب» وهو موقف يوحي به ظاهر المذهب، وعنه شاع هذا

الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبذل مقصود وحجة يسوقها أنصاف الفنانين بين أيدي الانحلال يريدون أن يضيفوا عليها ثوباً من المشروعية الزائفة ينفقونه في سوق الغباء العلني، فغاية المذهب الحقة تخليص الأدب من القيم الدخيلة عليه ولم يكن قصاراه أن يقف من الأخلاق والدين موقف التناقض» والحق أن نسبة مثل هذه النظرية إلى المفاهيم العلمية إنما هو من قبيل تحصيل الحاصل، ذلك لأن الدعاة إلي هذه النظرية وهم قد طبقوها فعلاً في كتاباتهم إنما كانوا يستهدفون غايات بعيدة، أعمق أثراً ولذلك لم يكن انتسابهم إلى قواعد العلم والفن إلا محاولة للخداع وتضليل البسطاء، في حين أن الأمر كان محاولة لتبرير جوهم الاجتماعي الخاص الذي كانوا يعيشونه فعلاً متحررين من قيود الخلق والدين، ذاهبين إلى أبعد حدود الانطلاق، ولم يكن من المعقول أن يمارسوا هذه الحرية ثم يقفوا من الأدب موقفاً يخالف ما يعتقدون ويمارسون ذلك أنهم كانوا قد قرأوا عن بلزاك وجان جاك روسو واسكندر ديماس وما كانت تحويه حياتهم الخاصة من فساد ونزق وكانوا يتطلعون إلى أن يكونوا كذلك هم، وشاعت بين الأدباء في هذه الفترة دعوة تقول ببوهيمية الأدبا،،وأن من حق الأدباء مقارفة كل فنون الحياة،ليتمكنوا بالتجربة من الحكم على ما يجدونه في الكتب والقصص، ومن هنا كانت تلك الدعوة إلي (لا أخلاقية الأدب) مظهراً حقيقياً وواضحاً وصريحاً في أدب الأدباء وحياتهم في هذه الفترة.

والعلاقة بين الفن والدين علاقة واضحة وفي الإسلام أوضح، فالفطرة كلها منشؤها واحد هو الله سبحانه وتعالى والعلم والدين كلاهما قد أجمعا على استحالة التناقض في الفطرة فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة (دين الإسلام) في شيء، فإذا خالفت الفنون الدين في أصوله ودعت صراحة، أو ضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لدفعها عن الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى في النفس والروح، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا، فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق ودابرت الخير، وأخطأت الفطرة التي فطر الله الناس عليها ،

فإذا كان من شأن بعض من يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز في تأثيره ما سبق، فيحول بين الإنسان وبين ربه ويدخل عليه الشك في دينه بأي صورة من الصور ولأي حد من الحدود،كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب يعد زوراً أو إفكاً في الأدب والفن والدين على السواء. ولذلك كما يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي يجب أن ينزل الأدب والفن على حكم الدين وروحه، وعليهما يجري التطابق العام معه وبذلك يتحقق لهما الاتحاد مع الفطرة في الصميم، والأدب المكشوف يصدم أول ما يصدم مقر الفضيلة في النفس ويؤذى أول ما يؤذى حاسة الجمال النفسي في الإنسان،وهو في صميمه أدب غير جميل.

٧- كذلك كان من أخطر ما قدمته مناهج النقد الأدبي الوافدة «أسلوب الشك» وهو أسلوب ماكر من أساليب الغزو الثقافي أريد به إدارة الأبحاث الأدبية والعلمية والتاريخية كلها في دائرة اللاأدرية والتشكيك والتهكم والسخرية بحيث يرى القارئ أنه إزاء جو مغرق في الاستهانة والاحتقار لكل ما يتناوله. ويقول الدكتور طه في بحث له العبارة الآتية: (أخضعت للشك - دون أن أمس الدين - بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن وأحاديث الرسول) أي أسلوب من المكر والتضليل أبعد من هذا حين يعترف بأنه أخضع بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن للشك وكيف أنه حين فعل ذلك لم يمس الدين الذي هو مصدر الاعتقاد والذي هو منطلق كل ما ورد في القرآن. وقد سجل الكثير من الباحثين هذه الخاصية التي عمد إلى إذاعتها (طه حسين) في الأدب العربي كله حيث يقول عمر فروخ: إن أبرز معالم أدبه تردده بين المفهوم وغير المفهوم والمنحول والثابت. والممكن وغير الممكن. ولم تره في كتاب إلا داعية للشك. ولا في مقالة إلا آخذاً بالظن ولم يثبت في حياته شيئاً. بل كان ينفى ما يثبت نفسه بنفسه وهو يكتب: «لعل. ربما» ويقول رأيه على التأويل والدوران والتغير،فهو لايقطع في شيء أبداً ولا يصف شيئاً بأنه أبيض أو أسود. ولقد خلط طه حسين بين الشك وبين المخرج من الشك فجعل الشك القاعدة الأساسية.

٨- وكان من أخطر ما قدمه المنهج الوافد هو فصل الأدب عن دائرة الأمة وفصله عن دائرة الفكر، ذلك أن من أخطر النظريات التي حاولت حركة التغريب فرضها على الأدب العربي للقضاء على جوهره الأصيل وعزله عن طبيعته ومقوماته، هي نظرية استقلالية الأدب وانفصاله عن العناصر الأخرى المرتبطة به: من أخلاق ومجتمع وتربية وسياسة، وفق مفهوم الفكر الإسلامي الأساسي القائم على أن الفكر مركب وكل من هذه عناصر والأدب عنصر منها، وإذا كان الأدب الغربي قد انفصل، فإن الفكر الغربي يقوم على قاعدة الفصل بين العناصر وإعطاء كل منها حق الحرية بينما لايقر الفكر الإسلامي ذلك، ويرى فيه خطراً على مجموعة القيم وعلى الأمة وعلى الأخلاق، ومن نتائج هذا الفصل قيام النزعة الانشطارية في الفكر الغربي واضطراب المجتمع، حيث يعطى للأدب من الحرية ما يسمح له بأن يتجاوز ضوابط المجتمع، أو حدود الأخلاق، لذلك قامت هذه الدعوة للفصل في بين الأدب العربي ومقومات الفكر الإسلامي، على أساس الادعاء بأن الإسلام ليس إلا ديناً روحياً وليس نظاماً اجتماعياً كما في الواقع، وهو بهذا المعنى يتسم بالشمول والتكامل والترابط بين القيم المختلفة، ومن شأن هذا استحالة الفصل بين الأدب والدين، وبين الأخلاق والدين، أو بين الأدب والتربية، ولا شك أن هذه الدعوة إنما كانت قد صيغت على نحو ماكر وخطير وبعيد المدى يهدف إخراج الأدب العربي عن ذاتيته ومقوماته وطبيعته وإغراقه في مفهوم غريب عنه، يتيح لهؤلاء الدعاة حرية النقد وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم باعتباره نصاً أدبياً، أو نصاً بيانياً، وكذلك إطلاق حرية الأدب المكشوف وفنون الإباحة والإلحاد، انطلاقاً من الدعوة الباطلة التي تقول بأن الأدب ليس له أي ارتباط بالدين أو الأخلاق أو الأمة، ولا شك أن كتاب (في الشعر الجاهلي) قد رسم أصول هذا المنهج الخطير المسموم، وما زال مفهوم هذا المنهج هو الأساس الذي يقوم عليه نقد الأدب العربي المعاصر والحديث، وأن أغلب الأدباء والكتاب قد اعتمدوا هذا المذهب في كتابة دراساتهم، فأطلقوا لأنفسهم حرية الكشف عن جوانب من التصوير للعاطفة الجنسية، وللنظريات الحرة دون تقيد بأي مقوم من مقومات الأدب العربي الأصيل المستمدة من القرآن التي تتحرك داخل إطار

التوحيد، ومع ضوابط الأخلاق والمسئولية الاجتماعية وحماية المجتمعات من أخطار الإلحاد والإباحة. كذلك كان من أخطر ما دعا إليه المنهج الوافد-نتيجة لدعوى فصل الأدب عن الفكر-إعطاء الأدب حرية الحكم على أشياء كثيرة خارج نطاقه ، فقد أخذ الأدباء في إصدار آراء حرة وجزئية ومستمدة من نظريتهم الأدبية الواحدة في الحكم على التاريخ والعقائد، والأخلاق والدين وقد تناولوها بدون قيد عليهم على أنها أدب وحاكموها بمنهج الماديين،وأثاروا حولها شكوكاً خطيرة، وكان هذا تجاوزاً لوظيفة الأدب وخروجاً عن دائرة اختصاصه.

٩- كذلك كان من أخطر ما أساء لمنهج النقد الأدبي الاعتماد على المصادر الزائفة وأهمها كتب المحاضرات وروايات القصاص وكتابي ألف ليلة والأغاني فقد اتخذت هذه الكتب التي كتبت أساساً للتسلية وتزجية الفراغ، اتخذت مراجع يعتمد عليها خصوم المسلمين والعرب لمن أجل ترويج آراء كاذبة مضللة، ذلك لأن هذه المؤلفات لم يكتبها علماء موثوق بهم، ولم تكتب وفق أصول العلم والبحث إنما كتبت للتسلية والترويح، وقصد بها جمع الفكاهات، والنكات، والأحاجي؛لإغراق المجتمعات بالأوهام والأباطيل، وقد ارتفع صوت العلماء المحققين في هذا العصر بالتحذير من هذه المصادر الزائفة التي تجمع أخبار الندماء والجلساء والمغنيين والمضحكين، وقد ظلت هذه المؤلفات مجهولة ضائعة حتى جاء المستشرقون والمبشرون في العصور الأخيرة فأعادوا طبعها ،وأذاعوها في العالم،وأخرجوا أغلبها في طبعات فاخرة وأوعزوا إلى تابعيهم من دعاة التغريب الإشارة إليها،والإشادة بها، والنقل عنها واعتمادها مصدراً من مصادر التأليف.

كذلك كان من أخطر ما أذيع في هذا الصدد ما أطلق عليه (رباعيات الخيام) وهي مجموعة من الشعر الفارسي المجهول النسب،الإباحي الطابع الذي نسب كذباً إلى الخيام؛لإثارة روح الإباحية والاستهتار بالحياة،واحتقار القيم في المجتمع الإسلامي.

١٠- حاول دعاة التغريب الترويج لأدب الجنس والتحلل،وذلك بالدعوة إلى أدب

لورنس وأوسكار وايلد، وترجمة «مجموعة من الأدب الغربي المكشوف» وذلك في محاولة لإطلاق الغرائز من عقالها والكشف عن الحيرة والضياع، وكذلك في إحياء بشار وأبي نواس، مما عرف في عهود استعلاء الشعوبية والدعوات الباطنية الهدامة، وقد كان ذلك كله مخالفاً لروح المجتمع الإسلامي وطابعه الذي يقوم على العفاف والخلق، والقول الكريم، دون الهجو وعلى الإشارة العابرة إلى الأمور المبتذلة دون الكشف والإفاضة في ضوء المحرمات الجنسية والميول المنحرفة. ولا شك أن الاتجاه إلى الكشف في الأدب هو طابع غربي له جذور إغريقية قديمة، وله طوابع متصلة كل الاتصال بالوثنية وعبادة الأجساد، وهو مما يرفضه الأدب العربي ويعارضه تماماً.

١١- كان من أخطر الدعوات التي طرحها المذهب الغربي في الأدب، فصل العصر الحديث عن تاريخ العرب والإسلام تحت اسم الأدب المصري أو السورى أو المغربي، في محاولة مضللة، فإن الأدب هو أدب اللغة العربية أساساً وهو في عمومه امتداد للأدب العربي الذي صنعه الإسلام بنزول القرآن.

وترمي هذه المحاولة أساساً إلى «عزل الأدب العربي عن فصاحة القرآن مما يترتب عليه العزوف عن الأنماط الأولى، والتماس الأساليب الغربية الحديثة، وهي أساليب وثنية وغربية، ومتصلة بالتوراة في الأغلب من شأنها أن تحجب الأساليب العربية الأصيلة، وتحول دون تذوق بلاغة القرآن المعجزة وفهمها، ولقد جرى الكثيرون على نقل استعارات اللغات الغربية، ولقد حاول رجال مدرسة المهجر إدخال أسلوب التوراة والعهد القديم إلى الأدب العربي كما فعل جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني، ولقد سجل الدكتور محمد أحمد الغمراوي هذه الظاهرة حين أشار إلى أن صاحب كتاب الشعر الجاهلي (يقصد طه حسين) ومن لف لفه يسوقون الأدب العربي في غير طريقه، ويلبسونه ثوباً من غير نسجه، وينسجون عليه نسجاً فرنسياً، ويسوقونه في نفس الطريق الذي ضل فيها الأدب الألماني قرناً وبعض قرن فضل عن نفسه ولم يهتد، حتى رده عن تلك الطريق أمثال هالمر وهاجيدون وليسنج، فما هي تلك الطريق التي يسوقون فيها الأدب العربي إلا طريق الافتتان بالأدب

الفرنسي خاصة والغربي عامة.

١٢- كذلك حاول المنهج الغربي الوافد أن يخضع الأدب العربي لأسلوب فصل العصور السياسية،وهو أسلوب عرفته الآداب الأوربية، وربما كان يتفق مع طبيعتها وظروفها، ولكنه حين يطبق على الأدب العربي يأتي بنتائج غاية في الاضطراب والفساد،فالواحدات الأوربية المتعددة المنفصلة كل منها عن الأخرى انفصالاً سياسياً وتاريخياً ولغوياً من حيث استقلال كل منها بلغته الخاصة قد اقتضى هذا المنهج خاصة بالنسبة للحدود الضيقة ولأول عصر الانفصال عن اللغة اللاتينية وهو لايتجاوز ثلاثة قرون أو أربعة.

أما الأدب العربي المتصل في هذه البقعة على امتدادها، المترابط بين أجزائها إلى أكثر من أربعة عشر قرناً فإنه لايتفق له مثل هذا المنهج، ومن شأن تطبيقه أن يعجز عن تحقيق أي نتائج علمية،ذلك أن الأدب العربي تميز بخاصتين عظيمتين باين فيهما آداب هذه الوحدات الأوربية وغيرها،فامتنع بتلك المباينة إمكان إخضاعه لما خضعت له من قانون أما إحداهما،فما انبسط له من أوطان ترامت ما بين بلاد الغال في الغرب إلى تخوم الصين في الشرق، أما الأخرى، فطبعته الخاصة ومناشئه وينابيعه الدافقة بما يمنحه من استقلال الشخصية وحماية وجودها بالصمود أمام الأعاصير والقدرة على التأثير في مجاري أحداث الحياة، ولما كانت الأحداث تمضى متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم أجزاء الزمن الذي تحدث فيه نشأ كل حدث وهو منفعل بأسباب وعلل متقدمة،فما يكون في يومنا من حادث فلأحداث الأمس الداهر أثر في حدوثه،ومن شأن تقسيم الأدب إلى عصور أن يضيف إلى عهد لاحق نتاج عصر سابق حمل في أعماقه كل عوامله ومؤثراته وخصائصه.

١٣- كذلك من أخطر ما واجه الأدب العربي محاولة التركيز على الأدب الحديث وتجاهل الأدب العربي منذ عصور الإسلام،بينما يتخذ الغربيون لآدابهم تراثاً عند الجذور بالادب اليوناني ويرون أنه لا سبيل لفهم الأدب الغربي الحديث إلا بدراسة الآداب اللاتينية واليونانية بل واللغتين القديمتين المندثرتين. ولا ريب أن دعوى

الفصل بين أدبنا الحديث وبين الأدب العربي الإسلامي الممتد منذ الإسلام هي من أخطر المحاولات التي تفرق الجماعة وتشتت الشمل، فالأصل أن تكون حياتنا الراهنة والمستقبلة امتداداً لحياتنا الإسلامية العربية،وأن تكون أخلاقنا وأذواقنا ولغتنا وأساليبنا امتداداً قابلاً للتغير المتصل بالعصور والبيئات الحفيظ على الأصول العامة والقيم الأساسية.

ومن وراء ذلك هدف واضح هو أن يصبح المسلمون اليوم مقطوعى الصلة بماضيهم في اللغة والدين والعادات والذوق الفني والمزاج وفي التقنين الخلقي.

١٤- كذلك كانت نظرية إقليمية الأدب من أخطر ما تناولته دراسات الأدب الحديث ودعت إليه المذاهب الوافدة،وعلينا أن نفرق بين تقرير تأثير البيئة في الأدب وهذا ما لا اعتراض عليه،وبين القول بإقليمية الأدب وهذا شيء آخر، إن واقع الأدب في الماضي القريب والبعيد يثبت أن هذه الآثار لاترجع إلي قطر من الأقطار أو إقليم من الأقاليم، فالمتنبي مثلاً ولد في الكوفة وعاش في بغداد وحلب ودمشق وآثاره لاتعتبر محصولاً لأي إقليم من تلك الأقاليم وأثره لم يقتصر على إقليم ما بل شمل جميع الأقطار،وغيره كثيرون على هذا النحو، ولقد حافظ الأدب العربي على طبيعته الواحدة والموحدة حتي في أسوأ عصور تفكك الدول، وتفتت شعوبها والحقيقة الواضحة أنه لايوجد أدب مصري. وأدب عراقى وأدب مغربي، وإنما يوجد أدباء مصريون وعراقيون ومغاربة.

(٢٢)
اللغـــــة

اللغة العربية اليوم هي لغة حياة لمائة مليون من العرب، ولغة فكر لألف مليون من المسلمين، وهي لغة قديمة عرفت قبل نزول القرآن بأكثر من ألف عام، قال الخليل ابن أحمد في كتاب العين: إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢٫٣٠٥٫٤١٢) كلمة (وهو يعنى ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الأشكال الثنائي والثلاثي والرباعي، ويقول أبو الحسن الزبيري: إن عدد الألفاظ العربية (٦٫٦٩٩٫٤٠٠) لفظ لايستعمل منها إلا ٥٤٢٠ لفظاً والباقي مهمل، ويقول بعض علماء اللغة إنها تتألف من ثمانين ألف مادة المستعمل منها عشرة آلاف فقط، والمهجور من ألفاظها سبعين ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم، ولا ريب أن هذه الإشارات الموجزة تكشف عن وضع اللغة العربية بين اللغات وعن مكانتها دون حاجة إلى أي عبارة من عبارات الإشادة أو المبالغة في تصوير مكانة هذه اللغة بين اللغات في أبعادها التاريخية وأبعاد حصيلتها اللفظية، فضلاً عن ما عرفت به من النمو والحيوية في نفس الوقت،مما أهلها لأن تكون لغة خاتم كتب السماء،وأن تحفظ هذا الكتاب، وأن يحفظها هذا الكتاب إبان أزماتها التي مرت بها في القرون الماضية، وقد صور هذا المعنى كثيرون من كتاب الغرب،وفي مقدمتهم أرنست رينان الذي يقول: إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره: إنتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء،فبدأت في غاية الكمال سلسة أي سلاسة،غنية أي غنى،كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومها هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ظهرت لأول أمرها تامة محكمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية؟ليفهمها النصارى، ومن أغرب المدهشات أن نبتت تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها، نبتت

في وسط الصحاري عند أمة من الرحل،وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا في أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ولا تكاد تعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لاتباري، ولا نعلم شيئاً عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج،وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة، ونستطيع أن نضيف إلى ما قاله رينان: أنها منذ نزل بها القرآن وانتشرت به أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والأرامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضى قرن واحد، فلما بلغت القرن الثالث الهجري تحولت إليها كل أعمال الدين والدواوين، ثم كتبت بها اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والأيجية والساحلية كما كتبت بها لغة أهل الملايو وقد حدث هذا منذ ألف عام،ثم دخلت اللغات الأوروبية كالفرنسية والألمانية والانجليزية وفي اللغة الانجليرية وحدها أكثر من ألف كلمة عربية.

وما تزال قواميس اللغات الأوربية تعج بالكلمات العربية سواء منها ما يتعلق بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو الملاحة.

وهي من الناحية العلمية تفوق أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع،إذ أن بها ٢٨ حرفاً مكررة بينما باللغة الانجليزية ٢٦ حرفاً ومنها مكرر وباللغة العربية ثراء في الأسماء بها ٤٠٠ اسم للأسد، و٣٠٠ اسم للسيف و ٢٥٥ للناقة و١٧٠ للماء و٧٠ للمطر، ولقد كتب القصاص المشهور جول فيرن في إحدى قصصه الخيالية عن قوم شقوا في أعماق الأرض طريقاً إلى جوفها فلما خرجوا سجلوا أسماءهم باللغة العربية فلما سئل عن سر ذلك قال: لأنها لغة المستقبل.

٢- أجرى المطران يوسف داود مطران السيران في الموصل في كتابه التمرنة في الأصول النحوية مقارنة واسعة للغة العربية مع السريانية والعبرانية، وفيها يقول إن العربية أعرق في الأصالة من جميع اللغات التي يتكلم بها الساميون،وأنها أكملهن وأجمعهن لما فيهن من محاسن،ولذلك تمكنت من اكتساح السريانية والعبرانية وإبادتهما منذ أجيال واستولت على جميع بلادهما، ورد ذلك التفوق إلي عدة

عوامل أهمها: «غناها» واتساع ألفاظها أصلاً وفرعاً واشتقاقاً «حتى أننا بغير خوف الخطأ يسوغ لنا أن نقرر أن اللغة العربية أوسع لغات الدنيا المعروفة. أما الخاصية الثانية فهي: أنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث إن عبارتها سلسة طبيعية يهون على الناطق الصافي الفكر أن يعبر بها عما يريده من دون تصنع أو تكلف باتباع ما يدله عليه القانون الطبيعي.

ويقول أحمد فارس الشدياق: إن لغات الأفرنج لم تزل في ضم الكلام بعضه إلي بعض في حالة الطفولية، أعني أنهم يوردون جملة بعد جملة اقتضاباً من دون حرف عاطف وكثيراً ما يوردون الجمل من دون مناسبة أو ارتباط. والخاصية الثالثة: أن العربية تكتب كما تقرأ: بحيث إن الذي تعلم حروفها وحركاتها يهون عليه بدون مشقة أن يقرأ حينما شاء، وهذه الخلة قلما تجدها في لغة أخرى فإن أكثر اللغات من أراد أن يتعلمها فبعد ما يتعلم أوائل كتابتها يلتزم بأن يتعلم أيضاً قراءتها كلمة كلمه.

ومن الشوائب المستهجنة غاية ما يكون في لغات الأفرنج على العموم اختلافهم في كثير من الحروف الهجائية التي هي عامة لكلهم، فإن الأمم الأفرنجية مع أنها اصطلحت على قواعد ورسوم مضطردة عامة شاملة فيما يختص بالأكل والشرب واللباس وسائر ما يتعلق بالمعيشه الإنسانية مما لا بأس في اختلافه، لم يمكنهم حتى الآن أن يدبروا هذا الأمر العظيم المهم وهو أن يتفقوا على طريقة واحدة لتصوير مقاطع الحروف بعلامات عامة لكلهم فإن اللفظة الواحدة مثل: (Chuce) يلفظها الإيطاليون (كوجا) بالإمالة والجرمانيون (ختسا) بالإمالة والفرنسيون (شوش) والانجليز (تشوش) وغيرهم غير ذلك.

ومن ذلك أن اللاتينية وهي اللغة العلمية لجميع الأمم الأفرنجية لايلفظون بها لفظاً واحداً بل كل أمة منهم تلفظها لفظاً مختصاً بها حتى أنه ربما لايفهم أحدهم عن الآخر. الخاصية الرابعة: أن العربية غنية بنفسها فهي لا تحتاج إلى لغة أعجمية ولو أراد أهلها لنفوا جميع الألفاظ الأعجمية التي دخلت فيها بنوع من

الخلسة واستغنوا عنها بغيرها من بحر لغتهم الزاخر.

ومما يستحق الذكر أن العرب لم يتركوا شيئاً لم يستنبطوا له اسماً في لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخص والأفق وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى والعرش والسفر والشاعر والقصيدة إلى غير ذلك، فإن هذه الأشياء مع كون أكثرها طبيعياً ومحسوساً وما فيها من أخص ما يتعلق بعيش الناس العمرانيه لاتجد لها أسماء في كثير من اللغات المعروفة فاضطر أصحابها إلى أن يسموها بأسماء أعجمية فإن اللاتين والسريان والجرمانيين وسائر الأمم الأفرنجية يسمون تلك الأشياء بأسماء يونانية إلا واحداً أو اثنين منها اتخذوه من اللاتينيه، هذا عدا الألفاظ الاصطلاحيه المختصة بالعلوم والصناعات،فإن هذه كلها إلا قليلاً قد أخذها جميع الأمم من اليونان ما عدا العرب، ومما يتبين من فضل العرب وإنفاذ ذهنهم غاية ما يكون أنهم أول ما باشروا فنون أدب لغتهم في القرن الأول من تملكهم على بلاد المشرق نالوا في قليل من الزمان الغاية من ذلك، ومنذ أول مباشرتهم وضعوا أصول علم النحو ورسموا اصطلاحاته وتوغلوا فيه وتفننوا في دقائقه حتى أنهم في قليل من السنين أوصلوه إلى غاية الكمال،وفي كل ذلك لم يحتاجوا إلى كتب أجنبية ولا إلى ألفاظ أعجمية،وفي هذه الخلة قد فاقوا سائر أمم العالم ويقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس أن أهم المميزات التي تلفت النظر في اللغة العربية هو (ازدواجها) ويقول وليم مرسيه: إن العبارة العربية كالمزهر إذا نقرت أحد أوتاره رنت لديك كل الأوتار، فللعبارة من المتانة ما لا يبقى معه شيء يحجب مصدرها عن الناطق بها أو المستمع لها،وبذلك كان اللفظ في اللغة العربية يذكرك بالأرومة التي اشتق منها ولعل هذا الشعور العميق بالمصدر يفوق شعورك باللفظ عينه، ويقول يوهان فك «لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد التالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلي زحزحة العربية الفصحي عن مقامها المسيطر،وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد،من حيث هي لغة المدنية الإسلامية ما بقيت هناك مدنية إسلامية ويقول ميليه: إن اللغة العربية لم تتراجع في أرض

دخلتها لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنية، ويشير جوستاف جرونباوم إلى سعة اللغة العربية وقوة بيانها يقول: أما السعة فالأمر فيها واضح ومن يتتبع جميع اللغات لايجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية وينضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشه في المترادفات، ووجازة التعبير، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وأن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى، ولها خصائص جمة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف لها نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات اختصاراً في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبين ذلك أن الصورة العربية لأي مثل أجنبي أقصر في جميع الحالات، وأن الفارابي-على حق-يبرر مدحه العربية بأنها كلام أهل الجنة، ويشير جورج سارطون إلى قدرة العربية على الاشتقاق فيقول: إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً، ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان على نظام معين: لنأخذ مثلاً الجذر (س ل م) سلم معناها نجا-سلم: حيا، ألقى السلام أو التحية - سالم: دخل في السلم.- أسلم: انقاد وخضع-الإسلام: الخضوع لله - تسلم - أخذ شيئاً من يد غيره - السلام. التحية - السلم: خلاف الحرب - سليم: صحيح غير مريض - التسليم: الرضا والقبول - الاستلام. لمس الحجر الأسود وهناك: مسلم، متسلم، مسالم وغيرها مما يجل أحياناً على الحصر.

ويقول بروكلمان: إنه بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لاتكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً يؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى.

ويقول فان ديك: إنها أكثر لغات الأرض امتيازاً، وهذا الامتياز من وجهين: الأول من حيث ثروة معجمها والثاني من حيث استيعاب آدابها ».

ومن شأن هذا كله أن الفصحى عاشت على الزمان،حتى أنه لو بعث امرؤ القيس اليوم لاستطاع أن يتكلم،وأن يفهم لغة العربية،وبيننا وبينه خمسة عشر قرناً، بينما لايستطيع الأوربيون أن يفهموا كلمة واحدة مما قبل أربعة قرون منذ انفصلت لهجاتهم عن اللغة اللاتينية وأصبحت لغات مستقلة، وذلك يرجع إلى فضل القرآن يقول (ريجستير بلاشير) إننا كلما درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها قد تطورت غبر العصور بحيث نجد لها أطواراً فإذا قارنا حالة اللغة الفرنسية في القرون الوسطى وجدنا أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر، وهذه مختلفة أيضاً عن لغتنا اليوم فوحدة اللغة الفرنسية لاتتضح لنا إلا بالبحث والمقارنة، في حين أن وحدة اللغة العربية تتضح للقارئ ولو كان أجنبياً لأول وهلة، لغة القرآن لاتزال هي لغة اليوم،وهذا ما ميّز العربية عن اللغات الأخرى».

ويقول جاك بيرك: إن اللغة العربية هي أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب، بل هي اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، وأن الكلاسيكية العربية التي بلورت الأصالة الجزائرية وقد كانت هذه الكلاسيكيه العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية.

٣- حاول الاستعمار والتغريب أن يقول بأن اللغة العربية لغة أمة هي الأمة العربية وأن كل قطر من شأنه أن يكتب لغته،وأن هذا الأمر يستدعى أن يتناول هذه اللغة على النحو الذي يرضاه ويراه محققاً لهذه الغاية، وكان طرح القضية على هذا النحو يحمل طابعاً خطيراً من التمويه،والتزييف والتجاوز، وقد يمكن أن يكون صحيحاً في أي بلد من بلاد العالم وفي مواجهة أي لغة،ولكنه يصبح عسيراً جداً حين يطرح بالنسبة للغة العربية. ولو أن اللغة العربية لم ترتبط بالقرآن والإسلام لكان يمكن أن يكون هذا القول فيه مجال للنظر، أما وقد أنزل القرآن منذ أربعة عشر قرناً باللغة العربية فأنشأ عالم الإسلام الفكري،والاجتماعي،والديني،فقد أصبح للغة العربية وضع مختلف،لا شبيه له في أي لغة أخرى، إذ لم يعد للعرب وحدهم حق التصرف في اللغة العربية،ولم تعد اللغة العربية لغة إقليمية تخص قطراً، بل لم

تعد الأمة العربية نفسها مطلقة الإرادة في التصرف فيها، هذه هي الحقيقة التي واجهت محاولة التغريب والغزو الثقافي منذ قام ولكوكس في مصر وماسنيون في الشام وكولان في المغرب ثم تابعهم بعد ذلك سلامة موسى والخوري مارون غصن ولويس عوض وغيرهم بمهاجمة اللغة العربية.

إن أخطر ما تمثل اللغة العربية هو أن قارئها اليوم في العقد الثامن من القرن العشرين يستطيع أن يقرأ ويفهم ما كتب بها منذ القرن الخامس الميلادي أي ما كتب قبل نزول القرآن بأكثر من نصف قرن، أي أن تراثاً حافلاً قام في خلال هذه الفترة كلها،وأعظمه ما جاء بعد الإسلام بالطبع هو التراث هذا ملك حر لقراء اللغة العربية يلمون به إلماماً صحيحاً، وهذا ما لم يتيسر بالقطع لأي لغة في العالم كله اليوم، ذلك أن أي لغة قائمة لايستطيع قراؤها أن يفهموا من تراثها إلا ما يجاوز ثلاثة القرون الأخيرة،أما ما يبعد عن ذلك فإنهم يلتمسون لفهمه المعاجم، إن مرد ذلك هو ثبات اللغة العربية الذي لم يتح لأي لغة أخرى، ومرجع ذلك الثبات إلى نزول القرآن بها،وارتباطها به على النحو الذي أنشأ هذه الثروة الضخمة من العلم والتراث والتأليف. ومن هنا أصبح للغة العربية خاصية متميزة لاتستطيع اللغات الأخرى أن تشاركها فيها ولا تستطيع هي أن تجاوزها، تلك هي أنها لغة أمة ولغة فكر ودين، فهي لغة الأمة العربية،وهي في نفس الوقت لغة المسلمين جميعاً: لغة فكرهم ودينهم وصلاتهم ولغة ذلك الرباط الذي يجمعهم بالتشريع والعقيدة جميعاً وهو القرآن الكريم، ومن هنا كان الخطر الوحيد الذي يواجه أهل اللغة العربية هو أن ينزلوا عن مستوى أسلوب القرآن، فيصبح أسلوبهم قاصراً عن فهمه وتعمّقه، لأن ذلك من شأنه أن يفصل بينهم وبينه، وذلك هو ما تحاوله القوى الهدامة المعادية للعرب والإسلام،والتي تدعوهم إلى ما يسمى باللغة الوسطي،أو تقريب الفصحى من العامية، وأمامنا القرآن وهو المقياس الثابت وعلينا في كل حركة من حركات الفكر والكتابة والبحث أن نقترب منه ونلتقي به،وعلى العامية أن تقترب من الفصحى وليس على الفحصى أن تنزل إلى العامية،ولا ريب أن التعليم كفيل إذا اتسعت

آفاقه أن يقلل من الحاجة إلى العامية،وأن يزيد الالتحام بالفصحى، والذوق العربي الإسلامي كله متصل بالفصاحة وفهم الفكر الإسلامي،ومتصل بهذا المستوى من الأسلوب والبيان.

ولقد وهب القرآن اللغة العربية حصيلة ضخمة من المعطيات الفكرية والاجتماعية من خلال رسالته العالمية التي اتخذت من ألفاظ اللغة العربية ومادتها تشكيلاً جديداً طرح على البشرية منهجاً شاملاً من الحياة والفكر والنظر في الكون وبناء المجتمع والأخلاق. وكان هذا هو مصدر دهشة الناس عند نزول القرآن،فقد كانت هذه الألفاظ معروفة لهم بأعيانها،ولكن الإعجاز كان متمثلاً في أن التشكيل الذي تشكلت به فكراً وأداء في هذه القيم الجديدة التي قدمها،وهذه الصور المتعددة وهذه الروعة في أسلوب الإقناع والحوار، وهذه المناهج المتعددة في مخاطبة القلب والعقل، ومعنى هذا أن ثروة اللغة العربية إنما ترجع إلى تشكلها القرآني الذي أعطاها هذه القوة وفي نفس الوقت أعطاها الإسلام هذا الاتساع والذيوع، ومن هنا فقد أصبحت صلة اللغة العربية بالقرآن والإسلام صلة عضوية تمثل التجربة الأولى والأخيرة من نوعها في صلة رسالة السماء بلغة من اللغات،ولا ريب أن هذا المفهوم له أثره البعيد في امتلاك المسلمين جميعاً لهذه اللغة،وما يتصل بهذا من خطأ القول بأن لقطر ما أو لشعب ما القدرة على التصرف في اللغة العربية، ومن الحق أن يقال:إن اللغة العربية هي لغة فكر عالمي يضم سبعمائة مليون من المسلمين جغرافياً ويمتد أربعة عشر قرناً في التاريخ والتراث.

٤- من أبرز المخاطر تلك المقارنة التي يحاول البعض عقدها بين اللغة العربية واللاتينية:

فقد حرص عدد كبير من المستشرقين أن ينصحوا «المسلمين والعرب» بالتخلص من اللغة العربية كما تخلصت الشعوب الأوربية من اللغة اللاتينية،وتغليب لهجاتهم في كل قطر حتى تصبح كل لهجة منها لغة إقليمية،كما فعل الأوربيون باللاتينية حين أوردوها المتحف وأقاموا من لهجاتهم لغات هي الفرنسية والانجليزية والألمانية

الحالية، ولطالما ألح بعض دعاة التغريب على، هذا المعنى، فردده وانخدع به بعض كتاب العرب، مع أنه ليس هناك من شبه للمقارنة بل هناك فوارق عميقة منها:

(أولاً) أن اللاتينية مـاتت كلغة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت لغة للكنيسة والعلماء، أما الشعب فكانت اللغة على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر، ولم تكن (اللاتينية) لغته الأصلية وإنما كانت أخرى كالسلبيه السكسونته والجرمانيه الهندية التي امتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات إلا بتمادى الزمان وتنوع الكتبة، وفتح المدارس، وتأليف الكتب، وساعد الشعوب في ذلك انفرادهم في أصقاع متنائيه دولاً مستقلة. أين هذا كله من أمر اللغة العربية؟

(ثانياً) إن العربية لغة أمة واحدة تحمل ثقافة وفكراً ما زال حياً متفاعلاً لم يتوقف أو يجمد ساعة من زمان . وإن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى جزر أندونيسيا وهي في هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والتراث والقيم أوثق ارتباط، وأثمرت هذا الفكر الإسلامي الذي تضمه ألوف الكتب والمجلدات والمخطوطات المتناثرة في مختلف مكتبات العالم.

(ثالثاً) هناك فارق أصيل يعزل كلاً من اللغتين عن الأخرى عزلاً لا توجد معه حيلة للاجتهاد أو المقارنة، فاللغة العربية لغة تقوم على الاشتقاق ويتوقف فيها المعنى على حركات التعريف وحركات الإعراب وبين لغة: (هي اللاتينية) تقوم على النحت ولصق المقاطع بعضها إلى بعض بغير دلالة لاختلاف الأشكال والحركات، وقد تفردت العربية - حتى بين اللغات السامية - باطراد الأوزان، وقواعد التصريف وقواعد الإعراب، فلا مشابهة بينها وبين اللغات الأخرى في هذه الخاصية.

(رابعاً) لم تتعرض العربية بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي إلي هجمات وغزوات لغات جديدة كما تعرضت لها اللغة الرومانية من جراء استيلاء القبائل الجرمانية على مختلف أنحاء أوربا. كما أن البلاد العربية لم تصب بتفتيت سياسي وإداري واقتصادي مثل ما عرفت البلاد الرومانية في عصور الإقطاع الطويلة، كما أن

البلاد العربية لم تنعزل عن بعضها البعض انعزالاً يشبه الانعزال الذي حصل في البلاد الرومانية،بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائماً بفضل قوافل التجارة وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة من مختلف الأنحاء إلى الحجاز.

(خامساً) إن الإسلام قد التزم العربية الفصحى التزاماً تاماً،وظل يساندها ويؤازرها دون انقطاع،ولم تتخل عنها لهجة من اللهجات في وقت من الأوقات، ذلك لأنها لم تعهد بمهمة القرآن إلى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني بالانجيل، بل فرضت ذلك على كل مسلم ومسلمة،فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة من الآيات القرآنية كل يوم خلال الصلوات الخمس،وقد استتبع ذلك إنشاء مدارس وكتاتيب لتعليم القرآن - قراءة وحفظاً - وكل ذلك حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية الفصحى التي ظل يذكرهم بها ويوصلهم إليها على الدوام - القرآن - عن طريق استماع المستمع والتلاوة المتتالية.

(سادساً) إن الفوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة، وبين العامية والفصحى، لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات التي لاتحول دون تفاهم أصحابها بشيء يسير من الجهد والانتباه.

٥- حوربت اللغة العربية منذ وصل الاحتلال الغربي إلى بلاد الإسلام، حوربت في البلاد الإسلامية بإيقافها وتنمية اللهجات القديمة واللغات الغربية فكل مستعمر قد عمد إلي فرض تعليم لغته، أما في البلاد العربية فقد حوربت اللغة العربية بحصرها في الجوامع والاستعاضة عنها بالعامية الدارجة،وكذلك الدعوة إلى إلغاء الحرف العربي والاستعاضه عنه بالحروف اللاتينيه،وجرت حملة واسعة بالادعاء لعجز اللغة العربية عن أداء مهمتها إزاء المصطلحات الحديثة وصعوبة تعلمها، وتعالت الأصوات بالدعوة إلى تمصير اللغة العربية،وإدخال الكلمات العامية إليها ، وقد تصدى لهذه الحملات عدد كبير من المفكرين المسلمين والعرب في مقدمتهم على

يوسف ومصطفى صادق الرافعي، وأحمد زكي الملقب بشيخ العروبة وعبد العزيز جاويش ومحب الدين الخطيب والدكتور محمد محمد حسين، وكشفوا زيف هذه المحاولات كلها وأبانوا عن مقدرة اللغة العربية ومرونتها،وعارضوا كل هذه الشبهات ومما أورده هؤلاء الباحثون في دحض هذه المؤامرة ما يأتي:

أولاً: العامية التي يرى أصحاب هذا الاتجاه استخدامها في الشئون التي تستخدم فيه العربية الفصحى لغة فقيرة كل الفقر في مفرداتها،فلا يشمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي،وهي إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها. ولا ريب أن (أداة) هذا شأنها لاتقوى مطلقاً على التعبير عن المعاني الدقيقة،ولا عن حقائق الأداب والعلوم والانتاج الفكري المنظم. والعامية في لغة ما غير ثابتة على حال واحدة،بل هي عرضة للتطور في أصواتها ودلالتها ومفرداتها وقواعدها،وهي تختلف باختلاف الشعوب،وتختلف في الشعب الواحب باختلاف مقاطعاته.

ثانياً: تبين أن الحروف اللاتينية لاتصلح لكتابة اللغة العربية،فالحروف العربية ضرورة لازمة لايمكن العدول عنها،ذلك أن الخط العربي حفظ حتى الآن وحدة اللغة العربية وإن كان النطق يختلف من قطر إلى قطر،أما الحروف الآتينية فهي مبنية على أساس أن صوت الحرف واحد غير متبدل، أما في العربية فهناك أصوات لكل حرف لاسيما فيما يختص بالحركات،ومع تغيير الأصوات واللهجات في العربية على حسب الأشخاص أو على حسب الأفكار.

فإننا نعتبر الخط العربي كفيلاً بنقل الألفاظ على وتيرة يفهمها الجميع مع وجود التعبير في الأصوات.

ثم أنه ليس هناك معادلة بين الحروف العربية واللاتينية. فالحروف مثلاً في الألمانية والروسية قريبة الشبه باللاتينية أما في العربية فوجه الشبه بعيد جداً. وإذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني أصبحت النتيجة خطيرة للغاية؛فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التي خلفتها الآداب الإسلامية في الدين والفقه والعلوم

والآداب والفنون وغيرها وكلها مدونة معروفة بالخط العربي.

ثالثاً: فيما يتعلق بإصلاح اللغة فقد أشار الباحثون إلى أنها دعوى باطلة، ذلك أن تغيير قواعد اللغة العربية صرفاً ونحواً، إنما يكون بالوضع والإزالة وهذا معناه إحداث لغة جديدة بقواعد جديدة، وهذه اللغة العربية الجديدة إن صح اتصالها بالعربية الحالية المعروفة اتصال اللهجة بالأم، فإنها تبعد عنها شيئاً فشيئاً حتى تختفي معالم الصلات بينهما أو تكاد وعندئذ تكون اللغة العربية الحالية من اللغات الميتة، وإذا صح أن ننقل التراث العلمي الأدبي القديم إلى اللغة العربية بعد تغيير قواعدها فماذا نصنع في شأن «التنزيل» الكتاب العربي المبين وحديث الرسول بأسلوبهما ووضعهما ولا ريب أن إصلاح قواعد اللغة (نحواً وصرفاً) معناه خلق لغة جديدة غير لغة القرآن والحديث وغير لغة الشعر المروي، والنثر المهذب، وغير لغة العقلية العربية الإسلامية، ذلك أن قواعد اللغة العربية وضعت طبقاً لنصوص القرآن والحديث والمسموع عن العرب، فالتغيير في هذه القواعد هجر للقرآن والحديث والمسموع، وهكذا فإن إصلاح اللغة العربية يعنى إخراجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربي والعقلية الإسلامية.

٦- كثر خلط دعاة التغريب في الحديث عن الفصحى والعامية، ومحاولة الادعاء بأن هناك لغتين: والحق أن هناك لغة واحدة هي: اللغة العربية «ولهجة» هي: العامية وأن الفحصى هي: اللغة المشتركة بين العرب جميعاً، وأنها هي القوة القادرة للمحافظة على بقاء المستوى البياني بين القرآن واللغة العربية وأن أخطر الأخطار أن يمس هذا المستوى أو تجرى محاولة للانتقاص منه، والمعروف أن اللهجة العامية مسألة مرحلية وأن الفصحى هي الامتداد الطبيعي للفكر الإسلامي وثقافته، وأن الروائع لاتكتب إلا بالفصحى، وأن العامية إقليمية دائماً، بل أكثر من إقليمية، بحيث يكون لكل بلد لهجته، وقد يركز المنهج الغربي الوافد على اللهجات العامية ويدرسها بعناية، ولكن المحاولة مضللة، وغير علمية، يراد القول بأن هناك لغة عامية غير اللغة العربية وأنها سابقة لها، وأن لها تراثاً من الأمثال والحكم، ولقد عجزت كل هذه المحاولات أن

تجعل من اللهجات العامية في البلاد العربية شيئاً،بل إن هذه الآثار التي جمعوها قد كشفت عن عجز العامية عن معالجة الموضوعات الرفيعة، وقد أكد الباحثون بأنه من المحال أن تصل هذه اللهجات العامية مهما ركز الاستشراق عليها وأولاها اهتمامه، من المحال أن تصبح لغات مستقلة، مكتملة التكوين صالحة للاستخدام في مختلف شئون التعبير والكتابة، كما حدث في اللهجات المتفرعة من اللاتينية. ذلك لأن لهجات اللاتينية قد سارت في طريق النمو والرقي بفضل ما كانت تمتصه من أمها اللاتينية من حين لآخر،فضلاً عن الجهود التي بذلت لتوسيع نطاقها،وتكملة بعضها،وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب،وتدوين آثارها،واستخدامها في الترجمة والتأليف، على حين أن اللهجات العامية العربية قد جمدت على أوضاعها الساذجة،ومن هنا فإنه لا سبيل أن تصبح العاميات العربية صالحة لأن تكون أكثر من أداة للتخاطب في الشئون العادية دون أن تصلح للكتابة أو لأداء أغراض البيان الأصيل فضلاً عن قصورها الذاتي.

٧- هناك دعوة مسمومة تحت اسم «تطوير اللغة» وهناك من يفسر هذا فيقول: إنه تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية لا العكس الذي هو من الأمور الطبعية، وإنما يعني أصحاب هذه الدعوة المريبة التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرناً أو تزيد، فإذا تحللنا من القوانين والأصول التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة كانت نتيجة ذلك هو تبلبل الألسنة وتوسيع رقعة الاختلاف بين الأقطار العربية حتى تصبح عربية الغد شيئاً يختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الأول أو عربية اليوم،وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي والإسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسي الآثار ومفسري الطلاسم.

كذلك فلا بد من الإشارة إلى محاولات النفوذ الأجنبي لمقاومة نمو اللغة العربية والتمكين للغات الأجنبية (الفرنسية والانجليزية على الخصوص) فقد قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع العربية بين مسلمي العالم،حيث كان من الطبيعي أن يمتد بامتداد الإسلام إلى مختلف المناطق بحسبانها لغة الثقافة والدين.

٨- إن أهم ما يركز عليه رجال اليقظة الإسلامية في مجال فهم اللغة العربية هو أن اللغة هي الوجه الثاني للفكر،وأن كلمات اللغة التي تنطق بها الأمة هي أفكارها وأخلاقها وعقائدها. فكلمات اللغة علامات وإيماءات،وللغة صلة عميقة بالعقيدة والفكر،فلكل أمة معجمها الخاص المملوء بالكلمات التي تصنعها عقيدتها وقيمها لتكون أداة اتصال روحي وأداة تفاهم وتبليغ فيما بينها، ومن حيث إننا عرب ومسلمون فيجب أن نستوحي مفهوم الكلمات، ولا نستعمل كلمات من غير معجمنا وعلينا أن نتعلم تعبيرات القرآن، وألا نجعل للكلمة العربية الإسلامية مدلولاً خارجاً عن أصولها،وعلينا أن نفكر بلغتنا، ولا ريب أن كلمات الغرب ومصطلحاته لايمكن فصلها عن ملابساتها الفكرية التي ترمي إليها،ولا يمكن نقلها كما تنقل ألفاظ الاختراعات والعلوم، يقول صادق عنبر: إن لكل أمة شاهداً من لغتها على ما فطرت عليه من دين،ودون لها من تاريخ،وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون، ففقدان أمة لهذه الثروة المعنوية هو اعتراف منها بسفاهتها» والمعروف أن اللغة العربية تعبر عن الفعل والفاعل والزمان في لفظ واحد: (فعل) ولا كذلك الانجليزية والفرنسية.

ويقول الكاتب الغربي فون همبلت: إن لسان كل أمة جزء من عقليتها ويقول ماكس مولار: إن الفكر واللغة شيء واحد وهو يشبهها بقطعة النقد ويقول: إن ما نسميه الفكر ليس إلا وجها من وجهي النقد، والآخر هو الصوت المسموع،ومن المحاولات التي تستهدف إخراج اللغة العربية عن مدلولها الأساسي فرض كلمات غربية تختلف، فكلمة الدين الغربية Religion لاتعني معنى كلمة الدين بمفهوم الإسلام وكذلك كلمة الزكاة Charite فهي ليست بمعنى الزكاة الإسلامية.

كذلك فإن من المحاذير القول بأن اللغة العربية أساس من أسس العروبة،وفي مفهوم الإسلام:العربي ليس من يتكلم عربياً،بل من يفكر عربياً، وفي مجال الفكر الإسلامي أن اختفاء اللغة لايحول دون بقاء الأمة،لأن مصدر بقاء الأمة هو العقيدة ولقد اختفت اللغة العربية من الجزائر،ولكن صمود العقيدة حال بينها وبين الفناء.

فاللغة العربية هي أساساً الفكر الإسلامي الذي كتبه ترك وفرس وبربر وعرب فاللغة بمثابة الوعاء الذي تتشكل فيه وتحفظ فيه وتنتقل بواسطته أفكار الأمة.

ويقول ابن تيميه: إن اللغة العربية للإسلام ليست لغة فحسب ولكنها عقل وخلق ودين، ذلك أن الفكر هو الذي يحفظ وحدة النظر إلى الحياة ووحدة التحرك في مواجهة الخطر، ومن هنانجد أنه لايمكن بحال من الأحوال لمسلم أو لغير مسلم أن يعرف حكم الشريعة الإسلامية من مصادره الأصلية إلا إذا كان عالماً بلغة العرب وبأساليبها ومقايساتها وكل ما يتعلق بها، من أجل هذا فهم المسلمون الأوائل أهمية اللغة العربية على وجهها،وقاموا بنشرها بكل ما أوتوا من قوة، وفي كل مكان حل الدين حلت معه اللغة؛لأنها مفتاح الدين، ومن هنا كانت محاولة الاستعمار في حجب اللغة العربية عن البلاد التي اتسع فيها الإسلام؛حتى تظل عقيدتهم ناقصة لأن كمالها في فهم خصائص اللغة التي هي مصدر الشريعة وزبدتها.

وفي هذا يقول الشيخ محمد عبده: إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ماجاء في كتاب دينهم وأقوال أسلافهم، ففي اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لم يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان، ولا تحصل هذه الملكه قولاً وكتابة حتى يتكلم بها غالب أهلها،ويكتبوا بها بالطريقة الصحيحة؛لأن في انحطاط لغتنا انحطاط لنا،ولديننا،وعقائدنا،وأخلاقنا، وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا» وقال العلامة محمد أبو زهرة: إن الإسلام لايمكن فهمه إلا باللغة الفصحى والقرآن كذلك ومن هنا كانت محاولة ضرب اللغة العربية الفصحى حتى لايفهم القرآن،ولكي يندثر كما اندثر الانجيل العبري، وفي هذا يقول أحد الباحثين الغربيين: إن من حق العرب علينا أن نرفع الصوت عالياً طالبين إليهم الصمود والمقاومة،فليصمدوا وليقاوموا هذه الدعاية المذلة التي تسول لهم التنازل عن شرفهم وتراث آبائهم.

(٢٣)

العلم في الإسلام

دعا الإسلام إلى العلم، فبدأت آيات القرآن بالدعوة إلى القراءة، ثم القسم بالقلم وجعلت القراءة باسم الله خالصة، ونسبت التعليم إلي الله الذي علم بالقلم.

وورد لفظ «العلم» ومشتقاته في القرآن في (٨٧٠ آية) والعلم الذي دعا الإسلام إلى تحصيله هو العلم على إطلاقه وليس علم الدين فحسب، وكانت دعوة الإسلام إلي العلم مرتبطة بالنظر إلى آفاق السماء والأرض والتأمل والتدبر والتفكر، وإلى النظر في مبادئ الخلق، وفي أحوال الأمم التي اندثرت وما تزال بقايا حضاراتها ومدنياتها، فنظرة الإسلام إلى العلم نظرة جامعة، قد حاطها منهج كامل للمعرفة والفهم له مقوماته وضوابطه، فقد دعا إلى البرهان والحجة والتجربة، وحث على الاجتهاد وجعل له أجرين، وحرم التقليد، ولم تكن هذه الدعوة بغير هدف ولكنها كانت ترمي إلى أن يمتلك الإنسان إرادته ومسئوليته، فيحقق أمانة وجوده ورسالة استخلافه، فقد دعا الإسلام إلى السيطرة على الحياة، وإلى تملك مواردها ومقدراتها وإلى إنمائها وتسخير مواردها وتشكيلها، ودعا إلي الكشف والابتكار وجعل للمبتكرين الثواب، وأمر بتعمير الأرض والتنافس في الصنائع والفنون النافعة وأعلن أن العلم يزكو بالانفاق وقد أخذ الله الميثاق على الذين يعلمون أن يبينوه للناس ولا يكتمونه ودعا الإسلام المسلمين إلى استعمال حواسهم الظاهرة في النظر والتأمل، كما حرضهم على طلب العلم والمعرفة، والنظر في الكون، والتأمل في الكائنات، والتنقيب عن أسرار الوجود، وحث حثاً متواصلاً على العناية بتنمية العقل الإنساني، وترقية الشخصية الإنسانية بالضرب في الأرض وتعرف أحوال الأمم وطبائعها، ودراسة ما هي عليه من نظم وعادات، وهكذا فتح الإسلام الباب أمام البشرية للتقدم إلي مجالات البحث العلمي والمدنية، وكان ظهور الإسلام هو منطلق التحول الصناعي في العالم كله، ولقد كان من آثار ذلك أن أقام الإسلام للعلم

منهجه ومتطلعه من حرية البحث، وصراحة الفكر، وسلامة النظرة، بعد أن حرر العقل البشري من الوثنيات والمادة، وعلم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين، واستطاع المسلمون أن يحققوا خطوات واسعة في هذا المجال في نفس الوقت الذي ظل مجرى عقولهم سليماً قائماً على الإيمان بالله مصدر العلم ومعلم الإنسان أسرار الكون وقوانينه، ومن أجل هذا المنطلق فرق الإسلام بين العلم النافع والعلم الذي لاحاجه إليه ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا من كل علم بما هو أحسنه.

ثانياً: ومن منطلق هذا الآتجاه القرآني الذي قدمه الإسلام للمسلمين انطلق الصحابة الأولون إلى فكرة «القياس» وفكرة القياس هي أخطر فكرة في تاريخ الإنسانية جميعاً، وليس هذا هو القياس الأرسطى بل هو المنهج التجريبي في أعظم صورة، «وفكرة» القياس لم توضع في عصر النبي وصحابته وتحت تأثير القرآن نفسه كقياس الأشباه بالنظائر، والأمثال بالأمثال فحسب، بل ووضع أيضاً في العصر القرآني قواعد القياس وشرائط العلوم، وقال الزركشي في البحر المحيط: إن الصحابة تكلموا في زمن النبي في العلل، ويقول ابن خلدون إن كثيراً من الواقعات لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسها الصحابة بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط من ذلك الإلحاق، تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتي يغلب على الظن أن حكم الله فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو: «القياس».

وقد تميز العلم الإسلامي بأنه (حسي، واقعي، تجريبي) خال من عنصر الخيال والقصة والتفسير اللاشعوري أو الشعر، لأنه مقيد بالملاحظة والتجربة، كما تميز بأنه ناقد، فقد كان الفكر الإسلامي ثمرة عملية نقد كبيرة، وعملية تصفية للفكر السابق وتجديد وبناء استغرق قروناً زاهرة في حياة العقل في الإسلام، فقد اعتمد العلماء المسلمون على العقل والحس، مطالبين أنفسهم وغيرهم بالدليل والبرهان واستطاعوا بعد الإطلاع على معارف الأمم أن يصححوها، ويسيروا بالمعرفة خطوات هائلة، وكان تحديدهم للعلوم الطبيعية والكونية من طرق شتى:

١- البدء بدراسة المحسوس لا المجردات الذهنية.

٢- وسيلة البحث: الحياة والعقل.

٣- إدراك فكري بمعرفة الحقيقة ووجوه الكم والمقدار في نظام الطبيعة.

٤- الاهتمام بالحكم والإبداع في صنع العالم.

٥- تحديد فهم المعرفة العلمية بالاعتماد على الملاحظة والتجربة،وكان قد غلب على اليونان (الاستنباط النظري) فصحح المسلمون معارف القدماء وابتكروا علوماً خاصة بهم، فجاء بعلم الكيمياء بمعناه الحديث (جابر بن حيان) ووضع (الحسن بن الهيثم) علم الضوء بمعناه الحديث (والتباني) جدد علم الفلك، وقد أقام (جابر) علم الكيمياء على «التجربة» التي جعلها وسيلة كشف وتمحيص يسبقها مالا بد منه قبلها من تصور وتخطيط فكري يقود التجربة».

ثالثاً: لم يقبل المسلمون المنطق الأرسطي ونقدوه من جميع عناصره وكونوا لهم منطقاً آخر هو المنطق الاستقرائي «وأهم خصائص المنهج التجريبي الإسلامي: أنه منهج إدراكي أو تأملي»فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك أنه لابد من وضع منهج في البحث يخالف المنهج اليوناني، حيث إن هذا المنهج الأخير إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضاري مختلف، وقد وصل المسلمون إلى فكرة (الخواص) اللازمة لكل ذات، وهي الفكرة التي صبغت المنهج الاستقرائي الحديث بصبغتها الخاصة (وأخذ بها جون استبورت مل وغيره) وأعلن المسلمون أن الإنسان يتوصل إلى القضية الجزئية قبل التوصل إلى القضية الكلية، واختلف قياس المسلمين عن قياس أرسطو فاعتبر المسلمون القياس: هو قياس الغائب على الشاهد فوصلوا إلى اليقين،أما قياس أرسطو الذي هو حركة فكرية ينتقل فيها العقل من حكم كلي إلي أحكام جزئيه فإنه يوصل (فقط) إلى الظن.

رابعاً: احتقر اليونان التجريب والتجربة وجاء منطق أرسطوا أكبر معبر عن روح اليونان ولذلك رفضه المسلمون،إيماناً بروح الحضارة الإسلامية وروح القرآن الذي دعا إلى وضع منهج ومنطق مختلف في كل خصائصه عن منطق أرسطو وروح الحضارة

اليونانية، ومنهج القرآن منهج ينأي عن البحث في الشيء ذاته والبحث في آثاره «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا» وكان ذلك العمل الإسلامي هو مصدر التحول العالمي من النظرة المفكرة للدنيا المعزولة عنها،المسقطة للإرادة والتكليف، القائمة على التشاؤم،والانسحاب،والعجز، إلى نظرة التكليف والإرادة والبناء،والعمل.

فالإسلام قد أعطي أوربا روح التفاؤل والاندفاع نحو العمل والانشاء والاختراع وليس المنهج التجريبي وحده.

خامساً: صحح المسلمون أغلاط أرسطو وجالينوس وأفلاطون في الفلسفة والعلوم والكثير من أخطاء الفلسفة اليونانية، وأبطلوا صناعة التنجيم،وأبطلوا القول بأن بعض الكواكب يجلب السعادة وبعضها يجلب النحس، وقالوا إن اليونان أخذوه من غير برهان ولا قياس، وقال الإمام ابن حزم: زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع، وهي دعوى باطلة بلا برهان، وصحة الحكم أن النجوم لاتعقل أصلاً،وأن حركتها أبداً على رتبة واحدة لاتتبدل عنها،وهذه صفة الجماد الذي لااختيار له، والواقع أنه ليس للنجوم تأثير في أعمالنا،ولا لها عقل تدبر بها والنجوم أيضاً لاتدل على الحوادث المقبلة.

وأبان علماء المسلمين ضعف نظام بطليموس ونقط القصور فيه،وقد عكف (البتاني) على دراسة بطليموس وحقق مواقع كثير من النجوم، وصحح حركة القمر والكواكب السيارة،وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي، وأنكر الغزالي ما قاله فلاسفة اليونان من أن بالسماء حيواناً وأن له نفساً، ونقد الأطباء المسلمون طب اليونان،ورفضوا الأخذ ببعض نظرات أبقراط وجالينوس عن طريق التجربة والاختبارات الشخصية، ورفض ابن النفيس قبول نظرية جالينوس عن الدور الذي تلعبه الرئتان في نقل الدم من تجويفة القلب الواحدة إلى الأخرى وأعلن أنها خاطئة.

سادساً: لقد دعا القرآن إلى العلم وحث الإسلام على البحث فالتمس المسلمون العلم عند كل من وجد عنده علم، فلما تسلموه لم يخضعهم وإنما أخضعوه لمفاهيمهم

ودرسوه في دائرة عقيدتهم وألقوا عليه أضواء التوحيد، وحرروه من زيوف الوثنية والجمود وفككوه وحللوه واعتبروه مادة خاماً من حقهم أن يأخذوا منها ويتركوا، ثم أعادوا صياغة منهج العلم من جديد خلقاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عن منهج اليونان والقدماء جملة وأقاموا عليه بناءً ضخماً وأضافوا إليه إضافات كثيرة.

سابعاً: أقام المسلمون المنهج العلمي على قواعد رئيسية لاتخضع للأهواء، ولا للغايات الخاصة، ولا للمطامع فقرر الإسلام دستور العلم: دعا إلى عدم الانخداع بالأوهام، أو قبول الظن، ولا من يقول بغير دليل ودعا إلى إعمال العقل، وسؤال أهل الذكر وحرية النظر، وإنكار التقليد.

ثانياً: اهتموا بنقل المصادر وتحقيقها والإبانة عن أخطائها ومغالطاتها، وتحدثوا عن الملاحظة الحسية، وأكدوا دورها في دراسة الظواهر الطبيعية، وأوصوا بإجراء التجارب العلمية متى تيسر ذلك، وارتفعوا من الدراسة التجريبية للظواهر الجزئية إلى وضع قوانين عامة تفسر هذه الظواهر.

ثالثاً: قرر علماء المسلمين أن العلم معرفة باستدلال: والاستدلال هو انتقال الذهن من معلوم (مقدمات) إلى مجهول (نتائج) باستخدام المعلوم في التوصل إلي المجهول، وأشهر أنواعه الاستدلال الاستقرائي، الذي يقوم على الملاحظة والتجربة (وهذا هو منهج العلوم الطبيعية) والاستدلال الاستنباطي: الذي يعتمد على العقل (وهو منهج العلوم الرياضية والفقه).

رابعاً: جمع الفكر الإسلامي منذ البدء بين النظرة العقلية التأملية وبين الممارسة العلمية، وكان أغلب الفلاسفة أطباء ورجال أعمال وكان الجاحظ وهو أديب يجري تجارب تشريحية على الحيوان، وقد قام العلماء بممارسة صناعة الطب واكتشاف الأحماض المختلفة، وكان هذا خروجاً تاماً على المنهج اليوناني منهج التأمل إلى الممارسة العملية وهي منهج التجريب، وبذلك استطاع العالم المسلم أن يدرس الظاهرة الموضوعية دراسة علمية لتحديدها تحديداً كمياً، برز هذا الوعي العلمي عند البيروني وجابر بن حيان، وكان هذا خروجاً مباشراً على منطق أرسطو، وأصبحت

عملية التجريب العلمي، لاالتأمل المنطقي هي سبيل المعرفة وهذا هو التحول التاريخي الخطير الذي أحدثه الإسلام في العالم كله منذ ذلك اليوم،فدخلت به البشرية مرحلة التغير الصناعي،والتحول الحضاري للعصر الحديث.

وكان أبرز ما حصل عليه علماء المسلمين «رابطة العلة بين الأشياء كأساس للمعرفة العقلية وهي جوهر القوانين والنواميس والسنن، وعلى هذه الرابطة العلمية بين الأشياء تقوم التجارب سواء في ميدان الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية على السواء، وبهذه الرابطة فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية، وعلى هذه الرابطة أقام البيروني والرازي وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم.

ومن هذه النقطة الحاسمة برزت نظرة إلى الكون والكائنات فيها نواة نظرية التطور: تطور الكائنات وبهذه النظرة اختلف الفكر الإسلامي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان،وكان هذا الخلاف نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الاجتماعي للحضارة الإسلامية والحضارة اليونانية،وبذلك تكشف جوهر الحضارة الإسلامية: وهو جوهر عقلي،عملي،تجريبي حي،قوام قاعدة عريضة: (لا تجربة بغير استدلال عقلي).

ولكن هذه النظرة التي تبدو علمية عقلية محضة لم تقف عند هذا الحد،بل كانت لها طابع من الإيمان بالغيب ورد الأمور كلها والقوانين كلها إلى صانعها الأول: الحق تبارك وتعالى.

خامساً: دعا الإسلام إلى تعلم العلم خالصاً لله،لالمباهاة العلماء،ولا لمجاراة السفهاء،ولا ليتقرب به إلى وجوه الناس وأبرز مفاهيم العلم في الإسلام: المطابقة بين الكلمة والسلوك،وربط العلم بالعمل، ولا يحجب العلم عن طالبه،ولا يرد طالبه إذا سأل، وإذا سأل عما لا يعلم أنه يقال له لا أعلم،ولا يستحى إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه،وللعلم خلق وتقوى،ولا يأخذ العالم رأي غيره وينسبه لنفسه،وإنما يذكر مصدره.

سادساً: يرى ابن حزم أن المعرفة تكون أولاً: بشهادة الحواس أي بالاختبار لما يقع عليه الحواس، ثم بأول العقل (أي بالضرورة من غير استعمال الحواس الخمس) ثم ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس وأولها العقل.

سابعاً: يدعو ابن رشد إلى النظر فيما سبق من علوم الأمم ونظرهم في الموجودات، فما كان موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذنا منه وعذرناهم، ويقول الإمام الشافعي إن هذا العلم «دين» فانظروا عمن تأخذون منه، لقد أدركت سبعين ممن يقولون (قال رسول الله) عن هذه الأساطير فما أخذت منهم شيئاً، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت المال لكان أميناً إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن.

ثامناً: لابن الهيثم في مجال تقنين أصول البحث العلمي رأي واضح ونظرية كاملة. يقول: يبدأ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتميز خواص الجزئيات، ويلتقط باستقراء ما يخص البصر في حالة الإبصار وما هو مطرد لايتغير وظاهر لايشتبه في كيفية الإحساس.

تاسعاً: قرر الإسلام بالدعوة إلى العلم أصولاً تمنع من الجمود العقلي، وتحمى من التحجر الفكري، من أهم هذه القواعد: أن العلم لايقول عن شيء أنه حق، إلا إذا قام البرهان اليقيني القاطع، والحذر كل الحذر من أن يجعل يقيناً ما ليس بيقين، أو أن ينزل الظن منزلة اليقين، ومن الضروري التفرقة بين ماهو حق وما هو ظن، والإسلام عدو التقليد، ويدعو إلى الأخذ بالأحسن، ويحكم العقل في كل ما يعرض للإنسان من أمر (والمراد بالعقل = العقل الذي استوفى شروط الفهم التي تؤهله لإدراك ما يلقى إليه).

ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ على الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل، لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق الذي به تثلج الصدور، ونصل بالتدريج واللطف إلي الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع

النقد والتحفظ بالحقيقه التي يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات،وما نحن مع ذلك براء مما هو طبيعة الإنسان من كدر البشرية،ولكنا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية،ومن الله نستمد العون في جميع الأمور.

عاشراً: كل الدلائل تعطى الحقيقة الثابته التي لامرية فيها ،وهو سبق الفكر الإسلامي للغرب في وضع أسس المنهج العلمي (التجريبي) على نحو تطبيقي لانظري قوامه الاستقراء،والقياس،والتمثيل؛ثم انتقاله انتقالاً سريعاً مدعماً إلى التجربة والممارسة العملية على نحو واضح:

(١) قصر البحث العلمي على المشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجربة وربطها وتبويبها.

(٢) تمحيصها وربط تلك الحقائق على النحو الذي يجعلها تصبح قانوناً طبيعياً أو نظرية علمية.

(٣) استنباط النتائج التي تفضى إليها وبحث صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع.

وقد اتضح هذا المنهج على يد ابن الهيثم المتوفى ٤٥٩هـ الموافق ١٠٣٩م سابقاً به (فرنسيس بيكون) المتوفى عام ١٦٢٦ فقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس،وقدم الاستقراء على القياس،وحدد الشروط الأساسية في البحث العلمي وهو طلب الحقيقة دون أن يكون لرأي سابق أو نزعة أو عاطفة مهما كانت داخلة في الأمر، ويتمثل غاية المنهج العلمي في أمور ثلاثة:

(١) استعمال العدل لا اتباع الهوى.

(٢) التجرد عن الهوى والانصاف بين الآراء.

(٣) وجود ما يثلج الصدر في الوصول إلى الحقيقة.

وعنده أن كل مذهبين مخالفين إما أن يكون أحدهما صادقاً والآخر كاذباً، وإما أن يكونا جميعاً كاذبين،والحق غيرهما جميعاً، وإما أن يكونا جميعاً يؤديان إلى

معنى واحد هو الحقيقة، ويرى قدري طوقان ومصطفى نظيف وغيرهما أن ابن الهيثم لم يسبق (بيكون) فحسب وإنما سما عليه، فقد كان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً، وقد أوضح هذا المعنى الأستاذ بريفولت بما لايدع زيادة لمستزيد حين قال: إن ما يدين به علمنا لعلم العرب والمسلمين ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم الثقافة الغربية بأكثر من هذا، إنه مدين لها بوجوده نفسه، فالعلم القديم لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها من سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية. لقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني، ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الاسكندرية في عهدها الهليني، أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، وبطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب والمسلمون إلى العلم الأوربي. ولم يقف الأستاذ بريفولت عند إقرار دور الفكر الإسلامي وأصالته وإضافته الواضحة المبتكرة، بل ذهب إلي أبعد من ذلك حين قرر: «إن روجر بيكون نقل مذهب العرب في البحث العلمي» يقول: إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة اسكفورد على خلفاء معلميه في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه فرنسيس بيكون الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق» وعند بريفولت أن المناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وأكب الناس في نهم على

تحصيله في ربوع أوربا.

حادي عشر: إن إضافات العلم الإسلامي بعيدة المدى في مختلف المجالات: في الطب، والفلك، الكيمياء الصيدلة، الملاحة، الجغرافيا، علوم البحار، الصوت، الضوء، نظريات النشوء والارتقاء، في الأرقام والحساب، في الجبر، في المراصد، وآلات الاسطرلاب، في صناعة الورق، ففي الطب عرفوا طبيعة كثير من الأمراض كالجدري والحصبة،واستعملوا الأمصال في معالجة بعض الأمراض،ووصفوا تشريح الجسم الإنساني وصفاً دقيقاً، وعرفوا العقاقير فسجل ابن البيطار (١٤٠٠ عقاراً) لم تعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقاراً والألف اكشتفها العرب وحددوا منافعها ومضارها، فقد ألف أبو القاسم الزهرواى كتابه في الطب والجراحة في عشرين مجلداً، أطباء الإسلام هم أول من فتت الحصى في المثانة وسدوا الشرايين النازفة وكتبوا في الجذام،والحصبة والجدري،وعدوى الطاعون، واستعملوا (المرقد) المخدر في العمليات الجراحية، والأطباء المسلمون هم أول من كشف النقاب عن الدورة الدموية ودورة الانكلستوما كما صحح الأطباء العرب أراء بقراط وجالينوس في التشريح ووظائف الأعضاء، وقد ترجم كتاب ابن سينا (القانون في الطب) في خمسة عشر طبعة إلى الاتينية والعربية والانجليزية وقد بحث عن العقاقير والأدوية في سبعمائة وستين نوعاً، قال الدكتور دينستون: إنه يحتوى على ما يزيد على مليون كلمة وقد عالج القرحة الدرنية والقولينج الكبرى والكلوى والتهاب الرئة والجنب والتهاب الدماغ،وقد ظلت مؤلفاته أساساً للمباحث الطبية،وفي جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون ولم تعرف جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر مرجعاً للطب والعقاقير أوفى من كتب الرازي وابن سينا وابن الهيثم، وعرف العلم الإسلامي التطعيم ضد الجدري، واستخدموا عفن البنسلين وعيش الغراب كمراهم، أما طب العيون فهو من صناعة العرب،وقد ظلت تذكرة طب العيون تستخدم حتى القرن التاسع عشر بل احتل المسلمون المركز الأول في مجال الطب فترة تزيد على خمسمائه عام.

ثاني عشر: وفي المجالات الأخرى نجد إضافات باهرة،فقد اخترع المسلمون

الساعات الدقاقه والزوالية، واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام، وعرفوا تركيب النار اليونانية واستخرجوا قوة البارود الدافعة،واستعملوا الآلات القاصفة،وأتقنوا فن تسقية الفولاذ، وهم أول من استخذم البوصلة في الملاحة،واكتشفوا الإبرة المغناطيسية التي انتقلت إلى أوربا في القرن الثاني عشر، ونقلوا القمح الأحمر ومشاتل النخيل من أسبانيا وأفريقيا إلى فرنسا، واستخرجوا مادة القطران التي يطلى بها قاع السفن وعرف فضلهم في تحسين نسل الخيل، وكانوا أول من حاول قياس خط نصف النهار،ووصفوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات وبسطوا علم الحساب الإغريقي، ونقلوا القطن إلى الأندلس وأخذوا من الصينيين زراعة القصب واستخراج السكر منه،وأدخلوهما إلي مصر وصقلية والأندلس، وكانت علوم المسلمين في الجغرافيا والفلك هي صاحبة الفضل الأكبر في الكشف عن الأمريكتين، وعلل المسلمون ملوحة البحر وعذوبة المطر واستحالة الحطب في الاحتراق، واستحالة الزيت في المصباح، وصعود الهواء وانحدار الماء لا بالجاذبية والنقل النوعي بل بانجذاب بعضها إلي بعض،وعرف موسى بن شاكر مائة تركيب ميكانيكي، كما علل علماء المسلمين صعود الماء في العيون والفوارات وتجمد الماء في العيون والقنوات واستعملوا (السيفون) وسموه (السحارة) وعرفوا كثافة الذهب والرصاص، وبحثوا في الصوت وحصوله وعللوا حدوث الصدى، وكتبوا في الأوتار واهتزازاتها وعرفوا ما بين طول الوتر وغلظه وتأثره من علاقة، كما عرفوا خاصة الجذب في المغناطيس وخاصة اتجاهه، وهم أول من استعمل بيت الإبرة (البوصلة) في البحار ودرسوا نظرية النشوء والارتقاء في مدارسهم،وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن، كما اقتبسوا الأرقام الهندية وشذبوها ،وأوجدوا طريقة مبتكرة في الإحصاء العشري باستعمال الصفر،واستعملوا الرموز في الرياضة فسبقوا الأوربيين إلى ذلك،ومهدوا للكشف عن اللوغاريتمات وعن التكامل والتفاضل، وأنشأوا المراصد العديدة ووضعوا الأزياج الدقيقة الكبيرة الفائدة.

وهم أول من عرف الأصول التي تفضى إلى الرسم على سطح الكرة،وأول من

أوجد عملياً طول الدرجة من خط نصف النهار وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها، واخترعوا له الاسطرلاب الدقيق، وحققوا مواقع كثير من النجوم، وحسبوا طول السنة الشمسية وبحثوا عن كلف الشمس قبل الأوربيين، ووضعوا جداول دقيقة عن النجوم الثوابت وصورها في الخرائط، وصححوا خطأ بطليموس وخطأ الرومان القائلين بتسطح الأرض ورسموا خرائط بلادهم، وأكد أبو الفداء أن الأرض كروية وأنها في الوسط، وهم أول من وضع أساس الكيمياء، وقد مارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والتبلير «البلورة» والتذويب والألغام والتكليس، وهم الذين استحضروا الكحول والقلي والبورق والزرنيخ والبوتاس والأثمدوزيت الزاج (الحامض النتريك) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسليماني والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) وروح النشادر وملح الطرطير، وماء الذهب والبارود، والقلويات كلها في الكيمياء معروفه باسمها العربي، وماء الفضة لم يوصف في كتاب غربي قبل كتاب جابر بن حيان، وملح البارود من تحضير تلميذ المسلمين (روجر باكون) وأول من اخترع رقاص الساعة هو أبو الحسن العباسي المشهور بابن يونس، والساعة الدقاقة اخترعها علماء المسلمين وأهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا فكانت وغيرهامن الهدايا موضع دهشة عظيمة، وأول مصنع للورق بدأ في سمرقند ثم في بغداد في زمن الرشيد ثم في دمشق ودمياط ومراكش وصقلية، وأسبانيا. والمرايا البلور بدأت في سوريا ومنها انتقلت إلى البندقية، وقد عرف المسلمون (الصفر) ولم يعرفه الغربيون إلا في القرن الثاني عشر عن طريق المسلمين.

وقال العلامة اير: إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون، وكان المسلمون قد استعملوا الصفر في الحساب ورسموه على هيئة حلقة ثم شرح الخوارزمي طريقة استعماله في بحث ترجم إلى الكتب الأوربية في الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي.

ثالث عشر: أبرزت هذه النهضة عدداً كبيراً من العلماء في مقدمتهم: جابر بن

حيان والخوارزمي والرازي والبتاني والبيروني وابن الهيثم وابن خلدون وأبو الثناء الأصفهاني والفرغاني والقزويني والزهرواى وابن يونس وابن ماجد وحسني المراكشي وعمر الخيام والفارابي والإدريسي،ومما يذكر في هذا المجال أن الطبيب ابن النفيس على ابن حزم القرشي عارض رأي جالينوس الذي ظل مهيمناً على عقول الأطباء أكثر من عشرة قرون ونقد نظريته، وعارض قوله في الدم،وقال كيف يمكن أن ينتقل الدم من البطين الأيمن إلى الأيسر خلال حاجز ليس له منافذ، وأخرج للعالم نظرية الدورة الدموية الصغرى إذ قال: إن الدم لايمكن أن ينتقل من البطين الأيمن إلى البطين الأيسر مباشرة خلال الحاجز،وإنما يسير من البطين الأيمن إلى الرئة ومن الرئة إلى البطين الأيسر،وهذه هي الدورة الدموية الصغرى،وقد ظلت آراء ابن النفيس قائمة حتى ترجمت كتبه إلي اللاتينية في عصر النهضة وجاء سرفيتو وكلوبموا فأيدا ما ذهب إليه ابن النفيس وذلك في القرن السادس عشر فهو قد سبقهما بأكثر من مائتين وخمسين سنة، أما وليم هارفي فقد جاء بعده بأكثر من أربعمائة سنة وقام بتجاربه في ضوء أبحاث ابن النفيس ومن تلاه وانتهى إلي كشف الدورة الدموية الكبرى.

رابع عشر: وهكذا قدم المسلمون أساس العلم الحديث،وقدموا فتوحات واسعة في مختلف أرجائه وجوانبه،وقد كان كشف سنن الكون ونواميسه على أيديهم أول الأمر مستمداً من فهمهم للقرآن ومن إيمانهم بالله، ثم جاءت عملية الملاحظة والتجريب، وعلى هذا الطريق سار العلم الحديث، وقد اعترف الغربيون في صراحة ووضوح بأنهم أخذوا هذه الطريقة من علماء المسلمين، وكل ما وصل إليه العلم الحديث إنما قام على منهج التجربة والملاحظة والاستقراء الذي قدمه المسلمون ولم يبتكروا منهجاً آخر وإنما حسنوا الأساليب والأدوات،ومعنى هذا أن نتاج العلم الحديث كله جاء عن طريق منهج القرآن،غير أن الخلاف هو في أمر واحد هو أن الغرب حجب الصانع الأصلي وصاحب القوانين ونسب الكشوف إلى الإنسان وحده، كما أنه اعتبر هذه القوانين مستحيلة النقض، وبذلك عجز عن فهم قدرة صاحب القوانين في نقضها وتغييرها

وذلك حين رفضوا الاعتراف بعالم الغيب الذي تبين من بعد أن له صلة ضخمة بما وصل إليه العلم،وأن هناك جوانب كثيرة لم يستطع العلم أن يضع يده عليها، ولذلك فإنه حين يقول بحتمية القوانين الطبيعية إنما يتجاهل هذه الجوانب الغيبية الخافية عليه وينسى قدرة الله سبحانه واضع القوانين والذي له وحده القدرة في خرقها.

خامس عشر: كرم الإسلام العلم والعلماء، ورفع القرآن من شأن العلم والعلماء وفتح الأبواب للاستزادة من العلم، ومن هنا كانت انطلاقة المسلمين العلمية إلى التقدم في مجال الفكر والحضارة، ورحل علماء المسلمين إلى أقصى الأرض باحثين عن العلوم متنافسين فيها، وسار قادة المسلمين على سنة نشر العلم وإعزاز أهله والبذل لهم وبناء المدارس وخزائن الكتب، بينما أدخلت أوربا العلماء في زمرة المارقين من الدين،وقدمتهم لمحاكم التفتيش، يقول العلامة مسمر: إن الغربي إذا صار عالماً ترك دينه،بخلاف المسلم فإنه لايترك دينه إلا إذا صار جاهلاً، ولم يرتق العلم في أوربا إلا بفصل الدين عنه،بينما العكس في الإسلام فإن قيمه لم تكن حائلة دون البحث والنظر، بل كانت مصدراً من مصادره،وقد حدد الإسلام موقف العلم فجعله في إطار العقيدة،وجعله خالصاً لإسعاد الإنسانية، ويقول إتيان دينيه: لقد لبثت أوروبا ثلاثمائة سنة تقتبس من الإسلام اللغة والعلوم ويقول العلامة دراب: تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر في كتب المسلمين فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا كالرأي الجديد في ترقى الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها فإن هذا الرأي كان مما يعلمه المسلمون في مدارسهم،وكانوا يذهبون إلي أبعد مما ذهبنا فكان عندهم عاماً يشمل الكائنات العضوية والمعادن، والأصل الذي نبتت عليه الكيمياء عندهم في ترقي المعادن في أشكالها، ويقول فون كريمر: إن العقل الإسلامي يبدو في ذروة نشاطه حين يكون في حقل المعرفة التجريبية يباشر دراسته في ضوء الملاحظة والاختبار، فالعرب يبدون نشاطاً يثير الدهشة حين يقومون بملاحظة الظواهر وتمحيصها، وجمعها،وترتيب ما هدتهم إليه التجربة، ولما كانوا أصحاب

ملاحظة دقيقة وأهل تفكير مبدع أصيل حققوا في مجالات الرياضيات والفلك إنجازات رائعة، ويقول سيديو: الحركة العلمية عند العرب تتميز بالانتقال من المعلوم إلى المجهول،والتحقيق الدقيق في ظواهر السماء،ورفض كل حقيقة كونية لم تثبت عن طريق الملاحظة الحسية، ويؤكد الباحثون في العلم الإسلامي أن علماء المسلمين فطنوا إلى ثلاثة أمور هامة:

(أولاً) فطنوا قبل الأوربيين إلى مصدر الحواس عن إدراك بعض الظواهر لفرط صغرها أو بعدها فعوضوا قصور الحواس باختراع أجهزة وآلات تمد في قدرتها على الإدراك، وكان ابن الهيثم يستعين في دراسة انتشار الضوء وانعكاساته بآلات يقوم بصنعها أو يشرف على صنعها وخلف أبو القاسم الزهراوي مئات الرسوم لآلات تستخدم في الجراحة والتخثير وترك علماء المسلمين في الفلك مراصد مزودة بعشرات الرسوم والآلات والأجهزة.

(ثانياً) لم يفت المسلمين الاهتداء إلى التجربة العلمية ومعرفة دورها في البحث العلمي فلم يكتفوا بمراقبة الظاهرة وتسجيل حالها بل تدخلوا في سيرها ليلاحظوا في ظروف هيئوها بأنفسهم وأعدوها بإدراتهم وسماها جابر (التدريب) وسماها ابن الهيثم (الاعتبار).

(ثالثاً) فطنوا فوق ذلك إلى أن الغرض من الدراسات التجريبية هو وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر تفسيراً علمياً.

(٢٤)

العلم في الغرب

أولاً: انتقل هذا العلم الإسلامي مع كل نتاج الفكر الإسلامي إلى أوربا واستقر في «الأندلس» ثمانمائة عام فكانت منار الغرب كله، وكانت جامعاتها موئل المثقفين من مختلف بلاد أوربا، التي كانت قد سقطت في ظلمات القرون الوسطى حوالي عام ٤٠٠ ميلادية قبل ظهور الإسلام بقرنين تقريباً وظلت سادرة في ظلامها حتى أوائل القرن الخامس عشر بعد أن قطعت أكثر من ألف سنة كانت أضواء الإسلام خلالها قد عمت الآفاق.

فقد وصل المسلمون إلى شواطئ أوربا في أوائل القرن الثامن الميلادي - أي بعد أربعمائة عام تقريباً من سقوط روما - ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط غرناطة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي كان وجود الإسلام في أوربا كلها (الأندلس أصلاً وجنوبي فرنسا وإيطاليا) وجوداً حقيقياً يتمثل في حضارة كاملة بجامعاتها وعلومها وآثارها وكتبها وفكرها.

ولقد كان إنهاء هذا الوجود على هذا النحو الذي تجمع عليه كتب التاريخ الإسلامي والغربي جميعاً ولا يختلف فيه هو أشبه بمؤامرة ضخمة حاصرت العلم والجامعات والنتاج الإسلامي كله ثم أخرجت المسلمين منه إلى شاطئ إفريقيا تحت اسم أوربا للأوربيين، ففي خلال هذه الفترة الضخمة الخصبة التي استمرت من ٧٢٢ ميلادية (١٠١هـ) إلى سقوط غرناطة ١٤٩٢م (٨٩٨هـ) تحول إلى أوربا كل نتاج العلم الإسلامي داخل إطار فكره الجامع وهي فترة تزيد على ٧٧٠ عاماً كاملة.

ومن هذا النتاج وأدواته ومصادره قامت النهضة الغربية الحديثة التي عرفت باسم (الرينسانس) والتي تمثلت في مصادر كثيرة أبرزها أولئك العلماء الذين تعلموا في جامعات الأندلس، ثم انتشروا في جامعات فرنسا وانجلترا وإيطاليا، فكانوا نواة

النهصة الأوربية الحديثة،وأخذوا بالخيط من نقطة توقف المسلمين وساروا به حتى بلغوا بالعلم والحضارة هذا المبلغ الذي نراه اليوم.

غير أن النهضة الأوربية لم تتخذ الفكر الإسلامي مصدراً لها،وإن كان قد فتح لها الآفاق إلى المدنية،وكان أول ما أعطاها مفهوم الإرادة الإنسانية الحرة هذا المفهوم الذي حطم مفهوم العزلة عن الدنيا والعكوف في الأديرة، ثم أعطاها مفهوم حرية فهم النص المقدس، والاتصال بالله اتصالاً مباشراً دون واسطة،وهذا ما دعا إليه لوثر وكالفن. ثم كان المنهج العلمي التجريبي الذي وصل إلى نقطة أساسية وهي معرفة أسلوب الوصول إلى كشف قوانين الطبيعة بالإضافة إلى ذلك التراث الضخم في عالم الفلك والبحر والطب والصناعة، الذي عاشت عليه أوربا بعد ذلك ثلاثة قرون كاملة حتى استطاعت أن تقيم به النهضة الصناعية المدنية.

فالإسلام الذي لم تقبله أوربا حين قبلت المنهج العلمي الإسلامي، هو الذي أطلق العقل الإنساني من قيوده الذي كبلتها به الوثنية. غير أن أوربا صاغت فكرها الجديد من أصول قديمة قوامها: الفلسفة اليونانية والقانون الروماني وطابع المسيحية بتفسيراتها التي لم تكن تمثل الدين الذي أنزل على نبي الله عيسى عليه السلام.

وقد حال ذلك كله دون أن تضع (العلم) في موضعه الصحيح الذي رسمه له الإسلام،أو الدين بعامة،فكان أن تقدمت أوربا في مجال العلم التجريبي،وانحرفت في مجال الفكر الفلسفي والاجتماعي والسياسي على النحو الذي أسلمها من الفلسفة المثالية إلى الفلسفة المادية التي يعيش فيها الغرب هذا القرن حياته كلها، وقد كان لذلك أثره على اتجاه العلم ومنتجاته وآثاره وخططه في المجتمع والحضارة،وتلك هي أزمة العلم والحضارة.

ثانياً: عندما بدأ العلم يقدم اكتشافاته وقع الصدام بينه وبين رجال الدين، فقد كانت الكتب القديمة قد وضعت مقررات عن الطبيعة والأرض والزمان اختلفت مع ماحاول العلم أن يثبته.

وقد انتهى هذا الصراع بموقف عداء مع رجال الدين ومع الدين نفسه، وفي هذه المراحل استعلى العلم بكشوفه، وحاول أن يشق طريقة بعيداً عن الدين، فظهرت مفاهيم مختلفة منها: الدين البشري والإلحاد والخصومة بين العلم والدين.

غير أن العلم الذي أصابه الغرور الشديد حين أعلى مفاهيم المادة والعقل وأنكر الجوانب الأخرى في الحياة الإنسانية كالروحية والغيب والوحي - والدين قد شق طريقاً صعباً - تمثل واضحاً في كتابات أرنست رينان وهربرت سبنسر وغيرهم من الفلاسفة لا العلماء.

فقد حاول هؤلاء بالإضافة إلى بخنر وغيره تفسير الحياة تفسيراً مادياً صرفاً وبلغ الإيمان بالعلم درجة كبرى حتى وصفه أرنست رينان في كتابه مستقبل العلم بأنه سينقذ الإنسانية، وأن العصر الذي يسود فيه العقل وتصل فيه الإنسانية إلى الكمال آت لاريب فيه، ومن ثم قام مفهوم مسيطر هو أن العلم كل شيء ولا شيء غيره، وأنه هو الذي ينظِّم المعرفة على اختلاف أنواعها.

ومن ثم نشأت نظرية قيام المجتمع على أساس المحسوس والمعقول وحدهما وإنكار ما سوى ذلك من دين وغيبيات ووحي ورسالات سماء، واعتبار ذلك كله من الوهم الذي يغرق فيه الجهلاء. (ولندع الجانب الفلسفي حتى نصل إليه) أما العلم فقد تبين له بعد أن قطع أشواطاً طويلة أنه ليس قادراً على الإجابة على كثير من الأسئلة وخاصة معرفة كنه الأشياء ومصادرها وغاياتها، ومن ثم فقد تقرر بصورة عامة أن العلم لايفسر الأشياء ولا يعللها، ولكنه يصفها ويقررها، فمهمة العلم قاصرة على وصف الظواهر وتقريرها، وبذلك خفف العلم من غلواء النظرة الأولى التي كانت في أذهان الأوائل، وهي تفسير الوجود بحيث يصبح العلم هو المنهج الوحيد للمعرفة سواء في مجال العلوم الطبيعية والرياضية أو مجال الإنسانية، وتخلى العلم عن الإجابة عن (لماذا) بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها، وترك العلم للفلسفة مهمة البحث عن العلل النهائية للوجود بعد أن عجز في هذا المضمار ولم يسفر بحثه عن شيء.

وقرر العلماء أن العلم إنما يقدم مجموعة من الفروض الظنية لتفسير الطبيعة، وأن هذه الفروض تتحول بالتجربة إلى قوانين، كما قرر العلماء أن العلم لايفسر شيئاً وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالي يصف ويقرر. وليس هذا فهماً للأشياء ولكنه تعرُّف عليها. ويقرر العلماء أن العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن أن تستخدم المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها، ومن ثم فقد وصل العلم إلى تقرير: أن العقل البشري لايستطيع أن يدرك شيئاً إلا عن طريق الحواس، ولذلك فكل ما يقع وراء الحس والعقل فلا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئاً. كذلك فقد تقرر أن حقائق العلم ليست مطلقة ولا أبدية، بل هي تقرر الحقيقة النسبية، وما يزال للبحث العلمي صراع بين الإنسان والطبيعة.

فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها. وما زال العلماء يتساءلون: هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة؟ لقد قطع أشواطاً بعيدة خلال ثلاثمائة سنة فهل استطاع الوصول إلى الحقيقة؟

كذلك فإن العلم ما زال يجهز الإنسان بأفظع وسائل الفتك والتدمير، ورغم تقدم العلم فإنه عجز عن حل المشاكل الكبرى المتمثلة في أصول الكون ونهايته وطبيعة المادة ومنشأ الحياة، وخلود الروح، وما زالت آراؤه مضطربة.

يقول مارتين ستانلي كونجدن: «إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات، وليس باليقين» ونتائج العلوم بذلك تقريبية، عرضة للأخطاء في القياس والمقارنات؛ ونتائجها اجتهادية، وقابلة للتعديل بالإجابة والحذف، وليست نهائية. وقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث في كنه الأشياء بعد أن تبين له أن لاسبيل إلى معرفة الكنه المغيب عن الحواس، واكتفى بدراسة ظواهرها.

ولا ريب أن لغلبة المادية الصرفة على العلم، ولانفصاله عن الروح، ولتجاهله الدين والوحي، ورسالة السماء التي قد قدمت للإنسان عالم الميتافيزيقا في وضوح كامل.

لاريب أن لهذا كله أثره في عجز العلم عن فهم كنه الأشياء، وعن قصوره عند المحسوس وحده. ويقول رسل تشارلز أرنست: «إن كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لايستطيع أن يقيم الدليل المباشر المتطلع للعالم على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية».

ثالثاً: هاجم (روجر بيكون) ومن بعده (ديكارت) المنطق الأرسطي وما يفضي إليه من الاعتماد على العلم طريقة للقياس، وقال إنه ينبغي أن يعتمد قبل كل شيء على التجربة، وكان العلماء المسلمون قد سبقوهما في ذلك بأكثر من سبعة قرون. وكان التحذير من استخدام المنطق الأرسطي يرجع إلى تصوره، وكان المنهج العلمي الصحيح هو الذي يجمع بين التجربة وبين القياس، أي بين الاستقراء القائم على التجارب وبين القياس المحكم وأطلق على هذا (المنطق الحديث) ولم يكن هذا الإجماع إلا ما دعا إليه البيروني وابن الهيثم وجابر بن حيان، ثم جاء مفكرو الغرب من بعد ذلك يعلنون أن المنطق الأرسطي قد انتهى زمنه، وحل بدلاً منه المنهج العلمي الذي يعتمد على دراسة الظواهر ورصدها مع الجمع بين التفكير النظري وبين الملاحظة والتجربة.

وكان هذا هو ما قرره المسلمون من قبل، وجاءت آراء كانط وديكارت ونيوتن في الطبيعة وانكسار الضوء والإبصار، فهللت لها أوربا، ثم تبين من بعد أن أغلبها مأخوذ من ابن الهيثم، وهلل الغرب لـ (هارفي) ووصفه بأنه مكتشف الدورة الدموية، مع أن مكتشفها الذي سبق هارفي بقرون هو ابن النفيس.

وهللت أوربا لآراء دارون ولا مارك في التطور، وقد ذكرها ابن مسكويه وما نادى به لامارك من أثر الطبيعة والبيئة على الأحياء سبقه إليه ابن خلدون حيث قال: إن العادة قد تغير من صفات العضويات، كما يغير الطقس، ويضاف إلى ذلك ملاحظات الجاحظ وابن سينا في التطور والارتقاء.

وقبل كبلر وجاليلو وكوبرنيق وضع العلماء المسلمون علم حساب المثلثات بطريقة منظمة واعتبر علماً إسلامياً،وعملوا الأرصاد وأقاموا المراصد، وقدروا أبعاد بعض النجوم والكواكب، وقالوا باستدارة الأرض، وقاسوا محيطها، وحسبوا طول السنة الشمسية، ورصدوا الاعتدالين، وكتبوا عن البقع الشمسية، وعن الكسوف والخسوف ووضعوا أسماء كثير من الكواكب التي مازالت تستعمل حتى اليوم:

(الدب الأكبر - الأصغر - الحوت - العقرب - إلخ).

وهذا كله يعني أن الأصول العامة التي تفرعت من بعد قد أرسى دعائمها المسلمون،حتى جاءت النهضة العلمية الحديثة،فاندفعت إلى آفاق بعيدة،فاتسعت مجالات العلم: من كيمائية وجولوجية ورياضية وفلكية وطبيعة ونبات وحيوان ووصلت إلى المفاعلات الذرية والتفاعلات الكيمائية المختلفة وإرسال القذائف الصاروخية والأقمار الصناعية وسفن الفضاء وغزو الفضاء.

غير أن الملاحظ أن هذا التقدم العلمي قد اعترضته مجموعة من المحاذير الخطيرة:

١- كان اختلافه مع الكنيسة مصدراً من مصادر خلافه مع الدين،ووقوع الصراع والتعارض على النحو الذي فصل العلم عن روح الدين كلية وعن أخلاقياته،فاندفع في طريقه لإنتاج آلات الدمار والذرة وأخطارها في الحروب وفي الاستعمار وبالنسبة للشعوب الضعيفة.

٢- أعطى العلم سره للقوى الكبرى وحجبه عن عامة البشر والناس فلم يكن أداة سعادة للإنسانية. كذلك اتجه إلى الجانب الحربي أكثر مما اتجه إلى جانب تخفيف آلام الإنسانية. كذلك انحرف إلى جانب الترف والغرائز والأهواء.

٣- حاول السيطرة بأساليبه المادية على العلوم الإنسانية وقضايا الأخلاق والنفس والمجتمع،بينما لم تكن أدواته هذه صالحة لهذه الوجهة.

٤- أعان على ظهور الفلسفة المادية،فانحرف بالبشرية إلى أخطر أزمات الإنسان

حين أعلى من شأن الجوانب المادية وأنكر الجوانب المعنوية والروحية والنفسية.

٥- كان من أخطر طوابعه إنكاره مصدر القوانين والنواميس الطبيعية والعجز عن نسبتها إلى صانعها الأول: الحق تبارك وتعالى.

رابعاً: كانت نظرية التطور التي جاء بها (دارون) هي أول نقاط تحول العلم الغربي إلى المادية وسيطرة المفهوم المادي على الاجتماع الإنساني. فلقد كان دارون يرى أن جميع الكائنات الحية التي كانت تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو عدة أصول، ولم يزعم دارون أن الإنسان قد انحدر من القرد مباشرة، ولكن من نوع من الكائنات أقل مرتبة من الإنسان، ثم اجتاز مرحلة تطور فائقة اكتسب فيها القامة المعتدلة والعقل، وما قدمه دارون لم يكن إلا نظرية؛ والنظرية أساساً تقوم على فروض تتجمع لترجح وجهة نظر معينة فبحكم ما وصل إلى علم دارون وما أطلع عليه من جماجم وحفريات افترض هذا، وبالرغم من أن ما قاله دارون كنظرية قابل للنقض والمعارضة فقد حورتها الفلسفة إلى ظاهرة اجتماعية هي التطور الاجتماعي، (وهذا له مجال في دراسة الفلسفة) غير أن كثيراً من العلماء لم يقبلوا افتراض دارون وكشفت أبحاث هكسلي وغيره عن أن الإنسان مخلوق فريد من الناحية البيولوجية ومن النواحي العقلية والنفسية، وأنه في هذا يتميز تميزاً واضحاً عن الحيوانات. ولقد ناقض دارون تلاميذه وأقرب الناس إليه، ووجدت مفاهيم دارون في تنازع البقاء وفي السلالات اختلافاً كبيراً بين خلفائه وعدلت عشرات المرات وثبت تضاربهما وتعارضهما. وأبرز من عارض دارون (لالاند) في كتابه (خداع التطور) فقد أثبت خطأ نظرية التطور من الأساس.

ويقول أقرب الناس إلى دارون: إن دعوته إلى تنازع البقاء قد حالت بينه وبين رؤية التعاون في الطبيعة والتعاون أكبر من التنازع.

ومن الغريب أن (لامارك) قد علل قبل (دارون) النشوء والارتقاء تعليلاً غير هذا فقال: إن النشوء والارتقاء إنما ينجم عن تكيف الأحياء وفقاً لبيئتها وتوارث الصفات المكتسبة، وقال آخر بما يسمى التحول الفجائي بين الأحياء. وقد اشترك

كثير من الفلاسفة والعلماء في دراسة الصلة بين المخلوقات وقالوا بوجود قرابة بين الإنسان وسائر الحيوانات،ولكنهم لم يتوصلوا إلى إيجاد تعليل واف يبين كيف تم ذلك. وقد أطلق على هذه النقطة اسم (الحلقة المفقودة) التي ما زالت إلى وقت قريب موضع تعلة الماديين وتمسكهم بهذا الرأي.

خامساً: تبين من الأبحاث التي أجريت فيما يتعلق بنظرية دارون من الناحية البيلوجية الخالصة أن الإنسان لم يتطور إلى كائن آخر،وما زال هو الإنسان الذي وجد منذ عرف بصورته هذه وقد مرت عليه عشرات الألوف من السنين،ولا ريب أن هذا الثبات ينفي القول بتطوره قبل ذلك إلى صورته الحالية،كذلك ثبت بطلان نظرية الاستعمال والإهمال. وقد قام الدكتور أوجست وابرمان فأخذ فيراناً وقطع أذنابها بمجرد ولادتها واستمر في ذلك حتى الجيل الثاني والعشرين فلم تحدث حادثة واحدة أن ولدت فأرة بغير ذنب،وكان لامارك قد افترض من استعمال أي عضو ينميه ويقويه وترك أي عضو يسبب ضموره وتلاشيه.

ولقد حاول أرنست هيجل أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه دارون فأعلن تسلل الإنسان من القردة مباشرة. وقد تعددت الأبحاث منذ سنوات طويله في هذا المجال للبحث عن الحلقات المفقودة،وجرت دراسة آلاف العظام والجماجم وبقايا الإنسان المتناثرة في أنحاء العالم القديم من جزر جاوة، إلى كينيا وروديسيا والصين. وقد وجدت قطع من العظام والجماجم ترجع إلى ما يقرب من خمسة عشر مليوناً من الأعوام.

وتعددت كشوف العلماء وتوالت حتى جاء الدكتور ليكي مدير المتحف الوطني في كينيا الذي يوالي أعماله الحفرية منذ ثلاثين عاماً ليعلن عام ١٩٦٤م بأنه اكتشف مجموعة من المخلوقات في جبال كينيا تختلف اختلافاً شديداً عن شجرة دارون وعن فكرة القرد الحيواني. ومعنى هذا أن القرد الحيواني لاينتمي لشجرة التطور الإنسانية،وأنه انقرض تماماً ولم يخلف أي أثر، واستمر الدكتور ليكي في أبحاثه حتى أصبح شوكة في جنب علماء الأنثروبولوجيا قبل أن يموت عام ١٩٧٢م.

واستطاع خَلَفُهُ ريتشارد أن يقع على أهم اكتشاق في هذا المضمار فقد وجد في إحدى جبال كينيا جمجمة وعظاماً هزت الأوساط العلمية ترجع إلى مليون وستمائة ألف سنة تقريباً،وأهم ما يميزها أن حجم المخ ووحداته ضعف حجم مخ (القرد الحيواني) رغماً من أنها تزيد على القرد الحيواني بحوالي مليون سنة ويعطي هذا الكشف تاكيداً عملياً بأن الجنس البشري ينتهي إلى فصيلة أخرى غير فصيلة القرد الشمبانزي،وقد وجدت الحفريات مجموعة كبيرة من بقايا القرود وسمي الاكتشاف الجديد الإنسان ١٤٧٠ ومن أهم ما يميزه أن زواية ارتباط العمود الفقري بقاع الجمجمة يؤكد أنه كان قادراً على المشي مثلنا تماماً ولم تكن له صفات الوحش المعتدي، وهذا يدحض نظرية دارون في أن الصفات العدائية في الإنسان ترجع إلى أجداده القرود.

وكان البرفسور جوهانس هوردير العالم الذري في سنمبتال بسويسرا قد أذاع بياناً في (١٠ مارس ١٩٥٦م) عارض فيه نظرية دارون بشدة وقال إنه لايوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالات القرود، وأن التجارب الواسعة التي أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة يعيش منفرداً وبعيداً جداً. كذلك أعلن دكتور رويتر المشرف على أبحاث جامعة كولومبيا وأيده البروفسور هوردلر (٣١ مارس ١٩٥٦) أن نظرية دارون لا أصل علمي لها،وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالاً تاماً،فمنها الإنسان الذي يمشى على رجليه،ومنها الدواب التي تمشي على أربع؛ ومنها الزواحف التي تمشي على بطنها. كذلك أعلن العلأمة هوجودي فريس أن الأنواع قد ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة العدة دون سابق إعداد أو خطوات متوسطة،فلم يكن ثمة حاجة إلي سلسلة من الأجيال المتعاقبة،أو الانتخاب الطبيعي،أو تنازع البقاء.

ويقول الدكتور كريسي موريسون: أن كل نوع شجرة مستقلة، وأن القانون يتحكم في التنظيم الذري بالجنينات التي تقرر قطعاً كل نوع من الحياة من البداية إلى النهاية، ويقول جوليان هكسلي: إذا كان الحيوان قد تحول إلى إنسان في

الماضي فلماذا لا تتحول بعض الحيوانات الحالية إلى أناس.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (سورة النور: ٤٥).

وقد جاءت هذه التجارب بعد أكثر من سبعين عاماً ملتقية مع حقائق القرآن الكريم في خلق الأنواع كلها مكذبة لما «ظن» دارون وما كان قد فرضه بناء على ما وصل إليه من دليل.

ومن الحق أن يقال إن نظرية دارون هي التي فتحت الباب واسعاً ليس أمام العلم؛ ولكن أمام الفلسفة المادية، والشك الفلسفي، وأمام خطوات أخرى استخدمت لها في سبيل غايات بعيدة لتدمير البشرية. وقد سجلت بروتوكولات صهيون طرفاً من هذا الاتجاه في عبارة تقول:

«إن دارون ليس يهودياً، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين» والواقع أن دارون لم يكن أكثر من باحث قدم ما وصل إليه ، ولم يكن في مذهب دارون ما ينفي وجود الله، ولكن ما جاء في مذهب دارون يختلف اختلافاً صريحاً مع ما جاء في الكتب المقدسة عن الخليقة وأصل الإنسان. ولكنه لم ينكر وجود قوة أزلية قادرة هي المرجع الأول والأخير لكل ما في الكون، ومن هنا كان الخلاف مع رجال الدين المسيحيين الذين أصروا على ما في كتبهم. غير أن الأمور لم تقف عند هذا الحد فإن خلفاء دارون من رجال العلم شطوا في النتائج التي توصلوا إليها، كذلك فلقد تلقّف الفلاسفة ومن ورائهم القوى التي أرادت أن تنتفع بالنظرية في غير مجالها البيولوجي حين نقلها هربرت سبنسر إلى مجال الاجتماع. وإن أخطر ما قرره دارون وهو (تنازع البقاء) قد استغل استغلالاً سيئاً في نظريات الماركسية والجبرية التاريخية وغيرها. ولقد أكدت الأبحاث الرصينة فشل دارون في تعليل التطور بتنازع البقاء، ذلك لأن عواطفه الاجتماعية التي اكتسبها من المزاحمة التجارية في ليكشير، ومن كفاح الإمبراطورية لخطف الأسواق

وإذلال الأمم، هذه العواطف هي التي حملته على أن يكبر من شأن التنازع: تنازع البقاء وحال بينه وبين رؤية مئات من صور التعاون في الطبيعة والأحياء.

وقد ثبت أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع، وأن دارون أخطأ خطأ فادحاً عندما زعم أن تنازع البقاء هو كل شيء، أو كاد يكون كل شيء،وإن كان فهمه كان محدوداً. وقد تبين أن التعاون في الطبيعة أكبر أثراً وأوسع مدى من التنازع. وقد استغلت نظرية دارون في مجال الاستعمار استغلالاً سيئاً،واتخذت وسيلة للنظم الغربية الديمقراطية في تبرير سيطرة الدول القوية على الدول الضعيفة.

كذلك فإن ما وصل إليه دارون في التطور تختلف عما وصل إليه المسلمون الذين لاحظوا التدرج في مراتب المخلوقات من الجوامد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان، ولكنهم نظروا إلى تطور الإنسان من حيث نظر القرآن إليه نطفة،وعلقة ومضغة مُخَلَّقَة،وغير مُخَلَّقَة وهكذا فهم ينظرون إلى تطور خلقه حتى أصبح خلقاً آخر متكاملاً،ولم يقولوا إنه من أصل حيواني،ولم يبخسوه قدره،ولم ينفوا عنه مزاياه التي تفرَّد بها،وردوا تمييزه ابتداء إلى إرادة الله الصريحة من خلقه هكذا منفرداً ليصبح مُستَخلَفاً في الأرض.

أما نظرية التطور التي قال بها دارون فقد اتخذت سبيلاً إلى القول بالتطور المطلق،وهذا مالا يقره المفهوم الإسلامي الذي يقرر الإطار الثابت للكون وللإنسان ويقرر الحركة من داخل هذا الإطار «الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت» كما تتحرك الكواكب والنجوم. أما التطور المطلق فقد أريد به دفع البشرية إلى غايات خطيرة غير ما أراد لها الدين الحق.

وقد انتهى هذا إلى القول بالتطور في مجال الأخلاق والعقائد وهو ما يجعل من أصول الدين الراسخة مجموعة من المبادئ النسبية التي ليست حقائق مطلقة يمكن أن تتطور وتتطور إلى مالا نهاية وهو ما ليس كذلك.

فالإسلام يقرر أن هناك ما هو ثابت راسخ وهي الأصول العامة،وهناك ما هو بسبيل التغيير والتعديل حسب البيئات والعصور وهو المسائل الفرعية.

سادساً: كان لفتوحات العلم أثرها في الفكر الغربي البعيد المدى، وبلغ هذا الأثر غاية عنفه في مواجهة الدين ورجال الدين والكنيسة وتفسيرات الكتب المقدسة التي لم تكن إلا اجتهادات، كذلك كان للعلم أثره في الفلسفة فإن نظريات العلم طغت على الفكر كله وأثرت فيه، وكانت الفلسفة هي البديل للدين اعتماداً على العقل والنظرة التي وجهت إليه بالتقديس، ثم كانت هناك محاولة سيطرة العلم بمنهجه المادي التجريبي على العلوم الإنسانية، ثم كانت تلك النزعة المادية التي وضعت الطبيعة في موضع الله سبحانه وتعالى وأعطتها كل أسباب الإرادة والقوة والحركة، فاختلف بذلك تماماً من أفق العلم وأبحاثه ونظرياته الصانع الأكبر، والخالق الأول، الذي خلق من العدم ومن غير مادة موجودة، وكان لهذا آثاره العامة على الحضارة والمجتمع والحياة،حين أعلى شأن العلوم المادية مع تقديس العقل وتأليه الطبيعة؛ بينما تراجعت العلوم الإنسانية وكل ما يتصل بالنفس والروح والمعنويات والأديان والأخلاق، وكان هذا من أكبر الأخطار التي واجهت العالم المعاصر؛وسر ما أطلق عليه أزمة الإنسان الحديث، كأن سر ذلك هو العجز عن التوازن بين الفكر والمادة والروح والجسم، واتساع النظرة العلمية والعقلية مع قصور العطاء النفسي والروحي وهو ما عبر عنه كثير من الباحثين بالعجز عن تطوير قلب الإنسانية كما طور عقلها؛ وقد نتج عن ذلك ما تواجهه البشرية الآن من الحيرة والقلق ونزعات الفراغ والضياع.

وقد قال برجسون في هذا: إن جسم البشرية قد تضخم تضخماً خارقاً للعادة فأصبح في حاجة إلى مزيد من العطاء الروحي، ذلك أن الذهن البشري وحده لايستطيع فهم الحياة، وهذا هو ما نريد أن نصل إليه من البحث،أنه إذا كان العلم هو «وسيلة» وأسلوب إلى فهم الحياة فإنه عن طريق أدواته المادية وعن طريق العقل قد عجز عن ذلك تماماً، إذن فهو ليس إلا جزءاً من منهج كبير كما يفهم الإسلام،

هذا المنهج يقوم على أجهزة كثيرة وأدوات متكاملة منها الوحي والدين والعقل والعلم، فهي كلها تتكامل،ولا تتنازع،وتستطيع بالمواءمة أن تقدم للإنسان أسلوباً لفهم الحياة أكثر صدقاً وقوة،لأنها لا تقف عند جانب واحد ولكنها تنظر في كل الجوانب، وتلك هي الصيحة المتعالية الآن في الغرب بعد أن وصل العلم إلى تحطيم الذرة، التي تقول بعجز العلم عن حل المشاكل وأن العلم مهما تقدم فهو محدود،وأن هناك طاقة معطلة في العمل،ورئة معطلة في المجتمع البشري،تلك هي الدين، وكذلك سقطت فكرة الاستقلال المتبادل بين الدين والعلم،فالدين أصل والعلم فرع منه.

وقد تأكد الآن أن العلم سوف يعجز عن القضاء على الدين، بل سوف يؤكد الدين. وإذا كان الدين الحق لا يفسر ظواهر الكون كالعلم فإنه يضع الإطار الأخلاقي للحياة، ويرسم المنهج الذي تقوم عليه العلاقة بين الله والإنسان. والإسلام هو الذي أقام للعلم منهجه ومنطلقه من حرية البحث، وهو الذي وضع العلم في إطار أخلاقية القيم والتقوى الربانية، حتى لايستعلي بنفسه أو يستعلي به طائفة من الناس فيهددوا به البشرية أو يحرموها ثمرته، وحتى لايكون أداة لإبادة الأمم أو إثارة القلق والاضطراب في المجتمعات من توقع خطر الحروب، كذلك حتى لا تكون مقرراته ومعطياته خاصة بقوم دون آخرين؛ ولكن ليكون السلام للبشرية كلها.

(٢٥)
النظرية المادية

النظرية المادية نظرية فلسفية،ترى أن جميع ما في الكون مؤلف من المادة ولا وجود لشيء غير مادي في هذا العالم. ولقد تعددت مذاهب الفلسفة المادية منذ أيام (ديمقريطس) اليوناني الذي قال بأن لا شيء موجود إلا المادة، ثم تجددت في العصر الحديث.

وكل المذاهب المادية ترى أن المادة هي الوجود الأصلي للأشياء،وهي بهذا تعارض حقائق الفطرة،والطبيعة،والعقل،والدين. وهي تعارض عدداً من المذاهب الفلسفية، كالمذهب الروحي في الفلسفة لأنها لاتؤمن بوجود الروح. ومن يؤمن بوجود الروح والعقل من الماديين فإنه يرى أنهما متوالدان من الوجود المادي،أو أنهما صفة طارئة لبعض حالات المادة، كما تعارض النظرية المادية: الفلسفة المثالية التي ترى أنه بالعقل يمكن تفسير سلوك المادة وتفهم حالاتها وأوضاعها. ولكننا لانفهم العقل بالمادة لأنها خالية من الوعي والإدراك. وترى النظرية المادية أنه ليس في العالم الملموس خواص ثابتة،لذلك فلا يمكن وجود مفاهيم ثابتة،ولا قوانين قطعية، ولا تؤمن الفلسفة المادية بالدين،وهي ترى أنه نظام من وضع البشر،ولا تؤمن بحياة أخرى بعد هذه الحياة، وأبرز قواعد النظرية المادية:

١- لا وجود غير المادة وأن قوام العالم عنصر واحد هو المادة.

٢- سيطرة القوانين واضطرابها واستمرارها.

٣- إنكار الغائية.

٤- إنكار الغيب «عالم ماوراء الطبيعة» (الميتافيزيقا).

وقد ظهرت نظرية المادية في إبان عصر العلم وفتوحاته الضخمة، وقد كان منطلقها تحول نظرية دارون من نظرية بيلوجية إلى نظرية اجتماعية عامة حين

تلقفتها الفلسفة، وقد جاء ذلك بعد أن سقطت تفسيرات الدين،وانقسمت الفلسفة إلى مثالية روحية وإلى مادية. ثم سيطر المذهب المادي واستعلى،نتيجة لسيطرة العقليات والحسيات والمبالغة في التصور بأنهما وحدهما عنصراً الوجود. أما الجانب الآخر غير الظاهر فقد صرف النظر عنه نهائياً وإن أطلق عليه اسم ما وراء الطبيعة. غير أن النزعة العلمية التي سيطرت على الكفر كله فرضت العقل والحسية منطلقاً للفكر وتجاهلت ما سواهما،وخاصة كل ما يتصل بالعلم عن طريق الوحي والنبوة ورسالات السماء.

ويعد الفيلسوف ديكارت أول من فصل الروح عن المادة فصلاً بيناً،ومن ثم تراجعت مفاهيم الغيب وما وراء الطبيعة والروح والفكر. ولا ريب أن أصدق ما يقال في هذا أن العلم الحديث نظر في المحسوسات والماديات وقطع شوطاً كبيراً من الانتصارات،فلما تعرض لما وراء المادة عجز بأدواته القاصرة عن تحقيق أي نجاح،ومن ثم أغفل هذا الجانب وحاول تعليله تعليلاً مادياً. ويرد الباحثون غلبة النظرية المادية إلى نتيجة انتصار المادة مما دعا الفلاسفة إلى الإعلان بأنه لايوجد غير المادة، حتى الحياة نفسها اعتبرت صفة من صفات المادة. من معنى هذا إنكار وجود الروح ومعنى إنكار وجود الروح هو إنكار لوجود الله سبحانه وتعالى. وللحقيقة فإن العلماء لم يفعلوا شيئاً من هذا ولم يقرروه،وإنما الذي استحدث هذا وركّز عليه ونشره في كل مكان هم الفلاسفة.

ثانياً: كانت النظرية المادية جزءاً من المعركة التي شنها العلم الحديث ضد المسلّمات الجامدة والتفسيرات التي حاول الدين في الغرب أن يقدمها للحياة وتعارضها مع إرادة الله،ومع اقتحام الحياة،ومع المسئولية الفردية،ولفساد المفهوم الروحي الخالص الذي ينكر الرغبات البشرية ويحاول القضاء عليها،وتلك هي الصورة التي تجمعت للدين في نظر كل أصحاب الدعوات المادية،فقد بدأ الدين وكأنه عقوبة قاسية،أو قيد مرهق،أو مضاد للفطرة البشرية.

وفي مواجهة دعوة عنيفة إلى الروحية الخالصة ممثلة في إنكار حق الحياة وقسر

الرغبات البشرية برزت المادية كرد فعل عنيف طاغٍ ولو أن الفكر الغربي فهم الإسلام حق الفهم لوجده قادراً على العطاء الذي يمكن العلم من أداء دوره دون أن يقع في المحاذير والأخطاء التي ساقه إليها مفهوم غير متكامل. ولا ريب أن من يطالع المذهب المادي على النحو الذي قدمه المتطرفون من أمثال بخنر يجده حرباً عنيفة على تفسيرات الدين، ومعارضة لكل ما قدمته هذه التفسيرات، حتى ليكاد دعاة المذهب المادي أن يذهبوا أساساً إلى معارضة الاجتماع والوضع البشري. ويبدو ذلك ظاهراً من محاولة شبلي شميل حين ترجم مذهب النشوء والارتقاء إلى اللغة العربية بعد الاحتلال البريطاني لمصر، فإنه لم يقف عند عرض المذهب الفلسفي وحده، ولكنه حاول اتخاذه أساساً للمجتمع والأسرة والمدرسة والشريعة والقضاء والسياسة، فاعتبر المذهب المادي ديناً جديداً هو دين البشرية، وعلى العرب والمسلمين أن يحلوه محل عقائدهم، كما فعل الغربيون حين عارضوا رؤساء الأديان فدعا إلى ما أسماه تحرير الإنسان من بواعث التفرق التي غرستها الأديان. وقد كان هذا الاقتباس خاطئاً تماماً فإنما استغل الفلاسفة مذهب دارون في الغرب وحولوه إلى ما أسموه دين البشرية وهو العلم والعقل، لأنهم كانوا على خلاف مع تفسيرات الدين، ولذلك أرادوا التحرر من آثاره الباقية في المجتمع والمدرسة وليس كذلك الإسلام في أفق العالم الإسلامي ولكن هكذا هدفت القوى الاستعمارية أن تفسد الفكر، وتثير الشبهات، وتنقل ماهو واقع في بيئة مختلفة إلى بيئة أخرى ليست لها به صلة مّا.

ولم يكن من المعقول أن يقبل بسهولة ما دعا إليه فلاسفة المادية من الاقتصار على العلوم المادية دون التعاليم الدينية، أو من القول بأن الدين قد أضر بالإنسان والمجتمع، أو أن العلوم الطيبيعية هي أهم العلوم البشرية، فقد كان ذلك كله نقلي غير موفق لما يجري في محيط له ظروفه الخاصة وتحدياته الواقعة مما ليس موجوداً في البيئة العربية الإسلامية بتاتاً، ولا هي في حاجة إليه. وفي هذا يقول العلأمة محمد فريد وجدي: إن الفلسفة المادية لاتستقر إلا حيث يخلو لها الجو من النقد العلمي الصحيح، والرقابة العلمية الدقيقة، لأن أهلها كثيراً ما يعتمدون على

المغالطات والسفسطات فيسوقونها باسم العلم وما هي منه؛ فإذا صادفت نفوساً خلت من حقائق العلم أضلتها، ودفعت بها إلى أقصى حدود التطرف. والمذهب المادي فلسفة لا علم، وفرق كبير بينهما. فالعلم يرود بوسائله مجاهيل هذا الوجود الضخم، ويدون العلاقة الموجودة بين ظواهره منها ويضم الأشباه والنظائر، ثم يبذل وسعه ليجد النواميس العاملة في كل طائفة منها، وهو يحلل المواد ليعرف عناصرها الأولية. أما الفلسفة فهي جهاد من العقل وراء إدراك الحقيقة الكلية للوجود، وقد دخلت منذ نشوئها إلى اليوم في أطوار كثيرة فبعد أن كانت تعتمد على العقل وحده أصبحت اليوم تعتمد عليه وعلى العلم أيضاً، ومن هذا الطريق وصلت الفلسفة إلى ما وصفت نفسها بالطبيعة، وهي التي يعتمد عليها المذهب المادي إلى الحكم بأن الوجود مادة محضة ومحكوم بنظام آلي لايتخلف، وأن ما يسمى عقلاً وروحاً وعواطف إنما هي حالات راقية من المادة، وليس لها وجود خاص يستمده من ينبوع سواها.

ثالثاً: من حيث أن الكون لاتوجد فيه غير المادة فهو قول مردود بالنظرة الفاحصة والتأمل الرصين، فإن العالم الذي يحيط بنا (الطبيعة والمجتمع) يقدم لنا عدداً لانهاية له من الظواهر المتنوعة تنوعاً لانهائياً، والتي يمكن أن تتنوع على وجوه مختلفة. هناك أشباه كثيرة لانستطيع أن نراها وأن نلمسها أو أن نقيسها ولكنها أشياء موجودة مثل أفكارنا وعواطفنا ورغباتنا وذكرياتنا. ونحن نسمي هذه الأشياء فكرية لنعبر بذلك عن كونها غير مادية، وهكذا ينقسم كل ما لدينا في الوجود إلى مجالين: مادي وفكري، والواقع يقدم لنا وجهاً مادياً ووجهاً فكرياً؛ فالعمل قبل أن نبدأ به ليكون عملاً محسوساً فهو فكر، ثم إرادة، كذلك فإن بجانب المادة في جسم الإنسان شيء آخر هو الروح، فإذا خرجت الروح من الجسد لم يصبح هو الإنسان بل أصبح جسداً ميتاً. فالفكر والروح والنفس قوى له حركتها وعملها كالمادة تماماً، ولا يمكن الفصل بين المادة والفكر وبين المادة والروح، وإن فصلت بينهما الفلسفات الغربية، ولا سبيل للقول بسبق المادة على الروح أو المادة على الفكر أو العكس، وإنما هي دورة مستمرة مضطردة. والإسلام لا يضع (المادية) في مقابل

(المثالية) ولا يقف عند غير هذا القطب أو ذلك القطب،ولكنه يجمع بينهما ويزجهما مزجاً دقيقاً متكاملاً، كذلك فليس صحيحاً ما يقال من أن المثالية والمادية يؤلفان تناقضاً أو يتنافيان. فالإنسان مادة وروح، فلا تعارض بين المادية والمثالية ولا تناقض،وليسا هما ضدين لاينفصلان،وليس كل تقدم للمادية تأخر للمثالية أو العكس.

رابعاً: لا سبيل إلى إنكار الحقيقة الأساسية التي تقرر أن للكون غاية مقصودة، هي خيرُ البشرية، كذلك ليس هناك ما يؤكد أن شيئاً في هذا الكون يقع بطريقة عشوائية،وإنما يجري كل شيء فيه وفق تقدير دقيق محكم. وليس من حادث يحدث فيه دون غرض يخدمه سواء كان خفياً أم ظاهراً. وكل ما في عالم الإنسان وما في الكون بأسره يجري وفق تقدير مسبق لايحيد عنه،وكل حدث يجرى بقضاء وقدر لايردان ولا يقهران. فالغائية إنما تعني الحكمة التي ارتآها وقدرها الخالق تبارك وتعالى وأجرى حوادث الكون بمقتضاها؛ فقد أوجد الإنسان لغاية وركب الكون لغاية وليس سبيل عن طريق العلم أو العقل أو الفطرة لقبول ما يقول الماديون من أن الكون جاء عن طريق المصادفة،وأنه لاهدف له،ذلك لأن العلم التجريبي والنظرة المادية لايستطيعان مهما أوتيا من قوة أن يقولا مثل هذا،وهما قاصران على المادة المحسة. وقد تأكد تماماً أن العلم التجريبي ليس من شأنه ولا في طاقته أن يفسر الأهداف والكيفيات،وإنما هو قاصر على فهم الظواهر. فقد يستطيع أن يجيب على «كيف» ولكنه يعجز عن أن يجيب على «لماذا» والإجابة بلماذا سواء في خلق الكون أو خلق الإنسان إنما تقتضي الاعتقاد بوجود قوة خارج هذا الكون خالقة ومدبرة،هي التي رسمت وما زالت ترسم وتخطط مصير الكون والإنسان لحظة بلحظة. أما القول بسيطرة القوانين الطبيعية واضطرادها واستمرارها فهذا قول قاصر، لأن هذه القوانين ليست من صنع نفسها وليست مصادفة،ولو كانت لما جاءت بمثل هذه الدقة وهذا الاستمرار العجيب، ولكنها من صنع الخالق القادر المدبر،وصاحب هذه القوانين وخالقها قادر على خرقها وتعطيلها في أي وقت يشاء،فلا سبيل إلى القول

بجبرية استمرار القوانين. ومعنى استمرار القوانين أن تكون الحياة البشرية معادلة معروفة محسوبة وهذا ما لم يحدث قط. وإن المتابع لسير الحياة والتاريخ وواقع الأمم والكون يعلم أن قدرة الله القادرة غيرت القوانين،وحققت نتائج لم تكن متوقعة من اضطراد القوانين،كما أنها أوقفت نتائج منتظرة. ذلك لأن الله هو خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل،والمسلم يؤمن بأن الله سبحانه بيده الخلق والأمر.

ومعنى هذا فساد القول بالحتمية وباضطراد القوانين والنتائج. ويضرب بعض العلماء مثلاً لفساد ما يعتقده الماديون من أن التطور يجرى بقانون الانتخاب الطبيعي الذي يسعى دائماً إلى بقاء الأصلح؛ فإنهم يعتقدون أن ذلك يجري وفق ضرورات محيطية ومعايشة وليس لها غاية مسبقة وضعت قبل خلق الكون والإنسان. ولا ريب أن النظرة الربانية إلى الطبيعة تكشف عن قوانين مذهلة توحي بأن وضعها في تلك الصورة كان لغاية حكيمة. من ذلك أن الماء هو السائل الوحيد في العالم الذي تكبر كتلته عندما تتجمد أي تقل كثافته بالتجمد، ولهذه الميزة الفريدة أهمية عظيمة في هذا العالم فلو أن الماء تزداد كثافته عند انجماده لرسبت الثلوج في قاع الأنهار والمحيطات،وبقيت هناك بعيدة عن أشعة الشمس فلا تذوب وبهذه الصورة تنقص كمية المياه سنة بعد سنة حين تجمد،وتنقص كمية ما في الأرض من مياه،ولكن كتل الجليد تبقى طافية على سطوح الأنهار والمحيطات فلا تجمد ما تحتها من مياه، كما أن طبقة الثلج التي تنشأ فوق الأنهار والبحار تحمي حيوانات تلك المياه من البرد،ولولاها لماتت تلك الحيوانات من شدة البرد أو صعب عليها الحياة، كذلك لو لم يكن الماء مذيباً لكثير من المواد الغذائية في التربة لما استطاع النبات أن ينمو على وجه الأرض. فهل يمكن القول بأن صفات الماء هذه جاءت مصادفة أم أنها وضعت لغاية مقصودة وحكمة كبرى؟!

خامساً: إن الاعتقاد في المذهب المادي بأن الموت نهاية الحياة هو أخطر المفاهيم التربوية والأخلاقية،وأبعدها أثراً في إفساد الحياة وإخلائها من الغايات العالية

الرشيدة وحسن التصرف، ومدعاة إلى ذلك التكالب للتمتع بالحياة فضلاً عن التنصل من الواجبات أو المسئوليات، فلا وجود للأمانة ولا الإخلاص ولا الرحمة، وهذا من شأنه أن يقضي تماماً على مسئولية الإنسان في الحياة والتزامه فيها. أما المسلم فهو يؤمن بأن هناك بعثاً وحساباً ومسئولية وجزاء للعمل الدنيوي كله، ذلك لأن الإنسان مستخلف في الأرض وعليه التزام وأمانة، وله إرادة حرة هي مصدر مسئوليته وجزائه وأنه مطالب أن يعمل على إقامة المجتمع الرباني العادل الرحيم بكل ما يمكنه من قوة وإرادة وفي حدود عمله وقدرته.

سادساً: إن العلم من خلال تجربته ومعامله ومقاييسه لم يتعرض للقول بمادية الكون ولكنه قال إنه يجهل ما وراء الطبيعة، ولم يتعرض للقول بأن الحياة مصادفة وما كان له أن يقول وهو يرى دقة التركيب والتوقيت، ولكنه قال من واقع معامله وتجربته إنه يجهل الإجابة عن سؤال لماذا؟ ومن أين جاء، وإلى أين يتجه، وتلك حدود العلم. أما الذين حاولوا أن يقتحموا الفراغ الذي توقف عنده العلم بحكم وظيفته المحدودة وأدواته القاصرة، الذين حاولوا أن يقتحوا هذا الفراغ إنما هم الفلاسفة الذين قدسوا العلم والعقل وأصروا على أنه لاتوجد وراءهما وسائل للمعرفة، وعجزوا وأنكروا وسيلة المعرفة الأولى والكبرى التي جاءت منذ عرف الإنسان وجوده على الأرض، وهي وسيلة الوحي والنبوة والرسالة وكُتُب الله ومنهج الله وآياته. فقد قدّم الحق تبارك وتعالى للبشرية منهجاً كاملاً لهذا الجانب الذي يسمى عالم الغيب والذي يطلق عليه اسم الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة، قدمه للإنسان من خلال كتبه ورسله، حتى لايشغل الإنسانُ عقلَه بالبحث عنه. والعقل أعجز من أن يصل إليه دون عون من الوحي الرباني. وحكمة ذلك أن تطمئن النفس الإنسانية لهذه المعرفة عن الغيب فتتجه إلى المعرفة المادية التي وجد العقل فعلاً للعمل فيها، وهي اكتشاف قوانين الطبيعة والمادة والإفادة منهما في بناء الحياة وعمران الكون وأداء رسالة الإنسان المستخلف في الأرض بإذن ربه. ولكن الإنسان الغربي حين أزاح عن نفسه تفسيرات الأديان التي لم تقدم له هذه الحقائق ولم يكلف نفسه أن يبحث عن

الدين الحق، وفيه منهج كامل للميتافيزيقا حاول أن يجتهد، أما العلم فقد توقف عند قدراته وأدواته. أما الفلاسفة فقد اندفعوا ليسدوا الثغرة بالعجز المتمثل في القول بأن كل ما ليس تحت السمع والبصر فهو ليس موجوداً، ومن ثم فلا حكمة لديهم في خلق الكون والإنسان فهي الصدفة العمياء، وإذن فلا غاية ولا بعث ولا هدف من هذه الحياة البشرية على الأرض،فهي إذن لعبة ومن حق الإنسان أن يسارع إلى اقتناص متعها والاندفاع وراء رغباته فيها قبل أن يدركه الموت أو يدركه تفجير الذرة والحرب. ومن هنا كان المذهب المادي فلسفة لا علماً وفرق بينهما كبير.

ولكن العلم في الخمسين سنة الأخيرة دخل طوراً جديداً من التشكك دفع أقطابه إلى أن يضعوا «يقيناته» السابقة في الميزان من جديد وتغيرت لهجة ممثليه فأصبحوا يكثرون من قولهم إن الوجود مشحون بالمجاهيل حتى فيما يدعى أنه قد فرغ من بحثه، وتبين من أقوال العلماء في هذا الصدد أن المذهب العلمي قد أثيرت حوله الشبهات،وأن فتوحات جديدة وصل إليها في مجال المباحث النفسية والروحية، وأن عهداً جديداً بدأ يتمثل فيه حاجة العقل وحاجة الروح على أسلوب علمي محض وقد أعلن أن الأصل الروحاني ضروري لبناء مذهب يحل معضلات الكون، وقد أعلن أن الفلسفة المادية لم تلبث أن أثارت الشكوك حول هذا الانفتاح على عالم الغيب وحولت المباحث الروحية إلى غايات بعيدة الخطر. وكان على العلم أن يبحث مرة أخرى عن آفاق جديدة للفهم الصحيح، وقد جاء ذلك في انشطار الذرة؛ فقد كان الظن إلى عهد قريب أن المادة لاتنقسم إلى ما لانهاية،بل تقف عند حد لايتجزأ وهذا الذي سموه الذرة والجوهر الفرد. ثم أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة فبعض الذرات تنفجر من تلقاء ذاتها مثل ذرات الراديوم واليورانيوم وغيرهما. واتضح أن الذرة تتحلل إلى ثلاثة أجزاء: إلى أشعة وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها في أغراض الحرب والسلم. ومعنى هذا أن أفقاً جديداً قد كشف الله تبارك وتعالى عنه للإنسان ليصل إلى الحقيقة: إن مفهوم المادة القديم قد تغير

وأصبحت المادة طاقة وأصبحت المادة تتحول إلى طاقة والطاقة إلى مادة، وأصبحت المادة والطاقة بمثابة مظهرين لشيء واحد وقال العلماء نتيجة لذلك إن القول بالمادية المطلقة يستتبع القول بأن المادة أزلية أبدية وأنها كاملة غير متطورة وهذا ما يتنافى مع القوانين العلمية؛ كما يستلزم إنكار العقل وهو غير مادي، وأن الحتمية تفرض وجود نظام في المادة هو نفسه دليل على وجود قوانين تحكم حركة المادة التي قيل إنها ثابتة لأنها كاملة. والقوانين عبارة عن علاقات عقلية لاتصنعها المادة لنفسها لأنها غير عاقلة؛ والحتمية تستلزم أن تسير المادة وفق غاية مرسومة، والغاية توضع قبل أن يوجد الشيء الذي يحققها. فالنحّات قبل أن يعمل إزميله في قطعة الحجر يكون قد رسم لنفسه الغاية التي يبتغيها من عمله،فالغاية إذاً سابقة على وجود الشيء،وهي فكرة عقلية تحكم المادة وتوجهها فيه إذن تستلزم «وجود قوة روحية عاقلة».

سابعاً: إن أخطر مرحلة في تاريخ العلم الحديث وهي التي سوف تقرر مصيره لأجيال بعيدة، وتفتح له صفحة جديدة بعد هذه الأعوام الثلاثمائة من صراعه مع الدين هي انفلاق الذرة الذي ألغى نظرية الانفصال بين المادة والطاقة،فأصبح معلوماً أن المادة تصبح طاقة، وأن الطاقة تصبح مادة وعلى هذا فقد دخل عالم الغيب في صميم العلم، هذا العالم الذي ظل العلم المادي وما تزال الفلسفة المادية تنكره بقول للعلأمة هايدن في كتابه المادية: ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة والكترونات سالبة وطغت عليها نظرية (الكوانتوم) التي تقول إن الكهربائية تجيء شحناتها من المجهول (الغيب) وتذهب إلى المجهول (الغيب) ومن هنا لم يستطع المذهب المادي الإجابة على هذا السؤال، وقال هايدن معلقاً: إن الحقيقة التي طفق الإنسان يبحث عنها دهوراً عديدة هي روحانية في وجودها والروح لايدركها العقل. وقد توالت في هذا الطريق أبحاث منها حقائق مغايرة تماماً لما هو سائد في بيئات العلم كأنه من المُسَلّمات؛ والعلماء الآن يكشفون حقائق جديدة ويعلنون أن قوانين (الديناميكا الحرارية) قد أخذت تدلهم

على أن لهذا الكون بداية وأنه إذا كان للكون بداية فلا بد له من «مبدئ» من صفاته العقل والإرادة واللانهاية. فيقول الباحثون: نعم إن هذا الخالق لابد أن يكون من طبيعة تخالف طبيعة المادة التي تتكون منها ذرات تتآلف بدورها في شحنات أو طاقات لا يمكن بحكم العلم أن تكون أبدية أو أزلية. وعلى هذا فلا بد أن يكون هذا الخالق غير مادي، وغير كثيف، ولا بد أن يكون لطيفاً متناهياً في اللطف، خبيراً لا نهاية لخبرته، لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

ويقول هؤلاء العلماء: فإذا كنا نريد أن نصل إليه فسبيلنا إلى ذلك لايكون بحواسنا التي لاتسطيع أن ترى إلا المادية الكثيفة وإذا كنا نريد أن نلمس وجوده فإن ذلك لايمكن أن يتم داخل المعامل أو أنابيب الاختبار أو باستعمال المناظير المقربة أو المكبرة وإنما باستخدام العنصر غير المادي فينا: كالعقل والبصيرة.

إن فروع العلم كافة تثبت أن هناك «نظاماً» مُعْجِزاً يسود هذا الكون: أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، والتي يعمل العلماء جاهدين على كشفها والإحاطة بها. وقد بلغت كشوفنا من الدقة قدراً يمكننا من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرها من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين والسؤال هو: من الذي وضع هذا النظام وسن هذه القوانين وأقام هذه السنن الكونية والثابتة التي لا تتغير ولاتتبدل؟!

يوجه العلماء هذا السؤال ويجيبون عليه: هل نشأ الكون مصادفة؟ إن العلماء يشرحون معنى «المصادفة» ويشيرون إلى استخدام الرياضة وقوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر. لقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرات التي يتكون منها جزيء واحد من الأحماض الأمينية (وهي المادة الأولية التي تدخل في بناء البروتينات واللحوم) فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين وإلى مادة لايتسع لها هذا الكون المترامي الأطراف. هذا لتركيب (جزيء واحد) على ضآلته فما بالك بأجسام الكائنات الحية من نبات وحيوان، وما بالك بما لايحصى من المركبات المعقدة الأخرى، وما بالك بنشأة الحياة وبملكوت السموات

والأرض،وكانت الإجابه هي: أنه يستحيل عقلاً أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء أو الخبطة العشواء.

لابد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير، أحاط بكل شيء علماً،وقدر كل شيء ثم هدى. إن الإنسان لايستطيع أن يدرس أعمال أي صانع من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذي أبدع تلك الأعمال، وكذلك نجد أننا كلما تعمقنا في دراسة أسرار هذا الكون وسكانه ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الأعلى الذي أبدعه.

ويقول العلماء: إن الإرض والسموات بسائر تعقيداتها والحياة في شتى صورها وأخيراً الإنسان بكل قدراته العليا، كل ذلك أشد تعقيداً من أن يتصور الإنسان أنه حدث هذا وبمحض المصادفة!! فلابد إذن من عقل مسيطر ومن إله خالق وراء ذلك. ويؤكد العلماء نظرية الإسلام في أن المعرفة تتم بواسطة العقل والقلب. يقول (روبرت هورتون كاميرون): إن الإنسان يحصل على العلم بطريقتين: البصر والبصيرة، أما البصر فهو ما نتعلمه في حياتنا وما نكتسبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة. أما البصيرة: فهي ذلك النور الذي يفرغه الله في قلوبنا فيكشف لنا ما لا نعلم، وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله، إذ لابد أن يقوم أولاً على البصر وملاحظة ظواهر الحياة: الفكر والانفعالات والتمييز الخلقي وحرية الإرادة ثم نلتجئ بعد ذلك إلى الله لكي يكمل إيماننا ويدعمه.

ويقول العالم الكيمائي: (واين أولت) إن الله كما نعرفه ليس «مادة» أو «طاقة» كما أنه ليس محدداً حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة والعقل المحدود، بل على نقيض ذلك نجد التصديق بوجود الله يقوم على أساس (الإيمان) وهو إيمان يستمد تأييداً علمياً من الدلائل غير المباشرة التي تشير إلى وجود سبب أول، أو إلى «دافع مستمر» منذ القدم. إن الإيمان بالله يعد لازماً لاكتمال وجود الإنسان وتمام فلسفته في الحياة. ولا شك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا

تفسيراً بسيطاً وسليماً واضحاً في النشأة والإبداع والغرض والحكمة، ويساعدنا على تفسير ما يحدث من الظواهر، أما النظريات التي ترمي إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً، فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض «المصادفة» فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة (وجود الله) بقصد إكمال الصورة والبعد بها عن التشويه، ولكن فكرة (وجود الله) أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة المصادفة ولا شك، بل إن ذلك النظام البديع الذي يسود الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط. وعلى ذلك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه أن يسلم تسليماً منطقياً بوجود مبدع لا حدود لعلمه، ولا لقدرته، موجود في كل مكان، يحيط مخلوقاته برعايته، سواء في ذلك الكون المتسع، أو كل ذرة أو جزئية من جزئيات هذا الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة. إن هناك ظواهر عديدة لايمكن تفسيرها أو إدراك معناها إلا إذا سلمنا بوجود الله، ومن ذلك مثلاً (الفراغ اللانهائي) وما يسبح فيه من النجوم والكواكب التي لايحصيها عد ولا حصر.

ومن ذلك أيضاً «قابلية المادة للانقسام إلى جزئيات أساسية بالغة الصغر مهما كانت طبيعتها».

ومن ذلك: «التشابه الذي تشاهده بين جميع الكائنات الحية التي نعرفها مع اتصاف كل فرد بل كل نبات بل كل ورقة من أوراق الأشجار وقطرة من قطرات الماء بصفات تميزها عن غيرها، وهناك أيضاً تلك الهوة العميقة التي تفصل بين الإنسان وبين سائر الكائنات الأرضية الأخرى، وتجعله ممتازاً عليها بعقله ومهارته اليدوية وذلك هو الإيمان البصير الذي يقوم على العقل والتدبر».

ويقول العلماء التجريبيون القادمون من داخل المعامل وأنابيب الاختبار: إن الإله الذي نسلم بوجوده لاينتمي إلى عالم الماديات، ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه. وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة، لابد لنا أن نسلم أن هذا الكون

المادي الذي يخضع لقيود الزمان والمكان ليس إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة الكبرى التي ينطوي عليها هذا الوجود.

وإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها فلا بد أن يكون الخلق قديماً بقدرة كائن غير مادي. وعلى ذلك فالنتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل لابد أن يكون هذا الخالق عليماً حكيماً قادراً على كل شيء،حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره، ولا بد أن يكون هذا الخلاق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان» هذه الآراء التي يقدمها العالمان روبرت موريس برج وجون كليفلان كوثران لانثبتها هنا لنؤكد حقيقة غائبة، ولكن لكي نفهم كيف يتطور العلم اليوم فيصل إلى الحقائق الأصيلة التي جاء بها الإسلام من عند الله،وليؤكد أن النظرية المادية التي تحاول اليوم أن تنشر سمومها في كل مكان لاصلة لها بالعلم، ولكنها فلسفة وهي أيضاً نظرية وليست حقيقة علمية.

يقول (إدوار لوثركيل) وهو من كبار الباحثين الكيماويين: «إن العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزلياً، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة،ولايمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة، فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية.

ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون.

ولما كانت الحياة لاتزال قائمة،ولا تزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير في طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لايمكن أن يكون (أزلياً) وإلا استهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود. هكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله،لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه،ولا بد له من مبدئ أو محرك أول أو من خالق وهو

الله تبارك وتعالى.

والواقع أن هذا الكون لايزال في عملية «انتشار» مستمر تبدأ من مركز نشأته. واليوم لابد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة الخلق أيضاً وهي فكرة تستشرف على سنن الطبيعة، لأن هذه السنن إنما هي ثمرة الخلق ولا بد لهم أن يسلموا بفكرة الخالق الذي وضع قوانين هذا الكون، لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة، وليس من المعقول أن يكون هناك خلق دون خالق، هو الله، ما إن أوجد الله مادة هذا الكون والقوانين التي يخضع لها حتى سخرها جميعاً لاستمرار عملية الخلق عن طريق التطور: التطور المادي.

ويقول كريستي موريسون مؤلف كتاب العلم والإيمان ورئيس أكاديمية العلوم في نيويورك:

إن العلماء لايقدرون أن ينفوا وجود الله، فكل واحد منهم في قرارة نفسه يشعر بقوة الإحساس أو الفكر أو الذاكرة، والآراء التي تصدر كلها عن ذلك الكيان الذي نسميه بالروح، وهم جميعاً يعلمون أن الإلهام لا يأتي من المادة وليس للعلم حق في أن تكون له الكلمة الأخيرة بشأن وجود الخالق.

إن كون الإنسان في كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم، يدل على أن الدين فطري فيه ويجب أن يقر العلم بذلك.

ويتساءل موريسون: ما هو الكائن الحي؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ويجيب: نعم، وماذا أيضاً عن شيء غير ملموس أعلى كثيراً من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء ومختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم لدرجة أنه لايمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه. إن روح الإنسان هي سيد مصيره، ولكنها تشعر بالمصدر الأعلى لوجودها، وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لايملكه أي حيوان آخر ولا يحتاج إليه. ويضعنا موريسون

أمام الحقيقة كاملة حين يقول: إن تحطيم ذرة (التون) التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وألكترونات طائرة قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة تبديلاً جوهرياً، ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي، وأن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع المجال للاعتراف بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة. إن وجود الخالق تدل عليه منظمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة. إن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون وإن العقل لايمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يهتدي إليه إلا إذا صحبه في تلك الغاية قلب».

ولا ريب أن هذه الحقائق العلمية تدحض شبهات االفلسفة المادية الإلحادية.

(٢٦)

نظرية التطور

بين الدين والعلم والعقل

نشأت فكرة التطور في مجال العلوم البيولوجية أساساً، ولكنها سرعان ما نقلت إلى مجال الفلسفة وأريد بها السيطرة في مجال الفكر والثقافة، وقد جاء ذلك نتيجة للخطوات التي اتخذها خلفاء (دارون) من أمثال هربرت سبنسر الذي حاول أن يطبق التطور على الأمور الإنسانية والأخلاق والتاريخ، وقد جاءت قوى ذات أهداف معينة فركزت على فكرة التصور وأعلتها إعلاءً خطيراً دفعها إلى التأثير في مجال العقائد الثابتة مع أفرادها بالسلطان على كل القيم والمقدرات الأخلاقية والاجتماعية وكان ذلك جرياً مع الاتجاه المادي الخالص الذي حاول أن يتنكر لكل ما سوى الحس والمادة من قيم. ومعنى هذا أن نظرية قد وضعت بحيث يمكن استخدامها في معارضة الأديان والعقائد والشرائع. ومن الحق أن فكرة التطور (المادي والمعنوي) لايمكن أن تسير في غير نطاق واضح وإطار محدود وفلك معلوم، وأن هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التطور عشوائياً في غير نظام أو قانون يحكمها. ومن هنا يبدو الفارق العميق بين رأي العلم وبين رأي الفلسفة ويتكشف الفارق بين الاتجاه العلمي وبين أهواء القوى التي تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق أغراض بعيدة المدى.

والمفهوم العلمي الصحيح هو أن هناك قيماً ثابتة وعناصر تجري عليها سنة الحركة والتغير والتطور، وأن هناك تناسقاً يجري بين أسس الثبات وعناصر التطور، وأن هذا التناسق يجري في دائرة الثبات. وهذا المفهوم العلمي نفسه يطابق مفهوم الإسلام في نظرية التطور والثبات فالإسلام يؤمن بثبات الأصول العامة والقيم العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع.

أولاً: وبالرغم من استشراء فلسفة التطور الاجتماعي التي دعا إليها سبنسر فإن العلم كانت له وجهة نظر مختلفة تماماً حيث يقول: الدكتور كريس موريسون: إن حقائق الأشياء ثابتة لاتتغير،وإنما التطور هو في الصور والهيئات لا في الحقائق، لأن الحقائق ثابتة لاتتغير،وأن القول بأن لاشيء ثابت على الإطلاق نظرية زائفة، فنزعة الطعام ثابتة والذي يتغير هو صور الطعام، ونزعة اتخاذ المسكن ثابتة والذي يتغير هو صور السكن، ونزعة اللباس ثابتة والذي يتغير هو صور اللباس، وكذلك فإن نزعة القتال والصراع فطرة بشرية وصور القتال هي التي تتغير. ويتفق هذا مع وجهة نظر الإسلام الذي أعطى مبادئ عامة وترك الحركة والتغيير إلى الفروع والتفاصيل،إيماناً بأن هناك قيماً أساسية لاسبيل إلى تطورها والخروج عنها وهي بمثابة العمق للبناء. وقد كشفت الدراسات الأصيلة أن التطور لا يمكن أن يكون قانوناً أخلاقياً وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه كما يقول سبنسر، بل إن التطور قانون اجتماعي واقعي ولا يقتضي بتفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة؛ ذلك أن فكرة التطور الاجتماعي أخذت من فكرة التطور الحيوي (البيولوجي) والتطور في الحياة يكون تحسناً وارتقاءاً وقد يكون انقراضاً، كذلك كشفت الأبحاث خطأ الرأي القائل بأن التطور والتقدم هو الاستجابة لنزعات النفس في السلوك بالحركة في أي اتجاه دون رعاية لاستقامة الحركة وبدون حاجة إلى إرادة وإيمان، وهذا يؤدي إلى العودة إلى العصور الأولى بما فيها من تحلل؛ كذلك خطأ الرأي القائل بأن التقدم هو إهدار الأحكام السابقة وتقديرات الأشياء التي قررها وحكم بها الإنسان في عصر مضى، فقد انتقل الفكر البشري من الطفولة إلى الرشد الإنساني.

ثانياً: يستمد الفكر الإسلامي مفهومه للتطور والثبات من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعاً، وليس هناك سبيل إلى إلغاء أحدهما ولا سبيل إلى القول بالتطور المطلق وإنكار قاعدة الثبات، ولا بد من الربط بين الثبات والتطور وقيام التوازن بينهما وأنه من المستحيل عقلاً. ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن

يتوقف أحدهما أو أن ينفصل، ولا أن يستعلي أحدهما ويسيطر، فالثبات والاستقرار هو الجمود، والتطور المستمر هو الفناء. وهناك ترابط منظم بين الجمود والحركة وبين القديم والجديد،وبين الميت والحي، فالحياة ناجمة من موت والجديد منبثق من قديم، والفكر بعامة يتطور ولكنه يظل ثابت الأصول والمقومات. والفكر الإسلامي ثابت الجوهر متغير الصورة، وفي الفقه يجري التطور بالنسبة للأحكام الفرعية دون الأصول. وفي الشريعة أصول قائمة لاتخضع لقوانين التطور كالصلاة والزكاة وإلخ، وحدود ثابتة إزاء الربا والزنا والقتل فهذه من القوى الثابتة التي لاتتأثر بالتطور والتغيير ولا يمكن القضاء عليها. وكذلك في نظام الكون نجد القوى الثابتة ونجد القوى التي تتحول وتتحرك. أما الأصول الثابتة فهي ليست خاضعة للتطور، هذا هو مفهوم الإسلام ومفهوم العلم متطابق معه. أما المفهوم المطروح في أسواق الفكر الغربي والذي وصل صداه إلى الفكر الإسلامي فهو مفهوم فلسفي خطير لم يقم على أساس علمي وقد أخذ منطلقه من نظرية دارون في التطور البيولوجي،ثم نقل إلى ميدان الاجتماعي والفكر، ولا شك أنه بهذه النقلة إنما يستهدف غاية خطيرة هي واحدة من أهداف الفلسفة المادية الوثنية التي تحاول أن تسيطر على الفكر البشري كله وتفرغه من مفاهيم الإيمان والأديان والرسالات السماوية، وتدفع به بعيداً إلى نهاية خطرة نجدها واضحة وضوحاً لا مرية فيه في بروتوكولات صهيون أو نصوص التلمود أو متصلاً بالمحاورات التي جرت منذ عصر التنوير في سبيل إخراج الفكر الغربي المسيحي الأصل من كل القيم ودفعه إلى مجال الماديات المغرقة. وتشكل هذه المحاولة فلسفة واضحة متكاملة،تهدف إلى تدمير قوى الأديان والأخلاق والإيمان بالله ودفع الإنسانية كلها إلى الدمار بتحطيم قيمها ومعنوياتها وتفريغها من كل القوى التي تحملها على التماسك في وجه الغاية الصهيونية البعيدة المدى، وهي المسيطرة على العالم. ولقد كانت نظرية التطور هي المنطلق الخطير للقول بأن كل شيء يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله، وأنه يبدأ في أول الأمر ضعيفاً ثم ينمو. ثم جرت محاولات تطبيق ذلك على الأديان والأخلاق ومنها انطلقت النظرية التي تقول بأن الأخلاق تتطور مع العصور وأن الأديان

تتطور مع البيئات. والقول بهذا مخالف كل مخالفة للحقائق العلمية الصحيحة ومعارض لنواميس الكون والحياة.

ولقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو خروجاً به عن المجال العلمي الصارم إلى المجال الفلسفي الذي لايخضع لأي سند علمي أو عقلي، ومن مذهب التطور انطلقت كل المذاهب والدعوات والفلسفات المادية،فقد اعتبره المتشبثون به قاعدة لعلوم جديدة هي مقارنات الأديان وتفسير التاريخ والنفس والأخلاق والاقتصاد والاجتماع. ومن هنا أخذت هذه العلوم تخضع للمناهج التي تخضع لها العلوم المادية بينما تناقض هذا مع أبسط قواعد المنطق والعقل. ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيلاً إلى نزع القداسة عن الأديان والقوانين والقيم والأخلاق والسخرية منها،والدعوة إلى التحلل والإباحية وإنكار مقومات المجتمعات والعقائد على النحو الذي كشفت عنه نظريات فرويد ودور كايم وغيرهما. ولقد هوجمت نظرية التطور المطلق في المحيط الاجتماعي والفكري هجوماً علمياً ودحضت بمنطق عقلي واضح،ولكن أصوات دعاتها المسرفين في استغلالها ظلت أعلى الأصوات لأنها لم تكن أصواتاً طبيعية وإنما هي أصوات تدفعها قوى بالغة القدرة في مجال النشر والإعلان،ولقد جرى كثيرمن الكتاب وراء بريق نظرية التطور وربما بحسن نية دون أن يتبين لهم أبعاد الخطر من القول بالتطور على إطلاقه بعيداً عن مفهوم الإسلام الجامع دائماً بين التطور والثبات؛ وهو جمع يقوم على أساس علمي صحيح، ذلك أنه من السذاجة النظر إلى التطور بعيداً عن القيم الثابتة وبمعزل عن الأصول الأساسية لفكرنا ومقدراتنا. والدعوة المسمومة إلى التطور، إنما تحاول أن تقضي على التراث القديم ومنها العقائد والأديان والأخلاق. وقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير، وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له.

فالتطور يشمل أي تغير يحدث في أوضاع الجماعة سواء في اتجاه تقدمي تصاعدي أو اتجاه عكسي تنازلي، ثم هو فوق ذلك ينبئ عن أن دوافع هذا التغيير

وعوامله إنما يكون منشؤها ذات الشيء ومردها إلى ما فيه من طاقات طبيعية. أما التطوير فهو عكس ذلك يختص أولاً بالتغيير التصاعدي الذي يهدف دائماً إلى طلب الكمال والحياة الأفضل،ويتأثر بدوافع خارجة عن طبيعته. والقوة الخارجية هي العيادات الإصلاحية والدعوات التقدمية. وهذا يعني المواءمة بين الأصول التي يقوم عليها الفكر من تشريعات وقيم وبين ما يتجدد تحت إلحاح من عوامل التطوير الضروري في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن هنا يسقط القول بأن التطور يمثل قانوناً تقدمياً أي أن كل طور أفضل من الطور الذي سبقه.

ومن ناحية أخرى فقد واجه الفكر الإسلامي الأخطاء التي انطوت عليها نظرية التطور التي ارتبطت أساساً بالمفهوم المادي الذي استخلصه الفلاسفة من نظرية دارون، والذي قام على أساس إنكار وجود الخالق،والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية من غير منشئ. والفكر الإسلامي يثبت الخلق لله لا للطبيعة،ويقرر وقوع البعث في الآخرة مع الإيمان الكامل بالغيب. وقد ظهر الآن في مجال العلم ما ينقض هذه الفروض الفلسفية فيقول الدكتور كورلس موريسون: إن نظرية أن الإنسان قرد قد كذبها العلم الحديث،لما بين النوعين من بعد شاسع. ففي الإنسان خواص لاتوجد في القرد منها: قدرته على التفكير ووجود الوحدات الجماعية في القبيلة والأمة، والحزب والدين، ومنها خواص بيولوجية. وقال أجاسير: إن النشوء لايتم إلا وفقاً لخطة إلهية محكمة،وأن الاصطفاء الطبيعي إذا ما حل محل الخلق الإلهي فإن الإنسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء، كذلك فإن التفسير الحرفي لنظرية دارون قد أفسح المجال لتأليه سوبرمان نيتشه وتمجيد القوى البدنية على أنها السلوك الصحيح بين الناس. ويقرر العلم الآن في وضوح، «بأن الفكرة التي يعتنقها الدارونيون (عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض مع الآراء الفسيولوجية الرصينة) وأن الإجماع بين العلماء - لا الفلاسفة - على أن الحياة لم تحدث مصادفة وأنها حدثت بقوة الله وإرادته. وهكذا ينكشف زيف النظرية وما ساقها إليه الماديون وعلى رأسهم لامارك وهيكل الذي دعا إلى

تأليه الطبيعة،ومن ثمَّ إنتقلت إلى مجال الاجتماع والفكر على يد (هربرت سبنسر) الذي حاول تطبيق نظرية التطور على العوالم والمجتمعات ونقلها من نظرية إحيائية إلى نظرية اجتماعية.

ولقد أكد الفكر الإسلامي أن التطور الذي دعت إليه المذاهب الفلسفية المادية إنما أريد به إطلاق الحريات الاجتماعية والفكرية على النحو الذي يصل بالبشرية مرة أخرى إلى الإلحاد والإباحية،وأن هذا ليس متقبلاً في الفكر الإسلامي وأن هذا النحو إنما قام في الغرب في مجتمع خلا من منهج رباني اجتماعي حيث كان الدين عقيدة عبادية فحسب.

ومما يتصل بنظرية التطور.فقد كشفت الأبحاث عن استغلال رجال السياسة لها فضلاً عن علماء الاجتماع،فقد كان لمبدأ (تنازع البقاء وبقاء الأصلح) أثره في الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها، فقد ظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصري والشعوب المختارة، كما نشأت نظرية القوة عند نيتشه، ولقد اتخذت مبرراً للغزو الاستعماري واستعلاء اللون والدعوة إلى الجنس الأبيض صانع الحضارة والاستقراطية التي أعلنت امتيازها بميراث الأجداد، كذلك تلقفها معلنو الحرب على الأديان فاتخذوها سبيلاً إلى الانتقاص من قدر الدين وإعلاء شأن العلم.

(٢)

إن الخلاف بين العلم والدين هي قضية غربية خاصة بالأوربيين وموقفهم من الكنيسة وتفسيرات الدين وقد نقلت هذه القضية إلى أفق الفكر الإسلامي نقلاً باطلاً وزائفاً، وموقف الإسلام من العلم معروف فليس في تاريخ الإسلام أو الفكر الإسلامي ما يشير إلى أن هناك مناهضة بين العلم والدين وقعت، أو أن الدين ناهض العلم. إن علماء الغرب قد وجدوا في كتبهم المقدسة ما يتعارض مع كشوف العلم فاختلفوا، أما القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس فليس فيه ما يخالف أو يختلف أو يتعارض مع رأي من أراء العلم والعلماء بل على العكس من ذلك أن

كثيراً من المفاهيم العلمية الثابتة لها مدلول في القرآن، والدين بمفهوم العقائد له مجاله وأسلوبه في المعرفة،والعلم بمفهوم الكشف عن الطبيعة له مجاله وأسلوبه، ولكن الإسلام يجمعهما معاً في كل متكامل دون تعارض حيث يقرر الإسلام في منهج المعرفة:أنه يربط بين أسلوب العقل وأسلوب القلب.

والإسلام هو الذي دعا إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الذهني وفي أحضانه تكامل معنى الدين والعلم، فالإسلام كما يقرر المثل الأعلى لقواعد الإيمان يقرر المثل الأعلى لقواعد العمل، ويربط بين العلم والعمل، ويقرر طلب البرهان والدليل،ولا يقرر المفاهيم والأفكار بمعزل عن العمل والتطبيق،وإنما يرى المفاهيم والأفكار مقدمات دافعة لبناء حياة كاملة، وفي رأي كثير من علماء الدين والفكر الإسلاميين أن العلم والدين اليوم يتكاملان، فالعلم اليوم أصبح يسلم بوجود ما ليس قائماً أمام الحس، فقد ذهب عصر البديهيات وتغير واقع القواعد العلمية وأصبح عصرنا عصر يقين واعتقاد بالقوى الخفية وينتظر أن يخطو العلم خطوات واسعة نحو الدين الحق، ويقرر الدكتور محمد خليل عبد الخالق أن الأساس الذي قامت عليه المذاهب العلمية في القرن التاسع عشر قد انهار وأصبح العلماء الآن إذا تكلموا عن الكون وعن الإنسانية وعن الحياة يتفوهون بعبارات صوفية: إن العلم ليس كل شيء في الوجود،وأن الدين وسيلة للسمو بالإنسانية إلى مرتبة أرفع، ويقول الدكتور علي توفيق شوشه: لقد اتسع نطاق التحقيق العلمي اليوم وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر،وأن الكون ليس حقيقة في ذاته بل هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة.

وفي الغرب يرى الباحثون أن النزاع في القديم - كما يقرر (اميل بوترو) لم يكن بين العلم والدين وإنما بين الفلسفة والدين ويقول (برجسون): إن فصل الدين عن العلم هو فناء محتوم للإثنين معاً، إن الإنسان لايستطيع بعد الآن الارتفاع فوق الأرض ما لم يستند إلى خالق جبار، إن جوهر الأساس هو تحرير الإنسان من كابوس المادة: هذا التحرر من المادة يحتاج إلى دين.

ويقول بوترو: يرى المفكرون الغربيون اليوم أن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية،ويقررون عجز العلم عن حل المشاكل،وأن العلم مهما تقدم فهو محدود، وبذلك لابد من الرجوع إلى ما يسد الفراغ على طريق الدين.

(٣)

ومن أهم القضايا التي يثيرها العلم والفلسفة: قضية العقل وفي الفكر الغربي صراع بين التجريب والعقل،وبين العقليين والتجريبيين، وفي العالم فلسفات تقوم على الوجدان والحدس والعاطفة وحدها في مقابل الدعوة إلى العقلانية،ولكن الإسلام يحسم الموقف كله حين يقرر أن له منهجاً جامعاً بين العقل والقلب وبين الروح والمادة، وأنه لاسبيل إلى إعلاء العقل وإفراده بالنظر ولا إلى إعلاء الوجدان وحده.

لقد اعتمد منهج العقلانية على العلم وعلى المحسوس وعلى الماديات وعلى كل ما يدخل في بوتقة المعامل، وأغضى إغضاءً تاماً عن عالم الغيب (الميتافيزيقا) وما وراء الطبيعة وكل ما يتصل بها من وحي ونبوة وعوالم كاملة تكمل العلم المحسوس والمعقول، وبذلك تجاهل الفكر الغربي جانباً كبيراً من المعرفة الحقيقية لاسبيل إلى فهم الحياة فهماً صحيحاً دون الاعتراف بها وتقديرها كبعد أساسي في المعرفة والاعتقاد والفهم، فالفكر الإسلامي يقوم - دون الفكر الغربي المادي ودون الفكر الشرقي الإشراقي الحدثي على كمال النظرة وشمولها وجماعها،فالفكر عنده أداة من أدوات المعرفة لها مجالها وميدانها وطريقها الذي استطاعت أن تنطلق منه وفي حدود هذه المقدرة استطاع أن يقدم الكثير، غير أن هناك ميادين عجز عن اقتحامها،ومناطق اكتشف أن قدرته لاتؤهله لاختراقها،وقضايا وجد أنه قاصر عن الحكم فيها، هذا الجانب هو عالم الغيب الذي صوره الحق تبارك وتعالي في القرآن وأمدنا بحقيقته عن طريق الوحي وأمرنا أن نؤمن به، هذا الجانب الذي يقبله العقل ولكنه لايستطيع وحده أن يصل إلى الحكم فيه لأن أداته غير مؤهلة لهذا الغرض، فالعقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء في جميع

المعضلات، والعقل في مفهوم الإسلام مناط التكليف وهو نور في القلب ومهمته أن يعرف الحق من الباطل،والخير من الشر،والحسن من القبيح في ضوء الوحي وليس خارجاً عنه، ومن هنا كان خطر الدعوة المثارة إلى تقديس العقل وتأليه العقل وإعلاء العقل واعتباره سبيلاً وحيداً في البحث أو مصدراً للحكم على الأشياء، وهذه واحدة من الدعاوى التي يحمل لواءها الماديون ويهدفون بها إلى هدم عالم كامل هو عالم الغيب أو مما وراء الطبيعة.

أما في الإسلام:فإن هناك ترابطاً بين العقل والوحي أو العقل والنقل أو العقل والقلب، فالعقل وحده لم يستطع أن يصل بالذين اعتمدوا عليه إلى معرفة كل الحقيقة وأدى إلى انحرافهم وفساد رأيهم، لأنه جزء من حقيقة كاملة لاتكتمل إلا بأمور أخرى، وكذلك أخطأ الذين نحوا العقل وتجاهلوه والتمسوا المعرفة الباطنة عن طريق الإشراق أو الحدس أو الوجدان وحده، ومن هنا جاء اكتمال النظرية الإسلامية للمعرفة جامعة بين العقل والقلب، جامعة بين عالمين: هما عالم الشهادة وعالم الغيب.

ولا شك أن للعقل مجاله في ميدان العلوم والتجريب وآفاق الكيمياء والتكنولوجيا وغيرها.

ولقد كان له دوره الضخم الذي استطاع به المسلمون بناء المنهج التجريبي حين تخطوا المرحلة النظرية التي وقفت عندها دراسات ما قبل الإسلام،وقد كانت نظرية المعرفة ا لإسلامية الجامعة بين العقل والقلب مصدر النصر الذي حققه المسلمون حين وصلوا إلى قاعدة لم يسبقهم إليها سابق وهي قاعدة (جرب وحكم) في مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء.

ومن هنا سار العقل والقلب في الفكر الإسلامي في إطار واحد، دون أن يقع بينهما ذلك الصدام الذي عرفه الفكر الغربي ودون أن تتمزق الجبهة الواحدة المتكاملة إلى محورين منفصلين متصارعين على النحو الذي نراه في الفكر الغربي بين العلم والدين.

ولقد أكد العلماء المسلمون القاعدة التي وضعها النبي ﷺ حين قال: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه» فكان ذلك دعوة إلى التمحيص والإقناع وهي التي وصلت بالمسلمين إلى إجراء التجربة.

وقد أقام المسلمون تجاربهم العقلية والعلمية تحت راية الوحي وفي ظلال مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والقلب والروح والمادة، ومن هنا كان منطق المسلمين في الترابط بين العلم والدين واضحاً، فالأصل في العلم: العقل ورائده التجربة الحسية ومن ثم فالعلم يمتد إلى مجال واسع، ويحقق فيه انتصارات ضخمة ولكنه يقصر عن إدراك سائر حقائق الكون وخاصة عالم الغيب، والعلم في مفهوم الإسلام يأمر أهله أن لايعادوا ما يجهلون من الحقائق وأنهم في جانب الغيب لهم منهجهم في الإيمان به عن طريق القلب المصدق في الوحي والعقل شاهد ومقرر، والإسلام صديق للعلم بما تضمنه القرآن من نصوص تحض على طلب العلم وتمرس به وليس للعلم الصحيح أن ينكر الدين فيحكم على شيء ليس في مفهوم بحثه ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته التجريبية والحسية، وما كان للعلم أن يخرج عن وظيفته وهي البحث والاستطلاع والملاحظة للظواهر الطبيعية ولا يقول بالنفي أو الإثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر، وكل ما يقرره علماء المعامل يؤكد عجز العلم وبالتالي العقل عن أن يكون قادراً على الإحاطة الكاملة أو الفهم المستقل للكون والحياة يقول العلامة كرلسون: إن العلم لايعطينا في مجموعه إلا معارف مبهمة للغاية وذلك من جهة العلل الخفية التي لاتتعلق بها تجاربه.

وقد قرر العلماء في شبه رأي موحد أن العلم يعجز عن أن يفسر ظواهر الأشياء أو يعللها ولكنه يصفها ويقررها، فمهمة العلم في تقديرها قاصره على وصف الظواهر وتقريرها لاتعليلها، وقد كانوا في أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها، ومن ثم رجعوا في تواضع إلى إقرار الحقيقة فالعلم عندهم لايفسر شيئاً وإنما يربط ويتسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالي يصف ويقرر، ويرى أن هذا

ليس فهماً للأشياء ولكنه تعرف عليها، ويقرر العلماء الآن أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر، وعلاقاتهم، التي يمكن باستخدام المشاهدة والتجربة، اكتشاف قوانينها،والعلم يعترف الآن بأن العقل البشري لايستطيع أن يدرك شيئاً إلا عن طريق الحواس، ولذلك فكل ما يقع وراء دائرة الحس والعقل لايستطيع العلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئاً،وقد تقرر أيضاً أن حقائق العلم ليست مطلقة ولا أبدية. وإنما هي حقائق نسبية والبحث العلمي في صراع لاينتهي بين الإنسان والطبيعة، فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها،وما زال العلماء يتساءلون هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة، ومعنى هذا أن العلم رغم تقدمه لم يستطع أن يحل المشاكل الكبرى المتمثلة في أصل الكون ونهايته وطبيعته المادية ومنشأ الحياة وخلود الروح، ومعنى هذا أن العقل جهاز له مقدرته المحدودة وطاقته التي تقف على أبواب عالم الغيب، وهذا قرار العلماء المعمليين الحاسم الواضح، فلماذا إذن يسرف الفلاسفة في حمل لواء المادية والوثنية ولماذا لايقرون بالحقيقة الدينية ويصرون على أن العقل هو الواسطة الوحيدة للمعرفة الإنسانية. الحق أن هؤلاء الذي يحملون هذه الدعوة ليسوا بعلماء وما يقولونه ليس علماً وإنما هو فلسفة تدخل في نطاق واضح، هو نطاق المادية التي حددت موقفها مسبقاً من الله والنبوة والرسالات السماوية والعالم الآخر والتي لاسبيل إلى أن تقتنع بها.

ثالثاً: تبين فساد ما حاول بعض دعاة العقلانية من الاعتماد عليه مما وصف بأنه حديث للنبي عن العقل وإقباله وإدباره وأنه أول ما خلق الله وهو حديث قال بوضعه الإمامين ابن تيمية والسيوطي، وضعف رواياته كثيرون من الحفاظ في طليعتهم الحافظ الذهبي، وتكمن خطورته في الصيغة الروائية التي تشيع فيه مصورة العقل بصورة مادية كذلك زيف المفهوم الإسلامي الأصيل كل ما أشار إليه الفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا وغيره مما يسمى بالعقول العشرة وغيرها مقلدين للفكر اليوناني وغارقين في أخطائه،وقد عالج هذا الموضوع بروح إسلامية خالصة كثيرون منهم

الحارث المحاسبي صاحب كتاب فهم القرآن، وقال الحارث: إن العقل غريزة أو نور ووافقه الإمام أحمد وهو ما يقرره العلم الحديث، وقد أشار علماء المسلمين إلى أن القوة المدركة في الإنسان يطلق عليها تارة عقلاً وتارة روحاً وثالثة نفساً ورابعة قلباً، ويرى الإمام الغزالي أن العقل يحتاج إلى معونة خارجية إذا ما انتابته آفة الشك ولتنبيهه وإرشاده في الأمور الإلهية التي لايمكنه الإطلاع بها إلا بالوحي والإلهام. وفي الغرب أثار كانت في كتابه نقد العقل المحض: إلى أنه لا يوجد لدى الإنسان من حيث الأساس قوة قادرة تدفعه عن دائرة ما يلفظه عقله الضعيف من التفكير، وأن الشعوب التي ناقضت الأديان المنزلة كانت لاتخرج في تفكيرها عن التخيلات التي تبتدعها عقول المفكرين فيها من العقائد الباطلة،والإلحاد،والانحطاط الخلقي، وقال برجسون في مواجهة مذهب دارون وسبنسر: إن العقل يستحيل عليه أن يبلغ الحق،وإن البصيرة هي الطريق المأمون، وإن العقل ليس أداة صالحة لإدراك حقيقة الكون،لأن نهاية مجهوده أن يقف عند ظواهر الأشياء وهو يجزئ الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءاً مع أن الوجود في حقيقته وحدة موصولة الأطراف، وأن الوسيلة التي تدرك بها الشاة ما يتهددها من خطر الذئب أقرب جداً إلى اليقين من كل ما عسى أن يصل إليه العقل بعد الدراسة والتحليل، وقال برتراند رسل: إن التعارض بين أحكام العقل وأحكام الغريزة وهم وليس له وجود،وأن كليهما ضروري لوصول الإنسان إلى الحقائق فالبصيرة تخلق الرأي والعقل يرعاه.

وفي الغرب عندما بدأ التمرد على العقل تحول الاتجاه إلى الغريزة وعبادة القوة، فثار على العقل (فخث وكارايل ونيتشه وشمبرلين وبرجسون) وكانت دعوتهم إلى طلب القوة والقسوة لا الرحمة، وهكذا تأرجح الفكر الغربي بين عقل صارم وبين غريزة مستعلية، أما في الإسلام فالتوازن قائم ودقيق، بحيث لايجنح الفكر إلى التطرف هذه الناحية أو تلك وإنما يسير في نطاق التكامل، والتوسط، والفهم لكل الأبعاد.

(٤)

يتساءل الدكتور كارل في كتابه تجديد الإنسان: هل يستطيع العلم أن ينقذ الحضارة ويقول: إن من أخطر الأخطار أن معالمناغير وافية، فنحن نعلم كثيراً عن الشموس والمجرات ولكنا عاجزون عن الملاءمة بين نفوسنا وبين العالم الميكانيكي الذي خلقناه، ولذلك يتعذر أن نعيش في سلام وفي رغد، لقد فرقت الحضارة منذ اليوم الأول بين المادة والروح واعتمدت على المادة فقد،فرق جاليليو بين خواص الأجسام الأولية كالأبعاد والوزن وهما مما يسهل قياسه والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهما مما لايقاس. فرق جاليليو بين الكم والنوع، وعنى بالأول وحضر أتباع جاليليو همهم في (الكم) وأهملوا (النوع) وحماستهم في سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء، هذا الخطأ يحب إصلاحه قبل أن يتمكن العالم من إنقاذ الحضارة ،لأن في الإنسان شيئاً أكبر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها.

ومن أخطاء (ديكارت): أنه فصل الأشياء المادية عن الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا مما لايمكن تفسيره، وغدا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرهم أشد ثبوتاً من الفكر والنشوة والحزن والجمال هذا الخطأ حوّل الحضارة إلى الطريق الذي أفضت إلى انتصار للعلم وانحطاط الإنسان، وعلى منقذي العالم اليوم أن يتوفروا على دراسة الإنسان من ناحيتيه: الكمية والنوعية معاً، وعليهم في المقام الأول أن يدرسوا العقل الإنساني (ذلك المجهول العظيم) الذي شرع علماء النفس يرودونه بأساليبه المختلفة. إن تقدم العلم في كل ما وصل له بالغذاء والرياضة البدنية والصحة وشفاء الأمراض والوقاية منها، كل هذا قد تم على حساب النمو العقلى، وهذا هو التفسير المعقول لما نراه في حضارتنا ونحن مع ما تلقيناه من ارتقاء في جميع النواحي لانزال عاجزين عن فض وجوه الخلاف دون الالتجاء إلى الحرب ويمضى الباحثون في الغرب يضعون العلم في الميزان «لقد تقدم العلم تقدماً نتج عنه انقلاب خطير في الأوضاع، ولكن لقد استغل العلماء العلم بعيداً

عن قوى الروح والقلب فأعلوا من شأن العقل والعلم إعلاءً كبيراً وحكموا العقل في القلب كما حكموا العلم في الدين فنتجت عن ذلك أخطار، لقد استأسدت الغرائز وأسرفت المطامع فإذا (آلة العلم) تتجه نحو التدمير والتخريب والفتك والتقتيل حتى أصبحت القوة مقياس تقدم الأمة وعظمتها، ولو تدخل القلب واتجهت آلة العلم نحو البناء والإثمار لسمت المدنية وارتفع شأن الإنسانية. إن الأمم لاتصلح بالعلم بقدر ما تصلح بالقلب والأخلاق،وإن التقدم الذي وصل إليه الإنسان لم ينج الإنسانية من الأهوال، لقد زاد تقدم العلم المشاكل تعقيداً كما سلب العالم راحة البال وطمأنينة النفس، ذلك لأن حكمة الإنسان قد قصرت عن إعلاء الرغبات والنوازع غير حاسبة للخالق تعالى حساباً، والذي يخشاه الباحثون أن الحكمه البشرية إذا أفلست في النهوض بعبء إدماج العلم في أغراض الروح والخلق استمرت هذه القوى في اتجاهها نحو التدمير، وهددت بزوال ما بقي من معالم الحضارة، الصيحة الآن أن العلم وحده لايكفي،فقد طغت الماديات على المعنويات وعلى العلم أن يقوم على عناصر روحية ومعنوية تعلي شأن المثل الأعلي والأخلاق، إن العلم قد وضع في أيدينا قوة عظيمة إذا لم نحطها بسياج من الخلق والروح والقلب تحولت إلى قوة هدامة مدمرة.

هذه هي أزمة العلم: يقول ول ديورانت: أين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أنشتين وميكوفسكي وغيرهما الكون رأساً على عقب، وبمذهب النسبية غير المفهوم، وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة في الميتافيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع مما أصاب علومنا، وهل فقدت فجأة قداستها ومافيها من حقائق أزلية.

أيمكن أن تكون قوانين الطبعية غير فروض إنسانية، هذه الحقيقة الناصعة التي يجهلها الكثيرون، وهي أن القواعد العلمية الحديثة ليست سوى فروض قام الإنسان بوضعها لتفسير الغوامض التي تحيط به من كل جانب وقد يكون نصيبها النجاح أو الفشل، وإذا أصابها النجاح فإلى أي مدى وزمن مقدر».

ويذهب جماعة العلماء إلى أن العلم في تغير مستمر، وقد سقطت نظرية ثبوت العلم أو كمال العلم، وأن كل ماجمع العلم من حقائق إنما هي وسيلة إلى أن تثبت حقائق أخرى،فالتغير لا الثبوت هو الطابع الذي يتميز به العلم وهذا يعنى أن العلم القلق المتغير هل يمكن أن يكون قاعدة ثابتة لفهم الحياة أو منهجاً وحيداً لفهمها؟ هذه هي القضية الكبرى التي تواجه العلماء الآن.

لقد عجز العلم عن إعطاء إجابة شافية عن السؤال: لماذا نوجد على ظهر الأرض، والذين يؤمنون بالعلم لايصلون إلى شيء، ويقول ليونارد دارون: إن العلم لايمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك وإذا كانت هناك إرادة حرة فلا بد أن يكون هناك شيء خارج نطاق العلم، لقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة أن العلوم الطبيعية لاتستطيع أن تدرك كنه الدين في مجالاته الروحية والاجتماعية؛لأن العلوم الطبيعية مادية لاتستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس، وفي نظام الكون وفي طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لاتخضع للمحسوس، ومن هنا خطأ إخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية أو محاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة في علم الفيزيقا. كذلك فإننا نحن المسلمين نؤمن بأن حقائق الأشياء ثابتة منذ القدم، أما العلم بها واكتشافها فهو ما يقوم به العلم التجريبي الآن، وأن شرط المنهج العلمي هو الخروج من الذاتية والأهواء، وأن عجز العلم الآن عن حل المشاكل يعني أن لابد من قوة في المعرفة أخرى أكبر وأوسع وأعمق قادرة على ذلك وتلك هي الوحي والدين الحق، وأن الذي يحجب الحقائق عن البشرية الآن ويردها إلى الإلحاد والشك ليس هو العلم،ولكنها هي الفلسفة المادية، وأن خطوات العلم القائمة الآن كلها تتجه إلى تزييف الدعاوي الباطلة التي ظلت المادية تروجها عشرات السنين،والاعتراف بالطريق الصحيح ووضع العلم في حجمه الطبيعي بالنسبة إلى الوحي ودين الله الحق،فالأصل في الدين هو الوحي ورائده التفكير بنور العقل،وقد جاء الإسلام مخاطباً العقل، والأصل في العلم العقل ورائده

التجربة والعلم يقصر مداه عن إدراك سائر الحقائق الكونية وخاصة عالم الغيب ويأمر أهله بأن لا يعادوا ما يجهلون من الحقائق، والإسلام صديق العلم بما فيه من نصوص تبعث على طلب العلم والتمرس به وما كان العلم الصحيح أن ينكر الدين فيحكم على شيء ليس من مفهوم بحثه، ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته التجريبية الحسية،وما كان العلم أن يخرج عن وظيفته وهي مجرد الاستقراء والملاحظة للظواهر الطبيعية ولا يقول بالنفي والإثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر، والدين والعلم لايتناقضان وإن كانا متغايرين؛فأسلوب العلم في بحثه موضوعي تجريبي أما الوحي فإنه حقائق ثابتة.

(٢٧)

الفسلفة

في محيط الإسلام

يعني مفهوم الفلسفة: الوصول عن طريق العقل إلى فهم المجهول والإجابة على الأسئلة التي يعجز العلم التجريبي عن بحثها والفصل فيها، وقد كانت الفلسفة بمثابة الأسلوب البشري في مواجهة الأديان المنزلة من السماء، ذلك أن الأديان قد عملت منذ لحظة وجود الإنسان على الأرض على أن تقدم له مفهوماً كاملاً عن خلقه ومهمته وعن العالم الغائب عن نظره سواء عالم ما وراء الطبيعة أو ما بعد الموت وانتهاء الحياة على هذه الكون، غير أن العقل البشري في مراحل كثيرة من الحياة أجرى هذه المحاولات الفلسفية للوصول وحده إلى معرفة ما وراء الطبعية وما بعد الموت، وكانت أبرز هذه المحاولات ما عرف بالفلسفة الغنوصية في الشرق والفلسفة الهيلنية في الغرب، وترك تفسيرات الأديان في نظريات الفلسفة واختلطت اختلاطاً عجيباً، وقد قال القرآن الكلمة الأخيرة في هذا الحصاد وكشف عن الحقائق الأساسية التي يحتاج إليها العقل البشري وأهمها: التوحيد والأخلاق والعدل والرحمة، كما قدم صورة كاملة واسعة عميقة لعالم ما وراء الغيب كله فيما يتصل بالموت والدنيا والآخرة والبعث يوم القيامة والجزاء بالجنة والنار، وبذلك كفى العقل البشري والنفس الإنسانية حاجته إلى فهم هذا المدخل الحقيقي لحياته وعمله وتكليفه ومسئوليته في هذه الحياة وجزائه فيما بعدها، كما قدم القرآن براهين ساطعة وأدلة دامغة تدحض كل النظريات الفلسفية والتفسيرات الدينية الزائفة والمضطربة سواء بالنسبة إلى المجوسية أو عبادة الكواكب أو عبادة الفرعونية أو ما يتصل بمفاهيم الوثنية والتعدد، وكشف زيفها، وأبان فسادها، وقدم المفهوم الصحيح السليم وهو: التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى خالق كل شيء.

ولقد كانت الفلسفة فيما نقل إلى اللغة العربية من آثار اليونان والهنود والفرس تشمل العلوم الطبعية والعلوم الرياضية وما يسمى فلسفة الإلهيات، وهذه الأخيرة هي التي حدث الخلاف بشأنها بين الإسلام وبين الفلسفات الهلينية والغنوصية على السواء، لأنها عجزت تماماً عن أن تصل إلى تحديد الصلات بين الله سبحانه وتعالى وبين الكون والبشر على نحو صحيح، ففي موضوع الألوهية عجزت الفلسفة عن فهم التوحيد فهماً صحيحاً. فكان هناك القول بالتعدد في الفلسفة الشرقية، والقول بأن الله سبحانه (لايحيط علماً بالجزئيات) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً في الفلسفة الهلينيه، كذلك عجزت الفلسفة عن أن تفهم أن العالم مخلوق لله فقالت بقدم العالم وعجزت عن تحديد العلاقة بين الله سبحانه وبين العالم فقالت بوحدة الوجود وأن الله سبحانه حال في الكون، وهذا كله يعارض فكرة التوحيد الأساسية التي جاءت بها الأديان، كذلك عجزت عن فهم الغيب فقالت بالدهرية وأنكرت بعث الأجسام، وقالت الفلسفة بحتمية ارتباط السبب بالمسبب وجهلت قدرة الله على خرق الأسباب، وعندما نقلت الفلسفات الشرقية والغربية إلى أفق الفكر الإسلامي جرت المحاولات في إذابتها في مفهوم الإسلام، ولكن هذه المحاولات عجزت نتيجة للفساد الجذري في مفاهيمها ، ومن هنا كانت ردود الفعل الإسلامية على ما خالفت فيه الفلسفة مفهوم التوحيد، كذلك اختلف مفكرو الإسلام وعلماؤه وفقهاؤه مع الفلسفة في مسائل كثيرة، وأهمها مسائل الأخلاق فأنكروا مذهب أبيقور، وأنكروا الأديان الوضعية التي تقوم على الآداب الأخلاقية وحدها منفصلة عن عقيدة التوحيد كالبوذية، وأنكروا مفهوم الفناء الذي جاءت به الفلسفات الهندية ، ومفهوم النسك الذي يعتزل الحياة، وأنكروا التناسخ والحلول والاتحاد ومشاعية الملك والنساء والأموال، وأنكروا إعلاء العقل وإفراده بالنظر، كما أنكروا إفراد الحدس والوجدان بالنظر أيضاً، وعارضوا المثل الأعلى اليوناني الذي يقوم على الجمال والعرى والإباحية وعبادة قوة الأجسام وتأليه الأبطال وأنكروا اللاإرادية والشك الهدام.

٢- إن الفكر الإسلامي بطبيعته الخاصة القادرة على الالتقاء بالفكر البشري

كانت قادرة على استيعاب كل ما ترجم إليها من فلسفات وعلوم الأمم السابقة، وكان قد اتصل علماء الكلام بالفلسفة اليونانية وهم يواجهون أصحاب الأديان الأخرى في مجال الجدل والحجاج، فلما ترجمت نظريات الفلسفة اليونانية وقف الفكر الإسلامي أمامها موقفين: الأول في محاولة لاحتواء الجوانب الصالحة منها في الفكر الإسلامي وإدارتها في دائرة التوحيد، وقد كلفت هذه المحاولة القائمين بها رهقاً، ولم تحقق هدفها، نظراً لأن ما نقل من الترجمات اليونانية لم يكن سليماً، ولم يكن القائمون به أمناء في النقل، بل داخلتهم فكرة الدعوة لدينهم فحرفوا النصوص فضلاً عن توجيه نسبة بعض المصادر إلى غير أصحابها، ثم جاء الموقف الآخر مباشرة وهو شجب الفلسفة اليونانية ونقدها والتماس مفهوم إسلامي للفكر يبدأ من منهج الإمام الشافعي في علم أصول الفقه ويمتد بعد ذلك في كتابات الأشعري وابن حزم والغزالي وابن تيمية، حيث قام منهج أهل السنة والجماعة الذي يستمد مفهومه من القرآن نفسه، ويتمثل فيه تكامل المفاهيم والقيم على النحو الذي يقرره الإسلام استمداداً من منهج المعرفة الإسلامي الجامع بين العقل والقلب، لقد تشكل الفكر الإسلامي على أساس التوحيد، والالتزام الأخلاقي، والإيمان بالبعث والجزاء، ولذلك كان من العسير عليه أن ينصهر في الفلسفة اليونانية القائمة على الوثنية والمجتمع العبودي وإعلاء العقل وعبادة الجسد، ومن هنا فقد قامت المعارضة وتمت واتسع نطاقها حتى أصبحت تمثل ضمير الفكر الإسلامي كله، وانعزل دعاة الترجمة والتفسير عاجزين عن التماس الحجج لتأييد منهجهم، ومن هنا فإن ذلك القول الذي يردده المستشرقون من تأثر الفكر الإسلامي بالفكر الهليني أو تبعيته له هو قول زائف بحكم طبيعة الإسلام نفسه وبواقع التاريخ، وأبرز ما يرد شبهة (عطاء) الفكر اليوناني للفكر الإسلامي: أن مفاهيم الإسلام كانت قد تكاملت بتكامل القرآن، وتمت قبل اختيار الرسول ﷺ للرفيق الأعلى، وأن العلوم الإسلامية كلها كانت قد شكلت مناهجها الأساسية من تفسير وحديث وفقه ولغة وتاريخ قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية في القرن الثالث، فقد كان علماء المسلمين قد كونوا العلوم وأصلوها وأقاموا منهاجها، وكان الإسلام قد وضع أول منهج عالمي في البحث لتحقيق الحديث

والسنة، ومن جماع المعاناة لعلوم القرآن والحديث نشأ علم إسلامي أصيل هو «علم أصول الفقه» وهو في نظر الباحثين المنطلق الحقيقي للفلسفة الإسلامية،وليست آراء أرسطو وأفلاطون التي تمثلت في محاولات الفارابي وإبن سينا. هذه المحاولات وصفت بأنها خطوات على طريق الفلسفة اليونانية نفسها وإن كان قد أطلق عليها من بعد اسم الفلسفة الإسلامية، وقال عنها أرنست رينان: إنها فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية،وقد حاول الكثيرون تبريرها بأنها محاولة لتزويد العالم بنظرية تامة عن وحدة الكون ترضى الذهن كما ترضي الدين،ولذلك كان هدفهم إقامة عناصر اللقاء بين الفلسفة والدين أو بين الحكمة والشريعة،وقد تبين فشل المحاولة واستمساك المسلمين بمنهج القرآن الذي هو أصفى المناهج في إقامة الحجة على دين الله،ولا ريب أن فشل المحاولة يرجع إلى أسباب كثيرة أهمها:

أولاً: وضوح المنهج القرآني وضوحاً لايحتاج معه إلى أسلوب آخر فلسفي، فهو يخاطب الإنسان من خلال عقله ووجدانه،ويتخذ من صورة الطبعية وعبرة التاريخ ونوازع الإحساس سبلاً ومداخل إلى النفس والعقل تعجز الفلسفة عن تحقيقها.

ثانياً: اختلاف الوجهة في المجتمعين الإسلامي واليوناني وقيام كل منهما علي أسس مغايرة لأسس الآخر، فأحدهما وثني يقول بتعدد الآلهة والآخر ديني موحد، وأحدهما:يقوم على العبودية والرق وسيطرة الطبقة الحاكمة وعبادة القيصر والآخر يقوم على الإخاء الإنساني، كذلك فإن الفكر اليوناني يقوم على القيـاس والمنطق بينما يقوم الفكر الإسلامي على التجريب،ويجمع بين النظرة العقلية والممارسة العملية.

ثالثاً: كانت مترجمات الفلسفة اليونانية شرحاً مشوها لمذاهب أرسطو وأفلاطون والأفلاطونيين المحدثين، فضلاً عن نسبة بعض كتب أفلاطون لأرسطو أو العكس مع اختلاف نظريتيهما اختلافاً جذرياً وقد كان لهذا أثره العميق في المحاذير التي تعرض لها الفارابي حين اعتمد على هذه الكتب المنحولة في الجمع بين آراء أفلاطون وأرسطو.

رابعاً: إن مجرد النظر في نظريتي أرسطو وأفلاطون يكشف عن عمق الخلاف بينها وبين منطلق الفكر الإسلامي، فأفلاطون يجرد الفرد من قيمته الفردية، ليجعل منه أداة مسخرة لخدمة الدولة، ويصهر كيانه في جهازها الضخم ويدعو (أن لا يخص أحد نفسه بامرأة معينة بل يجب أن يكون جميع النساء حقاً مشاعاً للحكام لايستأثرون بأمرأة دون أخرى استئثاراً يجعل منهم أرباب أسر، ويجب ألا يعرف ولد والده ولا والد ولده حتى لايبذل جهد في غير صالح الدولة ولا تتكون عواطف وميول خارج مصلحة الدولة) ويقرر أفلاطون في الجمهورية، أن في القمة الحكام وفي السفح العبيد.

أما أرسطو فيقرر: أن السادة لايجوز استرقاقهم لأنهم جمعوا بين الروح العالية والشجاعة التي ينفرد بها أهل الشجاعة، أما العبيد فلا يجوز لهم أن يكونوا سادة وهم يقومون بالأعمال المنافية للمواطنين الإغريق الأحرار، وعنده أن على الأعلى في الدرجة أن يسيطر على الأدنى، كما أن على الأدنى أن يخضع للأعلى ويطيعه، وأن الحر حر رغم ما ينزل به من عسف، والعبد عبد رغم ما يحققه من نصر، ويقرر أرسطو وجود الرق والاستعباد ويضع أخلاقيات للسادة من الناس وحدهم.

أما ليكرغوس مشرع اسبرطه فقد قضى بقتل الأطفال الضعاف البنية.

أما سقراط فقد عرف عنه مذهبه الإباحي في الأخلاق الذي طبع الفكر اليوناني كله: يقول مؤرخوه: إنه كان رجلاً دميماً ولم يكن رجلاً بالمعنى الحقيقي، وقد استولى الشذوذ الجنسي على الحضارة الإغريقية كلها مئات السنين، ولم يكن يستنكره أحد واستطاع سقراط بذكاء وخبث أن يفرض احتقار الجسد الإنساني سواء جسد الرجل أم جسد المرأة، واحتقار كل ما هو حسي، ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هي حس فقط، وجنس فقط، فقد استبعدها من دنيا الحياة العقلية، ورأي أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان، ووراء سقراط وتحت تأثيره الهائل سارت الفلسفة والآداب الغربية أيضاً إلى يومنا هذا، في نفس الوقت الذي تمجد الفلسفة اليونانية وتؤله الجمال الجسدي في الرجل.

خامساً: احتقر اليونان التجربة والتجريب وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان،ولقد لفظه المسلمون،وكان ذلك إعلاناً صادراً عن روح الحضارة الإسلامية وروح القرآن، ونزعة القرآن هي النزعة العملية التي تنأى عن البحث في الشيء ذاته.

٣- ونتيجة لهذا الاختلاف والتعارض أنكر الإسلام: رأي أرسطو في الله، ذلك لأن أرسطو جرد الإله من كل شيء،فهو عنده المحرك الذي لايتحرك،وأنه مفارق للعالم لايعنى به ولا يعلم عنه شيئاً، أما في الإسلام فالله خالق كل شيء، وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ويعلم كل شيء، كذلك رفض الإسلام قول أرسطو أن الله لايعلم الجزئيات ولقد سجل القرآن دحض هذه الشبهة حين قال ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ كذلك أنكر علماء الإسلام الصراع الذي قام به أفلاطون بين الجسم والنفس،وأحلوا بدلاً منه المفهوم الأصيل في التكامل والانسجام بين النفس والجسم.

ولقد كان من أبرز وجوه التعارض بين الفكر الإسلامي والفلسفة اليونانية هو ما قرره الإسلام من قصور العقل الإنساني - وحده - عن التوصل إلى فهم الماهية والكنه والشيء في ذاته،وقد حدد القرآن موقفنا من مسائل ما بعد الطبيعة وطلب إلينا عدم الخوض فيها ودعانا إلى أن نترك بحث (الجوهر) الذي لانستطيع أن نصل إلى حقيقته عن طريق العقل وحده وأن نبحث (الخصائص) وأن لانبحث مطلقاً في الماهية،وهذا ما رسمه كلام الرسول ﷺ حين قال: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله».

ومن هنا نجد أن الفارق العميق بين مفهوم الإسلام لوحدة الله وفاعليته، وبين مفهوم الفلسفة اليونانية،فالله في الإسلام خالق كل شيء، وأنه خلق كل شيء من لاشيء، وأوجد العالم من العدم،وأعلن بدأ الزمان وأعلن نهايته،وبذلك هدم مفهوم الفلسفة اليونانية في القول بقدم المادة وعدم فنائها.

ولقد كان ما قرره القرآن أكثر قبولاً في العقل وأقرب إلى الفطرة فالله سبحانه

هو خالق الأرض والماء والجبال، وجعل ذلك كله مسرحاً للإنسان المستخلف في الأرض، خلقه من تراب، ونفخ فيه الروح، وعلمه الأسماء، ودفعه إلى السعي في الأرض، ووضعه موضع المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي.

(٢)

تساءل العلماء المسلمون هل جاء القرآن المسلمين بفلسفة؟ يقول العلامة محمد فريد وجدي: نعم جاءهم بفلسفة تبرز في سموها أرقى فلسفة وأطلق عليها هذه الكلمة من اللغة العربية وهي (الحكمة) وقد نوه بها القرآن في آيات كثيرة والرسول يقول: الحكمة ضالة المؤمن، أني وجدها فهو أحق الناس بها. وتقوم الحكمة القرآنية على عشرة أصول:

الأول: أن الإنسان لم يحصل من العلم إلا قليلاً.

الثاني: يجب على الإنسان أن يتعلم لمصلحته المادية ومصلحته الروحية.

الثالث: العلم لا يحصل إلا بالنظر في الوجود والموجودات لا بالظنون والأوهام ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم ﴾ ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ .

الرابع: إقامة سلطان العقل واللجوء إلى حكمه في كل خلاف والبعد عن الأهواء والجنوح إلى الأباطيل:

﴿ أفلا تعقلون ﴾ ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ .

الخامس: الاعتماد في تحقيق المسائل إلى تقرير العلم المحض لا الأوهام ولا المقررات الموروثة: ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ .

السادس: عدم متابعة الخيالات فيما ليس وراءه علم يسنده: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ .

السابع: وجوب التثبت في العلم وعدم الأخذ بدون دليل: ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

الثامن: تحريم التقليد للآباء في العلم والتعصب لآرائهم.

التاسع: عدم الجمود على المعلومات المخترعة وضرورة سماع كل رأي والأخذ به إن كان حقاً: ﴿ فبشر عباد الذين يستمون القول فيتبعون أحسنه ﴾ .

العاشر: وجوب الحذر من الظنون والأوهام فإنهما كانا السبب في تضليل الناس وإفساد نفوسهم في جميع الأجيال: ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ .

ولقد كان من آثار الحكمة القرآنية في عقلية المسلمين كراهية أئمتهم أن تعتبر آراؤهم قضايا مسلمة لدى تلاميذهم،فنهوهم عن الأخذ بها بدون نقد ولا تمحيص وهذه الحكمة القرآنية هي التي دفعتهم إلى معارضة الفلسفة اليونانية، لأنها دعتهم إلى عدم الخوض في (الظنيات) حتى فيما يتعلق بفهم القرآن، وقد توقف المسملون عن الأخذ بالفلسفة اليونانية عملاً بأصول حكمتهم،فالفلسفة اليونانية لها ناحيتان: ناحية علمية طبيعية وناحية نظرية افتراضية، والأولى أخذ بها المسلمون عنهم وأوسعوها بحثاً وتمحيصاً. أما الناحية النظرية الفكرية التي اعتمد فيها اليونان على الآراء والظنون فقد أهملها المسلمون،عملاً بالحكمة المنزلة في أن لايجروا وراء ما ليس لهم به علم،ولا يمكن تحقيقه بدليل ملموس، ولو لم يتنكب المسلمون الفلسفة اليونانية من طريقهم لما بلغوا المكانة التي وصلوا إليها ولا نحرف دينهم الفطري عن صراطه كما انحرفت الأديان التي سبقته وخلاصة القول: إن الحكمة القرآنية تأبى قبول أية فلسفة تستند على مجرد الظنون،فهي تشترط للأخذ بها أن تكون قائمة على علم:

﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ .

﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ .

(٣)

ومن هنا كان موقف الإمام الغزالي والحملة المثارة عليه بأنه أغلق باب الفلسفة وبذلك جمّد الانطلاق الفكري والثقافي عند العرب، تلك عبارة الذين يتهمونه والواقع أن هذا خطأ في الفهم وتجاوز في القول،فإن الإمام الغزالي قد رد الفكر الإسلامي إلى منهج القرآن، وحال بينه وبين الانحراف نحو ما ليس بعلم وما هو بظن لايمكن تحقيقه بدليل ملموس، والغزالي لم يفعل إلا ما يمليه عليه إيمانه بعقيدته وفكره وأصالة دعوة التوحيد التي لايستطيع الفكر الإسلامي أن يتحرك إلا من داخلها، وكيف يراد للفكر الإسلامي أن يتقبل الفلسفة الإلهية اليونانية التي هي علم الأصنام عند اليونان والقائمة على الوثنية وتعدد الآلهة من ناحية العقيدة وعلى العبودية من ناحية الاجتماع، ثم لايدفع الغزالي هذا الخطر الذي يتعارض تعارضاً تاماً مع قيم الإسلام ومفاهيمه. لقد كانت البشرية قبل الإسلام قد شكلت فلسفة استمدتها من أخلاط الفلسفات القديمة، هندية وفارسية ويونانية، ومجوسية وثنائية وغنوصية، خلاصة أحقاد،وعصارة أهواء،ونزوات غرائز وشهوات نفوس، ثم جاء الإسلام يسحق كل هذا الركام الضال المضل،ويكشف عواره ويزيف دعوته،ويدعو البشرية إلى الحق والتوحيد، ثم جاءت الترجمة من بعد،وكانت مقصورة على ترجمة الطبيعيات والرياضيات فانحرفت في عصر المأمون إلى ترجمة الفلسفة الإلهية، فهل يمكن أن يطلق على هذا الركام إنه فلسفة عقلية، لقد حاولت الفلسفة وهي تعمل منذ أربعة قرون قبل الميلاد لتفسير الوجود، فما أعجزها حتى الآن أن تقول الكلمة التي تشفى الصدور،وتملأ القلوب بالأمن والسكينة، لقد تضاربت كلمتها وضاعت وجهة سفينتها في البحار المظلمة، أما المسلم فإنه في غنى عن هذه الدوامات وقد أغناه القرآن حين كشف أمامه كل المناهج وأضاء أمامه كل السبل بعيداً عن الشك القاتل والقلق البالغ.

إن الإسلام أراد أن يكشف للبشرية هذه الصفحة: صفحة ما وراء الغيب كاملة،

حتى لايشغل بها الإنسان ويشغل بما هو أهم منها، ثقة بأنه لن يستطيع عن طريق ما لديه من أدوات وهي العقل أو النظر أو السمع أن يصل إلى ذلك المجهول، والعقل وحده أداة عظيمة ولكنها قاصرة، وقوة كبيرة ولكنها ذات وظيفة محدودة، فهي إذا تجاوزت نور الوحي عجزت وضلت.

ولقد جاء الغزالي ليقول للمسلمين هذا حين كشف عن خطر الفلسفة الإلهية في نفس الوقت الذي لم ينكر فيه الجوانب الأخرى (الطبيعة والرياضة) التي أقرها، وليس هناك تيار لاهوتي انتصر على تيار فلسفى عقلي وإنما هو قانون الفكر الإسلامي الذي لايتخلف،والذي لم يتخلف بالأمس ولن يتخلف اليوم وغداً، إنه لايقبل إلا ما يتفق مع طبيعته ثم يرد كل ما يلقى عليه من سوى ذلك، وهو يقف اليوم موقف الغزالي تماماً من الفلسفة الحديثة التي تطرح عليه نظرياتها،وسوف يعجز هذا الركام البشري الوثني المادي من أن ينال من جوهر الإسلام الأصيل،وإن الإمام الغزالي لم يخالف الفلاسفة إلا في المسائل التي تتعارض تعارضاً جوهرياً مع أصول الإسلام والقرآن والتوحيد وفي مقدمتها قولهم بقدم العالم وأن الله (سبحانه) لايحيط بالجزئيات وإنكار بعث الأحياء، ولقد دحض الغزالي رأيهم في هذا وبين فساده، وكشف عن زيف ما يدعيه الدهرية والزنادقة الذين قالوا بأن النفس لاتعود بعد أن تموت،وأنكروا ثواب الآخرة وعقابها،وكشف عن خطأ الطبيعيين الذين قالوا بقدم العالم وبأنه لم يزل موجوداً.

كما أكد الغزالي إرادة الله العليا التي هي أكبر من ارتباط الأسباب بالمسببات، وهو الذي قال إن الأمور تتم بإرادة الله لا بالأسباب الظاهرة،ومن ذلك حصول المعجزات،وأن الله سبحانه هو خالق القوانين والسنن وهو وحده القادر على خرقها وتعطيلها عن العمل.

(٢)

لم يكن الإمام الغزالي وحده هو الذي وقف في وجه الفلسفة اليونانية،وإنما كان أبرز رجال هذه المدرسة الضخمة، ذلك أن المسلمين كانوا يعون تماماً قول القرآن الكريم

﴿ لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ فما أن طرحت مفاهيم المنطق اليوناني المترجمة في أفق الفكر الإسلامي حتى توجه المفكرون المسلمون لها بالنظر وعرضوها على كتاب الله،ثم تبين أن الكثرة الغالية لم تقبل المنطق الأرسطاليسي كل من وجهة نظره الخاصة ثم وضع كل فريق من هؤلاء المفكرين عناصر منطقية مبتكرة،وفي مقدمة هؤلاء الأصوليون (علماء أصول الفقه وعلماء أصول الدين) أما علماء أصول الفقه فعلل أكبر ممثليهم وهو الشافعي السبب الحقيقي لنقد المسلمين لمنطق أرسطو بأن هذا المنطق يقوم على خصائص اللغة اليونانية ولغة اليونان مخالفة للغة المسلمين، وآية ذلك أنه عندما طبق المنطق اليوناني على الأبحاث الإسلامية أدى هذا التطبيق إلى متناقضات عدة، أما علماء أصول الدين المتكلمون فقالوا: إن العلة في عدم قبولهم للمنطق الأرسطاليسي أنهم لم يقبلوا الميتافيزيقا الأرسطاليسية (أي نظرة أرسطو في عالم الغيب) لأنها مخالفة للإلهيات عند المسلمين، وهذا المنطق روح يقوم على المنهج القياسي لأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفي والفكري حيث لم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكاناً في هذا المنهج وهي إحدى ركائز الإسلام الكبرى.

وبواسطة منهج الإسلام الاستقرائي نستطيع أن نفسر عداوة الإسلام للفلسفة،لأنه إذا كان الإسلام يتطلب المنهج الاستقرائي التجريبي،وينكر أشد الإنكار المنهج البرهاني القياسي، استطعنا أن نفسر بسهولة عدم نجاح الفلسفة وهي القائمة على هذا المنهج في الإسلام،واعتبار ما يدعونهم (فلاسفة الإسلام) أو الشراح الأرسطاليسيين كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم مجرد امتداد للروح الهلينية في العالم الإسلامي.

وهنا يكمن السر في خروج الغرب على منهج أرسطو ومهاجمته في أول عصر النهضة، فهو خروج من المنهج التأملي إلى المنهج التجريبي،وإذا كان الفلاسفة الغربيون قد هاجموا أرسطو لهذا فقد هاجمه المسلمون قبلهم بألف عام،وهذا هو السر أيضاً في الدعوة الملحة التي كان يقودها طه حسين ولطفى السيد ولا يزال يقودها

دعاة التغريب من ربط الفكر الإسلامي بأرسطو بينما الفكر الإسلامي هو الذي عارض منطق أرسطويس أساساً وشجبه،ورأي أنه غير صالح للحضارة الإسلامية، أما الآن فيراد إعادة ربطه به هذا الربط الذي يرد المسلمين إلى منهج الوثنية اليونانية ويخرجهم ليس من الإسلام وحده بل من منطلق الحضارة العصرية التي قامت على التجريب الإسلامي،وهنا نصل إلى الإمام ابن تيمية أكبر المعارضين للفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو في كتابه الرد على المنطقيين،حيث رفض أن يسلم بمنطق اليونان باعتباره ممثلاً لمنهج ثقافتهم ورأي أن الفكر الإسلامي له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة فاستخرج منهما المنطق الجديد الذي سماه المنطق الإسلامي هذا المنطق الذي كان فيه غنى للمسلمين عن المنطق اليواني والعقلية الغربية في الحكم على الأشياء وفي الاستبصار والتأمل الفلسفى، كما رد على المنطقيين الذين استحكمت في عقولهم آثار الفكر اليوناني وطوابعه وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوي ومنطقهما،وقد كان لما استخلصه ابن تيمية للمنطق الإسلامي من القرآن الكريم ما أغنى في قضايا الفكر والحكم الصحيح عن المنطق اليوناني وعن أقيسته وأساليبه ومسمياته وتطبيقاته،ومن ذلك قوله (إن ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية فقد جاء القرآن بما فيهامن الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه متنزه عن الأغاليط الموجودة عند هؤلاء..

ويرى الباحثون المحدثون أن ابن تيمية كان رائداً لكل الاتجاهات الحديثة في نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس بأكون إلى المنطقية الوضعية فقد عنى بنقد فلاسفة الإسلام كالغزالي وابن سينا وابن رشد وكل من تابعهم على منطق أرسطو،ويعتبر ابن تيمية في رده على مناطقة اليونان ومن تابعهم من متفلسفة المسلمين أكبر ممثل لروح الإسلام تجاه الفلسفة اليونانية، وقد عرض في بحثه للمنهج الإسلامي الاستقرائي،وتتبع تاريخ هذا المنطق منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه،ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الإسلامي مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً إلى روح القرآن والسنة،وكشف عن عبث المحاولة التي قام بها الغزالى وابن

سينا في محاولة التوفيق بين منهجي أرسطو وأفلاطون وعقم تجـربة التلفيـق ما بين الإسلام والأفلاطونية المحدثة، ورأى أن هدف التلفيق يرمى إلى هدم الإسلام من الداخل كما هاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة وكشف عن ضعف أدلتهم التي أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع، وأجرى محاولة للتوفيق بين العقل والدين، ولكن ليس على أساس أن العقل عنده مرادفاً للفلسفة اليونانية، وملخص رأيه، إن صريح العقل لايمكن أن يكون مخالفاً لصحيح المنقول ورفع رأي القائلين بتقديم العقل على النقل إذا تعارضا، وقال إن من يدعى خلاف ذلك فقد قدح في الرسول، وقال إن المنطق اليوناني لايحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد، وقال إن التسليم بمنطق اليونان باعتباره منهج ثقافتهم يقوض أساس الحضارة الإسلامية إذ سيلزم عن ذلك أحكام عامة تهدم ما تبناه المسلمون من أحكام ولا سيما في نطاق الإلهيات، وإذا كان هذا النقد قد استخلص منهجاً يعبر عن خصائص العقلية الإسلامية ويحمل طابع الحضارة فيها، فإنه ترك آثاره وبصماته على ما كتبه من بعد بيكون وهيجل ورسل وكوزان ولقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرزاق إلى عمل ابن تيمية فقال :أن الدراسات الإسلامية لو سارت على منهج ابن تيمية بعده لبلغ المسلمون من الرقي مبلغاً عظيماً.

(٤)

وهكذا نجد أن النزاع بين الإسلام والفلسفة اليونانية قد بدأ من اللحظات الأولى التي دخلت فيها الفلسفة العالم الإسلامي ولم تخمد جذوته حتى بلغ أوجه على أيدي الغزالي وابن تيمية، فقد بدا أول الأمر أن منطق أرسطوا أكمل العلوم غير أن الملاحظ أن كثيراً من العلوم الإسلامية تقدمت تقدماً كبيراً دون أن يكون كبار الباحثين فيها ممن تخرجوا على منطق أرسطو، مما يدل دلالة واضحة على أن هذا المنطق لم يكن كافياً وحده في توجيه العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية، وقد أثبت الباحثون إثباتاً قاطعاً عدم قبول مفكري الإسلام للمنطق الأرسطي ومحاربتهم له ونقدهم لجميع عناصره، وانتهت الفكرة القائلة بأن المسلمين أخذوا المنطق اليوناني

واعتبروه منهجاً لأبحاثهم، ذلك لأن المسلمين وضعوا المنهج التجريبي كاملاً بديلاً عن المنهج الإستقرائي العالم التجريبي الأول روجر بيكون إلى هذا. وكان علماء المسلمين قد تنبهوا إلى أنه لابد من وضع منهج في البحث مخالف للمنهج اليوناني من حيث إن هذا المنهج الأخير إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضاري مخالف، وقد بدأ ذلك بالحملة العنيفة التي قام بها علماء المسلين على منطق يونان وتبين هذا من هذه المعركة التي اشترك فيها عشرات العلماء من كل فروع المعرفة،وكان أبرز ما عنى المسلمون بإبرازه أن الإسلام قد قدم للمسلمين منهجاً كاملاً لما وراء الطبيعة لم يترك للعقل مجالاً للاجتهاد فيها إذا حدد معالمها تحديداً كاملاً بينما لم تكن الفلسفة اليونانية إلا مجرد بحث مطلق في الوجود من حيث هو وجود، ويؤكد هذا تأكيداً جازماً أن المسلمين لم يكونوا عالة على اليونان،وأن فكرهم الفلسفى لم يكن موصول الوشائج بالفكر اليوناني،وأنه كان للمسلمين الكيان المستقل والينبوع الخالص،الذي تفجر منه النور في أوربا والذي سطع عبر أسبانيا وصقلية حيث استمدت الحضارة الغربية والعلم من منهج المسلمين التجريبي وأزاحت إلى غير رجعة منطق اليونان،يقول الدكتور محمود قاسم: إن النهضة الأوربية لم تتحرر من الجمود الذي فرضه عليها منهج اليونان إلا بعد أن عرفت مناهج العرب في العلم والفلسفة ولنا أن نستشهد برينان نفسه، ذلك أنه يصف (روجر بيكون) بأنه الأمير الحقيقي للفكر الأوربي في القرن الثالث عشر ويجب أن تعلم كيف جاءته إمارة الفكر أن ليس في هذاالمجال خلق من العدم، ومن اليسير أن نكتشف سر أصالته إذا نحن بينا أنه أول من نادي بمهاجمة المنهج الأرسطو طاليسي في أوربا ودعا إلى اصطناع نهج العرب،فهو يأخذ على معاصريه أنهم يصبون لعناتهم على الرياضة مع أنه لمن الممكن أن يبرهن بالرياضة على كل ما هو ضروري لفهم الطبعية،ولولا الرياضة لاستحال علينا أن نعرف أشياء هذا العالم معرفة صحيحة تعود علينا بالنفع في الأمور الإنسانية والأمور الدينية أيضاً. كذلك يأخذ عليهم الانصراف عن استخدام الملاحظات والتجارب مع أن الطبيعة لاتكشف أسرارها إلا بدراسة الأمور الجزئية حتى تصعد بنا إلى القوانين الكلية. وهكذا انتصر المنهج الإسلامي على

المنهج الأرسطي وحطمه في عقر داره بعد أن حطمه في مجال الفكر الإسلامي نفسه، ومع ذلك فإن الفكر الإسلامي هو الذي حفظ الفلسفة اليونانية من الضياع فإن النصرانية لما دخلت اليونان خافت على الدين فمنعت تدريس الفلسفة ودفنت كتبها في دهاليز في باطن الأرض حتى كشف عنها المسلمون،ولكن هذا التيار بمن اشتغلوا فيه ظل مستقلاً عن الفكر الإسلامي، أما الفلسفة الإسلامية بعد معاناة علوم القرآن والحديث حيث نشأ علم إسلامي أصيل، هو «علم أصول الفقه» الذي أقامه الإمام الشافعي معارضا لتيار الهلينية وأول من نبه إلى هذا الخطر حين قال: ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو، ولقد قدم الإمام الشافعي (مباحث) الأصول لأول مرة: كعلم متسق الأجزاء له منهج عام يحدد للفقه الطرائق التي يسلكها لاستنباط الأحكام، يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب هذا الفهم لأصالة الفلسفة الإسلامية: إن هذا الاتجاه من الشافعي هو اتجاه العقل العلمي الذي لايعني الجزئيات والفروع بل يعني بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها، لقد دعا كل ذلك إلى اعتبار (الشافعي) في العالم الإسلامي وفي الدراسات الإسلامية مقابلاً لأرسطو في العالم الهليني والدراسات اليونانية. كان الشافعي يعرف اليونانية فقد هاجم المنهج الأرسطي مهاجمة شديدة لا من الجانب السلبي فقط بل إيجابياً بوضع منهجه في الأصول الذي كان أساس المنهج الاستقرائي والتجريبي الذي تميزت به الثقافة الإسلامية وحضارتها،والذي لولاه لسقط العلم في العالم الإسلامي ولتأخرت نهضة أوربا العلمية الجديدة، لقد كان الشافعي يرى فكر (الدين) في اللغة العربية وفكر (الفلسفة) في اللغة اليونانية كما يرى أن المنطق الأرسطي الذي يستند إلى اللغة اليونانية مخالفاً للمنطق الذي كشف عنه علم الأصول الذي يستند إلى اللغة العربية وخصائصها، ولقد تبين أن تطبيق منطق اللغة اليونانية على منطق اللغة العربية يؤدى إلى كثير من التناقض، ولذلك هاجم المنطق الأرسطي الذي أخذ به بعض فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا إلى حد التحريم وتابعه في ذلك فريق كبير من فقهاء المسلمين على رأسهم ابن تيميه.

والقول الحق في هذا المجال أنه ليس من شأن الفكر الإسلامي وهو فكر له أصالته وتاريخه وحضارته أن يلتمس مقاييس الفكر الإغريقي والفلسفات البشرية في تفسير الكون أو فهم الحياة وقد أوتى مفاتيح الوحي والنبوة والضوء الكاشف الساطع من العلم الرباني الخالص.

(٢٨)
منهج المعرفة

قدم الإسلام للبشرية:

أولاً: المنهج العلمي التجريبي الذي صاغ الحضارة الحديثة والذي اشتقه المسلمون أساساً من دعوة القرآن الكريم إلى النظر في الكون ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ .

ثانياً: سنن الله في الأمم والحضارات والمجتمعات وقد قدم القرآن هذا القانون في عشرات المواضع من آياته ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم ﴾ .

ثالثاً: منهج المعرفة المتكامل ذا الجناحين: المستمد أصلاً من المصادر الأولية الأساسية: الفطرة والعقل والقلب والوحي:هذا المنهج القائم على المادة والروح والعقل والقلب وكان الفكر البشري منذ وقت بعيد وما يزال يرسم منهجه في المعرفة معتمداً على أحد القطبين اللذين ربط بينهما الإسلام،فهناك أسلوب المعرفة عن طريق العقل والعلم والمحسوسات،وهناك أسلوب المعرفة عن طريق الذوق أو القلب أو البصيرة أو الحدس، وكل من المنهجين مستقل بأسلوبه وطريقته لايعترف بالآخر ولا يرى أنه وسيلة صالحة للمعرفة وفي الصورة المعاصرة الآن: المنهج المادي في عالم الغرب والمنهج الروحي في الشرق الأقصى معتمداً على البوذية ومفاهيم الأديان الهندية وكذلك كان الأمر قبل ظهور الإسلام، كان هناك الفكر الهليني اليوناني القائم على التأمل والمنطق والمحسوس،والفكر الغنوصي الشرقي القائم على الحدس والإحساس الباطني،وعندما ظهر الإسلام في القرن السادس الميلادي وسط هذه التيارات والفلسفات التي كانت تعم الهند وفارس ومصر وبلاد اليونان والرومان أعلن عن منهجه الجامع في المعرفة،وأقامه على أساس التوحيد،ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم

ظل هذا المفهوم الجامع الشامل الوسط قائماً لم يتغير بالرغم من تغير المذاهب في الغرب والشرق وتضاربها.

وما تزال مناهج المعرفة تصطرع وتتضارب،ومنهج المعرفة الجامع بين قوى الحواس والعقل والوجدان والروح الذي ربط بين السمع والبصر والبصيرة والعقل قائماً،أشبه بالمنار السامق الذي يهدى الإنسان والفكر البشري في لجج الشك والإلحاد والوثنية والمادية جميعاً.

والقرآن الكريم على التحقيق هو الذي رسم منهج المعرفة الإسلامي الجامع، وكان ذلك منطلق منهج العلم الإسلامي الذي جمع بين النظر والتجريب.

وهكذا نجد أن منهج الإسلام للمعرفة جاء قائماً على العقل والقلب والنظر والمشاهدة والاستدلال.

٢- تتمثل أبرز معالم منهج المعرفة الإسلامي في الأصول الآتية:

أولاً: التفرقة الواضحة بين مقاييس العلوم ومقاييس الإنسانيات،فمقاييس العلوم مقاييس مادية مستمدة من التجربة والاختبار الدائم المتماثل الذي لايتغير، وهذه المقاييس تعجز عن أن تخضع الإنسان والمجتمعات والنفوس والأخلاق إلى نتائجها فإذا حاولنا تطبيق مقاييس العلوم في مجال النفوس أخطأت وفسدت.

ثانياً: الجمع بين إطار الثوابت الأساسي وحركة المتغيرات،وضع الإسلام قاعدة الكليات ذات الإطار الواسع والأفق الرحب، وهي الثوابت التي تقوم عليها دعائمه، هذه الدعائم التي تمثل الإطار المرن والذي تجري في داخله حركة التغيير والاجتهاد في الفروع المتجددة والمسائل المتغيرة بتغير الزمان والمكان.

ثالثاً: تكامل العناصر وتلاقيها وتأثر بعضها ببعض. فالنظرة الإسلامية متكاملة لاتتجزأ ولا تأخذ بفرع دون الآخر فكل فرع منها مؤثر في الفرع الآخر متأثر به: ومن ذلك تكامل المجتمع مع الأخلاق،وتكامل الدين مع المجتمع،وتكامل الأخلاق مع الأدب،وتكامل الأدب مع الفكر إلخ.

رابعاً: لكل قيمة وجهان: مادي ومعنوي، لاانفصال بينهما بل تكامل (بينما يقر مفهوم المعرفة الغربي أن لكل قيمة وجهاً واحداً هو الوجه المادي).

خامساً: لكل نظرة دعامتان: الوحي والعقل.

سادساً: رفض أسلوب التقليد والموروث والتبعية وقيام النظرة على أساس الفحص والإيمان المتجدد.

سابعاً: أن معرفة الإنسان لقوانين الطبعية لاتغنى عن الإيمان بصانع الطبيعة بل من الحق أن تهدي إليه وتدل على عظمته.

ثامناً: الانتخاب والاختبار: أي عدم التقيد بمذهب معين.

تاسعاً: يفرق منهج المعرفة الإسلامي بين الأساسي والفرعي،وبين الضروري والكمالي،وقد أقام الإسلام هذه القاعدة حتى لاينحرف النظر إلى الفرعيات والكماليات،وينصرف عن القيم الأساسية والضرورية،كما يفرق بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية.

عاشراً: لابد في دراسات الأدب والاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع أو النفس أو الأخلاق أن يكون البدء من نقطة الأصول الثابتة ثم تتفرع دون أن تفقد ارتباطها بالمركز الأصلى،ولا بد لكل محاولة في مجال الاجتهاد والتغيير أن تبدأ من نقطة أساسية وتتحرك ضمن محور ثابت،ولا يوجد بحث في أمر من هذه الأمور يمكن أن يوصف بأنه مطلق ومنفصل عن الجذور الأساسية الثابتة للإسلام.

حادي عشر: ضرورة التحرر من الهوى والعصبية والحقد.

ثاني عشر: لايقر منهج المعرفة الإسلامي الرأي القائل بأن المعرفة قاصرة على معطيات الحواس أو نتاج الفكر إنما هو أوسع أفقاً. إنه يعتمد أساساً على وحي السماء الذي قدم للإنسان أصول الشريعة ومفهوم عالم الغيب.

ثالث عشر: النظر إلى ما وراء الظواهر، ما وراء ظواهر الكون والحياة وما وراء النصوص والكلمات،وهو يفرق بين رؤية الشاعر ورؤية الفيلسوف ورؤية العالم

التجريبي،ويرى أن كلاً من هذه رؤية ناقصة والرؤية الجامعة هي الرؤية الإسلامية المتكاملة، وليس في النظرة الإسلامية تصور فلسفي ولا تصور مادي، ولا تصور روحي خالص،ولكن هناك تصور قرآني إنساني الطابع رباني المصدر يقوم على التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر.

رابع عشر: تبدأ النظرة في محاولة الفهم في الإسلام من الحقائق حيث يترابط الوحي بالعقل، والمادي بالمعنوي، وتمتد من معطيات الحواس إلى معطيات القلب والعقل جميعاً.

خامس عشر: ربط القرآن بين المادة والروح،والتعادل بين الكم والكيف،والتوازن بين الغاية والسبب وربط بين الحواس والعقل والوجدان،ووضع أهم القواعد التي تحفظ العقل من الزيغ وهي عدم تجاوز الحد، وأن الغيب فوق طاقة العقل وقدرته كما دعا إلى التقدير والتقرير، وعدم التعجل في الحصول على النتائج قبل استكمال البحث والموازنة والاستقراء،ودعا إلى التخصص قبل البحث وعدم المكابرة والعناد وإلى المراجعة والمعاودة، والاستمساك بالحق والبعد عن الغرور، والجهر بالحق والدفاع عنه.

سادس عشر: أبرز منهج المعرفة الإسلامي العلاقة بين النظرية والتطبيق (العلم والعمل) ورفض مبدأ العلم لذاته،وقرر أن العلم إنما يطلب من أجل العمل به في تحسين الحياة،كذلك جمع بين الإيمان والعبادة فالعبادة سلوك وتربية وهي مكملة للنظر والتأمل:

سابع عشر: لايقر الإسلام فصل العلم عن صاحب العلم فيما يتعلق بمفهومات العقيدة ونظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والقيم والأخلاق،ولا يتلقى المسلم هذه العلوم من غير المسلم الصحيح الإيمان، أما مسائل الطبيعة والفلك والصناعة والزراعة فلا بأس، والرسول يحدد هذا المعنى حين يقول «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

ثامن عشر: لاينقطع العلم عن قاعدة الإيمان: قاعدة الإيمان التي تربط بين العلوم

المختلفة وبين مصادرها من نواميس الكون التي أرساها الله سبحانه وتعالى.

تاسع عشر: وحدة الحق لاتعدده ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ .

العشرون: نحن لانعرف الحق بالرجال ولكن نعرف الحق فنعرف رجاله، لايمكن فهم أي كلام حق الفهم إلا إذا عرفنا صاحبه ووقفنا على تاريخه وصفاته،فالكلمة الواحدة تختلف باختلاف قائلها فتكون من القائل على قدر إيمانه.

واحد وعشرون: الأسلوب العلمي هو أحد أساليب التعبير، لا هو كلها ولا هو خيرها وإنما هو أسلوب يقتضيه حال كما يقتضى غيره أحوال فالسعي لفرضه على غيره مخالفة للطبيعة، إن تمجيد العقل والعلم واعتماده سبيلاً واحداً للمعرفة ليس من مفهوم الإسلام.

ثاني وعشرون: ثلاث مناهج لاتمثل في انفصالها منهج الإسلام في المعرفة، وإن كانت تدخل في نطاق جماعي من الإسلام وتتكامل بالوحي:هي منهج العقل ومنهج العلم ومنهج الحدس، أما منهج العقل:فهو منهج يعتمد على المنطق، أما منهج العلم:فيعتمد على التجربة أما منهج الحدس:فيعتمد على الوجدان أما منهج المعرفة الإسلامي القرآني:فإنه أكبر من ذلك بكثير إنه يستقطب كل هذه المناهج الجزئيه كوسائل له ولا يقتصر على واحد منها، ولكنه ينطلق أساساً من قاعدة أصيلة هي فطرة الإنسان الصافية النقية التي تعرف الحق وتؤمن بالوحي وترى الدين مصدراً راسخاً.

ثالث وعشرون: منهج المعرفة الإسلامي، لايهمل الجانب المادي في سبيل الجانب المعنوي، ولا يحتقر الأمور الدنيوية في سبيل الاعتماد على الروحيات،ولا يضحى بالفرد من أجل المجتمع،ولا بالمجتمع من أجل الفرد، وليس فيه تناقض بين المثل الأعلى والواقع العلمي للناس،وفيه يلتقى الدين بالعلم، فقد اعترف الإسلام بحقوق الإسنان وميوله وعواطفه،وجعل ضوابطه وحدوده في الأساس مستهدفة عدم استهلاك الإنسان لطاقاته الجسدية والمادية،وذلك بالدعوة إلى القصد لا الإسراف.

رابع وعشرون: لمنهج المعرفة الإسلامي قيم ثابتة أساسية هي بمثابة نقطة الانطلاق والعودة بعد الحركة الواسعة،تشكل منهجاً كاملاً للحياة في مختلف مجالات التاريخ والأدب والفن والعلم والقانون والاقتصاد والسياسة والمرأة والأسرة والنفس والتربية والأخلاق والمجتمع، وهذا المنهج مرن واسع الآفاق والأطر،قابل لمواجهة تطور الحياة ولاختلاف العصور والبيئات فيه حذر إزاء خطر تذويب الشخصية والتقليد الأجنبي.

(٢)

وبعد: ما هي محاذير منهج المعرفة الإسلامي إزاء مناهج المعرفة الوافدة.

أولاً: التقليد: وهو أخطر هذه المحاذير. فالمنهج الإسلامي دعوة إلى التقدم وإلى التجدد وإلى البحث عن الأصالة وإلى تصحيح الخطوات في الطريق إلى الغاية الحقة ومنها كان له مفهومه إزاء المحافظة وإزاء الإصلاح وإزاء التماس المنابع ومنها كان حرصه أن يؤدي تفادي خطر التقليد إلى الوقوع في خطر أشد منه هو خطر التبعية بتقليد الوافد، ولكي تكون المعرفة الحاصلة سليمة ودافعة إلى الأمام لابد أن تكون عن دليل والتقليد لا دليل فيه،ولذلك ذم الإسلام أصحاب الرأي القائم على الهوى الذي لايسنده دليل ولا برهان، ونحن نقلد وننقل في شئون العلم وأساليب الحياة المادية ولكننا نتوقف عند القيم الإنسانية والروحية والمعنوية وخاصة فيما يتصل بالنظم الاجتماعية،ذلك أن الإسلام قدم للمسلمين منهجاً من الحياة لاتدانيه المناهج الوضعية ولا الأيدلوجيات البشرية التي تقصر عند فهم تحد واحد من التحديات أو عصر واحد من العصور أو ظرف من الظروف دون أن تكون لها الإحاطة بكل الظروف والعصور والتحديات،ولقد عرف المسلمون مدى الأخطار التي واجهتهم عندما تركوا منهجهم الرباني المصدر، الإنساني الطابع،والتمسوا مناهج الغرب سواء منها ما يتصل بالسياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد،وقد جاء هذا نتيجة اضطراب أساليب التربية والتعليم التي وجهت الرواد إلى الانبهار والإكبار للفكر الغربي في نفس الوقت الذي جهلوا فيه أبسط بسائط القيم الإسلامية. كذلك فإن القيم الخلقية الغربية التي نواجهها اليوم إنما ازدهرت في جو من الانحلال الذاتي في بيئة غلبت

عليها طوابع المنفعة والأنانية والفردية بينما يقدم الإسلام للبشرية طوابع الرحمة والغيرية والبذل والفداء.

٢- القديم ليس كله فاسداً أو مضطرباً أو متروكاً، ذلك لأن قديمنا نحن المسلمين خاصة إنما هو ثمرة أصول ربانية جاءت بوحي السماء ثم كان هذا التراث تفسيراً لها وتعميقاً وفهماً، فبهذه الصيحة المسمومة التي تقول بانتقاص القديم» إنما تحاول أن تنال من هذا «الميراث العظيم» الذي جاءت به النبوة للبشر من رب العالمين هدى وضياءً ولذلك فإن معارضة القديم على إطلاقه هي من دعوات التغريب، وما أظن أن أمة ما، حتى هذه الأمم التي تدعونا إلى ترك القديم، سواء أكانت أمم الغرب أم اليهودية الصهيونية، تركت قديمها وتخلت عنه والحضارة الغربية عندما تجددت في القرن الرابع عشر الميلادي بعد سقوط رومة في القرن الرابع، وبعد انقطاع دام ألف عام عادت تربط نفسها بالخط الهليني في الأدب الروماني في الاجتماع والقانون، فكيف يترك المسلمون ميراثهم وهو الممتد المتصل الحي الذي لم ينقطع ولم يتوقف خلال أربعة عشر قرناً؟!ومن هنا يجيء مفهوم المحافظة مخالفاً لمفهوم الرجعية، فالمحافظة قانون طبيعي وسنة من سنن الكون التي لاتتخلف، والمحافظة لا الرجعية هي التي تعصم المسيرة من الانحراف وتجعلنا في إبان الأزمات والأحداث نتلفت لنرى هل نحن حقاً نلتمس من منابعنا الأصيلة أم انحرفنا عنها، هذه المنابع باقية خالدة،لأنها ربانية المصدر،ولأنها قابلة لملاقاة كل التغيرات،ولأنها مفتوحة إلى الالتقاء مع التحولات الجديدة وفق مفهوم الإسلام في التكامل بين الثوابت والمتغيرات،وبالمحافظة على الميراث الأصيل وتحديده استطاعت الأمة الإسلامية أن تحمى وجودها في مهاب الغزو الشعوبي والتتري والصليبي والاستعماري والصهيوني وبها استطاعت أن تفرض وجودها على التاريخ،وأن تحول دون أي محاولة لتزييف أصالتها أو مسخ شخصيتها.

يقول كار بيرسون: إن من أقوي المؤثرات التي تحفظ الثبات الاجتماعي وتحول دون تلك الصفة التي يبغضها البعض: صفة الجمود على القديم.

وفي الغرب يتحدثون عن حماية (التقاليد) ونحن نتحدث عن حماية (القيم) لأن التقاليد من صنع الناس،أما القيم فهي من وحي السماء.

وإذا كان المسلمون قد مروا بمرحلة وصفت بأنها مرحلة جمود فإنها لم تكن كذلك في الحقيقة، وإنما كانت من قبيل الحفاظ على ذلك الميراث. إن محورها نوع من الانطواء على التراث في مواجهة أخطار الغزو الغربي الاستعماري والتغلغل الأجنبي الذي كان يستهدف قطع علاقتنا بماضينا وتراثنا حتى نكون أداة طيعة لتصهرنا في بوتقته.

كان روح الجمود - إذ ذاك - نوعاً من الدفاع عن الذات،وهي التي حفظت على المسلمين كيانهم وميراثهم، إنه موقف حضاري يفاخر به، صان الحضارة من الانحراف في تيارات دخيلة وحفظ شخصية الأمة وسط الأنواء والعواصف.

أما التقليد فقد حرر الإسلام منه أبناءه حين دعاهم إلى البرهان والدليل والنظر والتفكر،فلا يقبلون إلا ما يقتنعون به، والتقليد في الفقه هو إبطال وظيفة العقل.

ونحن في الحقيقة مطالبون بالتجدد الدائم دون أن تترك خيامنا أوتادها الثابتة، والتجدد ناموس طبيعي عام ومن لم يتجدد يتدهور، ولكن التجدد يبدأ من نقطة الأصل وينتهي إليها فلا يفارقها أو يخرج عنها، والأمم مطالبة بالتجدد إذا أحست أنها تخلفت أو أصابها الوهن، ولا بد أن يجرى التجدد على سنن تحفظ للأمة شخصيتها وذاتيتها وقيمها فلا تضحى بشيء من ذلك حتى لا يكون مسخاً تحتويها الأمم أو تذوب في بوتقة الحضارات،خاصة إذا كانت هذه الحضارات في مراحل التدهور والسقوط.

ونحن نقبل التجدد في العلوم ووسائط الحياة،ولكنا لانقبل ذلك في الأصول الأخلاقية والاجتماعية، يقول محمد أسد (ليوبولد فابس) أن تقليد المسلمين سواء كان فردياً أو جماعياً لطريقة الحياة الغربية هو بلا ريب أعظم الأخطار التي تستهدف الحضارة الإسلامية،فالمدنية الغربية لايمكن إذن أن تكون الوسيلة الصحيحة

لإيقاظ العالم الإسلامي، ولكن العالم الإسلامي وبه ميل متزايد إلى محاكاة أوربا وإلى اقتباس الآراء والمثل العليا الغربية قطع بالتدريج تلك الصلات التي تربطه بماضيه وهو من أجل ذلك لايفقد شيئاً من مركزه الثقافي فحسب، بل ومن مركزه الروحي أيضاً لأنه سينفصل عن القوى الأصلية المحركة له من الداخل فيتوقف سيره ويبتعد عن النور الذي يهتدي به، ومعنى هذا أن مقاومة التقليد تقتضينا أن نتحرر من التقليد القديم الذي انحرف في عصور التاريخ المختلفة عن الأصل الرباني والتحرر من التقليد الأجنبي أيضاً.

ولكي نعرف الرابطة بين المحافظة على القديم وبين التجديد، ننظر إلى مفهوم المصطلحات أساساً: إن المعنى الحقيقي (كما يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي) لكلمة (جديد) هي فكرة نقد شيء في طور التحول في حين أن كلمة (قديم) تعني الموجود، الساكن، الموضوع مسبقاً. ذلك أن كلمة قديم استعملت عند العرب بمعنى (الموجود لم يزل) فإن القديم والأزلي واحد، والتجديد في العلم إنما هو خطوة على الواقع القائم متصلة بين أساساً وتميزة بعد ذلك والتجديد في الأدب هو إبداع الحي في أثار الميت وهو يعني إتمام مالم يتم، فلا تجديد إلا مع القديم وليست سنة (التقليد) إلا من الأمور الحتميه،ولكن الحذر كل الحذر من أخطارها، يقول رسول الله ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب ضيق لدخلتموه».

ومعنى هذا أن الأمم حين تضعف تقلد الأمم الأخرى التي ترى أنها قوية والمغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله كما يقول العلامة ابن خلدون، ولكن هناك فرقاً بين من يأخذ عن غيره ما ينقصه من العلوم والمعارف التي تدفع ركب الحياة إلى أمام ويستعين بطرائق هذا الغير في بناء حياته وبين من ينصهر في الغير فيصبح شيئاً مقيتاً قد فقد ذاتيته وكيانه،وشتان بين من يأخذ سلاح الغير ليقهره به ومن يتخذ سلاح الغير حلية له.

ثانياً: التبعية: ذلك هو الخطر الثاني الذي يواجه منهج المعرفة الإسلامي.

وهو نتيجة التقليد ظناً بأن المنهج الآخر المطروح أمامنا من فكر آخر وأمم أخرى لها قدر من القوة والسيطرة والتبريز في مجال الحضارة هوأصلح لنا، وأنه ما دامت هذه الأمم قد نجحت بهذا المنهج فإننا نقلده ونتبعه حتى نصل إلى ماوصلوا إليه من تقدم، وظاهر المعادلة تبدو صحيحة ولكنه في واقع الأمر وفي النظرة الأعمق لايؤدي إلا إلى إذابة الشخصية وتحللها،حتى تصبح صورة مهلهلة مضطربة لذلك الأصل الذي يحاول الاقتداء به.

إن أخطر ركائز منهج المعرفة الإسلامي هو الأصالة والتميز واستحالة الاندماج والذوبان أو الاحتواء في دائرة الفكر الأممي، ذلك أن الإسلام منهج متكامل،بينما تتسم مناهج المعرفة الأخرى بالتجزئة والانشطار،وهو الذي يمثل قمة الدين والفكر في وحدة لاتنفصل،وهو الذي يعتمد على الوحي والنبوة ورسالة السماء أساساً له،ثم يكون العقل وسيلة من وسائله،والعلم منهجاً يجرى في مجراه.

إن أخطر ما حذرنا منه منهج المعرفة الإسلامي هو متابعة الناس بغير برهان والخروج من ذاتيتنا ومقوماتنا تحت سيطرة الأهواء والبريق، ولقد كانت أمتنا قادرة في أشد أوقات المحن أن تحفظ كنزها في أحضانها فلا تفرط فيه حتى تزول أزمة الاستلاب من حولها. ذلك أن الأمم التي استهانت بقيمها ومركبات شخصيتها من لغة وعقيدة وتراث وتاريخ،هذه الأمم ضاعت أدراج الرياح ووضعت في توابيت المتاحف، إن هذه محاولة مضللة تحاول أن تقول بوحدة المعرفة أو وحدة الثقافة وهي دعوى تنبعث من المسيطرين بالاستعمار والنفوذ وأدوات الغزو،تريد أن تحتوى ثقافات الأمم التي تمر الآن بمرحلة اليقظة،والتي لم تمتلك إرادتها كاملة بعد، ومن هنا فإن علينا أن نواجه مثل هذه الدعوات إلى التبعية المقنعة بحذر شديد،وأن نعترف أنها إنما تريد أن تبتلعنا في أتونها الضخم، نحن نؤمن بوحدة الجنس البشري في مصادره ووحدة الفكر في أولياته، ولكن المحاولات البشرية التي عملت منذ وقت بعيد على تشكيل مناهج لها تختلف عن الفكر الرباني وتغاير قيمه التي جاء بها الوحي عن طريق رسالات السماء، هذه تحول دون تقبل دعوتها إلى وحدة المعرفة

أو وحدة الفكر أو وحدة الثقافة،ذلك لأنها ترمى إلى إخراج البشرية من إطار التوحيد والإيمان والمسئولية الفردية والأخلاقية والبعث والجزاء، وقد نجحت هذه المحاولة في بعض أطراف الأرض،وهي اليوم تمتحنا نحن المسلمين أخطر امتحان ومحنة لتحطيم هذه القوى القائمة في وجه الوثنية والمادية والإلحاد والإباحية، فلنتنبه إلى هذا الخطر ولنعمل على ألا تختطفنا دعوات التقليد، والتبعية.

ذلك أن منهج أي أمة لايصلح لأمة أخرى إلا إذا صدر من داخل قيمها ومنهجها الأصيل في المعرفة،وإذا كان أهل الغرب قد انتصروا بمنهجهم فإن المسلمين لابد منتصرون بمنهجهم هم.

هناك محظور ضخم في طريق الأمم:هو تبني مناهج غيرها في عالم النفس والأخلاق، وهذا المحظور مما حذر منه الإسلام أشد التحذير، فقد حرص الإسلام على الفصل بين المنهج الإسلامي الرباني المصدر الإنساني الاتجاه وبين المنهج البشري المختلط بين الوثنية والمادية، وإن أخطر ما يدعونا إليه الإسلام هو الحذر من التبعية، وإن أخطر ما يدعونا إليه التغريب هو الاحتواء والتبعية فإذا سقط هذا الجدار المنيع لم تعد للإسلام ميزته التي تفرقه عن الفكر البشري أو تجعله فكراً ربانياً خالصاً محرراً من الأهواء والشبهات والزيوف.

(٣)

منهجان للمعرفة: منهج إسلامي،ومنهج غربي،ولكل منهما مقوماته وأصوله وأسسه، وبينهما وجوه كثيرة من التباين والاختلاف.

أولاً: لاريب أن الغرب له مثل وغايات في الحياة وقيم في الأخلاق ومقاييس في المجتمع وأهداف خاصة ومزاج نفسي منبعث من عقائده ومواريثه،كما أن له أيضاً مشاكله وظروفه الخاصة، وله تحديات في مواجهة العقائد،وكذلك فإن للغرب مفهوماً خاصاً للدين: تتكون من خلال ظروفه التاريخية من جهة،ومن طبيعة ديانته من جهة أخرى.

ثانياً: لاريب أن هذه المذاهب الغربية مصوغة في أسلوب له طابع علمي براق وقد بدأت هذه المذاهب في أول أمرها بمحاولات لتحل محل الأديان، ثم أصبحت معارضة لها، وقد ظهرت هذه المذاهب حين عجز الدين في الغرب عن العطاء وحين انفصلت الأخلاق عن الدين.

ثالثاً: من أهم العوامل التي تؤثر في أصالة منهج المعرفة الغربي أنه يقوم على مسلمات أساسية تخالف مخالفة كاملة مفاهيم الإسلام من ناحية وتتعارض مع مفهوم التاريخ البشري الذي ليست أوربا إلا جزءاً منه وليست كله وهي في مجموعها تجاوز ما يعتقده المسلمون بصفة خاصة.

رابعاً: أن المناهج الغربية في المعرفة متضاربة متعارضة (مثالية ومادية وتفسير اقتصادي. مثالية تعتمدعلى العقل ومادية تعتمد على الطبعية وماركسية تعتمد على الطعام وفرويدية تعتمد على الجنس).

كل منهج منها نشأ في بيئة معينة، وحاول الاستجابة لتحد معين، ومنها مناهج طرحت في مواجهة الدائم والأسس التي يقوم عليها منهج الإسلام؛كالقرآن ونبوة الرسول ووحدة المسلمين وأريد بها ضرب هذه القيم.

خامساً: إن كل هذه الأيدولوجيات والمناهج والمذاهب تقرر أن الفكر الغربي يخوض أزمة عنيفة وأن المجتمع الغربي يصارع في أكثر من ميدان في مواجهة أمواج عاصفة من القلق والتمزق والضياع وانفصام الشخصية، ومرد ذلك كله إلى غلبة الطابع (العقلي المادي الحسي) على الطابع (النفسي الروحي المعنوي) وقد حدد الفكر الغربي موقفه تماماً في هذه المرحلة في كل القضايا على أساس التجزئة والانشطارية،فاعترف بالعلم والعقل والمادة وأنكر ما سوى ذلك من مقررات النفس البشرية الجامعة للروح والمادة والعقل والقلب.

سادساً: إن أبرز طوابع منهج المعرفة الغربي بأشكاله المختلفة يتمثل في ذلك التغير الدائم الذى لايستقر على رأي حتى ينقضه ولا يقف عند وجهة حتى يولى

عنها، ذلك لأن هذه المذاهب والنظريات التي توصف بأنها (علم) قد بدأت أول أمرها بمثابة (فروض) وضعت تحت الاختبار ثم تحولت إلى (نظرية) ولم تستطع نظرية واحدة أن تثبت دون تغيير وتبديل وإضافة وحذف وذلك في مواجهة تحديات التغيير، وما من نظرية تبدو أول الأمر أنها ذات بريق عبقري إلا وسرعان ما اجتاحتها عوامل الفساد فعدلت مرة بعد مرة في محاولة الاستقرار، وقد تصدعت أكبر النظريات في هذا العصر وأعلاها: وهي الفرويدية والوجودية والماركسية.

سابعاً: خطأ تطبيق منهج التجريب في العلوم المادية على الإنسان ودراسات النفس والأخلاق والاجتماع، ومعنى ذلك أن الإنسان مفرغ من الروح والنفس وأنه جهاز مادي أو حيوان أليف، ولذلك فإن النتائج التي تحققها هذه الدراسات فاشلة وباطلة، لأنها لاتستوعب الكيان الإنساني كله ولا تحاكمه إلى منهج خاص به يتمثل في تكامله وجمعه بين الروح والمادة.

ثامناً: اختلاف الأخلاق والعادات والتقاليد والآداب بين الأمم، إلى درجة أنها قد تتباين، وما تراه الأمة الإسلامية أنه محظور قد يبدو في محيط الأمم الغربية أنه مقبول ومسموح به، ذلك لأن لكل أمة مقوماتها الأصيلة ومنابع عاداتها وتقاليدها وأخلاقها.

تاسعاً: أن التدين جزء من الطبيعة البشرية، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش بغير دين، ولقد عجزت الأيدولوجيات والمذاهب أن تقدم له بديلاً عن الدين يشفى روحه ويملأ حياته، فقد حررت الأديان الإنسان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده وعلمت الأديان الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ولكنه إنسان ذو كرامة.

وموقف منهج المعرفة الغربي من الإنسان متناقض، فهو إله الكون في الوجودية وهو حيوان في الفلسفة المادية والماركسية، أما الإسلام فقد وقف أمام الإنسان موقفاً بعيداً عن المبالغة بالإعلاء أو الانتقاص، وأقام مفهومه على أساس تكريم الإنسان بوضعه موضع الاستخلاف في الأرض، والنظر إليه من خلال طبيعته الأصلية

الجامعة بين الروح والجسم والعقل والقلب وبوصفه كياناً متكاملاً، وبذلك أقر رغباته المادية كلها وأباحها دون أن يقيدها إلا بضوابط قصد بها حمايته من الإنهيار والتدمير،وحتي يكون قادراً على أداء رسالته ومواجهة تحدياته دون أن يضعف أو يتحطم،وجعل سعيه في الحياة الدنيا منوطاً بإرادته الحرة ومرتبطاً بالجزاء والآخرة.

عاشراً: قد تختلط طوابع المعرفة عند الإنجليز والفرنسيين والألمان والأمريكيين (وهو ما يبدو عسيراً حتى الآن) لأن هناك جامعاً يجمعهم من أصول دين وثقافة ولغة، ولكن من العسير أن تختلط طوابع المسلمين بهم وقد تشكلت بمعزل عن هذه الأمم واستمدت أصولها من دين وفكر غير دينهم وفكرهم، هذه الطوابع والقيم التي قادت مسيرتهم على المدى الطويل وحققت لهم التمكن في الأرض والقوة والمهابة في نظر الأمم ولذلك فمن العسير على المسلمين التخلى عن قيمهم وتقبل الاحتواء والإذابة في الأممية العالمية.

حادي عشر: حرر الإسلام المعرفة من الظن والفرض والأسطورة والخرافة والوهم والهوى، ودعا إلى التماس المنابع الأصيلة وفي مقدمتها (القرآن) ومن هنا فإن منهج المعرفة الإسلامي إنما يجري أساساً في إطار القرآن فإذا خرج عنه وقع في الحرج والأزمة التي لاترتفع إلا إذا عاد مرة أخرى إلى القرآن.

ولقد هاجم الإسلام الخرافة والسحر والكهانة،وأنكر العرافين وطارد الأوهام،واعتبر السحر كفراً،وحرض على أن يرتفع المسلم بإيمانه على الضعف البشري الذي يجعله ألعوبة في يد أوهام الطوالع وأضاليل العرافين.

ثاني عشر: إن أبرز مفاهيم المعرفة الإسلامية أنها وحدة متكاملة لاتتجزأ ولا يجوز الأخذ بفرع منها دون الآخر ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ فكل عنصر منها متصل بباقي العناصر مؤثر فيها متأثر بها ومن هنا فقد تكاملت تعاليمه الاجتماعية والأخلاقية والتربوية.

ثالث عشر: لايرى الإسلام في مفهوم «الإيمان» شيئاً مضاداً لمفهوم المعرفة، ولا

يقتصر الإسلام على مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة،بل يضيف إليه علم الوحي الذي جعل الإيمان بالغيب شرطاً أساسياً من شروط العلم، ذلك أن الإيمان بالله قوة دافعة تعطى الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة.

رابع عشر: فرق الإسلام بين العلم النافع والعلم الزائد عن الحاجة،ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا من كل علم بأحسنه، مع الاجتهاد ورفض التقليد والبحث عن البرهان وقبول الدليل وتغيير الرأي متى ثبت صواب غيره،كما حرر الإسلام الفكر من دوامة البحث فيما وراء الطبيعة أو عالم الغيب،فقدم للمسلمين منهجاً كاملاً يرضي النفس ويسد حاجات الروح،وذلك حتى يتجه المسلم بكل قواه لأداء مهمته في بناء الحياة وتعمير الكون وتحقيق العدل والإخاء الإنساني.

خامس عشر: إن أبرز مظاهر أسلوب المعرفة الإسلامي يتمثل في أنه يرفض كل عنصر غريب عليه،ومن هنا يخطئ الذين يقولون بتلقيح الفكر الإسلامي، فإن للإسلام ذاتية خاصة لها من عوامل الثبات ما يكفل لها استمرار العطاء والتلقى على مدى العصور والامتصاص بما يزيدها قوة ولا يخرجها عن أصالتها.

(٤)

ينطلق منهج المعرفة في الفكر الغربي من الاستسلام للنفس والرغبات بينما ينطلق منهج المعرفة الإسلامي من المجاهدة والكظم والاستعلاء على الأهواء.

٢- ينطلق منهج المعرفة الغربي من الأصول المادية وحدها فيقبل التطور المطلق ونسبية الأخلاق،بينما ينطلق منهج المعرفة الإسلامي من النظرة الجامعة بين المادي والمعنوي وبين الثوابت والمتغيرات.

٣- ينطلق منهج المعرفة الغربي من تطبيق العلم التجريبي على النفس والأخلاق والاجتماع والإنسانيات،بينما ينطلق منهج الإسلام من كل متكامل يرى فيه أن الإنسان روح ومادة لايخضع لمنهج التجريب المادي فإن ذلك انتقاص لجانب كبير من وجوده.

٤- ينطلق منهج المعرفة الغربي من الفصل بين الزمني والروحي، والمطلق والنسبي، واللانهائي والمحدود، والأرض والسماء، والدنيا والآخرة، ولكن منهاج المعرفة الإسلامي يجمع بينها في توازن وتكامل ويرى أن الدنيا للآخرة أساس.

٥- ينطلق منهاج المعرفة الغربي من المادية والوثنية والربوية، وإعلاء الجنس والتفسير المادي للتاريخ، أما منهج المعرفة الإسلامي فينطلق من نظرة متكاملة جامعة، تقوم على الإيمان بالله الخالق الذي لايتغير بتغير الزمان والمكان.

(٥)

إن أبرز معالم منهج المعرفة الإسلامي هي:

أولاً: الأصالة في مواجهة الغريب. ثانياً: التحرز في مجال الاقتباس. ثالثاً: ثبات سلم القيم. رابعاً: التكامل في مواجهة الانشطارية الغربية. خامساً: الوسطية في مواجهة إعلاء العنصر. سادساً: الثوابت إطار والمتغيرات حركة داخلة. سابعاً: التقدم مفهوم جامع بين المادي والمعنوي. ثامناً: للعلوم منهج للبحث وللإنسانيات منهج آخر.

(٢٩)

الثوابت والمتغيرات

إن منهج المعرفة الإسلامي يتمثل في الحقيقة الجامعة ذات الأبعاد المختلفة: أبعاد التاريخ، أبعاد الغيب، أبعاد المنابع.

فلا تكون الحركة إلا منطلقة من نقطة أساسية وقادرة على العودة إليها.

ومن هنا قام قانون الثوابت والمتغيرات: الثوابت إطار والمتغيرت حركة داخله وهذا يعنى وحدة الأصل وتعدد الصور، والحركة فيما يسمى التغير والتطور قانون من قوانين الكون غير أنه مرتبط بالإطار الخاص به أو المحور الذي يدور عليه،وهذه قاعدة تكاد تكون عامة في عوالم الطبيعة والكون والإنسان. فالكون في صورته العامة وإطاره الواسع ثابت، ولكنه دائب الحركة، بين ليل ونهار وشمس وقمر، وصيف وشتاء، والكواكب ثابتة الصورة ولكنها تتحرك: الشمس والقمر والنجوم لها محور تدور حوله في حركة طبيعية لاتتخلف ولكنها لاتفارق محورها،والإنسان في صورته العامة: قوامه وجهه، صوته، أجزاء جسمه نموذج ثابت ولكنه من داخل هذا الإطار الثابت متغير، وملامح الوجه، نبرات الصوت، بصمات اليد إلخ.

إن ترابط الثبات بالحركة في منهج المعرفة الإسلامي قانون أصيل، شأنه شأن قانون التكامل والوسطية والتوازن،وكلها تعنى الترابط بين العناصر التي قد تبدو مضادة أو متعارضة بينما هي متكاملة متلاقية، هذا المعنى المتصل بالفطرة والعقل والعلم، يختلف تقديره في نظر الفكر الغربي إلى درجه التضاد.

لقد كان الفكر الغربي إلى قبل عصر النهضة يؤمن بالثبات المطلق الذي قال به أرسطو، ثم جاءت نظرية التطور البيلوجية التي دعا إليها دارون منطلقاً للقول بالتطور الاجتماعي الذي دعا إليه هربرت سبنسر ومدرسته، ثم انتقلت الفلسفة الغربية نقلة خطيرة حين أعلن هيجل نظرية التغير المطلق،وهي النظرية التي يأخذ

بها الفكر الغربي من خلال الفلسفة المادية في العصر الراهن، مضافاً إليها القول بالتناقض والصراع.

وفي نظر الفكر الإسلامي أن نظرية التطور نظرية ناقصة، ينقصها إطار الثبات الذي يحدد الآفاق التي تجري فيها الحركة والأفلاك التي تدور فيها الكواكب.

٢- يقوم قانون الثبات في الإسلام - كإطار لحركة التطور - على ثبات الفطرة، فما دامت الفطرة الإنسانية لاتختلف في جوهرها بين عصر وآخر وأمة وأخرى، وما دام الوضع الاجتماعي الذي ينبثق عن هذه الفطرة وضعاً ثابتاً في جوهره تبعاً لثبات هذه الفطرة، فإن الكليات المقامة على أساسها ينبغى أن يتسمر اعتبارها وترسخ جذورها، وما دام الإنسان إنساناً وما دامت الدنيا من حوله هي هذه الدنيا وما دامت حاجاته الفطرية هي نفس حاجاته التي شعر بها منذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض، ومهما تطورت الفروع والجزئيات فلا يعدو أن يكون ذلك تنوعاً في شق السبيل إلى الأمور الخمس التي ناط الله تعالى بها سلامة الوضع الإنساني في الدنيا وسعادة الأبد في العقبى وهي:

«الدين - الحياة - العقل - النسل - المال» وهي المصالح الخمس التي فصلت الشريعة حكم الله فيها.

ويتمثل الثبات في دورة الأرض والشمس والليل والنهار والفصول: ثبات السنة الإلهية التي جبلها الله لهذا الكون ودوامها مدى الزمان، هذه السنة الثابتة التي يطلق عليها اليوم «قوانين الطبيعة» سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

والدنيا لم تتغير من حيث الإطار العام، ولكنها تغيرت من داخل هذا الإطار، لم تتغير العواطف والنزعات والغرائز ولكن الذي تغير هو وجوهها وأساليبها. والصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر قائم ثابت، ولكن الذي تغير هو طريقة الممارسة ووسائل التناول والنظر، وكذلك كل شئون الإنسان وعلاقاته الاجتماعية ما تزال ثابتة

الأطر والأساس متغيرة متجددة، متطورة، في أسلوب الحركة حتى يصدق عليها قول القائل: «قيم ثابتة ووسائل متغيرة» وهكذا يجمع الإسلام بين الثبات والتغير (أو التطور أو الحركة) ثبات السنن الإلهية والإطار العام للكون والحياة والإنسان وتغير كل ما في الكون داخل الإطار، بين حياة وموت وبين قوة وضعف، وبين ارتفاع وانخفاض، فكل مخلوق عرضة للتغير، بل ما يعرض للكائنات مادية ومعنوية من تغير وتطور إنما يدخل في هذه السنن الثابتة التي يجرى عليها نظام الكون والحياة.

فمن السنن الثابتة أن تتطور البشرية من طفولتها البدائية إلى مرحلة الرشد الإنساني ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ وسنة ثابتة أن تتغير العصور وتتطور الأجيال مع سير الزمن، كل جيل خلق لزمان غير زمان سلفه أو خلفه، وسنة ثابتة أن يمر الجنين بأطوار نموه في الرحم وأن يتطور الوليد من طفولة إلي صبا إلي شباب إلى شيخوخة، وسنة التطور التي يفرضها الإيمان بالله هو أن الكون مخلوق حادث له بدء وله نهاية هي بيد خالقه تبارك وتعالى› وفي مفهوم الإسلام أن الإنسان ثابت الجوهر متغير الصورة، ثابت الهدف متغير الوسائل، ثابت الإطار متغير الأطراف.

٣- والثبات أساس هام وقاعدة أصيلة ودعامة للأمم، فهو مصدر طابعها المميز وإطارها المستمر على التاريخ الذي يكفل لها الأصالة، والذي ليس بمثابة الجمود أو التوقف، ولكنه بمثابة علامة الطريق التي تحول دون الوقوع في التيه، وفي مجال الفكر يكون هذا الإطار عاصماً عن التخلف أو الانحراف، وهو معين على تنوع المضامين الفكرية داخلاً عصراً بعد عصر، فلا تزال الأمة قادرة على حمل رسالتها وحماية أمانتها،فإذا ذهب الثبات تحطم الإطار وفقد الرباط الذي يجمع بين الأمس والغد، هذا الإطار الثابت يتمثل في مجموعة القيم التي يقوم عليها بناء الأمة والذي تستمده من عقائدها وأخلاقها وذاتيتها وطوابعها المفردة.

ولقد كان الإطار الثابت في تاريخ الفكر الإسلامي محكماً ومرناً في نفس الوقت وقادراً على تقبل كل جديد وكان إيجابياً قادراً على إحداث التقدم.

وقد أشار الباحثون الغربيون إلى ميزة قانون المعرفة الإسلامي: القائم على الثبات والتعبير في مجال الحديث عن الكتب السابقة وما أصابها من تغيير وتبديل ويقول الأستاذ دوممين: إن القرآن الذي يقرؤه المسلمون الآن هو القرآن الذي كان يقرؤه محمد ﷺ ، قد وصل إلينا بطريق التواتر كتابة والتواتر حفظاً، ولن يتأتي لأشد المتعصبين ضده أو أشد المتعسفين الذين يملأ الغيظ قلوبهم ضد الإسلام أن يماري في صحة النص القرآني».

وهذه الدلالة تكشف عن قيمة الثبات، فالقرآن الذي هو الوحي المنزل من رب العالمين على قلب رسوله محمد ﷺ بالإسلام دينا خاتماً للبشرية كلها هو منطلق الحركة في الفكر الإسلامي كله، لأنه يمثل نقطة الثبات في هذا الفكر التي تبدأ منها الحركة كما تمثل الكعبة الدعامة الثابتة التي تبدأ من حولها الصلاة والتي تجري من حولها حركة الطواف. فالقرآن هو نقطة الثبات الأصلية في الفكر الإسلامي ومنه تبدأ الحركة وإليه تنتهى، فهو المصدر الأساسي للشريعة الإسلامية وقانون المعرفة وقانون قيام الأمم وسقوطها،ومصدر سنن الله في الكون وفي المجتمعات،ومنه تبدأ كلمة التوحيد،وهو منطلق المسلمين إلى منهج العلم التجريبي، ونقطة تحول المجتمعات البشرية من البدائية إلى الحضارة، ومن الفردية إلي الإخاء، ومن الوثنية إلى التوحيد.

ويحاول إقبال تصوير العلاقة بين الثبات والتطور فيقول: إن القرآن الذي يعتبر الكون متغيراً لايمكن أن يكون خصماً لفكرة التطور، على أننا ينبغى ألا ننسى أن الوجود ليس تغيراً صرفاً فحسب، ولكنه ينطوى على عناصر تنزع إلى الإبقاء على القديم، فليس في استطاعة الأمة أن تتنكر لماضيها تنكراً تاماً،لأن الماضي هو الذي كيف شخصيتها الحاضرة، كما أن حكم القرآن على الوجود بأنه يزداد ويترقى بالتدريج يقتضي أن يكون لكل جيل الحق في أن يهتدي بما ورثه من أثار أسلافه

من غير أن يعوقه ذلك التراث في تفكيره وحكمه وحل مشكلاته الخاصة».

٤- ويرتبط ثبات الإسلام في أصوله العامة بثبات اللغة يقول العلامة محمد المبارك: ذلك أن من خصائص العربية ثبات الحروف الأصلية الثلاثة في كل مادة مهما يطرأ على الكلمة من تبدل في اشتقاقها وصيغتها كحروف (ع. ل. م) فإن جميع الألفاظ التي اشتقت أو يمكن أن تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلماء والاستعلام والمعلومات والمعالم والتعليم والأعلام وغيرهامن الألفاظ المشتقة من هذا الأصل تشتمل على جميع الحروف الثلاثة ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الأصلي والمفهوم المشترك بين الألفاظ وهكذا تبدو خاصة بثبات الأصول في صورتها اللفظية ودلالتها المعنوية، وهذه الخاصة هي التي يتطلبها الإسلام لإمكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه وأحكامه،مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند أبنائها دون أن تحدث فجوة واسعة بين الأصل اللغوي المستعمل وما انتهى إليه في صورته ومعناه، وهكذا يبقى أبناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما يطل العهد به، أما اللغات الأخرى فإن الألفاظ فيها يعتريها التبديل والتحول في صورتها حتى تتغير حروفها وأصولها فلا تكاد تعرف أصلها،وفي دلالتها المعنوية كذلك، وبهذا: يصبح بين ألفاظ النص القديم وماانتهت إليه هذه الألفاظ في تطورها بون كبير يؤدي إلى جهل المعنى القديم أو الوقوع في خطأ جسيم فألفاظ: الحق والمدعى والقضاء والحكم واليمين والبيئة والشاهد والرهن والأجل والعقل والشرط والخصم وغيرها) كذلك من ألفاظ العقائد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة بين الناس إلى يومنا هذا.

(٢)

الإسلام وفكره ومنهج المعرفة الخاص به يجمع بين الروح والمادة والمصلحة الخاصة والعامة،ويجمع بين الثبات والتطور،ويجمع بين الزمني والروحي،واللانهائي والمحدود والمطلق والنسبي،ويجمع بين الأرض والسماء،وبين خلود الأخرة وفناء الدنيا، بينما يفصل الفكر الغربي (بشقيه) بين هذه القيم جميعاً ولا تقف عند هذا بل تدعونا

مذاهبه وأيدولوجياته ونظرياته إلى أن نفعل ذلك، ولكن هذا التفريق بين مفهوم الإسلام الكامل الجامع، الرابط بين الثوابت والمتغيرات، سيظل هو أبرز معالمه وأقوى دعائمه وأمتن أسسه، فإذا هدم المسلمون هذه القاعدة قد أصبحوا شيئاً آخر غير الإسلام وفكره ومنهجه.

وينكشف مفهوم الإسلام الجامع، في كل مجالات الفكر: في السياسة وفي الاقتصاد وفي القانون وفي التربية وفي الحرية وفي العلوم والإنسانيات نظام ثابت في أسسه وإطاره وضوابطه ودعائمه، وله منطلق متطور قادر على الحركة، فالأصول ثابتة لأنها ربانية والتطبيق وضعي لأنه بشري.

أصول ثابتة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية لأنها جاءت في القرآن والسنة، غير قابلة للتغيير أو التبديل يخضع لها المسلمون في كل زمان ومكان بغض النظر عن حالة المجتمع (زراعي - صناعي - مدني - بدوي) وهي في نفس الوقت تسمح باتخاذ الأساليب المناسبة للعصر والبيئة في التطبيق،بحيث تبدو هذه الأصول الثابتة بمثابة إطارات عامة تتم الحركة في داخلها،فهي في هذا الجانب التطبيقي: متطورة، متحركة، متغيرة، بما يتلاءم وظروف الزمان والمكان ومن ثم تتعدد نماذج التطبيقات وتختلف باختلاف المجتمعات فالاقتصاد الإسلامي، والاجتماع الإسلامي، والسياسة الإسلامية، والتربية الإسلامية والشريعة الإسلامية في المعاملات والعلائق بين أفراد المجتمع (ربانية) المصدر مرجعها إلى الله سبحانه وتعالى صاحب المنهج الأصيل الذي قدمته الأديان إلى البشرية بواسطة الأنبياء والرسل عن طريق الوحي، هذه الأصول الثابتة تحدد مجال الحلال والحرام والخير والشر والحق والباطل باعتبارها قيماً ثابتة ثبوت وجود هذا النظام على الكون ووجود الإنسان نفسه «ثم جاء الرسول والصحابة فطبقوا هذا النظام الرباني على واقع الحياة فأقاموا مجتمعهم الأول الذي اتسع من بعد وشمل أقطاراً مختلفة، ثم امتد بعد عصوراً متوالية، هذه التنظيمات التطبيقية توضع في نطاق الحركة والتعبير والتطور فهي جهود العقل المهتدي بالوحي، عن طريق الأئمة المجتهدين في

الاستنباط والاستقراء في إطار الأصول الربانية،فعمل الباحث في القانون أو السياسة أو الاقتصاد أو التربية وفي كافة المجالات الإسلامية: هو تطبيقي لا إنشائي، ذلك لأنه لاينشئ ولا يثبت حكماً من عنده، وإنما هو يظهر ويكشف حكم الله في المسألة المطروحة حسب اجتهاده،لا حسب الحقيقة والواقع التي لايعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

فالأصول الإسلامية الثابتة لاترتبط بمرحلة معينة ولكن تطبيقاتها هي التي ترتبط بالمراحل، التي يمكن أن يلتمس المجتهدون أساليب جديدة لها في كل عصر في إطار الأصول الثابتة، وقد جاء الإسلام بنظامه المتكامل الجامع بعد أن وصلت البشرية في تقدير الله تبارك وتعالى إلى مرحلة الرشد الفكري وعدت مراحل البدائية والعبودية،فوضعت المجتمع البشري على أول طريق الاكتمال ومن ثم أصبح هذا التشريع صالحاً لكل زمان ومكان، ومن ثم فإن من حق المسلمين في التطبيق التماس صور تطبيقية مختلفة باختلاف المجتمعات والأزمنة، وليس هناك تطبيق معين يلتزم به المجتمع الإسلامي كله وإنما الالتزام قائم في حدود الأصول الثابتة والإطار العام، ولا بأس من الخلاف في الفروع والتفاصيل ولكن البأس كل البأس في الخلاف على المبادئ والأصول التي تستمد أساساً من معين واحد هو القرآن والسنة،ومن هنا كان الإسلام في نظامه الرباني جامعاً بين ما عجزت عن جمعه الفلسفات والمذاهب الغربية دون أن يحدث أي تعارض أو صراع أو اضطراب فهي أصول ثابتة: تمثل المطلق واللانهائي والروحي.

وهي في نفس الوقت ترتبط بتطبيقات مرنة متطورة تستجيب لمتطلبات كل مجتمع وظروف الزمان والمكان، أو هي بتعبير حديث جامعة بين المنطق الشكلي المجرد،الذي يقوم على أساس أن كل ما في الوجود مادة وفكراً هو في دائرة الثبات والمنطق الجدلي،الذي تقرر أن كل ما في الوجود (مادة وفكراً في تغير مستمر) لقد جمع الإسلام بين المنهجين في أصالة واقتدار، بينما عجزت الفلسفات والأيدولوجيات الغربية عن ذلك فاتخذت من منهج هيجل منطلقاً لمنهجها القائم الآن

سواء في الفكر الغربي الليبرالي أو في الفكر الماركسي.

وحين يجمع الإسلام بين الثبات والتطور، ثبات الإطار والفلك والمحور، مع الحركة والتغيير، فإنه يقر التناقضات الاجتماعية الموجودة في الحياة ويعتبرها كالسالب والموجب أداة للتعاون والتكامل لا للصراع، والاقتتال، ويرى أن الحقيقة ذات شقين فهي تتكامل بالتقائهما: الفرد والجماعة، المادة والروح، العقل والقلب، الأرض والسماء، فالإسلام يرى ضرورة وجود هذه المتقابلات التي توصف بأنها متناقضات ويوفق بينها،وفي بعض الحالات تغلب إحداها على الأخرى بصفة مؤقته ويقدر الضرورة وذلك لإعادة التوازن وتحقيق التعاون.

ومن هنا نرى قصور المنهج الجدلي كما نرى قصور المنهج الشكلي الغربيين، كل منهما قد انفرد بشق النواة ومضى بها وغاب عنه باقي الحقيقة، ومهما يكن من أمر الذين يعلون الآن من المنطق الجدلي سواء في صورته التي طرقها هيجل أو في الصورة التي طرقها ماركس فإنهم يقفون عند حدود الفكر البشري، عند حدود الإنشطارية العاجزة عن أن ترى دورة الكون الكاملة. فقد كانوا عاجزين حين أقروا منهج الثبات المطلق وجهلوا الحركة والتطور، ثم هم عجزوا أيضاً حين أقروا منهج التطور المطلق عن استيعاب وجود الثبات - والفكر الغربي موصوم بهذه الوصمة التي تدفعه إلى أبعد آماد التاريخ بأنه عجز عن فهم الدورة الكاملة أو الحقيقة الجامعة، وأنه ضل على علم لأنه لم يلتمس هداه من الله وظن أن العقل وحده قادر على استيعاب هذه الحقيقة التي هي أكبر من العقل، والتي تشتمل على شقين:

أحدهما وهو ما يعتقد الفكر الغربي أنه الحقيقة: النسبي والزمني والمحدود، بينما هذا الشق هو مظهر مشاهد ملموس محسوس للحقيقة الكبرى التي لاتدركها الأبصار وهي الله تبارك وتعالى: المطلق واللانهائي ورمز الخلود والبقاء،بينما هذا الكون كله مخلوق،له بدء وله نهاية ووجوده إلى غاية.

لقد وقف الفكر البشري عند حد محدود لأنه لم يجد من نور الله ما يكشف له أبعاد الحقيقة، بينما تجاوزر الفكر الرباني الحدود إلى الغاية، وقف هيجل ووقف

الماديون عند حد الظاهر والمادي وعجزوا عن الوصول إلى المعنوي والغيبي، وقفوا عند نور البصر ولم يتجاوزوه إلى نور البصيرة.

عرفوا بعض السنن الكونية ولم يستطيعوا أن يصلوا منها إلى خالق السنن، وإلى القادر على إيقاف هذه السنن وتعطيلها، وكذلك كل من وقف عند الأسلوب الانشطاري، العقلاني أو الحدس فإنهم عجزوا عن النظرة الكاملة والرؤية الجامعة، ونرى هذا فيمن وقفوا عند الأدب أو السياسة أو الوطنية أو القومية ولم تكتمل لديهم الصورة من البداء إلى النهاية، من خلق الكون إلى نهاية الحياة فيه وما بعد الموت من حياة أخرى وبعث جديد.

إن أخطر ما يقدم الفكر الغربي هو «تحدي العصر» وأثر البيئة ولكن هذا الجانب وحده لايعطى الحقيقة كاملة لأنه يتجاهل عنصر الثبات القائم المتصل بالإنسان والحياة منذ الأزل إلى الأبد. فإذا كان لابد للحكم على إنسان أو أدب أو مجتمع فلا مشاحة من أن يكون هناك عاملان: عامل الثبات المطلق اللانهائي وعامل الحركة النسبي المحدود، والإنسان نفسه مكون منهما معاً وجامع لهما معاً. وإنتاجه وآثاره وأدبه وفكره محكوم بالعاملين، عامل الأصل الثابت الفطري وله استجابته وأثره في تكوين الرأي وتشكيل الصورة،وعامل الاتصال بالمجتمع والحركة فيه، والاستجابة للعصر والبيئة، أما الفكر الغربي فيقتصر على هذا العنصر المتصل بالحركة ويحجب الأصل الأصيل الثابت وكذلك نرى في النظرة الوطنية والإقليمية، فهي نظرة تحكمها ظروف ضيقة بينما هناك الجناح الآخر: الامتداد التاريخي والجغرافي باعتبارها حلقة في كيان عام ومرحلة في تاريخ متصل.

لقد حمل الإسلام أمانة الأبعاد المتعددة للفكرة الواحدة ولم يقصرها على النظرة المعاصرة أو البيئة المحدودة.

كذلك فإن كلا من نظرية أرسطو وهيجل وماركس التي عرفت جزءاً من الحقيقة ولم تر الأبعاد كما حاولت أن تضع الإنسان في نطاق الجبرية فاعتبرته ممثلاً على مسرح التاريخ وليس هو كذلك، في مفهوم الفطرة التي جاء بها الإسلام، وإنما هو

صاحب إرادة هي مصدر مسئوليته، وهي إرادة جزئية تتحرك داخل إرادة الله العليا والمطلقة وهو ليس مجبوراً على شيء ولكنه محاسب على قدر حركته وفعله.

(٢)
في مجال العلوم الإنسانية

وأبرز مثل للفارق العميق بين التكامل والانشطارية وبين إعلاء التطور على قاعدة الثبات ذلك الخلاف البعيد المدى في تقييم العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية في الغرب ومحاكمتها إلى منهج العلوم التجريبية، وذلك اعتماداً على خطأ التقدير الذي تقول به الفلسفة المادية من أن الإنسان دم وماء وجسد،إنكاراً وتجاوزاً للجانب الروحي والمعنوي الذي يجعله من طراز آخر مختلف عن الماديات وعن الحيوان أيضاً بما يقتضي أن يقوم علم خاص على دراسته جامع للروح والمادة في تقديراته، وقد جرت محاولات في ذلك الطريق أسفرت عن العجز الكامل عن فهم الإنسان واقتضت الدعوة إلى معاملة الإنسان على نحو يختلف عن معاملة موضوعات العلم الطبعي،وهذا التوقف وهذه الحيرة يواجهها الفكر الإسلامي كما تواجهها قوانين المعرفة الإسلامية على نحو مختلف أشد الاختلاف استمداداً من القاعدة الأصيلة الجامعة: قاعدة الثبات والتغير في كيان الإنسان وقاعدة التكامل بين القيم والعلوم في النظرة الجامعة إلى الإنسان.

ذلك لأن السلوك البشري من مشاعر وعواطف وأحاسيس هو أمر لايخضع لما تخضع له قوانين المادة، ومن هنا كان لابد أن ننظر بشيء كثير من الحذر إلى المفاهيم المتصلة بعلوم النفس والاجتماع والأخلاق التي صيغت في العصر الأخير من خلال مفهوم الفلسفة المادية فحاكمت الإنسان على أنه حيوان وحشرة ومادة وهو ما ليس صحيحاً على إطلاقه من وجهة نظر العلم ولا منفصلاً في ميزان الفطرة أو العقل السليم.

ولقد عبر بعض الباحثين عن هذا الاختلاف الواضح في مناهج العلوم وآثاره البعيدة في دراسة الإنسان حين قال: إن المعرفة فيما يتعلق بالعلوم وقوانين المادة

تتطور باستمرار وتتغير من وقت إلى وقت بينما المعرفة فيما يتعلق بالفطرة والإنسان والاجتماع ثابتة، ومن هنا تتسم بالخطأ محاولة محاكمة الإنسان والعلوم الإنسانية والاجتماعية إلى قوانين المادة؛لأنها تنطلق من فرضية أن الإنسان مادة وجسم وليس له قوى روحية ومعنوية، هذه القوى الموجودة حقيقة والتي من شأنها أن تغير قاعدة الحكم عليه، كذلك فإن قوانين العلوم الطبعية ما زالت تعتبر حتى اليوم قوانين احتمالية أو ترجيحية، والقوانين الرياضية هي وحدها القوانين الثابتة أما قوانين العلوم الإنسانية فلا توصف بأنها قوانين بالمعنى الدقيق، وإنما هي مجرد تعميمات يكثر فيها الاستثناء، وهي تعميمات لاتخلو من تعسف منها إلي القوانين العامة التي تبرأ من كل استثناء، ويقول الدكتور توفيق الطويل إن الظاهرة الاجتماعية معقدة أشد التعقيد ويبدو أنها لاتضطرد علي غرار واحد، ومن الخطأ الظن أن الناس كالقطيع الواحد في استجاباتهم، كذلك من الخطأ نكران تميز النخبة والزعماء والمتفوقين،وما دامت الظواهر الاجتماعية لاتجري على نسق واحد دواماً فإنه من المتعذر وضع قانون عام لتفسيرها، ومن الضروري التفرقة بين طبعية الظاهرة الإنسانية (نفسية أو اجتماعية) وبين طبيعة الظاهرة الطبعية، وهذا هو من أكبر العوامل التي تعوق الإنسانية عن وضع قوانين عامة تشبه في دقتها قوانين العلوم الطبيعية. وتتمثل الأسباب التي تحول دون اصطناع المناهج التجريبية في تفسير العلوم الإنسانية في مجموعة من الركائز الهامة:

أولاً: إن حرية الإرادة البشرية تتدخل في الظواهر الإنسانية وتتكفل بتغيير مجراها تغييراً قد يجعل من العسير إخضاعها لقانون علمي ثابت ومن هذا يتيسر التنبؤ العلمي في مجال العلوم الطبيعية، بمعنى أن نتكهن بالمعلومات متى أدركنا عللها، وهذا غير ميسور في العلوم الإنسانية، على وجه الدقة لأن سير ظواهرها يمكن أن يغير مجراه بتدخل الإرادة البشرية هذا مع العلم بأن أحكام الناس تتأثر كثيراً بعوامل لاتتمشى مع منطق العقل فتفسد على العقل ما كان يتوقعه.

ثانياً: إن التجربة تلعب دوراً رئيسياً في كشف القوانين الطبيعية بينما يتعذر

إجراء التجارب في مجال العلوم الإنسانية إلا في نطاق محدود بحيث لايكون من المعقول إقامة منهج البحث على أساسها.

ثالثاً: إن القوانين الطبيعية عامة صادقة في كل زمان ومكان، أما مقررات العلوم الإنسانية فتشير على عكس هذه القوانين إلى ظروف شخصية تاريخية.

رابعاً: إن قوانين العلوم الإنسانية المزعومة ليست موضوعية خالصة فلا تكون صادقة بما هي كذلك فإن الباحث في هذه المجالات لايستطيع أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه وهو ينظر إلي موضوعه الذي يتصل حتماً بالإنسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليد وطنه ونحو هذا من عوامل تضعف من نزاهته وتجعل بحثه ذاتياً أو متأثراً بالعوامل الذاتية على عكس العلوم الطبيعية فإن تجرد الباحث عن الميل والهوى ميسور عند علاج موضوعاتها ومن هنا كان البحث العلمي موضوعياً وليس ذاتياً.

خامساً: إن الدقة في قوانين العلوم الطبيعية مرجعها إلى صورتها الرياضية لأن من الميسور أن تقاس مقاديرها بالكلية. أما العلوم الإنسانية فيتعذر إخضاع موضوعاتها لهذا الضبط الكمي ويستحيل تصويرها بالمعادلات الرياضية الدقيقة، وقد أدى هذا ببعض العلوم الإنسانية إلى القول بأن قوانين علومهم لاتكون قط «عامة» لأنها لاتخلو من الحالات الاستثنائية التي لاتدخل في طبيعتها (فلكس كيفمان).

سادساً: استبعد من محل العلم كل ما لا يصطنع المفاهيم التجريبية من العلوم الإنسانية وقد قطع كل من علم النفس والاجتماع أشواطاً طويلة في سبيل التشبه بالعلوم الطبيعية ومع ذلك لايزالان يفتقران - بحكم الموضوعات التي يعالجانها لبعض الخصائص التي تميز العلم بمعناه الضيق لأن العلم لايستقيم بغير (جبرية) تجعل ظواهره ضرورية محتومة الوقوع، وليست ممكنة تقع مصادفة واتفاقاً (كإلقاء حجر) ولما كانت الظاهرة الطبيعية تجري على نسق واحد، فإن ذلك ييسر لعالم الطبيعة أن يحدد سرعة سقوط الأجسام بمعادلات رياضية دقيقة.

أما الظواهر الإنسانية فيبدو أنها لاتجري على هذا الغرار تماماً، وأن الظاهرة (النفسية) غير الظاهرة (الطبيعية) تستثيرها وتدخل في توجيهها عوامل كثيرة متشابكة، يرتد بعضها إلي حرية الفرد وخبراته الثقافية والاجتماعية بوجه عام، ويرجع بعضها إلى البيئة التي تكيفه وتؤثر في توجيبهه، وهذه العوامل من التداخل والتشابك بحيث يصعب حصرها وتحديد نصيب كل منها في توجيه الظاهرة التي ندرسها وتكفى حرية الفرد بتدخلها في مجرى الظاهرة مانعاً للتنبؤ بوقوعها أو اضطراد حدوثها على نسق واحد ومن ثم يتعذر بذلك وضع «قانون عام» له دقة القوانين الطبيعية.

سابعاً: إن الظاهرة النفسية أصلاً ذاتية وليست موضوعية، إنها تتصل بباطن النفس منعزلة أو مجتمعة بغيرها، وهي تتعرض لتدخل الإرادة البشرية التي تستطيع في كثير من الحالات تغيير مجراها فيتعذر التنبؤ بوقوعها على وجه دقيق وتنتفى الجبرية التي هي طابع العلم وروحه، ومن ذلك فإن الشعور بالفقر والحرمان والإخفاق قد يسلم صاحبه إلى اليأس من الحياة أو الانتحار،هرباً من مواجهتها وقد يؤدي الشعور نفسه عند فرد آخر إلى التمسك بالأمل ومضاعفة العمل،لتغيير الظروف الكثيبة التي تكتنفه ومرد الأمر في الحالين إلى اختلاف هذين الفردين في مدى حظهما من سداد التفكير وسلامة الجسم وسعة الثقافة ونوع التربية وسائر المقومات الشخصية،وقريب من هذا يمكن أن يقال في الظاهرة الاجتماعية، أنها لاتخضع لمثل (الجبرية) التي تخضع لها الظواهر الطبيعية. فالفقر ظاهرة اجتماعية قد تفرض على أفراد أحد المجتمعات الإقبال على الانتحار،بينما يتوافر هذا الفقر في بيئة أخرى تكاد تخلو من ظاهرة الانتحار، بل إن الفقر يختلف تأثيره في أفراد البيئة الواحدة يدفع أحدهم إلي الإجرام وأحدهم إلى الصلاح إيماناً بما قدر له الله من حظ، أو استجابة لنوع سليم من التربية يؤدى إلى الترحيب بمواجهة التبعات،فالظاهرة الاجتماعية معقدة أشد التعقيد، ولا تضطرد على غرار واحد.

ثامناً: يرى الاجتماعيون أن البطل في كل صورة، مجرد معبر عن روح العصر

الذي عاش فيه ولكنهم يفسرون ظهوره بأنه سبق معاصريه إلى معرفة الطريق الذي يسلم إلى تقدم مجتمعه، والأمر يبدو على غير هذا الوجه فالفرد متى كان زعيماً أو بطلاً أو مصلحاً له أثره الملحوظ في خلق ظواهر اجتماعية ما كان يمكن أن يكون لها وجود بغير ظهوره، وما دامت الظواهر الاجتماعية لاتجري على نسق واحد دواماً فإن من المتعذر وضع قانون عام لتفسيرها.

وبالجملة فإن الظاهرة الإنسانية: نفسية أو اجتماعية، تختلف اختلافاً واسعاً عن الظاهرة الطبيعية وهذا من أكبر العوامل التي تجعل قوانين العلوم الطبيعية غير صالحه للتطبيق على العلوم الإنسانية،وإن وضع النفس الإنسانية تحت حكم قوانين مادية لها مقايسات وموازين، هذا من الأمور التي تشبه المستحيل، وهذا الذي يقول به الباحثون في التفرقة بين العلوم الطبيعية يساير وجهة نظر الإسلام الذي يحرر الإنسان من جبرية المادة وقوانين المادة بما أعطى من:

١- حرية الإرادة. ٢- التمايز بين الأفراد. ٣- أهواء الإنسان وميوله ومصالحه وأثرها في توجيه الأمور. ٤- رد فعل الأحداث واختلافه بين فرد وفرد تحت تأثير الإيمان قوة وضعفاً وتحت تأثير البيئة وعوامل التربية والثقافة. ٥- تعذر التنبؤ في مجال النفس والاجتماع لتدخل الإرادة البشرية التي قد تتجه وجهة إيجابية أو سلبية في موقفها من حدث ما بعينه.

ومن هنا نصل إلى ما يؤكد سلامة المنهج الإسلامي في المعرفة الجامع بين الروح والمادة والنفس والعقل. القائم على التكامل لا الانشطار وعلى قانون الثبات الذي تجري حركة التغيير من (داخله) ووفق هذا القانون الذي يلتقي مع الفطرة والعقل والعلم تواجه قضايا النفس الإنسانية وقضايا المجتمع والأخلاق بمفاهيم أكثر سلامة وعمقاً.

(٣٠)

التـــــراث

الميـــراث الإســـــلامي

لكل أمة تراث،هو عصارة فكرها وعقائدها،وحصيلة جهدها العقلي والروحي والتراث الإسلامي هو بمثابة الجهد البشري في تفسير الموروث الإسلامي الذي جاء به القرآن والوحي وقام عليه رسول الله ﷺ بسنته وسيرته. ولا بد دائماً من أن تكون التفرقة واضحة بين التراث وبين الميراث،وأن نكون قادرين على الوضوح الكامل إزاء فهم كلمات (القديم والماضي والتراث) وعلاقتها بذلك الموروث الإسلامي الأصيل،وأن نكون قادرين دائماً على التفريق بين الإسلام باعتباره ديناً ومنهج حياة له ثباته وربانيته وقدسيته المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية،وبين التراث الذي هو اجتهاد المسلمين في تفصيل هذا الميراث وتعميقه والاستجابة له من خلال العصور والظروف والأحداث والبيئات، وهذا الحرص على تأكيد الوضوح في التفرقة إنما يرجع إلى أن كل الحملات التي توجه إلى الإسلام الآن إنما تختفى وراء كلمات (الماضي والقديم والتراث) وهي تشير إليها في عبارات مطاطة مرنة ماكرة ترمي إلى أن تصيب هدفها بالسخرية أو النقد أو الانتقاص من الموروث الإسلامي أساساً، ومن يطالع كتابات طه حسين وزكي نجيب محمود ولويس عوض وحسين فوزي وغيرهم يجد هذا الاتجاه واضحاً وظاهراً ومكشوفاً، ويجد الحملة الموجهة إلى اللغة العربية أو إلى التراث أو إلى عامود الشعر أو إلى الأدب العربي إنما تستهدف أساساً إثارة الشبهات حول الموروث الإسلامي وليس حول التراث الإسلامي.

٢- إن في أعناق الأجيال الحاضرة «أمانة» تسلموها من الأجيال التي سبقتهم وعليهم أن يسلموها إلى الأجيال القادمة بعد أن يؤدوا دورهم إزاءها ويقوموا بمسئوليتهم نحوها، تلك هي أمانة الموروث الإسلامي لقد قام أسلافنا على هذه

الأمانة بالحماية وذادوا عنها كل غاز وحفظوها من كل دخيل ودحضوا كل زيف وجه إليها على قدر استطاعتهم وفي حدود تحديات عصرهم، هذه الأمانة اليوم بين أيدي هذا الجيل الذي يواجه مسئوليات أشد خطورة وأكثر عمقاً مع تعقد حركة الغزو وتضافرها مع حركات أخرى متعددة منها: الاستشراق والتبشير والشعوبية والتلمودية والمادية والإباحية وكلها تعارض (الأمانة) معارضة واسعة وتحاول أن تجد فيها ثغرة تنفذ منها إلى الناس لتقطع ذلك الخيط المتصل الذي استمر وامتد منذ نزل الوحي بالإسلام على سيدنا محمد ﷺ ومنذ اختتمت آيات القرآن الكريم: شرعة الله وأمانته إلى المسلمين يحفظونه ويدافعون عنه وينشرونه في العالمين ويهدون إليه الأمم ويكشفون عن عظمته وأمجاده ومعطياته في عالم مأزوم، يحتاج إلى الضياء والنور والهدى في أجيال يكاد يقتلها الظلام والشك والقلق والتمزق والضياع: تلك أمانة الموروث الإسلامي في أيدي قومنا ومثقفينا فهم مطالبون أولاً بفهمها ثم تبيينها للناس، وهم لكي يفهموها لابد لهم من أن يبدأوا من منابع الإسلام نفسه، وأن يلتمسوا لها جوهر المعرفة الإسلامية، وهم لن يستطيعوا أن يحموها أو يدفعوها أو يقدموها للبشرية إلا إذا كانوا هم أنفسهم قد صدروا عنها عقلاً ونفساً ومزاجاً، أما إذا حاولوا ذلك عن طريق أسلوب الفلسفة أو أسلوب المنطق أو أسلوب العلم أو أسلوب الإشراق أو غير ذلك من الأساليب المنتشرة المفردة والجزئية القاهرة فإن ذلك سوف لايحقق لهم الوصول إلى أعماق الفهم الصحيح ذلك أن للإسلام منهجه الأصيل في المعرفة وأسلوبه الخاص في البيان ذلك هو الأسلوب القرآني، ومن الحق أن كثيرين دافعوا عن الإسلام بأسلوب الفلسفة أو أسلوب المنطق أو أسلوب الكلام أو أسلوب الوجدان، فلما عدوا مرحلتهم أو بيئتهم لم يستطع دفاعهم أن يحتفظ بقوته أو وهجه بل أصبح دفاعاً تاريخياً محضاً. ذلك لأنهم التمسوا مناهج في المعرفة غير منهج القرآن الخالد المستفيض الناشر ألويته على البشرية كلها بكل أجيالها وبيئاتها، ولا ريب يعجز طلاب الحقيقة في الإسلام أن يصلوا إليها عن طريق المناهج الفلسفية أو الكلامية أو المنطقية لأنهم سوف يكونون أسارى للجزئية التي يمثلها منهجهم، أما منهج الإسلام فإنه وحده القادر على أن يعطيهم أعماق

الفهم وأبعاده المتصلة بالأبد والأزل.

إنه منهج يجرى إلى الأبعاد المختلفة للفكر، فهو يغطى طرائق العقل والقلب والنظر والمشاهدة والاستدلال، فقد استوعب القرآن طرق المعرفة جيمعاً ووسائلها كلما أتيح له أن يصل إلى مختلف العقول والقلوب والأذواق.

ولقد وضع القرآن أساس المعرفة على قاعدة جامعة «الكم والكيف، المادة والروح. الغاية والسبب» وربط القرآن بين الحواس والعقل والوجدان، ووضع أهم القواعد التي تحفظ العقل من الزيغ وهو عدم تجاوز الحد،كما دعا إلى التقدير والتقرير وعدم التعجل في الحصول على النتائج قبل استكمال البحث والموازنة والاستقراء،ودعا إلى التخصص قبل البحث، وعدم المكابرة والعناد،ودعا إلي المراجعة والمعاودة والاستمساك بالحق،والبعد عن الغرور والجهد بالحق والدفاع عنه.

يقول الإمام الترمذي: إنا وجدنا دين الله مبنياً على ثلاثة أركان: على الحق والعدل والصدق، فالحق على الجوارح،والعدل على القلوب،والصدق على العقول. فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل، وإذا افتقد العدل خلفه الجور، وإذا افتقد الصدق خلفه الكذب، فعلى ضوء منهج الإسلام في المعرفة نستطيع أن نصل إلى أعماق الفهم، ومن ثم نكون قادرين على بيان ذلك للناس، فلنقدم (الإسلام) للعالم. نقدم الإسلام الذي أنزله الله على حقيقته ومن خلال منهجه، وليس الإسلام الذي فهمناه من خلال مناهج الغرب فكان مصدر الهزيمة والنكسة.

إن الإسلام في جوهره الأصيل: أداة للقوة والنصر والأمن والسيادة لأهله ومعتنقيه، غير أن فهمه وتفسيره وتعليمه من خلال إطارات غربية وافدة من شأنه أن يحول دون ظهوره على صورته الأصيلة، أو تمكينه من القدرة على العطاء الصحيح، ولو نظرنا الآن لوجدنا أننا ندرس العلوم الإسلامية كلها من خلال مناهج وافدة - اللغة العربية تتحكم فيها المذاهب الغربية وهي مذاهب صيغت من خلال تجربة اللغة اللاتينية وبناتها اللغات الأوربية،ومن خلال تحديات العاميات التي أصبحت لغات والتي لانفهم الماضي إلا بقاموس والتي تحتاج كل ثلاثمائة سنة أن

تلغى قديمها وتبدأ من العاميات المعاصرة، وهي مذاهب لاتصلح للتطبيق على اللغة العربية التي امتدت منذ نزل بها القرآن أربعة عشر قرناً، وفي مجال التاريخ: تتحكم فينا مناهج وافدة ترمي إلى تصوير تاريخنا الإسلامي العظيم على أنه تاريخ اقتتال وصراع بين الملوك والأمراء، وتحاول أن تفصل تاريخ كل قطر وشعب كأن له ذاتية خاصة، كما تحاول أن تفصل عصرنا الحديث عن امتداده الطبيعي مع الإسلام، وفي مجال الثقافة نرى مثل هذه التحديات وكلها محاولات ترمى إلى أن نقتنع زوراً وبهتاناً بأننا أتباع للغرب، مع أن الحقائق الثابتة تكشف بوضوح أنه ما من علم من العلوم المستحدثة إلا وله أصل في فكرنا الإسلامي،سواء أكانت علوماً طبيعية أم رياضية أم فلكاً أم طباً ولكن مدارسنا تقدم ذاك كله اليوم منفصلاً عن جذوره، وهكذا ترانا وقد عشنا حاضراً ليس له شهادة ميلاد، وكأنما نحن عالة على علوم الغرب، وكأن لم يكن لنا فيها رصيد ولا ميراث.

أما مواريثنا الإسلامية في مجال (الاجتماع والقانون والتربية والسياسة) فإننا لم نستطع بعد أن نكشف عنها للناس أو نعلن بها للبشرية لدينا الشريعة الإسلامية الزاخرة بكل القيم التي تبنى المجتمع العظيم، وقد شهدت لنا مؤتمرات عالمية متعددة، وعرف أعلام القانون في العالم فضلها ومعطياتها، ولكن السؤال هو: لماذا يقف المسلمون منها موقف الجحود فلا يطبقونها ولا يكشفون للناس عن عظمة العطاء فيها؟ لدينا مناهج التربية التي لن تجد البشرية أعمق منها أثراً في بناء الإنسان فلماذا لاتأخذ مجالها إلى التطبيق ولماذا تعلو عليها مناهج ديوي وفرويد؟ لدينا مفاهيم بناء المجتمع القوى النافع، صاغها الإسلام وأعطانا ناموس الحضارات وقانون قيام الأمم والمجتمعات وسقوطها وما تزال هذه المفاهيم مجمدة بينما يلتمس المسلمون أيدولوجيات غريبة عنهم أيدولوجيات لم تستطع أن تحقق لأصحابها شيئاً، والأمم اليوم في العالم كله تواجه ظاهرة واضحة صريحة لا خفاء فيها ما تزال تلح على البشرية: تلك هي «أزمة الحضارة» و «أزمة الإنسان المعاصر» في خاتمة سلسلة طويلة من الصراع بين الحضارة والدين، من حيث وقع الخلاف في تفسيره، ومن

حيث واجهت أوربا مفهوماً معيناً، ومن حيث تحاول الصهيونية التلمودية احتواء الغرب وفكره جميعاً.

ومن حيث ارتبطت الحضارة الغربية بالاستعمار واستعانت بالعنصرية واتخذت من المادية أسلوباً للحياة، فإذا النفس الإنسانية تحس بالجزع وتمتلئ بالخوف ويداخلها الاضطراب والقلق، لأنها بعدت عن تكامل الإنسان روحاً ومادة، وتكامل الحياة دنيا وآخرة، لقد ذهب الغرب في سبيل علاج أزمته كل سبيل، عن طريق اللبرالية والوجودية والسريالية والتفسير المادي للتاريخ، وحاولت ذلك ما حاولت دون أن تصل إلى شيء يهدى ويرشد، فلما عجزت آفاق الفكر الغربي التمست الفكر الهندي والبوذي والغنوصي فلم يمنحها شيئاً بل زاد اضطرابها به،وهي الآن وليس أمامها إلا أن تجرب الإسلام، تجد الحوائل تحول بينها وبينه، من ناحيتين:

من ناحية موجهيها والذين احتووا فكرها، ومن دعاة بروتوكولات صهيون الذين يريدون أن يسيطروا على العالم كله، ومن ناحية عدم مطابقة حياة المسلمين لدينهم على النحو الذي يمكن المسلمين من تقديم هذا الدين للبشرية بالقدوة الصحيحة وأن يتلقاه الناس منهم، فما زال المسلمون تحت وطأة المذاهب الحديثة وأسر التقليد والتعبية لم يتحرروا بعد، واليوم يواجه المسلمون تحدياً أشد خطراً مما تواجه الحضارة الغربية: ذلك هو تحدى الغزو الصهيوني الذي يسيطر على جزء من القلب الإسلامي النابض في «بيت المقدس» وليس لهم سبيل إلا أن يحددوا موقفهم من الموروث الإسلامي تطبيقاً، وأن يجدوا فيه منطلقهم وهدفهم حلاً لمعضلاتهم أولاً، ثم انطلاقاً إلى نشر دعوة الإسلام في العالمين وإهدائه للبشرية الحائرة وتجديد الحضارة الإسلامية، إن موروث المسلمين هو القرآن: منهجاً لحياتهم وهو الأمانة التي قاتل من أجلها السابقون وقتلوا واستشهدوا حتى حفظوها جيلاً وراء جيل من عادية الغزاة: من التتار والصليبيين والفرنجة والاستعمار الغربي (ماركسية ولبيرالية وصهيونية) وكل غاصب دخيل، وهم اليوم مسئولون عن الأمانة وعليهم أن يعدوا هذه الأجيال إعداداً صالحاً حتى تكون قادرة على حمل المسئولية وتقدير التبعة

جيلاً بعد جيل، فأمانة الموروث الإسلامي تحتاج اليوم إلى تطبيق الشريعة وإقامة منهج التربية الإسلامية القادر على تقديم الإسلام منهجاً قرآنياً خالصاً أصيلاً، لا فلسفياً ولا منطقياً، ولا جدلياً، وإنما صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ولسوف يسأل قومي عن هذه الأمانة بين يدي الله ولسوف يحاسبون عن تطبيقها ونشرها في العالمين حساباً شديداً، من حيث إنهم قصروا عن حمايتها أو تبليغها أو إذاعتها في البشرية كلها.

ولا ريب أن أخطر ما تحاول اليوم حركات الغزو والتغريب والشعوبية أن تزيف هذه الأمانة بالإضافة والحذف، وإثارة الشبهات، وعرضها على مناهج وافدة ليست منها ولا لها، رغبة في أن يختلط هذا الموروث بالتراث فيصبح شيئاً يمكن إفساده وتدميره، وأن أقوى ما يجب أن نحرص عليه هو أن نكشف دائماً عن وجوه الفصل العميق بين «الميراث» المتمثل في معطيات الوحي الرباني برسالة السماء المبلغة إلى الرسول ﷺ خاتم المرسلين بخاتم الرسالات بالقرآن الكريم والسنة النبوية وبين «الميراث» وهو التفسير الذي قام به علماء المسلمين وأئمتهم والمتمثل في مختلف جوانب الفكر الإسلامي وأن نعرف دائماً ماذا تريد كلمات (القديم والماضي والتراث) أن تقول وماذا تعنى، وكل ما أمامنا من كتاب رجال التغريب إنما يرمى بهذه الكلمات إلى الميراث وإن كانت خطط الغزو الماكرة لاتريد أن تكشف وجهتها صراحة حتى لاتجد معارضة تدمر أهدافها، ونحن نعرف ونؤكد أن الحملات الموجهة إلى اللغة وإلى عامود الشعر وإلى التراث وإلى الدعوة إلى كسر النص، وإلى العاميات وإلى الحروف اللاتينية كلها تحاول أن ترمي القرآن الكريم عن قوس، وأن الشبهات المثارة حول سيرة الرسول والقرآن والوحي والنبوة والسنة المطهرة والتاريخ والشريعة والفرق الإسلامية والتركيز على العقلانية والمعتزلة، كل هذا إنما يجري ضمن خطة ماكرة تستهدف بالبحث في التراث تدمير القيم الأساسية للإسلام نفسه.

(٢)

من خلال هذا الميراث الإسلامي بدأ المسلمون صناعة الفكر الإسلامي الذي نسميه

الآن «التراث» وقد جرى هذاالعمل في ميادين مختلفة على نحو محكم بارع،فقد أعطاهم الإسلام منهجاً للمعرفة العلمية والنقد غاية في القوة والدقة وبالإضافة إلى منهج التجريب، ومنهج المعرفة ذي الجناحين عرف المسلمون منهج التحقيق العلمي الذي بدأ بتحقيق السنة وامتد إلي التاريخ، وكذلك رسموا المنهج الخاص بالمناظرة وآداب البحث،ومن هنا فقد تشكل تراثهم على نحو علمي صحيح بعيداً عن الأهواء والظنون متحرراً من الخرافات والأساطير.

ولقد تبين للباحثين من خلال النماذج التي قدمها المسلمون في مختلف الأبحاث الحديثة سواء في مجال القانون أو الاجتماع أو التربية أو السياسة مدى ما يزخر به ذلك التراث من معطيات، ولذلك فقد كان من أبرز أهداف مخططات الاستعمار والتغريب الحملة على التراث الإسلامي وإثارة الشبهات حوله ورميه بالانتقاص، بهدف واضح معروف هو ألاّ يقوم في النفس المسلمة ذلك الإحساس بمكانة هذا التراث العالمية وحتى يمكن قطع حاضر هذه الأمة عن ماضيها، وجرت دعوة التغريبيين إلى القول بأن سبيل النهضة هو تجاهل هذا الماضي وهذا التراث الذي وصف بأنه معوق للحركة، فلما ثبت المسلمون أمام هذا الافتراء الزائف غير الاستشراق والتغريب خطته وأخذ يدعو الآن إلى الربط بين التراث وبين العصر شريطة أن يختار من التراث ما يروقه، فإذا ذهبنا نتعرف على ما يروقه لم نجده ينتقى الجوانب الإيجابية والمعطيات التي انتفع بها علماء القانون والاجتماع في أوربا، وإنما أراد أن يركز على جوانب الخلاف والصراع وتضارب أقوال الفرق في مرحلة تشكيل الفكر الإسلامي بعد ترجمة الفلسفة اليونانية وهي مرحلة انتهت بكل ما فيها،لأنها انضمت إلى تشكيل (منهج السنة والجماعة) الذي صهر في جوهره كل حسنات المعتزلة والخوارج والشيعة والمتصوفة وإذابته في كل متماسك جامع، شأن الإسلام نفسه في منهجه المتكامل. إن هذه الحملة الشعوبية التغريبية تعرف عظمة هذا التراث ومدى ما يحتويه من كنوز من شأنها إذا عاد إليها المسلمون وصاغوها في أسلوب العصر وطبقوها في حياتهم أن يدفعهم إلى ذروة

النهضة والقوة والتمكين، هم لذلك يرغبون في أن يحولوا بين المسلمين وبين معطيات تراثهم،ومن هنا تجيء تلك الحملة المدمرة التي تثير الشبهات حول التراث على أنحاء مختلفة، ووفق مخططات ترتبط بمراحل حركة هذه الأمة، سواء في إبان الاحتلال، أم في إبان النكسة، أم في إبان العودة إلي المنابع.

إن الدعـوى التي تـتركـز عليـها الحـملة عـلى التـراث انفصـال هـذه الأمـة عـن جذورها التي تشـكل مختـلف قيمـها الأسـاسية وعـقائدها ومقـومـات ذاتيتها، وحين يثير دعاة التغريب والتبشير والاستشراق والشعوبية هذه الدعوى إنما يتعارضون مع واقع التاريخ نفسه ومع طبيعة النهضات في الأمم، بل ومع منطلق النهضة الغربية نفسها التي استمدت وجودها أساساً من الاتصال بالتراث الهليني والفلك الإغريقي والقانون الروماني بعد أن انفصلت عنه أكثر من ألف عام فأعادته من جديد وأحيته في مجالات الفن والأدب واعتبرته مظهراً من مظاهر الفكر إذا قام منفصلاً عن هذه القاعدة الراسخة المستمدة من التراث.

حدث هذا في الغرب مع تراث قديم بائد مضى وانـقضى وتم الانفصال عنه أكثر من ألف عام في لغة ميتة متخفية هي اللغة اللاتينية التي انطوت تماماً بعد ما خلفت من لهجاتها لغات جديدة عصرية، فكيف بتراث ما زال متصلاً لم ينفصل ماضيه عن حاضره لحظة وعن طريق نفس اللغة التي يستطيع قارئها اليوم أن يقرأ ما كتب بها قبل أربعة عشر قرناً ويتذوقه ويفهمه، حيث لايوجد مثيل لذلك في الفكر الغربي بل العالمي كله، ولكنها هي الدعوة التغريبية الهادفة إلى عزل المسلمين عن ماضيهم وتراثهم ومقوماتهم، تحاول أن تصور هذا التراث بصورة التخلف والتأخر وترميه باتهامات وشبهات في محاولة لهدمه وخلق الكراهية والاحتقار له في نفوس الأجيال الجديدة، ولقد عرف الفكر الغربي قيمة التراث وحقيقته: حتى ليقول: (بسكال): كل نسل لابد أن يستفيد أولاً من الفكر الذي تركه من سبقوه، ثم يزيده إن كان عنده استعداد لذلك، ولا تستطيع أمة ما أن تحيد عن هذا القانون.

ويقول جاك بيرك: إن مستقبل العرب يتمثل في إحياء الماضي لأن المستقبل في كثير من الحالات هو الماضي.أو الحاضر الذي وقع إحياؤه وعيشه من جديد.

ويجمع الباحثون المنصفون على أنه لم تقم نهضة جادة في أمة ما، إلا سبقتها دعوة لاستحياء الماضي والانتفاع به والبناء عليه، خاصة إذا كان ذلك التراث على مثل عظمة التراث الإسلامي استمداداً من القرآن الكريم والإسلام.

ويقول سيمون وايل في مقالة (الحاجة إلى الجذور): إن التراث الماضي في عنق الحاضر مسئولية قدسية فإذا انهدم الماضي فإن عودته ضرب من المحال، وإن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث،فما علينا إلا أن نجعل همنا الأكبر الاحتفاظ بالذي تبقى لنا من تراث الماضي. هذه الجذور ليست نزعة عاطفية معناها الرجعية والجمود، وإنما هي غريزة روحية تكمن في نفوسنا جميعاً، وقد أشار إلى أهمية التراث فلاسفة ومصلحون وقادة كثيرون وهم يرون أنه لاتعارض مطلقاً بين الاتجاه إلى المستقبل والمحافظة على التراث، بل إن التركيز على التراث كقاعدة إنما يجعل النظرة إلى المستقبل أكثر قوة ووضوحاً.

يقول نهرو: إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل وأن نعمل له جاهدين وأن نحتفظ في نفس الوقت بتراثنا الماضي ماثلاً أمامنا لكي نستمد منه القوى والعزيمة، وخير مستقبل هو ما كان قائماً على الحاضر والماضي على السواء، أما أن نتنكر للماضي أو ننتزع أنفسنا منه فمعناه اقتلاع أنفسنا من تربتنا فنخرج منها وقد يبس عودنا وجف ما فيه من عصارة الحياة الحقة.

وإذا راجعنا هذه الأقوال جميعاً عن تراث أمم مختلفة استطعنا أن نعرف كيف يكون الأمر بالنسبة لتراثنا الذي يستمد حياته من ميراث الخلود: القرآن الكريم ولقد وجدت هذه الصيحة التغريبية معارضة شديدة يقظة، وتفهماً بهدفها الضار، وبأنها تقصد إلى غير صالح المسلمين والعرب، كما تأكد لكثير من المستشرقين أن انفصال المسلمين عن تراثهم من الأمور المستحيلة، وعرفوا - كما يقول هاملتون جب - أن المسلمين والعرب لن يتحرروا من ماضيهم الحافل، وأن السعي لإنشاء مثل

عليا جديدة عصرية لايمكن أن تتجاوز هذا التراث.

٢- إن أبرز مقومات التراث أنه حي متصل بالتاريخ المضطرد، وأن جذوره ما تزال عميقة في التربة، تنبض بالقوة، في مختلف مجالات اللغة والتاريخ والثقافة والتشريع والأدب والعقائد والأخلاق، وأن مثل هذه الجذور الممتدة المضطردة الدائبة الحركة لايمكن أن توصف بما يوصف به التراث اليوناني الذي يعبرون عنه بكلمة (Legaey) وما تزال هذه الجذور قائمة كالدعائم والأعمدة الضخمة تحمل البناء وتمتص من الثقافات دون أن تفقد ذاتيتها وهي تأخذ من الثقافات وتترك، وتحول ما تأخذ إلى كيانها بالهضم والتمثل دون أن تقع في الازدواجية.

ولا ريب أن حملات التغريب والشعوبية إنما تستهدف حجب المسلمين في حاضرهم عن صفحات ماجدة من فكرهم وتاريخهم من شأنها أن تدفعهم إلي القوة والنهضة،فهي تحاول أن تقطع صلة التراث لتفصلهم عن العقيدة والقرآن واللغة العربية باعتبارها الروابط الأساسية للفكر الإسلامي،والضمان الأكيد الحائل دون تفتت الأمة وانصهارها،ومصدر القوة والانتصار الذي ينتهى بهذا الانفصال إلي مجالات الهزيمة والإذابة والاحتواء.

عندما أخذت حركة إحياء التراث تبرز كعمل إيجابي وكقوة مقاومة للتحدي ورد فعل له، تدخل كتاب لهم نفوذ وخصومة سابقة للتراث فهاجموا الأعمال التي بدأت وفرضوا أسلوبهم ونهجهم، لقد وجدوا أنه لاسبيل إلى الوقوف أمام قوة التراث فعليهم تزييف التراث واستغلاله في خدمة أهدافهم وخدمة أهواء النفوذ الوافد. ومن هنا جرت محاولة واضحة وتغليب الأسطورة على السيرة، وتزييف مفهوم البطولة الإسلامي، والادعاء بأن العرب قبل الإسلام كانوا على أبواب حضارة ونهضة وأن دور الإسلام لم يكن أكثر من أن قاد هذه النهضة أو أن ما دعا إليه الرسول ﷺ كان بمثابة أحلام مصلح عظيم وأن أمته حين صاح صيحته سارت معه مستجيبة،لأنه دعاها إلى ما كانت تطمح إليه وهكذا مضي تزييف التراث وإفساده بتحكيم مناهج تغريبية وافدة عليه سواء في مجال الأدب أو مجال التاريخ.

والمعروف أن حركة الاستشراق التي سارت في فلك الاستعمار والنفوذ الأجنبي كانت قد أولت اهتماماً كبيراً للتراث الإسلامي واستطاعت أن تحصل على كميات ضخمة من مخطوطاته أودعتها مكتباتها في باريس ولندن وبرلين وليدن وغيرها، وأنها حاولت منها أن تقود مسيرة الفكر الإسلامي فتبرز جوانب معينة من هذا التراث وتغفل جوانب أخرى، وأن كل ما اهتمت به هو الجانب المضطرب المليء بالثغرات والشبهات، وأن الاستشراق قد حاول من خلال هذا التراث أن يبحث عن النصوص المبتورة والروايات المضطربة والمواقف المبهمة وأن يذيع بها وأن يعلي من شأن الحاقدين على الإسلام ويخلد الخارجين عليه،ويعني بالتراث الفلسفي المضطرب سواء في التصوف أم الكلام أم الإلهيات،ليثبت أن المسلمين كانوا تابعين للفكر اليوناني القديم وكانوا خارجين على أصول الإسلام.

ولذلك عنى بأبي نواس وبشار والضحاك في الأدب وكلهم زنادقة، وعني بالحلاج وابن عربي والسهروردي في التصوف وكلهم بعيد عن مفهوم الإسلام الصحيح، وعنى بالمعتزلة لأنهم قالوا بخلق القرآن، وعنى بالمانوية والبابكية والمزدكية والزنج والقرامطة.

ووصف هذه الحركات الخارجة على الإسلام بأنها ثورات إسلامية بل إن الرواد الأول لكلية الأداب في جامعات الغرب كانت مهمتهم الأولى تزييف ابن خلدون والغزالي وإثارة الشبهات حول زوجات الرسول ﷺ وإثارة الشكوك حول إبراهيم واسماعيل والاهتمام بإحياء ألف ليلة والأغاني ورسائل إخوان الصفا وما نسب زوراً إلى عمر الخيام من شعر.

ولم يتوقف المستشرقون وأتباعهم عن قذف التراث الإسلامي بعشرات النظريات والآراء المدمرة،منها انتحال الشعر الجاهلي والشك في الكتب المقدسة وفصل الأدب عن الدين واتهام المتنبي بأنه لقيط، وابن خلدون بأنه محترف والغزالي بأنه جاهل.

ولم يتوقف الأمر عند إثارة الشبهات حول التراث نفسه بل اتجهت القوى التغريبية إلى إعادة كتابة التراث على نحو يخرجه عن عطائه الصحيح ويزيف

مضامينه ووجهته كما فعل طه حسين في هامش السيرة والفتنة الكبرى، وكما فعل غيره في إنكار المعجزات ومن حاول أن يصور الرسول على أنه زعيم مصلح وأنه داعية البطولة أو الحرية أو محرر الفقراء. وقد تقدم للكتابة عن تاريخ الإسلام مجموعة من تلاميذ المستشرقين أمثال جرجي زيدان (التمدن الإسلامي) وفيليب حتى (تاريخ العرب) وأحمد أمين (فجر الإسلام) وطه حسين (الأدب الجاهلي وهامش السيرة) وزكي مبارك (النثر الفني) وهي كتابات ملئت كلها بالشبهات والإسرائيليات والزيوف لخلق تصور عن الإسلام وتاريخه ودعوته منحرفاً عن الحقيقة والواقع، وقد أولى المستشرقون جوانب التراث الإسلامي دراسات عديدة منها ما ترجم ومنها ما لم يترجم،وقد حفلت هذه الدراسات بأوجه الشكوك والتعصب، بغية إثارة الشبهات في صدر القارئ المسلم،وقد جرى كثير منها في مدارس الإرساليات والجامعات على أنه من المسلمات دون تحفظ أو تفطن لما فيه من سموم وانحرافات، وقد أصبح أغلب كتابنا يعتمدون في دراساتهم على هذه المصادر المسمومه وفي مقدمتها دوائر المعارف الإسلامية والبريطانية والفرنسية والأمريكية، وكلها مما أشرف عليه وكتبه متعصبو الغرب ورجال الصهيونية العالمية مستهدفين من وراء ذلك غايات واضحة، والغايات التي يجرى وراءها الاستعمار الغربي والصهيونية معروفة وهي تستهدف تدمير مقومات هذه الأمة حتي لاتقوى على مواجهة عوامل الغزو والاحتواء، ولقد بدا واضحاً كيف استغل التراث بعد نكسة ١٩٦٧ في القول بأنه هو مصدر هزيمة العرب، وعلت الصيحات بالدعوة إلى التخفف من التراث والانفصال عنه،ولم يكن هذا صحيحاً على إطلاقه بل كان العكس هو الصحيح،فلو أن العرب كانوا قد أخذوا بقيمهم الأساسية لما بلغوا ما بلغوه من هزائم ونكسات، فإنهم عندما عادوا يلتمسون تراثهم وتاريخهم استطاعوا أن يحققوا النصر.

٣- إن هناك محاولات متعددة ضد التراث: منها محاولة إفساد التراث،ومحاولة تزييف التراث،ومحاوله تسميم النظرة إلى التراث، وحين يحاول البعض اليوم استخراج بضع مواقف لخصوم الإسلام من باطنية ودهرية وشعوبيين وملاحدة ومجوس

دخلوا إلى الإسلام بغية إفساده من الداخل وقرامطة، ثم تصور هذه المواقف بأنها هي أبرز عناصر التراث كما فعل الدكتور زكي نجيب محمود فإن الباحث اليقظ يعلم ما هو الهدف وما هي الغاية، وحين يفصل الباحث عن جوانب القوة والعطاء في التراث الإسلامي سواء في عطائه القانوني البارع، أو منهجه في تحقيق النص، أو أثره في بناء المنهج التجريبي العلمي، أو معطيات منهج المعرفة الجامع بين العقل والقلب، أو مواقف المناضلين الأبرار الذين قاوموا الباطل أمثال الشافعي وابن حنبل المشرقة ليمسكوا بالشبهات أو المنقولات اليونانية على أنها هي أصح جوانب التراث نعرف الغاية التي تجري في خط واحد متصل منذ بدأها عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وما تزال الدراسة التغريبية تفرخ رجالها.

لاشك أن في التراث سلبيات وإيجابيات ولكن ما هو قانون التعرف إليها: القانون هو الموروث الإسلامي المتمثل في القرآن والسنة فما استطرد على طريقه بناء قوياً فهو منه، ونحن نعرف أن هناك مرحلة تخلف وضعف هذه تحتاج إلى يقظة في التعرف على إنتاجها ونعرف أن هناك معركة دارت بعد ترجمة الفكر اليوناني واستمرت قرنين كاملين وشملت ميادين الكلام والاعتزال والفلسفة والتصوف، وهذه يجب أن تدرس بكاملها وأن تنتهي إلى نهايتها التي وصل إليها المسلمون حين استوعبوا في منهجهم: منهج أهل السنة والجماعة كل ما في هذه المذاهب من إيجابي ونافع وما اتفق مع جوهر الإسلام، ثم تركوا الباقي، فلا يقومن اليوم داع إلى باطل ليقول إن المسلمين كانوا معتزلة أو كانوا عقلانيين أو كانوا فلاسفة أو كانوا متكلمين أو متصوفة، فذلك أشبه بقطاع جانبي في معركة كاملة لها مبدؤها ونهايتها، وإنما يريد هؤلاء أن يعيدوا هذه الفتنة جزعة مرة أخرى ليفسدوا على المسلمين قيمهم ومنهجهم الأصيل الجامعين وليردوهم في وحل الصراعات والخلافات والتمزق.

وليس يعيب المسلمين أن يقبضوا على تراثهم في إبان المحن والهزائم وفي فترات الضعف والتخلف على النحو الذي عرف أيام محنة الحروب الصليبية والتتار، أو منذ

جاء الاستعمار فتلك علامة قوة لا علامة ضعف أن يمسك الإنسان على ميراثه بقوة وأن ينطوي عليه يحميه ويدافع عنه حتى تنجلي الغمة، وليس هذا تخلفاً ولكنه ثبات ومحافظة على التراث،وفي المغرب عندما دخل الاستعمار الفرنسي أقاموا حوائط كاملة حجبوا بها كتب التراث وفصلوها عن البيوت حتى لايقتحمها المحتل أو ينال منها، وإنما ينبسط التراث في إبان الأمن، وعندما تزول الأخطار فيأخذ المسلمون منه خير ما فيه، ولم يكن المسلمون في يوم عبدة لتراثهم أو تاريخهم أو ماضيهم، يريدون أن يرجعوا القهقري إليه، وإنما هم كما رباهم الإسلام منطلقون إلى أمام دائماً يتخذون من تراثهم ضوءاً كاشفاً، وينظرون في تاريخهم كله نظرة النقد الذاتي يراجعون المواقف ويكشفون أسباب الهزائم،فيتجنبون الوقوع فيها وأسباب النصر فيلمسونها مجددة متصلة بالعصر، وليست جامدة أو متخلفة، وماتزال النظرة إلى التراث أصيله وثابتة، وأن النكسة بعد النكبة لم تغيرها، بل زادتها قوة وعمقاً، وهي أننا لانصدر إلا عن قيمتها الأصلية،وأن كل ما نقع فيه من أخطار إنما يرجع إلى أننا خدعنا بالمنهج الوافد حيناً وانطلقنا منه وتخلينا عن دائرة فكرنا وأصالتنا،فتوالت الأزمات والهزائم والضربات لتدعونا إلى إعادة النظر في موقفنا والتماس مناهجنا الأصيلة،وإن أخطر ما يواجه المسلمين من تحد اليوم هو محاولة عزل العصر الحديث فيهم عن تسلسل العصور متصلة إلي منابع الإسلام وفجره،ولا ريب أن هذه المنابع يجب أن يكون اتصالنا بها قائماً وطريقنا إليها مفتوحاً ومعبداً وخصباً، وأن كل دعوة تدعونا إلي الانقطاع عنها أو الانفصال هي دعوة مسمومة تريد أن تحطم وجودنا وتقضي على كياننا وذاتيتنا، إن الذين دعونا إلى الانفصال عن التراث وعن الماضي بحجة أن نكون أبناء عصرنا كانوا غاشين لنا وهم مصدر ما وقعنا فيه من أخطار ونكسات ونكبات، ذلك أننا لن نكون أبناء عصرنا من فراغ وإنما في إطار من نهج أصيل وتراث كريم وخيوط متصلة لايمكن قطعها بالمنابع والقيم والعقائد التي هي مصدر العطاء أكثر لكي نكون معاصرين في أصالة، متقدمين على هدي وبصيرة.

ومن أشد الخطأ الربط بين التراث والتخلف أو بين التقدم والعصر، فإن من لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل، ومن قطع روابطه مع تاريخه وتراثه فهو كالريشه في مهب الريح لاتعرف أين يتجه، وهو بهذا مقصوص الجناح، أسير الاحتواء والغزو والإذابه في الأممية العالمية التي تأكل كل من ليس له ذاتية خاصة يحافظ عليها ويذود عنها بالدماء الغالية.

ليس هناك تناقض بين التراث والتقدم، ولا بين التراث والعصر، وإنما التناقض الحقيقي هو بين الانقطاع والتقدم (الانقطاع عن الماضي والتراث والقديم) ذلك أن التراث هو إيمان الأمة بذاتها، وهو دافع التقدم والعصر والنهضة جميعاً، ولم يقف التراث يوماً في سبيل التقدم أو في وجه العلم - خاصة في الساحة الإسلامية - ولقد عاش المسلمون عصرهم دون أن يتقطعوا عن أصولهم ومنابعهم،وما يزال التراث هو الضوء الكاشف على طريق النهضة، ولو لم ينظر المسلمون في تراثهم إلى دورهم في مجال العلم والمعرفة والتجريب، لما عرفوا قدر تخلفهم اليوم في هذا المجال، وإصرارهم على أن يكونوا على مستوى الأحداث ولايمكن لنهضة أن تتحرك من غير أن يكون لها إطار يحفظ لها أصالتها وقيمها وكيانها ويعطيها الضوء للحركة إلى الأمام هذا الإطار المضيء: هو التراث المتصل بالميراث النابع منه.

(٣١)

الأصـــالة

في مواجهة المعاصرة والاقتباس وسلم القيم

إن أخطر التحديات التي يواجهها الفكر الإسلامي (والمعرفة الإسلامية هي مصباحه الكاشف) هو فقدان (الأصالة) في مواجهة دعوات عديدة هي المعاصرة والتقدم والتفتح والحداثه، هذه الدعوات ذات الأسماء البراقة لايعجز الفكر الإسلامي عن الالتقاء بها على طريقته الخاصة التي تقوم على أساس عرضها جميعاً على أصله الأصيل وميزانه الصحيح، ذلك أن هناك أخطاراً تواجه الأصالة دائماً وفي هذا العصر بالذات وتختفى وراء أساليب براقة: أهمها التغريب والتبعية وفقدان الشخصية والاحتواء ومحاولة صهر القيم الثابتة في بوتقة التطور المطلق وهي بوتقة غربية تريد أن لاتترك قيمة ثابتة أبداً.

إننا نومن بأن منطلقنا إلى الحركة لابد وأن يكون من نقطة ثابتة، تظل كالمنار المضيء في ظلمات الليل تهدينا إلى الطريق فتكون كما هي نقطة البدء فهي نقطة نهاية الجولة، فالأصالة هي التي تدعونا إلى التماس نبراس قيمنا الأساسية في مجال الحركة صيانة للكيان من الذوبان ومحافظة على الذاتية وتحقيقاً للنفع والاستفادة من التجارب الإنسانية دون فقدان الهوية وهذا يعني تكامل الحاضر مرتبطاً بالماضي ومتصلاً بالمستقبل، فليست الدعوة إلى الأصالة تستهدف الجمود ولا تقليد الماضي، وإنما هي الارتباط بالخطوط الممتدة بين ماضي هذه الأمة إلى مستقبلها مروراً بحاضرها. إنه الارتباط بالمنابع الأصيلة الثرة الصافية التي انطلق الفكر الإسلامي منها نقياً غاية النقاء قبل أن يختلط بأوشاب الفلسفات والفكر البشري، وذلك إيماناً بأنه لاحركة إلى الأمام في التقدم بمعزل عن الضوء الممتد على الطريق من الإسلام نفسه.

ولذلك فإن مفهوم الأصالة في الفكر الإسلامي يختلف عنه في الفكر الغربي، ذلك الفكر الذي ساقته نظرية التطور سوقاً إلى الإيمان بالتغير الكامل فلم تعد تهمه من قضية الأصالة إلا ظلالها بينما يركز تركيزاً شديداً على التجدد والتحول دون نقطة عودة إلي شيء ما، فلا يرى أن الأصالة تمثل أكثر من البعد التاريخي للتحول. ولذلك فإن نظرته إلى الماضي يخالطها كثير من الإحساس بالاستغناء أو محاولة التمرد على القديم أو الإحساس بأنه ليس مرحلة مضت، وذلك جرياً مع التاريخ الطويل الذي واجه به الغرب ماضيه اللاهوتي وتراثه المتصل بالدين والزهادة والرهبانية،هذا الماضي الذي تنتقضه كل المذاهب الحديثه من نفسية واقتصادية ووجودية واجتماعية.

ومن هنا كان إحساس الفكر الغربي بالأصالة ضعيفاً خافتاً لأنه فصل تماماً بين فكرة الحديث وبين ذلك التراث وأقام عازلاً حقيقياً، في التحول إلى الفلسفة المادية بعد مرحلتي الدين والفلسفة المثالية اللذين انهارا تماماً وعدا في نظر الباحثين من القديم المتخلف.

لقد فصل الفكر الغربي بينه وبين هذا التراث القديم وارتد مرة أخرى إلى الارتباط بالوثنية الغربية واحياؤها في مذاهب وفلسفات جديدة تقوم نظرياتها على الأسطورة (راجع أساطير فرويد وسارتر) فقد اتخذ من الأساطير أصولاً لنظريات علم النفس والوجودية، وإذا كان هذا هو موقف الفكر الغربي الحديث انفصالاً عن التاريخ والتراث فلا بد أن يكون مفهوم الأصالة باهتاً ومضطرباً.

٢- أما مفهوم الأصالة في الفكر الإسلامي فقد كان دائماً بمثابة أساس البناء، فالتجدد قوى من القوى التي اعترف بها الإسلام باسم «الاجتهاد» وجعلها علامة على الحركة واليقظة امتداداً من الأصالة وارتباطاً بالحاضر،فالأصالة هي ذلك التراث النقي والميراث الحي الذي تشكل عليه الفكر الإسلامي استمداداً من القرآن أولاً والسنة الصحيحة تفسيراً له وتطبيقاً، ثم نما الفكر الإسلامي حلقة بعد حلقة، وعصراً بعد عصر في ظلال الأصالة لم ينفصل عنها ولم ينقطع وامتدت شرايينه على مدى

العصور، وظل محافظاً على تلك الرابطة العميقة بالمنابع، حتى في أحلك الأوقات وأسوأ فترات الضعف والتخلف، وكان القرآن هو الدم الذي يجرى في هذه الشرايين لم ينقطع ولم يتوقف . فالأصالة في مفهوم الفكر الإسلامي تجدد متصل يتجه نحو الكمال ويحفظ القيم الأساسية وينميها، ثم هو مقاومة دائمة لدوافع الانحراف والتخلف معاً، فالأصالة ترتبط بالتجدد في نفس الوقت الذي ترتبط فيه بمقاومة التبعية والفكر الإسلامي حين ينفتح على «المعاصرة» لاينسي أبداً قيمه وذاتيته التي لاتذوب أو تنصهر في معرض النقل والاقتباس،فالأصالة لاتجد من المعاصرة والتجديد، ولكنها تعمل على تحرير الحركة من التبعية والتقليد.

ذلك أن الشعوبية في تاريخ الإسلام القديم، والتغريب في تاريخه الحديث،إنما كانتا تحاولان توسيع مجال المعاصرة بحيث تقضى على الأصالة أو تذيب القيم الأصيلة للفكر الإسلامي في بوتقة الأممية، أو تقطع ذلك الخيط الممتد حتى تضيع القافلة في الصحراء.

ولقد كان الإسلام في تاريخه كله قادراً على تحقيق الالتزام بالعصر والتقدم والتجديد دون أن يفقد الأصالة أو يقبل كل ما في العصر أو يتجاوز أصوله الأساسية،إرضاء أو تبريراً أو تقبلاً لغير ما يتفق مع التوحيد والحق والعدل والإخاء الإنساني.

فالأصالة ليست تشبثاً بالماضي أو تعصباً له، وليست تقديساً للتاريخ،ولكنها إيمان بالقيم القرآنية الثابتة التي قام عليها بناء الإسلام كله وتأكيد للوجود الذاتي ومحافظة على كيان الأمة في أصالة فكرها، ذلك أن الأخطار والتحديات التي واجهت الفكر الإسلامي كانت جميعها تحاول أن تقضى على مضمون الأصالة والارتباط بالجذور والاتصال بالمنابع في محاولة لتصوير نهضة العصر على أنها نهضة منفصلة قائمة بذاتها سواء في مجال الأدب أو الاجتماع، وفي طريق القضاء على الأصالة كانت الدعوة إلى «التساهل» والتسامح وتحرير الفكر وهي دعوات حمل لواءها أتباع للفكر الوافد لاتستهدف إلا التسامح في الأصالة أو التساهل عن الحدود

والضوابط أو تحرير الفكر من أهم قواعده وهي الدين بمفهوم الوحي والنبوة ورسالة السماء.

إن الدعوة إلى تغليب (العصرية) على الأصالة دعوة مسمومة، والقول بأن الأصالة هي التاريخ هو قول زائف،ذلك أن الأصالة في الفكر الإسلامي العربي إنما تمثل تلك الحصيلة الضخمة التي أقامها القرآن ونماها الأئمة والأبرار والنوابغ من مفكري الإسلام على مدى أربعة عشر قرناً، وهي ليست تراثاً قديماً وإنما هي ميراث حي متجدد لم يتوقف عن الحياة لحظة واحدة في مقابلة المجتمعات والحضارات، كان ولا يزال وسيظل قادراً على العطاء السخي، إن كلمة (العصرية) في الفكر الغربي تحمل صورة- الانسلاخ من العقائد والتحرر في القيم ولسنا نحن الذين نقول هذا، بل تقوله إحدى الكاتبات الغربيات ممن انكشف لهن نور الحقيقة، تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة (مريم جميلة):

إن البلاد الإسلامية قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة ومنها مصطلح (العصرية) وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى، فالعصري يراد به رجل لايرضى بالإسلام ديناً معقولاً مفهوماً لدى العالم أجمع، كما يراد به رجل يحاول أن يفسر الدين والعقيدة تفسيراً جديداً يثبت به أنه ليس هناك تعارض بين القيم الإسلامية وقيم الحضارة الغربية، إن الرجل العصري وإن لم يتفق والإسلام إلا باسمه يطلق حكمه على الإسلام على أساس مبادئ وأهداف استوردها من الغرب ويظنها - شعورياً أو لا شعورياً - أرفع من المبادئ الإسلامية وكل شيء في الإسلام يناقض تلك الأهداف المستوردة، ولا شك أن العصرية أو العصرنة بهذا المعنى فكرة تغريبية خطرية يراد بها تحريف الأصول الإسلامية لتبرير الواقع الحضاري القائم بما فيه من مخالفات ومعارضات لمفهوم الإسلام أو مفهوم الدين بعامة.

فالعصرية محاولة فرض مبادئ وأهداف غربية ترمي إلى احتواء الفكر الإسلامي وجعله خاضعاً للواقع الغربي في قيمه ومذاهبه مع تجاهل واضح لما بين الفكرين الإسلامي والغربي من تباين عميق في قضايا كثيرة، وأنه لا سبيل لتحقيق

(العصرنة) إلا بإخضاع الفكر الإسلامي للفكر الغربي وهو ما لا يمكن أن يحدث، فالفكر الإسلامي بأصوله القائمة على التوحيد كان دائماً قادراً على أن يحتفظ بذاتيته الخاصة، يأخذ من الفكر البشري ويترك وقد عجزت كل القوى - في أحلك الظروف والأوقات - أن تصهره أو تخضعه أو تفقده مقوماته، وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تحتوى الديانة والفكر اليهودي ثم احتوت الديانة والفكر المسيحي،فإنها قد عجزت عن أن تحتوى الإسلام والفكر الإسلامي الذي أخذ منها ورفض، واستطاع بعد صراع طويل أن يتحرر منها وأن يكشف عن منطقه وذاتيته مستمداً أصول ذلك كله من القرآن نفسه.

وإذا وقف الإسلام موقف «الثبات» والصمود أمام محاولات احتوائه أو صهره، ووصف ذلك من دعاة التغريب بأنه الجمود أو التعصب وهي عبارات ظالمة لايستطيع الخوف منها أن يذل الإسلام فكره للسيطرة الغربية، فقد أكد كثير من المفكرين الغربيين المنصفين ما ذهبنا إليه من أن الإسلام والفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي والبلاغة العربية لايمكن تفسيرها في ضوء المذاهب الغربية التي وضعت لفكر آخر، وأنها لاتفهم حقيقة إلا بتفسيرها الإسلامي الأصيل.

أما إذا كانت (العصرنة) تعني دفع الإسلام والفكر الإسلامي إلي مواجهة الحياة العصرية، والالتقاء بالحضارة العالمية والفكر البشري (أخذاً وعطاءً ورفضاً) فإن ذلك أمر لم يتوقف يوماً ما، فقد كان الفكر الإسلامي دوماً فكراً مفتوحاً قادراً على الأخذ والعطاء وكانت له من آفاقه المتطورة ما يمكنه من الالتقاء بمختلف المفاهيم الحديثه البناءة في مختلف المجالات.

ولم يكن الإسلام بقيمه الثابتة عاجزاً يوماً عن الحركة والتقدم والعطاء بل إن هذه القيم الأساسية من عقيدة وشريعة وأخلاق كانت هي أقوى الحوافز لإعطاء البشرية قيمة إنسانية أعلى من مفهومها المادي الخاص، وليس من شأن الإسلام أبداً، ولن يكون أن يبرر انحراف الفكر الغربي أو الحضارة الغربية القائمة، أو يقبل من مفاهيمها ما يختلف مع جوهر التوحيد أو ما يتعارض مع أصوله القائمة على

شجب الربا والإباحية والإلحاد والوثنية، لقد استطاع الإسلام أن يحرر الإنسانية من أعظم أغلالها وهو العبودية البشرية واستطاع أن يحرر الفكر البشري من أقسى قيوده وهي الوثنية، وبذلك أطلق مفاهيم الحرية والعدالة التي عجزت الحضارة الغربية عن إطلاقها والتي باتت معضلة العصر وأزمة الإنسان المعاصر، هذا فضلاً عن أن تكامل الإسلام جامعاً بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة قد أعطاه قيما عقلية ونفسية وسعت مجال إنسانيته وسماحته وقضت على كثير من الصراعات والأزمات وخاصة أزمة القلق والضياع والتمزق التي يعيشها الفكر الغربي، أما الميراث الإسلامي فهو ليس تراثاً قديماً متحفياً منفصلاً عن الواقع ولا عن المجتمعات بل هو ميراث حي مليئ بالحيوية لم يتوقف عن التفاعل في المجتمع والفكر خلال أربعة عشر قرناً كاملة دون انفصال، وهو تراث بناء تقدمي ما تزال مفاهيمه نابضة بالحياة قادرة على عطاء البشرية.

٣- إن مفهوم الأصالة في الفكر الإسلامي يقوم على أساس الحركة المعاصرة دون افتقاد نقطة البدء، ودون الانفصال عن المنابع والضوابط والإطار الثابت الذي أعطى للمسلمين ذاتيتهم ومنطلقهم، والنظرة هنا ليست هي نظرة إسلامية متكاملة جامعة (وليست نظرة عقلية صرفة أو مادية صرفة أو روحية صرفة) ولكنها نظرة يتمثل فيها طابع الإسلام المتكامل بين القيم، الموازن بين القدرات، المتحرك دائماً إلى الأمام دون أن يفقد هويته أو إطاره الأصيل. ولا ريب أن أي انفصال بين المعاصرة والأصالة من شأنه أن يخلق تمزقاً وانفصاماً في الشخصية المتماسكة وأمامنا التجربة التركية، إن المعاصرة إنما تستهدف إعطاء المجتمعات قدراً من التحسن المادي والتقدم في أساليب المعيشة،ولكن ذلك لايكون مصدراً لتعريض النفس المسلمة إلى الإضطراب أو الانحراف بأن يفرض عليها التخلف من تكاملها أو غض النظر عن أخلاقياتها التي يجب أن تظل تحكم حركاتها في العطاء والأخذ دوماً، فالأصالة ليست وصاية على المعاصرة ولكنها حامية لها من محاذير الخطر الذي وقعت فيه الأمم الغربية حين انفصلت عن المنابع وأعطت نفسها حق التطور المطلق ونسبية

الأخلاق وتبرير الواقع العصري على ما فيه من فساد وانحراف، وإذا كانت المجتمعات الغربية قد ضعفت أمام تيارات الإلحاد والإباحية العارمة، ففقدت أصالتها ومقدرتها فإن المجتمعات الإسلامية ما زالت تقاوم مستعينة بقيمها التي تمنح القدرة على الثبات في وجه هذه التيارات،طالما يؤمن المسلمون بأنهم لايقبلون الحضارة الحديثة إلا كوسائل ومواد خام ولا يقبلون منها إلا العلم والتكنولوجيا ليصهروها في قوائم فكرهم،فإن محاولات التغريب تظل عاجزة عن احتواء المسلمين وصهرهم في بوتقتها.

ولا ريب أن التجارب القاسية التي مر بها المسلمون في مواجهة الاستعمار والغزو الثقافي تجعلهم اليوم أشد حذراً من الاستسلام للأطر الوافدة،وتجعلهم أشد حرصاً على أن لاتحتويهم المناهج والمذاهب الغربية بعد أن تبين لهم أن كل الأزمات التي وقعوا فيها والأخطار التي تتصل بنكساتهم المتكررة إنما جاءت من إرخاء قبضتهم على الأصول الأصيلة ظناً منهم أن الجديد والوافد سيعطى وحده القدرة على التقدم.

٤- إن الخطر الذي يواجه الأصالة إنما يأتي من عجز نظام التعليم والقانون والثقافة التي ما زالت تستمد أصولها واتجاهاتها من الفكر الوافد،فتحول دون قيام الأجيال القادرة على الإيمان العميق بالنفس أي بالأمة وعقائدها وقيمها، ذلك أن الاستعمار إنما قصد بالسيطرة على هذه القوى الثلاث أن يفرض لغته وعاداته وأسلوب تفكيره فحجب كثيراً من الصفات المميزة والطوابع الأصيلة لهذه الأمة، ومن هنا بدا في وقت ما أننا نفقد أصالتنا تدريجياً وأننا نذوب في بوتقة غريبة عنا،وما تزال النظم والأخطار الاجتماعية والاقتصادية والسياسة التربوية تحمل أدران هذا الخطر ولما نتحرر منه.

إن من أخطر المحاذير أن نضحى بذاتيتنا وطوابعنا الخاصة في سبيل الحصول على الشكل الغربي والتماس الغشاء الأجنبي،ظناً أن ذلك سيحقق لنا أن نكون على قدم المساواة مع الغرب، فإذا تحقق هذا فعلاً فإننا سوف نجد أنفسنا عالة على هامش

الحضارة لاقدرة لنا على أن نقدم فيها إضافة جديدة،وفي نفس الوقت فإننا نصطبغ بصبغة باهتة وأمامنا تجربة حية في هذا الصدد، ونكون في نفس الوقت قد فقدنا أعظم ما نملك: ذاتيتنا وأصالتنا وطابعنا الخاص الذي هو رأس مالنا الأصلي والذي نستطيع مع المحافظة عليه أن نحقق من العصرية ومن التقدم القدر الذي يجعلنا في صف الأمم الحديثة دون أن ننصهر في وجود غريب، وعندها نستطيع أن نعطى البشرية ما لدينا من قيم ومن مناهج ومن حلول لمشاكل البشرية هي أشد ما تكون حاجة إليه.

ولكي نفهم الأصالة علينا أن نعرف إلى أي حد يكون الاقتباس من الفكر العالمي .

الاقتباس

الاقتباس ضرورة لامحيد عنها بين الأمم في محيط الثقافات والنظر والحضارة، ويجب أن تتم في إرادة كاملة وفي حالة من حالات الرشد التام مع الإيمان العميق بالجذور والمقدرات الأساسية، ودون أن تفرض أو يلتزم بها المقتبس لها تحت ضغط نفوذ سياسي أو استعماري أو سيطرة من نوع ما، وقوام الاقتباس المعرفة الكاملة بالفروق الواضحة والعميقة بين العقائد والمعارف، وبين العلم والفلسفة، وبين الحضارة والثقافة، وأن تجري في إطار كيان الأمة وشخصيتها ومزاجها وطوابعها الأساسية ودون أن يتعرض أي مقوم من مقوماتها للخطر أو الاضطراب.

ومن المعروف أن المسلمين والعرب تعرضوا للاقتباس وهم تحت ضغط نفوذ استعماري عات جبار استهدف تحويل الأمة عن قيمها وحرمانها من مقوماتها وصهرها في بوتقة العالمية والأممية، كي يفقدها قدراتها وكيانها الخاص حتى تستسلم عن طريق الفكر للاحتواء وتقع في دائرة النفوذ الأجنبي وأن أبرز محاذير الاقتباس فقدان المعاصرة وفقدان التقابل.

فالمعطيات التي يراد اقتباسها من الفكر الآخر تختلف من حيث الزمن ومن حيث

المكان ومن حيث العوامل التي دعت إلى استعمالها، كذلك فإنها تختلف من حيث اختلاف العقائد والقيم والأخلاق بين مجتمعين مختلفين ديناً ولغة وتقاليداً، ومن هنا فإن عملية الاقتباس التي تمت في هذا القرن لم تكن عن إرادة حرة للمسلمين وإنما فرضت فرضاً بتغيير أنظمة التعليم والقانون والثقافة، وإنها لم تجد إجابة حقيقية لأنها لم تكن الحل الحقيقي للموقف، وقد فشلت عملية الاقتباس بجانبيها الغربي والماركسي ولم تستطع حل قضايا المجتمع الإسلامي بل عقدت الأمور ونقلت هذا المجتمع إلى حافة الأزمة بل كانت من أسباب الهزائم المتوالية إزاء الصهيونية والاستعمار، لأنها أفقدت المجتمع ذاتيته ومنهجه في النظر إلى الأمور وإحالته إلى منهج آخر، مادي صرف، وتبدو روح الغرب وأعرافه واضحة في القوانين والنظم والتشريعات المجافية للأخلاق التي تتجاهل الجزاء الأخروي ومنها: إباحة الربا وإباحة الزنا في فراش الزوجية، ومن أبرز أخطاء الاقتباس أن أوشك المسلمون فقدان مفهوم الإسلام للمال، وأنه وسيلة إلى الحياة الطيبة، وأنه ليس غاية في ذاته وهم قد أوشكوا أن ينسوا الغايات ويتعلقوا بالوسائل، بل لقد نشأت الليبرالية والماركسية معاً وانكشف المجتمع الإسلامي أمام نفسه، وتبين له بما لايدع مجالاً للشك أنه لايستطيع الانتصار إلا بتأكيد ذاته وإقامة منهجه الأصيل.

٢- إن أهم شروط الاقتباس هي نقل الإيجابي الصالح، والتوسع في نقل العلم التكنولوجي، مع التحفظ في نقل الثقافة والأدب، مع الإيمان بأن العلم ليس ملكاً للغرب ولا للشرق، أما الثقافة -والأدب جزء منها- فإنها ملك خالص لكل أمة، ذلك أن لكل أمة قيمها الاجتماعية والأخلاقية والمدنية وتلك هي المجالات التي تبرز فيها طبائع الأمم، والمعروف أن القيم الأساسية بالنسبة لكل أمة أو ثقافة كالتربة بالنسبة للنبات والبذور، فكل تربة لها مقوماتها التي تستطيع أن تنقل حضانة نبات معين أو بذرة بعينها. بينما لايقبل عشرات البذور الأخرى التي تموت، يقول وليم مرسيه: إن البشر والشعوب لايقبلون من التأثيرات والعوامل إلا ما كان ملائماً للخلاصة الخاصة من

عقليتهم، مسايراً لما فيها من حركة وتوثب، وفي إيجاز فإنه لايجوز أن يقتبس الناس من غيرهم ولا الشعوب من بعضها إلا ما كان حياً في قرارة أنفسهم متوثباً للوجود.

وإذا كان هذا هو مفهوم باحث غربي بالنسبة لموقف الفكر الغربي من الاقتباس فلماذا يكون مفهوم الاقتباس عندنا عاقاً للفطرة، خارجا عن القوانين الطبيعية والاجتماعية التي تسلكها الأمم، وقد كان حقاً أن يكون مفهوم «الأصالة» التي عرفها الفكر الإسلامي طوال حياته قائماً يفرض علينا أن نرفض نظرية الخضوع التي ينادى بها دعاة التفريب، والتي تقول بقبول الحضارة الغربية بفكرها وخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب، إن أمامنا تجربة أصيلة: هي تجربة المسلمين في القرن الرابع الهجري من الاقتباس والترجمة فقد أخذوا ما يتفق مع مقوماتهم الأصيلة وقيمهم الأساسية وردوا ما يخالف معها، ولم يقف الأمر عند هذا بل إنهم صهروا ما اقتبسوه في بوتقتهم وأساغوه وحولوه إلى كيانهم، فلم يغير من معالم شخصيتهم شيئاً إنما أضاف قوة جديدة إلى حياتهم، وكذلك فعل توماس الأكويني في مطلع نهضة الغرب حينما ترجمت أثار الفكر الأسلامي إلى اللغات الأوربية فإنه عمد إلى غربلة طوابع الفكر الإسلامي وحرر منها الفكر الغربي، وعندما ننظر نظرة موضوعية منصفة للذين يفرضون علينا الاقتباس غير المشروط نجد باحثاً كبيراً مثل الأستاذ هنري بوردوا يقول لقومه: لاشيء أقتل من تغلغل الأفكار الأجنبية، لأن الغاية التي تصل إليها هذه الأفكار إنما هي جرح مواطن حسياً وشعورياً، فإذا أردنا أن تكون ثقافتنا ضرباً من الميول العشوائية لزمنا أن نجعل هذه الثقافة عاجزة عن تغيير طبيعتنا وروح عنصرنا، يجب علينا قبل كل شيء أن ندرس أنفسنا فإذا وثقنا بأنفسنا بعد هذه الدراسة تمكنا من استخدام قلوبنا وأفكارنا كما يستخدم القائد جيشه الأمين الذي يترفع عن الانضمام إلي العدو، فحينئذ نحاول فتح العالم أي الاتصال بآداب الأمم، فالوطن هو اجتماع الموتى والأحياء في بقعة واحدة، ويبدو خطر الاقتباس والاستعارة واضحاً حين نرى أمما كبرى تخشى على أنفسها منه، وهي

قد بلغت الذروة في النضوج وليس لها من محاذير الاستعمار وتحديات التغريب والغزو الثقافي التي تحاصرنا ، ونعجب لأنها حذرة، ولأننا ونحن بين شقى الرحي وفي قلب خطر الصراع نستهين بالأمر وننظر إليه في بساطة بل ربما عده بعض الغافلين أمراً لا أهمية للاحتياط منه.

يقول جان بول سارتر: «لو افترضنا أن شعباً أوربيا صغيراً اضطر بحكم الظروف السياسية والاقتصادية أن يستعير من الأيدولوجية الأمريكية أو السوفياتية شيئاً فهذا الشيء المستعار لن يبدل جوهره بعد الاستعارة إلا بعملية هضم صحيحة سليمة، وذلك لأن أصوله مستمدة من طبيعة الاقتصاد والوضع الاجتماعي والسياسي في أمريكا أو روسيا، والمستعير حين يكون سطحي الثقافة لن يستطيع أن يبدل طبيعة هذا الوضع، فيبقى الشيء المستعار في جوهره أمريكياً أو روسياً يفرض على ثقافة صغيرة لاقبل لها بتحويله أو طبخه من جديد، وذلك لأسباب متعلقة بطبيعة ضعفه السياسي والحاجة الاقتصادية والفقر الثقافي، وهكذا ينظرون في الغرب إلى مسألة الاقتباس على ساحة فكر واحد الأصل والمصدر، وحتى الماركسية فيه ليست إلا جزءاً من تحولاته بينما لانقدر نحن أمر محاذير الاقتباس، ونحن من طابع آخر وذاتية أخرى.

وهكذا تبدو مسألة الاقتباس على ضوء التجربة وينكشف مدى الخطر الكامن من ورائها، إن النتيجة الطبيعية هي ضياع مزاج الأمة وكيانها وطابعها وشخصيتها، فعلى الأمم أن تحتفظ بخصائصها التي تتميز بها أو التي تستمدها من جذورها وتراثها ودينها، وعليها أن تستوحي تاريخها وتستلهم أجواءها، ولا ريب أن التقليد أقل باعاً من الأصالة وأضعف شخصية، والمقلد لن يستطيع أن يكون ذلك الأجنبي ولن يستطيع أن يعود إلى الأصل، ومن هنا فإن ذاته سوف تمسخ مسخاً تاماً وتضيع في بوتقة الأممية والعالمية التي تنصر فيها الأمم الضعيفة التي تساهلت في مقوماتها وأعرافها.

إن (الأصالة) تقتضينا أن نواجه (الاقتباس) بحكمة بالغة وأن يكون لنا موقفنا

الواضح من ترتيب القيم.

سلم القيم

لكل أمة قيمها التي تستمدها من عقائدها وثقافتها وتاريخها وروحها العامة، ومصطلح القيم تعبير حديث مشتق من (قيم الشيء) ومن القيمة وهو اصطلاح اقتصادي في الأصل ولكنه عمم فأصبح يعني الأسس التي يستند إليها في كل ما تصدر الأمم والأفراد من أقوال وأفعال، وهو يستعمل بمعنى المعيار الذي يقاس به الجهد الإنساني في أي زمان ومكان، وتقاس به العناصر الروحية والمادية والعقلية والنفسية والأخلاقية واللاأخلاقية، ولا ريب أن القيم الآن في مجال صراع بين الحضارات والثقافات المختلفة، والإسلام يؤمن بالقيم الإنسانية المتكاملة في مجال الروح والمادة،بينما تحاول النظريات الغريبة الوافدة أن تقصر القيم على الجوانب المادية والعقلية في مجال الإطلاق والإباحة،وذلك بدعوى ضرورة العصر والحداثة.

أما الإسلام فإنه يقرر ثبات القيم العليا التي جاء بها الوحي والمرتبطة بكيان الإنسان نفسه، كما يقرر تكامل هذه القيم تكامل الإنسان نفسه ... ولما كان الإنسان ليس مادة خالصة فكذلك القيم التي ترتبط بوجوده وكيانه، والإسلام في أعلى مفاهيم التقدم والتحضر والقدرة على مواجهة العصر يحمى الكيان الإنساني من كل ما يدمره أو يحطمه، كما يحرره من ربقة الأساطير والخرافات، أما مفهوم المذاهب الاجتماعية التي أخذت تسيطر على الفكر الغربي في السنوات الأخيرة سواء في مجال علم النفس والأخلاق والتربية والاجتماع،فإنها بمثابة ردود فعل لظروف المجتمعات العربية نفسها ولها جذورها اليونانية والوثنية والإغريقية التي كانت دائماً تنزع الإنسان من ضوابطه وحدوده وتدفعه إلى الإبطلاق والإباحية وعبادة الأجساد والمادة.

ولا ريب أن هذه المفاهيم تتعارض تماماً مع مفاهيم الإسلام، وتختلف مع قيمنا

الأساسية ومكونات شخصيتنا وجوهر روحنا ومزاجنا وطبيعتنا، وإذا كانت الثقافات الغربية قد عزلت (الدين) عن منهاج فكرها ومجتمعها بعد أن وجدته بصورته وتفسيراته التي عرفتها معوقاً لها عن الحرية والنهضة فإن الأمر يختلف بالنسبة لديننا وعالمنا وأمتنا، حيث يلتقى الإسلام مع النفس الإنسانية ومع العلم ومع كل عوامل التقدم والنهضة ويدفعها دفعاً إلي الأمام، وحيث يعترف بالنزعات البشرية ويدعو إلى ممارستها في حدود ضوابطه وحدوده التي لاتعوقها ولا يطلقها إطلاقاً، وحين يقع الغرب بشقيه اللبرالي والماركسي، فكره ومجتمعه، في صراع بين الفردية والجماعية يقف الفكر الإسلامي موقف التكامل والتوازن بين الفردية والجماعية جامعاً بينهما.

فالدين في المفهوم الإسلامي ليس قيمة رجعية أو متخلفة أو جامدة، ولكنها قيمة حية ذات فاعلية،وهو إلى ذلك حاجز نفسي عظيم في مواجهة أخطار الحياة وعامل من عوامل التوازن النفسي والتكامل البشري وضوابطه الأخلاقية التي هي من أسباب الإيجابية والقوة.

فالإسلام لايرى ما يراه الفكر الغربي من أن المادة وحدها هي معيار القيم،وإنما يرى القيم متكاملة سواء القيم المادية أو المعنوية،ويرى أن القيم المادية وحدها لاتحقق نمو الشخصية ولا اكتمالها، وأن القيم المتكاملة هي العامل الأول في دفع الأمم إلى النجاح والتقدم، كذلك فإن القيم العليا في مفهوم الإسلام لاتتصل بالبيئة وحدها ولا تتغير بتغير الظروف، والقيم العليا هي القيم المتصلة بالعقائد والأخلاق وقوامها: التوحيد والإخاء والحق والعدل، وهي في صميمها إنسانية ودافعة إلى العطاء والرحمة، وليس الإسلام فكراً روحياً خالصاً، ولكنه فكر إنساني جامع بين الروحية والمادية،وهو يسمو بالقيم الروحية ويحولها إلى قيم إنسانية.

ولا شك أن التقسيم الغربي للقيم وإعلاء الماديات منها إنما جاء استمداداً من الفكر اليوناني الذي قسم الناس إلى سادة وعبيد، السادة لهم الحكم والرئاسة والعبيد هم أحلاس الأرض، وكذلك كان فهم الرومان والفرس والفراعنة والبراهمة

الهندوس، حتى جاء الإسلام بشرعة الإخاء والمساواة،وقضى على عبودية الإنسان للإنسان وعلى الوثنية وتعدد الآلهة. وأقام شرعة العدل والرحمة والتقوى والكرامة الإنسانية،ونادى بالحرية والعمل،ودعا إلى السلام والإخاء وجمع بين الدنيا والآخرة، المادة والروح، ولقد أقام الإسلام ذلك كله على أساس حرية الاختيار وإرادة الإنسان القادرة على الترجيح بين الخير والشر على النحو الذي يقرر المسئولية والجزاء،بينما يجرد الفكر الغربي الإنسان من إرادته ويجعله أداة في يد القوانين المادية.

٢- القيم في الإسلام ثابتة ومتغيرة: القيم الثابتة لاتخضع للأزمان ولا للبيئات ولا تتغير بتغير الأماكن ولا العصور، فهي قيم مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان مركب من روح ومادة وجسم ونفس،وهذه هي القيم الكبرى المرتبطة بالعقيدة والأخلاق،والتي تقوم على أساس إنساني خالص قوامه الحب والإخاء والرحمة. أما القيم المتغيرة فإنها تختلف باختلاف الزمان والمكان وتخضع لاختلاف الظروف الاجتماعية والبيئة،وقد أقر الإسلام القيم النفسية والاجتماعية والمادية جميعاً في تكامل يستهدف تغطية حاجات الإنسان ويرتفع به عن المطامع والأهواء، وكان الإسلام واضحاً في تركيزه على القيم البشرية انطلاقاً منه بالإنسان من أصدق منطلقاته وهي الفطرة، فقد دعا الإسلام إلى الزواج والشراب والزينة والطعام والعمران،وركز حول ذلك الجانب الاجتماعي قيماً ثابتة وجعل لها ضوابط أهمها التوسط وعدم الإسراف،وأقر كل مطالب النفس والجسم في مختلف حالات الحس ولم يحرمها،وإنما اختار لها الطريق المشروع بالزواج وأباحها في حدود الاعتدال ﴿ كلوا وأشربوا ولا تسرفوا ﴾ ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ وإنما حرم الإسلام الزنا والربا والخمر والميسر والميتة ولحم الخنزير وحرم القتل وانتهاك الأعراض،وذلك تكريماً للنفس البشرية وارتفاعاً بها عن الحيوانية وحماية لها من المهلكات، وحياطة لهذا الكيان الإنساني كله (نفساً وجسماً وروحاً) من أن يدمره الإسراف في الملذات أو الخروج عن الاعتدال.

٣- وضع الإسلام نظاماً للقيم يختلف في كثيرمن عناصره ومواده عن الأنظمة التي عرفتها حضارات الرومان والفرس وتفسيرات الأديان السالفة وبذلك حفظ النفس الإنسانية من الأخطار وحماها من الآثام.

أولاً: حماها من أخطار الزهادة واحتقار المادية وقتل النفس، وحماهامن حرمانها من الملذات التي أباحها الله لها بالحق.

ثانياً: حماها من إسراف اللذات والشهوات وتدمير الأجساد والمجتمعات نتيجة لضعف قدرة قادتها على حمايتها والدفاع عنها.

ثالثاً: رفع النفس الإنسانية عن العبودية لغير الله ونحاها عن أن تستعبدها الشهوات واللذات أو يستعبدها الحكام وأصحاب الرئاسات على النحو الذي عرفته المجتمعات اليونانية والرومانية والفارسية القديمة التي كانت ترى كل ما سوى الأمراء عبيداً وخدماً وإقطاعاً وملكاً خاضعاً للقتل والإذلال دونما رحمة ولا كرامة، ولقد جعل الإسلام أساس القيم التوحيد والتقوى والعدل والكرامة الإنسانية والإيمان بالله ونادى بالحرية والعلم والعمل،ودعا إلى السلام والإخاء وجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة ووائم بين القوى المادية والروحية وأقام منطقة وسطى بين الإفراط والتفريط بعيداً عن الشهوات المدمرة والزهادة المعطلة،وبين الترف المفسد وبين الحرمان القاتل. وازن الإسلام بين مطالب الروح ومطالب الجسد ودعا إلى التوسط والاعتدال،ومعنى هذا أن الإسلام لم يعتبر القيم المادية مبغوضة أو محتقرة أو مرفوضة، ولكنه جعلها على قدم المساواة مع القيم النفسية والروحية وجعل كمال الإنسان في تكامل قيمه من حيث هو نفس وروح وجسد.

ولم يمنع الإسلام من تطوير القيم الصغرى المرتبطة بالبيئة والزمن دون المساس بالقيم العليا الثابتة، فقبل أن تكون للبادية قيم تختلف عن قيم المدينة، وقبل أن يكون لمصر من الأمصار قيم تختلف عن قيم قطر آخر، هذا الاختلاف والتفاوت بين القيم الصغرى أقره الإسلام،بل رآه ضرورياً شريطة عدم المساس بالقيم الكبرى أو الخروج عليها،وتحركا من دائرة التوحيد والتقوى والعدل والإيمان بالله.

٤- ومن هنا اختلف الفكر الإسلامي مع الفكر الغربي فيما أطلق عليه (سلم القيم) أو ترتيب القيم، وذلك أنه من شأن كل أمة من الأمم أن تختار الأسلوب الذي تراه في النظر إلى القيم وترتيب سلمها، وإذا كان الفكر الغربي يرى أن للقيم سلماً يتفق مع مطامحه وأهوائه فإن للفكر الإسلامي قيماً تتصل بما أقره الله.

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ .

وهذا سلم القيم في الإسلام يقدم منها الصلاة، الإعراض عن اللغو، أداء الزكاة، حفظ الفروج والأعراض، رعاية الأمانة والعهد، المحافظة على أداء الصلاة في مواعيدها، وقيم الإسلام الكبرى ثابتة أبداً ولاتتغير مع الزمن، لأن الأديان الوضعية والفلسفات هي التي تتطور وتتغير، أما الدين السماوي الرباني فإنه يدعو الناس إلى أن يتطوروا هم ليتلاءموا معه وليلتقوا به، ولما كان الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان فإن هذه القيم الثابتة متصلة بهذا الكيان مستجيبة لحاجاته وحامية له، ولا شك أن الدعوة إلى تغيير قائمة القيم هي واحدة من الدعوات التي حملت لواءها الفلسفة المادية ومن ورائها دعاة تدمير القيم الإنسانية لإحلال مفهوم التطور المطلق والحرية غير المحدودة، بهدف تدمير القوى البشرية التي تستطيع أن تصمد في وجه محاولة السيطرة على العالم، ومهما قال دعاة هذه النظرية من أن ظروف العيش أو تطرر المجتمعات أو تغير الأسباب الاجتماعية أو الاقتصادية أو تحول الأمم من الزراعة إلى الصناعة من شأنه أن يقيم أخلاقاً جديدة، فإن ذلك كله لايستطيع أن يغير حقيقة أساسية: وهي أن الإنسان هو الإنسان في استجاباته للحياة منذ خلقه الله إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم، فهو بطبيعته وتكوينه وتركيبه النفسي والعقلي، ومن واقع فطرته وأعماقها العميقة ثابت الأساس في معرفة الحق والباطل والخير والشر، وهذا هو الثبات في القيم، الذي لايغيره تغير المجتمعات

أو تطورها أو تحول اقتصادها واجتماعها، ولن يكون هذا التغير سبباً في الخروج عن هذه الأصول الفطرية والعقلية الأساسية، فإذا خرجت عليها المجتمعات وانحرفت عن الجادة فإن من حق الإنسان أن يرفضها أو يعمل لإصلاحها لا أن يخضع ويستكين للانحراف أو يقبل مفهوم الشر والباطل على أنه مفهوم للحق والخير، ولقد تتغير القيم الصغرى كالعادات والتقاليد وهي من صنع المجتمع والانتقال من طور إلى طور، ولكن هذا ليس من شأنه أن يحطم أي قيمة من القيم العليا أو يعزلها أو يلغيها كأن يصبح الربا حلالاً أو الزنا معقولاً أو إطلاق الجنس مقرراً أو الخروج من دائرة الحدود التي شرعها الله تبارك وتعالى بالنسبة للإنسان أو المجتمعات أو التراخي في الفرائض والعبادات ما قررته الشريعة من أصول عامة، إن الإسلام يفسح صدره للتغير والتطوير الذي يحدث باختلاف البيئات والأزمنة ولا يعترضه، ويتصل كل ما يتصل به في الفروع والتفصيلات، أما أن تكون الدعوة إلى تغيير سلم القيم مدعاة إلي تحطيم القيم الأساسية الثابتة وإعلاء غيرها عليها فهذا ما لا يقره الإسلام، لأن الإسلام لايقر أساساً متابعة التحولات الاجتماعية والحضارية في كل تطوراتها،ولكنه يقبل منها ما يتفق مع الفطرة والعقل وما يحمى الإنسانية من التردي في الإباحية أو الفساد أو الظلم أو الأهواء المذلة.

وإن أبرز ما يرتفع في سلم القيم الثابتة في الإسلام: التوحيد والأخلاق والعدل والتقوى والإيمان بالله والإخاء البشري فلا يقر الإسلام دعوة ما تحاول أن تصدع هذه القيم، فإذا قيل إن للمجتمعات الصناعية أخلاقاً تختلف عن أخلاق المجتمعات الزراعية،فإن ذلك لايعني بأي حال تقبل التحلل الأخلاقي أو إلغاء أنظمة المجتمع أو أصول التربية (وخاصة في مسائل عمل المرأة وعلاقته بالأسرة والاقتصاد الربوى وعلاقته بالتنمية) ولا بأس أن تتغير أساليب الحياة ووسائلها في السكن وصناعة الطعام والمواصلات والرأي وتبادل المصالح ولكن دون الخروج على الإطار العام المتصل بالأنظمة التشريعية والمعاملات وعلاقات الرجل والمرأة والحلال والحرام - إن النظام الاجتماعي القائم على الأسرة هو نظام فطري أساسي لايستطيع (سلم القيم) أن

يهدمه أو يحطمه ، مهما تحدث دعاة التغريب في سخرية أو تشكيك عن عفة المرأة ودورها في البيت، ومهما قال دور كايم أن الفطرة ليست في الزواج، وتلك نظرية زائفة لايقرها منصف من علماء الاجتماع في الشرق أو الغرب وإنما يعرف الناس جميعاً أن دور كايم ومدرسة العلوم الاجتماعية إنما هي أداة من أدوات الصهيونية العالمية التي حملت لواء الدعوة إلى تدمير النفس الإنسانية أخلاقياً بالإضافة إلى ماركس وفرويد وسارتر في تزييف التفسير الإنساني للتاريخ وعلاقات الجنس، ومهاجمة الأنظمة الاجتماعية الثابتة كنظام الدين والأسرة، ولقد أكد التاريخ البشري في مساره الطويل سلامة هذه القيم في حياة الإنسان، أما الذين يرون أن ما أصاب المسلمين من تخلف أو هزائم من شأنه أن يدعوهم إلى إعادة النظر في كثير من القيم فنحن معهم في هذا ولكن أي قيم؟ إن المسلمين قد تخلوا عن القيم التي وسدها لهم الإسلام وأن هذا التخلي هو مصدر هزيمتهم ونكستهم وأنهم إذا عادوا إلى سلم القيم الإسلامي وأقاموا صرح القيم الثابتة على النحو الذي ارتضاه لهم الإسلام لكان ذلك مصدراً هاماً من مصادر القدرة على تحقيق كيانهم والإدالة من خصومهم، إن أزمة القيم في عالم الإسلام يدعونا إلى التماس مفهومنا الأصيل والتخلي عن المفاهيم الزائفة والوافدة التي حاولت أن تكتسح مفهومنا وتسيطر على مجتمعاتنا وكياننا، ويمكن القول على ا لإجمال بأن اتجاه الفكر الغربي إلى تدمير القيم إنما جاء نتيجة للآثار التي أحدثها مفهوم القيم الروحية المسرفة في الزهادة والرهبنة والدعوة إلى اعتزال الحياة، وإلى تحريم اللذات الحسية وقمع الغرائز والإشادة بتعذيب الأجساد، فكان ما نرى من فلسفة هي رد فعل لذلك تحتقر كل القيم الأخلاقية والدينية وذلك نتيجة طبيعية للانحراف الأول، جاءت بانحراف جديد.

إن هذه المفاهيم التي تردى فيها الفكر الغربي أولاً لم تكن في الحقيقة مستمدة من الرسالات السماوية والكتب المنزلة وإنما كانت من تحريفات المفسرين، ومن هنا جاءت بعد ذلك الحملة على هذه القيم وتحطيمها والدعوة إلى الحرية المطلقة وتغليب اللذات والشهوات، وتلك قضيتهم وأزمتهم، وأما في محيط الإسلام فإن الأمر

يختلف، ذلك أن الإسلام قد اعترف بالنوازع البشرية في مختلف مطالب النفس والجسد وأباح للغرائز حرية العمل في حدود الضوابط التي أقامها والنظم التي وضعها والحدود التي قررها حفاظاً لها، هذا الإسلام غير مطالب باجترار مثل الدعوات والمفاهيم المسمومة.

الباب الخامس

قضايا الفكر والمجتمع

(٣٢)
التكامل والانشطارية

الإسلام والتقدم

إن سمة الإسلام الأساسية المثلة في فكره الأصيل: هي التكامل بين القيم والوسطية بين الطرفين المتطرفين استكمالاً لهما ومواءمة وتوازناً، والتكامل سمة أساسية تميز الفكر الإسلامي عن الفكر البشري بشقيه: الفكر المادي الخالص والفكر الوجداني الخالص، فالفكر الإسلامي يؤمن بتكامل القيم والعناصر والتقائها في وحدة كاملة تستهدف بناء شخصية الفرد لبناء المجتمع بعد ذلك على أصل أصيل ومنهج فطرة.

وأبرز مميزات التكامل في الفكر الإسلامي: التوازن والمواءمة والتنسيق بين تيارات الوحدات المختلفة واتجاهاتها بحيث يحميها من التعارض أو التضارب أو التخلف ويحول بينها وبين الصراع، بحيث تلتقي فروع الإجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون والأدب والفن على مفهوم متكامل أساسه بناء الفرد والجماعة، ودفعهما إلى الأمام في مجال التقدم والبناء والنمو أداءً للرسالة التي جاء الإنسان إلي هذا الكون من أجلها وتحقيق إرادة الله العليا التي يقوم الفكر الإنساني الأصيل من أجل بنائها وحمايتها ودفعها إلى الأمام.

ذلك مفهوم الإسلام، أما الفكر الغربي فقد قام أساساً على غير ذلك، بل على عكس ذلك تماماً، قام على أساس الانفصال والانشطار والتباعد بين القيم واستعلاء كل منها مع الانفصال التام في الميادين، أو الالتقاء بين عنصر وعنصر دون أن تكون هناك هذه القدرة الموحدة للقيم كلها في إطار متكامل جامع،وهو ما تفرد به الإسلام.

أما الفكر الغربي فإنه حين دفع هذه الفروع إلى العمل فإنه لم يخلق بينها ذلك الرباط الأساسي والحتمي الذي يجعلها متوازنة لاتطغى منها قيمة على أخرى، وكان أخطر ما تجاهله هو أنه فرغها من أخلاقيات التقوى والرحمة والغيرية،ومن هنا نشأت فكرة استعلاء العلم أو المادة كما نشأت نتيجة لذلك أسباب الصراع والتناقض والتحلل والتمزق والضياع.

١- إن القرآن يرسم للفكر الإسلامي طريقاً ومنهجاً بحيث يظل محافظاً على كيانه، محرراً من الاحتواء، سليماً من الخطر، قادراً على تصحيح مساره إذا انحرف، مستهدفاً الغاية من العمل وهي تحقيق منهج رباني في مجال الفكر والحضارة، أما الفكر الغربي فقد حطم كل الضوابط وقضى على كل الالتزامات، ولم يعد مرتبطاً بأي مسئولية عقائدية أو أخلاقية أو خيط يربط وحداته، ومن هنا كانت محاولات التغريب الواسعة المتعددة للقضاء على هذه الدعامة في الفكر الإسلامي ودحرها، بمحاولة تجزئة هذه القيم والعلوم والفروع، وإعطاء كل منها حرية الحركة بحيث يخرج عن الجامعة الكلية التي تربطه، كما أعطى ذلك للأدب أو الفن رغبة في الفصل بينه وبين الأخلاق وبين مسئولية المجتمع،أو كما جرت المحاولات لتفريغ السياسة من القيم الأخلاقية أو بناء الاقتصاد على الأساس المادي أو الربوي، أو فصل الدين عن المجتمع والدولة، بينما لايقوم منهج الإسلام إلا متكاملاً جامعاً، ولا ريب أن محاولة التجزئة هذه لها أبعاد خطيرة بأنها تصرف الفكر الإسلامي عن طريقه الأصيل وتنحرف به عن غايته الأدنى، وتخرجه عن مساره الحقيقي المهتدي بأهداف الإسلام ومنهج القرآن، ولذلك فإن (التكامل) هي قاعدة أساسية ودعامة كبرى.

٢- يجمع الإسلام جمعاً انصهارياً (لاثنائياً ولا ازدواجياً) بين العقيدة والشريعة وبين العقل والقلب وبين الدنيا والآخرة، وفي النظرة إلى قضية ما يتطلب الأمر معرفة كل الأبعاد ووضع هذه القضية في مكانها من الصورة الكاملة.

لايكفى النظر إلي الحادث أو الموقف أو الخبر منفصلاً للحكم عليه،وإنما يجب أن يعاد هذا الجزء إلى الكل أولاً ثم يجرى تقدير الموقف كله.

ففي أحداث التاريخ لابد من مراجعة شاملة للتطور التاريخي كله الذي سبق هذا الحادث ولازمة (وأمامنا مسألة قضية فلسطين ففي نظر الفكر الإسلامي يجب أن ينظر إليها من خلال بعدها الإسلامي في أول الدعوة وموقف اليهود، وبعدها الخاص بالحروب الصليبية وبعدها الخاص بالاستعمار وبعدها الخاص بالصراع بين الشرق والغرب إلخ) وفي تفسير التاريخ لاتتوقف النظرة الإسلامية عند عامل المناخ أو الاقتصاد أو النزعة إلى السيطرة أو الآثار المادية إلخ، وإنما ينظر إلى هذه العوامل مجتمعة مضافاً إليها عامل الإنسان بوصفه صاحب إرادة، وعامل الإرادة العليا التي تتحرك في داخلها إرادة الإنسان،وفي أي مسألة لايمكن النظر إليها من وجهة نظر اقتصادية محضة، أو اجتماعية خالصة أو روحية منفصلة، وإنما لابد من نظرة متكاملة جامعة.

فالثقافة الإسلامية (هي كل هذه الخيوط مجتمعة متلاقية بحيث يتكون من لحمتها وسداها نسيجها متماسكاً له لونه وقوامه وأثاره).

وفي مسيرة الإسلام ظهر أثر التجزئة والانشطار والخروج على تكامل الإسلام حين استعلى الفكر المعتزلي العقلاني، وحين استعلى الفكر الصوفي الوجداني،وفي كلتا المرحلتين وقعت الأزمة التي لم يتحرر منها المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي إلا بالعودة إلى التكامل الجامع، فقد انحرف الاعتزال حين استعلى بالعقل وحده، وانحرف التصوف حين أعلى شأن القلب والإسلام عقل وروح، ولقد عرف أئمة الفكر الإسلامي خلال هذه الأزمات «قانون التكامل» وجعلوه أساساً للفكر الإسلامي ونبراساً لتصحيح المفاهيم وميزاناً صادقاً لايخطئ، ونحن اليوم في أزمة التغريب والغزو الثقافي نواجه فكراً غريباً انشطارياً،يريد أن يحتوي مفهومنا ويسلمنا إلى هذا الخطر الماحق،فعلينا أن نكون قادرين على دفع الخطر،فالفكر الإسلامي في أصوله وجذوره وفي حركته ونظرته: متكامل جامع لايتعرض للجزئيات وإنما يضع القواعد الكلية وهو يضم كل القيم.

السياسة: تربية الأمة على العزة والكرامة.

العلم: فريضة على كل مسلم ومسلمة.

التربية: تربية الروح والجسم والعقل.

الاقتصاد: تدبير المال وكسبه من وجههالمشروع.

الاجتماع: حل أدواء المجتمع وأزماته.

التصوف: طهارة النفس ونقاء القلب.

مع البعد عن مواضع الخلاف والعناية بالنفس الإنسانية والاهتمام بالساعد قبل السيف وبتقوى القاضي،فالعدل في نفس القاضي وليس في نص القانون،وليس العيب في الخلاف بل في التعصب للرأي والحجر على العقل.

٣- التصور الإسلامي لأمور الحياة كلها ليس تصوراً فلسفياً مجنحاً،ولا تصوراً مادياً حاداً،ولكنه تصور إنساني كامل يقوم على أساس التوحيد والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي، وقد تحرر التصور الإسلامي دوماً من طوابع الوثنية والمادية والروحية المغرقة، ومن تراث الهلينية والغنوصية على السواء وقام على التماس المنابع الأصيلة من القرآن والسنة الصحيحة،وهو مركب جامع لايفصل الأدب عن الفكر ولا الدين عن المجتمع، ولا العروبة عن الإسلام،ولا الأخلاق عن التربية،ولا الشريعة عن الأخلاق، ومن ثم فإن التماس المنابع فيه مرتبط بالنظرة المستقبلية، فليس الفكر الإسلامي فكراً دينياً بمعنى أنه فكر لاهوتي أو عبادي قاصر،وليست اللغة العربية لغة دينية بهذا المفهوم.

وقد شهد المفكرون الغربيون المنصفون للإسلام بهذا الطابع وهذا القانون يقول أحد الباحثين.

إن الإيمان العميق بالله في الإسلام جنب المعارف من الانقسام، ويقول الأستاذ تريتون أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة لندن: إن الإسلام يعطى كلاً من العالمين (الدنيا والآخرة) حقهما، وفي وسع المسلم العصري أن يعيد النظر في الإسلام كله دون أن ينقطع عن الماضي،وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة،لأن

باب الاجتهاد مفتوح لايزال، والمسلمون يجتهدون اليوم،ليثبتوا أن الإنسانية الصادقة والآداب القومية والعقل السليم تلقى أرفع تعبير عنها في شريعة الإسلام وأحكامه.

ويقول ليوبولد فابس: إن الارتباط العميق بين الدين والسياسة، ذلك الارتباط الذي يميز التاريخ الإسلامي بصفة عامة يبدو غريباً في نظر الرجل الغربي الذي طال تعوده على اعتبار أن مسائل الاعتقاد ووسائل الحياة العملية ينتمي كل منها إلى مملكة مغايرة لتلك التي تنتمي إليها الأخرى، ومن المستحيل الحصول على تقدير صحيح للإسلام دون الانتباه الكامل لهذه المسألة، فأولاً: يجب أن ندرك أن الإسلام لايهدف إلي مجرد التأثير في علاقة الإنسان بالله تبارك وتعالى وتوجيه هذه العلاقة فحسب، بل هو كذلك يهدف إلى التأثير في العلاقات المتبادلة بين الناس وتوجيهها والحاجة هنا لاتقل عن الحاجة هناك.

وانطلاقاً من الاعتقاد الأساسي بأن جميع جوانب الحياة الطبيعية قد تقرر بمشيئة الله،فإن رسالة القرآن لاتقف عند حد الإهابة الروحية بل وتشمل حقل النشاط الإنساني بأسره: الفردي والاجتماعي كله ومثل هذه النظرة تمنع بطبيعة الحال الفصل بين أمور الحياة الدينية والدنيوية وتمنع الفصل بين ما لقيصر وما لله، هذه النظرة التي يرى بها الإسلام مفكروا الغرب تستطيع أن تضيء لنا الطريق،لأنها تكشف عن زيف الأسلوب الذي يقصر الاهتمام على الفرد وحده وعبادة الفرد بصرف النظر عن الجماعة، أو خطأ إحلال الجماعة محل الفرد، وعبادة المادة، وجعل مظاهر المجتمع بشتى صوره السياسية والاقتصادية غاية يسخر لخدمتها الإنسان وليست وسيلة لخدمة الإنسان، وتلك هي الانشطارية المتصارعة التي يرتفع عنها الإسلام في تكامله الذي يعني بالفردية في نفس الوقت الذي يقيم فيه الجماعة ويعنى بالروح في نفس الوقت الذي يهتم فيه بالمادة، ويقرر أن الفكر والمادة إنما يتتابعان لا يسبق أحدهما الآخر، ويجعل من الإلهي والزمني كلا مترابطاً.

وفصل الدين عن الحياة العملية مما يستبعده الإسلام، لأن الإسلام لو انعزل عن المجتمع لما استطاعت الحضارة الإسلامية أن تمتد من المشرق إلي المغرب ولما

استطاعت أن تقيم هذا البناء الضخم، إن فصل الدين عن المجتمع محاولة لإبعاد الدين عن وضعه الحقيقي ومفهومه الأصيل،وإن فصل الدين عن الحياة هو الذي أخرّ تطور المجتمع الإسلامي في العصر الحديث، إن أبرز قوانين الإسلام الذي انتصر به المسلمون هو وحدة تعاليمه وتكاملها، بحيث لايصح تجزئتها ولا تفتيتها أو الأخذ بفرع منها دون الآخر فكل فرع مؤثر في الفرع الآخر متأثر به، ومن هنا يتبين أن المذهبين المثالي والمادي قاصران عن أن يكونا أساساً صالحاً لبناء نظرية تاريخية أو حركة اجتماعية، فالمادية تعتمد على الطبيعة وحدها وتضع الإنسان في مرتبة ثانوية، بينما أن المثالية تؤكد دور العقل أو القوى العاقلة وتضحى بالطبعية وكلاهما قد عجز عن إدراك العلاقة بين الإنسان وبين خالقه ومجتمعه.

٤- من الحقائق الأساسية أن الإسلام جمع بين المادي والمعنوى في مفهوم واحد متكامل يتمثل في نظافة الجسد وطهارة القلب، ويتقرر في الترابط بين الخُلقى والخِلقي وفي ذلك يقول الرسول ﷺ «اللهم أحسنت خَلقِي فأحسن خُلقي) ويظهر في الترابط بين العلم والعمل (الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل) ويتمثل في الجمع بين المادي والمعنوي: يقول عمر بن عبد العزيز لواليه الذي طلب بناء سور لتحصين المدينة (حصن مدينتك بالعدل) وأبرز ما يركز عليه الإسلام التلازم بين القوة الموجهة للعمل وبين الإرادة المنفذة له، فلا فصل بين القوى والإرادة ولا تناقض بين النفس والجسم، لذلك فإن أبرز ما يمثل مفهوم التكامل قول القائل: إن الإسلام يجمع بين الأرض والسماء في نظام الكون، وبين الدنيا والآخرة في نظام الحياة،وبين الروح والجسد في نظام الإنسان،وبين العمل والحياة في نظام المجتمع،ويشكلها جميعاً في نظام موحد هو الطريق إلى الله، ومن هنا فإن تكامل الإسلام يتمثل في النظرة الجامعة دون إعلاء جانب على جانب،وبذلك كانت العقيدة الإسلامية بهذا التكامل والتجانس والتوازن قادرة على أن تزود الناس بمفهوم كامل عن العالم والحياة.

الانشطارية

ما هي الانشطارية؟

هي الفصل بين القيم المتكاملة في الفكر وفي النفس الإنسانية وتجزئتها والعجز عن تكاملها وارتباطها مما يؤدي إلى عدم القدرة على الاستيعاب أو رؤية الأبعاد المختلفة، ولما كان الفكر الإسلامي يقوم أساساً على التكامل بين القيم والترابط بين الأجزاء بما يلتقى بالإنسان نفسه (الجامع بين المادة والروح) فإن الانشطارية هي من أخطر التحديات التي تواجه وجوده، والتي هي مصدر أزمة الإنسان المعاصر وأزمة الحضارة الحديثة، ذلك أن الفكر الغربي بطبيعته التي نشأ عليها وتشكل بها: هو فكر انشطاري يعجز عن التكامل ويرى استحالة التقاء العناصر في كل جامع، ولقد بدأت الانشطارية في الفكر الغربي من نقطة الفصل بين الدين والدنيا وعزل الدين عن الدولة وفصلها عن المجتمع وقصر الدين على العلاقة بين الله والإنسان حتى أصبح مفهوم الدين إنما يعنى هذه العلاقة وحدها، وهذا هو المعنى لكلمة الدين والمتعارف في مجال البحوث العلمية والحديثة وهو الذي يستمد مفهومه من كلمة (Relegon) الأجنبية وهي لاتعنى مفهوم الدين بالصورة التي نفهمها في الفكر الإسلامي، ولا تشمل منطلق المفهوم للدين بالصورة التي نفهمها في الفكر الإسلامي ولا تشمل منطلق المفهوم الإسلامي للدين الجامع بين الدين والدولة والعبادة ومنهج الحياة، بينما يعني الدين في الغرب العبادة وهي جزء من الإسلام،ولا يكتمل الدين في الإسلام إلا بتمامه بإقرار مناهج العلاقات بين الناس في المجتمع بالإضافة إلى منهج العلاقة بين الناس في المجتمع بالإضافة إلي منهج العلاقة بين الإنسان وربه، ومن هنا كان قصور الفكر الغربي في جانب المنهج الاجتماعي وحاجته إلى استكمال هذاالجانب بالأيدلوجيات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية، لأن الدين عنده ليس إلا علاقة مع الله أما في الإسلام فإن المسلم يجد منهجاً كاملاً: يضم العبادة والتعامل الاجتماعي، والأخلاق، في كلٌ مترابط متداخل لاينفصل منه جانب عن الآخر، والفكر الغربي يفصل بين الدين والدنيا نتيجة لذلك، ثم جاء الفصل بين الدين والعلم،ثم جاء الفصل بين المادة والروح.

ولما حقق العلم بعض الانتصارات أصبح في نظر الفلاسفة دين البشرية في العصر

الحديث، ومن استعلاء العلم استعلت المادية ووقع الانفصام بين شطري النفس والحياة فحجب جانب الروح والقلب والوجدان، واستعلى جانب العقل والعلم والمادة، وأصبحت النظرية كلها قائمة على المحسوسات والمعقولات والتجريب، أما ما سوي ذلك من جوانب الغيب والوحي والنبوات ورسالات السماء فقد أسقط تماماً ووضع في قائمة الأساطير والخرافات من الكلمات الساخرة.

وبذلك أنكرت الفلسفة المادية شطراً كبيراً من الواقع وبعداً خطيراً من أبعاد المعرفة وفهم الحياة ورسالة الإنسان فقد أنكرت كل ما لايدركه الحس، وعجزت عن أن تنظر إلى الدين والوحي خارج نطاق التفسيرات المضطربة التي وجدتها، وقد كانت ولا تزال تستطيع إذا خلصت النيات أن تجد في التجربة التي قام بها عدد من مفكري الغرب ممن اتصلوا بالإسلام - أمثال دكتور خالد شلدريك ودكتور جرمانوس ومحمد أسد (ليوبولدفايس) وعشرات، تجد فهما جديداً لمعنى الدين والوحي والنبوة.

ولقد اتسع نطاق «الانشطارية» في الفكر الغربي ففصل بين الحاضر والماضي، بل وأنكر الماضي كلية ودعا إلى الانفصال عنه ورمى التراث بكل مهانة وانتقاص. واعتبر الماضي والقديم مجموعة من التقاليد والأوهام التي تجاوزتها البشرية بعصر العقل والعلم،ودعت الانشطارية في نظرتها إلي مفاهيم الاجتماع والأخلاق والنفس إلى إلغاء القيم الثابتة التي قررتها الأديان من ضوابط وحدود ومحرمات،داعية إلى ما أسمته نسبية الأخلاق والتطور غير المقيد أو غير القائم على محور ثابت، وارتفع الصوت بإعلاء ما أطلق عليه مبدأ التغير والمتغيرات، وأصبح لايقيم وزناً للحقائق الثابتة والأصول القائمة. فأرسلت الدعوة إرسالاً إلى القول بالتغيير المستمر لكل كائن ولكل فكرة.

ثم ظهرت عقلية الجزئيات والتفصيلات والتخصصات التي استطاعت أن تحجب عن أذهان الناس الصورة الكاملة والواضحة للفكر البشري أو لحركة المجتمع التي تعطى للإنسان نظرة جامعة لها أبعادها المتصلة بالكون والحياة.

٢- وتبدو ظاهرة الانشطارية في كل جوانب الفكر الغربي على النحو التالي:

أولاً: انشطارية في نظرية المعرفة بين العقل والقلب.

ثانياً: انشطارية في نظرية العلم بين الدين والدولة.

ثالثاً: انشطارية في نظرية الأخلاق بين النسبي والثابت.

رابعاً: انشطارية في نظرية الأدب بين تكامله أو تجزئته عن الفكر.

خامساً: انشطارية في العلم: بصراعه مع الدين.

سادساً: انشطارية في السياسة بانفصالها عن الأخلاق.

سابعاً: انشطارية في التربية بفصلها عن الدين والأخلاق إلخ.

ولما كانت طبيعة الفكر الغربي تتمثل في (التجزئة) لا في (التكامل) فهي تفهم شيئاً واحداً وترى الآخر ضده على الإطلاق ترى أن الحياة مصدرها جنسي حسبما جاءت نظرية فرويد، ولا تقبل أن تكون للحياة مصادر متعددة: يكون الجنس أحدها، وترى أن تفسير التاريخ تفسيراً مادياً حسبما جاءت نظرية ماركس ولا ترى الصورة الواسعة بأبعادها وأن هناك عوامل مختلفة تحكم التاريخ غير المادة منها الدين والعقائد والأخلاق والمسائل المعنوية بالإضافة إلى الطقس والبيئة وهكذا.

وترى أن الجنس الأبيض هو وحده الذي يملك التفوق ولا ترى أن التفوق يمكن أن يكون لأجناس أخرى أو أنه لايرتبط بعامل الجنس،كذلك فهي ترى أن مصادر القيم مادية وحسية وتجريبية، وتقيم كل المناهج على أساس العلمانية ولا ترى أن في الأفق مناهج أخرى غير المنهج المادي أو أن للإنسان قوى أخرى غير العقل، وهي بهذا لاترى إلا وجها واحداً تقف عنده وتنكر معه أن هناك وجهاً آخر، ولاتتسع آفاقها إلى إمكان الجمع أو المواءمة أو الامتزاج أو الالتقاء أو التوازن بين الجانبين المادي والروحي أو العلمي والديني، وهكذا تفصل بين الأشياء فصل التعارض والمخالفة والخصومة الكاملة. ولا تستطيع بطبيعة تركيب فكرها وميراث عقليتها ومكوناتها الطبيعية التي غرستها عوامل كثيرة أن تقبل التقاء القيم وتكاملها كما تلتقى وتتكامل في الإنسان نفسه.

فهي تقبل العلم وترفض الدين، وتقبل المادة وترفض الروح، وتقر المحسوس وترفض الغيبيات،وبذلك تقر الانشطارية أساساً للفكر وقانوناً له، ومن نتائج هذا أن وقع الصراع والفصل والتضاد والعداء بين الفردية والجماعية، وهي في الإسلام متكاملة في تناسق ومرونة وهكذا تمزق الفكر الغربي إلى فكر فردي ليبرالي يستعلى بالفردية وفكر اجتماعي ماركسي يستعلى بالجماعة وينكر حق الفرد، وقد كان هذا التمزق من شيمة الفكر البشري دائماً وفي أيام الرومان والفرس، بينما يقوم الإسلام على الجمع بين الفردية والجماعية.

وانتقل الفكر الغربي من مفهوم تعذيب الأجساد والرهبانية والعزله في الصوامع وعقوق الفطرة في إنكار الزواج والطعام إلى النقيض الكامل في الإباحة والانطلاق وإعلاء الجنس والدعوة إلى الشذوذ والهيبيه، من النقيض إلى النقيض، ومن التجميع الكامل لرغبات الجسد إلى الأفراد الكامل إلى درجة الانفجار، ولا ريب أن أبرز ما يصدم الفكر الإسلامي من أصول الفكر الغربي وأسسه الوطيدة هذه الانشطارية التي تحول إلى أعمق الأعماق دون محاولة الالتقاء بين الفكرين، ولقد عمد دعاة تعميق الانشطارية (وهي الصهيونية التلمودية) إلى إعلاء شأن التخصص الجزئي وحجب أهل التخصص عن التماس النظرة الكاملة التي يعرفون بها موقفهم من الكل المرئي، وتجاهل أبعاد القضايا والانحصار في دوائر ضيقة مظلمة عاجزة عن فهم ما وراءها، فعالم النفس قد استغرّق فكرة مبادئ هذا العلم ومقاييسه وهو يرى أن علمه يفسر الحياة كلها، وعالم الاقتصاد يرى أن مسائل العيش هو قوام الإصلاح البشري وأن نظريته هي واحدة الدنيا، وهكذا تتقابل المذاهب وتتصارع وهي جزئية كليلة عاجزة عن أن تحيط بالإنسان في تكامله أو الحياة في جماعها المترابط بين قيم كثيرة. والحق أن هذه التخصصات كلها إنما هي جوانب جزئية من كل ومظاهر متنوعة لوحدة كاملة تدور حول الإنسان وحول مجتمعه،ومن العجيب أن يقف الباحث المتخصص عند حدود جزئية واحدة دون أن يلم بالصورة الكاملة ليرى موضعه الحقيقي فيها وليرى أثر نظرته في الصواب أو الخطأ في الأجزاء،وشأن هذا التخصص

شأن قصة الفيل القديمة، الذي لمس بعض المكفوفين أجزاء منه فلما سئلوا صور كل منهم الفيل بصورة الجزء الذي لمسه من جسمه الضخم».

ومن العجيب أن يعجز علماء الفروع عن فهم الصورة الكاملة لعملهم، المرتبط بالإنسان أساساً وبمجتمعه، ولكن السيطرة التلمودية تريد أن تجعل في يدها وحدها كل الخيوط، فهي توقف علماء كل قطاع عند جزئيتهم فلا يتعدون النظرة إلى ما تحت مواقع أقدامهم، أما في الإسلام فإن أمر دراسة الأبعاد والجوانب وأثر بعضها في البعض الآخر مفروض على الباحث في الاجتماع أو الاقتصاد أو التربية، ذلك أن عليه أن يعرف أثر موضوعه كجزء في الأجزاء، تكاملاً وحذراً من التضارب أو التكرار أو إحداث البلبلة، فالمتخصصون في الإسلام يلتقون على مستوى التكامل ومعرفة أبعاد دور كل منهم، وأثره في الأجزاء الأخرى حتى تبدو الصورة دائماً كاملة وسليمة من التضارب والتعاكس.

وفي الفكر الإنشطاري لايسأل المجتمع عن مسئولية رجل الأخلاق، ولا يسأل رجل الأدب عن أثره بالنسبة للتربية، ولا يسأل رجل النفس عن محاذير وجهة نظره بالنسبة للدين، وهكذا تتمزق الأختصاصات ولا تلتقي في منظور كامل (إلا إذا كان هذا المنظور هو القوى التي تحرك أجهزة العلماء جميعاً وتستفيد من تخصصهم الشديد الذي لايجاوز الجزئيات ومن هنا يقوم ذلك الاحتواء التلمودي الخطير للفكر الغربي ويحركه في الطريق إلى تدمير المجتمع البشري وتمكينه من تحقيق أهداف الصهيونية).

ومن هنا نجد أن الفكر الإسلامي المتكامل الجامع لايقر الانشطارية الغربية ويرى أن الفكر لابد أن يتكامل تكامل هذا الإنسان من حيث كونه روحاً وجسدا. إلى جانب التكامل في النظرة الإسلامية.

٣- يمثل الإسلام (الوسطية) بين المادية الغربية المغرقة والروحية الشرقية المفرطة، كذلك فإن الإسلام يمثل (التوازن) الذي يجمع بين الطرفين في عدالة تامة بعيداً عن مغالاة أحد الطرفين، وبمعنى أن كلا منهما عنصر أساسي في الطبيعة البشرية

لاغنى عنه لتقدم الإنسان، والتوازن بين الفرد والمجتمع، والتوازن بين المادي والروحي، والتوازن بين الدنيوي والأخروي.

ويصور هاملتون جب الإسلام بأنه عامل التوازن بين النقيضين في العالم الغربي فهو يقف في وجه فوضى الوطنية الأوربية كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية، ويمتاز بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر من مواد الجماعة ومبادئ الإسلام تنبذ التبادل غير المفيد، كما تنادي بالعداء للأموال المعروفة بالربا في حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوج والملكية ورءوس الأموال التجارية، وهو بذلك يقف وسطاً بين البرجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية.

ويقول: وإذا ما أريد إحلال التعاون محل الخلاف في المجتمعات بين الشرق والغرب فإن وساطة الإسلام ضرورية لاغنى عنها فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التي تواجه أوربا في علاقاتها مع الشرق».

التـــــــقدم

إن قانون التكامل يفرض مفهوماً للقضايا مختلفاً عن المفاهيم التي تفرضها الانشطارية، وفي عشرات من القيم الأساسية للحياة والمجتمع نجد ذلك الفارق واضحاً وعميقاً فقانون التكامل يصدر عن الأصالة التي تمثل الارتباط بالمنابع وتعطي للحركة حريتها الواسعة داخل إطار الحدود والضوابط التي رسمها الدين الحق، وهي تمثل الوسطية التي لاتنحرف إلى شمال أو يمين، وهي تمثل الترابط بين نقطة الثبات وحركة التغير.

فإذا عرضنا لمفهوم (التقدم) وهو من كبرى قضايا العصر نجد أن موقف الإسلام منه جامعاً للأصالة وللتكامل والوسطية رابطاً بين الثبات والحركة. قادراً على التغيير والتطور دون فقدان الذاتية أو تجاوز الإطار أو الانطلاق إلى غير غاية

واضحة، ومفهوم التقدم في الإسلام أنه دعوة إلي الحركة والترقي وتجاوز العقبات واقتحام الأخطار في سبيل الغاية الكبرى، غاية وجود هذا الكون، ورسالة الإنسان فيه ومسئوليته والتزامه، هي في إقامة المنهج الإنساني الطابع الرباني المصدر الذي يسعد البشرية ويهديها ويوجهها إلى الحق والخير والعدل ويرفع عنها إصر الحقد والأنانية والتعصب ويرتفع بها من الأنانية إلى الغيرية ومن الذاتية إلى الجماعية ومن المطامع والأهواء إلى الرحمة والعطاء، ومن العنصرية إلى الإخاء، ومن الاستعلاء والسيطرة إلى المساواة والعدل.

والتقدم في الإسلام هو تأكيد القيم الإنسانية العليا،وهو تقدم شامل كامل جامع بين المادي والمعنوي، فالتقدم المادي فيه مشروط بالقيم الأساسية القائمة على الرحمة والعدل والخلق، وذلك انطلاقاً من مفهوم الإسلام القائم على أساس أن الحوافز الروحية تعطى الجوانب المادية سموا وارتفاعاً، ولقد جاء الإسلام إلى البشرية منذ أربعة عشر قرناً حاملاً لها مفهوم التقدم الجامع بهذا المعنى فنقلها من عبادة الأوثان إلى عبادة الله ومن العبودية للقيصر والفرعون إلى الإنسانية التي تقوم على المساواة والإخاء،ثم كانت الحضارة الإسلامية بآفاقها الواسعة التي امتدت من آسيا إلى إفريقيا إلى أوربا ثمرة مفهوم التقدم الإسلامي الجامع الذي أعلى شأن كرامة الإنسان وحريته وتخليصه من القيود، وجعلها في المقام الأول من التقدم، ثم لم يجعل التقدم المادي عاملاً على القضاء على الأخلاق والقيم العليا، بل جعله أساساً لها، وفاصلاً بين أخلاق الحياة وبين التقدم المادي الخالص، مقرراً أن الغاية من التقدم أخلاقية أساساً.

ولقد مضت حركة التقدم الإسلامي إلى غايتها،فقدمت للبشرية معطيات العلم في إطار الأخلاق والرحمة والسماحة حتى دارت دورة الفلك، حين تسلمت أوربا مقاليد الحضارة والعلم وعملت على انتزاع التقدم المادي من ضوابط الدين والأخلاق واندفعت به اندفاعاً تاماً حتى جعلت التقدم نفسه بديلاً للدين.

واقترن التقدم بالتغير الاقتصادي بمعناه المادي من مخترعات ووسائل. وقد دفعها

هذا التحول إلى تغيير مفهوم التقدم في جوانب كثيرة.

١- جعلته حقاً للشعوب البيضاء صاحبة الحضارة وليس حقاً للشعوب الملونة استعلاءً بالجنس واستعلاءً بالثروة والموارد والقوة المادية.

٢- تصورته تقدماً عاماً إلي الأمام وينتقل من حسن إلى أحسن.

٣- جاءت الدعوة إلى إعلاء الإنسان ووضعه في مرتبة أسمى من الحياة باسم الفلسفة المثالية ثم جاءت الفلسفة المادية فاعتبرته حيواناً.

٤- نسب الخلق كله للطبيعية ووصفت بأنها عمياء وأن وجود العالم كله صدفة.

٥- غلبت نوازع الأهواء والشهوات والمطامع فاختفي معها كل عوامل الخير والأخلاق.

٦- علا الاعتقاد في قوة العقل والعلم ونظر إلى أنها وسائل التقدم الوحيدة أما مفاهيم الأديان فقد اعتبرت من الخرافات التي تعوق التقدم، وقد تأكد للفكر الغربي بعد وقت ليس بطويل أن هذه القضايا التي وضعت موضع الحقائق، ليست سليمة تماماً وإن أغلبها فاسد، فلم يكن التقدم مضطرداً مع الحضارة والعلم، بل إن النتائج كلها أثبتت أن هذا المفهوم قد أحدث أزمة في الحضارة وصدعاً،وإن التقدم بمفهومه المادي الخالص قد عجز عن ضبط الغريزة أو إقامة العدل، وأن العقل قد فشل في ضبط الأهواء والمطامع، وأن العالم الغربي كله يموج بالسخط والقلق والتمزق واليأس وتغلبه طوابع التشاؤم والخوف البالغة،وأن مفهوم التقدم لم يحقق له شيئاً لأنه طبقه وفق قاعدته الانشطارية فأعلى المفهوم المادي منه وحجب الجوانب المعنوية والروحية التي هي عماد السلامة والمعادلة والتوسط.

وحين وصل الغرب بمفهوم التقدم إلى أعلى درجات الرفاهية والترف والمتعة كان قد وصل إلى التمزق النفسي الذي أصبح صريعاً له، أما الإسلام فقد كان مفهومه أشد حيطة ووثاقة وكمالاً، حين حرك التقدم المادي في إطار أخلاقي ديني رباني قوامه الرحمة والعدل والسماحة والإخاء وضبط النفس.

٢- حاول الغزو الفكري أن يطرح مفهوماً زائفاً يرمي إلى القول بأن تأخر المسلمين في العصر الحديث راجع إلى الدين، ربما كان ذلك في محاوله للمقارنة مع الغرب في العصور الوسطى وربما كان ذلك محاولة للتغريب وإلقاء الشبهة على مصدر التقدم الحقيقي في عالم المسلمين.

أما أن الغربيين تخلفوا في الماضي بسبب من تفسير خاطئ للدين فهذا صحيح، وأما أنهم تقدموا مادياً بعد أن طرحوا عنهم هذه التفسيرات فهو صحيح أيضاً،ولكن الأمر بيننا وبينهم يختلف،فإن مفاهيمهم في الدين كانت إلى حد كبير قائمة علي سيطرة الكهنة والانصراف عن الحياة إلى العزلة واتخاذ أساليب التأمل وإنكار أساليب التجريب في الحياة العملية، وكانت مفاهيمهم بالنسبة للعدل زائفة مع سيطرة الملوك والأباطرة وعبودية الجماعة العامة.

كل ذلك كان من أسباب تخلفهم قبل النهضة التي جاءت بها في الأساس مفاهيم الإسلام وقيمه، تلك التي حطمت عوامل العزلة والعبودية وسيطرة الكهنة، فكانت تلك الاندفاعات الكبرى إلى التقدم العلمي،ولكن هذا التقدم مع الأسف الشديد ظل مادياً بحتاً وحجبت عنه عوامل صيانته من الظلم والفساد والإباحية حين تجاوز إطار الدين والأخلاق.

أما المسلمون في العصر الحديث فإن أمرهم مختلف، فإن عوامل تخلف المسلمين لاترجع إلى الإسلام، وإنما ترجع إلى الانفصال عنه فإن الإسلام هو الذي شاد تلك الحضارة فمن المستحيل وهو عامل بنائها أن يكون عامل ضعفها وتخلفها. إن القيم الإسلامية قيم تقدم والتمسك بها يؤدى إلى القوة والسيطرة والمنعة وإن التخلف لايقع نتيجة انحرافهم عن هذه القيم وتحريفهم لها وإخضاعها لمذاهب وافدة بإعلاء عنصر من عناصرها أو إفراده بالسيطرة.

إن فترة ضعف المسلمين لاتمثل حقيقة جوهر الإسلام،وتجربته في العالمين مضيئة، ولو أنها استمرت على أصولها وضوابطها ولم تقف في وجهها الأهواء لو وصلت إلى غايات بعيدة، والقول بأن الدين مصدر التخلف ليس صحيحاً على إطلاقه،فإن كل

النهضات والحضارات نبعت من معين الدين، ولكن بالنسبة للغرب فإن تفسيرات الدين هي مصدر التخلف، أما في عالم الإسلام فإن قصور المسلمين عن تطبيق الإسلام هو سبب التأخر الحقيقي، إن أخطر ما عوق المسلمين من أصول الإسلام.

أولاً: فصل القول عن العمل:

﴿ ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

فالإسلام يجمع بين العقيدة والإيمان وينكر القول المطلق المجرد.

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾ .

وقد أشار الإمام محمد عبده إلى هذا المعنى حين قال «ما الوهن والانحطاط الذي ينعى على الشعوب الإسلامية إلا نتيجة تقاعس المسلمين أنفسهم ودسائس الأجانب ومكائدهم» لانتيجة فساد ذاتي في تركيب معتقدهم الديني كما يزعم الخصوم،فهذا المعتقد يرتكز على ركائز العقل ويقول بالحرية والاختيار وينكر التواكل والخمول، ولكن المسلمين قد ضلوا سواء السبيل، وتنكبوا عن الاهتداء بهدى دينهم فصاروا إلى ما صاروا إليه من الانحطاط والجمود».

ثانياً: سقوط العزيمة وتراخي الإرادة: فإن أول بوادر التخلف قد ظهرت في اليوم الذي بدأ فيه المسلمون يميلون إلى الحلول السهلة ويبتعدون عن المثل القويمة التي كان محمد ﷺ تطبيقاً لها، وحين انحرفوا عن مبادئ القرآن التي تشير إلى الرقابة الإلهية والوازع الديني في كل قول أو تفكير، وقد أشار إلى هذا المعنى رسولهم الكريم حين قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: جهاد النفس، غفل المسلمون عن أسلحتهم ولم تصك آذانهم كما كانت تفعل آية ﴿ خذوا حذركم ﴾ فركب الأعداء ظهورهم وأكتافهم،ذلك هو مصدر التخلف الحقيقي، أما محاولة التغريب في نسبة هذا التخلف للدين فإنما هو إما عن جهل بالإسلام ومحاولة تطبيق

حالة مشابهة في الغرب، وإما هي من أعمال المكر والتزييف الذي درج عليها خصوم الإسلام، ولقد تنبه إلى هذا بعض الباحثين الغربيين أنفسهم حين قال جولدذين: أن كثرين يردون ركود الإسلام إلى الدين نفسه وهذه فكرة خاطئة فقد تبين أن الإسلام براء من كل عناصر الركود والتأخر وأن سبب الاضمحلال يرجع إلى أمور خارجة عن الدين نفسه،أهمها طبيعة الشعوب التي اعتنقته ووراثيتها السابقة ومنها الترف والرفاهية والرخاوة التي اندفع وراءها بعض الأمراء فأهملوا الشعوب والعدل وكفوا عن الجهاد والنضال، ومنها هجوم أوربا على الشعوب الإسلامية بحجج مختلقة واهية.

ونحن نرى أن تخلف المسلمين عن مقومات فكرهم من القوة واليقظة والوحدة هو الذي مكن الغرب من السيطرة عليهم، وفي هذه المرحلة لم يكونوا يمثلون الإسلام وكان الإسلام محجوباً بهم، وحين مال المسلمون إلى الدعة والترف وتخلوا عن الحذر من تحدي أعدائهم وتخلوا عن واجبهم في الدفاع عن عقائدهم وأمتهم جاءت الهزيمة إزاء قوة أخرى كانت متيقظة فحين أحست بقصورهم وغفلتهم انقضت عليهم وجاء مع الاستعمار والاحتلال الهزيمة في مجال الفكر والثقافة، فقد زيف عدوهم أصول فكرهم وحاول أن يصور لهم أنهم إنما هزموا من قصور عقائدهم بينما أن الحقيقة تؤكد أن دينهم لم يكن ممارساً أو مطبقاً خلال فترة الضعف أو إبان الهزيمة، ولو كان مطبقاً أو ممارساً بمفهومه الصحيح ما هزموا.

﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾ .

إن النظرة الصحيحة هي التي تفرق بين قيم الإسلام كأصول عامة وشريعة ربانية وبين تطبيق المسلمين لها وهو (التاريخ) هذا التطبيق كان في بعض المراحل يوازي الشريعة فيحدث النصر أو يجانبها فتحدث الهزيمة، فالقيم الإسلامية ليست مصدر التخلف بل إن التخلف هو مصدر الانفصال عنها،وإن الإسلام لايحاكم بواقع المسلمين ولا يحاكم بفترة الضعف التي مرت بهم، لأن المسلمين في هذه الفترة قد انفصلوا

عن جوهر فكرهم وإذا عادوا تحقق لهم التقدم بمفهومه الحقيقي الجامع للجانبين المادي والمعنوي.

(٣٣)

الأمة الإسلامية

شغل الفكر الغربي العالم في العصر الحديث بنظريات ثلاث. في مجال تكوين الأمم هي : (الوطنية والقومية والعالمية) وهي نظريات تتصل بالفكر السياسي الغربي، وفي بعض جوانبها تتعارض مع الفكر الماركسي اليساري.

ولقد انتقلت هذه القضايا إلى أفق الفكر الإسلامي انتقالاً فرضته ظروف السيطرة الاستعمارية والاحتلال من غير أن يكون له مدلول صحيح في عالم كانت تجمعه الوحدة الإسلامية الفكرية،حيث يقرر الإسلام أن المسلمين أمة واحدة مهما اختلفت نظمهم السياسية والاجتماعية ومهما تشكلوا في جماعات أو حكومات فهم يصدرون عن عقيدة واحدة ونظام اجتماعي متكامل، ولا ريب كان للغرب منطلق تاريخي لنظرياته الثلاث يستمده من تحولات المجتمع الغربي الذي كان قائماً في الأساس على أنه مجتمع مسيحى غربي، بدأ فيه عنصر الصراع بين الكاثوليك والبروتسانت بعد ظهور دعوة لوثر التي قسمت المجتمع، ثم كانت صيحة اليهودية العالمية التي صدعت جوانب هذا المجتمع بالثورة الفرنسية الداعية إلى إعلاء شأن المواطن مهما كان دينه،والتي قضت بإزالة القيود التي كانت تفرضها المسيحية على الجنس اليهودي في أوربا والذي كان معزولاً في (الجوتم) منفصلاً عن المجتمع المسيحي،محتفظاً بكيانه الخاص، ومنذ الثورة الفرنسية تحطم ذلك الحاجز الديني بين اليهود والمسيحيين، وتدافع اليهود إلي السيطرة والتبريز في مختلف مجالات الثقافة والعلم بعد أن كسروا قيد الحاجز الذي كان يحجزهم تحت اسم الدين، ومن ثم ظهرت الوطنية الأوربية التي لم تلبث أن استعلت بالقوميات القائمة علي اللغة والعنصر بديلاً من وحدة الدين، وقد وصف ظهور عصر القوميات في أوربا بأنه كان مرحلة طبيعية في حياتها ومجتمعها بعد انهيار وحدة الكنيسة التي كانت قد فقدت سلطانها على النفوس، غير أن مفهوم القومية في أوربا ارتبط بالصراع والحرب،

والكراهية وتمثل في عديد من الحروب وألوان القتال والخصومة بين القوميات المختلفة.

يقول هانسي كهن في كتابه القومية: إن البروتستنية كانت في الأصل حركة دينية عالمية، شأنها في ذلك شأن الكاثوليك، ولكن حقيقة وجودها قضت على فكرة العالمية الدينية التي سادت في العصور الوسطى، إذ أن مطالبتها برجوع الفرد إلى ضميره هيأ الأسباب لتعدد الفرق والمذاهب الدينية، كما أن مطالبتها بوجوب تلاوة الكتاب المقدس ووجوب الموعظة كركن أساسي من أركان العبادة شد من أزر اللغات الوطنية،كما كانت ترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغات وهذه الترجمة كانت نقطة البدء التي انطلقت منها اللغات والأداب القومية، ويقول: إن الثورة الفرنسية التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام ألقت بأوربا في أتون حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أي حرب مضت منذ عهد الحروب الدينية، فقد ظهرت النزعات القومية لأول مرة في إيرلندا وروسيا وأسبانيا وإيطاليا والنرويج، ونادي الكتاب بأن الجماعات التي تمتاز بوحدتها الجغرافية والجنسية وتقاليدها ولغتها لها الحق في تقرير مصيرها السياسي فنشأت عدة دول قومية ولكن «سرعان ما انقلبت الحركة القومية بعد أن استقرت إلي حركات هجومية استخدمتها الشعوب للوصول إلى حدودها الطبيعية ولم شعثها وفي بسط نفوذها على الدول الأقل حضارة ونضجاً سياسياً وهذا هو ما يطلق عليه التوسع الإمبراطوري والتنافس الدولي، وساعد على ذلك عامل مباشر وهو قيام الثورة الصناعية للحصول على حقول بكر من المواد الأولية وفتح أسواق عالمية لتصريف الزائد» وبنشوء الدولة القومية نشأت النظرية السياسية الحديثة لتبرير انتقال السلطة من البابا وأمراء الإقطاع إلى الملك الذي يحكم لمصلحة الشعب، وتسنده الجماعة التجارية لتحقيق مصالحها النامية، ورداً على سلطة أمراء الإقطاع نشأت نظرية الحق الإلهي المملوك، ورداً على سلطة أمراء الإقطاع نشأت نظرية سلطة الملك المطلقة على أرضه.

ومع استعلاء القومية في الغرب فإن المفكرين اعتبروها خطراً يهدد وحدة الجنس

البشري،لما حملت من سيطرة واستغلال واستعلاء على حد تعبير (هانز كوهن) وإن عصر القومية في الغرب قد جعل من المستحيل أن تسود العالم أمة واحدة أو فكرة واحدة، ويقول جون ستيوارت مل: إن القومية تهتم بمصالح الجنس الأبيض وحده وبذلك نجد موقفاً يختلف أشد الاختلاف مع موقف العالم الإسلامي وظروفه وأنظمة حكمه، ولقد كانت هذه النظم من وحي الظروف نفسها ومن الاستجابات لتحديات خاصة،وقد أدت القوميات في أوربا إلى حروب طويلة وصراعات مريرة كانت من ورائها قوى اليهودية التي عملت على تدمير الأمبراطوريات وفصل الدولة عن الكنيسة وإقامة الأنظمة القومية التي تمكنها من السيطرة في كل مكان،ومن نتائج هذا النظام وفساده كانت الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية التي دمرت أوربا مرتين في أقل من ربع قرن وتركت عشرات الملايين من القتلى والضحايا.

ولقد كانت فكرة القومية عند أمم الغرب مقرونة على الدوام بفكرة التفوق الخاص واحتقار الأمم الأخرى وخاصة الأمم الملونة.

٢- ارتبطت القومية في أوربا بأمرين خطيرين يتعارضان مع الفكر الإسلامي.

أولاً: العودة إلى الجذور القديمة مع تعدى الآثار القريبة التي غيرت كل شيء.

ثانياً: ارتباط القومية باللادينية أو نفي أثر الدين مع أن الدين جزء من الثقافة وله ارتباطه باللغة والتاريخ.

كذلك ارتبطت بالدماء والأجناس، وهي مما يدحضها الإسلام، ولقد كان العالم الإسلامي الذي مزقه الاستعمار في حاجة إلي الوحدة وليس في حاجة إلى هـذه الكيانات التي أقامها الاحتلال،وكان متطلعاً إلى العودة إلى الوحدة وليس إلى خلق صراع بين الأجزاء الواحدة باسم الوطنية والقومية، ذلك أن مفهوم القومية كان دائماً يتمثل في نزعته إلى الاستعلاء ودعوة إلى الانقسام بين الشعوب دون أن يمازجها روح من الإخاء أو الالتقاء،وكان الاستعمار إنما يرغب إلى أن تصبح القوميات في العالم الإسلامي مجرد تعصب عنصري يسعى إلى فرض السيطرة على

الغير، على النحو الذي عرفته أوربا حين اتخذت من القومية محاولة للتغلب والتوسع في ظل روح استعماري جشع،ولقد تبين أن الذين حملوا رياح الدعوة إلى القوميات في العالم الإسلامي كانوا من خارج الأمم التي دعت إليها وخاصة من حملوا لواء الدعوات الطورانية والفينيقية والفرعونية وكلها دعوات زادت من تمزق المسلمين والعرب،لأنها ردتهم إلى عصور سابقة للإسلام نفسه الذي كان وبحق قد أحدث انقطاعاً تاريخياً بين المسلمين وبين تاريخهم القديم ومن هنا فإن هناك فرقاً واسعاً وعميقاً بين مصطلح القومية الوافد وبين مفهوم العروبة الذي يمثل ارتباطاً واسعاً مع الإسلام كفكر ومع المسلمين ككيانات متعددة تجمعها وحدة الفكر والعقيدة.

في عالم الإسلام

أما في عالم الإسلام فإن الأمر جرى على نحو آخر: وعندما تطلع الاستعمار للسيطرة كانت الدولة العثمانية تجمع بين العنصرين المسلمين: العرب والترك وكانت هذه الدولة تمثل الخلافة الإسلامية وتفتح طريقاً إلى الوحدة الإسلامية التي دعا إليها السلطان عبد الحميد وعمل من أجل إقامتها في مواجهة الغزو الاستعماري الزاحف، وكانت خطط الاستعمار والصهيونية ترمي إلى تمزيق هذا الكيان وتقسيمه بين الدول الغربية،ثم تمكن اليهود من السيطرة على فلسطين،وقد بدأت هذه الحركة منذ وقت باكر عندما استولت هولندا على أرخبيل الملايو وبريطانيا على الهند وفرنسا على الجزائر ثم توالت الخطوات حتى أتمت الحلقة في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٧.

في هذه المرحلة النهائية أوقع الاستعمار الصراع بين عنصري الدولة العثمانية وقامت في تركيا دعوة إلى القومية التركية القديمة تحت اسم (الطورانية) وتعرض العرب للخطر نتيجة خطط الاتحاد بين الذين تولوا الحكم بعد السلطان عبد الحميد مستهدفين تحقيق خطة التمزيق عن طريق إعلاء دعوة العنصرية، وكان الخطر يستهدف تتريك العرب الذين وقع بينهم وبين الدولة خلاف عميق استتبع اعتناقهم

الدعوة إلى تجمع تحت لواء العروبة في مواجهة الطورانية التركية، ومن ثم بدأت صراعات البيوتات التي لم تتوقف عند هذا الحد، والتي حاولت أن تعيد الأوطان إلي ماضيها فيما قبل الإسلام تلتمس منه قومية خاصة، فارتفعت الأصوات بدعوات مختلفة إلى الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية وغيرها، ثم لما لم تجد هذه الدعوات تراثاً تقوم عليه، قصرت الدعوات المصرية والسورية والعراقية وهنا اتخذ كل قطر من اسمه مقوماً قومياً يدافع عنه ويعلى من شأنه.

كانت هذه الدعوات الوطنية في أول الأمر تستهدف مقاومة الاحتلال الذي كان يتهم هذه الأقطار بأنها لاتمثل أمماً حقيقية، غير أن النفوذ الاستعماري لم يلبث أن عمق هذه الإقليميات الوطنية وركز عليها رغبة في إقامة حواجز عالية بين أجزاء الأمة الإسلامية من ناحية وبين العرب والمسلمين من ناحية أخرى، غير أن الأقطار العربية لم تلبث بعد أن تحررت من النفوذ الاستعماري أن تداعت إلي وحدة عربية تمثل في مفهومها الأصيل جماع العروبة والإسلام، ولكن الاستعمار وحركة التغريب والغزو الثقافي عملا على طرح نظرية تفريغ العروبة من مفهومها الإسلامي والإعلاء من شأن نظرية القومية الغربية الوافدة، وبذلك حمل مفهوم القومية معنى مختلفاً عن معنى العروبة وحاولت النظرية الغربية أن تسيطر حتى تحول دون التقاء الأجزاء العربية مع الأجزاء الإسلامية من الوطن الإسلامي والأمة الإسلامية الجامعة، بل إن الأقطار الإسلامية غير العربية في هذه المرحلة استعلت بطابع إقليمي صرف، جعلت فيه لما قبل الإسلام من تاريخ شأناً كبيراً أضعف من الرابطة الإسلامية، وقطع العلاقات بين أمة تجمعها لغة القرآن وفكره وعقيدته، ووجدنا من ينادي بإحياء ميراث المجوسية والطورانية وغيرها، وهي مواريث انقطعت بالإسلام وانفصل عنها المسلمون تماماً، ولم يعد لها من الروابط بعد أربعة عشر قرناً من الإسلام ما يجعلها جديرة حتى بأن تردد أسماؤها. وكان من وراء هذه الدعوات التغريب والاستشراق.

الإقليمية والقومية

كانت الأمة الإسلامية تعتبر أن وحدة الفكر هي أساس الوحدة الجامعة،وكانت جامعة الفكر القائمة على مفاهيم الإسلام هي مصدر الوحدة، غير أن النفوذ الاستعماري ما كان يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه إلا على تمزيق هذه الجماعة الواحدة إلى عناصر يتبع بعضها الجنس والعرق وبعضها اللغة،وكان دوماً قادراً على إثارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد، وإثارة الخلافات بين أصحاب الأديان المختلفة، وإثارة الخلافات بين الأفريقيين والأسيويين، وكلما وجد الاستعمار أمة أخذت تحقق تقارباً مع شقيقة لها يربطها بها عامل اللغة والتاريخ والعقيدة عمد إلى القضاء على هذه المحاولة وبث الألغام من جديد لإثارة الفرقة والخلاف، وقد عمل الاستعمار إبان سيطرته على تعميق الخلافات بين أقطار كانت بمثابة قطر واحد كمصر والسودان وكتونس والجزائر ومراكش، وسوريا ولبنان.

وفي ظل هذه المحاولات طرح الاستعمار نظريات متعددة لتقضى على الاتجاه الطبيعي والذي تعرفه الأمم حين تمزق ويحال وبينها وبين الالتقاء، وكانت النظريات المطروحة كلها تستهدف إما تأصيل الإقليمية، أو تفريغ العروبة من مقوماتها الحقيقية، ولقد كان أكبر دعاة القومية العربية (ساطع الحصري) تابعاً لمفهوم القومية الأوربية الوافد، حين حاول تطبيقه على العروبة ذات الجذور الإسلامية دون أن يقدر أعماق الأثر الذي يزكيه القرآن في اللغة العربية وفي العرب ومدى دور العرب في دعوة الإسلام وارتباط ذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام،وقد ركز على اللغة كأساس لنظريته وعزلها عن مفهوم الفكر الإسلامي الواسع، ولذلك كانت نظريته أوربية وافدة لاتتفق مع المزاج الفني والاجتماعي القائم على تكامل القيم وترابطها، وكان من أكبر أخطاء ساطع الحصري أنه فهم الإسلام على أنه (دين) وبناء على النظرية الغربية في القومية التي استبعدت الدين فإنه استبعد الإسلام ذلك أن مفهومه للإسلام مفهوم غربي خالص ظناً منه أنه بمثابة دين عبادة على النحو الذي يصوره به المستشرقون الغربيون،ولم يعرف مدى الفروق العميقة بين

الدين الغربي ودين الإسلام ولم يفهم الإسلام على حقيقته بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، والسياسة جزء منه لاتنفصل.

العرب والإسلام

من أكثر المحاولات التغريبية خطراً، تلك المحاولة التي تريد أن تفصل بين الإسلام والعروبة،وذلك في نطاق النظرية الغربية للقومية التي تقول إن الدين ليس مقوماً من مقومات القرمية وكيفما يكون الرأي في هذه النظرية فإن الإسلام ليس ديناً بمفهوم اللاهوت القائم على العلاقة بين الله والانسان وإنما الإسلام إلى جوار ذلك منهج حياة ونظام مجتمع وثقافة وحضارة، ومن هنا فإن علاقة الإسلام بالعروبة هي علاقة عميقة الجذور بعيدة المدي، حتى لتكاد أن تكون علاقة عضوية، وما يمكن من وجهة النظر الإسلامية الفصل بين العروبة والإسلام، فبلغة التاريخ لايمكن فصل العربي منهم عن الإسلامي، بل هما مندمجان تقريباً على مدى هذه القرون الأربعة عشر، يقول دكتور نبيه أمين فارس: إن تشابك الإسلام والعربية في التاريخ هو تشابك عضوي متفاعل حيث لامجال إلى فصل الواحدة عن الأخرى.

كذلك فإن النهضة العربية الحديثة ليست إلا تياراً من النهضة الإسلامية ذاتها مرتبطاً بها وثمرة لها، وعندما دعا العرب إلى العروبة في مواجهة الطورانية كانوا يفهمون العروبة بمفهومها الإسلامي الجامع، أنها مرحلة من الوحدة الكبرى وخطوة على طريقها، وأن أي تجمع عربي فهو إسلامي الطابع والمصدر والمنهج الاجتماعي ولذلك فإن الدعوة المسمومة التي حاولت أن تفرغ العروبة من مفهومها الإسلامي لتجعلها مطابقة للقوميات الغربية، والتي تدعو إلى العلمانية، هذه الدعوة قد رفضها العرب وأثبتوا فسادها وزيفها لأنها لاتلتقى مع الفطرة ولا مع المزاج العربي الإسلامي العميق الصلة بالقرآن والإسلام، ولقد حاولت في البلاد العربية بعض الأحزاب والحركات تبنى هذاالمفهوم في محاولة خلق قومية عربية على الطراز الذي عرفته تركيا عن طريق الاتحاديين،غير أن هذه المحاولات فشلت الواحدة بعد الأخرى

وما بقى لايستطيع أن يقف في وجه الحقيقة الأصيلة.

لقد كانت أزمة العروبة في ذلك الجفاء التي خلقته لها النظرية القومية الوافدة والذي حمل لواءها كثير من الدعاة ثم أثبتت التجربة فشلها وعجزها عن التجاوب مع النفس العربية الإسلامية الطابع والمزاج، وذلك أن الطابع الإسلامي في الفكر والقانون والتربية لم يعد طابعاً دينياً بمعنى أنه خاص بالمسلمين وحدهم ولكنه طابع عام يمثل ثقافة عامة لكل الأديان التي هي واحدة المصدر في أصلها أساساً، ولقد كان الفكر الإسلامي عاملاً مشتركاً لكل من استظل براية الإسلام وانتمى إلى الثقافة الإسلامية ولو كان غير مسلم.

إن محاولة القول بأن العروبة هي كل من يتكلم عربياً لايقرها الإسلام وإنما يقر الإسلام حقيقة: من يفكر عربياً، وهذا يعنى أن اللغة هي جزء من الفكر الذي هو الإسلام،وبذلك يدخل صلاح الدين والظاهر بيبرس وعشرات غيرهم من المسلمين الذين شكلهم الفكر الإسلامي العربي اللغة القرآني المصدر.

الوطنية المجردة

إن من أخطر الدعوات المدمرة والدسائس الأجنبية هي الدعوة إلى الوطنية المجردة من الإسلام.

يقول الأمير شكيب أرسلان: إن الدعوة الوطنية المجردة من الإسلام لاتخلق في قلب الوطني أقل اعتقاد بأنه هو أعلى من الأوربي،لأنها مجردة من العقيدة القرآنية معتمدة على المادية المحسوسة لا غير، الوطنية المجردة تجرد الوطني من عزة النفس الوافرة في صدره لكونه مسلماً متمسكاً بذلك الدين القيم والعقيدة الصافية، وتسلبه الخلق الضروري في نهضات الأمم وهو الاعتماد على النفس الكافل بتحفزه الدائم للوثوب لفك القيود الاستعمارية، والتي تجعله يعتقد أن الأوربي هو أعلى منه في كل شيء،فالمسلم المعتقد بدينه لايزال موقنا بأنه لابد من أن يدال له من

الأوربي ولو بعد زمن طويل، وهو يعيش في هذا الأمل ويورثه أولاده، ويعتقد أن ما عليه الإسلام من الضعف هو عارض مؤقت، لابد أن يزول، وأنه إنما وقع تمحيصاً للمؤمنين بذنوبهم التي اقترفوها وتهاونهم في أوامر الله، وأنه أشبه بالنار لسبك الذهب الأبريز، وأنه مصدر الأمل،والأمل وحده هو حافز النهوض، الوطنية المجردة من الإسلام معرضة لخطر انحلال الأخلاق التي هي من دعائم الأمم».

يقول الزعيم الهندي المسلم محمد على: إن الإسلام رابطة عقدها الله فيما بيننا ومهما تهاونا في أمرها فسنعود إليها،أما الوطنيات فإنما يراد منها تمزيقنا وتفريق قوانا، ويقول الشاعر محمد إقبال: من خلال قراءاتي للمؤلفين الأوربيين شعرت بوضوح أن خطط أوربا الاستعمارية كانت تهدف إلى الدعوة القومية للتفرقة بين صفوف المسلمين،لأن ذلك سلاح فعال كانوا في أشد الحاجة إليه، واقتضت هذه الحاجة إلى مبادئ القومية حسب ما جاءت به أوربا في البلاد الإسلامية من أجل تحطيم الوحدة الدينية القائمة بين المسلمين.

ولقد أطلق الله سبحانه لقب الأمة المسلمة على أمة الإسلام ﴿ ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ لنا أن نتساءل هل بقى هناك داع لكي نجعل من أمتنا أمما أخرى حسب القوميات التي انضمت إلى حظيرة الإسلام، إن هناك ملة واحدة تواجه المجتمع الإسلامي هذه الملة تتمثل في المجتمعات غير الإسلامية مأخوذة ككل، والواقع أنه لاتوجد قوة موحدة في الكون كله سوى عقيدة الإسلام،وهذا يؤكد تماماً أن فكرة القومية حسب ماجاء بها الغرب هي فكرة غريبة على المسلمين. إن تحقيق حلم المسلمين القديم في إيجاد دولة إسلامية واحدة تمتد من لاهور إلى القسطنطينية لايتم إلى على أيدي المسلمين أنفسهم شريطة أن يعتبروا أنفسهم مسلمين أولاً وآخراً.

المسلمون أمة

نظر الإسلام إلى المسلمين على أنهم أمة يتكون منها ما عرف في اصطلاح العصر الحديث بإسم الدولة التي تقوم على رسالة التوحيد وقد أعتبر الإسلام كل مسلم في أي بلد مسلم مواطناً حقيقياً. ورفض مفهوم الجنسية الخاص أو الحدود العازلة أو التواطن في بلد معين، ورأي أن ذلك تحديداً يتعارض مع عالميتة وعمومه كدين سماوي للبشرية جميعاً،ومن ثم فقد أعتبر أن الجماعة كلها بمثابة وحدة كاملة تجمعها العقيدة والفكرة التي تعتنقها وبحيث تكون هذه العقيدة هي آصرة الجماعة المشتركة والروح السارية فيها وهذه هي أخوة الإيمان ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ولقد رفع الإسلام درجة أخوة الإيمان على درجة النسب وربط بين قلوب المسلمين حتى أصبحوا أسرة كبرى «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) و (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ومن ثم فإن أخوة الإيمان هي أساس الجماعة والدولة.

ومن هنا قرر الإسلام «التكافل الإجتماعي» الذي يقوم على مسئولية الجميع بعضهم عن بعض، وللتكافل شعبتان: مادية ومعنوية.

(١) التضامن في سد الحاجة بالإحسان والزكاة والصدقة والانفاق.

(٢) في النصح والإرشاد والتوجيه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾.

وقد حذرهم الإسلام من عدم التناهي عن المنكر ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ .

وتمثل القيم الإسلامية: الأسس التي تقوم عليها الأمة والعوامل المكونة لها. وهي: (١) العقيدة والمفاهيم والأفكار والقيم أو الالتزام الأخلاقي. (٣) الثقافة المشتركة المنبثقة من الكتاب والسنّة. (٤) لغة القرآن الفصحى باعتبارها لغة

المسلمين عامة. (٥) التاريخ المشترك ووحدة النظرة التاريخية. (٦) العادات الاجتماعية الناشئة عن الأحكام الإسلامية في الطعام والشراب والأعياد والزواج. (٧) التشريع الإسلامي في معاملات البيع والشراء والإجارة والميراث وغيره. (٨) الاشتراك في العبادات وخاصة العبادات ذات الصفة الاجتماعية. (٩) الاتصال الجغرافي الذي يربط بين أول العالم الإسلامي وآخره دون فجوة أو انقطاع. (١٠) وحدة الأهداف والآمال والتحديات.

وفي ضوء مفهوم الأمة نجد أن الإسلام يقيم من أهله أمة كاملة على أوفى ما يكون نظام الأمم.

وقد رأي المسلمون في مواجهة تحديات الاستعمار الغربي البدء برابطة الأرض والوطن على أن لاتستعلى بهم في حدود حاجزة، ليلتقوا بوحدة الأمة والقوم، انطلاقاً إلى وحدة الفكر والعقيدة، وقد مر العرب في السنوات الخمسين الأخيرة بهذه الحلقات الثلاث المتصلة إيماناً منهم بأن رابطتهم الكبرى هي الإسلام وأن الوطنية أو القومية إنما هي مراحل عليها، ذلك أن الاستعمار بعد أن سيطر على الأمة الإسلامية حاول أن يزيل عنها الرابطة العليا: رابطة الفكر والعقيدة، ففرض الإقليميات أولاً ثم حاول أن يجعل من القوميات حاجزاً دون الإسلام وحده ودون أن تكون العقيدة الإسلامية نظاماً للمجتمع، ولكن المسلمين لم يتوقفوا خلال هذا التاريخ عن التلاقي وكسر هذه الحواجز اتجاهاً إلى خطين في وقت واحد.

الأول: ارتباط الوحدات الإسلامية كلها عربية وغير عربية بحيث لاتحول الوطنيات أو القوميات دون التقائها أو تحدث بينها خصومة وصراعاً.

الثاني: الالتقاء على فكر الإسلام وعقيدته ومفاهيمه كمنهج حياة ونظام مجتمع.

لقد كانت الوطنية سلاحاً في مقاومة الاستعمار فلما ذهبت بواعثه كانت تطلعاً إلى أخوة القربي والجوار ثم لابد لها أن تنطلق إلى الوحدة الكبرى.

العرب مادة الإسلام

اختار الله تبارك وتعالى العرب لحمل رسالة الإسلام، ولم يكن العرب قبل الإسلام أمة واحدة وإنما كانوا مجموعة من القبائل فلما جاء الإسلام جمعهم برابطة التوحيد دينا وبرابطة الأمة نظاماً، ولقد حمل المسلمون لواء الدعوة وساروا به إلى آفاق الأرض وحققوا رسالة التوحيد في كل مكان فأقاموا دولة الإسلام الكبري، لقد كان التقاء الإسلام بالعرب النقاء بعيد المدى في نمو الإسلام وتوسعاته ثم كان الإسلام هو الذي نقل العرب إلى الطور النهائي في تكوين الأمم إذ جعلها أمة ذات حضارة وفي نفس الوقت ذات رسالة إنسانية وعالمية، ومن هنا فإن تصور العروبة منفصلة عن الإسلام أو الإسلام منفصلاً عن العروبة هو تصور ناقص وغير قادر على إعطاء الحقيقة، وقد ظلت اللغة العربية هي قوام الثقافة الإسلامية حتى في فترات الضعف وفي مراحل اتساع اللغتين الفارسية والتركية فالفكر الإسلامي الذي كونته اللغة العربية بالارتباط بالإسلام كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً وكذلك الحضارة، ومكونات هذا الفكر هي اللغة العربية والإسلام وقادة هذا الفكر عرباً كانوا أو غير عرب هم مسلمون أساساً صدرت مقدراتهم الفكرية عن مضمون الإسلام ومقوماته الأساسية وبيئته، وكل ما قدمته الساحة الإسلامية من بطولات بهرت الدنيا إنما استمدته أساساً من مقومات الإسلام.

وقد كان للعرب دور في بناء الإسلام وتوسعاته: أرضاً وفكراً، غير أن العرب في كل مكان من حدود الصين إلى حدود فرنسا قد انصهروا في الأجناس والأمم حيث قام الإسلام بأضخم عملية بلورة بين مسلمين عرباً وفرسا وتركاً وفرنجة، كذلك امتزجت بثقافات هذه الأمم التي كانت معهم قبل الإسلام بالإسلام نفسه وانصهرت فيه، ونحى الإسلام منها ما لم يتفق مع روحه وطابعه ومقوماته وبلورها على النحو الذي أصبحت به ثقافة إسلامية خالصة، وسارت اللغة العربية مع الإسلام، وعندما ضعفت الوحدة اللغوية كان الإسلام هو الرابطة الحقيقة ولقد اعتنق الإسلام كثير من الأجناس، وكان دور العرب فيه هو دور الطلائع القادرة على العمل، وبالرغم من

دور العرب الضخم في بناء الحضارة فإن الأجناس غير العربية قد شاركت جميعها في هذا البناء والواقع أن كلا من كلمتي عرب وإسلام قد حلت إحداهما محل الأخرى، حيث لاينفصل التاريخ الإسلامي عن التاريخ العربي، ويمكن القول أن اليقظة العربية الحديثة هي ظاهرة إسلامية فإن الإسلام هو الذي أيقظ العرب مرة أخرى ودفعهم إلى التماس الحرية والمقاومة بسلاحه،ولا ريب أن كل الحركات الوطنية والقومية التي عملت في العصور الأخيرة كانت تستمد وجودها وقوتها ووقودها من الإسلام،فالإسلام هو المصدر الحقيقي لكل حركات التحرير التي قام بها المسلمون في مختلف أجزاء عالم الإسلام دفاعاً عن أوطانهم ودعوة إلي التوحد والالتقاء.

وما يزال العرب مؤملين لقيادة الركب مرة أخرى في سبيل النهضة، يقول الشاعر محمد إقبال: إن العالم العربي قلب العالم الإسلامي النابض، إن المسلم ينظر إلى العالم العربي كمهد الإسلام ومشرق نوره ومعقل الإنسانية وموضع القيادة العالمية، ويعتقد أن سيدنا محمداً العربي هو روح العالم العربي وأساسه وعنوان مجده وأن العالم العربي بما فيه من موارد الثروة والقوة جسم بلا روح، وخط بلا وضوح، إذا انفصل عن سيدنا محمد والعالم العربي يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي ويزاحم أوربا عليها.

ولقد كرم الله العرب بهذه القيادة لما أخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية وتفانوا في سبيلها،فأحبهم المسلمون وخضعت للغتهم اللغات ولثقافتهم الثقافات ولحضارتهم الحضارات، ويقول العلامة عبد الحق الأعظمي، إن العرب كما لايخفى روح الإسلام وعزه، وبلادهم نقطة دائرته ومركزه، قال النبي فيما رواه أبو يعلي في مسنده عن جابر بن عبد الله في الجامع الصحيح:

«إذا ذلت العرب ذل الإسلام».

العالميـــــة

حملت رياح الغرب دعوة العالمية وهو مذهب ينكر حقيقة الأوطان والأمم وخلافات العقائد والمثل ويرى جمع الناس على مذهب واحد وفكر واحد، ولا ريب أن الفوارق بين الأمم هي فوارق طبيعية من الفطرة الإنسانية التي فطرها الحق تبارك وتعالى، والتي تقتضى أن تتعدد المجتمعات البشرية وأن تتنوع في مشاربها وسماتها، ولذلك فقد حرص الإسلام على أن يكون المسلمون لهم ذاتيتهم الخاصة، التي تميزهم عن الأمم المختلفة وأن يظل المسلمون حافظين لهذه الذاتية لايفرطون فيها ولا يندمجون في غيرهم،وقد نص رسول الله في كتابه الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار على أن المؤمنين أمة واحدة من دون الناس، ودعا إلى الحفاظ على هذا الكيان الخاص حتي لايفقد المسلمون ذاتيتهم وكيانهم ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ولا ريب أن الدعوة إلي العالمية تجيء في وقت، والمسلمون يستكملون وجودهم، والاستعمار لايزال لاحقاً بهم، فلا ريب أن الدعوة مسمومة وخطيرة، وأنها تستهدف احتواء المسلمين وإذابتهم في أتون العالمية أو الفكر الغربي الغالب مستهدفة بذلك القضاء على مقومات وجودهم وذاتيتهم، يقول الدكتور محمد محمد حسين «إن الدعوة العالمية باطلة من أساسها لأنها تخالف سنة ثابتة من سنن الله في الأرض وهي دفع الناس بعضهم ببعض وضرب الحق بالباطل، والهدم والبناء وجهان لهذه السنة لايفتآن يعملان دون انقطاع، وهذه السنة قائمة بأمر الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً،وهي قائمة بين الشعوب والأمم وقائمة بين الأكوان وقائمة في باطن نفوسنا بين الضمير الديني والشهوات، وإن الصراع بين الحق والباطل لايتكشف آخر الأمر إلا عن بروز الحق في أصفى صوره وأنقى عناصره وهلاك الباطل ومحق شوائبه، والصراع والخلاف الذي تزعم العالمية أنها تعمل على محوه هو سر من أسرار الحياة نفسها وناموس من نواميس الله تعالى في خلقه يجرى على قدر وينتهى إلى غاية ويسوقه تدبير من عليم حكيم فقد قامت سنة الله على أن يكون الناس أمما وشعوباً وقبائل كل أمة منها مسئولة عما يليها مما وكلها الله به لاتسأل عن سواه،

وكل جماعة لها صفات عامة تؤلف بها وهي تحافظ على وجودها ومعالمها من التشتت والتفكك ومخالفاتها لغيرها هي التي تحميها من أن تذوب أو تنماع.

ومفهوم الإسلام يقرر وحدة البشرية ويدعو إلى التقارب فيما بين عناصرها ليكون ذلك سبيلاً إلى الأخوة والرحمة والترابط، ولكن هذا لايمنع أن يكون لكل جماعة كيانها الخاص الذي تتمثل فيه ذاتيتها شريطة ألا تكون هذه الذاتية عدواناً على الكيانات البشرية الأخرى، بل تكون معوانا وسنداً. وإن المسلمين اليوم مدعوون إلى الالتقاء في وحدة جامعة لهم تحفظ عليهم وجودهم، وتقيم لهم دولتهم ومجتمعهم وتطبق شريعتهم،ليقدموا للبشرية ذلك النموذج الحي من الجماعة القرآنية الإسلامية التي وجدت في مناهجها ونظمها ما يكفل لها الحياة الطيبة الرغدة القائمة على السلام والرحمة والإخاء.

ومنذ أن سقطت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ والمسلمون يتنادون إلى الوحدة الجامعة، حتى إذا اقتربوا منها عمد النفوذ الأجنبي إلى صدع مخططاتهم، وإحلال مخططات أخرى تهدف إلى تمزيقهم وإيقاع الخلف والصراع بينهم وهم قد تنبهوا إلي هذه المحاذير ولقد أعطتهم التجارب خبرة كاملة قادرة على أن توحد بينهم على أي نحو من أنحاء التضامن الإسلامي أو الأخوة الإسلامية،وقد قطعوا في السنوات الأخيرة أشواطاً طويلة في هذا المجال مما يبشر بقرب تحقق هذا الهدف الذي يضع الأمة الإسلامية في مكانها الحق، قد أوتيت القوة الاقتصادية، والتفوق البشري وأخذت بأسباب العلم والتكنولوجيا على النحو الذي يمكنها من أن تقيم الوحدة الإسلامية الجامعة سياسية واقتصادية واجتماعية مستمدة وجودها من الشريعة الإسلامية.

(٣٤)
وحدة البشريـــة

قرر الإسلام قبل أربعة عشر قرناً (وحدة البشرية) فأعلن القرآن أن الناس أمة واحدة في الأصل ثم اختلفوا ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ وأن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة فاختلفوا، وأن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة، وأصبحوا شعوباً وقبائل وأنه ليس هناك فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى.

وأن من شأن هذه الوحدة العميقة بين البشر أن تدفعهم إلى الإخاء الإنساني والوحدة العالمية والترابط والتكامل والتضامن كما قرر الإسلام وحدة الدين الذي جاء به الأنبياء منذ نوح إلى محمد ﷺ جميعاً برسالة واحدة هي التوحيد وشرعة واحدة هي الإيمان بالله وإقامة المجتمع الرباني المصدر الإنساني الغاية في الأرض وهي أمانة الإنسان ومسئوليته في الحياة الدنيا، ومن ثم يكون الإسلام قد أعلن وحدة الفكر أيضاً تبعاً لذلك، هذا في أصل الأمور ومصادرها، أما ما جاء بعد ذلك من تفسيرات مغايرة لهذا الأصل، أو إعلاء لجوانب دون أخرى، أو تشكيل لفكر بشري يعارض الوحي الرباني الذي جاءت به رسالات الأنبياء فذلك شأن البشرية في حركتها التي قد تخطئ أو تنحرف حتى تعود مرة أخرى فتلتمس طريقها الصحيح، أعلن القرآن وحدة الجنس والنسب للبشر جميعاً:

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

ومن وحدة النفس البشرية الأولى: جاءت الشعوب والقبائل لتتعارف وتتعاون وتتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة: ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وفي هذا إقرار بالشعوب والقبائل، التي هي موجهة أساساً للتلاقي في طريق الأخوة الإنسانية والتحرر من العبودية البشرية إلي عبادة الله وحده وقد فصل رسول الله ﷺ هذا المعنى: إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد، والناس لآدم وآدم من تراب، لافضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى: ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية».

٢- وقد جاء مبدأ إقرار وحدة البشرية مقدمة لإقرار مبدأ المساواة التامة بين الناس جميعاً دون تمييز بسبب: ١- الجنس أو ٢- العرق أو ٣- اللون أو ٤- النسب أو ٥- الحسب أو ٦- الدين أو ٧- المنصب أو ٨- الجاه أو ٩- سلطة الحكم أو ١٠- السن أو ١١- الغنى أو ١٢- المال أو ١٣- المحبة أو ١٤- البغض كما دعا إلى العدل بين القريب والبعيد والعدو والصديق.

والمساواة بين الأجناس (السامي والآري والحامي) كلها سواء.

ولا تفاضل بين الألوان (الأبيض والأسود والأحمر).

ولا تمييز بين الأنساب والأحساب (الشريف والوضيع).

وألغى الإسلام نظام الطبقات وحارب العنصرية وطارد العصبية، وأهدر نظام الدماء الزرقاء ونظام الأسر الزاقية وسوى بين دماء الناس وجعل هذه المساواة في مختلف الميادين:

١- المساواة أمام القضاء والقانون.

٢- في تكافؤ الفرص (أي أن الناس جميعاً متساوون في التكاليف والالتزامات العامة والحقوق، وفي نطاق الجريمة والعقاب وفي مبدأ تكافؤ الفرص بالنسبة للعمل والتوظف).

٣- المساواة في جزاء العمل: (مادام الأشخاص متكاملين في العمل فهم

يستحقون أجراً متساوياً دون تمييز أو محاباة لأحد على حساب الآخرين، والناس في الإسلام متساوون في الأجر متعاونون بقدر ما ينجزونه من أعمال).

كذلك سوى الإسلام بين البشر جميعاً في مبدأ (الكرامة الإنسانية) فلا يستعبد إنسان غيره بسبب اللون أو الحسب أو القوة.

ولقد كرم الدين الحق (الإسلام) الجنس البشري عامة، كرامة تقوم على أساس عدم التفرقة في المعاملة بين جنس وجنس أو طبقة وأخرى وكان إعلان الإسلام لمبدأ الوحدة الإنسانية، وحدة الأصل والمنشأ سبيلاً إلى تقرير مبدأ المساواة في الحقوق الفطرية والطبعية والإخاء العالمي وللرد على الداعين إلى العنصرية والاستعلاء الخاص الذين حاولوا أن يجعلو لأنفسهم تميزاً بين البشر.

كذلك دعا إلي العدل في المحبة والبغض وفي القريب والغريب.

﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أى وكونوا شهداء بالعدل لا بالجور ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ﴾ أي لايحمنكم بغض قوم على ترك العدل ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾.

وهكذا دعا الإسلام إلى الوحدة الكبرى: إله واحد، وعالم واحد، ورسالة عامة للبشرية جميعاً، وحين اقتضت حكمة الله اختلاف الشعوب في الألسنة والألوان لم يجعل هذه الاختلاف سبباً للقطيعة والشحناء، ولا مصدراً للتناصر والتدابر، وإنما جعله (تبارك وتعالى) وسيلة للتعارف والتآلف وليكمل كل جنس ما لدي الآخر من مواهب وقدرات مادية وعقلية، وقد أكد الإسلام الحقيقة الكبرى التي تربط العالمين على اختلاف: (الأجناس والألوان والألسنة) برباط الأخوة والدم المشترك الذي يرجع بملايين البشر في جميع الأجيال إلى أصل واحد هو آدم عليه السلام.

استعمل القرآن عبارة ﴿ ياأيها الناس ﴾ دلالة على الجنس الإنساني الواحد، وإشارة إلي أن البشرية تتألف من مجتمعات وشعوب وأقوام وأن كلمة (الناس) إنما

تعبر عن الجنس العام الذي يشملهم جميعاً فهم من أصل واحد ومن طينة واحدة، معلناً أن في جبلة البشرية اتجاهها إلي التعارف والتبادل والتلاقي مرتبطة بالله الخالق، وأن البشرية قد وصلت إلي حالة من النضج والرشد يجعلها قادرة على الاستعلاء على المفاخرة بالدم أو الجنس أو اللون، متحررة من العنصرية والقبلية والإقليمية إلى الالتقاء في إطار الوحدة البشرية والأخوة الإنسانية، وإن من شأن ذلك أن تكون وحدة العقيدة والفكر وقيم الأديان العليا هي مصدر الوحدة الحقة على اختلاف الأجناس،ولقد سار الإسلام في هذا الطريق داعياً إلى إسقاط عوامل التميز والفروق بين الأجناس التي استوعبها في إطار دولته، عاملاً على امتزاج الدماء والأجناس وعلى تصاهر المسلمين وإقامة وحدة العقيدة أساساً لمجتمعهم وذلك بعد أن صاغ الإسلام نفسه العقول والنفوس صياغة جديدة قوامها التوحيد والإخاء.

وبذلك نجد أن الإسلام قد دفع البشرية على طريق جديد واضح هو:

أولاً: إن الناس قبائل وشعوباً مدعوون إلى الأخوة الإنسانية.

ثانياً: لافضل لجنس ولا لدم ولا للون ولا لشعب على الاخر سواء كان هذا الفضل تميزاً عقلياً أم جسمياً أم نتيجة الثروة أو السلطان.

ثالثاً: التميز الوحيد هو التقوى والعمل الصالح.

رابعاً: الشجب الكامل والدحض التام للعنصرية.

خامساً: إعلاء رابطة العقيدة على رابطة القرابة ورابطة الوطن.

سادساً: إن رابطة العقيدة هي الحاكمة والمسيطرة على رابطة القرابة بالعدل والحق.

العنصريــــــة

إن الغرب قد نظر إلى الأجناس من وجهة نظر العلم البيولوجي فاعتمد نظرية مادية في دراسة حقيقة إنسانية، ولذلك فقد اعتمد على الوراثة البيولوجية وحدها بينما هناك ما هو أهم منها وهو الوراثة العقلية، ولقد كانت النظرية مليئة بالعاطفة

والتميز والاستعلاء دون أن يكون لها ثمة أساس علمي على الإطلاق، وأسوأ ما يرى من استعلاء روح التميز ما وصف به مونتسيكو الزنوج في كتابه (روح القوانين) حين ادعى أن هذه الشعوب السوداء ليست لها روح-يقول: إن شعوب أوربا بعد ما أبادت سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر، لم تر بداً من استعباد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الشاسعة، فإن هذه الشعوب سود البشرة من أقدامهم إلى رؤوسهم ولا يمكن أن يتصور أحد أن الله وهو ذو الحكمة البالغة - قد خلق روحاً وعلى الأخص روحاً طيباً في أجسام حالكة السواد) بينما يقول مونتسيكو هذا يقول العالم المسلم المقريزي: إن البشرة السوداء لاتقلل شرف النفس الطاهرة ولا تنتقص من علم العالم ولا من سمو المفكر وبذلك يكون الغرب قد جدد نظام التفرقة العنصرية القديم الذي عرفته الحضارات مصر القديمة واليونان والرومان والفرس، والذي قام على نظام طبقي يقسم المجتمع إلي طبقة من السادة وأخرى من العبيد، وينظر إلي كل الأجناس التي لاتنتمي إلى السادة على أنها من البرابرة وكانوا يرون أنفسهم أسمي مرتبة من بقية البشر، ولقد دعت الأديان إلى الإخاء الإنساني وكانت المسيحية في الغرب مرحلة في سبيل مقاومة هذا النظام العبودي حتى جاء الإسلام فدكه دكا.

غير أن اليهود هم الذين أعادوا الدعوة إلى التفرقة العنصرية والاستعلاء بها بعد النفي البابلي، ثم حملت أوربا لواء هذه الدعوة وقد ظلت زمناً طويلاً بالرغم من وصايا المسجد لاتعتبر الرقيق من الجنس البشري.

وبالاستعمار أصبحت العنصرية قاعدة حملت لواء تجارة الرقيق على نحو مهين للجنس البشري، ونقلت أعداداً هائلة من الزنوج إلى كل من أوربا وأمريكا في مأساة مهينة قتل فيها وعذب ومات بضعة ملايين.

وقد استغل الاستعمار نظرية دارون الخاصة ببقاء الأصلح وحاول أن يجعل منها منطلقاً لسياسة التوسع والعدوان على الشعوب المتأخرة ومبرراً لسيطرته وبناء على ذلك اعتقد الرجل الأبيض أن استعباد أو إفناء المجموعات البشرية الملونة بواسطة

الرصاص الأوربي ليس إلا تنفيذاً لنظرية استبدال مجتمعات راقية بأخرى منحطة، وقد استغلت النظرية العنصرية في مجالات السياسة الدولية لتبرير الأعمال العدوانية وقد نتج عن هجرة الأفريقيين إلى أمريكا وهجرة البيض إلى إفريقيا أزمتان مازالتا حتى الآن تمثلان وجهين لحقيقة العنصرية في أمريكا مرة وفي جنوب أفريقيا مرة أخرى، وذلك عندما هاجرت جماعات كبيرة من الأوربيين إلى جنوب أفريقيا واصطدمت بسكان البلاد الأصليين وعمدت إلى إبادة أعداد كبيرة منهم ومعاملة الباقين معاملة سيئة.

وهذا هو ما أطلق عليه التمييز العنصري الذي يتميز به البيض عن السكان الأصليين والاضطهاد العنصري حيث تسيطر الأقلية البيضاء على القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتتسم العلاقة بين البيض والسود أصحاب البلاد بالعنف، وفي ظل هذه الأزمة الخطيرة نشأت عملية التبشير التي جرت في مختلف أنحاء أفريقيا مستهدفة نقل هذه الجماعات من الوثنية والبدائية إلى المسيحية ومع ذلك فإن حاجز اللون ظل قائماً بين الوطنيين والمستعمرين.

وهكذا عادت البشرية في العصر الحديث لترتكس مرة أخرى في صراع عنيف مع العنصرية، وقد علت هذه الموجة علواً كبيراً في الغرب ومنه امتدت إلى سائر أرجاء العالم، وقد أحدثت هزة كبرى في الفكر البشري في العصر الحديث بعد أن أعلن الإسلام فسادها وقضى عليها، ولقد تراجعت في الغرب رابطة الدين وحلت بدلاً منها رابطة الوطن والعنصر والقوم وبعد أن كانت أوربا تمثل وحدة المسيحية أساساً وإن اختلفت بين المذهبين الكاثوليكي والبروتستانتي إلا أنها بفعل عوامل عميقة تمزقت هذه الوحدة ونشأ صراع عميق فرض إعلاء العنصرية، وجاء صراع الآرية والسامية، علاوة على اتساع الصراع بين أوربا والعالم الملون، فقد صدرت النظرة عن مفهوم يقول بأن الإنسان الأبيض هو تاج الخليقة وأن الغلبة له في كل صراع ينشب على الأرض، وأن الغرب الذي أنشأ الحضارة وسيطر بالاستعمار على أجزاء كثيرة من العالم الملون، من شأنه أن يفرض وجهة نظره وأن يحتوى الثقافات

والعقائد، ومن هنا فقد شمل الصراع ميدانين في وقت واحد، ودخلت فيه بلاد الإسلام مضطرة لأنها كانت طرفاً في النزاع الذي أثاره الغرب بحكم استعماره لأجزاء كثيرة من العالم الإسلامي.

المبدأ الأول: ميدان الصراع بين الأجناس الأوربية: لاتينية وسكسونية وسلافية وجرمانية وآرية، وطورانية وبلقانية.

المبدأ الثاني: مبدأ الصراع بين الشرق والغرب حين أعلن (جوبثيو وريتان وتشمبران) أن الجنس الأبيض قد تفرد بكل الخلق العظيم وأن ما عداه من الأجناس عالة عليه، وأنه اختص بالجمال والذكاء والقوة في تاريخ الحضارات المتعاقبة، هذا من ناحية امتياز الجنس الأبيض، أما الأمم الملونة فلو وصفت بأنها فقيرة الخيال فقيرة جافة التصوير تدرك الأشياء إدراكاً أولياً ولا تتعمق في بحثها ثم قام البحث بالتدليل على الاختلاف عن طريق علامات في الأجسام والجماجم وعن طريق إفرازات الغدد الصماء، وطول القامة وقصرها واللون.

٢- إلى أي حد صدقت الفروض التي قدمها أصحاب النظرية في مجال الدراسة العلمية الصحيحه، قال الباحثون: إن الثقافة لا الدم هي مفتاح فهم السلوك البشري: وإن التفسير الجنسي أو البيولوجي ليس له أي أساس علمي، وأن التجربة العلمية لم تكشف عن وجود أي اختلاف في إفرازات الغدد الصماء بين جماعة وأخرى وجنس وآخر.

ولم يفسر أحد اختلاف الأنماط الثقافية للجماعات البشرية بردها إلي عوامل الوراثة الجنسية، وأن الذي يجمع بين الجماعات ليس هو الدم المشترك أو الوراثة الجنسية، بل هو الفكر المشترك والمعايير الاجتماعية الواحدة التي تشكل الحضارة والثقافة بعد أن تؤلف من العقول والقلب.

وأن التكوين البيولوجي للإنسان ليس فيه ما يلزمه باعتناق نمط معين من أنماط السلوك أو أسلوب خاص من أساليب الحياة.

كذلك فقد ثبت خطأ الظن القائل بأن ثمة سمات بيولوجية معينة هي التي تتحكم في أنماط الثقافات المختلفة كطول القامة أو قصرها وبياض البشرة)،وفات هؤلاء أن الثقافة ظاهرة اجتماعية لا شأن لها بخطوط الطول والعرض ولا علاقة لها بمسائل الجنس واللون والدين.

كذلك أثبتت الدراسات العلمية أن أكبر الخطأ في دراسة البشرية هو الاعتماد على الجوانب البيولوجية وقد اتجهت الأدلة العلمية نحو الخصائص كالنفسية والتركيب النفسي للجماعات، كذلك فقد تبين أن أخطر أبعاد النظرية العنصرية هي اعتبارها العامل العنصري هو العامل الحاسم والقوة الدافعة لحركة التاريخ، وقد انبثق عن هذا الرأي ذلك المفهوم القائل بوجود حضارة واحدة في تاريخ الإنسانية وهي حضارة الغرب وهذا غير صحيح علمياً.

ثانياً: اعترف أساتذة علم الأحياء بفساد نظرية الجماجم والأجسام بعد أن تبين لهم بالمقارنة الفعلية أن الجماجم الآرية تشبه جماجم أقزام أفريقيا الوسطى وأن شعورهم وجلودهم ومميزاتهم الجسدية يتمتع بها كثير من القبائل والشعوب في أنحاء الأرض.

ثالثاً: تبين خطأ التقسيمات إلى بيض وملونين أو إلى سود وزنوج وبيض قوقازيين أو صفر مغوليين، ودل البحث على أن اللون الواحد قد يشتمل على جملة درجات للبشرية الواحدة وأن لون البشرة خاصة عرضة للتأثر بالأشعة فوق البنفسية.

رابعاً: أثبت توزيع الفصائل الدموية، أنه لاتوجد حدود واضحة صريحة بين العناصر أو السلالات المختلفة، إلى حد أن قيل لو أن أوربيا قد ينقل إليه دم زنجي من نفس الفصيلة الدموية التي منها ذلك الأوربي فلا يضار الأوربي على حين أنه قد يموت إذا نقل إليه دم أوربي آخر من فصيلة دموية أخرى.

خامساً: إن الهجرة والاختلاط العنصري قد شاع في العالم منذ عهود بعيدة فالشعوب الحاضرة التي في أوربا وأمريكا وأفريقيا وآسيا مختلطة إلى حد كبير،

وأنه لادليل على أن الاختلاط العنصري يؤدي إلى تأخر النبوغ وانحطاطه من الناحية الطبيعية أو الفعلية.

سادساً: يعتقد كثير من علماء النفس أن الوراثة أكثر فعالية في (الذكاء) من البيئة، كذلك فإن النتاج العقلي الأوربي الذي يبدو أعلى من النتاج العقلي الإفريقي لايدل على تفوق خاص، بل إن الاختبارات تدل على أن من غير الأوربيين من يفوق الأوربيين كثيراً في الذكاء وإنما وجه الخلاف هو في عدم تماثل الفرص التي أتاحت للأوربي نصيباً أكبر من الثقافة.

لماذا اذن لم تقم العناصر البشرية على اختلافها بنصيب واحد في بناء الحضارة ولماذا ظل الزنجي متأخراً، يجيب العالم الاجتماعي بكل صراحة. كلا.

أولاً: توجد أدلة تثبت أن في عدة جهات في أفريقيا وخاصة نيجريا وجهات أخرى في غرب أفريقيا قامت حضارات زاهرة.

ثانياً: إن من الخطأ أن ننظر إلى نتاج الثورة الصناعية الأوربية على ضوء الحساب الزمني الذي استغرقته فقد قرروا أن الثورة العلمية والصناعية التي قام بها الغرب قد حدثت فيما يعادل جزءاً من ألفي جزء من تاريخ الإنسانية.

ثالثاً: خطأ الظن أن كل أصول الحضارة الأوربية نشأت في أوربا فمن ذلك أن البارود والطباعة والعلوم الرياضية وغيرها مجلوبة إلى أوربا من خارجها.

رابعاً: إن من جملة العوامل في ترقية التطور الاجتماعي والتقدم في الصناعات المادية الاتصال بين ثقافات وحضارات مختلفة، ولا ريب أن عزلة الشعوب الأفريقية عن الجماعات الأخرى زمناً طويلاً جعلها تخسر ذلك الحافز الذي يأتي عن طريق الاتصال الثقافي.

خامساً: لاصلة بين الثقافة والعنصر، فقد استقر الخلط بينهما ارتفاعاً وانخفاضاً، فراحوا يعتقدون أن عنصراً أرقى من عنصر لأنه أكثر ثقافة وترتب على هذا الاعتقاد قيام مشاكل اجتماعية خطيرة في بعض بقاع الأرض.

وبذلك يتبين كذب نظرية (الإنسان الأبيض) وامتيازه عن الأجناس الملونة،وهي من الدعوات التي اتخذها النفوذ الأجنبي مبرراً لوجوده وسيطرته.

٤- قرر العلماء أنه لاسبيل إلى ظهور جنس مميز في البشرية فإن تاريخ البشرية يمثل ظاهرة كبرى يجب أن توضع موضع الاهتمام هي اختلاط الأجناس البشرية، فمن عصور ما قبل التاريخ حدثت هجرات عظيمة للشعوب وفي العصر التاريخي، يشهد بذلك الامتزاج الواسع للعناصر البشرية التي تتمثل في الغزو والحروب وأيضاً في العلاقات السلمية بين الشعوب، ويقول بيتار في كتابه الأحباش والتاريخ: «إنه منذ خمسة وعشرين ألف سنة بينما كان الممثلون الحقيقيون للبشرية يسيرون نحو الفناء من الناحية الغربية من العالم أي أوربا كانت تلك المجموعة الغربية من النماذج البشرية التي تخلط بينها تحت اسم الإنسان العاقل مختلفة كما هي مختلفة اليوم وعلى ذلك فإن مسألة أصل الأجناس البشرية كانت مضطربة منذ عشرين ألف سنة كما هي مضطربة اليوم.

٥- بالنسبة لما يقال من أن الجنس الأري أرقى فروع الجنس الأبيض، يقرر العلماء أن اشتراك الأوربيين والشماليين في الحضارة الإنسانية جاء متأخراً جداً فقد توصلت البشرية ممثلة في أقوامها المختلفة إلى معرفة الزراعة منذ أقدم العصور، وعرف كثير من الشعوب استئناس الحيوان واستخدام المعادن وأقاموا صرح مدنيات عريقة، كل ذلك قبل أن تعرف الشعوب الشمالية معنى الحضارة، وقد كان فلاسفة اليونان يلقبون هذه الشعوب التي تعيش في شمال أوربا بالمتوحشين، وإن التاريخ لايثبت أن الجرمان هم صانعو الحضارة ومصادر الحضارة معروفة في وادي النيل ووادي دجلة والفرات وحوض البحر المتوسط.

٦- إن الأجناس كلها متساوية في نظر العلم وإن الحقائق العلمية لا ترى فضلاً لسلالة على سلالة ولا لجنس على جنس،وإنما هي السياسة التي استغلت هذه النظريات من أجل السيطرة على الأمم المتخلفة واستنهاض الروح القومية ولقد اتخذ الاستعمار من هذه النظريات مبرراً لوجوده غير أن التجربة أثبتت فساد نظرية

الوصايا البشرية ودعوى الرجل الأبيض حيث لم يحقق الاستعمار ما ادعاه من دعوى ترقية الشعوب وتمدينها،وإنما عمل على العكس من ذلك على تدمير مقوماتها واستنزاف ثرواتها.

٧- أثبت الباحثون المتحررون من الخضوع للاستعمار أن الجنس الأبيض لايزيد على ثلث سكان العالم وأن الثلثين الباقيين هما من الأجناس الملونة التي تعطلت وتزايد عددها وأنه قد تبين فساد نظرية التفوق اللوني أو الجنسي بل لقد ثبت أن الجنس الأبيض لم يحسن التصرف فيما اؤتمن عليه وأن ما استطاعه الجنس الأبيض لم يكن بفضل ما أتيح له من فرص التقدم والعلم.

٨- اتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لايمكن أن يرجع إلى لون البشرة، وأن الفروق العقلية والنفسية ما هي النتيجة لظروف بيئية قد تأتي نتيجة أن أفراد جماعة من الجماعات قد أتيحت لها فرص التعلم عن طريق الاحتكاك الحضاري أو استغلال المواد الطبيعية،كذلك فإنه ليس ثمة ارتباط بين حضارة معينة والتكوين الجنسي لسلالة من السلالات وهذا يعنى أن جميع الأجناس بل جميع الأفراد بإمكانهم القيام بنفس العمل إذا أتيحت لهم فرص متكافئة من التعليم والمران، وليس هناك صلاحية ما للقيام بأنواع معينة من الأعمال والحرف.

٩- القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الإنسانية بالتقهقر، والتدهور، لايستند إلى أقل دليل علمي،فإن عملية الاختلاط بين الأجناس عملية مستمرة منذ بداية الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية فالهجرة قديمة قدم السلالات البشرية، والهجرة تعنى اختلاط الجماعات تلقائياً ويشير التاريخ إلى أن جميع الحضارات قد تمت عمليات غزو لها في جماعات البدو الرحل انتهت بانهيار التقسيم الطبقي وتكوين خليط جديد من السكان ومعنى هذا أنه لاتوجد سلالات بشرية نقية وأن سكان أوربا متعددو الأصول لدرجة أنه يعجز عن تصنيفهم كغيرهم من سكان القارات الأخرى.

الأخـوة العالميـــة

إن أعظم ما جاء به في الإسلام هو وحدة البشرية التي لايجد البحث العلمي سبيلاً إلى إنكارها بالرغم من دعاوي المستعمرين ودعاة العنصرية والراغبين في حجز التقدم العلمي والرفاهية عن الشعوب المختلفة وقصره على الشعوب المسيطرة وحدها، ولا بد أن البشرية بأصالتها وفطرتها سوف تكسر هذا القيد بعد أن ثبت علمياً أنه زائف، وأن كل الحقائق التي وصل إليها البحث تقر مذعنة بالحقيقة القرآنية التي سبقت ذلك بأربعة عشر قرناً والتي كشفت عن وحدة البشرية فقد أشار الإسلام إلى وحدة البشر ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ ثم تطورها إلى أجناس ﴿ واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ وأن يتم ذلك عن طريق التناسل ﴿ فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ وقد ثبت أن النوع البشري قد امتزج امتزاجاً شديداً نتيجة هجرات واسعة مستمرة لم تتوقف على مدى العصور ومع قدرة على التكيف العام مع البيئات على التفاوت الواسع بينها، وتأكد أن هذه الفوارق في أشكال الرؤوس وأحكامها وقسمات الوجوه إنما هي تغيرات طرأت لخدمة التكيف البيئى للإنسان، فلون البشرة الداكن أقدر على امتصاص الأشعة الضوئية وثبت بذلك أن الإنسان أعظم الكائنات قدرة على الهجرة وعلى التكيف بالبيئات المختلفة ويدعم ذلك احتفاظ الأجناس البشرية بقدرتها على التناسل فيما بينها برغم انتشارها الواسع الذي باعد بينها جغرافياً وبيئياً،وقد ساعد انتشار الأديان ومنها الإسلام على المزج والانصهار بروح التسامح والمساواة التي ربطت بين العناصر المختلفة وبين المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرى، ولقد كان المسلمون البيض متحررين من عقدة التمييز اللوني ضد الأجناس غير البيضاء ولا يقسمون الناس إلى أبيض وأسود بل إلى مؤمنين وغير مؤمنين، وذلك على حد تعبير أرنولد توينبي الذي يقول: ولقد اتصل المسلمون البيض مع الزنوج والأفارقة ومع الشعوب الداكنة اللون في الهند في البداية واستمروا في تعزيز ذلك الاتصال،وحتى اليوم فإن البيض والسود يندمجون تحت راية الإسلام عبر القارة الإفريقية والهندية طولاً وعرضاً. وقد برهن المسلمون

البيض على تحررهم من أي شعور عنصري بأقوى البراهين والحجج، حيث إنهم قد زوجوا بناتهم بالمسلمين السود، ويصور عظمة الإسلام في هذا الترابط والامتزاج مالكوم اكس حين يقول: لقد كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل أقطار الدنيا كانوا من الألوان من الشقر رزق العيون، إلى الأفارقة سود البشرة ولكنا جميعاً كنا نشارك في نفس الشعائر مبدين روح الوحدة والأخوة التي ساقتني تجاربي في أميركا إلى اعتقاد أنها لن يمكن أن توجد بين البيض وغير البيض.

وفي مجتمع الإسلام في الحج حيث لا يشعر أي واحد بأي تمييز، لاتوجد عقدة الاستعلاء ولا عقدة النقص، وهكذا نجد أن الإسلام نقل المسلمين من العنصرية إلى العقيدة،ومن اختلاف الجنس واللون إلى الإخاء العالمي.

ولقد جعل التقوى أكبر أهمية من الأصل والولد، قال المقوقس: كيف ترضون أن يتزعمكم رجل أسود؟ قالوا إنه رغم سواد لونه فإنه أفضلنا منزلة وذكاء وحكمة،لأن «السواد غير مزدري بيننا» وهكذا نجد أن الإسلام ابتداء يوحد البشرية وكانت أعظم معطياته الأخوة العالمية تحت القانون الأخلاقي العام وهي أخوة عالية ليست مبنية على الثقافات بل على القانون الأخلاقي الموحد، يقول عبد الكريم جرمانوس: إن أوربا لم تعرف فكرة الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية، بينما دعا الإسلام إليها وطبقها المسلمون قبل ذلك بنحو ألف عام، لقد كانت فكرة الشورى من ابتكار القرآن عرفتها أوربا في القرن السابع عشر بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأته.

ودعوة الإسلام إلى الإخاء العالمي تمثل نمواً خطيراً في اتجاه البشرية فقد وضع أساساً للإخاء بين شعوب الأرض قاطبة، وجعله في المجتمع الإسلامي ركناً ركيناً فقد كان النبي يأكل مع الخادم،ويقضي حاجة الضعيف والبائس والمسكين،وكانت تستوقفه المرأة الفقيرة فيقف لها،ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، وينهى عن القيام له،ويجلس حيث ينتهى به المجلس، وهذه الصورة لها صورتها المقابلة في مجتمع الرومان والفرس والفراعنة، مجتمعات القياصرة والأباطرة والفرعون، وقد

وضع الإسلام ذلك الحد الفاصل: حد المساواة في العدل حين قال الرسول:

«إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

وعندما قال الرجل لصاحبه: ياابن السوداء، قال النبي ﷺ : «أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، طف الصاع طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى».

وموقف عمر بن الخطاب من جبلة بن الأيهم ملك غسان عندما لطم أعرابياً وطئ إزاره أثناء الطواف، قال عمر: لابد أن يأخذ الرجل حقه، قال كيف وأنا أمير وهو سوقة قال عمر: إن الإسلام قد سوى بينكما قال: أعود عن الإسلام قال: إذن أضرب عنقك,لأنك أصبحت مرتداً، ولقد سعى الإسلام إلى هدم الأصنام: الأصنام البشرية التي طالما أذلت الإنسانية. قال فرعون: أنا ربكم الأعلى ما علمت لكم من إله غيري وقال الله للرسول: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾.

والناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط.

هذا النموذج الذي قدمه الإسلام للبشرية هو مستقبلها الحقيقي الذي لن تجد سبيلاً دونه،ولا بد أن تتهاوي دعوات العنصرية وتسقط تحت سنابك الإخاء الإنساني ووحدة البشرية.

(٣٥)

روح الغـــرب

أجمع الباحثون في تاريخ الفكر البشري وفلسفته على أن الفكر الغربي يقوم على مصادر ثلاثة: الأدب اليوناني، والفكر الروماني، وتفسيرات المسيحية كما عرفها الغرب «والتي تختلف عن الدين المنزل من السماء على سيدنا عيسى عليه الصلاة والإسلام» وحين جاءت النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي كانت قد قامت مرحلة انقطاع بين سقوط الدولة الرومانية ٤٥٠ ميلادية وبين النهضة لاتقل عن ألف عام كان قد جاء خلالها الإسلام الذي أشرق ضوؤه على آسيا وأفريقيا، وامتد إلى أوربا حين دخل الأندلس عام ٧١٢ ميلادية، وامتد منها إلى جنوبي فرنسا وإيطاليا واستمر وجوده بها حتى أجلى عن غرناطة ١٤٩٢م، وقد جاءت النهضة الغربية بعد نزول الدين المسيحي بخمسة عشر قرناً وبعد نزول الإسلام ببضعة قرون، وكانت معطيات الإسلام: فكره وعلمه ومفاهيمه قد دخلت أوربا مع دخول الإسلام وقيام جامعات قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة، والمعروف أن الفكر الغربي اعتمد على التراث اليوناني في مجال الأدب والفن، وعلى الفكر الإسلامي في مجال العلم والعلوم الاجتماعية، وعلى المسيحية في مجال الأخلاق والسلوك، ثم كانت هناك ظاهرتان هامتان أحدثتاتغييراً شاملاً في الاتجاه: هما الاستعمار والحضارة وهما من منتجات العلوم التي مكنت أوربا من إنشاء العلوم الميكانيكية والبحث عن الخامات وأسواق الإنتاج، ومع الاستعمار أنتج العلم وسائل الرفاهية والترف المادي في أساليب العيش، وصحب ذلك كله فلسفة جديدة تقوم على الاستعلاء بالعنصر الأبيض الأوربي صانع الحضارة، وسيد الأجناس الملونة، وصاحب الحق في السيطرة عليها.

ومن هنا بدأ ذلك المنحنى الخطر في الفكر الغربي الذي اعتمد كلياً على مفاهيم الحضارة الرومانية في الاستعمار ومفاهيم الفلسفة اليونانية في أسلوب العيش فجمع بين نظرية العبودية الرومانية في سيطرته على البلاد التي فتحها ونظرية الإباحية

في أسلوب العيش، وكانت منتجات العلم الأولى متى صدرت عن المنهج التجريبي الإسلامي أكبر عامل في تقويض نظرية التدين الغربي، فقد استعلى العلم والعقل حتى لم يفسحا مجالاً لأي قوة أخرى موجهة، وكانت اليهودية التلمودية من وراء ذلك التحول الخطير وتلك الحملة الضخمة على الدين وعلى الكنيسة، ولذلك فسرعان ما احتضنت آراء دارون ونيتشة وشكلت فلسفة جديدة مادية خالصة،ظلت تنمو وتضطرد حتى سيطرت تماماً على الفكر الغربي الآن واحتوته بثلاث أو أربع نظريات أساسية هي:

١- نظرية ماركس في التفسير المادي للتاريخ التي تجد قبولاً حتى في غير بيئات الشيوعية والتي تكاد تصبغ كل وجهات النظر في الفن والأدب والفكر ولا تقف عند الاقتصاد وحده.

٢- نظرية فرويد في التفسير الجنسي للحياة والتي تعد الآن من دعامات الفكر الغربي والتي سيطرت على القصة والفن والنفس والأخلاق.

٣- نظريات المدرسة الاجتماعية الفرنسية (دور كايم وليفي بريل) والتي أرادت أن تحطم نظرية الدين والأسرة والفردية، وتعلي شأن الجماعية على نحو مادي خالص ينكر وجود الدين والوحي، ويضحي بالأسرة في سبيل القضاء على الجماعة كلها، وقد استطاع الفكر التلمودي الوثني الإباحي المادي أن يستقطب عدداً كبيراً من الباحثين والفلاسفة من غير اليهود لبناء قاعدته الفكرية،كان في مقدمتهم سبنسر وهكسلي ورينان وفولتير وبرتراند رسل، وقد استطاع هذا الفكر أن يشق طريقه إلى الحد الذي أدى إلي استيعاب الفكر الغربي كله واحتوائه تقريباً.

٢- يتنازع الكفر الغربي في الوقت الحاضر مبدآن وثقافتان:

المذهب الفردي (الليبرالية) المذهب الجماعي (الماركسية).

والخلاف بينهما هو خلاف اقتصادي،من حيث إن المذهب الفردي رأسمالي له نظمه الحرة في مجال الاقتصادي أما المذهب الجماعي فهو ماركسي له نظريته القائمة على

تملك الدولة كل وسائل الإنتاج. غير أن المتعمق في النظرة يرى أن المذهبين قائمين على أساس واحد: الأساس المادي الخالص، وأن أحدهما هو وليد المذهب الآخر وثمرته، وأن الماركسية ليست إلا رد فعل للرأسمالية ومنشقة عنها فهو فكر غربي أيضاً جاء نتيجة بعض التحديات والظروف الخاصة بالعلاقة بين أصحاب رأس المال والعاملين،ولقد أوشكت نظرية التفسير المادي للتاريخ أن تكون أساساً للرأسمالية والماركسية معاً. وإن كان الغرب لايعتمدها وحدها بل يضيف إليها التفسير النفسي ويعد فرويد مفكراً ليبرالياً خالصاً وقد اتخذت نظريته أساساً لدعم المجتمع الغربي الليبرالي، كذلك اعتمد الغرب على نظرية دارون في القول بتنازع البقاء وبقاء الأصلح في تبرير استعمار الشعوب، ومن دارون خرجت على أيدي (هربرت سبنسر) نظرية التطور الاجتماعي المطلق التي هي الآن أساس في المذهبين والمجتمعين معاً، وكذلك نظرية نسبية الأخلاق، ومن الفكر الغربي ظهرت نظرية العنصرية وتجلت ثم ظهرت في الدعوة الجرمانية التي حملتها ألمانيا وكانت مقدمة الدعوة إلى شعب الله المختار والعنصرية اليهودية،ومن ثم بدأ الصدام بين العنصرية اليهودية والعنصرية الجرمانية،ومن الفكر الغربي نشأت فكرة القوميات الضيقة بعد أن مزقت أوربا على أثر الثورة الفرنسية إلى قوميات تستعلي بالعنصر وتصارع العنصريات الأخرى.

ومن الفكر الغربي ظهرت الدعوة إلى العالمية،التي تعتمد على سيطرة أصحاب الحضارة والفكر الغالب على الأمم المحتلة والمستعمرة وصهرها في بوتقة فكرها والقضاء على فكرها الأساسي وقد واجه المسلمون هذه المحاولة بقوة.

وأعلن الفكر الغربي عن الخلاف بين الأدب والعلم،وظهر الصراع بين العلوم والفنون،وكشف الباحثون عن مدى الأثر الخطير للانفصال القطبي بين الثقافيين: وموقف العلميين تجاه التجربة الفردية وموقفهم تجاه التجربة الاجتماعية. أشار الباحثون إلى عمق التناقض بين الثقافة الأدبية والثقافة العلمية، وقالوا إنها ظاهرة من أبرز خواص المجتمع الغربي، حيث تنقسم الحياة الفكرية إلى قسمين متباعدين.

وأن هناك قطبين: واحد يدور حوله المفكرون العلميون وأن بين الاثنين هوة سحيقة أساسها عدم القدرة على الفهم المتبادل،ذلك أن كل مجموعة تحتفظ بداخلها بصورة مشوهة للمجموعة الأخرى، والسبب هو عدم وجود قاعدة أساسية شاملة وعدم وجود أساس للتفاهم،وهذا ما لايقع في مجال الفكر الإسلامي الجامع لجوانب الروح والعلم معاً. أما غلبة الطابع المادي على الفكر الغربي فإنها واضحة منذ دعا (بنتام) إلى (مذهب المنفعة) الذي كانت له امتداداته في ميادين الاقتصاد والسياسة والأخلاق والذي صهر فكر (ميكافيلي) السياسي في صورة عامة، ومن مذهب المنفعة ولد مذهب الذرائع،وكان ذلك علامة على غلبة الطابع المادي التلمودي الذي سيطر بعد الثورة الفرنسية على القانون والاجتماع.

كذلك علت صيحات ثلاث: (اللقمة: ماركس) (الجنس: فرويد)، (العنصر: جوبنيو) وحاولت كل الصيحات الثلاث السيطرة على الحياة سيطرة كاملة ولقد نقل هذا التحول كله الفكر الغربي إلى دائرة مغلقة هي الدائرة المادية الوثنية حتى قال عنها (محمد إقبال): إن أوربا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان وقال العلامة (جود): إنه لم يزل سائداً في عقلية انجلترا منذ قرون: شره المالك والتملك ويقول: (جون جنتز) إن الإنجليز يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة، وقد أكد غير واحد أن الفلسفة الخلقية التي ازدهرت في جو من الانحلال الديني وراجت في حياة أهل الغرب فعلاً إنما كانت فلسفة النفعية (المنفعة) وقد كان من نتيجة ذلك أن انهارت القيم الأخلاقية للحضارة الغربية تحت سيطرة الاتجاه الوثني المادي،ذلك بأن مذهب النفعية من شأنه أن يضحى بكل شيء في سبيل الهدف.

أما الفكر الإسلامي فإنه يجعل أول القيم: «العدالة المطلقة»: ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا: اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ فالعدل للجميع وليس للجنس الأبيض وحده، وليس هناك طبقة مستعبدة إلى الأبد، بأجيالها وأهلها لاتتحرر مطلقاً ولكن هناك مساواة تامة، وليس هناك من يقام عليه القانون ومن

يشفع له نسبه أو نفوذه أو منصبه، وليس لأبيض على أسود فضل، الناس كأسنان المشط. كلكم لآدم، وليس هناك جنس له حق إستعباد الأجناس المستضعفة، وليس هناك فتح واستعباد ولكن هناك امتزاج وانصهار، هذه هي القيم التي قامت عليها «حضارة الإسلام وفكره، أما الغرب فإنه ما زال يصدر إلى العالم كله:

-المادية: (وهي لن تكون بأي حال أساساً لبناء المجتمع البشري).

-العنصرية: (ولن تكون أساساً لبناء الأمم).

٢- إن أخطر مفاهيم الفكر الغربي: هي النظر إلى الإنسان بمفهوم مادي.

وهذه هي مصدر أزمة الإنسان الغربي وأزمة المجتمع الغربي: وهي أزمة ما تزال تزداد قوة واشتعالاً تحت تأثير الفلسفات المادية ومدرسة علم النفس الفرويدي والاجتماع الدوركايمي، لقد طرح الفكر الغربي بعد أن أسقط الدين أيدلوجيات مختلفة ما تزال تتصارع: ديمقراطية، ليبرالية، ماركسية، وجودية، نفعية، نازية، فرويدية، هيبية، وما يزال يتلقى الموجات واحدة بعد أخرى وقد عجز الفلاسفة عن الوصول إلى (الضوء الكاشف) لأنهم تجاهلوا النفس الإنسانية، والوحي والتوحيد والإيمان بالبعث والجزاء.

ولا ريب أن أزمة الإنسان المعاصر هي أزمة فكر وخلق، فقد استطاعت مذاهب التحلل والإباحة أن تنفخ في الدعوة إلى الحرية بغير ضوابط، والأخلاق بغير ثبات واحتقار الغيب والقيم المتصلة بالدين، وتغطية كل هذه المناطق الفارغة والناقصة من الفكر بمفاهيم بشرية مادية وصلت إلى حد التضخم والصراع ممثلة في حركات الوجوديين والهيبيين التي تعرفها أوربا الآن بصورة عاصفة تصدر عن التمزق النفسي والصراع والقلق.

ولا ريب أن مصدر ذلك كله هو إعلاء العلم والعقل، وفقدان التوازن والمواءمة بين العقل والقلب والروح والمادة والنفس والجسم وانحراف البشرية عن الدين الحق وعن قيمه وأخلاقه وبناء نهج من الفكر البشري ما يزال يضطرم بالاضطراب والفساد

والتحول والإضافة والحذف دون أن يحقق شيئاً من طمأنينة المجتمع أو سكينة النفس.

ومن هنا فإنه لابد لكي تحل أزمة الإنسان المعاصر أن يعود الفكر الغربي إلى تصحيح مساره وأن يلتمس الدين الحق، وأن يعيد النظر في مختلف هذه النظريات التي كانت بمثابة فروض لا حقائق، على ضوء النتائج التي كشفت عنها بالتجربة وكيف فشلت هذه المذاهب والأيدلوجيات في أن تحقق للمجتمع البشري أي أمل في سعادة حقيقية أو تقدم كامل. بل إن التقدم المادي وحده كان من أشد أنواع الخطر على المجتمعات وعلى النفس الإنسانية.

(٣) يمر الفكر الغربي اليوم بمرحلة الانحلال والتردي بعد أن قطع أكثر من أربعمائة عام مر خلالها بمراحل التكوين والقوة والتمزق ثم الانحلال. وهو في هذه المرحلة له سمات أربع: هي: الانشطارية والشك، والإباحة، والتشاؤم ونستطيع أن نقول إن الانشطارية هي مصدر الأخطار كلها (إقرأ رسالة: التكامل والانشطارية) ذلك أن أبرز سمات الفكر الغربي التي كانت هي نفسها أكبر مقاتله وأبرز عوامل اضطرابه هي فصل القيم والعجز عن إقامة الرابطة بينها، والوقوف وقفة الإعلاء الشامل لواحدة من هذه القيم وعدم القدرة على الخروج من الدائرة المحددة إلى الأفق الرحب، أو النظرة ذات الأبعاد الكاملة. ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ أو الانتقال إلى مراحل التوسط أو المواءمة أو الجمع والتكامل بين القيم.

ولقد مر الفكر الغربي بمرحلتين منفصلتين تماماً وعجز عن الجمع بينهما: مرحلة الثبات المطلق، مرحلة الوجدان الأعلى، "مرحلة المثالية" ثم انتقل في عنف إلى مرحلة التحول المطلق مرحلة المادية العالية، مرحلة التحلل الكامل تحت اسم الحرية ونسبية الأخلاق والتطور.

مر الفكر الغربي بالمرحلتين تباعاً دون أن يفطن إلى التكامل بينهما، فذهب إلى أقصى اليمين ثم ذهب إلى أقصى اليسار. لقد وجد أزمة خانقة في المرحلة الأولى عندما أعلى شأن الروح وبلغ بها أقصى درجات الرهبانية والزهادة، والانصراف عن

الحياة والعزوف عن الزواج والعمل والارتزاق، وآثر الاعتكاف في الأديرة وكانت تلك أزمته الأولى، ثم لم يلبث أن انتقل تحت تأثير معطيات الإسلام من (حرية الإرادة -الاتصال بالله دون وساطة- المذهب التجريبي) من النقيض إلى النقيض، فآثر المتعة والحسيات وأعلى شأن الجنس والإباحة واللذة والمتعة وبلغ في ذلك أقصى مدى، وأنكر إنكاراً تاماً، كل ما يتعلق بالروح أو الوجدان أو ما وراء الكون وأنكر الخالق والرسالات والوحي والدين عامة. وتلك أزمته القائمة الآن في أخطر مراحلها. وهنا مصدر الخطر، ومصدر الانحراف، ذلك أن هذه الأيدلوجية المادية الصرفة إنما تقوم على إنكار (جذر عميق الأثر في النفس الإنسانية) هو: العقيدة والروح والعالم الداخلي وعالم الغيب كله. هذا العالم الذي اختفى تماماً في الفكر الغربي وراء سحابات من الشك والقلق والتمزق والتدمير النفسي، فقد رفعت الأيدلوجية التلمودية المعاول لهدمه وتحطيمه وتدميره فكرياً بالفلسفات وعملياً بالإباحة، ولا ريب أن هذا (العالم العقائدي الروحي المعنوي) كامن في الإنسان لا سبيل إلى إلغائه أو إنكاره، ولا ريب أن هذه الحملة المصطنعة المضادة لطبيعة الإنسان والمضادة للفطرة والسابحة عكس التيار، سوف تنفجر يوماً ما، ذلك أنها إنما تحاول أن تقتل كائناً حياً موجوداً في كيان كل إنسان، هذا الكائن الذي لا سبيل إلى تجاهله أو إلغائه.

ولقد حاول الفكر الغربي أن يطرح هذه القضية في أفق الفكر الإسلامي، ولكن الفكر الإسلامي بطبيعته فكر إنساني الطابع، رباني المصدر، قائم على الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فهو متكامل يفيض بالرحمة والطمأنينة والسماحة ولا يقبل الانشطارية أو التشاؤم، ذلك أنه يقوم على توازن القيم وانسجامها ولا يفترض إمكان قيام شطر منها دون الشطر الآخر، فضلاً عن أنه لا يعلى (الانشطارية) أو الفصل بين القيم، وعلى عصور سادت فيها ظاهرة واحدة، ثم جاءت عصور أخرى تسود فيها الظاهرة المضادة، في خروج من النقيض إلى النقيض دون قدرة على التوسط أو المواءمة أو التكامل، بينما لم يعرف الفكر الإسلامي هذه التجربة ولم يقرها.

ومن نقطة (الانشطار) سقط الفكر الغربي في أزمة (المادية) عن طريق إعلاء العلم وتقديس العقل. ومن ثم كان إنكاره لجوانب أخرى من الحياة والنفس غير المادة والعقل. وكان لهذا الانحراف أثره فقد عمت ظاهرة (التشاؤم) في وجدانه وفكره كله وطبعته بطابع الملل والتمزق والتمرد والصراع والخوف من الموت والرغبة في اعتصار الحياة وإنكار الجزاء والآخرة.

ولا ريب أن الإنسان القائم في تركيبه الطبيعي على المادة والروح معاً، لا يستطيع أن يكون روحاً صرفاً: يعيش على النسك والزهادة ولا مادة صرفاً: يقوم على الإباحية والانطلاق ولكنه لابد أن يكون من خيرهما في تعال وتوسط، ولا ريب أن الجانب المعنوي (الذي يضرب اليوم بعنف) كامن في أعماق الإنسان لا سبيل إلى إلغائه أو إنكاره. ومن هنا كانت أبرز مظاهر الفكر الغربي اليوم: ظاهرة التشاؤم ويقول الأستاذ سمير كرم إن الوجدان المتشائم قد ساد أيدلوجية النظام الغربي بكل أبعادها ومظاهرها في الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق والسياسة. وإن هذه الأيدلوجية السوداوية المتشائمة تنتشر في أوسع نطاق في عالم الغرب أفكاراً عن لا معقولية الحياة وعبث الوجود.

وقد أصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر يؤمن بالتطور الإنساني، ومن هنا فإن الوجودية والهيبية هما آخر صيحات الفلسفة التشاؤمية، ويرد كثير من الباحثين هذه الظاهرة من التشاؤم إلى القول بالخطيئة التي تطارد كل إنسان في الغرب، وإذا كان لنا أن نتعمق هذه الظاهرة وأن نبحث عن خلفياتها لرددنا ذلك كله إلى الأيدلوجية التلمودية التي استطاعت في هذا الوقت من تاريخ العالم أن تحتوي الفكر الغربي كله بشطريه وأن تسيطر عليه وتوجهه إلى غايتها. والأيدلوجية التلمودية هي فكرة وفلسفة ونهج حياة معارض تمام المعارضة للفكر الإنساني ذي المصدر الرباني مما جاءت به رسالات السماء، وأبرز وجوه المعارضة تتمثل في قيامه على الربا والإباحية وإنكار البعث وما يضاد مفهوم الدين الحق.

كما تعارض مفهوم الإسلام في التوحيد والإيمان بالبعث والإرادة الفردية وأخلاقية الحياة والمسئولية. فلقد صنع اليهود نهجاً خاصاً هم سادته وعملوا عن طريق الفلسفات والأيدلوجيات ليجعلوه منهجا عالمياً وحاولوا أن يدخلوا فيه الفكر الغربي كله ثم هم يحاولون إدخال البشرية فيه جميعاً. وقد جمع هذا النهج كل ما حمله الفكر البشري القديم من وثنية وإلحاد وتعدد واحتقار للأخلاق وامتهان للقيم وإنكار للجزاء والحساب في سبيل إشادة «امبراطورية الربا» وعبادة الذهب والتكالب على ماديات الحياة.

وبذلك سيطر اليهود على الفكر البشري وعمدوا إلى احتواء الفكر الغربي كله بداخله،ولم يعد الآن في العالم من منهج قادر على مقاومة هذا المنهج، غير منهج القرآن الذي تبناه الإسلام وهو منهج التوحيد الخالص والإيمان بالبعث والمسئولية الأخلاقية والالتزام الفردي. هذه الأيدلوجية التلمودية حسبما ورد في بروتوكولات صهيون هي التي تحاول أن تشيع في الفكر البشري طابع الانشطار ليكون مدخلاً إلى الانفصال عن النفس والروح والعقائد والجوانب الغيبية والإلهية ورسالات الأنبياء والأديان والبعث والجزاء مما لا يقع تحت عنوان الماديات والمحسوسات وما يتصل بالعقل والعلمانية ومناهج التجارب المادية.

ولا وريب أن الانشطارية هي مصدر ذلك التيار الذي يعتصر النفس البشرية في الغرب ويأكل هناءها ويدعها تترنح بين القلق والتمزق، ذلك لأنه مضاد للفطرة والعلم ولطبائع الأشياء حينما يحجب هذه القوة المفروضة وراء الفلسفات والمذاهب والأيدلوجيات حقائق لا سبيل إلى انتزاع الإنسان منها وهي حقائق كامنة في كل فطرة صادقة. وذلك من أجل تحطيم معنويات الإنسان وتركه غثاء تقتله الأهواء والشهوات ودوافع الغريزة وتقتل فيه كل إرادة وقوة وقدرة على الحياة الصحيحة.
ومن هنا كانت ضرورة الدين الحق من عند الله بالوحي للبشرية التي ليست قادرة وحدها على أن تحمي وجودها أو تعرف طريقها، وإلى هذا الإنسان الذي تغلبه الأهواء في حياته وتغلبه في سلطانه السياسي والاجتماعي لكي يكون متسلطاً لا

يعرف العدل، مستعلياً باللون والجنس على الألوان والأجناس ليفرض نفوذه على الآخرين.

الإسلام وروح الغرب

لا مشاحة أن الغرب قدم في مجال العلوم والأبحاث معطيات كثيرة وإنجازات ضخمة، مكنت البشرية من التقدم نحو التحضر والتمدن وحررتها من كثير من معوقات البداوة والجهل «وهي معطيات مادية صرفة لم تقدم للروح ولا للنفس ولا للوجدان شيئاً يزيده قوة، هذه المعطيات يجب ألا تختلط على المسلمين، وعليهم أن يأخذوا منها ويتركوا، يأخذوا ما يتصل بالماديات والآلات والتكنولوجيا ليضعوه في إطار فكرهم الاجتماعي ونظرتهم الإنسانية، أما فيما يتعلق بالنظريات الخاصة بالنفس والاجتماع والأخلاق والتربية والقانون فإن لهم منها موقف الحذر الشديد لأن للمسلمين منهج رباني محكم، أبرز مميزاته هو معالجة أزمات النفوس والمجتمعات علاجاً واقعياً يستمد نظرته من حكمة عالية،فهو واسع الأفق، له أبعاده العامة، وله إطاراته المرنة، وفيه سماحته ورحمته وعفوه، وفيه الرحمة والإيجابية والسلامة، وليس منهجاً تجريبياً، له ثغراته وعيوبه التي ما تزال تتوالى بالإضافة والحذف، وهو منهج واحد متكامل، قريب إلى الفطرة مستمد منها،لا يتعارض مع العلم أو العقل، وليس عشرات المناهج والأيدلوجيات المتضاربة التي تمثل عصوراً مختلفة ومتغيرات متعددة، وبيئات كثيرة، كذلك فهو منهج فيه إسلام النفس لله، وفيه معرفة كاملة برسالة الإنسان في الحياة أمانته ومسئوليته وإرادته الحرة، والتزامه الأخلاقي وجزائه في الآخرة، يستهدف بناء مجتمع رباني المصدر، إنساني الغاية يقوم على الرحمة والمساواة والإخاء والعدل والكرامة والقوة. التوحيد أساسه، والله غايته. وأبرز ما فيه هو تجرده من أهواء البشر، وقوامته بالحق، وسلامة أطره، وضوابطه، وحدوده، ومقايساته.

وهو بهذا يختلف عن الفكر الغربي تماماً. ولقد مر بالمسلمين زمن كانوا ينبهرون

أمام حضارة أوروبا المادية وأمام تلك المعطيات البراقة الزاهية التي تتمثل في ضخامة المباني، وسرعة الانتقال، والإضاءة والترف والملاعب والأزياء، وغيرها من الجوانب المادية فظنوا أنها هي علامات التقدم والرقي، ثم انكشف لهم بعد قليل أن الغرب لا يقدم لهم إلا جوانب الاستهلاك والترف، وأنه يخفي عنهم جوانب العلم وأسرار التكنولوجيا وهو ما يحتاجون إليه، وما كانوا قد سبقوا إلى تقديم أسسه ودعائمه، عندما وضع أجدادهم أصول المنهج التجريبي الإسلامي، وجعلوه إنسانياً عاماً، وقدموه للبشرية كلها، ولم يقصروه على أنفسهم، ولم يجعلوه من الأسرار الخفية فقد كان المسلمون يؤمنون بالإنسانية كلها ويندمجون في الأمم والأجناس لا ينفصلون عنها وكانوا يجعلون العلم خالصاً لله ومشاعاً للناس جميعاً. أما الغرب فعندما علا على موجة القوة، أقام وصاية على العلم والحضارة، وجعلهما كما جعل القانون والحرية وكل شيء خاصاً بالجنس الأبيض وحده، وجعل الدنيا كلها من بعد ذلك عبيداً لا يستحقون العدالة ولا الحرية ولا العلم، فإذام قدم لهم شيئاً فإنما يقدم لهم حصاد الهشيم من مذاهب الشك والتشاؤم والهوى والتحلل والإباحة، ويقدم لهم الجوانب المادية التي تدمر أنفسهم، وتذهب قواهم، وتقضي على ثرواتهم، فضلاً عن اغتصابه لمصادر هذه الثروات أصلاً من نفط وذهب ومنجنيز وكوبالت وغيره. ولقد مضى الغرب في منهجه الذي اقتفى فيه أثر العبودية اليونانية الرومانية وحمل لواء الاستعباد للشعوب واصطنع أساليب سفك الدماء والإذلال مما هو معارض تماماً للعقيدة المسيحية التي آمن بها والتي جاءت من الشرق، فسرعان ما أنكر معطيات حضارة الإسلام وتجاوز عن طابع الرحمة الذي جاءته به المسيحية، وعاد إلى الوثنية الهلينية والعبودية الرومانية وأقام حياته الاجتماعية على الترف والتحلل والإباحية وأنشأ حضارة الربا وعبد الذهب والمصارف وأقام المسارح في مكان الكنائس ودور العبادة، وبذلك خرج عن مضمون الدين والخلق جميعاً «وكان لليهودية التلمودية أثارها البعيدة في هذا التحول: التحول بالحضارة إلى الترف وبالفكر إلى المادية، وبذلك سقط في أزمة التمزق والقلق والانهيار النفسي والروحي الذي لا سبيل إلى التخلص منه.

لقد شاء الغرب أن يقيم لنفسه منهج حياة، وحين عارض طابع الدين كما وصل إليه وجد الطريق مسدوداً أمامه وبيده حتى لا يصل إلى حقيقة الدين كما جاء به الإسلام، وبذلك سقط صريع خصومة الدين كله، وعجزت الفلسفة في مذاهبها المختلفة وأيدلوجياتها المتعددة من مادية ووجودية ولبيرالية وماركسية أن تعيد إليه طمأنينة النفس وسكينة القلب. يقول (ليوبولدفابس): إن روح الغرب تتمثل في جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة، منفصلة عنها، ومخالفة لها، وأن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة إلى خضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية، إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكن الرفاهية، إن فلسفتها الحقيقية المعادة، إنما تجد قوة التعبير عن نفسها عن طريق الرغبة في القوة، وكلا هذين موروث عن المدينة الرومانية القديمة وعلى هذا النحو من الاضطراب الشامل والتمزق والعجز عن تحقيق رسالة مجتمع سليم ومن خلال فلسفات متضاربة كلها تنكر الله والدين والأخلاق - يجري المسلمون ويلهثون مقلدين تابعين تحت وهج الصورة البراقة من طابع الحضارة المترفة الذي يأخذ بألبابهم. ولو علموا لعرفوا أن الإسلام يعطيهم أول ما يعطيهم: العلم التجريبي الذي ينشئ الحضارة ولكنه يضعها في إطار الإيمان والقوة والعدل فلا تكون ظالمة للبشرية ولا متسطلة عليها ولا مفرقة بين الأجناس ولا معلية للعنصر، ولا مندفعة وراء الشهوات والترف والإباحة والتحلل. ولكنها تقيم الحياة على ميزان الحق والعدل حيث يجمع الإسلام بين المادة والروح والعقل والقلب ويقرر أن الرقي والتقدم ليس هو تقدماً مادياً فحسب ولكنه تقدم روحي ومادي وأن أي تجاوز بالحضارة أو العلم أو التكنولوجيا إلى الإفساد في الأرض أو الشر أو الظلم أو الإباحية إنما يشجبه الإسلام ويرفضه،والرقي مادي وروحي في دائرة الخير والحق والعدل.

ولقد حاول بعض المفكرين عندما اضطربت حضارة أوروبا أن يتجهوا إلى (عنصر روحي) يطعمون به الحضارة المادية ودعا بعض فلاسفتهم من أمثال (هرمان دي كاليرنج ورينيه جيبون وجان كان وموريس ماترلنك) إلى تحرير الحضارة والفكر

الغربيين من المادة الصارخة ولكنهم مع الأسف ضلوا الطريق وتخطوا الإسلام وهو أمامهم إلى دراسة آداب الهند والبحث في البرهمة والبوذية، فسقطوا في خطر جديد هو أشد خطراً من المادية الخالصة فإذا اجتمع إليها كان شراً مستطيراً. فقد كانت (الثيوصوفية) الشرقية بعيدة كل البعد عن أن تمد الحضارة الغربية المادية والفكر الأوروبي المنقسم على نفسه بين الليبرالية والماركسية - بزيت يضيء النفس الإنسانية، أو يحل أزمة الإنسان الغربي أو الفكر الغربي ذلك أن هذه الفسلفات قد نضب عطاؤها ولم تعد قادرة على أن تمد أحداً بشيء ما، فهي في ذاتها منحرفة عن عقيدة التوحيد، وإن كانت تدعو إلى الأخلاق المجردة التي لا تتحرك في دائرة الإيمان بالله الحق، وهي تؤله الإنسان وتدعو إلى عبودية الفرد وإلى التناسخ والحلول والاتحاد وكلها مذاهب مغرقة في الضلال، ولم يعد غير الإسلام وحده هو القادر على العطاء، ولكن أوربا ومن ورائها اليهودية التلمودية تحاذر ذلك تمام المحاذرة وتصد عنه صدوداً، أما البوذية والبرهمية فإنهما يلتقيان مع الوثنية اليونانية القديمة في أصول كثيرة ولها مع الفكر الغربي السامي أصول كثيرة وتشابه وتقابل وصلات منذ كانت الأفلاطونية الحديثه. أما الإسلام فإنه يتميز بالذاتية الخاصة والطابع المنفرد القائم على التوحيد الخالص، الذي ينكر كل زيوف التعدد والتثنية والشرك والإباحية والإلحاد.

وإلى الذين مازال الفكر الغربي يبهرهم يقدم التاريخ كل يوم صوراً وتجارب ووقائع لا تقبل النقض، يقدم الواقع الأليم الذي يكشف عن تخلخل هذا الفكر وفساد حضارته وهزيمة مجتمعه، واضطراب كيانه، لأنها بعدت منذ اليوم الأول عن الحق والإنصاف والعدل،في النظرة إلى الغير، وفي الاستعلاء بالجنس، وفي اعتبار الغرب مصدراً أوليا للبشرية والعالم كله متلقياً وثابتاً. فالتاريخ يبدأ من الغرب وينتهي في الغرب، وليس للعالم كله حساب كأنه لم تقم دول والحضارة كلها حضارة الغرب بدأها في اليونان وروما ثم عادت بعد ألف سنة إلى أوروبا وحدها، أما ما بين ذلك مما غير أمر البشرية فلا حساب له ولا ذكر، وهناك الدعوى المستطيلة

بعطاء العلم والحضارة الحديثة وكل وقائع التاريخ تثبت بطلان هذه الدعاوي وزيفها فلم يزل الغرب يصطرع بين الطبقات والدعوات وبين الفردية والجماعية، وبين الفوضوية والوجودية، ولقد كان يعيش في نظام الإقطاع ثم نطاق الإزقاء، ثم تحول إلى محاكم التفتيش وهو الذي أصر على ألا يبقى في أوروبا عربي أو مسلم واحد، وهو الذي شن الحروب الصليبية على الشرق، وحروب الفرنجة على الأندلس وحروب الفتح على أفريقيا وحروباً على الجزائر والمغرب، وطوق العالم الإسلامي كله في سبيل السيطرة عليه. وهو الذي عايش صراع القوميات بعد صراع المذاهب الدينية، ثم لم يلبث أن واجه صراع الأيدلوجيات، بعد صراع القوميات. وهو الذي وقع تحت سيطرة الآلات وأخطار الحرب العالمية والذرة بعد أن عجزت الأيدلوجيات أن تقيم له مجتمعاً ناجحاً وعجز العلم أن يقدم له الرحمة والإخاء والحب.

أين هذا من الإسلام الذي حرر الإنسان من الوثنية وحرر البشرية من العبودية وأقام مجتمع الإخاء الإنساني وربط بين الناس جميعاً بوحدة الجنس البشري «الناس كلهم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لأبيض على أسود ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى» وهو الغرب الذي سقط في دوامة امبراطورية الربا التلمودية اليهودية، وسقط في أحضان الإباحة والتحلل، حتى كتب (رومان رولان) بعد سقوط بلاده تحت سنابك جحافل النازية بعد الحرب العالمية الثانية (إن الأمم الضعيفة الأخلاق الماجنة التفكير -في أدبها وحياتها- يتسرب إليها الخمول والاستسلام، تسرب الانحلال في الشجرة النخرة فإذا لم تتلاف الأمم هذا الداء الوبيل قاضية على جراثيمه الفتاكة سارت إلى الانقراض على ما يذكر التاريخ، وأن الضعف الأخلاقي والأدب الماجن المستهتر والانغماس في أقذار الدعارة كانت السبب الأهم في انهيار صولتها وانطفاء نورها وانطواء أعلامها في ساحة الجهاد) ولقد خطت أوروبا والغرب خطوات أشد عنفاً في مجال الإباحة والانحلال بعد الحرب الثانية تحت ألوية الوجودية وشعارات الفكر الحر.

وسيطر الطابع المادي في مجال الإنسانيات والنفس والاجتماع والأخلاق وأصبحت

النظرة إلى الإنسان تتركز على أنه حيوان، تنطبق عليه التجارب التي تجري على الحشرات والكلاب.

وقد كبر العقل وجمد القلب وخفت الضمير وغاضت الروح، وتدافعت ثورات الشباب وكلها غاضبة رافضة لمجتمعات بلادها مندفعة إلى فلسفة الهيبية بعد فلسفة الوجودية، من سيئ إلى أسوأ إلى أشد سوءاً، وما تزال قوى الشر تتلاعب بالبشرية وتحاول أن تحطم مقومات الإنسان فيها لتردها إلى الحيوانية وإلى الغابة وإلى العصور الحجرية.

وأسوأ ماتكشف عنه الإحصائيات: انتشار الخمر وانتشار المكيفات وأسوؤها (المرجوانا) وأشد منه دلالة على الانحلال سقوط الغيرة عن الرجل تجاه زوجته وعرضه، وتلاشي عاطفة الرحمة بين الرجل ووالديه، أمه وأبيه، وتحطم العلاقة الاجتماعية في داخل الأسرة، وقيام فكرة الرأي الحر، وإسقاط الوصاية على الأبناء وكراهية الأب والاندفاع نحو القول بأن الأسرة ليست الفطرة وأن الجريمة هي الفطرة على ما تقول فلسفات اليهوديين: دور كايم وليفي بريل وهدف هذا كله هو تمزيق كيان المجتمع والحيلولة دون تكامله أو اجتماعه على وحدة هدف أو وحدة فكر، وخلق اتجاهات فكرية متعددة ومتصارعة بقدر عدد أفراد المجتمع نفسه حتى تتلاشي القيم والمقدسات والأخلاق والروابط جميعاً.

أما الإسلام وأما الفكر الإسلامي فإنه يمثل نقطة الضوء الباقية في العالم كله، في إطار الظلام الحالك، ومنها سينطلق النور مرة أخرى إلي البشرية كلها ليردها إلى الحق، ولن تنتصر أحلام الصهيونية في السيطرة على العالم لأنها تتحرك ضد تيار الإيمان والعدل والفطرة والعلم والحق جميعاً، وسوف تنهار دعواها تحت سنابك خيل الله.

(٣٦)

نظام الإسلام

(القانون - السياسة - الاقتصاد)

يمثل نظام الإسلام منهجاً متكاملاً لتنظيم الحياة عقائدياً مع الله،وقانونياً مع الناس،وسياسياً مع الدوله، واقتصادياً مع العمل بما يستوعب أطراف الحياة كلها وحركتها، يستمد هذا المنهج أصوله من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ويلتمس أصول الشريعة الإسلامية المنزلة، ويتمثل هذا النظام في أصول عامة وخطوط رئيسية وأطر ثابتة على مر الأيام من شأنها أن لا تعوق: (الحركة أو التقدم أو التغيير) التي هي سنة الحياة في دورتها المتصلة، التي لاتتوقف، كما أنها لاتتعارض مع اختلاف البيئات والأزمنة، فهي تحمل صفة الثبات في إطاراتها العامة وتسمح بالحركة والتغير في حركاتها داخل هذه الإطارات المرنة الواسعة القادرة على تقبل الإبداع والإرادة البشرية وحرية التصرف، وهي متكاملة جامعة لشئون الحياة كلها في مختلف المجتمعات والأمم، وهي أمور لاتخرج عن علاقة المرء بربه (العبادات) أو علاقات الأفراد ببعضهم (المعاملات) و (الأخلاق) من أجل هذا يضم نظام الإسلام الفكر القانوني والفكر السياسي والفكر الاقتصادي،فالشرعية الإسلامية اقتصاد وقانون وسياسة وعلاقات دولية والنظام الإسلامي هو نظام جامع أطرافه:

١- النظام الاقتصادي في مجال المعاملات المالية والتجارية يختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً عن النظامين السائدين: الرأسمالية والماركسية.

٢- النظام السياسي في مجال تكوين الدولة ونظام الحكم ويختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً عن النظامين السائدين الديمقراطي والشيوعي.

٣- والنظام القانوني في مجال المعاملات العاملة،ويختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً

عن القانون الغربي الوضعي سواء أكان شرقياً أم غربياً، وهو إلى هذا نظام متكامل في شئون الفرد والمجتمع، والعبادة والعمل، والروح والمادة، والنفس، دون انفصام يتحرك كله في إطار أخلاقي شامل قوامه مراقبة الله وتقواه.

ولقد سبق النظام الإسلامي من حيث ظهوره تاريخياً ظهور الأنظمة الحديثة، وقد جاء علامة على بدء رشد البشرية الفكري وسقوط الأنظمة العبودية الفردية والوثنية والمادية والإباحية التي كانت تمارسها مختلف الامبراطوريات القديمة في فارس والهند ومصر وروما حيث انتهى عصر بكل مقوماته وأوضاعه،وألقى إلى البشرية الضوء الكاشف الممثل في الإسلام والقرآن: ليخرج الناس من الظلمات إلى النور،ومن ثم قضى على الوثنية المتمثلة في المجوسية والصابئة والعبودية الممثلة في الفرعون والقيصر، وسقطت دولتا الفرس والروم وخرجت هذه المنطقة الإسلامية من براثن استعباد ألف سنة للروح حول البحر الأبيض وأسلمت المنطقة الواسعة من حدود الصين إلى حدود فرنسا وجهها لله في عرض القارات الثلاث لتقيم نظام الإسلام وشريعة القرآن.

ومن عالم الإسلام امتدت أشعة العلم والشريعة معاً إلى أوربا،فأحدثت أثارها البعيدة المدى في ضرب القانون الروماني القديم ومفاهيم العبودية البشرية وأثارت روحاً جديدة من الفهم للحق والعدل الربانيين اللذين جاءت بهما شريعة السماء وتوالت بهمارسالات الأنبياء وكانت المسيحية قد سبقت الإسلام فأدالت من قسوة الجبارين وفتحت القلوب إلي كلمة لا إله إلا الله، ثم جاء الإسلام للعالمين خاتماً للرسالات. ﴿ قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .

منذ جاء الإسلام أعادت أوربا تشكيل ثقافتها وقانونها ومفاهيمها في مختلف مجالات الفكر،من أهم ذلك أن أخذت أوربا أغلب نصوص الشريعة الإسلامية فجعلتها أساساً لقانونها الوضعي الحديث، وكان فقه مالك هو صاحب الحظ الأوفى لقانون نابليون، غير أن الفكر الغربي الذي ظل مقيماً على وثنيته اليونانية لم يأخذ حدود الإسلام في الربا والبغاء،وبذلك ظل القانون الوضعي ناقصاً أهم جوانب

الشريعة وهي الحدود والضوابط التي قصد بها الشارع الأعظم حماية الفرد وحماية المجتمع والأسرة.

بل إن صيحة لوثر وكالفن في تحرير النصر الديني من وساطة رجال الكنيسة لم يكن إلا من منهج الإسلام، كذلك فإن صيحة الحرية والإخاء والمساواة كانت استمداداً من الفكر الإسلامي، غير أن الجولة الاستعمارية الواسعة التي تمكن خلالها الغرب من السيطرة على (عالم الإسلام) في ظل مرحلة ضعفه وتخلفه قد عملت على حجب المسلمين والعرب عن نظامهم الأصيل، وفرضت عليهم أنظمة سياسية وقانونية واقتصادية مستمدة من النظام الغربي الرأسمالي سواء في مجال الحكم أو الاقتصاد أو القضاء والتعامل وحجبت الشريعة الإسلامية تماماً.

كذلك فرضت عليهم نظاماً وافداً في مجال التربية والتعليم أرادت به أن تخرج طائفة من المؤمنين بالنظام الغربي السياسي والاقتصادي والقانوني، ومن ثم أصبح الذين أعدهم المستعمر لحكم البلاد متابعين لنظام مقرر موضوع دون أن تكون لهم إرادة أو قدرة على حتى مجرد التفكير في تغيير الواقع الذي فرض نفسه بحكم سيطرة الاستعمار وقوى الاحتلال.

وهكذا وقع العالم الإسلامي كله ما عدا أجزاء قليلة جداً (كالجزيرة العربية وأفغانستان) تحت سيطرة النظام الغربي الرأسمالي الربوي وفي هذه الأثناء وضعت القوانين الجنائيه والدستورية والدولية على النحو الذي يدعم هذا الاتجاه ويستبعد الشريعة الإسلامية استبعاداً تاماً،وكان هذا أخطر ما حققه الاستعمار مما لاتزال آثاره باقية وعسيرة على التغيير،غير أن النتائج الكثيرة التي ترتبت على القبول بالقانون الوضعى قد دعت المصلحين إلى المناداة بالعودة إلى الشريعة الإسلامية وبالفعل فقد تقرر في عدد من دساتير المسلمين في الفترة الأخيرة أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً أساسياً للتقنين ومن بينها مصر،ومن شأن هذا الاتجاه أن يصلح كثيراً من أخطاء المواد المعارضة لطبيعة هذه الأمة من ناحية دينها وخلقها وهو ما نطمع في أن يكون خطوة جديدة على الطريق وخاصة بالنسبة لقانون

العقوبات في جرائم الزنا وهتك العرض.

خصائص النظام الإسلامي

أقام النظام الإسلامي دعائم راسخة لإقامة حياة اجتماعية في دولة مثالية نموذجية تتكفل بتنظيم علائق الناس بعضهم ببعض وبالسلطة الحاكمة بما يحقق صيانة الأمن والحقوق وإقامة العدل في المجتمع والمحافظة على الكرامة الإنسانية؛وقد استوفى ذلك العادة في نطاق الأسرة الخاصة وفي نطاق الجماعة العامة مع صيانة الحرمات والمحافظة على الكرامة الإنسانية والالتزام الأخلاقي في السلوك والمسئولية الفردية في العمل.

ويقوم النظام الإسلامي على أساس أن الحقوق جميعها من الأصل منحة منحها الشارع للعباد،فالعمل أساس الحياة ومنها التعاقد يستعمل في حدود الخير العام، والملكية استخلاف ونيابة أي وظيفة، وهي مقيدة وموجهة لخدمة الجماعة،والتضامن الاجتماعي مسئولية الفرد والدولة وأساس وحدة الجماعة الإسلامية،وتحريم الربا أساس المعاملات، ذلك التحريم القاطع الذي خلص به الإسلام البشرية من مصاصي الدماء، والوراثة أساس وعن طريقها تنتقل المملوكات بالوراثه أو الوصية بما لايزيد عن الثلث،وذلك لحفظ كيان الأسرة أما باقي المملوكات بنسبة الثلثين فتنتقل بالجبر داخل الأسرة، وفي الإسلام أعدل نظام للتوريث،وأساس الشريعة ثلاثة: العدالة والطابع الإنساني والمصلحة، وباعتبارها ديناً فإن ضمير المتدين يخضع لها، وهو يعلم أن أعماله تحت رقابة الله وبذلك جمع الإسلام بين القانون والأخلاق بينما لم تستطع الشرائع الغربية أن تجمع بينهما،وقد جعلت القانون عقوبة والأخلاق واجباً. والإسلام لايعاقب على الجرائم الشخصية إلا إذا أعلنها صاحبها وكشف أمره منها فإن العقوبة حينئذ تكون على الإعلان،ويكون في الإعلان تحريض على الرذيلة أو دعوة إليها «من استتر فهو في ستر الله ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد» وأحكام الحدود والقصاص والربا والزكاة والعبادات من الكليات الجامعة التي تدخل دائرة العدالة

والفضيلة وهي ثابتة في كل الأرض، وكذلك المساواة والكرامة والإنسانية والحرية المضبوطة كل هذه القواعد الكلية يجب تطبيقها في كل الأرض،ويختلف التطبيق باختلاف البيئات،وكل ما شرعه الإسلام كانت المصلحة ثابتة فيه وما يكون فيه الضرر مؤكداً يكون محرماً.

أولاً: نزل القرآن بشريعة أبدية لكل الأجيال، عالمية لكل القارات، سامية تشد البشرية دائما إلى أعلى في أسلوب مجمل يترك للناس التفصيل فيما يلائم حياتهم ما داموا في حدود أوامره ونواهيه، وقد احتوى القرآن الكريم على متن الأحكام الإسلامية كلها في الجملة، ثم جاءت السنة النبوية فأوضحت ذلك وشرحته وبينته للناس ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ وقد وردت الأحكام في القرآن مجملة بحيث تسمح للفقهاء في مختلف العصور وضع التطبيقات والمسائل الفرعية ضمن الأساس الذي رسمه القرآن، وقد بذل الفقهاء الجهد والطاقة في سبيل الوصول إلى الحق والصواب والعدل والمصلحة.

ويقوم النظام الإسلامي على أسس ودعائم:

أولاً: تحرير العقل البشري من رق التقليد والخرافات وذلك عن طريق العقيدة القائمة على النظر والاستنتاج من دلائل الواقع المشهود، ولذا كافح الإسلام الوثنية في شتى صورها لأنها انحطاط في العقل وقصور في البصيرة.

ثانياً: إصلاح الفرد: روحياً ونفسياً وخلقياً وتوجيهه نحو الخير والإحسان والواجب كيلا تطغى شهواته وأطماعه على عقله وإرادته، والوسيلة التي يعتمدها الإسلام لتحقيق هذا الأساس أمران:

١- الإيمان بالثواب والعقاب في الآخرة.

٢- ممارسة العبادة وأداء فروضها الغيبية كما شرعها الله كي يبقى الإنسان متذكراً لخالقه ولأوامره باستمرار، فكلما أغراه مطمع فاسد أو حدثت له غفلة من ربه أحدثت له العبادة تذكيراً فلا تسخره الغفلة إلى حيث يغرق في محيط الأهواء.

والأطماع والشهوات.

ثالثاً: صيانة الأمن والحقوق وإقامة العدل في المجتمع،ومن ذلك صيانة الحريات المعقولة والكرامة الإنسانية، ولتحقيق هذا الأساس الثالث جاء الإسلام بنظام قانوني حقوقي يتضمن شريعة كاملة شاملة لجميع الأسس القانونية اللازمة لإقامة حياة اجتماعية في دولة مثالية نموذجية، شريعة كافية تتكفل بتنظيم علاتق الناس بعضهم مع بعض وبالسلطة الحاكمة وعلاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى.

وهكذا قام الإسلام على ثلاث دعائم:

١- عقيدة عقلية متحررة من التقليد والخرافات.

٢- عبادة روحية تطهر النفس وتضبط سلوك الإنسان وتضمن رقابته على نفسه ومحاسبته لها.

٣- نظام قانوني قضائي يصون الحقوق الخاصة للأفراد والحقوق العامة للجماعة، وهذا هو المراد اليوم عندما يقال: إن الإسلام دين ودولة.

ثانياً: تجمع الشريعة الإسلامية بين عنصري الاستقرار والتطور، وتوفق بينهما توفيقاً دقيقاً بديعاً فنياً فبينما نجد في هذه الشريعة نصوصاً تنزل إلى التفصيلات وتنأى عن التأويل والتغيير والتبديل، كنصوص المواريث والحدود والكفارات نرى نصوصاً أخرى تبيح للشرع أن يبتدع أحكاماً في غير الحالات التي جاءت بها النصوص القطعية ما دام الأمر يحقق مسألة عامة للمسلمين،وأظهر مثل لهذه النصوص المرخصة: المصالح المرسلة،والاستحسان بالضرورة،وقياس ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص، وتكاد تكون الشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة التي تطورت بوسائل داخلية دون أن تستعير نصاً من خارج نصوصها أو حكماً غير مستنبط من أحكامها، وكل القوانين والشرائع تطورت بوسائل خارجية ما عدا الشريعة الإسلامية.

ثالثاً: يمتاز التشريع الإسلامي على التشريعات الوضعية بالصفة الدينية

والأخلاقية ويتميز على القانون الوضعي بميزات متعددة:

١- يعتمد على أساس العدالة والمساواة بين جميع الناس (بينما التشريع الروحاني والغربي يميز بين الحاكم والمحكوم والشريف والضعيف).

٢- تلبية الشريعة الإسلامية لكل عصر.

٣- مراعاة مصلحة الجماعة ومصلحه الفرد دون طغيان إحداهما على الأخرى

٤- مراعاة التقاليد والأعراف التي تعبر عن تطوير المجتمعات في حدود التشريع الإسلامي فيما لانص فيه.

٥- السعي إلى تهذيب الفرد على أسس من الأخلاق.

٦- معاملة المدين معاملة إنسانية بإمهاله إن عجز عن وفاء دينه ﴿ فإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ .

٧- الأصل في الأشياء الإباحة ﴿ وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً منه﴾ .

٨- الأصل في الأشياء البراءة «كل مولود يولد على الفطرة».

٩- إطلاق إرادة الإنسان واحترام تصرفاته «جعل للبالغة العاقلة تمام الولاية على أمر زواجها ولم يجعل لوليها عليها سلطاناً» ومنع الحجر على السفيه وذي الغفلة وعلى المدين تكريماً للإنسان فكل مالك حر فيما يملك، والمدين إذا كان دينه يستغرق ماله فلا زكاة عليه.

١٠- التقادم في نظر الشريعة الإسلامية غير مسقط للحق ولا مكسب كما هو في حكم القوانين الوضعية وتبقى الحقوق المتقادمة في الإسلام عالقة بالذمة ولا يوجد في الإسلام (قيدت ضد مجهول) أو مال يفقده صاحبه.

١١- لكم في القصاص حياة: إن الإسلام يجعل العقوبة في جرائم الدماء لشفاء غيظ المجنى عليه فيقول الله تعالى: ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً

فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ أعطاه الله حق القصاص وحق العفو.

١٢- الزكاة ونفقات الأقارب الفقراء: وهما النظامان الإنسانيان اللذان حققت بهما الشريعة الإسلامية تكفل الغنى للفقير ولم تترك الغنى لجشعه والفقير لبؤسه.

١٣- تحريم الربا: ذلك التحريم القاطع الذي تخلص به الإسلام من طفيليات البشرية ومن شرها وشرهها إلى امتصاص الدماء.

١٤- العدل والمساواة في الأحكام «من قبلكم كان الشريف إذا سرق تركوه وإذا كان ضعيفاً أقاموا عليه الحد»: العدل في القريب والبعيد ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ العدل في العدو والصديق ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا: اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

١٥- قررت الشريعة أن المحرمات ليس منها بحاجة لازمة من حاجات الحياة الإنسانية الخمر. القمار. الزنى. الغش الخيانة. الكذب. الغدر، النفاق، قتل الأبرياء، السطو على الأموال سرقة أو غصباً، الظلم، إلى غير ذلك من المحرمات كل ذلك آفات تفسد الحياة الإنسانية وتنحرف بها عن خطها الصحيح الذي يليق بكرامة الإنسان.

١٦- لكل حكم في الشريعة الإسلامية مظهران: مظهر رباني ومظهر قضائي.

١٧- أحكام الشريعة على اختلاف أنواعها لها صلة وثقى بالأخلاق لهذا حثت على الفضائل من الصدق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والإحسان وترك الرذائل من الظلم والغدر والجبن والكذب والفسق وأكل أموال الناس بالباطل.

١٨- الشريعة الإسلامية مثالية وواقعية معاً تبيح المحظورات عند الضرورات مثالية في أنها تقوم على الدين والخلق فلا تجافيهما ولا تجعل للواقع سلطاناً إلا من حيث يتفق مع الدين والخلق ولايخرج عن نظامهما، وواقعية من حيث إنها لم تهمل العادات والنظر إليها ولم تغفل عن الأعراف العامة الصحيحة ولا عن العلاقات

والمعاملات بين الأفراد، وعن كل ما يساهم في تكوين وحدة المجتمع وإحكام تماسكه.

١٩- حرمت الربا لأنه معاملة جائرة ضارة، حرمت زواج المقت (زوجة الأب) وزواج الشغار (مبادلة) وأصلحت نظام البيوع فنفت منه الضرر والخداع والغش.

٢٠- قررت إباحة المحظورات عند الضرورات، وقامت على رفع الضيق ورفع الحرج ﴿ ماجعل عليكم في الدين من حرج ﴾ وجعلت الأصل في الأشياء الإباحة وقامت على قواعد روعي فيها نفي الضرر والتخفيف على الناس.

رابعاً: عندما نحاول أن نتعرف على الروح العامة للنظام الإسلامي نجد: العناية بالفرد وكرامته وتوجيهه وتربيته كالعناية بالجماعة، فالتشريع الإسلامي يرمي بطبيعته إلى توفير السعادة للفرد والفرد سيبقى دائماً هو الغاية التي يسعى إليها كل تشريع وإذا غلبنا مصلحة الجماعة فليس ذلك في الواقع إلا لكونها تتضمن في نفس الوقت مسألة الفرد.

٢- السعي وراء العدالة المطلقة عند المساواة وتظهر هذه النزعة في نظرية الالتزامات في صورة المساواة بين المتعاقدين.

٣- الابتعاد عن كل ما من شأنه خلق القلق والمنازعات في المعاملات.

٤- إحقاق الحق وإبطال الباطل ورد الأمانات.

٥- الالتزام بالعقود الصادرة عن حرية واختيار.

٦- الشورى في الحكم والعدل فيه واعتباره تكليفاً لخدمة الأمة بأمانة لامغنماً.

٧- تفاوت التكليف للمكلفين بحسب طاقاتهم مالياً وعملياً.

٨- وجوب التوازن بين الحقوق والالتزامات.

٩- وجوب التنمية الاقتصادية باستمرار لدرء الفقر.

١٠- منع المفاسد بمختلف أنواعها.

١١- إقامة الزواجر الرادعة بالقدر الكافي للتأديب.

١٢- وضوح روح التسامح في قبول التغير والتبدل في الوسائل دون المقاصد.

١٣- يكون الحكم إلزامياً في كل ما تكون مخالفته مناقضة للمبادئ الإنسانية أو انحطاطاً عن مستواه الأدنى، ويكون اختيارياً في فضائل الأعمال فلا يسوغ الشرع الإلزام فيه «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا به ما استطعتم».

١٤- إقامة التوازن في الحقوق بين الفرد والجماعة مثل منع التعسف في استعمال الحق الخاص ومنع الاحتكار في التجارة.

١٥- موضوعية الأحكام وتجردها من كل عصبية أو عاطفة خاصة سوى فكرة العدل والحق المطلق ومرونة المصادر والأصول.

١٦- الاجتهاد بمثابة الروح للشريعة الإسلامية ومنبع الحياة لفقهها.

إقامة الحدود

يقول الإمام ابن تيمية: إن إقامة الحدود هي عبادة الحاكم،فإقامة الحدود عبادة، وكل من لم يقم الحدود فقد تخلى عن هذه العبادة، ويرى الفقهاء أن الرأفة بالمذنب الذي يقام عليه الحد برهان نقص الإيمان ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ والهدف من إقامة الشريعة الإسلامية ليس الانتقام من الجاني وإنما ردعه عن الشر وكفه عن الأذى حتى لايتمادى في العدوان،ولهذا ذهب كثير من الفقهاء إلى أن المجرم إذا تاب توبة نصوحاً قبل أن تمتد إليه يد القضاء سقط عنه الحد، قال ابن قيم الجوزيه «إن المذنب إذا تاب توبة نصوحا قبل رفعه إلى الإمام سقط عنه الحد فإن رفع إلى الإمام لم يسقط عنه الحد يتخذ ذلك ذريعة إلى إسقاط حدود الله، ويهدف أساساً إلي ردع من ينزعون إلى تقليد المجرمين فإنهم إن شاهدوا ما حل بهم من عقاب أليم، أشفقوا أن يقعوا في مثل هذا العقاب ﴿ ولكم في القصاص حياة ياأولى الألباب ﴾ ويشترط الإسلام في إقامة الحدود أن تكون الجناية ثابتة ثبوتاً

قطعياً لاشبهة فيه، وأن يكون الجاني مكلفاً مختاراً إلى شروط أخرى عديدة، والرسول قد أوصى بالاحتياط ما أمكن «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة، وقد أسقط عمر الحد عام المجاعة، وفتحت الشريعة باباً للعفو عن جريمة القتل إذا وافق أولياء الدم على أن يتولى الحاكم في هذه الحال تعزير المتهم بما يناسب جريمته حتى لايتكرر منه العدوان،وأباح للمجرم في جريمة الزنا إذا لم يكن عليه شهود أن يرجع عن اعترافه وحنيئذ يسقط عنه الحد، واشترط في إثبات جريمة الزنا شروطاً قل أن تتحقق في واقع الحياة.

وفي السرقة يجرى الحكم بقطع يد السارق،حماية للجماعة ومنعاً للغير من ارتكاب السرقة اعتباراً بما وقع للسارق المقطوعة يده من شدة وحزم، وهذه العقوبة لم تطبق في خلال نحو قرنين من الزمان إلا في أيد أقل من القليل «والذين قطعوا في الإسلام بالسرقة ستة فقط» وقد قصد الشارع إلى إتلاف آلة الجريمة، ولا سلطة لغير الشارع في تكييف عقوبة السرقة، ولولي الأمر تغيير عقوبة السرقة أو تكييفها حسب الظروف والمقتضيات.

وعمر لم يقطع يد السارق في عام المجاعة،لأنه رأى أن هذه السرقة كانت لحفظ الحياة لأن المضطر مأذون بالأخذ فلا يكون سارقاً.

ولقد قامت الحدود في الإسلام على أساس: أن المحرمات التي نهي الشارع عنها يجب اجتنابها كلياً وبتاتاً إلا مااستثنته نصوص عامة من حالات الاضطرار والإكراه ووجهة الشريعة الإسلامية في ذلك أن المحرمات ليس منها بحاجة لازمة من حاجات الحياة الإنسانية، ومن هنا فإن الحدود هي التي تحمى المجتمع الإسلامي، وقد حافظ الإسلام على أمور خمسة: الدين والعقل والجسم والمال والعرض. وجعل الإسلام على رأس كل من هذه الأمور حداً من الحدود:

١- بالنسبة للعقل: حرم الإسلام شرب الخمر وأمر باجتنابها وجعل الحد على شرب الخمر ثمانين جلدة.

٢- بالنسبة للمال: حرم الإسلام السرقة: وحدها قطع اليد.

٣- بالنسبة للجسم حرم الإسلام الزنا وجعل حدها مائة جلدة بالنسبة لغير المحصن والرجم بالنسبة للمحصن.

٤- حد العرض: حرم الإسلام القذف.

٥- حد الحرابة: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ .

٦- حد الردة: وذلك لقول رسول الله ﷺ : «من بدل دينه فاقتلوه».

ولقد قرر علماء الشريعة أنه لابد من إعداد المناخ المناسب في المجتمع الإسلامي لتطبيق الحدود، وذلك بتنقية المجتمع من الوسائل المشجعة على المحرمات، فالشريعة نظام متكامل يتصل بتربية النفس الإنسانية وإعدادها أولاً بتوفير وسائل العيش والحياة على النحو الذي يحمي من السرقة والزنا ثانياً، ثم يجرى تطبيق الحدود ضمن تنفيذ المنهج الإسلامي نفسه في الحياة والمجتمع، وليس هناك طريق لحماية المجتمع من أخطار الغش والخيانة والسطو على الأموال سرقة أو غصباً إلا بتطبيق حدود الله، والإسلام لايحارب المحرمات بالحدود الشرعية وحدها وإنما تعتبر هذه الحدود نوعاً من الزواجر والعقوبات التي تأتي إلى جانب تعليمات أخرى يقيمها الدين في النفس الإنسانية ثم منع المثيرات في المجتمع، ولا ريب أن هناك فارقاً عميقاً بين الشريعة والقانون، فالقانون من عمل البشر بينما الشريعة من وحي الله، ولذلك فإن نظرة القانون نظرة بشرية واحترام الناس له احترام خوف، بينما الأمر يختلف بالنسبة للشريعة، فهي روح ومادة، وهي تعاقب على الذنب كما تثيب على الإحسان والقانون لايرى ما تراه الشريعة من تحريم الخمر أو الزنا أو الربا فلا يعاقب القانون في الخمر إلا من يعربد في الشارع أما من يشرب الخمر في بيته فلا يعاقب عليه، وكذلك الزنا فإن القانون لايعاقب عليه إلا على الاغتصاب أما ما كان منه عن

تراض فلا يعاقب عليه وكذلك الأمر في الربا فإنه مطلق القيد.

أما الشريعة الإسلامية فإنها تستهدف حماية المجتمع من كل الأخطار التي من شأنها أن تفسد الأنساب أو الأسرة أو الحياة الإنسانية أو المال،ولا ريب أن في تطبيق الشريعة وإقامة الحدود ما يحمى الأمة من كثير من الأخطار وفي أكبر خطرين يهددان المجتمع الإسلامي اليوم لا سبيل إلا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وهما السرقة والزنا، ولا ريب أن مظاهر الانحراف التي تراها الآن لم تكن إلا نتيجة لتطبيق القانون الوضعي الذي جاء مع الاستعمار والاحتلال، وقد اقتبست هذه النظم من قوانين تختلف مع أخلاقنا وأعرافنا وقيمنا ومقاييسنا للفضيلة والرذيلة.

وهي تعبر عن مجتمعات تختلف عنا كثيرا،ومن المسلم به أن القانون في أمة من الأمم إنما يستمد مواده من قيم المجتمع وعاداته وأعرافه،ولما كانت قيم المجتمع الإسلامي غاية في الرعاية للفضيلة فإن هذه النظم تتعارض مع طبيعة هذا المجتمع وتصبح عاجزة عن أن تستجيب له.

في مرآة الغرب

وفي الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تحارب ويحول الاستعمار الأجنبي دون تطبيقها في بلاد الإسلام كانت دوائر الغرب تتحدث عن الشريعة الإسلامية ومعطياتها في تقدير كامل وقد ألقى (عمر لطفي) في مؤتمر المستشرقين في جنيف بحثاً عام ١٨٨٤ عن الدعوى الجنائية في الشريعة الإسلامية أعجب به الباحثون (بوند جاردو) وشار ميرمير الذي قال: اسمحوا أن أنصح لجميع المسلمين في شخصكم أن لايطلبوا مستقبلهم في تقليد النظامات الأوربية والمسيحية فاطرحوا هذه النظامات وأمعنوا النظر في مشهد ما نحن فيه من الفوضى الخداعة واطلبوا من دينكم الذي هو أسمح دين وأكثر مساواة مفتاح مستقبلكم ولا تفضلوا أن تستعيروا منا إلاالاكتشافات العلمية، وقالت المجموعة الشهرية لمقارنة الشرائع: يجب

أن يكون من سعد الطالع أن مشترعاً عربياً من قدرة عمر لطفى يتفضل بأن يأخذ على عهدته تعميم معرفة تلك الشريعة العسيرة المنال في فرنسا بأن عرض علينا قواعد المرافعات الجنائية الجاري العمل بها على مذهب أبي حنيفة وقال فرنان راجين: إنه يكاد الاعتقاد السائد في فرنسا أن حرمة المسكن لاتشغل في تقنين العالم الإسلامي إلا مكاناً حرجاً بينما أن الشريعة الإسلامية تحرم مثل ذلك الانتهاك تحريماً مطلقاً، ويذكر المؤلف أن الإسلام يحرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا في أربع حالات: الأولى: إذا كان مرخصاً له الدخول فيه عادة. الثاني: إذا دعى إليه فإن الدعوى تساوي الإذن بالدخول. الثالث: في حالة طريق أو فيضان أو ارتكاب جريمة. الرابع: إذا كان البيت مفتوحاً للأفراد كالحانوت والحمام، وكل من ينتهك حرمة مسكن يستحق التعذير والتعذير هو عقاب (الكل جريمة ليس لها حد).

كذلك كشفت الأبحاث الإسلامية التي أعدت في البلاد الغربية عن كثير من معطيات الشريعة الإسلامية في مجال القانون العام.

٢- ومن ذلك ما توصل إليه الإمام ابن القيم بما يسمى (نظرية المنفعة في أعمال الفضولي) ومبدأ حرية التعاقد ومبدأ تقرير قيمة الشهادات وعدم تجزئة الأفراد وفسخ عقود الديون ومبدأ تغير الأحكام بتغير الزمان والأمكنة والأحوال، وتلك قوانين عرفها الغرب في السنوات المائة الماضية بينما كشف عنها ابن القيم قبل ذلك بأكثر من ستمائة عام.

٣- كما كشف في العصر الحديث عما توصل إليه الإمام الشاطبي مما يسمى (نظرية التعسف في استعمال الحقوق) وقد أثبت الدكتور محمد فتحى في أطروحته الفرنسية بعد تحليل وتفصيل دقيقين أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد منه فاعله إلا الإضرار بالغير.

وقد علق العلامة كبهلر العالم القانوني على هذه الرسالة فقال: لقد كان العلماء الألمان يتيهون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها في

القانون المدني الألماني منذ عن ١٧٨٧م أما وقد ظهر بحث الدكتور محمد فتحى وأفاض في شرح هذا المذهب عند رجال التشريع الإسلامي فقد ظهر أن رجال الفكر الإسلامي قد تكلموا طويلاً فالأجدر بالعلم القانوني الألماني إن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون. وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية.

٤- ومن ذلك قول الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر الحقوقيين عام ١٩٢٧: إن البشرية تفخر بانتساب رجل كمحمد إليها إذ أنه رغم أميته فقد استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد الناس لو توصلنا إلى قمته بعد ألفى عام.

وقال الدكتور أتريكو أنسياتو: أن الشريعة الإسلامية تفوق في كثيرمن بحوثها الشرائع الأوربية بل هي التي تعطى العالم أرسخ الشرائع ثباتاً ويقول الأستاذ لأمبير الفرنسي: إن الكتب والمؤلفات الموضوعة في الشريعة الإسلامية كنز لايفنى ونبع لاينضب،وأن خير ما يلجأ إليه المصريون في العصر الحاضر هو البحث فيها حتى يعيدوا لمصر ولبلاد العرب هذا المجد العلمي.

ويقول سانتلانا في كتابه عن الفقه الإسلامي المطبوع في تونس عام ١٨٩٩: إن الفقه الإسلامي يكفى المسلمين في تشريعهم المدني ألم نقل إن في ذلك كفاء للإنسانية كلها.

وقال المستشرق فمبري: إن فقهكم الإسلامي واسع جداً إلى درجة أني أقضي العجب كلما فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمنكم، وقال هوكنج الأمريكي أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد: إني أشعر بأني على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي على تجميع المبادئ اللازمة للنهوض، وأن نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار أحكام منسقة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية، إن نظام الإسلام ذو قابلية للنمو والتطور بل إنه ليفضل في هذه الناحية كثيراً من النظم المماثلة.

وقد انتقل هذا التقدير العالمي من أساتذة القانون الأوربيين بعد ذلك مرحلة أخرى حين عقد مؤتمر القانون الدولى المقارن في لاهاي الهولندية عام ١٩٣٧ الذي قرر مايلي:

أولاً: اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام.

ثانياً: اعتبار الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور.

ثالثاً: اعتبار التشريع الإسلامي قائماً بذاته وليس مأخوذاً من غيره (وهذا القرار ينفى الاتهام الذي ردده خصوم الشريعة الإسلامية والمستشرقين من أنها تأثرت بالقانون الروماني).

٢- ثم أصدر المجمع الدولي للحقوق المقارنة في كلية الحقوق بجامعة باريس المنعقد تحت اسم (أسبوع الفقه الإسلامي) عام ١٩٥١ قراراً جاء فيه:

أولاً: إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لايجارى فيها.

ثانياً: إن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوي على ثروة من المفاهيم والأصول الحقوقية هي مناط الإعجاب وبها يتمكن الفقه الإسلامي أن يستوعب لجميع مطالب الحياة والتوفيق بين حاجياتها.

وقال نقيب المحامين السابق في باريس: أنا لاأعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلاحيته أساساً تشريعياً يفى بحاجات المجتمع العصري المتطور وبين ما نسمع الآن من محاضرات ومناقشات تثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادئ، وقال مقرر المؤتمر إن المبادئ الإسلامية قد سمحت للحقوق بأن تستجيب للرغبات التي تتطلبها الحياة الحديثة،وأن المناقشات أوضحت بجلاء ما للمبادئ الإسلامية من قيمة لاتقبل الجدل وأنها تضم أشرف النظريات القانونية والفن البديع وكل هذا يمكنها من تلبية جميع حاجات الحياة العصرية.

٣- وفي عام ١٩٦٨ عقد المؤتمر الدولي للقانون والتنمية الاقتصادية الذي قرر: اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً لجيمع التشريعات العربية لما امتازت به من مرونة كبيرة.

(٣٧)

الشريعة الإسلامية
والقانـــون الوضـــعي

تقدم الشريعة الإسلامية للمجتمع المسلم بل وللمجتمع الإنساني عامة نظام حياة متكامل جامع يضم العبادات والمعاملات والأخلاق ويشمل الاقتصاد والنظام السياسي والاجتماعي ومختلف أوجه العلاقات بين الفرد من ناحية وبين الفرد والأسرة والجماعة والأمة، وهو يختلف اختلافاً كلياً عن النظامين الديمقراطي الليبرالي الغربي، والنظام الماركسي الاشتراكي، وليس بينه وبين النظامين علاقة ما وكل ما كتب في محاولة القول بديمقراطية إسلامية أو اشتراكيه إسلامية فيه نظر، فقد جاء الإسلام نظاماً منفرداً مستقلاً ربانياً وليس من صنع عقل بشري، ومن ثم لاتجوز المقارنة بينهما، أما النظام الإسلامي الرباني فهو نظام جامع أولا وهو من عند الله، وهو صالح للمجتمعات والعصور المختلفة، وليس كذلك الأنظمة البشرية التي قدمها الفلاسفة والمصلحون والتي تصلح لبيئة ما أو لعصر ما، والتي قد تعالج جانباً ما من جوانب الحياة، اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية أو نفسية، وميزة الإسلام ربانيته الجامعة التي جعلته قادراً على مواجهة العصور والبيئات المختلفة المتوالية دون أن يفقد قدرته على العطاء والاستجابة، وهي ميزة لاترقى إليها الأنظمة البشرية التي لايستطيع صانعوها أن يتجاوزوا التحدي الخاص بعصرهم أو بيئتهم وهو تحد يتغير في خلال عقد من الزمن على الأكثر ثم لايقوى النظام بعد ذلك على البقاء إلا بإجراء تعديلات كثيرة بالحذف والإضافة،بل لقد تتغير الأسس التي قام عليها والتي تعتمد على نظرية من نظريات العلم كما حدث بالنسبة للماركسية وغيرها.

وميزة الشريعة الإسلامية أنها تتعامل مع الإنسان: بمختلف عواطفه وغرائزه

وطباعه وروحانيته وماديته، وتقدم له الضوابط التي تحميه من الانحراف والتي تحميه من الغير، والتي تحسن الصلة بينه وبين الأسرة والجماعة والأمة والإنسانية كلها من مصدر رباني عال، غير قابل للتأويل أو التحريف أو إدخال الهوى إليه بالتغيير، ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ ؟

ولا يستطيع الإنسان أن يكون متقبلاً لنظام اجتماعي ما إلا إذا كان هذا النظام صادراً من قوة عليا، ولذلك فإنه من العبث أن يشرع الإنسان لنفسه، لأنه أولاً لم يعد قادراً حتى الآن بالرغم من اتساع دائرة العلم على فهم نفسه فهماً صحيحاً، ولأنه لايستطيع إن قدر على الفهم أن يضبط عواطفه وغرائزه فهو دائماً يشرع لهواه ومطامعه ورغباته، وقد استجاب التشريع الإسلامي لرغبات الإنسان فأفسح له أمر الجنس والمال والطعام والمادة، ولكنه أحاط ذلك كله بسياج أطلق عليه اسم «التقوى» ومراقبة الله، وجعل للإنسان إرادته الحرة ومسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقي وجعل له جزاءه الأخروي، ومن ثم فهو يعرف رسالته في الحياة ومهمته في المجتمع، ويتجه إلي الوجهة الصحيحة التي تستهدف إقامة نظام الله وبناء المجتمع الرباني الكفيل بتحقيق السلام والأمن والرحمة والإخاء.

وقد أعطيت الشريعة الإسلامية بثباتها وأصولها الحاسمة، مفتاح التغيير بما يناسب العصور والبيئات وهو الاجتهاد، فقد جعل الإسلام نظامه إطاراً واسعاً مرناً قادراً على مواجهة كل التغيرات والاستجابة بما يحقق استمرار العمل مع الالتزام الكامل بالأصول العامة التي لاتتغير،وفي مقدمتها تحريم الربا والزنا والقتل والظلم وغيرها، وفي هذه الأصول العامة لايجوز الاجتهاد فيما دونها مما لايخرج عن نص أو سنة أو حكم عام.

والهدف: هو الحيلولة دون الاستبداد والظلم والعبودية من الإنسان للإنسان وقد جعلت الشريعة الإسلامية من القاعدة الأخلاقية أساساً روحياً وتربوياً أشد فعلاً في النفس الإنسانية من رهبة القانون،حيث يتمثل الإنسان رضوان الله ومثوبته ويكون له من الوازع المراقب (الضمير) حارساً أميناً على التطبيق.

والمبدأ الأساسي للشريعة الإسلامية: هي أن الحكم لله، وأن جماعة أهل الحل والعقد والشورى ليسو مقننين ولكنهم مراقبون ومنفذون لهذه الشريعة وإذا تنازع المسلمون في شيء ردوه إلى الله والرسول.

وتتميز الشريعة الإسلامية بأنها:

١- ربانية منزهة عن القصور والجهل والهوى الذي تتسم به الشرائع البشرية، وليس ثمة قداسة لأشخاص الحاكمين فهم بشر كسائر البشر.

٢- جمعها بين الثبات والمرونة: وثباتها مستمد من ثبات مصدرها الأساسي الوحي.

(٢)

هذه الشريعة الإسلامية ظلت مطبقة في البلاد الإسلامية حتى جاء الاستعمار الغربي فعمل على عزلها عن ميدان الحياة العامة وأحل بدلاً منها القانون الوضعي الذي شمل ميدان الحكم والقضاء والاقتصاد، والذي ألغى حكم الإسلام في الربا والزنا والسرقة من أهم ما ألغى، وصدرت قوانين مدنية وتجارية وجنائية مستمدة من القوانين الأجنبية، وساعد على حجب الشريعة الإسلامية عن مجال التطبيق في العالم الإسلامي نظام الحكم الذي قام في ظل الاحتلال ونظام الامتيازات ومن ثم تقلص سلطان المحكمة الشرعية صاحبة الولاية العامة واقتصر اختصاصها في نشر أقضية الأحوال الشخصية.

وفي ظل نظام الامتيازات أنشئت المحاكم المختلطة ١٨٧٦ ووضعت لجان قوانين تستمد من القوانين الأجنبية قوانين المواد المدنية والجنائية والتجارية وهو ما يطلق عليها في الشريعة: المعاملات.

وقد باشرت المحاكم الأهلية عملها في ظل هذه القوانين الوضعية التي نقلت من القانون الفرنسي والسويسري وغيره ولم تكن مستمدة من تراث الأمة أو نابعة من حاجتها أو متفقة مع أعرافها وتقاليدها.

ولذلك ظلت سنوات طويلة غير متلائمة مع الظروف والأوضاع الاجتماعية ومحتاجة إلى التعديل فترة بعد أخرى.

حدث هذا في نفس الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تدرس في الجامعات الأوربية ويقضي في شأنها أكابر علماء القانون بأنها أصلح الشرائع للعالم كله وليس للمسلمين وحدهم، وأنها أوفت على الغاية وسبقت جميع التشريعات الوضعية في كل ما قررته ولا تزال بها ذخائر لم تكشف إذ لم تجئ المناسبات، ولم تجد الحوادث التي هي علاج لها، ويقول الأستاذ على على منصور:

لقد حملت هذه القوانين الوضعية مخالفات صارخة لأحكام الإسلام وشريعته،فالزنا في الشريعة الإسلامية هو كل سفاح ليس بنكاح أي بزواج شرعي وكل صلة بين رجل وامرأة ولو برضاهما معاً، أما في القوانين الوضعية ومنها قانون العقوبات المأخوذ من القانون الفرنسي فيجعل الاتصال الجنسي والمواقعة الفعلية مباحة ما دام لا إكراه فيه، وكان التراضي على اقتراف هذه الجريمة بين ذكر وأنثي غير متزوجة وسنها فوق الثامنة عشر، ومعنى هذا أن القانون الوضعي أحل الزنا في ظروف معينة ولا عقاب إلا في حالة الإكراه وصغر السن،أما الزوجة المحصنة فأمر ارتكابها للجريمة لم يترك للجماعة والنيابة العامة وإنما ترك لرغبة الزوج، فإن أراد مؤاخذة الزوجة أبلغ الأمر إلى النيابة، وإن بدت له فكرة العدول أثناء التحقيق أوقفت النيابة التحقيق وأخلى سبيل المرأة، فإن بقى على بلاغه وصلت الزانية إلى المحكمة فينص القانون الوضعي على عقابها بالحبس دون الجلد أو الرجم وهو الحكم الشرعي.

ولقد شهدت لجنة تحرير القانون الهولندي الجديد بأن عقوبات الحبس والغرامة في جرائم الزنا غير زاجرة، والقانون الفرنسي ينص على أن الزوج المحصن إذا زنى لايعاقب إلا إذا زنى غير مرة في منزل الزوجية بإمرأه أعدها لذلك فالنص كما هو ظاهر لايعاقب على جريمة الزنا بل يعاقب على امتهان الزوج لحرمة بيت الزوجية بشرط أن يتكرر منه ذلك والعقوبة تافهة (مائة فرنك) بينما ينص القانون علي معاقبة الزوج الذي يعقد زواجه بأخرى قبل انحلال زواجه الأول بالأشغال الشاقة.

وقد نقلت أغلب هذه المواد وعقوباتها إلى القوانين العربية فأصبحت جريمة الزنا من حق الزوج والزوجة بينما هي حق الله، وأصبحت تسقط إذا تنازل الشاكي عن شكواه، وأن المواقعة (الزنا) وهتك العرض لا عقوبة عليهما إذا حصلت بين رجل وامرأة بالغين ما دام ذلك يرضى الطرفين إلا إذا ضبطا متلبسين في مكان عام.

أما الإسلام فإنه يعتبر الزنا جريمة من أبشع الجرائم ومنكراً من أخبث المنكرات، ولذلك جعل عقوبته صارمة شديدة، لأن هذه الجريمة إهدار للكرامة الإنسانية وتصديع لبنيان المجتمع، وتعريض للنسل للخطر حيث يكثر اللقطاء وأولاد البغاء.

وحفظ النسل هو أحد الضروريات الخمس التي أخذت الشريعة بحمايتها والأربعة الأخرى هي (العقل والنفس والدين والمال).

والله تبارك وتعالى لم يحرم الزنا ويجعل عقوبته صارمة إلا بعد أن أحل الزواج وأباح للرجل عند الضرورة مثنى وثلاث ورباع، ولكنه لم يسمح بالسفاح، كذلك فإن القانون الوضعى يعطل أحكام الشريعة الإسلامية في أمر القصاص والخمر: فإن القاتل لايقتص منه بالإعدام إلا إذا اقترن بالجريمة جريمة أخرى كالسرقة والزنا، أما حد الخمر فقد عطلته أيضاً القوانين الوضعية.

وكل هذه الكبائر: القتل والزنا والسرقة والقذف وشرب الخمر، فيها اعتداء على حقوق الغير ولذلك اتخذت الشريعة الإسلامية إزاءها جزاءً رادعاً بينما عاملها القانون الوضعى معاملة هينة، فيها سماح بارتكابها وفيها فتح لباب الفساد والاضطراب للمجتمع.

ولقد كان من شأن هذا أن فتح الباب واسعاً أمام الملاهي الليلية والرقص والفسق والفجور وغيرها من مفاسد الحواضر والمدن.

(٣)

والواقع أن المجتمع الإسلامي منذ سقط في قبضة الاحتلال لم يستسلم للقانون الوضعي وقام القضاة والباحثون يدرسون الأسلوب الكفيل بعودة الشريعة الإسلامية

إلى التطبيق، وقد نجحوا في أمرين خلال السنوات الخمسين الأخيرة وهي النص على أن الإسلام دين الدولة الرسمي في الدساتير الحديثة والنص في السنوات العشرين الأخيرة على أن الشريعة الإسلامية مصدر أساسي للقانون.

ومن الناحية الأخرى قدم المشترعون أبحاثاً خصبة في مجال تقنيين الشريعة على أبواب الفقه وقضاياه المختلفة يعد بمثابة «أساس» صالح لتحقيق هذه الغاية الكبرى.

وتقدم الباحثون برسائل متعددة في الجامعات عن الشريعة وتطبيقها وفي مجال الدراسة المقارنة بين القانون والشريعة، وقد كشفت هذه الدراسات عن الخلاف بين الشريعة والقانون وهو خلاف جذري في طبيعة وخصائص كل منهما:

إن كلمة «القانون» التي تعد مستحدثه في لغتنا بمعانيها الكثيرة المترجمة لمعان متنوعة في القوانين الأوربية التي اقتبسنا عنها في العصر الحديث قوانيننا الوضعية من ١٨٧٥ حتى ١٨٨٣ وما بعدهما إنما تعني في جملتها كل ما يمثل بالمفهوم الوضعي الأوروبي، أمراً صادراً من الحاكم واجب الاتباع، أو «قاعدة عامة مجردة ملزمة للكافة ويقع الجزاء على مخالفها من السلطة الحاكمة، والقانون بهذا المعنى كله وما يدور فيه يمثل أمراً منفصلاً بذاته عن الدين والأخلاق. كذلك فقد نقلنا واقتبسنا قوانيننا الوضعية عن أصل أوروبي يرجع في أصوله إلى أصل عام من أصول القوانين الوضعية في العالم هو القانون الروماني من قديم على عرف خاص استمر إلى عصرنا الحديث. في تقسيم القانون الوضعي إلى قسمين: رئيسين: عام وخاص فالقانون العام هو الذي يحكم العلاقات التي تكون الدولة طرفاً فيها فيما بينها وبين الأفراد، أو بينها وبين الدول، وأما القانون الخاص فهو الذي يحكم العلاقات فيما بين الأفراد أنفسهم ويندرج تحت هذين القسمين أقسام فرعية أصبحت معروفة لنا منذ التقنين الفرنسي عام ١٨٨٤.

ومن هنا يتبين الفارق الواسع بين القانون الوضعي والشريعة: وهو فرق بين الفكر البشري والمصدر الرباني. فالفقه الإسلامي يقوم على دين إلهي، وكتاب محفوظ وآيات منزلة تذكر الإنسان دواماً بصلة ربه وتجعل من الوفاء بعهدها أساساً لكل ما

تأمر به من تنظيم العلاقات وتحديد النظم، وهي من حيث وحدتها الشاملة في كل ما تأمر وتوحي لا تعرف تفرقة بين القانون العام والقانون الخاص ولا تترخص بها.

ويبدو النقص واضحاً في القوانين الوضعية تسفر هي عنه بنفسها عندما تجدها مضطرة إلى تكملة وضوحها بنص عام يرد إليه لفظ (العدالة) أو باصطلاح آخر يترجم بكلمة القانون الطبيعي: وعندهم أن القانون الطبيعي نظام من العلاقات الإنسانية أعلى من القانون الوضعي وهو عادل وصحيح لأنه مرتبط بإرادة الله.

ومعنى هذا: أن القانون الوضعي نفسه يقوم بمحاولة الارتفاع بقيمة الشريعة إلى مستوى تصل فيه إلى التماس الثقة من الدين أو الله (رياض مفتاح).

ومن خصائص الشريعة التي تميزها عن القانون الوضعي: أنها ربانية تقيم حارساً من النفس أقوى من كل حارس وتحقق ثباتاً يتأبى على كل تغير من أية سلطة وضعية وتحقق شمولاً يمتنع من حيث الزمان على التوقيت ويمتنع من حيث المكان على الحدود المصطنعة، ويمتنع من حيث الموضوع على كل تجزئة للأحكام أو استثناء للأشخاص مهما علا مكانهم وتحقق العدل في المصدر وفي الموضوع وفي التنفيذ فالله هو العدل وشريعة الله هي العدل وتنفيذها نحن مأمورون فيه بالعدل. ومن ثم لا يتصور العدل الحق في غياب شريعة الله، وتحقيق التوازن داخل النفس، وداخل المجتمع أمر عجزت عنه كل الأيدلوجيات وكل الأنظمة إذ تجنح إلى إفراط ذات اليمين أو تفريط ذات اليسار.

وتحقق الشريعة الإسلامية الإيجابية بما تشرع من ثواب وعقاب يتميز عن كل نظام أرضي بأن يبدأ داخل النفس وينتهي إلى المجتمع ثم إلى من لا تخفى عليه خافية ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. (جريشة).

واجه المفكرون المسلمون الشبهة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي من أن الشريعة الإسلامية خالية من الأصول السياسية والدستورية وأنه لذلك يجوز اقتباس النظم الحديثة على اختلاف أنواعها من (ديمقراطية أو اشتراكية أو شيوعية)

وتطبيقها على الدول الإسلامية دون أن يعتبر ذلك مخالفاً للإسلام، وهم يقصدون بذلك «الانطلاق» بالشريعة إلى حدود (التطوير) وقد بدأ هذا الفكر في كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرازق فقد قال إن المبادئ العامة المرنة التي جاء بها الإسلام تقبل التطوير في كل زمان ومكان وحسب ظروف الحال، فلا مانع من أن تطبق (العدل) حسب مفهوم الوقت كما بينه الفكر الديمقراطي أو الشيوعي أو غيره.

ولا شك أن هذه محاولة ماكرة من خصوم الإسلام استغلوا فيها مفهوم: سماحة الإسلام وسعة أطره وكونه قائماً على أسس عامة قابلة للتفاهم مع العصور والبيئات المختلفة وقد حاولت حركة التغريب استخدام هذا النص حين قالت: إن القرآن جاء على وجه المرونة والعموم لكي ينطبق على كل زمان ومكان، جاء بأفكار عامة مجردة هي العدالة والحرية والمساواة والشورى، وهي من المرونة بحيث تطبق في كل زمان ومكان حسبما تقتضيه مصالح الناس ولذلك فإن القرآن لا يقيد الناس في هذا العصر، أما السنة فقالوا: إنها لا تعد ملزمة شرعاً للأجيال التالية في أمور السياسة؛ لأن ما صدر عن النبي باعتباره إماماً لا يعد تشريعاً عاماً إذ أنه بني على مصلحة قائمة في وقته ويواجه الدكتور مصطفى كمال وصفي هذه الشبهة الزائفة: فيقول إن هذا الرأي قائم على خطأ في الفهم بالنسبة للقرآن، لأن (العدل) في المفهوم الإسلامي مقيد ومتميز عن غيره مما في النظم الأخرى، فالعدل في الإسلام هو العدل المبني على التوحيد والمستمد من نصوص الكتاب والسنّة، ومن المقاصد الشرعية فإن العدل الإسلامي معياره ووسيلته وطريقته.

وطريقته هي ما أظهرنا الله عليه من شريعة،فالشريعة هي وسيلة تحقيق هذا العدل، يتمثل هذا العدل في علاقة الزوج بزوجته، في حق الإمام في أخذ الزكاة، في إقامة المصالح والمرافق وتأديب العصاة وكل ما هو على هذا النهج فهو من العدل الإسلامي،وكل ما ليس على نهجه فليس من العدل الإسلامي، ثم إنه فيما لا نص

فيه هناك مقاصد شرعية تقوم على حفظ القرارات ومنع الحرج والمشقة واستكمال المحاسن في أمور خمسة هي: (الدين. النفس. النسل. العقل. المال).

فالعدل في الإسلام ليس عدلاً مطلقاً يجوز أن يصطبغ بصبغة رأسمالية أو شيوعية ولكنه عدل موصوف مقيد، بنصوص معينة ووسائل محدودة للاجتهاد، هذا العدل يختلف عن العدل في النظم الرأسمالية والليبرالية. فإن هذه النظم تحمي الحرية الفردية وترى أن غاية القانون هو تأمين الحرية الفردية وضمانها فكل ما يأتيه الفرد داخل حدود حريته مما لا يخالف القانون ولا يضر بالغير هو عدل، ولذلك فإن كثيراً من صور الاستغلال الصارخة وكثيراً مما يخالف الآداب يسمح به هذا النظام فالعدل هنا مختلف عما نعرفه في الإسلام، فإذا اقتضى صاحب المال أن يعمل العامل عنده بأجر بخس فلا ضير عندهم في ذلك لأن العقد عندهم هو شريعة المتعاقدين فما دام العامل قد رضي فإنهم لا ينظرون لضغط الظروف الاقتصادية لسيطرة رب العمل واضطرار العامل للخضوع، ولا يعاقب القانون في هذه النظم على زنا المرأة الرشيدة غير المتزوجة بلا إكراه، لأن حريتها قد ارتضت ذلك ويرون أن العدل يكون لها في ذلك وأن منعها منه ليس عدلاً وهذه معايير لا يرتضيها الإسلام.

وفي النظام الشيوعي تختلف فكرة العدل: فالعدل يقوم على منع الاستغلال والصراع الطبقي والمساواة شبه المادية بين الجميع، فهذه عدالة اقتصادية من نوع معين ليس لها علاقة بالاعتبارات التي ينظر الإسلام بها إلى مختلف مسائل الحلال والحرام».

(٥)

في فقه القانون الوضعي تعددت النظريات التي تفسر أصل القانون وإعطاء حق التشريع للبشر، انتهت إلى نقد مرير، كيف تملك إرادة البعض أن تقيد إرادات الآخرين وأن تسمو عليهم وأن تفرض عليهم القواعد والنصوص، قال الفقيه الفرنسي ريجي في مؤلفه (السيادة والحرية) إن الأمر يتطلب جهة عليا تمنح البشر قوانينها.

كذلك أشار الباحثون إلى أن القوانين التي صدرت في فرنسا بعد الثورة الفرنسية واتخذتها أوروبا مثالاً لقوانينها فيما بعد - ونقلنا منها نحن قانوننا الوضعي- هذه القوانين سادتها روح الفردية المطلقة إلى الحد الذي يجعل لصاحب الحق الحرية الكاملة في استعمال حقه ولو أدى ذلك إلى الإضرار بغيره. بينما عرف عن الشريعة الإسلامية القدرة على تحقيق التوازن الكامل بين مصالح الجماعة والفرد بحيث لا يطغى أحدها على الآخر مهما كانت الظروف والأحوال،ولقد اضطر الغرب تحت تأثير الظروف السيئة التي ترتبت على فساد وجهة القانون وبدافع من وضع حد لحرية الفرد نشأت نظرية سوء استعمال الحقوق نقلاً عن الشريعة الإسلامية وإن لم يتحقق الغرض من هذه النظرية.

ومن هنا فإنه قد تقرر بأن نظرة الشريعة الإسلامية لحقوق الأفراد وتقيدها بما يحقق مصلحة الجماعة ولا يضر مصلحة الفرد صاحب الحق إنما هو أوسع مدى وأبعد تأثيراً من نظرة القوانين الحديثة في هذه الناحية. ويقرر الباحثون أن التفرقة الواضحة بين طابع الشريعة الإلهية وطابع القانون البشري في أمر حقوق الفرد والجماعة يرجع إلى أن القانون يعد حقوق الفرد أساسية أما الشريعة فإنها تعتبر حقوق الفرد منحة من اللّه تبارك وتعالى وهو يأمر بالعدل والإحسان وعدم الإضرار بالغير.

ومما تتميز به الشريعة عن القانون: حماية الأخلاق ورعاية مصالح الفرد وضمان حقوقه بحيث لا تسقط بالتقادم أو وضع اليد، كما تعني بحمايته من الانحلال الخلقي والانحراف الفكري لأنها تستهدف حماية القيم الاجتماعية والمصالح المادية في وقت واحد بعكس القوانين التي تستهدف حماية القيم الاجتماعية والمصالح المادية وتتجاهل ما تقضي به قواعد الدين والأخلاق في كثير من الأحوال.

ويعتبر القانون: السلوك الشخصي مهما كان مناقضاً للأخلاق غير مناقض للقانون إذا لم يؤد إلى الإخلال بالنظم أو الإضرار بالغير رغم أنه يؤدى إلى الإضرار بفاعله نفسياً وصحياً وربما بأسرته ومجتمعه، كما يتجلى تجاوز القانون لما تقضى به

قواعد الأخلاق في حمايته وتنظيمه لكثير من الأعمال التي تؤدى إلى انحلال المجتمع عبر نشرها لكثير من ألوان التهتك والاستغلال رغم أن صيانة المجتمع من الانحلال من أهم الأهداف التي يجب أن تعمل على تحقيقها كل الأنظمة والقوانين.

وبسبب تجاهل القانون للأخلاق انحدرت أكثر المجتمعات المعاصرة إلى حضيض الانحلال والانحطاط الخلقي، واعترف عدد من علماء الغرب بهذا الانحطاط واعتبره العلماء بداية لانهيار الحضارة الغربية وفنائها، أما الشريعة الإسلامية فإنها تحرص أشد الحرص على حماية الأخلاق لأنها أساس رقى الأمم ولأنها جزء من الإيمان كما أنها في الوقت نفسه من الأهداف الإنسانية التي آمن بها العقل منذ أقدم العصور إلى الآن. والحقيقة أن تجريد القوانين من القواعد الأخلاقية قد جنى جناية بالغة على الشعوب التي تخضع لحكم القانون الوضعي (أمين عبد الله القرقوري).

ومن وجوه الخلاف بين الشريعة والقانون أن الشريعة تحقق المساواة الكاملة والمطلقة بين الناس جميعاً وفي جميع المجالات ولا سيما القضاء دون أي اعتبار للفروق الجنسية أو الطبقية أو الاجتماعية، وكذلك التمييز بين المواطن ورئيس الدولة.

كذلك فإن القوانين الوضعية قد ألغت بعض أحكامها تحت تأثير التجارب المريرة التي أثبتت فشلها وعدم قدرتها على مواجهة تحديات التطور الإنساني.

وبعد فلكل هذه المعاني وغيرها سوف لاتجد البشرية في القريب أصدق تحقيقاً للعدل من الشريعة الإسلامية.

(٦)

ولا ريب أن العالم الإسلامي اليوم ينطلق إلى العودة لتطبيق الشريعة الإسلامية من جديد،إيماناً بأنها الوسيلة الوحيدة لتحقيق قيام المجتمع الرباني الصالح لكل زمان ومكان وبعد أن فشلت تماماً تجربة تطبيق القانون الوضعي وهذا ما تتجه إليه خطوات العمل اليوم، وما تعلو به الصيحة للعودة إلى الأصالة، والاستمداد من

القانون الإلهي خاصة بعد أن تبين أنه أصلح النظم لهذا العصر ولكل عصر، في كل مجالات المعاملات.

ويرى دكتور صوفي أبو طالب أن العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في حياتنا ليس مجرد استجابة لعاطفة تجيش بها الصدور، بل إن هذه العودة تمثل ضرورة عليها واقع مجتمعنا لأن الشريعة الإسلامية هي إحدى خصائص تراثنا الثقافي والقانوني الأصيل وأن استكمال مقومات شخصيتنا تقتضى الرجوع إلى هذه الشريعة وتطبيقها. والنص الدستوري الذي يؤكد أن الشريعة الإسلامية مصدر أساسي للتشريع تجيء تلبية للهدف الأساسي في إحياء التراث الأصيل وعلى رأسه الشريعة الإسلامية حتى يسترجع الإنسان العربي ذاته ويستعيد أمجاده ويسهم في حركة التقدم الإنساني، ويعني هذا النص أن المشرع يلتزم فيما يصدره من قوانين بالشريعة الإسلامية وإذا ما خالف ذلك كان القانون الذي لم يأخذه من الشريعة الإسلامية غير دستوري وهذا هو الرأي الذي استقر عليه قضاء المحكمة الدستورية العليا.

ولا ريب أن الشريعة مرنة بطبيعتها وتحوى من وسائل التطور ما يكفل مسايرتها لظروف العصر وقد شهدت بذلك كل المؤتمرات الدولية. كذلك فإن القول بأن الاعتماد على الشريعة كمصدر أساسي للشريعة يجعل من الدولة دولة دينية، قول بعيد عن الصواب، فمن المسلم به أنه لاكهنوت في الإسلام و أن باب الاجتهاد مفتوح، ومن ثم فليس هناك مجال لاحتمال تسلط علماء الدين على السلطة السياسية فهم لايكونون طبقة قائمة بذاتها داخل المجتمع على خلاف ما كان الحال عليه في المجتمعات الأوربية، ولا مجال للقول بأن النص الدستوري الذي تتحدث عنه يحيل الدولة إلى دولة عنصرية فالإسلام يقوم على أساس المساواة التامة بصرف النظر عن اختلاف الدين أو الجنس أو الفقه، والشريعة الإسلامية تسوى في الحقوق والواجبات بين المسلمين وغير المسلمين والتاريخ خير شاهد، والذين يبدون هذا التخوف يخشون في الواقع قيام دولة قوية ومجتمع يقوم نظامه على الأسس

الإسلامية.

ويقول الدكتور محمود الشربيني: لقد ثبت أن المبادئ العقابية في الشريعة الإسلامية تتفق مع أحدث مبادئ (الدفاع الاجتماعي) الذي يقول به فقهاء المدرسة الحديثة والذي تتميز بإعطاء حرية واسعة للقاضي لاتخاذ إجراءات أمن تبتعد بالجريمة أحياناً عن الصفة الجنائية وتقترب بالجناة من هدف العلاج الاجتماعي. إن العقوبات في الشريعة الإسلامية هي الحدود والتعذير، ومن الحدود ما ليس إيقاعها لصالح فئة معينة بل إن منفعتها لمطلق المسلمين أو لصالح المجتمع ويسمى ابن تيمية هذا القسم (بحدود الله) ويسوق أمثلة عليها في عقوبات السرقة والزنا وشرب الخمر.

والنوع الثاني يسميه ابن تيمية: (حدود الناس) ومن أمثلته: القتل وفيه يقع القصاص ومعناه المساواة أي أن القاتل يقتل بمن قتله ولا يؤخذ فيه أكثر من قاتله.

والشريعة الإسلامية تعلق إقامة الحد على القاتل بإرادة أولياء دم القتيل فإن شاءوا أقاموا الحد وإن شاءوا قبلوا في قتيلهم الدية، والشريعة الإسلامية بذلك تراعي العدالة. وتمس بالرحمة في نفس الوقت قلوب أولياء الدم لازالة الأحقاد وإغلاق طرق الفتنة التي يفتحها الأخذ بالثأر. والشريعة الإسلامية إذ تقرر الحد بالجلد على شارب الخمر ومقترف الزنا لايجوز الاعتراض عليها بدعوى الحرية الشخصية التي تسقط أمام (حق المجتمع) وحق الأسرة التي تنهار تحت وطأة التفشي لهاتين الجريمتين. والتعزير كما يقول ابن تيمية هو عقاب كل معصية ليس لها حد مقدور، ومن عقوبات هذه المعاصي الجلد وللقاضي حرية التقدير في التعزير بما يتفق وحماية المجتمع، فالشريعة الإسلامية بنظريتها المرنة في التعزير أحدث نظريات الفقه الاجتماعي الحديث، بل إن الفقهاء المسلمين قد سبقوا في هذه المدارس الفقهية الحديثة بنظرة أكثر شمولاً وذلك حيث يقررون أن (مقصود الشريعة هو أن تحفظ على الناس دينهم وأموالهم وعقولهم ونسلهم، فكل ما يضر هذه الأصول فهو مفسدة، وفي دفعه مصلحة).

فالشريعة الإسلامية في نظريتها المتطورة للتعزير ليست عقابية ولا قاسية بل هي تعمد إلى اقتلاع الحساسيات التي تورث الأحقاد التي تدفع إلى الإسراف في القتل، كما أنها تعمد إلى الدقة في الضوابط والمقاييس التي تمنع الجزافية في الأحكام والتي بها يكون الإنسان والواقع هما محور عمل الشريعة، وقد جاء على رأس هذه الضوابط: قول الرسول الكريم «ادرأوا الحدود بالشبهات».

إن المبادرة إلى إدخال نظام التصالح في جرائم القتل، والتعزير، والجلد في عقوبات الجرائم الأخلاقية، التي تهز دعائم المجتمع كالخمر والزنا والقمار والقذف وشهادة الزور في القانون إنما هي ضرورة اجتماعية يفرضها ما يثبت من عدم فاعلية العقوبات الحالية في إيقاف تيار انحلال الأخلاق وإفساد الضمائر، والسطو المسلح، الأمر الذي لايعود معه الأمن إلا في ظل الشريعة الإسلامية».

وقد أشار دكتور على جريشة في رسالته (المشروعية في الفقه الدستوري الإسلامي) إلى ضرورة إسقاط القوانين الحالية المخالفة للشريعة وامتناع المحاكم عن تطبيق هذه القوانين وذلك بناء على ما نص عليه دستور ١٩٧١ من أن دين الدولة الرسمي الإسلام وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هي مصدر رئيسي للتشريع هذا النص كاشف عن المشروعية الإسلامية العليا القائمة في ضمير الأمة.

وهي تؤدى إلى الاستمداد من فقه الشريعة في كل قانون يصدر وإسقاط كل النصوص القائمة وحق القضاء في الامتناع عن تطبيق أي نص مخالف للشريعة باعتباره نصاً باطلاً لمخالفته للمشروعية الإسلامية العليا التي أقرها الدستور.

(٧)

لاريب في أن قانون العقوبات (المواد ٢٦٧ إلى ٢٨٠) تحتاج إلى تأصيل في ضوء نص الدستور لمخالفاتها للمشروعية الإسلامية العليا وهي المواد التي تحكم جرائم الزنا وهتك العرض والتي وضعت إبان الاحتلال البريطاني وبقيت من ذلك الوقت واستهدف الاستعمار البريطاني بها القضاء على مقومات مجتمعنا العربي

الإسلامي، ويعتبر العرف الإسلامي والعربي القائم على القيم الأخلاقية المستمدة من القرآن والإسلام، وقد نقلت أساساً من القوانين الغربية التي وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ولعرف غير عرفنا وفي ظل ظروف تختلف تماماً،فالمجتمع الإسلامي العربي يقدس العرض ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ويضعها في أعلى مكان ويرسم لها أرقى النظم وأكملها وأقدرها على حماية الأسرة والمجتمع ومن المسلم به أن القانون في أمة من الأمم إنما يستمد وجوده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه ولما كانت هذه القيم والأعراف في المجتمع المصري الإسلامي العربي غاية في الرعاية للفضيلة فإن من الضروري أن تعدل هذه المواد بحيث تلتقى مع روح المجتمع وطباعه وذاتيته.

(٣٨)

السياسة الشرعية

أولاً: يقدم الإسلام للبشرية نظاماً جامعاً متكاملاً (القانون - السياسة - الاقتصاد) يقوم على أساس أن الإسلام دين ودولة وعبادة ومعاملة ونظام ومجتمع، ومنهج حياة تشمل مختلف المجالات في نظام الدولة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، أو نظام المجتمع في العقالة بين الفرد والجماعة أو نظام المعاملات والبيع والشراء وغيرها.

ثانياً: ومنطلق الإسلام في الفكر السياسي أن الإسلام دين ودولة وأن الرسول لم يكن رسولاً فحسب وإنما كان حاكماً ورئيساً للدولة، والإسلام في جوهره نظام حياة يشمل المؤسسات الاجتماعية والدينية منها والزمنية فالشريعة هي القاعدة التي تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين وتبني عليها حياتهم المدنية بكاملها، ولذلك فالأمة في الإسلام لن تكتمل ما لم تتجسد في (دولة) يتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم لذلك ينبغى أن يكون على رأسها (قائد) يحوز السلطة السياسية،ليشهد على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين.

ثالثاً: ويقوم الحكم الإسلامي على أمرين: «الشورى والعدل» وفكرة الدولة الإسلامية مبنية على اقتران الكيانين المادي والروحي فيها وامتزاجهما، وهي بذلك تختلف عن مفهوم المبدأ الديمقراطي الحديث، وتقوم الدولة على التوفيق بين سلطة الحاكم والمحكوم واحترام الملكية الفردية وتوجيهها للتعاون بين الغني والفقير وحضها للغنى أن يجعل من ماله قسماً للفقير، وكذلك عدم التفريق بين الألوان والأجناس، والإصرار على قدر معين من الآداب والاحتشام في حياة الجنسين الرجل والمرأة والتسوية بينهما إلا في حالات معدودة من الحقوق.

رابعاً: والحريات الإسلامية: حريات فعليه حقيقية ومقيدة وموصوفة بمبدأ معين.

هي (المشروعية الإسلامية) فهي ليست حريات لا موضوع لها كما في النظم الديمقراطية الحديثة. فحرية العقيدة في تلك النظم، هي حرية جوفاء تسمح للإنسان أن يعتقد ما يشاء فيكون ملحداً أو زنديقاً وعلى أي لون شاء وبذلك لايكون للمجتمع لون عقيدة واحد، والإمام يجب أن يكون من أكثر الناس تشبثاً بهذه العقيدة لأنه رأس الجماعة ومناط إصلاحها وكلما قوى إيمانه بها كلما كان أقدر على دعم رابطة الجماعة، فتكون أقدر على التقدم وأداء وظيفتها،ويجب ألا ينفصل عن الجماعة بما يفسد عقيدته أو يضعفها فلا يحتجب دون الناس، ولا ينفصل بحياة النعيم والترف، ويصبح خليفة للمسلمين كل إنسان ولو كان عبداً أسود إذا ارتضاه الناس ويمكن خلعه إذا غاير، والأمة ترفع من ترى فيه الكفاءة كما أن الأمة رقيبة على أعمال الحاكم وشرط الخلافة في الحاكم.

١- العدالة على شروطها الجامعة.

٢- التعليم المؤدى إلى الاجتهاد في التوازن والأحكام.

٣- سلامة الحواس وسلامة الأعضاء.

٤- الرأي المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٥- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

خامساً: أبرز خصائص النظام الدستوري الإسلامي: أولاً: الأخوة الدينية. ثانياً: التكافل الاجتماعي، وله مظهران: مادي بالزكاة وأدبي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثالثاً: الشورى. رابعاً: العدل.

وأساس الحكم يقوم على:

١- المساواة بين الناس.

٢- التوزيع العادل للثروة.

٣- منع الربا والاستثمار الظالم.

٤- منع كافة أشكال التمييز.

٥- النهوض بالعلم.

٦- الحرية المتساوية لجميع المواطنين.

سادساً: وأبرز العناصر التي تشكل المشروعية العليا أي المبدأ الأعلى الذي يهيمن علي المجتمع الإسلامي مبدأ «عدم الإشراك بالله» فالمجتمع كله يقوم على التضامن في تنفيذ ما أمر الله به ومنع ما نهى الله عنه، هذا المبدأ هو العقيدة الإسلامية والمذهب الذي تكافح الدولة الإسلامية من أجله.

٧- ويستهدف النظام السياسي في الإسلام «مصلحة العباد» فالشريعة الإسلامية لم تأت إلا لغاية إسعاد البشر وإنقاذهم مما هم فيه من الظلم والإرهاب والاعتداء على الحريات وإنقاذهم مماهم فيه من الظلم والارهاب والاعتداء على الحريات فهي من عند الله العالم بخلقه المدبر لشأن الناس وليست من أهواء البشر الراغبين في إقامة سيادة الخاصة علي العامة كما في شرائع الرومان واليونان والفرس والهنود والفراعنة، يقول الإمام ابن القيم «إنها لغاية مصالح العباد فوق عدلها ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح.

٨- وتقوم الشورى الإسلامية على أهل الحل والعقد وللمرأة أن تشارك بالرأي في الشئون العامة. كما لايحرم الأرقاء من المساهمة في الرأي والشورى والفقه الإسلامي لم يجعل الوالي صاحب حق في السيادة بل اعتبر السيادة حق للأمة وحدها.

٩- يشدد الإسلام بوصفه «منهج حياة» على المبادئ الخلقية ويعدها أساساً للنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي كله، وهو حين يهون من شأن الفوارق المادية بين أفراد المجتمع ويعلى من شأن العمل والتقوى ولا يجعل للعصبية أو الوراثة أو القوة محلاً بذلك يقضى علي المنافسات الجنسية والشعوبية، كذلك فهو يجمع بين المادية والروحية فلا يعطى للمادية القيمة الكلية ولا يكون المال هو إله

الحضارة أو تكون الآلة هي صاحبة التصرف.

(٢)

بالمقارنة بين النظام السياسي الإسلامي في الحكم والنظام الديمقراطي نجد فوارق كثيرة:

أهمها ذلك الفارق العميق الذي يقوم فيه النظام الإسلامي جامعاً بين الدين والدولة ويقوم فيها النظام الغربي على الفصل بين الدين والدولة. والواقع أن النظام الغربي كان مشكلاً تماماً قبل عبور المسيحية إلى الغرب في نظام الدولة الرومانية والقانون الروماني، وقد جاءت المسيحية ديناً لاهوتياً أخلاقياً قائماً على الوصايا ولم يكن يحمل معه شريعة (فالشريعة المسيحية هي الشريعة الموسوية باعتبار أن الدين الذي أنزل على السيد المسيح وهو جزء من الشريعة الموسوية وليس منفصلاً عنها).

ولذلك فإن المسيحية لم تعرف لها نظاماً اجتماعياً وسياسياً خاصاً،وبقيت نظام عبادة ولاهوت وعلاقة بين الله والإنسان، وأباحت للمجتمع أن يكون له نظام سياسي واجتماعي واقتصادي حر. أما الإسلام فإنه دين متكامل جامع له منهجه في العبادة ونظامه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي،وهو ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص بل هو منهج حياة يقوم على أساس الإيمان بالله الواحد ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية ومنذ وضع النبي ﷺ نظام الدولة الإسلامية وقد قام على الجمع الموثق بين الدين والدولة، وقد اعترف بذلك مفكرو الغرب وأقروه: وهاملتون جب المستشرق المعروف يصور هذا المعنى في قوله: إن الإسلام دين ودولة وإن الرسول لم يكن رسولاً فحسب وإنما كان حاكماً ورئيساً لدولة. والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات: إنه أعظم من ذلك كثيراً: إنه مدنية كاملة ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا العالم المسيحي ولم نقل المسيحية ولقلنا الصين بدلاً من أن نقول ديانة كنفوشيوس، ليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرد الخاص بل هو بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية. لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط الدين بالسياسة وقد أكد هذه النزعة الأصيلة ماثلاً ذلك من

صوغ القانون الإسلامي والتنظيم الاجتماعي وهو مجتمع لاتزال تتردد في صميمه بكل قوة هذه الفكرة، والحق أن نمو هذه الفكرة في الإسلام فاق كثيراً ما وصلت إليه أوربا من متانة الصلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتماعية التي كانت ركناً أساسياً في فكرة المسلمين عن نظام العالم حتى كان اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة في الإسلام.

(٣)

الحكومة الثيوقراطية

والإسلام لم يعرف الدولة الثيوقراطية التي عرفتها أوربا في القرون الوسطى عندما سيطرت طبقة من رجال الدين على السياسة العليا، وليس هذا الاتجاه أو النوع من الحكومة مما يقره الإسلام فالإسلام لايعترف بنظام الكهانة أو وجود طبقة ممتازة تدعى رجال الدين ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخص ما يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً، والنظام الإسلامي السياسي والاجتماعي نظام خاص يختلف من وجوه عدة عن الأنظمة التي عرفها الغرب، ولذلك فإن القول بأن الدولة الإسلامية: هي دولة ثيوقراطية قول باطل، ذلك أن النظام الإسلامي هو نظام شامل للأمة جميعاً يستمد مصادره الأولى من القرآن الكريم ويفسح الطريق إلى الاجتهاد في الفروع وفيما لم يرد فيه نص ويقوم على إطارات واسعة مرنة قادرة على تقبل قضايا العصور وأمور البيئات المختلفة ومواجهتها. والاستجابة لها بما يحقق العدل والحق دون أن يكون الإسلام في ذلك مطية لأهواء المجتمعات أو القادة،فالتشريع الإسلامي لايقر مذهباً يفرض مفهوماً مادياً خالصاً أو روحياً خالصاً على المجتمعات أو مفهوماً ما يقدم الاقتصاد على الأخلاق والعقائد، أو يفترض نسبية الأخلاق أو الهبوط بالإنسان إلى تجارب الحيوان أو التسليم بالإباحة المطلقة باسم الحرية أو التطور المطلق خارجاً عن مفهومه في ضوابط الحرية والمسئولية الفردية وإقامة التطور من داخل دائرة الثبات.

ولا ريب أن الحكومة الدينية في نظر الإسلام أداة من أدوات الاستبداد وهي لم تقم في تاريخ الإسلام كله، والإسلام يرسم نظام الدولة بحيث يجعل جميع المواطنين متساوين أمام القانون في الحقوق والواجبات وكل مواطن له الحق في ارتقاء أعلى المناصب وحرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين، وإذا كانت الحكومة الثيوقراطية تعنى من حيث الإصطلاح حكومة رجال الدين المرسومين ممن لهم منصبهم الكهنوتي فهذه الفكرة غريبة على الإسلام تماماً، فالإسلام لايعترف بالرهبنة ولا بأي سلطة كهنوتية، أما الحكومة الإسلامية فشيء يختلف عن ذلك كل الاختلاف ولذلك يخطئ من يتصور أن الحكومة الإسلامية في عهد الرسول أو عهد الخلفاء كانت حكومة ثيوقراطية (أي آلهية) أي حكومة معصومة من الخطأ أو حكومة مقدسة، أو أن الإمام كان يحكم نيابة عن الله في الأرض، على النحو الذي كانت الكنيسة في الغرب تقول به، ولكن الحكومة الإسلامية كانت حكومة إنسانية تستند إلى كتاب الله في التطبيق ويقول حاكمها «إذا عدلت فأعينوني وإذا أخطأت فقوموني» وإن الحاكم في الإسلام ليس حاكماً مطلقاً ولكنه قائم على حدود الله، وحدود طاعته هي إنما تجب على الأفراد في حدود أحكام الشريعة الإسلامية كما يبينها القرآن والسنة وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق ومن أمر بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة».

(٤)

يختلف مفهوم الإسلام السياسي في شأن الشورى عن مفهوم الديمقراطية ولقد يحاول البعض أن يصور الديمقراطية الحديثة بأنها إسلامية وهذا مخالف للحقيقة وثمة فارق كبير بين الشورى الإسلامية التي لاتعرف مبدأ (نظرية سيادة الأمة) ولا تتطلب الأخذ بنظام الانتخاب العام.

والشورى دعامة أساسية في النظام السياسي الإسلامي: شدد فيها الإسلام وذلك في قوله تعالى: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ فولى الأمر يختار بالشورى وأعماله

كلها تكون مقيدة بالشورى، ولم يضع الإسلام نظاماً تفصيلياً للشورى لأن النظام يختلف باختلاف الأقاليم ولكنه دعا إليها باعتبارها مبدأ يجب تحققه في الإسلام.

والشورى في الإسلام لها مرحلتان: مرحلة الملاءمة ومرحلة المشروعية.

الملاءمة: هي سؤال أهل الخبرة فيما هم خبراء فيه فتشجع منهم عناصر الفهم في شئونهم فإن كان الأمر يتعلق بالزراعة أو المال أو التجارة سئل أهل الفن في ذلك؟ ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

أما المشروعية فهي وزن رأي أهل الخبرة والفن بقياس الشرع، فإن للعالم المسلم الخبير بأحكام الله وحلاله وحرامه إذا سئل في معاملة من المعاملات فإنه يرجع أولاً إلى أصحاب الفن من ذلك ليفهم منهم، فإذا تحرى ذلك ودققه ووقف عليه فإنه يقيسه بمقياس الشرع والأحكام.

فالمشروعية مقيدة بما أظهره أهل الخبرة وبما أنزله الله على رسوله من الأحكام والمشاورة في المشروعية ليست مطلقة، بل مقيدة، فإن العمل استشاري منها هو إجتهاد وبحث عن الحقيقة، وليس انشاءاً مطلقاً حسب الهوى والرأي.

أما مبدأ سيادة الأمة الذي يعد من أهم مبادئ الديمقراطية الغربية، فإنه يختلف عن مفهوم الإسلام، والقول بنظرية السيادة: من هو صاحبها في الدولة: فرد أم طبقة أم فئة أم الأمة هي نظرية فرنسية الأصل استنبطها الفقهاء الفرنسيون - كما يقول عبد الحميد لطفي - لأسباب وظروف خاصة بفرنسا، وإن لم تعد للعصر الحديث بها حاجة ولا سيما في الإسلام، وقد استنبطت في عهد الحكم الملكي المطلق، أثناء فترة الكفاح بين الملوك والباكوات الذين كانوا يعملون على بسط نفوذهم على الملوك وقد كان الفقهاء الغربيون ينادون بأن الملك يستمد سلطانه من الله، وهي نظرية الحق الإلهي أو (التفويض الإلهي) ثم جاءت الثورة الفرنسية فنقلت السلطة إلى الشعب، نقل رجال الثورة الفرنسية نظرية السيادة من الملك إلى الأمة وجعلوا الأمة هي صاحبة السيادة بدلاً من الملك.

ويعد مبدأ سيادة الأمة في العصر الحديث هوالتعبير القانوني عن نظام الحكم الذي يوصف بالنظام الديمقراطي، وقد كشف الفقهاء الغربيون عن أن هذا المبدأ لايكفل منع الاستبداد أو الاستئثار بالسلطة المطلقة، لأنه لا يهدف إلى وضع قيود أو حدود على سلطان السلطة التنفيذية أو السلطة التشريعية أما الإسلام فإنه يأخذ بمبدأ الشورى: ومبدأ الشورى يختلف تماماً عن مبدأ سيادة الأمة، الذي ظهر بعد الإسلام بعدة قرون والإسلام لا يقرر مبدأ سيادة الأمة ولكنه يقرر مبدأ سيادة الشريعة الإسلامية، التي يجب أن يكون لها السلطة العليا مع مراعاة ما يسمى بالمصلحة أي مراعاة الصالح العام فيما لايتعارض مع الأحكام الشرعية.

وقد كشفت الأبحاث القانونية الأخيرة عن أن النظام الديمقراطي الفردي الليبرالي الرأسمالي قاصر عن تأمين الحريات الفردية والحقوق الخاصة، أما النظام الإسلامي فإنه يعمل على تحقيق ما يسمى بالمقاصد الشرعية وهي تتلخص في التضامن في تنفيذ ما أمر الله به ومنع ما نهى عنه فيما نص عليه الكتاب والسنة وجلب المصالح ودرء المفاسد، ومن بينها منع الصراع والاستغلال، وهي لاتقتصر على الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية بل تشمل الجوانب المعنوية والخلقية التي تضفى على الاقتصاد والاجتماع في الإسلام شمولاً واتساعاً لاتعرفه النظريات الغربية الحديثة.

ويشهد كتاب الغرب بأن (الليبرالية السياسية) التي نقلت إلى العالم الإسلامي قد فشلت فشلاً ذريعاً، يقول مؤلف كتاب (الثورة العقائدية):

«إن الليبرالية السياسية لم تنم نمواً موضوعياً في أي بلاد إسلامية وإن بعض المحاولات التي جرت لنقل الليبرالية الأوربية في القرن الراهن إلى بعض البلاد الإسلامية قد فشلت، ويبرر المفكرون المسلمون هذه الظاهرة بأن الإسلام دين ديمقراطي في جوهره كما ينطوي على مساواة بين الناس، ولما ينص عليه من الشورى قبل تقرير الأمور ولما يؤكده من إجماع ويصر عليه من ضرورة خضوع الحاكم للشرع، وهم يقولون إن إخفاق الليبرالية الغربية في البلاد الإسلامية يعود إلى الظروف التاريخية لا إلى ميل الفكر الإسلامي - كما يشيع الغربيون - إلى

الطغيان).

ويصور الدكتور محمد عبد الله العربي تجربته في دراسة النظم الغربية السياسية فيقول: إن النظم الأوربية وما فيها من اضطراب وتناقض إنما ترجع إلى أنها من تفكير البشر ومن صنع البشر الذين لايرون إلا ما هو مكشوف لهم في فترة محدودة من الزمن وفي قطاع محدود من الأرض رؤية فيها كل قصور الإنسان وانفعالاته العابرة وشهواته الجامحة، وتفكيره من أجل ذلك لا مناص من أن يكون تفكيراً جزئياً وتفكيراً وقتياً، ومن صفة الجزئية يقع النقص والقصور، ومن هذه الوقتية يقع الاضطراب في التمييز بين الحق والباطل فيكون الباطل حقاً في عصر ويكون الحق باطلاً في عصر آخر.

وقد أدركت كما أدرك غيري من علماء أوربا أنفسهم، أن هذه النظم، التي عكفت على درسها وتدريسها أكثر من ثلاثين عاماً كانت من أهم الأسباب فيما حاق بالبشرية وما زال يحيق بها من ويلات وكوارث وشقاء شامل.

أما الدولة الإسلامية التي أراد الله لها أن تكون: فهي دولة ذات كيان مزودج: روحي ومادي، ولا ريب أن توجيهات الكيان الروحي تهيمن علي الكيان المادي في كل أركانه وتسيطر على الأجهزة القائمة فيه سواء كانت أجهزة حكم أو أجهزة تشريع وضعى أو أجهزة لتدبير موارد الدولة المالية أو أجهزة لمباشرة العلاقات الدولية.

ويقول دكتور مصطفى كمال وصفى: إن مصادر الشريعة الإسلامية في السياسة والدستور من المرونة والسعة بحيث تصلح لكل زمان ومكان، وأن مرونة الأصول الشرعية وقابليتها للتصور تخضع لقيد التزام الأصول الشرعية ومقاصد الشريعة وكلياتها، وأن ماجاء بها (نصاً) فإنه لايجوز العدول عنه أو تعديل تطبيقه مهما طال الزمان، أما مالم يرد فيه نص فإنه يجوز العدول فيه عن القياس إلى الاستحسان وقيل غير ذلك.

وهناك أمور تكون ولاية المكلف فيها معتدة: ومنها عدم ترك الجهاد والقيام بهذه الفريضة، بل إن مراعاة المصالح أمر مقيد ومحكوم بأصول الشريعة ويجب أن يراعي في النظر حفظ الضرورات الخمس ورفع الحرج وتحقيق النافع.

(٥)

إن الباحثين الغربيين الذين آمنوا بالإسلام قد قدروا عمق الفرق بين الشريعة الإسلامية والنظام السياسي العربي فيقول الأستاذ محمد أسد: إن الارتباط العميق بين الدين والسياسة: ذلك الارتباط الذي يميز التاريخ الإسلامي بصفة عامة، يبدو غريباً إلى حد ما، في نظر الرجل الغربي الذي طال تعوده على اعتبار أن مسائل الاعتقاد ومسائل الحياة العملية ينتمي كل منها إلى مملكة مغايرة لتلك التي تنتمي إليها الأخرى، ومن ناحية ثانية فإن من المستحيل الحصول على تقدير صحيح للإسلام دون الانتباه الكامل لهذه المسألة: فأولاً وقبل كل شيء ينبغي للإنسان أن يدرك أن الإسلام لايهدف إلى مجرد التأثير في علاقة الإنسان بالله وتوجيه هذه العلاقة فحسب، بل هو كذلك يهدف إلى التأثير في العقالات المتبادلة بين الناس وتوجيهها، والحاجة هنا لاتقل عن الحاجة هناك، وانطلاقاً من الاعتقاد الأساسي بأن جميع جوانب الحياة الطبيعية قد تقررت بمشيئة الله وهي لذلك ذات قيمة معنوية خاصة بها فإن رسالة القرآن الكريم لاتقف عند حد الإهابة الروحية بل وتشمل حقل النشاط الإنساني بأسره: الفردي والجماعي كليهما، ومثل هذه النظرة تمنع بطبيعة الحال الفصل بين أمور الحياة الدينية والدنيوية، وتمنع الفصل بين ما لقيصر وما لله.

إن هدف كل إيمان صادق في نظر القرآن الكريم هو التأثير في سلوك الأفراد والمجتمع بطريقة تجد تعبيرها في الموقف الأخلاقي للمجتمع بكامله في تشريعه القائم وفي مؤسساته الاجتماعية والسياسية.

(٦)

من أبرز ما يجب التنبيه إليه: الحذر في استعمال المصطلحات الغربية في مفاهيم الفكر السياسي الإسلامي كالديمقراطية والحرية وغيرها: «إن الشخص الغربي حينما يتحدث عن الديمقراطية أو الثيوقراطية أو ما شابه ذلك فإنه يستخدم هذه المصطلحات وفي ذهنه أحداث الغرب التي صنعها في حاضره وماضيه كله، في حدود هذه التصورات التاريخية لاتكون هذه المصطلحات في وضعها الطبيعي فحسب بل تصبح سهلة الفهم معروفة المقاصد، إن ذكرها يحشد في الذاكرة كل الصور الذهنية لما حدث في الماضي من خلال التطور للغرب والمفهوم السياسي الإسلامي، ليس مستمداً أو مشابها للفلسفة الديمقراطية الغربية فإنها تنبع من مفهوم مختلف ومن أوضاع اجتماعية مختلفة، فهي هنا تستمد من أساس قانوني هو الشريعة الإسلامية ونظرية الدولة في الفكر الإسلامي تختلف في هدفها عن مثيلتها في الفكر الغربي، فهي في الإسلام تدور حول توفير الأمن والاستقرار والسعادة للأمة، ومع تقديرها لحق الأفرد الخاص، إلا أنها تنظر إليهم من حيث كونهم مرتبطين بالمجمع غير منفصلين عنه، ومن أبرز دعائم الفكر السياسي الإسلامي الترابط بين الدين والدولة، والترابط بين السياسة والأخلاق، حيث يخضع الإسلام أعمال وسلوك الإنسان لنظام معين هو الالتزام الخلقى، على أساس أن تكون الأعمال السياسية قائمة على الخير والنفع وليس على الشر والضرر وعن طريق هذا التمييز يمكن الوصول بالدولة إلى أهدافها في إسعاد المجتمع وترقيته ودوامه.

ويسود النظام السياسي الإسلامي مبدآن أساسيان:

الأول: هو الذي يرى أن المجتمع ضروري لدوام حياة الأفراد.

الثاني: الذي يقول إن المجتمع لايمكن أن يستقيم دون وجود سلطة تلقى إليه مسئولية تحقيق التقدم والاستقرار، ومبدأ العدالة يأتي في مقدمة مقومات نظرية الحكم الإسلامي: وهي لا تعنى جانباً من جوانب الحياة وإنما تضم كل جوانبها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسة والقانونية. كما تقوم على الترابط بين العدل

والمسئولية.

ومن أبرز مفاهيم النظام الإسلامي السياسي: مبدأ الفصل بين السلطات، وقد أدرك المسلمون هذا الفصل قبل أن يدركه الفكر الغربي «مونتسكيو» بزمن طويل كما أدرك ما أورده روسو في نظرية العقد الاجتماعي، فما جاء به روسو من أن رئيس الدولة يمثل اختيار الأمة كان معروفاً في النظام السياسي الإسلامي، ويتقرر في هذا النظام قيام طبقة الأكفاء: الذين تجتمع فيهم خصائص الدراية في الحياة السياسية والمسئولية والإخلاص ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض الكتاب المحدثين هي وصفهم للنظام السياسي الإسلامي بأنه مطابق للنظرية الديمقراطية والحقيقة أن النظام الإسلامي له ذاتيته الخاصة، قد يكون هناك بعض التشابه ولكن في أعماق القضايا الكبرى هناك اختلاف كبير،والنظام الإسلامي يؤكد وحدة العقيدة أكثر مما يؤكد وحدة الإقليم.

كذلك فإن النظام الإسلامي يقوم على الترابط بين المادي والروحي بينما الأمر ليس كذلك في الديمقراطية الغربية، ومعنى هذا أن المنهج الإسلامي يستمد من قواعد خلقية فإن هناك قانوناً خلقياً للعمل السياسي، وكذلك بينما السيادة في الديمقراطية للشعب فإن السيادة في النظام الإسلامي للشريعة الإسلامية.

ولقد كشفت التجارب في الغرب وفي البلاد الإسلامية التي طبقت الديمقراطية عن اضطراب شديد بل لقد وصفت الديمقراطية الغربية بأنها تواجه الآن مرحلة الفشل والهزيمة والانهيار بعد أن اقتحمتها الأخطاء من كل ناحية ولم يعد الغرب يثق فيها أو يجد منها نظاماً صالحاً،ولم تعد أحزاب الغرب تستطيع أن تنال ثقة الناس، ولقد كتب كثيرون من أمثال توينبي وغيره يكشفون عن عورات هذا النظام وفساده، وما جره من آثار: من اضطراب اقتصادي، وتحلل اجتماعي، وفساد أخلاقي فضلاً عن اتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء.

مثلاً: (٤٨٪ من ثروة بريطانيا في قبضة ٧٪ من مجموع المواطنين) وبينما تسلمت أرملة آخر من فقد حياته من عمال المناجم أثناء عمله مبلغاً يساوي ٩٧٥

دولاراً تعويضاً عن حياة زوجها، حقق لورد كارنجتون وزير الدولة السابق لشئون الطاقة ما يساوي ٩٣٢ ألف دولار ربح صفقة واحدة، وهذه الفجوة والتناقضات هي مثار سخط عام، وهذا أثر الديمقراطية في الاقتصاد والاجتماع ومن قبل مائة عام قال «دزرائيلي» إن بريطانيا أمتان: تقع كل منهما تحت مؤثرات مختلفة وتحكمهما أخلاق متباينة ولا يحكمهما تفكير مشترك، ولا حتى في المشاعر: مجتمع للفقراء ومجتمع للأغنياء، ولذلك فإن المجتمع الديقراطي معبأ بروح الصراع الطبقي العميق.

وهذه مجموعة من الحقائق حول مفهوم النظام السياسي في الإسلام.

أولاً: ليس هناك ثيوقراطية إسلامية تماثل حكم الكنيسة في أوربا في العصور الوسطى، فالإسلام لايوجد فيه ما يمثل الكنيسة المنظمة، إذا لم يكن مرد ذلك لسبب آخر، لأن تصور الأسرار المقدسة غريب تماماً عن تعاليم القرآن الكريم، وفي مجتمع كمجتمع الإسلام الذي يحق لكل شخص بالغ فيه أن يقوم بأي عمل ديني لايوجد مكان ولا حاجة إلى كهنة أو أكليروس ولذا فلا محل لخطر قيام منظمة كهنوتية دينية بممارسة نفوذ سياسي.

ثانياً: أن معظم النظريات السياسية الحديثة قد بدأها الفقه الإسلامي، وأن الفقهاء الأوربيين قد جاءوا مرددين لها وأنه ليس صحيحاً ما ردده المستشرقون وأتباعهم من أن الإسلام لم يكن له نظرياته السياسية وأنه استمد نظريته من الفكر اليوناني وقد تبين أن للقرآن منهجه المتميز المستقل وأن الإسلام استمد نظرياته السياسية من القرآن نفسه وليس من أي مصدر آخر، فالماوردي والشافعي والغزالي والجونيني وابن حزم قد اشتركوا في رسم خطوط النظرية السياسية في مختلف مجالات الإمامة والولاية والحكم والعقد السياسي وقد بين ذلك كله الدكتور ضياء الدين الريس في كتابه (النظريات السياسية الإسلامية).

ثالثاً: يقول دوران بوكاس: هل كانت ديمقراطية أوربا ديمقراطية لكل الشعب الذي كان ٩٠٪ منه في العبودية (الإغريق والرومان) فسكان أثينا الذين كانوا يتراوحون بين ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف رجل لم يكن المواطنون منهم سوى ٢٠ ألف –

٤٠ ألف رجل.

أما الأطفال والنساء والغرباء المقيمون وقد مضت على وجودهم في المدينة أجيال والعبيد المحررون وغير المحررين، فقد كانوا جميعاً محرومين من الحق في المواطنة، ولم يكن هناك غير أهل أثينا الذين يؤلفون أقلية قوية ممتازة، طبقة مترفة قادرة على صرف وقتها واهتمامها في الأعمال السياسية، لأن هناك جماعات من العبيد المظلومين يعملون لإعالتهم».

سابعاً: أما الديمقراطية الحديثة بنوعيها الحرة والشعبية، فقد أعلن كثير من الباحثين أنها ديموقراطيات صورية، لايجد فيها الفرد فرصة حقيقية لممارسة سلطة، فالفرد في النظام الديموقراطي الحر ليس له أي صفة إلا كعضو في هيئة من الهيئات يشترك في المداولة وإبداء الرأي والتصويت في النهاية وليس له خارج هذه الصفة وبدون هذه الصفة أية ممارسة أو سلطة أو صفة تجعل له حقاً عاماً في أي أمر إلا أن يدلى بصوته كنائب في استفتاء عام. إن أي هيئة أو مجلس إنما يخضع لنفوذ شخص أو فئة تتحكم فيه، فالحزب السياسي الذي هو أداة الممارسة الشعبية في الدول الديمقراطية الحرة خاضع لسيطرة رئيسه وكبار أعضائه، هذه الفئة المحدودة التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عددا وهي التي تتصرف في أصوات الأعضاء، وهم لايتكلمون ولا يتناقشون إلا في حدود المخطط الذي وضعته إدارة الحزب ويجب أن تكون أصواتهم حسب تصرف هذه الإدارة وكذلك الانتخابات العامة، وهم إذا انفكوا عن ذلك فإن أصواتهم تؤول إلى الرفض، هذه هي الديمقراطية الغربية (مصطفى كامل وصفي).

ولذلك فإنهافي ميزان الفكر الإسلامي لاتحقق شيئاً، ذلك أن سلطة الشعب مختلفة في النظامين الإسلامي والحديث، ووظيفة الشورى مختلفة، ودور الفرد مختلف،هذا الاختلاف يمنع الاعتماد على الشكل الديموقراطي الحديث في تطبيق الشورى الإسلامية.

ولقد حاول بعض مفكري الإسلاميات العصرية أن يوجد تشابها بين الديمقراطية

الغربية والشورى الإسلامية دون أن يقدر الأبعاد الحقيقية للاختلاف في المنهج والتطبيق معاً ودون أن يقدر أن الإسلام لا يمكن إخضاعه أو تطويعه لأي مناهج أخرى، وأن له طبيعته المستقلة الحاكمة وذاتيته واستقلاله.

(٣٩)

المجتمع الإسلامي

إن أبرز معالم المجتمع الإسلامي هو أنه من صنع الإسلام، نشأ بنشأته وتكون بتكوينه،وأنه بني منذ اللحظة الأولى على الإيمان بالله وتحقيق إرادته في الأرض والإسلام يبنى الفرد أولاً ثم يشكل منه الجماعة دون أن يفقد الفرد ذاتيته، وإنما يصبح قادراً على الانتقال من الأنانية إلى الغيرية ومن تحقيق مطامعه الخاصة إلى رعاية الجماعة، فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه أعظم الأحياء،، وهو سيد الكون تحت حكم الله، والرجل والمرأة متساويان في الحقوق وللرجال على النساء درجة ومن الرجل والمرأة تتكون الأسرة التي هي البناء الحقيقي للأمة، وقد جاء الإسلام بأقوى عقيدة توازن بين الفرد والجماعة،إذ تقوم الرابطة على أساس التكامل والتعاون وتسير العلاقة على أساس الأخوة والبذل والرحمة والإنفاق والتضحية وهو طراز فريد من التعاطف الإنساني، ويقوم المجتمع الإسلامي في الإسلام على أمرين:

١- التعادل بين جانبي الفرد.

٢- التوازن بين الفرد والمجتمع.

فالفرد يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين، يتكون من الإيمان الذي يوحى إليه بالاعتدال ومن الهوى الذي يوحى إليه بالتطرف،ويتكون من وجدان وعقل، ومن هوى وإيمان، ومن روح وجسم كل منهما يتجه إلى مصدره: الروح إلى الملأ الأعلى والجسم إلى الأرض.

فالإسلام يدعو إلى التوفيق بين شطري الإنسان، ثم يعد الإنسان بهذا التسامي أي أن يكون في خدمة الجماعة ويحمل الإنسان الممتاز إلى درجة البذل والتضحية والفداء.

والإسلام يقر طبيعة الإنسان على حقيقتها ﴿ وهديناه النجدين ﴾ مادية

وروحية، وبذا لايحول بينه وبين رغائبه ومتاع الحياة المادي، ولكنه يحوط ذلك بضوابط تجعله أقرب إلى الاعتدال وأبعد عن الاعتداء على حق الآخرين، ثم يدعو الإسلام الرجل إلى إقامة الأسرة، فإذا أقامها دعاه إلى إقامة التوازن بين الأسرة الصغرى والأسرة الكبرى ﴿ وبالوالدين إحساناً وبذي القربي ﴾ ويدعوه إلى الإنفاق على الأهل والجار ومنها إلى اليتامى والمساكين، وكل من يتصل به من معين أو خادم «إخوانكم خولكم: أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون» ويقر الإسلام الأخلاق كقاعدة عامة للحياة الاجتماعية كلها قوامها التقوى والمرحمة ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ ويقر الآداب العامة كأداة منظمة للسلوك، ووسيلة للضبط الاجتماعي، في اتجاه واضح، هو إدماج الفرد في المجتمع، فالفرد مسئول عن الكل، والجماعة كلها بضعيفها وفقيرها ومريضها مسئولة من جميع الأفراد، فالفرد في الإسلام طرف في علاقة مع أهله ووالديه وجيرانه من ناحية ومع زوجه وأولاده من ناحية أخرى، ومع المجتمع ككل بالتكافل الاجتماعي الشامل، وهكذا يربط الإسلام الفرد بالجماعة والجماعة بالفرد ويحول دون انقطاع الصلة بينهما من ناحية أو حدوث الإفراط أو التفريط، فالفرد له حق وعليه واجب نحو فرديته ومجتمعه سواء بسواء فهو يتأمل فردياً،ويعمل اجتماعياً،ويرعى نفسه ويكون مسئولاً عن رعيته،ويشاور الجماعة في الآخر، وإذا عزم عند الضرورة توكل على الله، وله حق الكسب والتملك والتمتع بالمال،ولكن عليه أن يكسب من أوجه الحل والطيبات وأن يؤتي الزكاة والصدقات، وعليه أن لاينسى نصيبه من الدنيا: العلم والرياضة والغذاء وحينما يدعوه المجتمع فإنه يقدم هذه النفس مؤمناً بأن التضحية حياة له، وأن الهروب منها إلقاء بالنفس إلى التهلكة، فالمسلم فرد في المجتمع، ومجتمع في الفرد والفرد مقوم للمجتمع والمجتمع محصل للفرد.

٢- يقوم بناء المجتمع الإسلامي أساساً على وحدة الفكر، وفق مفهوم عقلي وروحي مشترك، من شأنه أن يحقق صهر جميع أفراد المجتمع في بوتقة واحدة بالرغم من تباين أصولهم واختلاف جنسياتهم دون أن يجعلهم صورة واحدة وإنما

يجعل هدفهم واحداً هو: إقامة المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع.

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ .

والمجتمع الإسلامي يقوم على أساس الحب والتكافل والإخاء ويتمثل تكوين الفرد ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع، ولا شك أن بناء المجتمع الصالح إنما يحقق غايتين في آن واحد: الرحمة للفرد والعدالة للمجتمع.

والمجتمع الإسلامي بهذا يتميز عن المجتمعات البشرية كلها التي عجزت عن تحقيق التوازن أو التكافل الاجتماعي فيما بينهما وهما الركيزتان الأساسيتان في بناء المجتمع الإسلامي فقد عاشت البشرية ولا تزال في صراع وانقسام بين دعوة إلى الفردية ودعوة إلى الجماعية ومنذ عصر اليونان كان هذا الصراع لايزال، أما الإسلام فقد حقق هذا التوازن في المجتمع دون أن تفقد الفردية وجودها فتسحق الإنسان، ودون أن تفقد الجماعية كيانها فيستعلى الفرد، حقق هذا التوازن بين الفرد والجماعة الذي شقيت الإنسانية دون الوصول إليه، فهي إما فردية مغرقة في ذاتها وإما جماعية جامدة تصب الأفرد في قالب واحد، استطاع الإسلام أن يقيم هذا المجتمع في صدر الإسلام وأن يثبت صلاحيته الباهرة في خلق مجتمع متوازن تتكيف فيه إرادة الفرد مع صالح الجماعة وتكفل الجماعة للفرد حقوقه وتفرض عليهما واجباً يقوم في الدرجة الأولى علي التقوى والوازع الداخلي وقانون الأخلاق واستطاع الإسلام بذلك أن يقضى علي التفرقة الطبقية،وأن يحرر المجتمع من العبودية،وأن يكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية،وأن يعالج توزيع الثروة معالجة عادلة تحول دون تكديسها في يد أفراد قلائل،ولقد حفظ هذا النظام للفرد نشاطه وميله الغريزي للامتلاك وتأكيد الذات والتنافس، في إطار العدل والإخاء.

٣- إن المجتمع الإسلامي مختلف أشد الاختلاف مع المجتمعات الأخرى،فإنه تشكل منذ اللبنة الأولى على مفهوم الإسلام، القائم على الرحمة والإخاء، والمتحرك في إطار الضوابط والحدود التي هي أصل من أصوله، وانتقالاً من الإسلام إلى

الإيمان ومن الذاتية إلى الغيرية ومن الفردية إلى الجماعية، وفق طابع أخلاقي عام.

﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

ولقد كانت الضوابط والحدود بمثابة الركائز التي تحفظ النظام الاجتماعي العام والتي تبقى على تماسكه وتضمن استمراره في مرحلتي البناء الاجتاعي والتغيير الاجتماعي.

وقد قدر الإسلام مختلف العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية من المؤثرات الطبعية ومؤثرات البيئة والوراثة وأثر العلاقات بين الرجل والمرأة (الزواج - الحب - الجنس) وكذلك مؤثرات العرف والتقاليد فجعل الإرادة البشرية القادرة التي نماها الإيمان وكفل لها الاتجاه السليم قادرة على التغلب على كل هذه المؤثرات بحيث تعلى دائماً حدود الله وضوابط المجتمع عن أن تصاب بأذى. ويجيء ذلك عن طريق خلق روح التعاون والأخوة بدلاً من الصراع بين الأفراد في المجتمع، وكذلك قيام المجتمع على العدالة والرحمة وضبط مقاييس الحرية الفردية للرجل والمرأة على النحو الذي يحول دون أخطائها وأخطارها وخاصة خطر إطلاق الغرائز والإسراف في اللذة والمتعة أو خطر الربا والبغاء والعري ودعارة الكلمة والصورة والمخدرات التي هي مصدر الجريمة،والمسئولية الأخلاقية في هذا المجال قوة أساسية من قوى المجتمع الكابحة والحافظة له دون التردي في خطر المدنية الفاسقة الضالة التي عرفت الحقيقة وانحرفت عنها فحق عليها القول فدمرت تدميراً.

الفرد أولاً

ولقد جعل الإسلام نقطة البدء من الفرد وجعل صلاح الفرد علامة السلامة في المجتمع،وقد اتخذ الإسلام طريق الإصلاح من الفرد لأنه هو اللبنة الأولى التي يتألف منها المجتمع وأنه الوحدة التي تشكل من تجمعها كل الوحدات، وركز على رؤساء

المجتمع، وعلى القدوة والأسوة، ودعا إلى تكيف الفرد في المجتمع، وإلى التوافق بين الفرد والمجتمع، وإلى قيام التكامل بين الأفراد، وإلى كبح جماح الفرد، وعلى الأفراد أن يدخلوا في المجتمع ولا يبقوا خارجه، وعليهم أن ينتقلوا من الفردية إلى الغيرية بالتنازل عن بعض حقوقهم لصالح الجماعة، ولذلك دعا الإسلام إلى أهمية الفرد إذ هو الذي يقوم بالدور الأكبر في المواءمة بين متطلباته وحاجاته من جهة، وبينه وبين المجتمع، فإذا صلح الفرد بالتربية والقدوة وتزكية النفس، قامت روابط الأفراد (الأخوة - والزمالة - الصداقة، الرئاسة) على أساس المحبة لا الخلاف وقامت عمليات التفاعل على أساس التعاون لا التصارع والالتقاء لا التنافس، ولذلك فقد قدر الإسلام مسألة الحرية الفردية للفرد وكيف تنتهي عند أول حرية الآخرين، وكيف أن الإرادة الحرة القائمة على الإيمان والتقوى قادرة على أن ترتفع فوق مؤثرات الوراثة والبيئة.

ولقد أقام الإسلام أعظم روابط المجتمع، وأعمقها وأقدرها على نجاح الجماعة وهي التماثل العقلى والروحي والغاية الواحدة، فالإسلام رابطة وجدانية وعقلية واجتماعية تشترك فيها أفراد جماعته لإقامة منهج واضح، نحو غاية واحدة، ومن ثم فإن عناصر المجتمع كلما تتماثل وتتقارب في الأخلاق والعادات وتستجيب للأحداث والمواقف بدرجة واحدة، هذه الرابطة أشد وثوقاً وأعلى قدراً من روابط الجنس أو اللون أو اللغة، وهذه النظرة الواحدة لاتخلق نماذج متشابهة وإنما تخلق اتجاهاً عاماً واحداً دون أن يحول بين تميز كل إنسان بشخصيته وفرديته، وعلى هذا النحو نجد أن هناك نموذجاً إسلامياً خاصاً للمجتمع تختلف عن المجتمعات الغربية التي وضعت لحياتها مناهج ونظريات أخرى في التطبيق الاجتماعي.

إن النظرية الاجتماعية الغربية تحاول أن تصرفنا عن قاعدة أساسية جذرية في الإسلام من أجل بناء المجتمع هي « تنشئة الفرد » الدعامة الأولى لبناء الجماعة، ولن تفلح نهضة ما أو إصلاح ما لمجتمع مسلم إلا بالعمل علي إعادة بناء الفرد وتنشئته علي القيم الأساسية بالتربية والقدوة،ولقد حدد الإسلام واجبات الفرد

وحدوده، ودفعه إلى الانتقال من الفردية إلى الغيرية، وكشف له عن أوجه الترقى النفسي والاجتماعي حتى يكون قادراً على صناعة المجتمع السليم، ولا شك أن بناء الإرادة في الفرد هي العامل الأول على تغيير المجتمع وتوجيهه وأن هذه الإدارة هي القادرة على دفع الفرد إلى العطاء والتضحية والبذل والرحمة وفق القاعدة الأصيلة: ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾

فالإنسان له طبيعته المادية والروحية الواقعية المثالية، تدعوه إلى أن يتحول من الروحية إلى المادية ومن الواقعية إلى المثالية وأن يجعل استمتاعه بهذا الجانب موجهاً إلى الناس قاصداً به وجه الله، وأن لايتخذ ما يحصل عليه من جاه الدنيا وسيلة لإثارة العبث والفساد في المجتمع ولقد أعطى الإسلام أهمية كبرى للفرد فحرر طاقاته جميعاً (فكرية وخلقية وعملية) لينطلق في خدمة التقدم كإنسان وفي خدمة المجتمع ككل، وجعل من عبادة الزكاة وسيلة إلى البذل وإتقاء شح النفس، حيث تسهم الزكاة في جهاد النفس لأنها تحقق رضاء النفس ومسرتها بالتنازل عن المال الذي سعت إلى جمعه لصالح الآخرين في المجتمع، وكذلك الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر،ومن شأن التقوى والإرادة أن تحمى الفرد من المغريات وتمكنه من مواجهة الشدائد وتجعله قادراً على التغلب على أهوائه وشهواته لا يتشبث بمتع الحياة الدنيوية،وبذلك يسعد المجتمع وتحل فيه الطمأنينة وعلامات الأمن والسلام.

٤- فالمجتمع الغربي الذي يحاول أن يصدر للبشرية اليوم تجربته وأيدلوجياته ومذاهبه ونظرياته وخاصة المدرسة الاجتماعية، قد تشكل على نحو مختلف عن مجتمع الإسلام الذي كان قد عاش أكثر من ألفي عام في إطار رسالات السماء.

هذا المجتمع الغربي الذي تشكل في إبان الأمبراطورية الرومانية على نحو غاية في استعلاء السادة والأمراء، وذلة الطبقات المستعبدة، وعلى نحو من الترف والإباحية والفساد والطغيان، مجتمع القياصرة، والفراعنة والأباطرة، الذي كان يعبد الفرعون والقيصر ويسجد له، هذا المجتمع لم يلبث أن عرف الرحمة والسماحة عندما

دخلت المسيحية فأزالت كثيراً من غروره وغطرسته، وأحلت محلها ﴿ رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ فأصبح مجتمعاً منفصلاً عن الحياة، راغباً في العزلة منقطعاً عن الدنيا، وتلك هي مرحلته الثانية، ثم جاءت مرحلته الثالثة مع النهضة انقلاباً آخر بالعودة إلى الاستعلاء بالجنس والاستعمار والعلم والحضارة، وانصرافاً عن الدين جملة في محاولات متعددة لإقامة منهج حياة، ونظام مجتمع يقوم على المطامح والأهواء والتسلط، معلياً شأن المادية ومعطيات العلم، منكراً حاجات الروح والنفس والمعنويات، مما نتج عنه ما يعيشه الآن المجتمع الغربي من صراع شديد بين الفرد والمجتمع، وبين المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الماركسية، وما يتصل من دعوات إلى المادية والإباحية والوجودية والهيبية، ومن اضطراب في علاقات الأسرة والمرأة والشباب على النحو الذي يهدد كيان الحضارة كلها بالانهيار ويهدد كيان النفس الإنسانية بالتمزق.

في ظل هذا المجتمع ظهرت معضلات هي بمثابة تحديات جاءت كرد فعل للموقف الذي وقفته أوربا من الدين من قبل في مرحلة الرهبانية والإعراض عن الحياة، على النحو الذي عرفته كتب التاريخ، والذي جاءت المرحلة المادية بمثابة نتيجة له من النقيض إلى النقيض، من إنكار الدنيا والعزوف عنها واحتقارها، إلى الإغراق في لذاتها والاندفاع وراء أهوائها إلى أبعد المدى، ومن هنا علت صيحة الجنس في المجتمع الغربي واتخذت ذلك الأسلوب الصاعق، وكان ذلك بديلاً لما عرف في العصر السابق: من إنكار للحق الطبيعي في الاتصال بالمرأة، ومن الدعوة إلى الكبت الجنسي،ومن عدم إباحة الطلاق مما أدى إلى الانتقال من الحلائل إلى البدائل، ومن الزواج إلى البغاء،وماكان من نتيجته التمرد علي الآداب وإنكار الضوابط ومهاجمة الحدود، تحت اسم ما أطلق عليه في السنوات الأخيرة «الثورة الجنسية العالمية» التي صارعت كل ما يوصف بأنه محرم أو مقدس أو قانون مبرم والذي يدعو إلى احتقار العفة والعرض والانطلاق من كل قيد ولقد ذخرت آثار الأدب والفن والقصة والشعر بهذه الدعوى الجريئة، التي هزت قواعد الأسرة والبيت، وقد وصفت هذا الثورة بأنها

تستهدف هز الحياة في أمنع معاقلها والعمران في أساساته البعيدة رغبة في تصديع البناء وقيام بناء جديد على أساس فلسفة اللذة والإباحية، ولقد صاحبت هذا الاتجاه فلسفة شريرة خطيرة تمثلت في كتابات فرويد ودرو كايم وليفي بريل وسارتر وغيرهم من عتاة المخربين حتى تجد هذه الدعوة قبولاً في النفوس الصغيرة، التي تحكمها الأهواء والشهوات انطلاقاً من النظرية المادية التي تنكر وحي السماء وحقيقة الدين والالتزام الأخلاقي المرتبط به وغاية ما تستهدف هذه الدعوات (هدم الأسرة) وهي من مقررات الأيدولوجية التلمودية فنحن الآن في المجتمع الإسلامي نجد أنفسنا إزاء مناهج ونظريات مرتبطة بهذا المجتمع الذي يختلف اختلافاً عميقاً عن مجتمعنا ولذلك فإن تجربته لاتفيدنا ولا تتفق مع أوضاعنا في كثير أو قليل.

تقوم نظرية مدرسة العلوم الاجتماعية على أن هذه العلوم تجريبية، وهي محاولة مضللة ذلك لأن كل ما يتصل بالإنسان والنفس والأخلاق والاجتماع من الأمور لايمكن إخضاعه لمناهج العلم المادي، ذلك أن الجوانب النفسية والروحية والوجدانية التي تشكل السلوك والأحاسيس والتصرفات إنما تتصل أساساً بالعقائد وترتبط بالإيمان بالله،ولقد وجدت هذه الدعوى معارضة شديدة وأثبتت الأبحاث العلمية عجز المناهج التجريبية المطبقة على المادة، عن تحقيق نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الإنسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته.

وتستهدف النظرية القضاء على الشخصية الفردية قضاءً تاماً، بدعوى خضوعها للجبرية الاجتماعية التي تقول بأن الإنسان محكوم بعدة عوامل هي التي تدفعه في طريق الحياة وهي بذلك تحاول القضاء على قاعدة وطيدة في الإسلام وفي المجتمع الإسلامي: هي قاعدة الإرادة الفردية والمسئولية الفردية.

كذلك تحاول هذه المدرسة إنكار أصالة قيام الأسرة منذ العهود البشرية الأولى وفي مفهوم الإسلام أن الأسرة تكونت في بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الأجيال، ولا يعترف الإسلام بأي نظرية عن تطور العائلة أو القول بأن المرأة كانت مشاعة في عهد البشرية الأولى،فالقرآن يقرر صراحة أن نظام الأسرة نظام أصيل في

الطبيعة الإنسانية:

﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ .

ولا ريب أن مدرسة العلوم الاجتماعية تستهدف التشكيك في نظام الأسرة توطئة للدعوة إلى القضاء عليه على النحو الذي يحدث الآن في المجتمعات الغربية، والواقع أن هذه الصيحة ليست جديدة، وأن الأصوات الجاحدة كانت تتعالى بها بين حين وآخر، على مر التاريخ، ولكن كل هذه المحاولات قد فشلت فشلاً ذريعاً لأنها عارضت الفطرة والحقيقة التاريخية معاً، وقد عجزت كل المحاولات في القضاء على الأسرة وسيظل نظام الأسرة ثابتاً مكيناً على مر الأزمان، وسيظل أي نجاح يتحقق لخصومه في القضاء عليه، عملاً جزئياً يسقط بمرور الزمن ولا يأخذ صفة الشمول أو الاستقرار، ولا ريب أن نظام الأسرة ليس قائماً على دوافع الغريزة أو صلات الدم كما يظن الماديون وإنماهو نظام عام ليس من صنع الأفراد وليس خاضعاً لما يريده المشترعون، كذلك فإن الإسلام يضع ضوابطه وحدوده موضع القرارات الثابتة التي لاترتبط بتغير العصور أو البيئات أو المجتمعات وهي لاتخضع للظروف الاجتماعية أو الاقتصادية التي تتغير بحيث يمكن الحذف منها أو الإضافة إليها وهذه الضوابط والحدود هي الربا والقتل والزنا والخمر والميسر، ولا يمكن أن يكون نظام المجتمع سليماً في مفهوم الإسلام إلا إذا تأكد إقرار هذه القيم بالمنع.

العلوم الاجتماعية

هذه العلوم الاجتماعية علوم تجريبية، تستمد فروضها ونظرياتها من مسبقات مادية، وأهداف خاصة، وتعتمد على الانتقاء من نتاج الكشوف الأثرية القديمة وهي إحصائية تهتم بالظواهر، ودراسة الأوضاع القائمة دون أن تكون لهاالقدرة في إعطاء الإجابات أو أوجه العلاج، فهي تحلل الصور ولا تأتي بنتائج، شأنها في ذلك شأن

العلوم المادية الحديثة التي وصفت بالوضعية، فهي لا تعطي للنفس الحائرة ما يرد إليها الأمن، ولا تقدم وجهة النظر الإيجابية التي توجه المجتمع أو تصلحه، وإنما هي تثير الشبهات والشكوك وتدع المتعرض لها في حيرة دون يقين أو عطاء صحيح، وقد ثبت خطأ محاكمة الإنسان ومجتمعه لقوانين المادة التي تنطلق من فرضية أن الإنسان مادة وجسم وأن ليس له قوى أخرى «وشأنها في ذلك شأن علوم النفس والتحليل الفرويدي) ولا ريب أن مثل هذه العلوم الاجتماعية والنفسية إنما تخضع لأهواء الفلاسفة ومزاجهم الشخصي، وهي نتاج عامل واحد من عدة عوامل تسيطر على المجتمعات والفكر البشري، هذا العامل هو العصر وأحداثه، وأغلب هذه العلوم تعتمد على الأسطورة الإغريقية وتتخذ منها تصوراً عاماً للحياة، ومع أنه قد تكشف لمدرسة العلوم الاجتماعية أن الظاهرة الإنسانية ليست كالظاهرة الطبيعية وأنها من نوعية مخالفة، وأن الظاهرة الاجتماعية ليست شيئاً ملموساً يقاس كما تقاس الظاهرة الطبعية فإن هناك خطة للإصرار على الخطأ، ولقد أشار العلماء التجريبيون إلى أن الظاهرة الإنسانية لاتخضع للقياس المادي وتشذ عنه، وتتميز بحرية باطنه فيها ولا يمكن التنبؤ بمجراها أو وقت وقوعها، وأن الظاهرة الإنسانية أقرب إلى الذات والإنسان ذات وليس موضوعاً. بالرغم من هذا كله فإن أصحاب الفلسفات المادية ما يزالون يخدعون ويغالطون.

ولقد أشار كثير من العلماء إلى فشل المنهج التجريبي، وكذلك فشل المنهج الرياضي في تحليل الظاهرة الإنسانية التي استعصت على التحليل، ذلك لأنها من عند الله وأن لها قانونها الأصيل الذي تخضع له، ولقد أشار الكثيرون إلى أن الظاهرة الإنسانية لايمكن أن تدرس بمنهج مادي صرف وأنه لابد من منهج جامع متكامل للمادة والروح حتى يمكن استنباط نتائج صحيحة.

إن البحث كله يواجه الفشل المحتم، لأنه يجرى في نطاق المادية الصرفة ولم يخرج إلى حيز الاعتراف بالروح مكملة للمادة أو بالغيب مكملاً للشهادة، والخطأ كل الخطأ هو الظن بأن العلم يستطيع أن يحل كل شيء والخطأ الأكبر في محاولة فهم الإنسان

لنفسه من غير الطريق الصحيح، ومن هنا فإن نظرة المنهج الاجتماعي للمجتمع ستظل عاجزة عن تحقيق شيء لأنها قاصرة ومحدودة وقائمة في مجال المادة وحدها، ولقد أجاب الرجل الفرنسي عن هذه النظرة بوضوح حين قال. هل يمكن أن تكون الحقائق البشرية يسيرة إلى أن تصبح نظريات أو يكشف عنها التعبير المجرد، إن الكشف عن قوانين المادة يمكننا من السيطرة عليها وتسخيرها في مرافق حياتنا، ولكن الإنسان ما شأنه بالقوانين: من قال: «إن الإنسان مادة فحسب».

إن الغاية هي تدمير المجتمع البشري بوضعه في هذه المعايير المادية التي ترى أن الدين والزواج والأسرة ليست فطرية في الإنسان كما يقول دور كايم، وكما أن الإسلام يقول إن الأمور تبدأ بالفرد فإن النظرية الاجتماعية تحاول أن تلغى هذه الفردية وترى أن الحياة الاجتماعية هي التي تشكل الفرد وأن الفرد مجبور على الخضوع للحياة الاجتماعية، ليست له إرادة خاصة ولا قوى علي التعبير، يقول دور كايم:إن الفرد لاقيمة له ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية وإنما القيم كلها للمجتمع الذي يخلق الأديان والعقائد والقيم الروحية وكلها عبث لاقيمة له ما لم يكن نظاماً من نظم الاجتماع) إن الهدف هو هدم الفرد وهدم الأسرة لحساب الجماعية الأممية، إن دور كايم ومدرسته لايعترف بأن الكيان الإنساني للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية بل نظره هو الصواب ولا يعترف دور كايم بأن الحياة البشرية ذات الصفة الاجتماعية يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردي وإنما يفسرها وجود (عقل الجماعة) خارج نطاق الأفراد، وهو يرفض أن نظام الأسرة مرتبط بوجود العواطف التي يكنها الأباء للأبناء،ويرفض العلاقة الزوجية وفروعها ويرفض وجود عاطفة دينية فطرية لدي الإنسان،ويرفض مسألة الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء، ويرفض القول بأن نشأة الدين والزواج والأسرة فطرية،ويرى أن التاريخ يوقف على أن هذه النزعات ليست فطرية أصلاً.

وهو يصدر في هذا من فكرة الجبرية الاجتماعية التي لاتجعل للفرد إرادة ما، وتقوم نظريته على التفسير الحيواني للإنسان ويرى أن الأخلاق ليست قيمة ذاتية

ولا هي ثابتة على وضع معين،وأن المجتمع هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان، ويقرر مع فرويد أن تعدد الأخلاق يعوق التطور وأن الأخلاق كبت ضار بكيان الإنسان.

يقول الدكتور عاطف غيث: إن واضع علم الاجتماع الذي تعتمد على نظرياته في جامعاتنا هو العالم اليهودي الفرنسي (أميل دور كايم) الذي حاول مع من ردد آراءه (ماكس فيبر وفلفريد ماريتو) أن يطمسوا فعالية الإنسان ويجعلوه عبداً لمصير مجهول وحاولوا كذلك أن يمنعوا حركة التاريخ ويبعدوا الأحداث التاريخية عن مضمون الواقع المعاصر حتى لايتعرف الباحث على حقيقة مسيرة التاريخ نحو هدفه الذي لابد منه،وهو ضرورة تحرير المجتمع الإنساني من القيود التي كبلته قروناً طويله، ودور كايم هو صاحب الأفكار التي تقف حائلاً أمام الإنسان دون التخطيط لمستقبله، إن الدراسة في جامعاتنا تتحرك في إطار ينبع من تعاليم دور كايم وماكس فيبر وماريتو وكلها تدور في حلقة مؤداها أن إرادة الإنسان ليست بالانطلاق الذي يمكن معه تغيير المجتمع وأن الأفراد هم ورثة النظام الاجتماعي وليسوا إلا صوراً متشابهة مكررة،كما أن إطار الدراسة فيه يدور حول مجموعة من المسلمات يجب التسليم بها وعدم معارضتها وعلم الاجتماع على هذه النحو لايزال متناقضاً وانهزامياً ويعتمد على خليط متناقض من النظريات، إن هذا العلم قد وضع أسسه علماء يهود كرسوا حياتهم وعلمهم لخدمة الاستعمار فحاولوا أن يجعلوا هذا العلم عاجزاً عن فهم حقيقة المتغيرات في المجتمعات، وهو بهذه الصورة ثمرة من ثمار الرأسمالية وسلاح في يد الإمبريالية لمساندة أيدلوجية معينة وأن نقله دون تحفظ يعتبر أداة انهزامية، إن دور كايم ومن قبله كونت على أساس تفسيرهما للعوامل المواجهة لحركة التاريخ والمجتمع الإنساني يغفلان عمداً الصراع الذي خاضه الإنسان المغلوب على أمره ضد طغيان العبودية.

٦- إن طابع العلوم الاجتماعية هو الجبرية وإثارة الشكوك من غير الوصول إلى اليقين وطرح الشبهات وتركها قائمة، وأن علم الاجتماع كعلم النفس وغيره يقوم

على محصلة دراسات وأبحاث أجريت في مجتمعات معينة وتدخلت فيها توجيهات وتحديات وأهواء خاصة تختلف اختلافاً تاماً عن أوضاع مجتمعنا الإسلامي، إن القول بحتمية الإنسان تنفى المسئولية والمسئولية الفردية إحدى دعائم الفكر الإسلامي، وأن نفي الإرادة عن الإنسان وإجباره ليس من مفهوم الإسلام، هذا بالإضافة إلى أهداف هدم الفردية وهدم الأسرة وهدم فطرية الدين ومرجع هذا كله إلى الأساس الخاطئ الذي يقوم على أن النظرية المادية للإنسان نفسه.

٧- يتمثل الفارق بين مفهوم الإسلام للمجتمع ومفهوم الفكر الغربي في عدة نقاط جذرية: تقوم أساساً على الخلاف العميق من حيث التكامل والانشطار فالفكر الغربي قد حدد موقفه بالنسبة للأساس الذي يرسى عليه أيدلوجياته المختلفة وهو «أساس مادي بحت» فالدين في الكنيسة يوم الأحد، أما باقي أيام الأسبوع فإن مختلف حريات الربا والحياة الاجتماعية تحكم المجتمع وتمثل المنفعة عاملاً هاماً في حركة هذه الحريات،بعيداً عن البذل أو التضحية أو غيرها مما يفرضه الإسلام على المجتمع الإسلامي، وهناك الفارق الواسع بين العمل في المجتمع لغاية قوامها الجزاء الأخروي وبين العمل على قاعدة: ليس بعد الموت شيء، وهو ما يسيطر على المجتمع الغربي اليوم من اتجاه، وإذا راجعنا مفاهيم الاجتماع الغربية في مفرداتها جميعاً وخاصة في قضايا المرأة وجدنا خلافاً واسعاً وجذرياً،فالإسلام يعارض مفهوم الانتخاب الطبيعي والدعوة إلى إبادة الضعفاء أو تعقيم الفقراء، ويجعل المجتمع كله رابطة واحدة يحمل قويه ضعيفه كما يعارض الإسلام استعلاء الإنسان وفي نفس الوقت يعارض وصفه بأنه حيوان تحكمه غرائزه ويضع الإنسان موضعه الطبيعي ويعطى الإسلام أهمية كبرى للإنسان كفرد في مجتمع ويقرر أن كل فرد في المجتمع يستحق من الاحترام والطاعة قدر ما يحمل من المسئولية ويتحلى به من صفات طيبة كالعقل والعلم والخلق ويدعو الإسلام لتحقيق الرغبات الجسمية عن الطريق المشروع بالزواج ولذلك فهو يحرم الزنا والبغاء وتحريم الزنا هو بمثابة ارتفاع بالمرأة عن أن تكون لعبة يلهو بها الرجل ولقد اعتبر الإسلام التكوين الفردي أساس التقدم

وقرر أن الرقابة لاتأتي من فرد على فرد ولا من هيئة وإنما هي رقابة الإنسان لربه، وهذا الخلاف العميق الواضح يكشف عن أن أغلب المذاهب الحديثة في الأخلاق والنفس والاجتماع إنما تحاول أن تحطم الإنسان وهي في مجال المسلمين دعوة إلى تدمير المجتمع المسلم والحيلولة دون قدرته على المقاومة إزاء الغزو الأجنبي، ولذلك فإن المجتمع الإسلامي الذي يعيش الآن مرحلة الاضطراب بين الأصول الصحيحة إلى أن تحقق له السلامة والأمن وبين النظريات الوافدة التي تحاول أن تدمره نهائياً. هذا المجتمع في حاجة كبرى إلى أن يحكم خطته ويعرف طريقه ونظام الإسلام هو نظام إلهي محكم من لدن حكيم خبير، وهو أصدق المناهج لكل المجتمعات،فقد حدد العلاقات الخارجية بين الفرد والفرد وبين الفرد والجماعة وبين الفرد والدولة وبين الرجل والمرأة وبين المجتمع والمجتمعات الأخرى، وقدم ضمانات كاملة للأمن والاستقرار في شتى صوره وسد المنافذ على كل ريح تحمل لهذا المجتمع سموم الفوضي والخوف والقلق، هذه السموم التي لاينجو منها أي نظام آخر، والتي تنذر المجتمعات المتحضرة دائماً بالتطاحن الداخلي والتدهور والفناء. والمقارنة البسيطة بين منهج القرآن ومنهج الدراسات الاجتماعية والفلسفية النفسية (الوضعية) يكشف عن الفارق البعيد، بين مناهج تجريبية تقوم على الفوضى ولا يستطيع امتلاك قدرة الإحاطة بالنفس الإنسانية أو الرؤية الشاملة لمتغيرات المجتمعات وبين أصالة المنهج الإسلامي الكامل الدقيق القادر على العطاء بالنسبة لكل الظروف والبيئات، عطاءً إيجابياً دافعاً إلى الخير والنماء بعيداً عن الأهواء المضلة والانحرافات إلى الشرور والرذيلة وأبرز هذه المعالم هي إقرار النظم الثابتة: نظام الأسرة، نظام الميراث، ونظام العبادات، نظام الحدود، نظام البيع والاقتصاد، نظام السلم والحرب، وليس من عاصم للمجتمع من الانهيار والفساد إلا إقامة حدود الله:

حد قتل النفس، حد أخذ المال، حد هتك الستر، حد ثلب العرض، فالمجتمع الإسلامي يدعو إلى إقامة المسئولية الجامعة المشتركة بين أهل المجتمع جميعاً لحماية السفينة من الغرق على أساس قواعد ثابتة.

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- المجتمع مسئول عن أهله جميعاً فقراء وضعفاء ومرضي.

٣- المجتمع يقدم تجربته إلى الأجيال الجديدة.

٤- المجتمع يحمى نفسه من اختلاط الأنساب.

٥- المجتمع يحمى نفسه من ضياع أمواله ووصولها إلى أهل الربا والمتسلطين.

٦- ترابط الأسرة العميق بين الرجل والمرأة (الزوج والزوجة) وبين الآباء والأمهات من ناحية وبين أبنائهم (وحق الآباء على الأبناء بعد أن يكبروا).

والمجتمع الإسلامي كما يقول علماء الفقه: هو عقد مشاركة وتضامن بين جميع أفراده (الأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء) وقد حث الإسلام على رعايتهم جميعاً وبذلك عارض الإسلام نظريات الجنس الممتاز وقتل المرضى والضعفاء.

وما قرره الإسلام أن الضعفاء خمسة:

١- من جهة التركيب (النساء).

٢- من جهة السن (اليتامى).

٣- من جهة المعاش (الفقراء).

٤- من جهة الرقبة (العبيد)

٥- من جهة الوطن (أبناء السبيل).

وقد حث الإسلام على رعايتهم جميعاً كذلك فقد دفع الإسلام المجتمع كله في طريق واحد دون السماح لعائق أن يقف في وجه تلك الطبقات ولا سيما العائق الطبقي الذي يحكم على الإنسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها، لا على أساس مواهبه، وقدراته وما يمكن أن يقوم للمجتمع من خير، كذلك فإن كل فرد في المجتمع الإسلامي يستحق من الاحترام والطاعة بقدر ما يتحمل من المسئولية وبقدر ما يتحلى به من صفات طيبة.

٦٣.

٨- لماذا المجتمع الإسلامي الآن: ليس في مكان الصدارة أو القيادة ولماذا هو في دور التابع الذي يتطلع إلى ما في أيدى الناس من غذاء وعلاج وعنده أكبر عطاء.

لقد انفصل المجتمع الإسلامي تحت عوامل شتى عن مصدر التوجية القرآني الذي لاحياة له إلا به، فحل عليه ما يحل على كل من يخالف سنن الله وقوانينه، والمحتمع الإسلامي اليوم يبحث عن نظرية اجتماعية يبنى عليها حياته وعنده أصدق المناهج، وهو حين يقتبس المناهج الغربية إنما يأخذ من أمم تمر بمراحل الضعف والاضطراب وتعيش نهاية تجربة حيث يصرخ العالم الغربي كله طالباً النجاة ملتمساً منهجاً جديداً وليس للمجتمع الإسلامي ولا للمجتمع البشري كله من طريق إلا طريق القرآن ومنهج الإسلام: المنهج الكامل الجامع القادر على العطاء، الذي يقوم على الضوابط والحدود، التي تصلح الإنسان وتدفعه إلى الأمام.

(٤٠)

الأســــرة

الأسرة هي عماد المجتمع ونواته الكبرى، وبغير الأسرة فإن المجتمع معرض للفناء، ولا شك أن محاولة تقويض الأسرة هدف من أكبر الأهداف الصهيونية والماركسية وكل القوى الهدامة، ولا ريب أن بناء الفرد الذي هو أقوى دعائم المجتمع مرده إلى الأسرة، ممثلة في المهاد (الأم) والإطار (الأب) فالأسرة هي حلقة الاتصال وعامل البناء بين الفرد والمجتمع، وهي نقطة التحول في تاريخ الحضارة لأنها تقوم بأول عملية اجتماعية هي عملية التنشئة الاجتماعية فهي التي تدعم فيه بالتربية وبالقدوة الجذور الثابتة للدين والأخلاق والآداب والمعاملات والذوق ومظاهر السلوك الخاص والعام حتى تجعل منه إنساناً اجتماعياً يستجيب لمؤثرات البيئة ويخضع لأحكامها، وهي مصنع الرجال طالما استمسك الآباء والأمهات بالمسئولية والإرادة، فهي تعتبر أكثر من كونها مجرد وعاء لأمور النسل وتربية الأبناء وإعدادهم للقيام بدورهم في الحياة الاجتماعية،فالأسرة كجماعة من شأنها أن تزود أعضاءها بكثير من الإشباعات الأساسية حيث تدعم روح الحب والتعاطف بين الزوجين وبين الآباء والأبناء وبين الأطفال أنفسهم ولا ريب أن الأسرة تكوين فطري لايستغني عنه النوع الإنساني، ولذلك فإن الإسلام حث على بنائها ورغب في تكوينها حتى جعل الزواج في بعض المواقف فريضة عند خشية العنت، وأعلن أنه من آيات الله وآثار رحمته وقد ذلل الإسلام الصعاب التي تعترض تكوين الأسرة وعمل على القضاء عليها حرصاً على تحقيق هذه الدعامة الهامة في حياة الأفراد وفي حياة المجتمع، ولذلك فإن القيود التي تقوم الآن في وجه الزواج إنما هي من معضلات المجتمع، وعوامل اضطرابه ولا بد لكي يتحقق هدف الإسلام أن تذلل كل الصعاب القائمة في وجه الزواج.

وقد حرص الإسلام لتدعيم الأسرة على حياطة الزواج بضوابط هامة منها تحريم

النظرة والخلوة والزنا حتى لايجد الشباب محيصاً عن الزواج بوصفه ضرورة من ضروريات بناء المجتمع الإسلامي، ثم حث الإسلام على حسن المعاشرة،ودعا إلى الرفق والتآلف وجعل حل الأسرة وهو الطلاق أبغض شيء إلى الله، ولذلك فإنه لم يدع ذلك الأمر بغير ضوابط فقد أرشد عند إرادة فصم عرى الزواج أن يتم عديد من الإجراءات التي من شأنها أن تفادي ذلك، فعلى الزوج أن يطالب لنفسه بالإبقاء على رابطة الزوجة وإن لاقي في ذلك شيئاً من التعب.

﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ .

فإن عجز عن ذلك يجب اللجوء إلى التحكيم: وأجاز الإسلام إيقاع الطلاق في حالة الطهر حتى يتأكد الإنسان من أنه طلق زوجته وهو في حالة لاتمنعه من الاتصال بها وحتي تكون هناك إمكانية رجعة الزوجية في مدة العدة بدون مهر جديد ولا شهود:

كذلك جعل الطلاق منجماً مفرقاً على مرات ثلاث وجعله على وضع يمكن الزوجة من مراجعة نفسها وتدبر عاقبة أمرها،وجعل للمرأة الحق في أن تطلب تطليقها نفسها.

كذلك حدد الإسلام وظائف الأسرة:

أولها: إنجاب الأولاد.

ثانياً: الوظيفة الجنسية التي تمنح المرء علاقة طبيعية مشروعة.

ثالثاً: المهمة الكبرى وهي تربية الأبناء وتنشئتهم على الدين والخلق واحترام الكبير وعمل الخير والعطف على الضعيف.

ولقد رأي الإسلام الأسرة المسلمة أن تحفظ ذاتها، وكيانها، من التحديات والأخطار التي تواجهها والتي تحاول أن تمزقها أو تحطم وجودها حماية للأطفال من أن يضيعوا في غمار الحياة دون توجيه صحيح أو أن يقعوا أسرى الأزمات النفسية والاجتماعية التي تجعلهم ينشأون غير أسوياء. أو كما قالت خولة بنت ثعلب: (إذا

ضمهـم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلى جاعوا).

٢- الأسرة هي الفطرة ﴿ ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ وقد أرسى الإسلام بناء الأسرة على الدين ودعا إلى حماية الطفل الوليد قبل ولادته بالتخير وإحسان الانتقاء:

«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

ودعا إلى حسن الاختيار وجعل الأفضلية للمرأة صاحبة الدين وفضلها عن صاحبة المال أو الجمال أو الحسن «فاظفر بذات الدين» ولم يجعل الحب أساساً للأسرة، وإنما جعل المشاركة والإفضاء: أكل البيوت تبنى على الحب، أين تقوى الله وعهده وأين جبادك منه ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ وأوجب الإسلام على الأبوين رعايته قبل أن يولد وهو جنين في بطن أمه، فشرع لها الفطر في رمضان إن خشيت عليه، ودعا إلى مناداته بأحب الأسماء، وأن يؤذن في أذنه باسم الله عندما يولد حتى يكون أول كلام يسمعه وشرع الأحكام لحمايته وإتمام رضاعته وجعل لمن لاتستطيع الرضاعة أن تستأجر من ترضع لها، وشرع الأحكام التأديبية وتعليمه وحياطته بالرحمة والتقوى حتى ينشأ ربانياً مؤمناً منذ الصور الأولى التي يرى عليها والديه، ودعا إلى حمايته ﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ ووضع له منهجاً للطعام والشراب والثياب وحفظ اللسان والبصر والسمع والجوارح، والوضوء وقضاء الحاجة وغسل اليدين وفي معاملاته وصلته بالناس وصلته بربه وتعامله مع والديه وإخوته وأقاربه ودعا الآباء إلى أن يورثوا أبناءهم العلم والتقوى إلى جوار المواريث المادية حتى قال النبي ﷺ : «لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» وشدد الإسلام على الآباء مسئولية الرعاية: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظه أم ضيعه، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ حق الولد علي الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وأن لايرزقه إلا طيباً».

٣- يقول الدكتور على عبد الواحد وافي: الواقع أن نظام الأسرة ليس من صنع

الأفراد ولا هي خاضعة في تطورها لما يريده لها القادة والمشترعون وإنما يقوم وفق نواميس عمرانية ثابتة لايستطيع الأفراد سبيلاً إلى تغييرها أو تعديل ما تقضى به.

والواقع أن نظام الأسرة في أمة ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعتقدات هذه الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقي وتاريخها، ولعل هذا هو السر في صمود الأسرة الإسلامية في وجه التيارات الغربية التي تحاول اعتبار الزواج مجرد رابطة عقدية مدنية كسائر العقود المدنية وتحررها من السند الديني والعقائدي الذي يحميها من عواصف الزمن ومخاطر الأغلال.

التربيـــــــة

لابد لحماية الأسرة من الأخطار قيام نظام تربوي إسلامي يشترك فيه الأب والأم، ويقوم أولاً على القدوة الحسنة، وغاية التربية في الأسرة، خلق الفرد المتحرر من كل الضغوط الجاهلية، الفرد العابد لله المطبق للقوانين الإسلامية في جميع المجالات والأدوار والمراحل، وهي تربية تشمل جميع جوانب الإنسان: النفسية والعقلية والجسمية والروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن أهم ما يحرر منه الطفل: الحرمان والخوف والجهل، ولا يخلق هذا إلا الإيمان بالله الذي يبعث الطمأنينة في النفس فلا يخاف من حرمان أو مجهول ولا فقر ولا عوز ولا مرض ولا موت، وكذلك تحريره من الخرافات والاعتقادات الفاسدة والموروثة التي تبعده عن النظرة الصادقة.

وليس أعظم أثراً من تقويم الطفل على الفطرة وتحرير نفسيته من الأهواء لينشأ وينمو قوي النفس، وليس أفعل في نفس الأبناء من قيام الثقة بينهم وبين الآباء علي النحو الذي يحل الحب محل الخوف، ويمكن الطفل من عرض ما يصادفه من معضلات وتلقى وجهة نظر الآباء فيها. فإذا عجز الآباء عن إقامة هذه الثقة نفر الولد

أو الفتاة وذهبا ليسألا من سوف لايدلهم على خير، ولا يقيم هذه الثقة إلا وجود الأسرة المتحابة المتعاطفة القادرة على رعاية أبنائها لحظة بعد لحظة دون قسر أو إعنات، ونحن نعتقد أن سر اضطراب العلاقة بين الآباء والأبناء إنما يرجع إلى الآباء أساساً الذين انصرفوا إلى أهوائهم وتركوا أبناءهم نهباً للأوهام والوساوس وما يسمعونه من قرناء السوء، ولو أنهم أحرزوا هذه الثقة لتمكنوا من إنبات أبنائهم إنباتاً طيباً وبناء الحصانة النفسية التي تحول بينهم وبين الانحراف، ولا ريب أن الأسر المريضة تساهم إلى حد كبير في أزمات الشباب وعجزه عن فهم الحقائق، وقيام طابع الغرور الذي ينشأ أساساً عن الجهل وكرد فعل لبعض المواقف مما يؤدي إلى الانحراف بهم منذ سن باكر ووقوعهم في أخطار الجريمة والفساد.

والآباء عليهم مسئولية كاملة في هذا، فهم قادرون إذا حملوا مسئولياتهم محمل الجد أن يكسبوا قلوب أبنائهم بالثقة شريطة أن يكونوا هم قدوة ومثلاً عالياً يحتذى.

ولقد أشار الأطباء الباحثون أن أكثر ما أصاب الأطفال بالانحراف يرجع إلى ضعف السلطة الأبوية لا العكس، والسلطة الأبوية هي ضوء كاشف وحماية لهذه الفترة من الحياة، ويحتاج إلى مهارة ومرونة وذكاء في القيام بمسئوليتها شديطة ألا يحس الطفل بأنه شيء مفروض عليه، كذلك فإن على الآباء أن يفتحوا للأبناء طريق فهم جيلهم وعصرهم، فتكون تربيتهم من شقين: شق يرمى إلى بناء الثوابت التي لا سبيل إلى قيام حركة الحياة بدونها وهي حق الله، وأن تكون هناك جوانب الحركة التي تساير العصر والظروف والبيئة شريطة عدم الخروج علي حدود الله.

٤- تقوم الأسرة على علاقة الرجل بالمرأة وفق نظام كامل مشروع في حياة واحدة لغاية واحدة، وهو نظام لايقضى على فردية الاثنين ولا يطلب صهر أحدهما في الآخر، وكل ما يطلبه الإسلام أن يكون هناك انسجام وتعادل بين الطرفين لايطغى أحدهما علي الآخر ولا يستهين أحدهما بالآخر.

﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ فالمماثلة قائمة، أما

هذه الدرجة التي خص بها الرجل، فهي (القوامة): الرجال قوامون على النساء، وليست هذه القوامة سلطة أو سيادة، وإنما هي توجيه وقيادة، ولم يجعلها الإسلام في جانب الرجل إلا لأن الرجل بحكم تكوينه وبطبيعته ذو مسئولية في الحياة الخارجية لاتستطيع المرأة بحكم طبيعتها أن تقوم بها، ومن طبيعة المرأة أن تحمل وتلد، لحفظ حياة الأسرة وصيانتها أمراً يجب أن يتكفل به الرجل، وإذا كانت الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع فإن المرأة هي عماد الأسرة ونقطة الارتكاز فيها.

٥- ولما كانت وظيفة المرأة ذات مسئولية واسعة تجاه ذويها وهنائهم وتشكيلهم فقد رأي الإسلام أن تكون تربيتها وتعليمها أوسع من تربية الرجل وتعليمه وأدق تنظيماً وأبرز ما يتصل بذلك أثر المرأة في تكوين أولادها، تلك مهمة الأم الخطيرة التي تعجز الكثيرات الآن عن تقديرها بينما هي مصدر تشكيل الرجل القادم،ولقد تبين للأطباء والعلماء الاجتماعيين مدى المعاناة العاطفية التي يتعرض لها الأطفال نتيجة نقص الحنان الفطري الذي جبلت عليه قلوب الأمهات ومدى الخطر الذي ينتجه اتجاه الأم إلى أن تعهد بهم إلى الخدم ودور الحضانة، كذلك فإن هناك خطر تعدد مراكز السلطة داخل الأسرة بين الوالدين مما يوقع الأبناء في حيرة نفسية ومما يشتت عواطفهم ويبدد أمنهم النفسي الذي كانوا يستمدونه من «الأب» باعتباره المصدر الأساسي للأسرة.

ولا ريب أن دور الأب في الأسرة له أهميته ولا ريب أن الأم التي تعرف رسالتها الحقة إنما تعين على بروز هذا الدور ودعمه.

يقول الدكتور دين دينس في كتابه أطفال بلا أسر: إن ذكاء الطفل ينمو وقدرته على الكلام تقوى إذا نشأ بين أبويه ولم يترك للمحاضن أو رياض الأطفال أو المربيات الأجنبيات.

ويشير كاريل إلى ضرورة تعليم المرأة تعليماً خاصاً طبقاً لتكوينها ومهمتها: «إن الاختلافات بين الرجل والمرأة ليست في الشكل الخاص للأعضاء التناسلية وفي وجود الرحم والحمل بل هي ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك، إن الاختلافات بينهما

تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محدودة يفرزها المبيض وقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة، والحقيقة أن المرأة تختلف كثيراً عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها والأمر صحيح بالنسبة لأعضائها ولجهازها العصبي أيضاً والنساء وحدهن من بين الثدييات هن اللاتي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين، كما أن النساء اللاتي لم يحملن لسن متزنات توازناً كاملاً كالوالدات،فالأمومة لازمة لاكتمال نمو المرأة وعلى النساء أن يتمن أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجل فيجب ألا يتخلين عن وظائفهن المعهودة.

ويشير العلماء الأطباء إلى اختلاف تركيب جسم المرأة في الأنسجة والخلايا فيقولون: إن جسم المرأة ينمو نمواً تستعد به للولادة والتربية فيصمم في تركيب جسمها منزل لتستقبل الكائن الجديد وتعزل نصيباً من غذائها ليتحول إلى غذاء لذلك الضيف ومع الشباب يعروها المحيض الذي يتركها في حالة شبه مرضية ويؤثر في جهازها العصبي والذهني فيصيرهما في حالة إرتخاء وعدم انتظام ويحرمها كثيراً من حريتها العملية وخاصة في مراحل أربع: فترة الحمل، وفترة النفاس، ومرحلة الرضاع،ومرحلة الحضانة والتربية.

٢- حين أعطي الإسلام المرأة من الحرية والكرامة والمساواة ما لم تمنحها إياه حضارة سابقة أحاط ذلك كله بقيم أساسية عامة في مجال الأخلاق والدين تجري من خلالها حركة المرأة على قدر كبير من التحوط لها والمحافظة عليها ورفعها إلى مجال الكرامة والكمال وحماية لها من ذوي الأغراض والأهواء، وأبرز ما وصى به الإسلام ودعا إليه المرأة هو المحافظة على ذاتها من أن تعرض لغير من هو أحق به حلالاً وهو الزوج إلى الكرامة في إبداء الزينة لهذا الرجل المصاحب في الحياة بحق الشرع فليس لغيره أن يطلع على ذات المرأة أو جمالها، أما بالنسبة للناس جميعاً فإن

كرامتها تقتضيها أن تواجههم في ملابس لاتشف ولا تكشف ولا تعرى،إيماناً بأنها ليست أداة من أدوات الزينة أو المتعة لكل الناس، وليست معرضاً للأزياء أو مصدراً من مصادر الترف لكل ناظر، وهكذا حفظ لها الإسلام كرامتها في مواجهة الناس فهي حين تلقاهم تلقاهم في سمت كريم،ولغة واضحة،وقول معروف صريح ومشاركة في العمل قوامها العقل والذوق،وليس قوامها الإغراء بالملبس المكشوف أو الكلمة الرخية، وللمرأة زينة الخروج فيها الحشمة والكرامة والخطو الحيي المنطلق دون رخاوة بعيداً عن قصد الفتنة أو تلقيها،ولها زينة أخرى في بيتها ومع زوجها تكون فيها حرة كل الحرية فهذا وحده هوالمجال الذي تعطى فيه ما تشاء للإنسان الوحيد الذي من حقه العطاء والأخذ حلالاً طيباً، ومن حق الله على المرأة:أن تؤدى فرائضه وتؤدي حق زوجها وأهلها وأطفالها بالصلاة والصدقة والسؤال والزيارة.

ومن حق المرأة تثقيف نفسها ثقافة نسوية خاصة وثقافة علمية عامة، فلها مجال في الثقافة بالإضافة إلى المجال العام يكشف لها دورها في بناء الأسرة وتربية الطفل ورعاية الزوج والقيام على مختلف الشئون المنزلية أداءً أو إشرافاً على من يؤديها.

ومن حيث يريد الإسلام لها من حقوق وواجبات ومجال عمل وطريق حياة إنما يريد أن يحررها عن أن تكون أمة أو عبدة أو أداة للرجل على النحو الذي يفهم في ظل الحضارات الوثنية القديمة أو الذي تحاول أن تصوره الحضارة المعاصرة، وحين تعتصم الفتاة بالإيمان والكرامة وسلامة الشخصية، إنما تدفع عنها كثيراً مما يواجهها في الحياة اليوم من أخطار وأسواء.

وتعليم المرأة وحقها في العمل موجودان في الإسلام وهو الذي أهداهما إلى الحضارة الغربية أصلاً ومن حقنا أن نمارسهما في حدود قيمنا ومفاهيمنا، فلكل أمر في الإسلام ضوابط وأصول، علينا أن نتمسك بها وأن نسترشد في ذلك بهدي النماذج الكريمة التي قدمها تاريخنا للمرأة المسلمة مجاهدة في سبيل الله وبانية للشباب النافع، وصانعة للحياة الطيبة ومؤازرة الرجل في عمله ومشاقه، ومرتفعة فوق مطامع الناس وأهواء المجتمعات ومحاولات الذين يريدونها رقيقاً من حيث

جعلها الله ذات سيادة وكرامة،لقد جعل الإسلام من حق المرأة العمل في ميادين معينة وشريطة ألا يتعارض مع المسئولية الأولى والكبرى: مسئولية الأسرة وتنشئة الأبناء والحفاظ على الكيان الخاص،فإذا تعرض بناء الأسرة للخطر كان على المرأة أن تلوذ به لتحميه، وأن تتنازل عن حقها في العمل الخارجي.

وعلى المرأة أن تعرف مكانها من العمل قبل أن تتزوج وبعد أن تتزوج، فإذا اتسع نطاق الأسرة كان جهدها في عملها قليلاً وكانت خسارة الأسرة ببقائها في العمل كبيرة.

٢- لقد حاول المنهج الغربي المطروح في أفق الفكر الإسلامي أن يخرج المرأة عن وظيفتها وطبيعتها ليضعها في مجال الذيل الاقتصادي والمتعة الذاتية، ولا ريب أن القانون الطبيعي الذي خصص المرأة لبناء البيت والأسرة والزواج وولادة الأبناء وتربيتهم هو قانون ثابت من قوانين هذه الحياة ولا يتغير،وأن كل معارضة له أو محاولة لنقضه من شأنها أن تفسد الحياة الاجتماعية كلها وليس الحياة الزوجية أو حياة المرأة نفسها،وقد أحدثت محاولة نقض قانون الأسرة في الغرب آثاراً بعيدة المدى حيث انهارت الآداب العامة واهتزت أركان الأسرة وظهرت أحداث خطيرة من الانحدار والخطأ.

إن أخطر عوامل تحطيم الأسرة المسلمة ونشر عوامل الانحلال فيها وإبعادها عن طريقها الصحيح هو الدعوة إلى الحرية الجنسية واتخاذ المرأة متعة يتمتع بها الرجال ومشاركة المرأة للرجل في مجالات الرقص والنوادي الليلية وقبول فكرة صديق العائلة وعدم تمييز الفتاة بمنهج تعليمي خاص يتفق مع مهمتها وشخصيتها وخصائصها، ولقد كان للنظريات التي قدمها ماركس وفرويد ودور كايم وليفي بريل أثرها في تحريف مفهوم حرية المرأة وعلاقتها بالرجل والأسرة والدعوة الغربية تهدف أساساً إلى إخراج المرأة من البيت وهدم الأسرة، ودفعها إلى الحياة لتخوض بحار الرغبات والأهواء على حساب المجتمع وكرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأجيال القادمة.

محاولات لهدم الأسرة

إن محاولات هدم الأسرة في المجتمع الغربي يجب أن تضع أمامنا عبرة واضحة، تقتضينا الحفاظ على هذا الكيان الأصيل الفطري الذي لم تصنعه المجتمعات ولا تستيطع أن تهدمه الفلسفات. فالأسرة في المجتمع الغربي بشقيه تواجه اليوم أزمة شديدة تتمثل في عديد من الظواهر:

أولاً: هناك محاولة تجاهل الأسرة كخلية اجتماعية بدعوى أنها تشكل فاصلاً بين الفرد والدولة وأن التعلق بها ينال من تعلق الفرد بالجماعة الكبرى، وولاته لها، وهذا الاتجاه هو بمثابة تبرير من المدرسة الاجتماعية والماركسية لهدف هدم الأسرة غير المعلن والمعروف أن العاطفة الاجتماعية لايمكن أن تتم إلا في نطاق الخلية الأولى.

ثانياً: هناك الدعوى التي تقول بأن وظيفة الأسرة قاصرة على مجرد إشباع الاحتياجات الجنسية والعاطفية للزوجين، وهذه الاحتياجات يمكن إشباعها من غير وجود أسرة، ولا ريب أن هذه محاولة مسمومة لتفسير وجود الأسرة التي تقوم مهمتها في الأساس على إنشاء وتربية واحتضان النشء ورعايته وبناء القيم والمثل التي تحفظ للمجتمع استمراره وتطوره.

ثالثاً: محاولة استغلال المرأة اقتصادياً وتعين علاقاتها بالرجل والأسرة من حيث إن لها مورداً فهي لاتخضع للزوج، ومن حيث إن لها حريتها العاطفية فهي لاتخضع للطفل أو البيت، ولا ريب أن لهذا الانحراف آثاره البعيدة والعميقة في الأجيال الجديدة التي ستجد المعاناة العاطفية نتيجة نقص الحنان الفطري الذي لاتقدمه إلا قلوب الأمهات.

رابعاً: العمل على تعدد مراكز السلطة داخل الأسرة بين الوالدين، مما يوقع الأبناء في حيرة نفسية ويشتت عواطفهم ويبدد أمنهم النفسي الذي يجب أن يستمدوه من (الأب) باعتباره المصدر الأساسي للسلطة وصاحب القوامة.

خامساً: الدعوة إلى استقلالية الأسر الجديدة وقصورها عن رعاية الآباء والأجداد

من كبار السن الفقراء والمحتاجين مما يعكس أثاراً سيئة على ذوي الفضل الأول على الأبناء وهذا يعني سقوط عاطفة الأبوه والأمومة من الأبناء.

سادساً: مشكلة الحرية لدى المرأة، ومحاولة دفع المرأة إلى التحرر من القيم الدينية والأخلاقية، ولقد كان عمل المرأة خارج البيت مشجعاً لهذا الانحراف وعاملاً أساسياً على زعزعة كيان الأسرة ومؤشراً من مؤشرات انهيارها.

سابعاً: قضية الاختلاط، وما يتصل به من ظاهرة صديق العائلة والانحراف الجنسي والزواج بدون عقد شرعي والمعاشرة بالمشاركة مع الأزواج وسقوط الغيرة من أجل الزوجة.

وفي ضوء هذه المعضلات التي يعيشها المجتمع الغربي والأسرة الغربية والتي بدأت تهاجم المجتمع الإسلامي ترى إلى أي حد كانت دعائم البناء الذي جاء به الإسلام للأسرة محكماً وعاملاً هاماً في حمايتها وحماية الفرد وحماية العرض، وكيف حفظ الإسلام كرامة المرأة وحماها من مزاج الرجل الفاجر وقد صور ذلك رسول الله ﷺ حين قال:

«لاتطلقوا النساء إلا عن ريبة: إن الله لايحب الذواقين والذواقات».

ولقد حرص الإسلام على إقرار الاتصال بين الرجل والمرأة علماً أنه من طبيعة البشر ولكنه دعا إلى تنظيمه ووضع القواعد له والحدود والضوابط حتى لايكون لهواً ولا هوى متبعاً، وإنما ليكون عاملاً حقيقياً لأداء مهمته الطبيعية في بناء الأسرة واستمرار العمران، ولذلك حرم الإسلام العدوان والاغتصاب وإفساد السلائل، وأعطى الحرية إلى الحدود التي لاتحقق عدواناً على الآخرين.

كذلك عنى الإسلام بالتمييز الواضح بين شخصية الرجل وشخصية المرأة، والحيلولة دون امتزاجهما أو تحول إحداهما إلى الأخرى، ودعا المرأة إلى أن تعرف الصفات الإيجابية التي تمثل رجولة الرجل والتي يكون بها الرجل أهلاً للاقتران بها، ولقد حرم الإسلام الزنا، تكريماً للمرأة وإعزازاً للأسرة وتنزيها عن أن تكون تلك العلاقة أداة

لمتعة الرجل.

وفي حالة عمل المرأة واختلاطها لابد أن تكون التربية الأساسية ومنهج التعليم نفسه كفيلاً بأن يبين أوجه الحماية والأخلاق والمحافظة على الكرامة والعرض، حتى لاتكون المرأة أبداً أداة متعة رخيصة للرجل أو الرجال الذين قد تلتقى بهم أو تعمل معهم ولا بد أن تكون لها هيبتها وكرامتها التي تحفظها من أصحاب القلوب المريضة أو الأهواء المذلة.

ومن حيث سهل الإسلام أمور الزواج ويسرها إلى أبعد حد فقد حفظ المجتمع والأسرة من البغاء الذي يتأتي جانب كبير منه نتيجة لتأخر الزواج،وفي العصر الحديث حرصت القوى الظالمة العالمية أن تهدم الأسرة وتفشى الزنا بتأخير الزواج وبدعوات تحمل طابع الحب والأهواء،لتضل بها الفتيات اللاتي لم تكونهن تربية إسلامية أصيلة أو قدوة سليمة،ولقد كانت المرأة المؤمنة دائماً قادرة على الحكم على الناس ومعرفة وجوه الخير والشر، ومستطيعة أن تفرض احترامها على مجتمع الرجال، وآية الدين في المرأة المسلمة العفاف والحفاظ على العرض والشرف.

ولا ريب كان لمفاهيم علم النفس والوجودية والفلسفة الاجتماعية المادية في جميع جوانبها أبعد الأثر في هز كيان الأسرة وتصديعها مما نقلت أثاره إلى المجتمع الإسلامي وإلى الأسرة المسلمة.

أولاً: مسئولية الأب ومسئولية الزوج: لاريب أن الأزواج هم الذين قصروا في فهم رسالتهم ومسئوليتهم وتركوا أمور تكوين الأسرة تجري وفق الهوى لا وفق الشرع، فاختاروا في ظل عوامل تحول دون النظر الصحيح، تحت عوامل البريق والأضواء والسهرات، أو جعلوا التقدير للجمال أو للشهرة أو لعوامل أخرى غير العوامل الأساسية التي يجب أن تقوم عليها الأسرة: هذا البناء الخطير، وكانت هذه العوامل نفسها حائلة دون قدرتهم من بعد على توجيه الزوجات إلى الوجهة الصحيحة، إذا كانوا هم بطبيعتهم مقدرين للمسئولية، ومن ثم فإن الأمور لاتلبث أن تصل إلى مسئولية الأب العاجز عن إدارة البيت أو توجيه من فيه وجهة سليمة

وقد يقع الخلاف والانفصال ويتعرض الأطفال لتحديات خطيرة لاشك يكون لها أثرها في حياتهم من بعد، وأقلها أنهم لايجدون الرعاية الاجتماعية أو التكوين العقلي والخلقي الصحيح ويكونون بذلك موضع اضطراب في المجتمع. ونحن في حاجة إلى تربية الأزواج على معرفة خطورة المسئولية الملقاة على عواتقهم بتكوين الأسرة وأنها ليست للهو والاستمتاع، وعلى الزوج أن يحسن اختيار الزوجة التي ستشاركه هذه المسئولية وعليه أن يعدها لتكون قادرة على ذلك ثم تظل للأب المسئولية الكبرى والرئاسة مهما كانت الأم تعمل أو لها مورد على أن يكون الأب مقدراً لدوره الخطير في إعداد الأبناء والإشراف على شئونهم ليست الاجتماعية والاقتصادية فحسب - ولكن الخلقية والدينية والثقافية وتلك هي مسئوليته أمام الله وتكون المسئولية مضاعفة بالنسبة لتربية الفتاة.

ثانياً: مسئولية الأم: على الأم أن تتعلم وتتثقف على النحو الذي يمكنها من فهم مسئوليتها وأداء رسالتها، ولا ريب أن مناهج المدرسة قاصرة في هذا الشأن ومن هنا تعجز عن فهم دورها، بل إنها تتجه إلى كراهية البيت والأطفال وتحاول أن تتخلص من رضاعتهم وتربيتهم، لتفرغ إلى السهرات والزيارات، ولقد أكد العلم أن نقص الحنان الذي يحرم منه الأطفال في أول حياتهم الزوجية هو من أكبر مصادر الخطر على الحياة النفسية والاجتماعية للطفل بعد أن ينمو، ومن مسئولية الأم أن تعلم طفلها أبعاد حياته وحياة أمته ودره وأن تسلحه بالخلق والدين وأن ترده لحظة بعد لحظة عن كل ما ينحرف عنه وأن توجهه ساعة بعد ساعة إلى ما يفتح أمامه آفاق النظر والإيمان والتقوى حتى تكون جيلاً طيباً نافعاً.

ثالثاً: على الآباء حماية الأبناء من الصداقات المضلة التي يقع فيها أبناؤهم، وعليهم أن يحببوا لهم الثقافة والقراءة والمعرفة، وأن يحببوا إليهم جو البيت حتى لايقعوا في أخطاء الشارع وأهواء الزملاء المنحرفين، وأن يهيئوا لهم أوجه التسلية والسعادة في داخل المجتمع، وأن يحموهم من الأخطار التي يتعرضون لها في المدرسة وفي الشارع العام، ولما كانت مناهج المدرسة لم تستكمل بعد وسائل إنضاج

الأولاد والبنات فإن على الآباء أن يكملوا ذلك، وأن يحذروا من العوامل البراقة التي تخدع سواء أكانت في مجال السينما أو الصور العارية أو القصص المكشوفة وأن يقيموا لأبنائهم حاجزاً دينياً يحميهم،بأن يجعلوا المرحلة الأولى قائمة على الاختيار حتى تشكل القيم الأساسية ثم يفتح الطريق أمام القراءات العامة بعد أن يكون الأبناء قد نضجوا وعرفوا الصالح منها والفاسد.

رابعاً: لابد من تقدير مسألة اللباس والزينة وحماية الأبناء من الخلط بين ملابس الرجال وملابس النساء، وإعداد الرجال بطابع خاص من الذي يعلى من شأن الرجولة للرجل والأنوثة للمرأة، ولا بد من الحذر من الملابس الغربية أو التي يلبسها أبطال السينما، وخير الملابس: ما كان سوياً محافظاً على أنوثة المرأة وفي الرجال ما كان بعيداً عن أزياء المرأة، وكذلك في الزينة فإنه يتحتم أن تكون رجولة الرجل واضحة، وأنوثة المرأة واضحة أيضاً، وأن لاتختلط وحضارة الإسلام حضارة ستر لا كشف وحضارة ارتفاع بالبشرية إلى المعنويات ﴿ وأنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾ فهناك تلازم بين ستر العورة والزينة والتقوى.

خامساً: على الفتاة أن تعرف ما هي العوامل التي يجب أن تكون ممثلة في الشاب الذي تختاره زوجاً لها، وعليها أن تعرف أن عوامل الرجولة والخلق، والثقافة هي أهم هذه العوامل، وعليها أن تحرص عندما ترى بوادر تعارف أو تقارب أن تكاشف والديها به، وأن تدعو هذا الصديق إلى الاتجاه فوراً نحو الأسرة، ما دامت الغاية من التقدير والإعجاب هي الزواج، وفي ظل الأسرة تدرس المسألة تماماً حتى يدرس من هم ليسوا في ظل عاطفة ما، تحت ظل التعقل، أوجه الالتقاء، أما ما يدعى بالتسلية أو قضاء الوقت باللقاء الفردي فإنه من أخطر الأمور، ذلك لأن الغاية إذا كانت سليمة فإن أول اتجاه لها أن تنمو في ظل الأسرة، وعلى الفتاة أن تكون حذرة غاية الحذر، فلا تلقى بنفسها إلى زيارات غامضة أو غرف مغلقة، فإنها لاتأمن الخداع، إن فتاتنا الآن مضللة في معرفة المثل الأعلى في الرجل، وربما تظنه في عربة فارهة، أو منصب، أو قدر من المال أو الغنى، وذلك كله باطل

وسيبدو بطلانه بعد الوقوع في الفخ، أما العماد الصحيح والسناد السليم الذي لايخيب الاعتماد عليه فهو الخلق والإيمان بالله وتقدير مسئولية اللقاء، وعلى الشباب أن ينظروا إلى هذا نظرتهم إلى ما يجرى لأخواتهم وبناتهم من بعد.

(٤١)

الاقتصاد الإســـــلامي

قاعدتان نقدمهما بين يدي البحث:

أولاً: إن الدولة في الإسلام وسيلة لضمان تطبيق أحكام الإسلام وتنفيذها وسلوكاً عملياً من كل المكلفين من أفراد المجتمع.

ثانياً: إن نظرة الإسلام إلى الحكم أن يكون الحاكم نائباً عن الأمة في تنفيذ أحكام الشرع عليها.

والاقتصاد الإسلامي جزء من النظام الإسلامي الكامل: الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لاينفك عنه، وهو قائم على التوحيد والأخلاق والتماس المصدر الأصلي: القرآن، وفي تقرير علاقات البشر أن الناس كافة من حيث الأصل والنشأة متساوون مهما اختلفوا شعوباً ولوناً وثروة فالأصل واحد: كلكم لآدم وآدم من تراب، والمال ملك لله والثروات كلها لله والإنسان مستخلف فيها وهي مسخرة له، فالناس جميعاً في مجال العمل العام سواء،وأمام الشريعة سواء،وهذا يستعدى أن تكون الفرص أمام الجميع كاملة ومتاحة، ويأتي التفاوت في مجال القدرات والمواهب والخبرات التي ترجع إلى الخصائص والصفات النفسية والفكرية والجسدية.

٢- وهكذا تكون وحدة الأصل الإنساني وإلغاء التفاضل والتمايز أساساً هاماً من أسس الإطار العام للاقتصاد الإسلامي يضاف هذا الإطار العام إلى عناصر أخرى أهمها:

١- وحدة مصدر التشريع ليكون مرجعاً عند الاختلاف في التطبيق.

٢- كفالة الحـد الأدنى اللائـق من مستوى المعـيشة والرعاية لكافة أفراد المجتمع.

٣- الاستفادة العضوية من الممكنات والموارد الإنتاجية المتاحة، والعمل على تنميتها ودعم القدرات الاقتصادية.

٤- تعاون أفراد المجتمع على تحقيق تقدمه وكسر حصار التخلف.

٣- أما أهم الأصول الاقتصادية الإسلامية فمن أهمها:

أولاً: الحرية الاقتصادية وتحريم الاحتكار.

ثانياً: ازدواج الملكية وذلك بإقرار الملكية الخاصة وحمايتها لقيودها وضوابطه وإقرار الملكية العامة.

ثالثاً: الضمان الاجتماعي: وذلك بكفالة حد الكفاية لكل فرد، واعتبار «الزكاة» بمثابة مؤسسة الضمان الاجتاعي في الإسلام.

رابعاً: حفظ التوازن الاقتصادي بين الأفراد أو إذابة الفوارق بينهم وحيث يدعو الإسلام إلي الثروة يضع لها ضوابط معينة، وأساس الثروة والغنى هو العمل، ولايسمح الإسلام بالتفاوت الكثير في الثروة والدخول.

٤- النظام الاقتصادي الإسلامي جزء من كل متناسق ومتماسك هو «الشريعة الإسلامية» التي تجمع بين خلوها من الإفراط في القيود ومسايرتها لصالح الناس على اختلاف أماكنهم وأزمنتهم بما يجمع بين المصلحة وحكمة النص والمبدأ العام، وقد جاءت الشريعة بقواعد كلية عامة فيما يتعلق بالمسائل التي تتطور بتطور البيئة والمجتمع كالمعاملات الاقتصادية والمالية والقضاء والعلاقات الدولية وبذلك تتسع لكل ما يحدثه التطور من مؤثرات وحوادث، وقد جاءت الشريعة بضوابط تفصيلية في المسائل التي لاتتطور بتطور الزمن كالمواريث والعبادات وأحكام الأسرة، وضوابط الشريعة كلها تهدف ليس فيما يتجاوز الطاقة البشرية أو يرهقها.

هذه الأوامر والنواهي والضوابط كلها تهدف إلى توفير الحقوق الطبيعية للإنسان وحمايتها وضبط استثمارها وهي:

١- حق الحياة، وصيانتها بالرعاية الصحية وتخفيف القيود على غير القادرين

وإسقاط الواجبات عند تعرض الحياة للخطر.

٢- حق الحياة بجوانبها المختلفة. للفرد والجماعة ووجوب حماية هذه الحرية بمسئولية المجتمع والدولة معاً وتشمل: حرية الاقتصاد والحرية السياسية وحرية العمل وحرية التعليم والبحث الصحيح والحرية المدنية والأدبية والاجتماعية وذلك في إطار المبادئ الأخلاقية والاجتماعية التي لاتتعارض فيها مصالح الفرد والمجتمع.

٥- للمنهج الاقتصادي الإسلامي ذاتية خاصة تتمثل في:

* الجمع بين الثبات والتطور: أو خاصة الالتزام بأصول معينة وفتح باب الاجتهاد في التفاصيل وملائمة التطبيق.

* الجمع بين المصلحتين الخاصة والعامة، ومناط الاقتصاد الإسلامي هو المصلحة، وتختلف المصالح باختلاف الظروف وتقدم المصالح حسب أهميتها، ويجري التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة في حال التعارض، وتقدم مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة في حال التعارض، وتقدم المصلحة العامة على مصلحة الفرد في حالة عدم إمكان التوفيق.

* الجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية والإحساس الدائم بالله تبارك وتعالى ومراقبته في كل تصرف.

* ارتباط ما هو مادي وما هو روحي في الإسلام.

* ازدواج الرقابة. الرقابة العلنية والوازع الديني الداخلي.

* المصالح المادية مقصودة ولكن ليس لذاتها.

٦- يقر الإسلام حرية الأفراد في ممارسة نشاطهم الاقتصادي ولكنه لايترك هذه الحرية مطلقة، بل يقيدها بقيدين أساسيين:

أولهما: أن يكون النشاط الاقتصادي مشروعاً حسب المفهوم الإسلامي ومن أجل هذا حرم الإسلام إنتاج الخمور أو التعامل بالربا أو الاحتكار أو كنز المال وحبسه عن

التداول والإنتاج، أو حتى صرفه في غير مقتضى العقل، وإلا عد المرء سفيها وجاز الحجز عليه.

ثانيها: أن يكون النشاط متفقاً مع المصلحة العامة وهذا هو السبب في تحريم الإسلام بعض أوجه النشاط الاقتصادي المشروع متى كان يلحق ضرراً بالآخرين يفوق ما يعود على أصحاب هذا النشاط من منفعة، وهذا هو السبب في القيود التي وضعها الإسلام على الملكية الخاصة فجعلها مجرد وظيفة اجتماعية.

فالحرية الاقتصادية موجودة ولكنها مقيدة في حدود معينة، وحق الملكية الخاصة مقيد بمبلغ اتخاذه سبيلاً إلى الإضرار بالغير، أو عدم تنمية المال بالوسائل غير المشروعة.

٧- المال: مال الله وحده والإنسان مستخلف فيه: استخلفه الله للانتفاع بهذا المال الذي وجه في سبيل الله، أي في سبيل مصلحة المجتمع، والمال تطهره الصدقة، والزكاة ركن من أركان الإسلام، وهو نظام للتعاون.

ويرمي الإسلام إلى تداول المال بين الناس دون تداوله بين طائفة خاصة، وقد قيد الشرع حق التصرف بالإنفاق بمنع السرف والتقتير، ومع العمل على تنمية الثروة بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار.

وللمرأة أن تزاول التجارة والصناعة وأن تتولى العقود والمعاملات وأن تملك كل أنواع الملك وأن تنمي أموالها.

وقد وضع الإسلام نظماً حكيمة تحول دون تضخم الثروات بين أيدى أقلية وتكفل لكل فرد حياة إنسانية كريمة وتحفظ له مقوماته وحقوقه.

وتفضى هذه الأحكام بإقرار التوازن في الحقوق بين الأفراد وذلك بمنع التعسف في استعمال الحق الخاص، ومنع الاحتكار في التجارة.

ومبدأ الزكاة يهدف إلى استرداد المال المختزن في أربعين سنة، وبذلك تنتقل الثروة كل أربعين سنة من أيدي أناس إلى أيدي آخرين.

وقد بني الاقتصاد الإسلامي على قرض المال وإعادته دون فائدة، وعلى المسلم أن لايربح منه ما يزيد على الثلث من قيمة البضاعة وأن يتحمل الخسارة أمام الضعيف والفقير وأن يتسامح في استيفاء الديون، ويقبل إعادة البضاعة إذا ندم المشتري.

ولا يجيز الإسلام أن تترك الأمور لتجمع في أيدي قلة متميزة إلى الحد الذي يمكنها من ممارسة السيطرة على الآخرين واستغلالهم، ومن شأن تجمع الأموال لدي قلة متميزة من الناس أن يؤدى إلى الترف والتبذير والضياع وميوعة الحياة والترف هو المبدد لثروات الشعوب وينتهى بها إلى كارثة الانهيار التام.

ويحرم الإسلام (الاكتناز) أو تجميع الأموال بواسطة البعض لمجرد التجمع والتكديس، دون إنفاقها، وقد استنكر القرآن الاكتناز وحمل بشدة على المكتنزين، ولا يجيز الإسلام تجميع الأموال في أيدي بعض الأفراد على حساب الآخرين: «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بالقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاءوا إلا بما يصنع أغنياؤهم».

كذلك حرم الإسلام أعمالاً ومنع من التكسب بها: كالرقص والغناء والبغاء وتجار المسكرات وصناعتها والميسر والقمار رأوراق اليانصيب، كما حرم وجوها من الإنفاق: كالمجون والفساد والتبرج والترف ووضع حدوداً في أخذ الأموال وفي إنفاقها، ولا يرضى الإسلام تجميع الثروة وتجميدها فهو يوزعها عن طريق: قانون الزكاة في أربعين عاماً وقانون الإرث عند الوفاة جيلاً بعد جيل فأي مال جمعه رجل واحد في حياته يوزع بين عشيرته الأقربين بعد وفاته، فإن لم يكن له أحد يرثه من ذوى الأرحام أو الذين يمتون إليه بصلة النسب استحقه بيت المال أي المجتمع كله.

وليس المال في الإسلام مقياساً للاحترام والتعظيم ولا لاحتكار النفوذ.

٨- مناط التشريع الإسلامي في مجال الاقتصاد هو: «المصلحة» وأن تحقق المصلحة يختلف باختلاف الزمان والمكان وأن تقدم المصالح بحسب أهميتها بحيث

لايجوز في مجتمع إسلامي أن يسمح أولو الأمر بتشييد القصور والصرف على الكماليات بينما الحاجات العامة والمرافق الأساسية معطلة، الأمر الذي عناه القرآن:

﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ وتقوم السياسة الاقتصادية في الإسلام على أساس الموازنة والتوفيق والملاءمة بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وأن الحل الاقتصادي لأي مشكلة يكون إسلامياً بقدر ما يحقق هذا التوفيق والموازنة والملاءمة بين المصلحتين الخاصة والعامة.

٩- اعتبر الإسلام العمل هو الوسيلة الأصيلة للتملك وأن لاعمل من غير أجر وأن الأجر على قدر العمل، وأفضل الكسب: كسب الرجل من عمل يده، وأن الله يحب العبد المحترف ومن أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له.

ويقرر الإسلام مبدأ تكافؤ الفرص بين كافة الناس في السعي المشروع في اكتساب المعاش والتماس الرزق.

كما يقرر تفاوت الرزق، بتفاوت الفطر في الأفراد والملكات والمواهب ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ و ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ .

١٠- أقام الإسلام نظام الميراث كعامل أساسي في تفتيت الثروة بعد عقد من زمان هو حياة المالك نفسه، وحتى يحول دون تضخم الثروات بأساليب غير مشروعة، فلا يستمر نمو الثروة من الناحية العملية إلى أبعد من حياة الفرد، لأن الثروة النامية لاتلبث أن تتوزع من جديد بعد وفاة المالك.

وتقوم قواعد الميراث بتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً بين أقرباء المتوفي مما يحول دن تركيزها في أيد قليلة وبفضل هذا النظام يجرى توزيع الملكيات الفردية التي يتفق تجمعها من جيل لجيل فيشمل عدداً كبيراً من الأنفس وتستحيل إلى ملكيات أصغر وبذلك تتقارب مستويات الناس،ومن أجل هذا يحظر الإسلام كل تصرف يؤدى إلى

الإخلال بقواعد الميراث، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيهاوذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ ومن ثم فقد ذهب كثيرمن الفقهاء إلي تحريم الوقف الأهلي لما في ذلك من الإخلال بقواعد الميراث ومن هؤلاء ابن عباس والقاضى شريح والحنفية، كما حظر على المسلم أن يوصى لأحد ورثته بأكثر من حقه الشرعي بعد وفاته إلا في حدود الثلث وإجازة بقية الورثة لقوله ﷺ «لا وصية لوارث» كما حظر عليه ألا يوصى لغير ورثته إلا في حدود الثلث.

والهدف هو: ١- تقريب المستويات. ٢- توزيع السلطات المالية بين أفراد المجتمع. ٣- حفز العزائم على مواصلة السعي والتنمية. ٤- القضاء على الطبقية في المجتمع حتى لاتكون بين الناس.

١٢- حرم الإسلام الربا ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ وقد حرم الإسلام الربا تحريماً قاطعاً كأسوا وأقسى أنواع الوساطة ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ حرمه دون النظر إلى أشخاص المتعاقدين فهو محرم لعينه، وتحريم الربا في الإسلام يبرهن على سموه وعموم إنسانيته ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ فهي معاملة جائرة، والربا عن تراض محرم أيضاً، والربا شرعاً هو الظلم والاستغلال وأكل المال بالباطل والغبن الفاحش من المعاملات، والربا اصطلاحاً هو «الفائدة» وهي الزيادة في أصل الدين دون مقابل سوى المدة التي يظل فيها الدين في ذمة المدين، وقد اعتبر الإسلام الأجل الذي ينتهى إليه تسديد الدين ليس مقابلاً للزيادة، لأنه ليس بمال يدخل في الذمة ومن ثم تكون الفائدة مقابل الأجل زيادة دون مقابل أي ربا.

والعائد في الإسلام لايستحق إلا مقابل عمل سواء كان هذا العمل في صورة جهد يبذل أو سبق بذله ممثلاً في ملكية عينية أما الأجل أو الانتظار أو الحرمان من رأس المال النقدي فهو لايمثل عملاً فلا يستحق عائداً وقد نهى الرسول عن قرض

جر نفعاً وقال: الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير، والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى فإن اختلفت هذه الأجناس فبيعوا كيف شئتم».

وقد حرم الإسلام ربا الجاهلية وهو ربا النسيئة أي التأجيل والتأخير وربا الدين «يحل الدين فيقول: إما أن تقضي وإما أن تربي (أي تزيد) نظير تأخير الدين لك» هذا النوع من الربا محرم لذاته أي تحريم مقاصد فلا يجوز إلا للضرورة التي تبيح أكل الميتة.

والفائدة على كل أنواع القروض كلها «ربا محرم» لافرق في ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكي أو القرض الإنتاجي، وكثير الربا وقليله حرام، والاقتراض بالربا محرم لاتبيحه حاجة ولا ضرورة، والاقتراض بالربا محرم كذلك ولا يرتفع إثمه إلا إذا دعت إليه الضرورة وكل امرئ متروك لدينه في تقرير ضرورته.

وقد فهم المسلمون منذ أيام السلف من الصحابة ومن بعدهم وهم لايجتمعون على ضلاله: أن الربا المحرم في الإسلام هو كل زيادة على رأس المال، قليلة كانت أو كثيرة للتجارة كانت أو للإستهلاك.

ونتيجة الربا هي تركيز الثروة في أيدي فئة قليلة من الناس وحرمان المجموع منها رويداً رويداً ووقوع الملايين تبعاً لذلك في العبودية.

ولم يقف الإسلام عند «تحريم الربا» بل أوصى بالانتظار حتى يجد المدين السعة فيسدد ما عليه، بل أوصى بما هو أكثرمن ذلك، وهو أن يتصدق الدائن برأس المال على المدين الذي لايجد سبيلاً إلى السداد فذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

ومن شأن العاملين على الإقراض بالربا أنهم يعطلون النقد عن التداول وكثرة النقد في السوق هي روح النشاط الاقتصادي، فضلاً عن أنه يلقى العداوة والبغضاء

في النفوس فيساعد على الجريمة فضلاً عن تعارضه للمعنى الإنساني.

وفي حالة واحدة أبيح الربا، للمضطر الذي تتعرض حياته لتلف محقق بسبب الجوع أو الظمأ الشديدين أن يدفع الجوع المهلك بتناول طعام محرم لايجد غيره، على أن يقتصر فيما يتناول على قدر الضرورة لايتجاوزه، والربا بطبيعته معارض لسلام البشرية وخيرها وتقدمها، وقد حملت لواءه اليهودية التلمودية وسيطرت به على المال العام ومصارفه، وتجربة العالم الإسلامي معه تكشف عن مدى الأخطار التي تعرض لها المجتمع الإسلامي ولولاه ما سقطت بلاد كثيرة في قبضة التلمودية الصهيونية وما زال الربا هو العامل الخطير في استنزاف ثروات العالم الإسلامي باسم القروض والفوائد.

وتحريم الربا منهج أساسي لتحرير الاقتصاد الإسلامي والمسلمين، ولا ريب أن ثروات المسلمين إذا تحررت فهي قادرة على أن تقيم أضخم عملية استثمار لبقاء الحضارة والواقع إن رفاهية العالم الغربي اليوم إنما تستثمر مصادرها الأساسية من ثروات المسلمين.

والواقع أن جميع الأرباح التي تنجم عن إلحاق الضرر بالمجتمع كالسرقة والقمار وبيع الخمور أو التي تحصل عن الربا والحظ، بلا تعب ولا سعى تعد محرمة ولا يجوز القيام بها أو ممارستها باسم الحرية الاقتصادية، لأن هذه الحرية في الإسلام ليست مطلقة بل هي موجهة في حدود مصلحة الإنسان والمجتمع في آن واحد، هذا إلى جانب تحريم الاستغلال والاحتكار والاكتناز في الإسلام.

١٣- أمران قررهما الإسلام: شيء محرم وشيء واجب والغاية منهما معاً واحدة، أما المحرم فهو الربا وأما الواجب فهو الزكاة، وباقتران هذا الواجب بذلك المحرم أراد الإسلام أن يدفع الناس ويدفع المؤمنين إلى ألاَّ يكتنزوا المال بل عليهم أن يستخدموه، وأن يجعلوه وسيلة للإنتاج وألا يجعلوه إلهاً أو معبوداً وأن يكون في خدمة الإنسان والهدف ألاَّ يصبح رأس المال ذا قوة وذا سيطرة على المجتمع ولا يصبح صاحب المال ذا استغلال وذا إقطاع في المجتمع الإسلامي.

وقد استهدف الإسلام بتشريع الزكاة إعطاء رأس المال حركة، وبالتالي دفع صاحبه إلى العمل النافع وعدم تجميده كأرصدة مخزونة حيث يتقلص رأس المال سنة بعد سنة.

وقد فرض الإسلام فريضتين: فريضة الزكاة، وفريضة الإنفاق في سبيل الله، أما الزكاة فهي فريضة إلزامية في ذاتها ومحدودة في نطاقها، أي في حصتها من مال الفرد أما الإنفاق في سبيل الله فهو فريضة إلزامية في أدائها ولكنها اختيارية في نظامها أي حصتها من مال الفرد، فإذا أدى الناس هذه الفريضة بحصة لاتفي بمطالب المجتمع كان لولي الأمر أن يحدد حصة الإنفاق من مال كل فرد على قدر يساره وعلى ضوء ما تمليه ضرورة المجتمع.

وقد أشار الرسول ﷺ إلى ذلك في قوله: «إن في المال حقاً سوى الزكاة» والزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة وتتكون من نسبة ثابتة من ثروة المكلف التي تشمل إنتاج الأرض والذهب والفضة والبضائع والحيوانات.

وهذه الضريبة توضح اعتراف الإسلام بالملكية الخاصة وتؤسس مبدأ الحق العام بهذه الملكية، فهي تتضمن اعتبار أن لفقراء المجتمع حقاً في ثروة الآخرين تجبى منهم لتزكيتهم، فالثروة لاتعتبر خالصة إلا إذا دفع مالكها حق فقراء المجتمع.

وإذا امتنع المسلم عن أداء الزكاة كان هادماً لركن من أركان الإسلام، وكان لولي الأمر جبايتها منه قهراً وهي تجمع بين الهدف الروحي التعبدي والهدف الاقتصادي النفعي، فهي تزكي نفس مؤديها بما تتيح له من تدريب مستمر على حرمان النفس للبر بالغير وشفاء لها من سيطرة الشح عليها.

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

بما تبثه من تراحم بين طبقات المجتمع وما تنزع من غل عند الطبقات المحرومة للطبقات الموسرة وتساعد على توزيع الثروة في ثنايا المجتمع وتحول دون تكديسها في أيد قليلة.

١٤- ويحرم الإسلام الاحتكار، والاحتكار هو حبس السلعة التي يحتاج الناس إليها لبيعها بثمن مغالي فيه. لقول الرسول ﷺ : «من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطئ» والاحتكار محرم شرعاً بحيث يقتضى بتدخل الدولة أو إكراه المحتكرين على بيع ما عندهم بتقييمه المثل ، أو بالقدر الذي يؤدي إلى الإضرار بالناس أو رفع سعر السلعة بأكثر من قيمتها أو تحقيق أرباح غير عادية.

١٥- يقرر الإسلام قانون الوفرة. وهو وجود طاقات وإمكانيات معيشة هائلة لاتنتهى ﴿ وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ وإن الأزمات التي يمر بها العالم ليس مصدرها ضعف المواد الطبيعية أو قلتها ولكن سوء توزيعها فلو أنه أعيد التوزيع على أساس العدالة والمساواة، ودون قيام الاحتكارات لاكتفى العالم وفاضت الثروة.

١٥- يقرر الإسلام نظام «دورة الإنفاق الخيرة» التي هي علاج لكل مشكلات المجتمعات: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ وعادة الإنفاق الطيبة تكون بمثابة التزام خلقى قبل الجماعة وكوسيلة لشكر الله وعرفانه على رزقه وفضله ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ .

فالمال مال الله خالق كل شيء والإنسان وكيل مستخلف ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ وهو في يد أصحابه أداة لإسعاد المجتمع وحل مشاكله وبذلك يعالج الإسلام بالانفاق (أزمة السيولة) في التعبير الاقتصادي الحديث فلا توجد أبداً والإنفاق كما يقول: عبد المغنى سعيد: يعمل كأداة لإعادة توزيع الدخل القومي على نحو يحقق تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية.

وعلى الإنسان أن ينفق في أوقات الرخاء واليسر، وأوقات العسر والكساد ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ وقد أبرزت النظريات الاقتصادية الحديثة أهمية الإنفاق في الضراء، فنظرية عجز الاستهلاك في تفسير الأزمات مثلاً ترجع

حدوث الأزمة الاقتصادية إلى قلة الإنفاق مما يؤدى إلى نقص الطلب وعجز الاستهلاك بالتالي وتدعو هذه النظرية إلى زيادة الإنفاق في أوقات الكساد بالتوسع في المشروعات العامة لكي يزداد حجم الدخول وتزداد القوة الشرائية فينتعش الاستهلاك: الأمر الذي يعجل بالعودة إلى الرخاء، والإسلام يدعو المسلم إلى أن ينفق ما يزيد عن حاجته ولا يكتنز وكل من ينفق سوف يجنى عشرة أضعاف ما أنفق، وتولد «دورة الإنفاق الخيرة» إذا ما طبقته الغالبية في نطاق كبير، والإنفاق ينعت بالقرض الحسن إلى الله وهذا القرض يرده الله إلى الإنسان مضاعفاً بل أضعافاً.

وهذا المبدأ الاقتصادي الذي استحدثه القرآن قد رددته التطورات الحديثة في الفكر الاقتصادي.

١٦- أقر الإسلام الملكية الخاصة الفردية وحماها معلناً أن المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه ولحماية الملكية قطع يد السارق ونظم الميراث، والإسلام لم يطلق الملكية الفردية بل وضع عليها قيوداً عديدة للصالح العام أحالها إلى مجرد وظيفة اجتماعية وعلي الملكية الخاصة أن تبعد عن الربا والاحتكار أو أي ضرب من ضروب الاستغلال وأن تؤدي كافة التزاماتها وأحقها التزام الزكاة والإنفاق في سبيل الله، وحتى لايؤدى توزيع الثروة والدخول إلى تفاوت فاحش، قيد الإسلام الملكية الخاصة، فليس المسلم حراً في استعمال ماله كما يشاء، وهو لايستطيع أن يكنز ماله كما يشاء، وهو لايستطيع أن يكنز ماله ويحبسه عن الإنتاج كما لايستطيع أن يسرف فيه ويصرفه على غير مقتضى العقل وإلا عد سفيها، وإذ كفل الإسلام الملكية الخاصة أوجب عليها التزامين: الزكاة والخراج والإنفاق في سبيل الله وقد أخرج الفقهاء من نطاق الملكية الخاصة: كل الأشياء الضرورية لجميع الناس فأوجب أن تكون ملكيتها جماعية حتى لايتميز بفائدتها فرد أو أفراد.

١٧- أبرز معالم الاقتصاد الإسلامي: أخلاقية: فالإسلام يقرر ضوابط أخلاقية للاقتصاد. ولأنها فرع من المعاملات التي تدور بين الناس فقد حدد لها الشرع

الإسلامي حدوداً لاتتعداها وألزم بها المسلمن ولو تجاوز الطرف الآخر هذه الحدود فإن المسلم وقاف عند حدود الله:

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا: اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وضوابط الاقتصادد الأخلاقية: هي التقوى والاستقامة والنصيحة: والوفاء بالوعد والصبر «من النصح أن لاتقبل الغش».

ويحرم الإسلام الإثراء على حساب الغير وبخس الناس أشياءهم وحقوقهم ﴿ أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ وقد حمل القرآن حملة عنيفة على المطففين.

أولاً: يقوم الاقتصاد الإسلامي على دعامتين: دعامة المال ودعامة العمل، والتقوى لا المال هي العامل الوحيد المميز بين الناس في نظر الإسلام وللمال وظيفة اجتماعية غير فردية وأنه لايقصد لذاته وإنما لأداء خدمات اجتماعية عن طريقه، وقد حث الإسلام على العمل وإتقان العمل وزيادة العمل وزيادة الإنتاج ورفعه إلى درجة العبادة.

ثانياً: حرم الإسلام بعض وجوه النشاط الاقتصادي وهو حين أقر حرية الأفراد في ممارسة نشاطهم الاقتصادي شرط أن يكون النشاط الاقتصادي مشروعاً بحسب المفهوم الإسلامي، وهذا سبب تحريم الإسلام لإنتاج الخمور والتعامل بالربا والاحتكار أو كنز المال وحبسه عن الإنتاج والتداول أو صرفه على غير مقتضى العقل، وأن يكون النشاط متفقاً مع الصالح العام.

ثالثاً: ضمن الإسلام لكل فرد حد الكفاية لا الكفاف تكفله الدولة، وجعل السعي في سبيل الرزق أفضل ضروب العبادة ويعان المرء من مال الزكاة بما في ذلك الزوج ولا يعان من مال الزكاة للانقطاع للعبادة.

ويقر الإسلام التفاوت في الثروة والدخل وينهى عن التفاوت الشديد ولا يسمح بالغنى مع وجود الفقر، ولا يسمح بأن يكون التفاوت واسعاً ولا يقر الإسلام

الإسراف والتبذير وقد أعلن كراهية الترف لأنه يشيع السلبية والتكاسل وهو جرثومة القضاء على الحضارة.

رابعاً: أقر الإسلام بأن مشكلة الفقر هي كبرى مشاكل المجتمعات وأعلن أن مصدرها التفاوت الشديد في توزيع الثروات والدخول، وسوء توزيع الموارد وليس هناك فقر يتمثل في الجوع أو الحرمان أو قلة الموارد وإنما هو سوء توزيع المواد والتفاوت في الدخول والثروات.

خامساً: العوامل المؤثرة في التاريخ مختلفة ومن بينها العامل المادي والاقتصادي وهو ضمن عوامل أخرى، وهناك العامل الروحي والعامل الجنسي والعامل الجغرافي وكل عامل له دوره وأثره، وهي عوامل قائمة ومؤثرة في القديم والحديث على السواء، وقد اعترف الإسلام بالعامل المادي، وأعلن أن المال زينة الحياة ودعا إلى المحافظة على المال ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ وأعلن أن طلب الحلال فريضة ونعم المال الصالح للعبد الصالح، وذلك قول الرسول لأحد الصحابة: إنك أن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس، وقد ساوى الإسلام بين الكفر والفقر، وقد أمن الحق تبارك وتعالى حياة الناس المعيشية: من حيث الرزق والأمن ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ وهما دعامتا الحياة.

سادساً: قاعدة الله في خلق الخلق: أنه لم يجعلهم سواسية في نعمه بل فضل بعضهم على بعض ببالغ حكمته، والفطرة تقتضي أن يكون التفاوت في الرزق شأنه شأن المواهب الأخرى والإسلام لا يقول بالمساواة في الرزق بل يقول بالمساواة في فرص السعي إلى اكتساب المعاش والتماس الرزق وجعل تفاوت الثروة نتيجة تفاوت المواهب العقلية والجسمية، ولقد أقر الإسلام أقرب نظام إلى الفطرة، وهو الذي يمكن منه لكل فرد أن ينطلق في ساحة الرزق والمعاش من النقطة التي أعدها الله تعالى له وبالحالة التي فطره الله عليها.

سابعاً: يجمع الاقتصاد الإسلامي ككل فروع الفكر الإسلامي بين الثبات والحركة، أو بين الثوابت والمتغيرات فهو يقرر الالتزام بأصول عامة ويفتح باب الاجتهاد في

التفاصيل وأسلوب التطبيق ويجمع المصلحتين العامة والخاصة وبين المصالح المادية والروحية.

الأصول الثابتة وردت في نصوص القرآن والسنة يخضع لها المسلمون في كل زمان ومكان بغض النظر عن درجة تطور المجتمع، ومن حيث التفاصيل تطبق هذه الأصول بما يلائم الزمان والمكان ولا يرتبط الاقتصاد الإسلامي بمرحلة تاريخية معينة، ولا يقتصر على صورة تطبيق محددة.

فالأصول ربانية في الاقتصاد، والمعاملات والمجتمع، والتطبيقات اجتهادية وعمل الباحث في الاقتصاد الإسلامي تطبيقي لا إنشائي ذلك لأنه لاينشئ ولا يثبت حكماً من عنده وإنما هو يظهر ويكشف حكم الله في المسألة المطروحة (الدكتور الفنجري).

خامساً: خلاصة الخلاصة:

أولاً: أن الله تبارك وتعالى هو المالك المطلق لكل شيء، لأنه خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل والبشر خلائف في الأرض ووكلاء عن الله فيما يملكون وأن على الناس فيما هم مستخلفون فيه حق معلوم للسائل والمحروم.

ثانياً: أن الملك وظيفة اجتماعية ولا تنفصل الملكية عن العمل لأن العمل فريضة وواجب.

ثالثاً: الإنفاق فريضة وله دورة خيرة مربحة تطبق في أوقات الرخاء والكساد معاً ويكون في حدود الاعتدال وضمن المصلحة العامة.

(٤٢)

الإسلام والرأسمالية

إن المراجعة الجادة لمفهوم الإسلام في مجال الاقتصاد تكشف في وضوح عن منهج له ذاتيته الخاصة وطابعه المفرد الذي لايشابه به أي المنهجين البشريين العالميين القائمين اليوم: وهما الرأسمالية والشيوعية بحيث تنقطع الألسنة وتقف الأقلام دون ما تريد أن تواجه به الإسلام من أنه له صفة رأسمالية أو شيوعية، فضلاً عن أنه ديمراطي أو اشتراكي مما جرت به الأقلام كثيراً في السنوات الأخيرة وفيما حاول دسه أمثال رودنسون في كتابه (الإسلام والرأسمالية (أو جارودي) عن الإسلام والاشتراكية وقد تجد المذاهب الوضعية في الإسلام ما يتفق معها في بعض المواضع ولكنه اتفاق جزئي يختلف كل الاختلاف عن الهيكل العام والنظرة الكاملة.

وفي عديد من الدعائم الأساسية للاقتصاد يختلف الإسلام عن الرأسمالية الفردية وخاصة في الملكية، والبيع والربا.

١- أما الملكية الفردية فهي في النظام الرأسمالي تختلف اختلافاً كلياً عنها في الإسلام،وهي تستهدف الحصول على أكبر كسب نقدي وتعمل على إتاحة الحرية في ميدان الاقتصاد للأفراد دون تدخل من الدول لوضع قيود على الإنتاج أو الاستهلاك وفق مذهب الفردية الغربي أو نظام الاقتصاد الحر وهو ما انتهت إليه الديمقراطية الرأسمالية: وهو أسلوب يطبع الأدب والفن والمجتمع كله بطابعه ويقوم عليه أساس النظام الليبرالي وأبرز معالمه:المغامرة والتنافس وإعلاء الذات مع أنانية الحافز الفردي أو ما يسميه (بنثام) «متعة النية السيئة» ومن شأن هذا النظام أن يترك الكثيرين صرعى ويقسم المجتمع إلى مجتمعين: مجتمع الثراة البالغين قمة الترف والتحلل والفقراء والعمال والعاطلين.

وعلى هذا الطابع قامت الحضارة الحديثة: حضارة مادية عمادها التفوق الصناعي

والتقدم والتكنولوجي، وبالرغم من تحول المجتمع من الزراعة إلى الصناعة، فإن القيم الفردية ظلت هي الطابع السائد.

ولقد وجهت لهذا النظام انتقادات كثيرة: أبرزها في دعوته إلى خلق التوازن بين الفرد والجماعة، وأن هذه الفردية المغرقة قد أدت إلى اختلال موازين توزيع الثروة بين الأفراد مما يقسم المجتمع إلى طبقتين:

١- رأسمالية الإقطاع.

٢- ذوي الدخل المحدود من العمال والفلاحين، كما أنه أدى إلى تركيز الثروة في يد فئة قليله مستبدة وإلى انتشار البطالة واستشراء الاحتكارات الطبيعية والصناعية التي تستغل المستهلك والطبقات الصغيرة.

ولقد كان من أخطر عيوب هذا النظام استعمار الشعوب الذي ترتكز عليه الدول الرأسمالية ومن خلال التجربة الطويلة لهذا النظام فقد تبين فشله في تحقيق الاستقرار الاقتصادي.

ومن أجل ذلك ينادي رجال المذهب الرأسمالي بضرورة تدخل الدولة لتنظيم الحريات الاقتصادية.

أما الإسلام فإنه يختلف عن ذلك اختلافاً شديداً فهو يضع للملكية الفردية من الضوابط ما يجعلها مجرد وظيفة اجتماعية، ويتحدث جون ديوي في كتابه الفردية قديماً وحديثاً عن النظام الإسلامي مقارناً بالنظام الرأسمالي فيقول:

جاء الإسلام بأروع عقيدة توازن موازنة سوية بين الفرد والجماعة،إذ أقام التكافل الاجتماعي على أساس الأخوة الإسلامية وهو طراز فذ من التعاطف الإنساني جَبَّ العنصرية،وقضى على التفرقة الطبقية،وحرر العقيدة من التعصب المقيت،وكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية، وعالج سوء توزيع الثروة معالجة عادلة تحول دون تكديسها في يد فرد أو أفراد قلائل دون أن يقضى على نشاط الفرد وميله الغريزي للمبادرة والإبداع،وأقام التنافس على أساس (القدرة والعدالة) معاً،

واستطاعت تجربة الحكم الإسلامي في صدر الإسلام أن تثبت نجاحها الباهر في خلق مجتمع متوازن تتكيف فيه إرادة الفرد مع صالح الجماعة،وتكفل الجماعة للفرد حقوقه، وتفرض عليهما معاً واجباً يقوم في الدرجة الأولى على نقاء الضمير وقانون الأخلاق واللذين تحتمهما عقيدة الوحدانية وشريعة الإسلام، حتى إذا أصيبت الضمائر بالداخل واهتز قانون الأخلاق في نفوس المسلمين وطغت أنانية الفرد على صالح الجماعة فقد التوازن بين الفرد والجماعة أساسه القويم، ودعامته القوية، هذا التـوازن بين الفرد والجماعة هو الذي شقيت الإنسانية دون الوصول إليه فإما فردية مغرقة في ذاتها وإما جماعية جامدة تصب الأفراد في قالب واحد من الميول والأهواء.

(٢)

ما هو مذهب الفردية: هو المذهب الحر: مذهب الرأسمالية الصناعية الفردية الذي يرى عدم تدخل الدولة وترك الأفراد أحراراً في نشاطهم الاقتصادي.

والمذهب الفردي في جوهره مذهب اقتصادي، وضع ليكون في خدمة مصالح الرأسمالية الصناعية التي ظهرت في منتصف القرن ١٨ ولا تزال قائمة إلى اليوم وقد تطورت الرأسمالية التجارية إلى رأسمالية صناعية بعد الثورة الصناعية التي أدت إلى إحلال الآلات مكان الأدوات التي كانت مستعملة في الصناعة، بعد أن كانت الصناعة في خدمة التجارة في عهد الرأسمالية الصناعية، وظهرت بعد ذلك الاحتكارات وما ترتب عليها من مساوئ.

وقد امتد تطبيق المذهب الفردي إلى الميدان السياسي على يد الثورة الفرنسية فلما قامت الثورة الفرنسية أخذت فلسفتها بهذا المذهب الفردي على أنه لم يظل محصوراً في الميدان الاقتصادي بل امتد إلى الميدان السياسي، وأعلنت الثورة إطلاق مبدأ الحقوق الفردية «إن للإنسان حقوقاً طبيعية كسبها لمجرد كونه إنساناً نشأت معه منذ نشأ ولذلك فرض على الدولة واجب احترام تلك الحقوق واعتبر الغاية من

قيام الدولة إنما هو حماية تلك الحريات أو الحقوق الفردية».

هذه النزعة الفردية الديمقراطية الغربية تعد من خصائص النظام الرأسمالى وهي لاتتفق مع روح الإسلام ولا مبادئه، كما أنها أصبحت في العصر الحديث موضعاً للنقد والطعن حتى من علماء الغرب أنفسهم، ويقول عبد الحميد لطفي فيما نقد به المذهب الفردي: إن الفرد المنعزل عن الجماعة لايمكن أن تكون له حقوق، ففكرة الحق لاتظهر إلا في الجماعة، لأنها تتضمن وجود شخص يعد صاحب حق أو وجود آخر يستعمل ذلك الحق إزاءه أو في مواجهته، ولقد عاش الإنسان ولا يمكن أن يعيش إلا في جماعة، والجماعة لايمكن أن تعيش إلا إذا كان أفرادها يخضعون لقواعد تتكفل الجماعة بتنفيذها وقد ثبت عجز هذا المذهب عن تحديد وتقييد سلطان الدولة، وهو ينتهى بها إما إلى الفوضى، وإما إلى الاستبداد.

ويقول القانوني دوجي: إذا جعلت السلطة للفرد فمؤدى ذلك إلي زوال سلطة الدولة أي الفوضى وإذا جعلت هذه السلطة للدولة فإنها تصبح ذات سلطان مطلق مستبد.

ولقد أشار الاقتصاديون إلى مدى الأخطار التي حققتها السياسة الاقتصادية الحرة فقد أدت إلى تكوين احتكارات ضخمة قضت على المشروعات المتنافسة، واستأثرت بالسوق وحددت الأثمان عند مستويات مرتفعة استغلت بها المستهلكين وأرهقتهم لصالح المحتكرين).

ويقارن عبد الحميد لطفي بين مذهب الرأسمالية الفردية وبين الإسلام فيقول:

هذا المذهب الفردي ظاهرة من ظواهر تلك الروح المادية للحضارة الغربية،ولقد كان له ما يبرره في بداية ظهوره كرد فعل لمذهب الرأسمالية التجارية ولكن المذهب فقد في عصرنا ذلك العماد الذي كان يستند إليه، والإسلام لايقر هذا المبدأ الذي ولد في أحضان الرأسمالية الصناعية الغربية، هذا المبدأ الذي لايفرض أي التزامات إيجابية على الدولة (كتأمين للشيخوخة والمرض والعجز عن الكسب) بينما يعد حق

الملكية في الإسلام غير مطلق، أو يعد بمثابة وظيفة اجتماعية. فالمالك عليه أن يستعمل هذا الحق وفق فاعلية مصلحة المجتمع، أو ما تمليه مصلحته ولكن من غير إضراربغيره، وفي الحدود التي رسمها الله في القرآن.

فهناك حدود وقيود وضعها الإسلام مباشرة على حرية الملكية نزولاً على حكم المصلحة أو الضرر، أو العدالة، وهناك قيود غير مباشرة وضعت على حرية الملكية تشمل فرائض على الإنفاق لا على التملك تهدف إلى الحيلولة دون تضخم الثروات ودون التركيز للمال في أيدي طائفة خاصة من الناس كما فرضت الزكاة التي تعد أحد أركان الإسلام كما تعد أحد أركان ما يطلق عليه التكافل الاجتماعي ولم تجعل الزكاة منة على مستحقيها بل هي حق لهم إزاء القادرين.

(٣)

وجه النقاد إلى (علم الاقتصاد المعاصر) نقداً شديداً عندما عجز في السنوات الأخيرة عن حل مشكلات التنمية في الأقطار الصناعية أو حل مشكلات التطور في أقطار العالم الثالث، ويرى النقاد أن الوقت قد حان لكي يبدأ علم الإقتصاد في تعديل نظرياته التي تم وضع معظمها في أبراج عاجية لكي يتمكن هذا العلم من الإسهام في معالجة جميع المشكلات الاقتصادية وفي إيجاد حلول صحيحة لهذه المشكلات:

ومن أهم المشكلات التي عجز عنها الاقتصاد الرأسمالي:

١- مشكلة التضخم المالي وما نتج عنها من تضاؤل المقدرة الشرائية.

٢- المشكلات الناتجة عن ازدياد عدد العاطلين عن العمل.

٣- المشكلات الناتجة عن أزمة البيئة.

وقد ثبت الآن أن الاقتصاد الرأسمالي قد تخلى عن كونه علماً وحصر نفسه ضمن إطار نظري ضيق ينطوي على كثيرمن التبسيط في فروضه ويعتمد علي حله

للمشكلات على عرضها.

يقول الدكتور محمد عبد الله العربي: إن علماء الاقتصاد قد ركزوا على الاتجاه المادي وحده وساروا في هذا الطريق حتى تجاهلوا أبسط قواعد الأخلاق وأوضح معايير الخير والشر التي فرضتها جميع الأديان السماوية فكان لهذا التجاهل أثار بعيدة المدى في النشاط الاقتصادي للبشر، وأصبحت كل التصرفات الاقتصادية مباحة طالما كانت تؤتى نفعاً مادياً وما دامت لا تصل إليها يد القانون الوضعي مهما اختفى في ثناياها من غش في المعاملات وإضرار بالغير وسلب لماله، وقد أحيطت النظرية الاقتصادية بأقنعة كثيفة حجبت كل اعتبار خلقى أو إنساني أن ينفذ إلى هيكلها المادي.

وفي الاقتصاد الرأسمالي يكون للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أي قيد عليه، أما الإسلام فيفرض طائفة من التكاليف والالتزامات على المالك لمصلحة المجتمع وهذه التكاليف والالتزامات قابلة للقبض والبسط.

والنظرية التي يقوم عليها بناء النظام الرأسمالي أن الفرد هو المالك الوحيد لما يكسب ولا حق فيه لغيره وله أن يتصرف فيه كيفما شاء ويرضى ومن حقه أن يحتكر من وسائل الإنتاج كل ما تصل إليه يده، وهذا يختلف اختلافاً جوهرياً مع مفهوم الاقتصاد الإسلامي، كذلك ليس هناك فرق جوهري في النظام الرأسمالي بين البيع والربا، فلا يختلطان فحسب، بل هما بمنزلة اللحمة والسدى وكلا التجارة والربا يتلبس بالآخر في النظام الرأسمالي.

(٤)

الرأسمالية حصاد تطور تاريخي اتسم بكثير من صور العبودية والتحكم، لم يكن قاصراً على نواحي الاقتصاد فقط بل تعداه إلى مختلف نواحي الحياة البشرية، فقد ولد النظام الإقطاعي بأوربا في القرن الخامس للميلاد إثر سقوط الامبراطورية

الرومانية الغربية ودعمته إذ ذاك الكنيسة إذ كانت تعتبره موافقاً لإرادة الله، وكان النظام دخيلاً على أوربا ولكن الكنيسة منحته تأييدها، وكان أبرز مظاهره: تفكك نشاطات الحياة الغربية، وبروز منظمات المرابين والتجار وأصحاب الصناعات والحرف، وتدفق الثروات من المناطق المستعمرة، ونشبت معركة بين المعسكرين كانت حرباً شاملة على جميع الجهات،وكان النصر حليف النظام الوليد حامل نظرية الحرية وفك القيود، فالرأسمالية ليست فكرة عالمية ولكنها فكرة أوربية قومية صرفة وهي حياة وفلسفة واقتصاد واجتماع، فقد كانت تتخذ من الميكافيلية أساساً للسياسة ومن تحليل الربا أساساً للاقتصاد.

وقد استطاعت الرأسمالية أن تهزم الكنيسة وتفرض عليها القبول بالربا أو السكوت عنه على الأقل،وارتبطت الرأسمالية بالديمقراطية والقومية والليبرالية في تركيب عجيب وبذلك دخل الاقتصاد الغربي نطاق المادية التلمودية في خروجه عن نطاق سماحة المسيحية في الحروب والإبادة الاستعمارية، ونهب ثروات الأمم، وفي إباحة الربا وفي مفهوم الغاية التي تبرر الواسطة كما أوردها مكافيلي في كتاب الأمير.

(٥)

أسفر تطبيق النظام الرأسمالى عن أخطار وعيوب وأبرز أخطائه معارضته الطابع الإنساني والأخلاقي، وقد ازدهرت الرأسمالية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع بداية الثورة الصناعية، ولكنها سرعان ما وصلت إلى مرحلة التدهور، وبقيام الحرب العالمية الأولى ظهرت الأزمات المالية التي انتجت الاحتكارات. وسيطرت قلة من الأفراد على سوق المال ووسائل الإعلام وتدخل بعض أفرادها في السياسة فأصبحت الرأسمالية طريقاً إلى الاستعمار الدولي.

ومن أخطر مقاتل النظام الرأسمالي: الاتجاه إلى إنتاج الكماليات دون

الضروريات.

وقد أدى انتشار سيطرة الرأسمالية إلى انفجار الثورة الشيوعية ١٩١٧ كرد فعل عنيف ضد رأس المال المستبد، واعتبرت الشيوعية أن الدين والمال كانا في أيدي الأغنياء لاستعباد الكادحين.

قال (ماكنزي) إن من عيوب الرأسمالية أنها تقوم على نظام مفسد للأخلاق يجعل من الشراهة والأنانية فضيلة إذ يتيح المزاحمات والمنافسات التي تحيل البشرية إلي معمعة فاشية يتنازع فيها الأفراد حق الحياة حيث تكون الغلبة للقوى أو النصاب أو المحتال وتتكدس الثروات في الأيدي الشرهة، وربط بين الاحتكارات والرفاهية وصراع الطبقات في ظل النظام الرأسمالي، وقال إن الأزمات الاقتصادية تقوم لأسباب تتعلق بذاتية النظام الرأسمالي وخصائصه فإن قوى معينة داخل النظام تعمل على تفجير الأمة نتيجة لاختلال التوازن بين الإنتاج والاستهلاك:

وقد استتبع نفوذ الرأسمالية: سيطرة رأس المال على الحكم، وضرورة السيطرة على مصادر المواد الخام للتحكم في الأسعار وضرورة الحاجة إلى أسواق جديدة لتصريف الإنتاج الوفير.

وكان من نتيجة ذلك التطور المستمر في إنتاج أسلحة الحرب نظراً لزيادة نسبة الربح فيها عن غيرها من أنواع الإنتاج.

وهكذا تبين أن الاقتصاد الرأسمالي قام في الغرب على أساس الاستغلال والاحتكار والمعاملة الربوية وكلها أمور نهى الإسلام عنها، فالإسلام يحرم الربا والاستغلال والغش والاحتكار كما أنه لايطلق المنافسة لتنشط من مصدر الغرائز وإنما يبيحها في نطاق مثالياته وأخلاقياته.

وحين يجعل الاقتصاد الرأسمالي (الفرد) هدفه ويهتم بمصلحته أولاً ويقدمه على المجتمع ومن ثم يمنحه الحرية الكاملة في ممارسة نشاطه الاقتصادي وفي التملك، فإن هذا الاتجاه حقق أكبر قدر من الربح الفردي، ولكنه أوجد البطالة والأزمات

الاقتصادية والاحتكارات، فضلاً عن أنه عجز عن إعطاء المجتمع كله قدراً من العدل وإتاحة الفرص، مما أدى إلى سيطرة الأقوياء واستئثار الأقلية بخيرات المجتمع وأدى سوء توزيع الثروة إلى تفاقم ظاهرة التفاوت بين الطبقات. أما الإسلام فإنه يحقق تكافؤ الفرص، ويقدس العمل الصالح ولكن يحيط هذه القاعدة بسياج من دستور أخلاقي يحمي المسلم من تجاوز الحد المرسوم في وسائل كسب الرزق الحرام ويحول دون غلواء الحافز الذاتي نحو المزيد من الكسب.

(٦)

أبرز معالم الاقتصاد الرأسمالي: (الربا) والربا محرم في المسيحية، وقد أجمع رجال الكنيسة ورؤساؤها كما اتفقت مجامعها على أن التعليم الصادر من السيد المسيح يعد تحريماً قاطعاً للتعامل بالربا حتى أن الآباء اليسوعيين وردت عنهم في شأن الربا عبارات صادقة، «من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحداً خارجاً عن الديانة».

هذه النظرية أقرها القانون المدني الأوربي ٧٨٩م وبقيت هي المذهب الوحيد طوال القرون الوسطى، ثم بدأت تفقد مناعتها شيئاً فشيئاً منذ عصر النهضة على أثر الاعتراضات المتكررة التي وجهت إليها بين القرنين ١٦، ١٨ ثم أخذ بعض الملوك والرؤساء المدنيين يجترئون على إنهاء هذا التحريم علنا من ذلك أن لويس الرابع عشر اقترض بالربا عام ١٦٦٢، وأن البابا (بي التاسع) تعامل بالربا ١٨٦٠ ثم وضع استثناء لهذا الحظر في أموال القاصرين فصار يباح تثميرها بالربا بإذن القاضي، وجاءت الضربة القاضية مع الثورة الفرنسية حيث احتضنت المذهب المقارض وجعلته مبدأ رسمياً منذ قررت الجمعيـــة العمومية في ١٢ أكتوبر ١٧٨٩ أنه يجوز لكل أحد أن يتعامل بالربا في حدود خاصة ثم سرت العدوى في منتصف القرن ١٩ إلى المسلمين بالربا لا إقراضاً بل اقتراضاً.

وهكذا قامت الرأسمالية على الربا على أنه أجر مشروع لمال منتج ولا ريب أن التلمودية التي سيطرت في الثورة الفرنسية هي التي أسقطت مفهوم المسيحية وأحلت محله الربوية اليهودية العالمية فاعتبرت الفائدة بالنسبة لرأس المال كالإيجار بالنسبة للأرض،وذلك معارض لمفهوم الدين الحق معارضة كاملة، وقد وضعت في أول الأمر معدلات أقل للفائدة، على اعتبار أن المعدل المنخفض سيجعل المال رخيصاً وسيشجع التجار على الاكتفاء بالأرباح القليلة ولكن الذي حدث أن معدل الفائدة انطلق من قيوده وأصبح خاضعاً لنظرية العرض والطلب.

ولقد حرم الإسلام الربا تحريماً قاطعاً: حتي يمنع احتكار أقوات الناس، ومنع التلاعب بالعملة، ومنع الفتن والاستغلال عند التعامل بالجنس الواحد، وقد بين الإسلام في وضوح أن النقود لاتؤجر ولا تلد النقود وإنما هي أدوات يكون لها اعتبار الأثمان كما يقرر ابن قيم الجوزية في كتاب أعلام الموقعين. فقد رأي أن الثبات والاستقرار في قيمة النقد (بمعنى القوى الشرائية للنقود) من ألزم الضمانات لدفع القلق والضرر عن أرزاق الناس،والنقود ما كانت سلعة ولن تكون إلا عند أهل الكتاب أو بعضهم.

٧- عندما سيطرت الدول الغربية على العالم الإسلامي فرضت عليه نظامها الاقتصادي وسخرت كل موارده الاقتصادية لتحقيق مطالب الغرب، ودعم اقتصاده وحرمته من نظامه الإسلامي ومن موارده في وقت واحد، فكان هذا النظام وبالاً على مقدرات المسلمين وثروتهم، ووقع العالم الإسلامي في نفس الأخطار والأسواء التي عرفها الاقتصاد الغربي، وبذلك فقد المسلمون المثل العليا الأخلاقية التي أقامها الإسلام للتعامل والاقتصاد وغرقوا في الربا والديون وصدق ما قاله رسول الله ﷺ حين قال: «فإني أخاف عليكم الربا» فقد ذهبت ثروة المسلمين حين اختلط حلالهم بحرامهم، وكان ذلك واحداً من أخطار التبعية الغربية في ميدان القانون والسياسة والتربية حين خضع المسلمون للمذاهب الأجنبية التي فرضها الفرد الاستعماري وتلاشت ذاتيتهم في ذلك الاحتواء الغربي حتى تنبهوا له وعارضوه

وقاوموه في السنوات الأخيرة بالبحث عن أسلوب اقتصادي بعيداً عن الربا وعن التبعية الغربية والرأسمالية والشيوعية معاً، وقد كانت ثروة المسلمين في الفكر الاقتصادي بالغة الأثر في إيجابيتها وسلامتها ومتانة أسلوبها، ولم يعد من سبيل إلى تطبيقها بعد أن سجلت تجارب الآخرين في بيئة المسلمين فشلاً ذريعاً، وثبت أن أحسن ما وصل إليه العصر في مجال القانون والاقتصاد والسياسة والتربية مستمد من الإسلام، وما كشف عنه علماء الغرب أنفسهم قبل علماء الإسلام، من أصالة خصائص الإسلام في فكره وعمق قدرتها على حل مشاكل الإنسان ومن أسف أن المسلمين في السنوات الخمسين الأخرى جهلوا ميراثهم وتراثهم الحافل بالضياء والهدى وعاشوا يحرثون في تراث فاسد وفكر زائف عجز عن العطاء لأهله أنفهسم مما دفعهم إلى البحث عن أساليب تحررهم في مجال الإسلام.

وما تزال جامعات العالم بما فيها جامعات العالم الإسلامي على حد قول دكتور شوقي الفخري - ندرس الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي، ولا ندرس الاقتصاد الإسلامي وفي مصر تنشأ كليات متخصصة للاقتصاد والعلوم السياسية دون أن تتضمن أي ذكر أو إشارة لدراسة الاقتصاد الإسلامي.

(٨)

كشف كثير من علماء الاقتصاد الغربيين مساوئ النظام الرأسمالي:

يقول داربز سومبارت: إن المثل العليا عن قيمة الذات الآدمية قد فقدت سيطرتها على عقل الإنسان وأن الجهود التي يجب أن تبذل لتنمية الرخاء الإنساني وإسعاد البشرية لم تعد لها أية قيمة أو تقدير: إن الوسيلة أصبحت غاية.

ويقول جون إير: لقد أصبح رجال الأعمال عندنا تائهين في مطاردة المال الذي يجب أن يكون وسيلة إلى الحياة الطيبة لا غاية في ذاته حتى نسوا الغاية وأمعنوا في التعلق بالوسيلة.

ويقول الدكتور عبد الله العربي:إن علماء الاجتماع في الغرب يقترحون لإصلاح الفساد الذي تغلغل في مجتمعهم فصاروا يناشدون مجتمعكم أن يأخذ بعلاجهم المقترح، فيقولون إن الناس إذا سلمنا بأنهم أنانيون في هذا العصر مسرفون في هذه الأنانية فإن مرجع ذلك في كله أو بعضه إلى تأثير هيئته التي اكتنفتهم وإلى التقاليد التي درجوا عليها،فهم من المهد إلى اللحد يشعرون بالتوكيد الجازم على تقديس المال باعتباره معيار كل احترام ومبعث كل كرامة في المجتمع ويرى هؤلاء العلماء أن الناس لو كانت بيئتهم تقدس مثلاً عليا أخرى غير عبادة المال ودربوا تدريباً متصلاً على الإيمان بهذه المثل والتمسك بها لتحققت استجابتهم لها بنفس القوة التي يبذلونها في طلب المال.

إن تربية الإنسان على مقاومة نزعات النفس البشرية في جموحها إلي طلب المال بأي ثمن ومن أي وجه يتطلب إيقاظ قوة باطنية في وجدانه تستند إلى وعي ديني حي، وأن المنافسة في المجال الضيق الذي لازال باقياً في الاقتصاد الغربي قد تجردت من كل القيود الخلقية وانحدرت إلى صراع قتال. كما أن انعدام تكافؤ الفرص قد أحالها إلى سباق مزيف لايكتب فيه السبق لأحد المتنافسين.

ومن هنا نجد الإسلام قد أحاط مفهوم الاقتصاد وأساليبه بضمانات كثيرة تكفل أخلاقياته، حتى لايخرج إلى نطاق المضاربة أو تكديس الأموال وتنميتها بالطريقة الربوية أو وجود التناحر والتباغض والأنانية بين طبقات المجتمع،فالإسلام يحارب تكديس الثروة وجمعها في يد فئة قليلة، وقد عمل على تفتيت الثروة بوسيلتي الميراث والزكاة، كذلك فإن الإسلام حين حرم الربا حال دون رأس المال أن ينفرد بالتمتع بأي امتياز أصلاً تجاه العمل لأن العمل في نظره رأس مال معادل،، وفي حالة انضمام رأس المال إلى العمل يعتبران طرفي عقد ويتمتعان بامتيازات متساوية في النتيجة.

وبذلك حل الإسلام المشكلة الكبرى القائمة بين الاقتصاد الشيوعي والاقتصاد الرأسمالي وهي مشكلة فضل القيمة وإذا كان أبرز معالم الاقتصاد الرأسمالي المزاحمة

والحرية فإن الاقتصاد الإسلامي يكشف عن مفهومه المتميز لهما يقول الاستاذ محمود اللبابيدي:

أما المزاحمة فلكي يضمن الإسلام المزاحمة الحرة للأفراد في معركة الحياة بأسلحة متكافئة فقد فرض جملة قواعد أهمها:

١- حرم الربا لكي لايثرى أحد من غير عمل أو جهد.

٢- حرم ألعاب الميسر بأنواعه لكي لايثرى أحد عن طريق الحظ.

٣- حرم الوصية للوارث حتى لايظفر بنصيبين: نصيبه من الأرث ونصيبه من الوصية.

٤- أباح الوصية لغير الوارثين ليحصل غير الوارث على مال يعده للمزاحمة.

٥- حرم أن تخرج هذه الوصية من غير ثلث الثروة لكي لاتصير الثروة كلها إلي الموصى له فيحرم الورثاء فتختل شروط المزاحمة.

٦- جعل أنصبة الإرث أحد عشر صنفاً ليشيع المال في أيد متعددة فتقل الفروق بين المتزاحمين إلى أقصى درجة.

٧- فرض الزكاة بما يوازي ٥ر٢٪ مما يمكن الفرد سنوياً من الأموال القابلة للنماء سواء بنفسها أو بالقوة وجعلها مخصصة لثمانية أصناف من الناس عددهم في سورة التوبة وهم أضعف الخلق، وذلك لكل لايحرم أحد سلاحاً يزاحم به في مضمار الحياة.

٨- لم يترك الوارثين أو الموصى عليهم يديرون المعركة الاقتصادية وحدهم بل أشرك معهم كل أصناف الفقراء والمساكين وابن السبيل حتى شمل فاقدي الحرية من الرقيق ولم ينس المثقلين بالدين فإنه في تأجيله لديونهم إلى وقت الميسرة أفسح لهم المجال ليستأنفوا نشاطهم الاقتصادي من جديد بأن أفرز لهم نصيباً مفروضاً في ميزان الزكاة وهو رأس مال جديد يبدأون به عملاً جديداً.

كذلك فإنه في قاعدة الحرية الاقتصادية لم يجعلها مطلقة وقيدها بقيدين

خطيرين: هما المبدأ الأخلاقي والمصلحة العامة. لذلك لم يسمع في أرجاء الممالك الشاسعة التي طبقت هذا الاقتصاد أن أجرى إتلاف المنتجات والمحاصيل للاحتفاظ بالأسعار العالية، ولو وقع شيء من هذا لتكفل نظام التقرير الجزائي بقمعه، فضلاً عن أن هذا النظام يحارب الاحتكار ويعاقب المحتكرين المتحكمين في الأسواق عن طريق مؤسسة الحسبة وبهذا نجد أنه لاموقع للاقتصاد الإسلامي بين النظم الاقتصادية فهو فريد في بابه.

(٤٣)

الاقتصـــــاد

الإســـلام والماركســـية

إن موقف الإسلام من الماركسية هو نفس موقفه من الرأسمالية. فالإسلام منهج رباني جاءت به رسالة السماء والماركسية والرأسمالية نظريات بشرية وضعها خبراء ورجال اقتصاد أرادوا بها إيجاد حلول اقتصادية لمجتمعاتهم يتفق مع ظروف عصرهم وبيئتهم والتحديات التي تواجههم، وهي سواء الرأسمالية أو الماركسية - منبثقة من التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الأوربي الذي مر بها مرحلة بعد مرحلة، وليست الماركسية في حقيقتها إلا نتاج غربي ورد فعل داخلي للمجتمع الغربي إزاء أزمة الرأسمالية وأضرابها وعجزها عن حل مشاكل المجتمع، وليس كذلك الإسلام الذي جاء من عند الله تشريعاً عاماً للبشرية كلها في كل بيئة وعصر، وليس تحديا خاصاً لظرف معين أو وضع معين أو بيئة خاصة، وإنما هو منهج الحياة ونظام المجتمع الصالح للبشرية كلها وهو بمرونة إطاراته واتساع آفاقة قابل لتطورات الحياة وتغيرات الأزمنة فهو من هنا مختلف تماما من حيث المنهج والوجهة والأساليب والغايات ولذلك فإنه لاوجه مطلقاً للمقارنة بين النظام الرباني الثابت الممتد إلى نهاية الحياة، وبين النظرية البشرية المؤقتة التي واجهت عصراً أو عصرين والتي سرعان ماأصابها العطب وبدأت عمليات الترقيع فيها بالإضافة والحذف ولما يمضِ على تطبيقها أكثر من خمسين عاماً.

وهكذا نجد حين نستعرض الماركسية الحقائق الآتية:

أولاً: إن المارسكية نتاج الحضارة الأوربية الصناعية في القرن التاسع عشر، وهي تقدم صورة كلية للمجتمع الذي تريده، وتعطى تحليلاً (جدلياً) مادياً للتاريخ البشري وتعتبر تغير وسائل الإنتاج أساساً لتغير المجتمع وتغير قيمه ومثله، وهي

تنكر الدين وتعتبره ظاهرة تاريخية عابرة صارت وسيلة إلى الاستغلال.

إنها نتاج تطور الحضارة الأوربية التي قامت في البدأ على الإرث اليوناني والديانة المسيحية وأخيراً على مفهوم النهضة الأوربية في الصراع بين الدين والعلم، ثم كانت الثورة الدينية في أوربا على الكنيسة وقيام البروتستانتيه، وما كان لها من أثر في تنشيط الرأسمالية ثم ما كان من أثر الثورة الفرنسية على الإقطاع الأوربي ودفع الحركة القومية الأوربية، ثم كانت الثورة الصناعية وما يتصل بها من صراعَ وخلاف بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال، ومن خلال مرحلة معينة انطلقت نظرية ماركس في محاولة لتفسير التاريخ الغربي والتنبؤ بالمستقبل، وهي محاولة أثبتت فشلها تماماً في كل ما رسمته من قوانين وما تنبأت به من تغيرات.

فقد جاءت الماركسية بتفسير مادي حاولت أن تخضع فيه التاريخ البشري كله للنظرية، واعتبرت وسائل الإنتاج وملكيتها أساس تغير المجتمع إذ يرافق تغير وسائل الإنتاج صراع بين الطبقة المسيطرة حالياً والطبقة الجديدة الصاعدة، وهكذا ترى الماركسية أن صراع الطبقات ضرورة لتغيير المجتمع وهي تنكر الدين وتعتبره وسيلة استغلال وتخضع تطور البشرية لقوانين جديدة وتفرض الحتمية على التاريخ، وترى أن قوانينها تصدق على كل المجتمعات بمعنى أن حتمية التاريخ تفرض مرور المجتمعات بنفس الأدوار من التغيير التي مر بها المجتمع الغربي.

والواقع أن الماركسية قاصرة النظرة في مجتمعها الخاص ولا يمكن أن يكون مفهومها صالحاً لكل مجتمع أو لكل عصر والقول بالعامل الاقتصادي في تغيير المجتمعات، لم يعد صالحاً لأن الاقتصاد ليس العامل الوحيد ولكنه أحد العوامل في تغيير المجتمعات.

وبمرور الزمن تبين أن تطورات خطيرة وقعت معارضة ومخالفة لما افترضته النظرية الماركسية ، وأن أساس الماركسية الذي يعطى سبباً واحداً لتغير المجتمعات هو تبدل وسائل الإنتاج وأن هذا التغيير يحصل عن طريق الصراع بين الطبقات قد تجاوزه الواقع والتاريخ وأكدت الأحداث أن النواحي الروحية والفكرية وغيرها من

ظواهر لها أثرها الذي يسبق الاقتصاد.

وقد كشف الباحثون عن أن الخطأ الأساسي في نظرية ماركس أنه أقامها في ضوء حالة عارضة في المجتمع الأوروبي في «زمن محدود» فهذه الحالة لم تلبث أن تغيرت فضلاً عن أنه لم يلتفت إلى تأثير العامل السياسي في الوضع الاجتماعي، وكان أكبر ماوقع فيه ماركس من خطأ هو أنه توقع أن تحدث الثورة الشيوعية في دولة متقدمة صناعياً إلى أقصى حد فوقعت في دولة متأخرة زراعياً إلى أقصى حد.

والتاريخ كما يصوره ماركس ليس هو تاريخ المجتمع الإنساني بأكمله، بل هو تاريخ المجتمع الأوروبي، وحتى في أوربا فإن الصراعات الطبقية ليست هي الصراعات الوحيدة في التاريخ وهناك صراعات أخرى كان لها في التاريخ أهمية أكثر مثل الصراع بين المجتمعات القائمة على الصيد ورعى الماشية، والصراع بين مجتمعات الرعاة والمجتمعات الزراعية،والصراع بين التجار البرجوازيين أصحاب الصناعات، كذلك فإن ماركس لم يحفل بقوة الشعور القومي والاختلافات الوطنية والعداوات بين الأمم، وهناك الدين والتربية وجميعها تعمل على مقاومة صراع المصالح الاقتصادية وطبيعة الأقوام وأخلاقهم ونظامهم الاجتماعي كلها لها دورها في تاريخ الأمم.

بل إن أخطر مقاتل النظرية الماركسية هي إقحام الضرورة والحتمية على حركة التاريخ، ومن الحق أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والدينية والعادات والتقاليد لها أثرها في سير التاريخ والحياة البشرية ولكن هذه السيطرة ليست مطلقة وللإنسان نصيب كثير من الإرادة الحرة في التفريق بين الخير والشر والضار والنافع، وإن للبشر من الكفاية الفعلية ما يجعلهم جديرين باحتمال تبعة أعمالهم وصنع تاريخهم.

ثانياً: إن تجربة ماركس قاصرة على التاريخ الغربي وحده في العصر الذي عاشه، ولا تستيطع أن تتجاوزه إلى التطبيق على التاريخ البشري كله، ولا تصلح

للتطبيق على التاريخ الإسلامي، فالإسلام يؤمن بأن الفكر والمادة يتناوبان الحركة ولا يسبق أحدهما الآخر، لذلك فإن نظرية التفسير المادي للتاريخ لا تستطيع أن تفسر الإسلام الذي يقوم الإيمان عاملاً هاماً من عوامل التأثير والتغيير في تاريخه، كذلك فإن النظرة المادية الخالصة تحجب عالماً كاملاً من الفكر والنفس والروح، وإن العالم لن يستطيع أن يقيم نظامه الاجتماعي على أساس المادة لأن ذلك مخالف لطبائع الأشياء ونواميس الكون وأن عالم الفكر وقيم النفس والروح لها آثارها البعيدة المدى، ولن تكون لقمة العيش هي قانون الحياة، ذلك لأن لقمة العيش في مفهوم الإسلام أمر مقرر أقسم الله تبارك وتعالى على ضمانه:

﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون،فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ وفي الإسلام أن الحياة ليست مثالية ولا مادية مطلقة وليس الإنسان روحاً خالصاً ومادة خالصة ولكنه جماع ذلك كله.

أما الماركسية فهي تعتمد على المادة وترى أنها أصل جميع الأشياء، والعالم لن يكون مادياً ولا من الصدفة ولا أبدياً، ومن هنا خطؤها في تفسير الأحداث تفسيراً مادياً خالصاً ينكر الدين والروح والغيب ويصادمه، ولا يؤمن بالمثل ولا يدين إلا بالمحسوسات، والماركسية تنكر جميع العواطف البشرية والمثل العليا والقيم الأخلاقية والمعاني الروحية والجوانب الإنسانية، وهي بذلك تعارض جزءاً حياً في الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية لا سبيل إلى تجاهله وهو التدين، وتاريخ الإنسانية (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً) مليء بالحوادث التي قام الدين خلالها بدور حاسم في التغيير الاجتماعي.

ثالثاً: قامت النظرية الماركسية على أساس فلسفي استمد من النظرية المادية قاعدته ثم تبين بعد سنوات فساد النظرية المادية التي غيرتها الكشوفات الجدية في العلوم، وبذلك انهدم أساس النظرية الماركسية العلمي قامت النظرية الماركسية على مفهوم الجوهر الفرد ثم اكتشف العلم انشطار الذرة فهدمت هذه النظرية تماماً وباتت وقد هوى جدارها الأساسي، ولقد تغيرت نظريات العلم وفرضياته تغيراً كبيراً منذ

ماركس إلى اليوم وكان للحقائق العلمية الجديدة أثرها في مناقضة أساس النظرية الماركسية، وقد نقض العلم اليوم الفلسفة المادية التي حاولت أن تقول إنها وليدة مقررات علمية وتبين أنها ليست حقائق رياضية، وأن الفلسفة تحاول السيطرة على مقررات العلم التجريبي واستخدامها في أهدافها معارضة بذلك الحقائق التي يتوصل إليها علماء المعامل اليوم وهي تناقض الأسس المادية للنظرية الماركسية مناقضة تامة، وقد أعلن العلم اليوم أنه ليس قادراً على معرفة كنه الأشياء واكتفى بتفسير الظواهر، وأظهرت الدراسات العلمية الحديثة أن هناك عالم غيب متصل بعالم الشهادة،كل هذا صدم النظرية الماركية في صميمها مما دعا أصحابها إلى إعادة التعبير والتنقيح والتعديل يوماً بعد يوم، وإخفاء الأصول الأولى التي اعتمد فيها ماركس على النظرية العلمية المنهارة، ولقد ثبت للفكر العالمي اليوم أن العلم لن يستطيع أن يعطى البشرية إلا ظواهر الأشياء، وإلا تلك المعطيات المادية التي تعين على تسيير الحياة،أما القيم العليا فلا يعطيها إلا الدين الحق، وأن العلماء اليوم وخاصة في مجال الذرة والفلك والرياضيات ليقررون وجود الله تبارك وتعالى ويؤكدون أن هناك عالماً غيبياً قائماً فعلاً وراء المظاهر المادية،ولما كانت الماركسية قد قامت أساساً على انكار وجود الله والغيب فإنها عجزت عن أن تجرى مع تحولات العلم الحديث وتجاربه التي تقترب الآن من فهم القوة الربانية القائمة وراء العالم، ولقد ربطت الماركسية نظامها الاقتصادي بالإلحاد ربطاً محكماً وجعلته نتيجة لعقيدة إنكار الخالق وبذلك عجزت عن أن تحرر نفسها يوماً لتكون منهجاً صالحاً للمجتمع البشري.

رابعاً: عارضت الماركسية الفطرة الإنسانية بدعوتها إلى إلغاء اعتبار الدين والإيمان بالله - واعتبار الأخلاق ومقاييس الحلال والحرام مقاييس متغيرة غير ثابتة والكف عن النظر إلى الماضي واحتقار التراث كلية، والاستغراق في الحياة الدنيا وحدها، وهذا المفهوم هو عودة بالبشرية إلى طفولتها التي حررتها منها الأديان حين دعتها إلى الانتقال من الفردية والأنانية إلى الغيرية والبذل في سبيل الجماعة.

كذلك فإن الماركسية تقرر أن الغاية تبرر الواسطة وكل وسيلة يستعان بها على هدم المجتمع هي وسيلة مشروعة.

ويقرر الإسلام أن الأخلاق هي دعامة التعامل الاجتماعي بين الأفراد من ناحية وبين الفرد والجماعة من ناحية أخرى، ويقرر أن الأخلاق قيم ثابتة راسخة لا تتأثر بالأحوال الاجتماعية ولا بتغيرات البيئة أو الزمن وأن الأخلاق مرتبطة بالإنسان نفسه على مدار التاريخ فالقرآن يقرر أن النفوس قد منحت بفطرتها القدرة على التمييز بين الخير والشر،والعدل والظلم،والتقوى والفجور ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ . والبصيرة قوة كاشفة معرفة آمرة ناهية.

كذلك فإن موقف الماركسية من المرأة هو موقف جائر فهي تستهدف هدم بناء الأسرة وتعد عملية تدمير الأسرة من أسس الماركسية باسم المساواة بين المرأة والرجل وباسم إباحة العلاقة بين الجنسين دون ضوابط أو عقود مشروعة.

والأسرة عند المجلزولينين وتروتسكي عامة هي المجتمع البرجوازي فيجب تحطيم هذه الدعوة والقضاء عليها ويمكن في نظرهم أن تقوم العلاقات الحرة مقام الزواج، أما الإسلام فقد ساوى بين الرجل والمرأة من الناحية الثقافية والدينية والاقتصادية وجعل قيام الأسرة دعامة المجتمع كله،وهو حين أعطاها حق العمل وحق الكسب حفظ لها كرامتها حتى لايستعبدها الرجل ودعم لها مكانها في بيتها وأسرتها.

خامساً: أخطر ما تدعو إليه الماركسية «الصراع بين الطبقات» وهي دعوة ظالمة مظلمة، تستهدف هدم المجتمعات وإثارة الخلاف بين فئاتها وإيقاد نار البغضاء بين أهلها، وقد تبين خطأ فكرة الصراع الدائم الذي أقام عليها ماركس نظريته، ولم يتأكد تاريخياً أن الأمم قد عاشت على صراع دائم بين الطبقة العليا الحاكمة والمالكة لوسائل الإنتاج وبين الطبقة موضع الاستقلال.

بل إن العالم الغربي الرأسمالي قد استطاع أن يرفع شأن الطبقة العاملة منذ

نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فأعطاها كثيراً من الحقوق الاجتماعية والسياسية دون أن يقوم بحركات ثورية بل نالتها بموافقة الطبقة العليا الحاكمة ذاتها، وقد سارت حركة التطور في عكس الاتجاه الذي تنبأ به ماركس، إذ اتجهت الدول إلى تحقيق أكبر قدر من المساواة بين هاتين الطبقتين فعمدت التشريعات الحديثة إلي التضييق من حقوق الملكية شيئاً فشيئاً، كما وجدناها من الناحية الأخرى تكفل الكثير من ضروب الخدمات الاجتماعية للطبقة العاملة، كما أن الطبقة العاملة لم يأخذ بؤسها يزداد حدة أو فقرها شدة كما تنبأ ماركس (في ظل النظام الرأسمالي) بل نجد العكس أن مستوى معيشتها أخذ في الارتفاع باضطراد كما أدى إلى تحسن فرص التعليم المتاحة لتلك الطبقة العاملة، وأنه نظراً لما حدث من تطور لم يتوقعه ماركس أصبح من الميسور تسوية ما ينشأ من نزاع أو من صراع بطريقة سليمة، وهذا ما حدث بعضه حيث قام بعض كبار الرأسماليين بإشراك العمال في نصيب من أرباح مشروعاتهم (عبد الحميد لطفي) كذلك فإن التاريخ عرف أنواعاً أخرى من الصراع يفوق الصورة التي ذكرها وخاصة الصراع بين القوميات والأمم، يقول بوران في كتابه الوجيز في تاريخ المذاهب الاقتصادية: إن ماركس قد غالي في إبراز الصراع الطبقي داخل الأمة الواحدة وبذلك أهمل العوامل التي تلطف من حدود هذا الصراع وعلى رأسها اندماج أفراد الطبقات المتصارعة في إنسانية واحدة، كذلك فات ماركس أنواع الصراع بين رجال الصناعات وأصحاب الأملاك والحروب بين مختلف القبائل.

وفات ماركس أن يشير إلى أهم ضروب الصراع بل الحروب التي عرفها التاريخ قديماً وهي الحروب الى قامت باسم المعتقدات الدينية.

والواقع أن هدف النظرية هي تغذية روح الحقد بين نفوس الكثيرين وتدمير المجتمعات بعد قسمتها إلى طبقتين يتصارعان ويصبح من العسير التوفيق بينهما أو إقامة السلام بين طبقة العمال وطبقة المالكين، بل توجب الماركسية تغذية الأولين بالحقد ليثوروا وليقضوا على الآخرين دون احترام لقانون أو لمبادئ الأخلاق أو

حقوق الإنسان أو قواعد الدين كما صرح ماركس نفسه.

وقد وردت عن الماركسيين في هذا تحريضات خطيرة: مثل قولهم: إن الصراع الطبقي وسيلة لحقد العمال على جميع من عداهم من الناس وتجنيدهم ليصبحوا أداة للثورة الهوجاء، وليصبح العمال بأنفسهم الوسيلة الفعالة في القضاء على آخر أمل للعامل في أن يكو يوماً ما مالكاً وحراً وطليقاً، وهي في ذلك تعارض مفهوم الإسلام الداعي إلى الأخوة والتراحم فيقول: لم يكن جميع الناس إخوة في أي من الأحوال بل كانوا أعداء طبيعيين يتصارعون.

وبينما ينطلق الصراع الطبقي من نقطة الخلاف ليوسعها وليحقق بالحقد أصحابها إعداداً لهم لإراقة الدماء، فإن الإسلام ينطلق من نقطة الوفاق ليزيد دعمها وتوسيعها ويدعو للتقارب فيما بين أصحابها حباً للسلام وحقناً للدماء،وحيث تدعو الماركسية إلى عداء الإنسان للإنسان يدعو الإسلام إلى إعلان وحدة الأصل الإنساني ووحدة المجتمع وأن الناس جميعاً مدعوون إلى التعارف، ويعطى الإسلام الناس حق التملك والكسب المشروع حقاً مشروعاً بل شرطاً أساسياً لتحميل الإنسان المسئولية المفروضة عليه للعمل في هذه الحياة ليسأل عن كسبه من أين اكتسبه وكيف أنفقه وهل أدى فيه حق الله على عباده.

سادساً: عجزت الماركسية عن أن تكون نظاماً صالحاً للتطبيق، فقد استهدفت تغيير العالم وإعادة بنائه بوسائل العنف والدماء وخلق جو الصراع بين طبقات المجتمع،وتلك أساليب لاتصلح للعمل المستمر وقد توجد زمناً ما ولكنها ليست من صفات الاستمرار، والاستمرار يتطلب الأمن والاستقرار، فلقد فرضت الماركسية قيام «الدكتاتورية» لإزاحة الطبقة الحاكمة وإحلال طبقة العمال مكانها فلما جاءت الدكتوتورية أقامت «مجتمع الخوف» على تعبير الدكتور مصطفى محمود، ولم يلبث هذا الجهاز الدكتاتوري المؤقت أن تحول إلى «طبقة» لها مصلحة في البقاء الذي أصبح هدفاً بديلاً عن الهدف الذي جاءت من أجله «وفي حضور الخوف وغياب المبدأ الديني تدهورت الأخلاق».

ثم جاءت الحوافز عاملاً لدفع العجلة فعجزت الحوافز لأن العامل الداخلي الذي يحرك النفس الإنسانية ليس موجوداً، ذلك أن الدين هو القادر على إمداد البشر بطاقة العمل مراقبة لله، وبالبذل والتضحية خوفاً من عقابه وانتظاراً لمثوبته.

وفي خلال أكثر من خمسين عاما نجد اليوم أن التجربة لم تحقق المجتمع الذي وصف بالفردوس الأرضي، بالرغم من كل محاولات التغيير والتبديل، وتخفيف الحواجز ووضع الحوافز، في الوقت الذي قفزت فيه المجتمعات الرأسمالية إلى مزيد من التحسينات والتأمينات للعاملين، مما كشف عن عجز الفكرة الماركسية عن فهم ظروف المجتمعات وتقلباتها وتطور حركة التاريخ ومما ورط التجربة نفسها في كثير من الاضطراب وكشف عن عجزها وفسادها في مجتمعها نفسه وقد صدق إقبال حين قال: إن أعظم خطر على الإنسانية كلها هو المادية الملحدة.

سابعاً: أكبر أخطاء الماركسية محاولة تصورها إقامة «فكرة شمولية» أو منهجاً عاماً يشمل كل جوانب الحياة والاجتماع والفكر والفن، حتى وصفت بأنها دين جديد، وهي بهذا تحاول أن تستقطب معتنقها استقطاباً تاماً من تبني أي فكر أو أي مفهوم آخر حتى تخرجه إخراجاً كاملاً من الفكر الديني وتحتويه داخل إطار الفكر البشري، وبذلك يصبح أتباع الماركسية أدوات مصوغة متشابهة ولم يكن الفكر الماركسي في هذا إلا عصارة الفكر التلمودي القديم والوثني الإباحي والإلحادي الهليني، بالإضافة إلى الميكافيلية، والمزدكية والمانوية لهدم المجتمع القائم أو كما وصفها الباحثون بأنها مجموعة من المتناقضات تحاول أن تفسر الإنسان والمجتمع والكون والتاريخ والنشأة ثم تبين عجزها عن وضوح الرؤية ويتكشف تناقضها العميق.

وأخطر فروضها الزائفة: «الحتمية» وهو فرض مخالف للمنهج العلمي، الذي يقول بالترجيح والاحتمال، والقوانين البشرية كلها «قوانين احتمالية وترجيحات لايرتفع أحدها إلى مرتبة الحتمية أو الإطلاق، «ثم إن الإنسانيات لاتجوز فيها الحتمية لأن الناس ليسوا سواء في طبائعهم وتصوراتهم ومشاعرهم ولكنهم إرادات حرة، لاتحكمها

القوانين المادية».

والإرادة الإنسانية الحرة التي يربيها الدين الحق هي أداة التغيير في المجتمعات، وكل إنسان مريد وقادر على التعبير في دائرته المحدودة، ولا يمكن تصور أن يستسلم الإنسان أمام جبرية المجتمع، هذه الجبرية التي ليست إلا صورة لمرحلة التحلل والانهيار الذي يمر به المجتمع الغربي اليوم، والإرادة البشرية مؤهلة بفطرتها للسيادة على المادة وقيادتها وتغيرها والتحكم فيها وليس العكس» وإنما تنازل الإنسان عن حقه الطبيعي في الاختيار هو الذي يؤدى إلى الحتمية المادية.

ثامناً: أثبتت التجارب والوقائع التاريخية زيف النبوءات التي قدمتها الماركسية بعد أن قدمت ملايين الضحايا الذين ضاعوا قتلاً ونفياً وتعذيباً، وأثبتت الدراسات أنها ليست مذهبا للطبقة المحرومة أو الفقيرة ولكنها دعوة الحقد على البشرية والأسرة والكراهية للإنسانية وكل التجارب التي تمت في بلدان كثيرة كشفت عن فشلها ويثبت أنها ضد الفطرة وضد العلم نفسه ودلت على أنها دعوته إلي تخريب المجتمعات لإقامة نظامها المدمر، فالماركسية تقهر العلم وتسخره لتبرير أحكام مسبقة جاهزة.

وقد انهارت «حتمية» ماركس أمام الواقع والتجربة، وانهزم قانون رأس المال أمام الإرادة الإنسانية ولم يقع ما توقع ماركس وعدلت الأمم أنظمتها فحققت لعمالها مالم تحققه الشيوعية، كذلك فقد وقع النظام الشيوعي في غير البيئة التي توقعها ماركس، ولم يستطع الماركسيون تأكيد نظرية «القيمة» وكشف التطبيق عن عجزها وظهر أمثال ليبرمان وغيره من الذين نادوا بآراء جديدة لدفع عجلة الاقتصاد القومي، لقد كان ماركس أعجز من أن يتجاوز عصره ولقد كانت تنبؤاته قاصرة، فإن رياح التغيير جرت إلى غير ما توقع وجرفت كل ما توقع.

ولقد تبين أن التفسير المادي ليس أكثر من تسجيل لفترات الانتكاس في حياة الشعوب بما يستبقيه الانتكاس من صراعات على كل المستويات، وكان موقف الماركسية من العامل الاقتصادي منحازاً لا علمياً، لقد حاول التفسير المادي أن يقدم

تحليلات لفترة من التاريخ في بيئة من البيئات ولكنه عجز عن تفسير التاريخ كله في كل البيئات ولم يستطع أن يتوقع لمدى خمسين سنة بعد ظهور النظرية، ولقد تراجع الماركسيون بعد هزيمتهم فقالوا إن العامل الاقتصادي ليس هو كل شيء وأنه أعطى أكثر مما يستحق، وقال نهرو: إن تفكير كارل ماركس الذي عاش في القرن التاسع عشر لايلائم تفكير القرن العشرين الذي تقدمت فيه العلوم والنظريات الاقتصادية، تقدماً جعل آراء ماركس غير مقبولة ولا صالحة في هذا القرن؛ فضلاً عن أنها لاتملأ فراغ النفس ولا تجيب على أي سؤال يوجهه العقل وهي خالية من المثالية، والشر لايكون وسيلة للخير.

تاسعاً: مجافاتها للفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية في كثير من قيمها ومقرراتها، وإن أهم ما تدعو إليه هو المشاعية الجنسية وهو أمر لاتقره البشرية بطبيعتها التي تعتبر الأسرة قاعدة مقدسة عنها، يقول الدكتور على عبد الواحد وافي: إن نظام الشيوعية المطلقة لم نعثر عليه في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية سواء في ذلك البدائي منها أو المتحضر، فليس من بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التي وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها، ليس بينها أي مجتمع يأخذ بنظام الشيوعية المطلقة في علاقة الرجال والنساء فكان جميع نسائه حقاً مشاعاً لجميع رجاله وكل من تصدى لهذا من قبل مثل أفلاطون أو كامبانلا كان من نصيب آرائهم الإخفاق المهين وأن المجتمعات البشرية لم تقبل هذا النوع من التفكير كذلك نفوراً من مجافاتها للفطرة الإنسانية. إنها تعتبر الإنسان مجرد ظاهرة مادية على سلسلة النشوء والارتقاء، وهو عند المسلمين نفحة إلهية ترتاح وتنمو بكل ما هو حق، والحرية عندهم محصورة في تحقيق ضرورات الحياة من مأكل ومشرب وملبس، بينما هي عند المسلمين فك قيود الباطل وانطلاق في مدار الحق.

فهي في أغلب ما تدعو إليه مجافية لفطرة الإنسان التي هي الخير والحب والرحمة والشجاعة وما دونها فهو معارض لطبيعة الإنسان، وخطأ المفهوم الماركسي في أنه يعتبر الحرية مجرد تحرير الضرورات من أسر الطبغية بالعلم أو من قبضة

المستغلين، أما الإسلام فيدعوهم إلى تحقيق الحرية الحقيقية للناس جميعاً، حين يأمرهم بخلع عبادة العباد، ويدفعهم إلى عبادة الله الواحد القهار، وحين ينقلهم من جور الحكام إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

والفكر المادي يطلق كلمة حرية علي كل انفلات من مدار الحق والخير ما دام يخدم رغباتهم ومصالحهم المادية ولو كان ذلك على حساب إظلام نفس الإنسان وتدمير الجانب الرباني فيها.

عاشراً: إن التجربة الشيوعية في مواجهة البشرية قد كشفت مع الزمن عن ثلاث أخطاء كبرى:

١- إهدار الكرامة البشرية وذلك بالقضاء على مفهوم فردية الإنسان وحريته الخاصة وكرامته وقدراته الحرة التي تمكنه من الإبداع والتقدم والطمأنينة على سلامة العيش وإلى القدرة على وضع مجتمعه في أوج الازدهار.

٢- تدمير الأخوة الإنسانية وذلك بإثارتها روح البغضاء والحقد بين الطبقات بما يحول دون نماء المجتمع أو اندفاعه في حركته الجامعة، إلى التقدم.

٣- إذلال الإنسان وتحقيره وذلك بجعله أشبه بترس في آلة ليس له حق امتلاك كيانه الخاص ولا مقدرته المتطلعة في الفكر والحرية وخاصة فيما يتعلق بإلغاء كرامة المرأة وقداسة الأسرة وحرية التفكير.

وبذلك تقف الماركسية موقف المعارضة للفكرة الإنسانية التي بشر بها الدين الحق، فقد كرم الإسلام الإنسان ودفعه إلى تحقيق إرادته الحرة، من أجل مصلحة الفرد نفسه ومصلحة مجتمعه، وشجع فيه من أجل ذلك جميع الحوافز الفردية وأوجب علي الفرد في كل حال أن يبتغى فيما أعطاه الله وجه الله أولاً وهذا لا يخرج عن مصلحة المجتمع وأن يتمتع بعد ذلك بنصيبه من الدنيا.

وقرر الإسلام الإيمان برب العالمين، وبكرامة الناس أجمعين، وبأن أكرم الناس عند الله أتقاهم، ورفض امتياز أي فئة على فئة سواء بالعرق أو النسب أو المال، كما

اعتبر التكافل الاجتماعي واجباً دينياً بين الكاسبين وأعلن بأن المجتمع كله وحدة واحدة، وإن الفرد فيه مسئول عن مصلحة الجماعة وإن الجماعة مسئولة عن مصلحة الفرد.

حادي عشر: قامت الماركسية على أساس الفلسفة المادية لا العلم التجريبي، ذلك أن الفلسفة المادية ليست علماً وإنما هي نظرية وفرض، والمادية نظرية قديمة جددها التلموديون في العصر الحديث ليسيطروا بها عن طريق الماركسية، وهي تقوم على أساس أن الوجود مادي وهي تنكر الدين والأخلاق والفكر، ومن شأن الإيمان بالمادة أن يتخذها وسيلة لإنكار الخالق (جل شأنه) وإنكار المسئولية الفردية التي هي مصدر الجزاء الأخروي وإخضاع الفكر والحياة والفن للمادة.

ومن منطلق هذا الفهم جاء تفسيرهم للتاريخ تفسيراً مادياً فعزوا التغييرات التي حدثت على وجه الأرض إلى الضرورات الاقتصادية حتى العقل عندهم هو من نتاج المادة، وهذه النظرية الفلسفية التي ظهرت في القرن التاسع عشر استطاع العلم التجريبي بفتوحه وتقدمه أن يزيفها ويحطمها، وأثبت تعارضها مع التجربة كما أثبت الباحثون تعارضها مع الفطرة الإنسانية،وقد أسقطت الكشوف العلمية التي توالت والتغييرات التي أصابت المنهج العلمي كمنهج معرفة هذه الأصول التي اعتمدت عليها الماركسية من جذورها فلقد وصل العلم إلى حقيقة من أمهات الحقائق: تلك هي الاعتراف بأن في هذا الكون قوة غير مادية: قوة غيبية وراء العلم الحسي، ولقد حاولت النظرية المركسية مذعورة أن تعدل مناهجها وتغير أصولها مرة بعد مرة كلما حاصرتها متغيرات العلم لتبقى على هذا الأساس الواهي ولكنها عجزت عن أن تتجاوب مع الطبيعة البشرية.

وتقف الماركسية وجهاً لوجه أمام الدين، والدين أقدر منها على الاستجابة لحاجة الإنسانية،وقد كشف التاريخ في مواقعه الكبرى أنه لم يكن قط لعامل من العوامل البشرية من أثر أقوى وأعظم من عامل الدين فهو أكبر من قوة العصبية وقوة الوطنية وقوة العرف.

وبالجملة فإن الماركسية (شيوعية واشتراكية) فكر مادي يسعى إلى التسلط عن طريق نقل المال إلى ما يسمى ملكية الدولة ويسعى إلى التفرد في الحكم عن طريق مخاطبة الناس عن طريق المعدة وحدها وبأرقام الطعام والكساء وحدها. ومن المستحيل أن يتقدم ماركس (وهو اليهودي كاره البشرية والإنسانية) إلى الناس بنظام أخلاقي إيجابي للحياة الإنسانية يقيم السلام والرحمة والإخاء الإنساني وإنما دعوته إلى تمزيق وحدة المجتمعات بالصراع الطبقي والقتال الدموي.

ثاني عشر: حتميات كثيرة قدمتها الماركسية هي باطلة في نظر الفطرة والعلم والتاريخ والطبيعة البشرية:

١- النظر إلى الفرد كأنه شريحة أو صامولة في الشيء العام لايقام له وزن ولا يحسب له حساب بينما يكرم الدين الإنسان.

٢- إنكار كل ما ليس مشاهداً أو محسوساً بينما يؤمن الدين بالغيب.

٣- المشاعية الجنسية بينما يقدس الدين الأسرة.

٤- النظرية المادية والسبب الاقتصادي بينما يؤمن الدين بالتكامل.

٥- مصادرة الطبيعة الإنسانية في فكرها بينما منحها الله حرية النظر.

٦- تجاهل الروح وهو انشطار للحياة وإنكار لوحدتها الجامعة.

٧- جبرية الإنسان ذي الإرادة القادرة الذي حرره الدين من كل قيد وجعل له مسئوليته.

٨- دعوتها إلى نسبية الأخلاق وربطها بالبيئات والعصور بينما الأخلاق شطر الدين ثابتة ربانية.

٩- الدعوة إلى التطور المطلق بينما حركة الحياة تقوم على ثوابت ومتغيرات.

١٠- لقمة العيش قانون من قوانين الحياة، ولكن لقمة العيش ليست هي هدف الحياة الحقيقي.

١١- الصراع الطبقي والمجتمعات لاتقوم إلا على التعاون والإخاء البشري.

١٢- إنكار العاطفة الإنسانية والمثل الأعلى والقيم الأخلاقية والمعاني الروحية والجوانب الإنسانية وكل هذه يقررها الدين الحق.

١٣- إنكار الوحي والنبوة والغيب وهي مما تقرره الأديان ولا تصح النظرية العلمية أو الفطرية إلا به.

ثالث عشر: الماركسية هي جزء من النظام الغربي الاقتصادي والسياسي لاتنفك عنه وهي رد فعل لتجاوزات المجتمع الرأسمالي بحسبان أن امتلاك الدولة لمصادر الإنتاج يكون عاملاً أقدر على تحقيق الغايات التي تستهدفها القوى المسيطرة على الربا ورؤوس الأموال، والرأسمالية والماركسية كلاهما من منبع واحد بشهادة أصحابهما: إن اسم (تروتسكي) يعنى أقصى اليسار واسم (روتشلد) يعني الرأسمالية المتطرفة وكلاهما يمثل فتوحات العقلية اليهودية، وبين هذين الاتجاهين يجرى احتواء الجماعة البشرية كلها في القرن العشرين فالتيار الرأسمالي كما يقول - كادمي عوض - والتيار الماركسي أبوهما معاً: التيار الصهيوني، وهذا يعني أن الخطط السياسية والاقصادية من ماركسية ورأسمالية وصهيونية تخرج من بوتقة واحدة.

والماركسية والتدين نقيضان والماركسيون الحقيقيون يعلمون هذا ولكنهم يتخذون من الدعوة للتوفيق بين المارسكية والدين أسلوباً لغزو المجتمعات الإسلامية التي ترفض الإلحاد بقوة، وهو أسلوب مرحلي من أساليب الدعاية لايرتكز على أساس من الماركسية أو الدين، إذ أن كلاً منهما يرفض الآخر، رفضاً قاطعاً، ولقد حاولت الماركسية أن تشق لها طريقاً في المجتمع الإسلامي باسم مقاومة الاستعمار وقد وجد عن هذا الطريق تربة خصبة لبث أفكارها، غير أن المجتمع الإسلامي قد تنبه لذلك وعرف حركة الالتفاف الخطيرة التي تراد به وعرف أنه لا الرأسمالية ولا الماركسية هي الأسلوب الصحيح الناجح لعلاج مشاكله وبناء مجتمعه وأن المنهج الوحيد بعد فشل المنهجين الغربيين هو المنهج الإسلامي الوسط الجامع فهو ليس نظاماً شيوعياً

لأنه يقر الملكية الفردية ويحميها،وليس نظاماً رأسمالياً لأنه لايطلق العنان لرأس المال، بل يحرص على تجريده من وسائل السيطرة والنفوذ، وليس من النظم الاقتصادية المتطرفة إلى اليسار لأنه لايمعن في إضعاف رأس المال الفردي فهو يفسح له المجال للقيام بوظيفته في حدود الصالح العام بوصفه عاملاً هاماً من عوامل الإنتاج وقد أقام الإسلام بناءه على دعائم ستة تعمل متضافرة لتحقيق المساواة بين الأفراد والجماعات هما:

أولاً: تضييق نظام الملكية الفردية لخير الجماعة وفي سبيل الصالح العام.

ثانياً: تحريم الملكية الفردية للأشياء الضرورية لجميع الأفراد وإدخالها في نطاق الملكية الجماعية.

ثالثاً: تحريم الكسب غير المشروع واعتبار الربا والفائدة من الأموال الحرام.

رابعاً: استغلال النفوذ والسلطان للحصول على المال.

خامساً: تحريم جميع المعاملات التي تنطوى على الغش والرشوة أو أكل أموال الناس بالباطل.

سادساً: في سبيل جعل الملكية الفردية في نظام متزن لاتطغى وتصبح ثروة مكدسة أوجد الإسلام (نظام الميراث) والوصية. يتكفل النظام الأول بتوزيع الثروات بين الناس توزيعاً عادلاً يحول دون تضخم الأموال وتجميعها في أيد قليلة ويعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات حيث يقسم بين أقرباء المتوفى فيوسع بذلك دائرة الانتفاع من الملك الذي كان فردياً فأصبح جماعياً، كذلك الشأن بالنسبة للوصية حيث يمكن لصاحب المال أن يوصى بجزء من ماله لأحد، كذلك أمر الإسلام بالزكاة والصدقة حتى يأخذ الفقير نصيبه من مال الغني وفي هذا حد لتصاعد الملكية.

وينظر الإسلام إلى التملك على أنه مجرد وظيفة يقوم صاحبها بإنفاق المال على مستحقيه ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ .

(٤٤)

الحـــــرية

هناك كلمات تبدو في مظهرها العام وكأنها قيم أساسية تتشابه مفاهيمها بين الأمم والثقافات ولكن البحث سرعان ما يكشف عن اختلاف عجيب وتعارض شديد بين مفهومها لدي فكر وفكر، ومن هذه المصطلحات كلمة الحرية التي تفهم في الفكر الليبرالي على نحو مخالف لما تفهم فيه عند الفكر الوجودي، وعلى ما تفهم فيه في الفكر الماركسي. وهذه مفاهيم ثلاثة في الفكر الغربي تتعارض وتتضارب، أما الفكر الإسلامي فإنه يفهم الحرية فهماً قائماً علي الفطرة والأصالة والنظرة الجامعة وبعيداً عن الأهواء والخلافات التي تصدر عن الأطماع والرغبات.

والحرية من المصطلحات التي استطارت في العصر الحديث على كل لسان وقلم، وهي كلمة تبدو محببة إلى النفوس وترجع جذورها البعيدة إلى الأديان ورسالات السماء التي عمدت إلى تحرير الإنسان من العبودية للإنسان، أو العبودية لغير الله من وثن ومطمع وهوى مطاع.

والدين الحق يجمع بين الحرية والمسئولية في إطار واحد ويجعل نهاية حرية الفرد عند بداية حرية الآخر، ويجعل حرية الفرد في خدمة الجماعة انتقالاً بالفرد من الأنانية إلى الغيرية وتلك مهمة الدين الحق.

وفي العصر الحديث أولى المفكرون والكتاب هذه الكلمة اهتماماً كبيراً وجرت بها الأقلام شرقاً وغرباً، وكان لها مفهوم محدود في مواجهة الاحتلال والاستعمار، هو المفهوم السياسي أو الوطني ثم كان لها مفهوم اجتماعي في مواجهة الاستغلال والطغيان، ولكنها ظلت دون حقيقة مفهومها الجامع الأصيل، ثم جاءت دعوة المادية والوجودية لتدعو إلى رفع القيود والضوابط أمام حركة الفكر والسلوك حتى يفعل كل إنسان ما يشاء ويمارس ما يريد، ودون تقدير واضح للمسئولية أو التبعة أو

التزام حدود ما يملك كل إنسان في مواجهة حق الآخرين.

واتسع نطاق هذه الدعوة الضارة المستحدثة إلي القول: بجبرية العلاقات بين الرجل والمرأة، وإلى حرية التربية وإطلاق الشباب اليافع للتجربة دون توجيه أو حماية، أو إطلاق حرية الكاتب أو الفنان في التعبير عن الشر والجنس والشك.

وكان كل هذا معارضاً لقيم المجتمع الإسلامي، معارضاً للفطرة، دافعاً إلى فتح طريق إلى التدمير والهدم مما كان له أبعد الأثر في الأزمات التي عاشها المجتمع الإسلامي والوطن العربي في السنوات الأخيرة وعنها نتجت الهزائم والنكسات.

وقد جاءت هذه الدعوات إلى الحرية مغلفة مضببة، ومن ورائها دوافع خطيرة أهمها غلبة النزعة المادية والفكر الماركسي، والدعوة الإباحية والفكر الإلحادي وكل هذا يجرى في مجرى أهداف بروتوكولات صهيون.

ومن هنا تبين أن وراء هذا الانحراف في فهم الحرية، وهذه الدعوة إلى إطلاقها والاندفاع بها لتدمير قيم النفس والأخلاق، ومن ورائه خلفيه خطيرة وهدف مسبق ومحاولة مسمومة ترمي إلى القضاء على قوى الأمم وشبابها ومقدراتها.

يقول البروتوكول الأول:

«كنا أول من نادى في جماهير الشعب بكلمة (الحرية - العدالة - المساواة) وهي كلمات لم تزل تتردد إلى اليوم ويرددها من هم بالببغاوات أشبه، ينقضون على طعم الشرك من كل جو وسماء، فأفسدوا علي العالم رفاهيته، كما أفسدوا على الفرد حريته الحقيقية، وكانت من قبل حرزاً من عبث الدهماء».

ويقول: «وفي جميع جنبات الدنيا كان من شأن كلمات (حرية - عدالة - مساواة) أن اجتذبت إلى صفوفنا على يد دعاتنا وعملائنا المسخرين من لايحصيهم عد، من الذين رفعوا رايتنا بالهتاف وكانت هذه الكلمات هي السوس الذي ينخر في رفاهية الأميين (أي غير اليهود) ويقتلع الأمن والراحة من ربوعهم ويذهب بالهدوء ويسلبهم روح التضامن.

ويقول: «كلمة حرية تجر الجماعات إلى مقاتلة كل قوة وسلطة، حتى أنها لتقاتل الله وتقاوم سننه في الطبيعة ولهذا السبب نحن متى أقمنا ملكنا سنمحو هذه الكلمة من معجم الحياة لأنها توحي بمبدأ القوة الغاشمة التي تجعل الدهماء عطاشاً إلى الدماء كالحيوانات.

ومن هذه الأصول التي رسمتها الصهيونية التلمودية نشأت نظريات الحرية وتنوعت لتخدم الهدف الحقيقي من ورائها، فهي في الوجودية بمفهوم وفي الماركسية بمفهوم وفي الليبرالية بمفهوم.

ومن هنا وجدنا هؤلاء الذين هاجموا مفهوم الحرية في الإسلام وحاولوا الغض منه وانتقاصه أمثال لويس عوض وزكي نجيب محمود لإعلاء شأن مفهوم الحرية التلمودي ومنها الحرية التي أطلقها فرويد في مجال الجنس والتي دعا إليها سارتر في مجال السلوك، وهي «انسلاخ الفرد من كل ما تواضع عليه المجتمع أو جاءت به الأديان من آداب وقوانين وضوابط وحدود اندفاعاً وراء الأهواء والشهوات سواء أكانت سياسية أم اجتماعية.

ويمكن تصور هذه الانطلاقة وقد بدأت مع الثورة الفرنسية التي قادها رجال المحافل الماسونية من أجل تحطيم القيود التي تفرضها المجتمعات الأوربية على اليهود من حيث الفصل بينهم وبين المسيحيين في الزواج والتعامل والإقامة والعبادات.

ثم كانت هذه الكلمة من بعد منطلقاً للمذهب السياسي والاقتصادي الغربي الذي اتسم به ما تجمع تحت اسم (الديمقراطية والليبرالية والقومية) الغربية أو مذهب الحربين كما كان يطلق عليه ناقلو هذا المذهب والدعاة إليه إلى الفكر الإسلامي العربي.

ويقوم هذا المذهب على ما تقوم عليه الأنظمة الديمقراطية الرأسمالية في الاقتصاد من حرية مطلقة ثم جاءت دعوة ماركس ونظريات الاجتماعيين بعد ذلك كرد فعل

للنظرية الفردية فأعلت من شأن الجماعة والمجتمع.

وقد حاول الاستعمار أن ينقل إلى العالم الإسلامي هذه الأنظمة فأخفقت كثيراً ولم تستطع مقابلة النفس والعقل الإسلاميين وظهر أن هناك هوة واسعة بين مفاهيم الإسلامية الجامعة بين الفردية والجماعية في توازن دقيق وبين المذاهب الفردية والمذاهب الماركسية.

وكان من الطبيعي أن تفشل هذه الأنظمة لأنها تضاد المزاج النفسي والاجتماعي للمسلمين والعرب ولا تنبع من قيمهم وعقائدهم وذاتيتهم.

وكذلك جرت الدعوة إلى الحرية في الفن والأدب وارتفعت أصوات بالدعوة إلى حرية الفكر وصدرت مجلة في الثلاثينيات تحت اسم العصور كتبت على غلافها هذه العبارة: (حرّر فكرك من كل التقاليد والأساطير الموروثة حتى لاتجد صعوبة ما في رفض أي رأي من الآراء أو مذهب من المذاهب اطمأنت إليه نفسك وسكن إليه عقلك إذا انكشف لك من الحقائق ما يناقضه).

وبالرغم من أن هذه الدعوة كانت موجهة إلى أمة أخرى غير أمتنا وإلى دين آخر غير ديننا وإلى مجموعة من الأساطير أو التقاليد وليست موجهة إلى وحي السماء الصادق المبين فإن الذين نقلوها إلى أفق الفكر الإسلامي أرادوا بها إشاعة الشبهات والبلبلة والشكوك في النفس العربية والإسلامية الصافية التي لاتعرف إلا اليقين في كلمة الدين الحق المنزل بالتوحيد وكتابه القرآن النص الموثق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هكذا طرحت الشبهات باسم الحرية في طريق المسلمين والعرب، هادفة إلى دحض الأديان والعقائد والقيم، جارية مع الأهداف التي رسمتها بروتوكولات صهيون ومتكاملة مع خيوط أخرى كانت تحاول أن تقول إن الإسلام دين عبادة وليس نظام مجتمع، وفي نفس الوقت الذي كان الآخرون يشككون في وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من ذكرهم في القرآن والتوراة.

والواقع أن الحرب التي شنتها الصهيونية التلمودية بالاشتراك مع حركة الغزو الفكري والتغريب قد اتخذت من كلمة الحرية منطلقاً لها وسلاحاً فتاكاً لتدمير كل العقائد والقيم التي جاءت بها الأديان السماوية متهمة إياها بأنها تقاليد وأساطير موروثة.

وما تزال هذه العبارات تجري إلى اليوم على أقلام دعاة التغريب منذ أن رددها داعية الإلحاد والمادية الأول: الدكتور شبلي شميل قبل أكثر من تسعين عاماً، وحمل لواءها الكثيرون تحت أسماء مختلفة منها الدعوة إلى التسامح، الدعوة إلى حرية الفكر، الدعوة إلي التقدم، وكانت كل العبارات المسوقة من رجعية وتخلف وجمود وتعصب إنما تعنى أن تهاجم (الدين) دون أن تستطيع التصريح بذلك علانية.

وقد كان ذلك جرياً وراء حملات مماثلة هاجم بها كتاب الغرب دينهم وعقائدهم ثم نقلت نقلاً إلى محيط الفكر الإسلامي الذي يختلف كثيراً عما وجد كتاب الغرب حين تعارضت تفسيرات دينهم مع العلم والتقدم بينما لانجد في أفق الفكر الإسلامي ذرة من التعارض أو الخلاف بين الإسلام والعلم أو الإسلام والتقدم، بل لعلنا نجد أكثر من ذلك: نجد أن الإسلام هو مصدر العلم والتقدم.

وكان الهدف من ذلك هو خلق ثقافة عربية (لا إسلامية) تنبع مصادرها وجذورها من الفكر الغربي مجتثة الأصول بالنسبة للتراث الإسلامي وقيم القرآن والشريعة وميراث اللغة العربية وذلك كمقدمة للانصهار في الفكر الأممي كلية وفقدان الذاتية والشخصية الإسلامية العربية.

(٢)

ونحن حين نرجع إلى مفهوم (الحرية) في الإسلام نجد وضوحاً وتكاملاً وسماحة لانستطيع أن تقبلها مفاهيم الفلسفات التي تصدت للحرية منذ جون ستيوارت مل إلي سارتر.

فالحرية في الإسلام هي: التحرر من قيود الوثنية واستعباد الإنسان للإنسان وهي مضادة للعبودية في مختلف صورها: عبودية الأوثان وعبودية رق الإنسان والعبودية لأي كائن كان وهي ليست حرية الفرد وحده ولكنها حرية الفرد وحرية الجماعة: الحرية المنضبطة القائمة على الحق والواجب في آن وهي حرية الكلمة وحرية الضمير تجمعها آية واحدة في القرآن:

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ .

فهي حرية الاعتقاد والقول والتفكير.

وكما دعا الإسلام إلى (تحرير الفكر) دعا إلى تحرير البدن، فالإسلام جاء صيحة مدوية لمحاربة الرق وحصره في أضيق نطاق كمقدمة لتصفيته.

والحرية السياسية واحدة من حريات الإسلام وتقوم على الشورى، غير أن الإسلام يعطي للحرية ضوابطها وتحفظاتها التي تضمن حرية الغير، فالإسلام حين يقرر إطلاق الحريات للأفراد فإنه من ناحية أخرى يشترط ألا يكون في ذلك طغيان على حريات الآخرين أو إضرار بمصالح الجماعة، وحرية العقيدة حيث لا إكراه في الدين إنما تعنى كفالة الإسلام لحرية عقائد أهل الكتاب وما يدعو إليه الإسلام من حرية إنما يعنى الحرية من كل القيود: قيود العبودية الفكرية والجسدية، كما يدعو إلى حرية الإنسان من قيد الجهل والخرافة، ويدعو إلى حرية المرأة في التعليم، ولا ريب أن مفهوم الإسلام هذا أوسع أفقاً وأبعد مدى من مفاهيم الحرية لدى فلاسفة الاجتماعيين والليبراليين على السواء.

ويصل الإسلام إلى الغاية في تقرير الحرية حين يدعو الإنسان أن لايكون عبداً لشهواته وأهوائه أو عبداً لغير الله فلا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق ويأنف أن يكون عبداً لإنسان مثله فلا يقبل الذل لمن هو مثله ويأنف من الإحساس بأن الرجل أقل من سواه.

فلا فرق بين الكبير والصغير والغنى والفقير والأبيض والأسود إلا بالتقوى

والعمل وقد شهد المنصفون من كتاب الغرب بدور الإسلام في حرية الفكر وكيف أطلق العقل الإنساني من قيوده ودفعه إلى الخروج من دائرة الوثنية التي فرضها عليه الفكر البشري أو التفسيرات المضللة للأديان: يقول (بارتلمي سانهلير): «إن الإسلام قد أحدث رقياً عظيماً جداً فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة، ثم إنه بتحريمه الصور في المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى واضطر العلم لأن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه «وأشار جوستاف لوبون في مقارنة بين الإسلام وبين غيره من الأديان فقال: إن الإسلام هو الذي علم الإنسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين وقد كان يظن أن لايجتمعا.

بل لقد كانت حرية الفكر في الإسلام واضحة وضوحاً لاحد له في كل الأعمال التي تتناول الأديان الأخرى وكان مبدأ (الإنصاف) واضحاً في هذا المجال.

وقد أشار (هاملتون جب) إلى ذلك عند تعرضه لدراسات مقارنات الأديان فقال: العرب هم أول من ألفوا في الملل والنحل لأنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية ويحظى ابن حزم بالنصيب الأوفر، وقد كتب أبو الريحان البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها وكان إذا كتب عن نحلة يوهمك أنه أحد أبناء ممكلة النحلة لتلطفه في وصف شعائرها، وكان كتاب العرب يذكرون جميع المخالفين بكل حرمة وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وطبقات الحكماء لابن القفطي وطبقات الأدباء لياقوت والوافي بالوفيات للصفدي وفي تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي أمثلة لهذا التسامح فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنهم أبناء ملة واحدة).

ننقل هنا عن مستشرق لنقارن به ما يقوله عالم غربي آخر يصف موقف قومه

من الأمم الأخرى ذلك هو (جوستاف لوبون) الذي يقول:

إن حرية الفكر في الغرب تختلف لدى الأوربي عندما يمتد فكره إلى بحث فكر العالم الإسلامي، فالمفهوم الصليبي العميق الأثر في النفس الأوربية يحول دون حرية الرأي إذا كان موضوع البحث هو: الإسلام».

وقد تأكدت هذه النزعة على أسنة أقلام كثيرمن الباحثين الذين ردوها إلى طابع الاستعلاء الغربي الذي لايعترف بالأنساب أو الفضل لغير ذوي الأجناس البيضاء وهي نزعة قديمة عرفتها روماً حين قال حكيمها «روما سادة وما حولها عبيد» ولقد أفسح الإسلام في تاريخه الطويل للملل والنحل باب السجال والجدل والمناقشة، وسمح بعض الخلفاء بذلك في مجالسهم ولم تكن دعوة العلماء إلى حقهم إلا عن طريق البرهان والإقناع مع السماحة للمخالف بينما لم تحتمل أوربا مثل هذا السجال فكانت من آثار الجدل معارك عنيفة دامية مثل معركة سانت بارتلمي وغيرها.

ولقد كان مفهوم حرية الفكر في الإسلام واضحاً صريحاً، لم يقبل الإسلام محاولة الإغراء بحرية الفكر على أساس التحرر من الأخلاق أو التحرر من القيم أو اتهام الموروثات بالزيف ولكن دعا إلى البرهان والعقل فحرر الإنسان أولاً من رق التقليد الأعمى، ورباه على حرية الفكر واستقلال الإرادة، ودعاه إلىّ التخلص من عبادة الأهواء، وطالبه بالدليل ونعى عليه الجهل والظلم والمتابعة بغير اقتناع، فهي حرية فكرية تتقيد بالحق والدليل وتقوم على قواعد النظر والاستدلال بعيداً عن الأهواء والأوهام.

وهي تختلف اختلافاً واضحاً عما دعا إليه الماديون والتغريبيون الذين يدعون الناس اليوم إلى التحرر من الأساطير الموروثة وهم يعنون بها الإسلام، وإلا فأين هذه الأساطير الموروثة اليوم وقد فصل الإسلام بينها وبيننا بأربعة عشر قرناً حين جاء القرآن بالحجة الواضحة وزيف كل دعاوى الوثنية والمادية والإباحية مما كان قبله.

وفي هذا المجال يجب أن ندحض تلك الشبهات المسمومة التي حاول خصوم الإسلام

طرحها حين قالوا: بأن دماء سفكت واضطهاداً وقع لبعض أعلام الفكر في الإسلام من أجل فكرهم، والحق أن الإسلام لم يضطهد مفكراً لفكره، وإنما جاء الخلاف حين تحول الأمر من الكلمة إلى المؤامرة والتحريض والتعامل مع أعداء الإسلام في الخارج لزلزلة الدولة، هؤلاء هم الذين قتلوا لا من أجل الفكر بل من أجل التآمر، ولقد قال غيرهم مثل ما قالوا وأشد منه وعاشوا أحراراً فلم تمسهم يد، لأنهم لم يدخلوا مجال المؤامرة السياسية وليس أدل على ذلك من ابن عربي الذي فاق الحلاج والسهروردي المقتولين لأنهما اتصلا بالقرامطة والحشاشين أو غيرهم ولقد قال أبو العلاء المعرى وابن الراوندي وأبو بكر الرازي وغيرهم ما لم يقل مثله فولتير وروسو ورينان دون أن يصيبهم أذى، ولم يرد في التاريخ الإسلامي أن علماء حرقوا من أجل معتقداتهم كما فعلت أوربا في محاكم التفتيش.

(٣)

عندما بدأت كلمة (الحرية) في الفكر الغربي كانت تعنى اتجاهاً وهدفاً: كانت تعنى التحرر من سلطان الكنيسة وسلطان الإقطاع وسلطان استبداد الملوك.

هذا هو طابعها الأول، ثم هي انتقلت إلى هدف آخر، وثالث ورابع مع تطور الفكر الغربي وانتقالاته من فكر غربي مسيحي إلى فكر مثالي إلى فكر ليبرالي إلى فكر مادي، إلى مذاهب مختلفة في الوجودية وعلم النفس والمدرسة الاجتماعية وفي المرحلة الأولى كانت تعنى الخروج من العبودية: عبودية الكهانة وعبودية السيطرة التي يفرضها الإنسان على أخيه الإنسان أما اليوم فإنها وصلت إلى المرحلة التي يمكن أن توصف بأنها إطلاق الإنسان من كل ضوابطه وشكائمة وحدوده التي من شأنها أن تحمى وجوده الإنساني أولاً وتحول دون تدميره وتمزقه، والتي من شأنها أن تحمى الجماعة وتحول دون اعتداء من فرد على فرد أو جماعة.

ذلك أن الفكر الغربي حين وقع تحت سيطرة نظرية هيجل في التحول المطلق،

اندفع ليكسر كل القيود والضوابط اعتقاداً منه بأنه ليس هناك دائرة أساسية للثبات ومن داخلها دائرة التغير والحركة والتحول.

فقد ألغى الدائرة الثابتة تماماً وأصبح نهباً للتغيير والتطور المطلق (وكان هذا رد فعل الفلسفة الأرسطية التي كانت تقوم على الثبات المطلق) وقد جاء هذا في ظل تفتح الجوانب المادية من الحضارة التي سمحت بمزيد من الترف والرفاهية والمتعة التي وجدت منطلقها أساساً في العلاقات بين الرجل والمرأة في مسائل الجنس.

وهذا هو الجانب الذي يركز عليه بشدة دعاة الوجودية والفرويدية ونحن نرى آثار هذا الانطلاق في حركة الهيبية التي وصلت الآن إلى درجة عالية من تدمير الجماعات وهدم النظم واستهلاك الطاقات البشرية خارج ميدان العمل البناء وفي مجال الغرائز والسموم والمارجوانا والتحلل والفسق الداعر العاري، وآخر صيحات هذا المفهوم هو جماعة العراة الذين يعتبرن آخر صيحة في الوجودية والهيبية، هؤلاء يظهرون عراة في الميادين العامة في الغرب.

وهكذا ترى أن الحرية توشك أن تكون البديل عن (الدين) في الغرب، منطلقة من اعتقاد باطل بأن الضوابط والحدود هي قيود وسلاسل، وإيماناً بأن الحياة الضيقة المحدودة التي يعيشها الإنسان على الأرض هي الحياة وهي الجنة الأرضية وأن هذه الأشياء الجميلة وتلك المتعة والرفاهية هي الغاية والبديل عن جنة السماء.

هذه النظرة المادية المحدودة، هي التي خلقت هذا المفهوم من الحرية: الذي يتمثل في تحرر من كل قيود الأديان والتقاليد والقيم، وفي الوقت نفسه الارتكاس في الجبرية المطلقة التي ترى أن الإنسان ليس له إرادة حرة وإنما هو مجبور في نطاق أوضاع اجتماعية يعجز عن التحرر منها.

وليس هكذا فهم الإسلام: الذي يقوم على أن للإنسان إرادة حرة والتزاماً أخلاقياً ومسئولية وجزاء والحرية هي التحرر من أوهام النفس ونزواتها، ومن جهالة العقل وظلام القلب، وهي حرية منضبطة مقعدة بسلطة الأخلاق والدين والمجتمع.

وحرية الإنسان هي الخروج من الأنانية إلى الغيرية، ومن القيود التي تفرضها الوثنية والعبودية إلى الإرادة الحرة المؤمنة بالله وحده خالقاً ورازقاً ومعطياً ومانعاً، والمنطلقة إلى الخير، المتجاوزة للشر والقادرة على التحكم في الغرائز والتسامي بها والوقوف في وجه الأهواء بالتعالى عليها إيماناً بأن حرية الإنسان الحقة إنما هي في تحقيق كماله استعداداً للحياة الأخرى.

أما الحرية بمعنى الاستسلام لجبرية مصدرها تراخي الإرادة الفردية والاستسلام المطلق لأهواء المجتمعات وشهواتها. بما يؤدى إلى تدهور الأخلاق وتدمير الكيان الإسلامي فهذه حرية العبيد، وهي حرية القيود.

إنما يفهم الإسلام الحرية كمطلب شرعي إذا كانت موجهة ضد الظلم أو الاستبداد أو الاستغلال ولكن الحرية التي تعنى التحرر من القيم فهي باطلة مهما زخرفها الفلاسفة الماديون وأغروا بها السذج والبسطاء.

لاتكون الحرية تحرراً من الضوابط أو النظم أو الواجب أو التضحية، وليست الحرية هي حرية الجريمة وإدمان المخدرات والانتحار، ولكن الإسلام يضع عزيمة الأمر وبناء الإرادة الفردية مقدمة لإعطاء الحرية التي تحمى صاحبها من أن تمزقه الشهوات والأهواء والمحرمات وكلما استطاع أن يكون قادراً على حماية نفسه وحسن التصرف بها كان أعلى درجة في فهم الحرية والإيمان بها: الحرية في معناها الحقيقي في الإسلام: هي تهذيب النفس والاستعلاء على الشر، والتسامي إلى الخير العام.

وهكذا تختلف الحرية في الإسلام عن حرية الرأسمالية التي تقول لك افعل ما تشاء وامتلك ما تشاء سواء أكان حراماً أم حلالاً، حقا أم باطلاً، وتختلف عن حرية الماركسية: التي تفرض انتزاع الملكية الفردية فتجعل الإنسان عبداً عاجزاً عن حماية نفسه وعقيدته.

وهذا المفهوم الإسلامي مفهوم ثابت لايتأثر بعصر زراعى أو صناعي، أو بيئة مدنية أو بدوية، وينطبق على كل حلقات الحياة، البيت والمرأة والأسرة، والسياسة

والمجتمع والاقتصاد.

أما مفهوم الحرية الذي ينبعث من المذاهب المادية فإنه يستهدف في الأهم تدمير نظام الأسرة، وفصم عروة الزواج، وكسر قانون الأخلاق الذي جاء به الدين الحق، وهدم أركان العفة والشرف، ورفع مقام الشهوة فوق القناعة وهو دعوة إلى تقويض أركان القيم المعنوية والروحية والأخلاق والعادات الإيجابية.

ولذلك التحول في الفكر الغربي طريق طويل وعوامل متعددة، امتدت خلال سنوات طويلة منذ أخذت أوربا تخرج عن مفهوم الدين إلى مفهوم الفلسفات، حتى كانت الحرب العالمية الأولى التي دمرت بقايا القيم في النفس الغربية وأطلقت قيود المجتمع وفجرت فيه دعوات الانحلال، يقول الفيلسوف كولتون: لم تكد الحرب العالمية تضع أوزارها حتى سفلت الأخلاق إلى الحضيض وهبطت إلى أعمق الأغوار، وغطى الأدب والفن والصحافة والمسرح طوفان من الخلاعة وتمجيد الطبيعة الحيوانية وغطت الشوارع بنات الهوى وفتحت أمام عيون البوليس مواخير لممارسة اللواط وممارسة السحاق فاكتظت الواحدة بالرجال والغلمان وامتلأت الأخرى بالنساء والفتيات وانتشرت القهوات التي تدير حفلات الرقص في الدور الأول وغرف النوم في الدور الثاني.

هذه هي الصورة التي انطلقت منها الفلسفة المادية لمفهوم الحرية: حرية القيود، وبعد خمسين عاماً اليوم من الحرب العالمية الأولى نرى الخطوات إلى التدمير النفسي والقلق والغربة والغثيان قد زادت وكانت حلقاتها الثانية بعد الحرب العالمية الثانية حيث تصاعدت واتسعت تلك المفاهيم الجزئية عن الحرية الجامحة، دون تقدير لحق الحرية وحدود الحرية وتبعة الحرية، وليس هذا الذي تدعو إليه حرية الوجودية والهيبية إلا دعوة إلي العودة إلي الغابة القديمة قبل أن تحرر الأديان الإنسان من حيوانيته وتعلمه العفة واللباس وضوابط العلاقات الجنسية وحدود ما حرم الله.

وليس هذا الذي يجرى إلا معارضة تامة لشريعة السماء، معارضة قائمة على العلم والتحدي، وليس على عدم المعرفة أو طفولة البشرية. فالفلسفات المادية اليوم

إنما تحارب قيم الدين والأخلاق والكرامة والشرف علناً وتدمرها تدميراً، وترسم نظريات باطلة يغرى بها الشباب المراهق والأمم المضللة التي لاتعرف خلفية المحاولة كلها، وإن القضاء على الأسرة هو هدف أساسي لهدم المدنية، إن دفع المرأة إلى ساحة العرى والرقص ليست إلا الوسيلة الكبرى لتحقيق غاية تدمير المجتمعات البشرية من أقصر السبل، وفكرة الحرية التي تذيع بها الفلسفة المادية كلمة حق يراد بها باطل، وهي محاولة جبارة لتدمير العقائد والقيم والمجتمعات باسم حرية الفكر وبرهان العلم.

وهذه هي الآفة التي دمرت حضارات الأكاسرة والقياصرة والفراعنة والأباطرة في مصر وروماً وفارس والهند وفي كل مكان وهي نذير فناء هذه الحضارة المادية، أما الإسلام فلا يعرف هذا النوع من الحرية، وإنما يعرف الحرية المنضبطة الملتزمة المتسامية، ويعرف ذلك الارتباط العضوي بينهما وبين الأخلاق أما حرية الطغيان والسخرة والاستعباد، وحرية الانحلال والقلق والتمزق فلا يعرفها الإسلام، إن أبلغ ما يدعو إليه الإسلام في أمر الحرية هو تحرير الإنسان من عبودية الإنسان ومن عبودية الوثنية والهوى والشهوات والمال والذات والطعام وحين يتحرر الإنسان من هذه العبودية يصبح عبداً لله حراً، تلك الحرية التي تجعله مخبتاً لربه، مسلماً الوجه إليه سبحانه.

ومفهوم الحرية في الإسلام أن لايكون الإنسان عبداً لشهواته ولا عبداً لغير الله فالإسلام يرفع الإنسان ويكرمه عن أن يخضع لسلطان غير سلطان الخالق، ويأنف عن أن يكون عبداً للإنسان، والإنسان الحر هو الذي يسود نفسه ويتحكم في أهوائه وشهواته ولا يكون عبداً لهما بل يسيطر عليهما بماله من تقدير للأمور.

فالإسلام يحرر الإنسان من الحتمية والجبرية لأنه مريد ومسئول، ويحرره من الانهزامية واليأس والضعف، لأنه يعرف هدفه وغايته ورسالته التي جاء من أجلها إلى الحياة الدنيا، ويحرره من الجنس واللذة وعبادة الشهرة لأنه يتطلع إلى الارتفاع فوق الأنانية والأهواء تطلعاً إلي ما هو أكبر من ذلك: مرضاة الله وفوزه بالنعيم

الباقي ويحرره من طابع الزهد والنسك،لأنه يؤمن بأنه لابد من بناء الحياة والمشاركة فيها والعمل بها دون أن يحرم زينة الله وما أحل له ودون أن تستوعبه هذه الزينة وتحتويه.

وحرية الناس مطلقة،فقد ولد الناس أحراراً وتبقى مطلقة حتى تصطدم بالحق أو بالخير فإذا اصطدمت بحق الفرد أو الأسرة أو المجتمع فإن الحرية تقف وتنكمش وتتقيد عند حدود الحق أو الخير.

والحدود: هي حدود الزنا والسرقة والربا والميسر والخمر ولا بد أن يكون طابع الحياة وسلوكها أخلاقياً ربانياً قائماً على التقوى،والإسلام يحد حرية الفرد إذا كان سفيها مبذراً يحجر عليه، ويمنعه من أن يقتل نفسه لأنه لايملك حق الحياة، وللناس جميعاً حرية الاعتقاد ﴿ لاإكراه في الدين ﴾ شريطة ألا يدعو إلى الإلحاد أو إكراه الناس أو إغرائهم بنحلته فالإسلام يقاوم مثل هذه الحرية.

وباسم الحرية التي تقوم به المذاهب المادية اليوم تتحول الأمم الغربية إلى رقيق جديد وعبيد الشهوات والمادة وتذل في قلوبها وعقولها وتعيش حياة القلق والتمزق والصراع والغربة، لأنها فقدت العامل الأول والأكبر من أسباب التعامل بالحياة: تلك النقطة التي يبدأ منها كل شيء وينتهى إليها: الإيمان بالله .

(٤٥)

الفــكر الحـــر

هذا مصطلح وافد مسموم، قصد به كل فكر أو رأي يهاجم العقائد والأديان والأخلاق، وهو في الفكر الغربي له مكانه الأصيل ولكنه في الفكر الإسلامي لايجد مكاناً. ذلك أن هذه الكلمة ارتبطت بالتفسير الديني الذي واجهته حركة النهضة في أوائل القرن الخامس عشر، واصطدمت فيه بمسلمات عجزت عن تقبل العلم أو منحه حرية الحركة وخلقت ذلك الصدام الشديد بين العلم والدين، وقد حمل لواء هذه الدعوة رجال الثورة الفرنسية وهم من الماسون مستهدفين بها القضاء على المؤسسة الضخمة التي كانت تقف في وجه حركة اليهود إلى داخل المجتمعات. ومن ثم تشكل ما يسمى بعصر التنوير الذي قادته الحركة الماسونية التلمودية وحاولت به اتخاذ العلم وسيلة إلى فلسفة تهاجم الأديان والأخلاق والعقائد والقيم الثابتة التي جاءت بها رسالات السماء.

ثم جاءت مرحلة أشد خطورة بظهور بخر وريناں وغيرهم من الذين آمنوا بالعلم وحده ودعوا إلى التحرر نهائياً من قيود الأديان وكانت كلمة رينان وغيره أن الدين يقتل الإرادة ويقيد العقل، والتقدم لايتحقق إلا بالتخلى عنه أو على الأقل بفصل الدين عن الدنيا فصلاً حاداً، هذا كان رأي جماعة الفكر الحر في الدين مستمداً من تاريخ طويل عاشته أوربا في القرون الوسطى في صراع طويل بين عدة قوى منها رجال الكنيسة وأمراء الإقطاع.

غير أن رينان لم يلبث أن هاجم الإسلام تحت تأثير القوى الاستعمارية التي كانت تريد أن تبرر سيطرتها على بلاد المسلمين. يقول البرت حوراني في كتابه عصر النهضة: كان رينان يفكر ولا شك بالكثلكة وبالدين إجمالاً حين كان يكتب عن الإسلام، ولكن رينان لم يكن حقيقة قد درس الإسلام وكانت تلك المعادلة التي

بدأت تظهر في الفكر الغربي عن الحقلين المختلفين اللذين لايلتقيان أبداً: العقل والدين أو العلم والدين، هذه النظرية لاتجد قبولاً ما في أفق الفكر الإسلامي الجامع بينهما والذي كان الدين هو منطلق العلم عنده، أما في الغرب فقد كان الأمر يختلف، ومسألة تكبيل الدين للعقل البشري بالقيود هي مسألة تخص أوربا والغرب ولكن الإسلام لايعرفها، ذلك كان حكم الفكر الأوربي الحر على الدين مستمداً من التجربة الخاصة به ومحدوداً بها، فلم يكن من اليسير أن يطبق خارج هذه الدائرة وكانت محاولة نقله إلى أفق الفكر الإسلامي فيها ظلم عظيم وتجاوز كبير.

ويقول البرت حوراني في هذا إن جمال الدين حين رد على رينان: كان مستعداً لقبول حكم الفكر الأوربي الحر على المسيحية بأنها غير معقولة وعدوة العلم والتقدم إلا أنه رأي أن هذا الانتقاد لاينطبق على الإسلام، لأن الإسلام على عكس ذلك يتفق مع المبادئ التي اكتشفها العقل العلمي، لا بل إنه الدين الذي يفيض هذا العقل، لقد أخفقت المسيحية بشهادة رينان نفسه أما الإسلام فمن شأنه وهو منسجم مع العقل ومستاهل أن يخلص العالم العلماني من تلك الفوضى التي كانت ذكراها لاتزال تلاحق مفكري زمانه من الفرنسيين.

٢- هذا هو نقطة البدأ في الفكر الحر ونحن جديرون بأن ننظر إليها في يقظة حتى لايخدعنا بعض الذين صوروها على نحو أو آخر. لقد كان مصطلح «الفكر الحر» إنما يعني: تلك الأيدلوجية الفكرية التي حملها رجال الماسونية وخصوم المسيحية في الغرب للقضاء على النظام الاجتماعي والسياسي الغربي وإحلال نظام جديد وفكر جديد قوامه: «المادية - الإلحاد - الإباحية» وقد كان.

ولما ذهب أبناؤنا إلى الغرب واتصلوا بمعاهد الدراسات الشرقية التي تشكل الشرقيين ليكونوا رجال «الفكر الحر» درسوا لهم هذه النظرية وقدمها (سلامة موسى) في كتابه حرية الفكر، واستبطنها (طه حسين) في كل كتاباته حتى أنه قال إنه يرى في «رينان» المثل الأعلى له، وقالوا هم في باريس عن طه حسين إنه «رينان الضرير» وكان الثقب الذي أرادوا إحداثه في جدار الفكر الإسلامي هو القول

بأن الإسلام واجه ماواجه الفكر الغربي من تعصب، وأن رجالاً ظهروا يحملون لواء الفكر الحر أمثال الحلاج والسهروردي وابن رشد وأن هؤلاء الرجال عوقبوا عقاباً شديداً كما عوقب رجال الفكر الحر الغربي، وتلك أكذوبة كبرى، ذلك أن الإسلام لم يعرف هذه الظاهرة إطلاقاً، لأنه لم يكن على النحو الذي عرفه الغرب، في معارضة العلم أو مقاومة الحرية وأن الحالات التي حاولوا الاستشهاد بها في تاريخ الإسلام لم يكن تفسيرهم لها صحيحاً، وأن المفكرين الذين ظهروا في أفق الفكر الإسلامي وخرجوا على مفهوم الإسلام في دعاواهم لم يعاقبوا أبداً ولم يؤخذوا بجريرة ما قالوا: والدليل على ذلك أن ابن الراوندي والرازي وابن عربي وهم من أخطرهم لم يصبهم أذى، وإنما أصيب الذين أوذوا بجرائر أخرى غير حرية الفكر، فقد ظل الحلاج متمتعاً بحريته إلى اليوم الذي ثبت فيه أنه كان يراسل رئيس القرامطة وأن بينهما اتفاقاً سرياً علي قلب الدولة وكان ذلك مصدر محاكمته وعقوبته، وكذلك الأمر في شأن السهروردي المقتول، أما ابن رشد فإن سجنه لم يكن بشأن كتبه وآرائه وإنما كان بشأن الخلاف بينه وبين الخليفة وتعاليه عليه ومخاطبته بأسلوب لم يعجب الخليفة، وما تبين من عبارات أراد بها الغض من قدره حين وصفه بأنه ملك البربر واعتذر في الأخير بأنه كتب ملك البرين .ووقع التحريف من الناسخ، ولكن خطة الفكر الإسلامي كانت في تمكين كل كاتب من إبداء رأيه ودحض هذا الرأي وكشف زيفه ومن هنا فإن الفكر الإسلامي لم يتعرض لما تعرض له الفكر الغربي من عملية محاكم التفتيش التي قضت بقتل العلماء، والمفكرين، والتي كان ظهور دعاة الفكر الحر رد فعل لها.

فثبت أن المسلمين لم يسفكوا دم أحد عقاباً له على الاشتغال بالعلم والفلسفة وذلك وفق قاعدة الإسلام الذهبية ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ والواقع أنه لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين الفرق الإسلامية كالحروب التي وقعت بين البروتستانت والكاثوليك سنوات طويلة وقتل فيها عشرات الألوف واستمرت سنوات طويلة، بل أن الملوك الذين كانوا يجتاحون البلاد كانوا يحملون أهلها تحت السيف والنار على

اعتناق دينهم بينما لم يعرف الإسلام ذلك أبداً في أي مرحلة من تاريخه، والواقع أن السر في أن العلماء في الإسلام لم يحرقوا مهما اختلفوا مع الرأى الجامع هو إيمان الإسلام بحرية الرأي وفساد كل رأي منحرف مهما طال زمان القول به فلا بد أن ينهار.

ولقد عرف الناس جميعاً مفهوم كلمة فكر حر ومفكر حر، فالمفكر الحر هو الذي لايؤمن بوجود الله والفكر الحر هو الفكر الذي يقوم على (العلمانية): أي إنكار الله والدين. وفي هذا للإسلام وجهة نظر: فإذا كان الملحد أو حر الفكر مطوياً على زيغه وإلحاده فليس للإسلام عليه شيء، أما إذا اتخذ من نحلته وسيلة لإغراء الناس ودفعهم إلى الزيغ وإخراجهم من عقيدتهم الصحيحة فإن الإسلام يأذن بعقوبته.

ولقد كان هؤلاء الدعاة من رجال الفكر الحر في البلاد الإسلامية لايقفون عند شيء بل يتخذون كل وسيلة من كتابة وخطابة وصحافة لإثارة الشباب الغض الذي كانت منطقة فكره وعقيدته ضعيفة أو فارغة، وبذلك دفعوا عشرات من الشباب في كلية الآداب وبعض الجماعات إلى الانحراف والإلحاد.

وكان حقاً على المجتمع أن يعاقب هؤلاء الدعاة لولا أن السفارات الأجنبية والامتيازات الأجنبية تحميهم كما تحمى دعاة التبشير تماماً وكانوا هم لوناً من ألوانها.

ولقد كشف كثير من كتاب الغرب عن زيف مفهوم الفكر الحر في أوربا فقال جوستاف لوبون: إن حرية الفكر في الغرب تختلف لدى الأوربي عندما يمتد فكره إلى بحث الإسلام والعامل الإسلامي حيث يوجد المفهوم المتعصب العميق الأثر القائم في النفس الأوربية والذي يحول دون قول كلمة الحق.

٣- ويرد الكثير من المفكرين الغربيين فكرة «حرية الفكر» إلى أنها واحدة من آثار الدولة الرومانية ونتيجة للاضطهاد الذي لقيه المفكرون، وإذلالهم، نتيجة سلطة رجال الدين ومحاكم التفتيش، وقد بدأت الخصومة في مجال الدين بين البروتستانت

والكاثوليك أولاً، ثم بين رجال الدين ورجال العلم، ومن ثم انفصلت الحركة الفكرية عن الدين، وجاء بعد ذلك نقد الفلسفة الدينية واللاهوت والحركة الفكرية ونشطت نظرية الفردية التي تقول بأن الإنسان ينبغى له أن يفكر بنفسه ولنفسه دعا إليها ديدو وروسوا ونيتشة، ومنها إخضاع كل شيء للعقل وبذلك جرى الفكر الأوربى خطوات واسعة بعيداً عن المفهوم الجامع بين المعنويات والماديات، وبين العقل والروح، وبين الدين والعلم وكانت الفلسفة المثالية التي لم تلبث أن صدمتها الفلسفة المادية وأدالت منها،وهذا كله تاريخ طويل للفكر الغربي في مراحله المتتابعة وحركاته المتوالية، ومنها انبثقت فكرة الفكر الحر، كمقدمة للفكر المادي والإلحاد.

والمفهوم هنا هو التحرر من الثابت والمطلق والروحي والمعنوى، لأنه قد التبس بتفسيرات زائفة مضللة كان لها أثرها في الجمود والحجر العقلى والتقليد الأعمى، والتبعية، غير أن الخروج من هذه الدائرة لم يكن متحفظاً أو حكيماً وإنما كان مطلقاً،من هنا فقد انتقل من النقيض إلى النقيض، انتقل من الجمود إلى الاندفاع ومن التبعية إلى الأهواء، ومن التقليد إلى الانطلاق،وبذلك وقع في أزمة أخرى أشد، هي أزمة التخلص من الأصول الصحيحة التي اختفت تحت التفسيرات الباطلة، وفي نفس الوقت الذي انتقل فيه من جناح الجمود إلى جناح الإنطلاق، ومن محور الثبات إلى محور التغير دون القدرة على امتلاك ناحية التكامل وبذلك انتقل الفكر الغربي إلى الانشطارية والتمزق وفقد مقومات الدين والروح والأخلاق في هذه الاندفاعة الخطيرة. أما الإسلام فقد تحرر تماماً من التفسيرات المضللة أو الزائفة وبذلك حفظ لنفسه القاعدة الوسطى الثابتة الجامعة بين الثبات والحركة معاً.

ولقد كانت كلمة الحرية هي الغلاف البراق الذي اختفت وراءه الثورة الفرنسية واستطاعت القوى التلمودية المسيطرة على الفكر الغربي أن تجعلها قضية الساعة بل قضية الدهر والعمر، حتى وصفت بأنها الدين الجديد، وهي وإن كانت في منطلقها إنما استمدت جوهرها من مفهوم الإسلام في تحرير الإنسان من قيود الظلم والعبودية فإنها عجزت عن أن تستكمل معناها في تحرير الإنسان من الوثنية وعبادة غير

الله، فانتقلت به إلى عبادة ذاته وشهواته وعبادة الأوثان الجديدة كالحضارة والمادية والذهب فهذه هي أوثان العصر، ثم طعمت بمفاهيم خاطئة انحرفت بها عن جوهرها الأصيل الذي جاء به الدين الحق من عند الله، واختلفت بذلك عن مفهوم الإسلام بل وتعارضت معه تماماً. والمعروف أن الإسلام أخرج أوربا من سلطان العبودية الرومانية والكهنوت والنسك القائم في الصوامع وفكرة السلبية والجبرية التي كانت تصبغ المجتمع والفكر الغربي قاطبة وكذلك من مذهب اليونان القائم على التأمل والمنطق وبقاء السادة في الأعلى يفكرون ويحلمون بينما يذهب رقيق الأرض في السفح قتلاً بالسياط أو مصارعة للثيران، يعود هذا إلى القرن السابع الميلادي أو قبل نشوء القانون الدولي العام بنحو تسعة قرون.

ومن هنا كانت حرية الكلمة أرقى أنواع الحريات في الإسلام، لأنها أداة التعبير الحر، والحرية في الفن والأدب لاتعنى الإباحة والفوضى والتحلل، واستثارة الغرائز والشهوات بل هي في صحيحها أمانة ومسئولية وتبعة، وأخطر ما تواجهه الحرية هو أن يحجب خصومها تبعاتها ومسئولياتها ويقدمونها على أنها انطلاق بلا حدود، وجوهر الفرق بين الحر والعبودية: «إن قيود الحر مفروضة عليه من تلقاء نفسه يلتزم بها عن طواعية واختيار أما قيود العبودية فهي تفرض عليه قسراً».

ومسئولية الكاتب هي في مسئوليته أمام الجماعة وتبعته فإذا تخلي عنها سقطت عنه صفة الإنسانية، ومن هنا فإن أولئك الذين يرون الحرية هي لقمة العيش أو العمل بدون التزام أو انطلاق الثورات الفردية هم في التقدير الحقيقي قوم عجزوا عن حمل الأمانة وأداء الرسالة.

والحرية في الثقافة هي التحرر من القيد الأجنبي والفكر الوافد والتبعية الأممية، وخطر الاحتواء ولا تستطيع الثقافة أن تتفتح وتنطلق إلا إذا كانت مرتكزة على الأصالة والذاتية ومنفتحة إلى التقدم المعنوى والمادي معاً.

لقد جاءت فكرة الفكر الحر لتدحض قول أفلاطون القائل بأن الأوصياء وحدهم هم الذين يجب أن يفكروا أما العبيد فعليهم اتباع قادتهم مثل قطيع من الغنم، وحق

للغرب أن يقاوم هذا المعنى بأي أسلوب، أما المسلمون الذين يقول لهم دينهم أنه لا إكراه في الدين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، والإنسان على نفسه بصيرة، وهديناه النجدين، مثل هذا الفهوم لايحتاج إلى جماعة الفكر الحر فإنه فوق كل محاولة للقيد أو الجبرية أو فرض السيطرة.

والإسلام يؤمن بأقصى ما تتطلع إليه فكرة الحرية وهي أن يقول وجهة نظره ويجادل من أجلها حتى يستبين للناس الحق فإما أن يقنع غيره أو يقتنع هو إن كان طالباً للحق، وليس هناك مصادرة للرأي، إلا إذا كان الرأي كفراً أو إلحاداً أو إنكاراً للحقيقة الكبرى: حقيقة وجود الله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر.

٤- يقول كاتب كبير: «إن الحرية لاتعنى الإباحية والفوضى والتحلل، بل هي في صميمها أمانة صعبة ومسئولية وضوابط، وأخطر ما تتعرض له الحرية هو الجهل بتبعاتها ومسئوليتها واختلاط مفهومهما بشوائب ضالة من الفوضى والتحلل، وجوهر الفرق بين الحرية والعبودية: أن قيود الحر مفروضة عليه من تلقاء نفسه، ولا تعنى الحرية إباحة التحلل من القوانين والضوابط، سواء في المجتمع أو الفن، وحرية الكاتب هي حرية فرد في مجتمع وليست حرية فرد في فراغ، وممارسة الأديب لحريته لاتعنى بحال تحلله من مسئوليته إزاء المجتمع، والأديب والمفكر والكاتب إذا خرج عن مسئوليته سقطت عنه صفته الحقة لأن شعوره بالجماعة والتزامه بأمرها قمة مسئوليته.

ويقول بعض كتاب الغرب إن الفكر الحر هو أساس النهضة الأوربية، وقد يكون هذا القول صحيحاً ولكنه لايعنى أن الفكر الحر أساس كل نهضة، ذلك أن مأساة الغرب إنما كانت في القيود والأوهام والتفسيرات التي أضافها بعض القادة والرؤساء إلى الدين فأخرجوه عن طابعه الإلهي وعن حدوده الصحيحة وعن رسالته ومسئوليته، هذه الإضافات البشرية عجزت بعد سنوات عن أن تواجه الحياة لأنها بنت عصرها وبيئتها بينما الدين هو رسالة خالدة ومن هنا فإن هذه التفسيرات أفسدت جوهر الدين وقمعته في إطار لم يكن هو إطاره الصحيح ولذلك فإن منطلق

الفكر وناموسه وقوانينه الفطرية كان لابد أن تكسر هذا القيد، وتنطلق لتعلن عن طريق العلم إرادة الله وقدرته.

أما في الإسلام: فحيث إن الفكر رباني وإنساني ومحرر من الإضافة أو الحذف فإنه ليس في حاجة إلى محاولة لتحريره، كمحاولة أصحاب الفكر الحر، هؤلاء الذين لم يحرروا الفكر الغربي وإنما دمروه لأنهم أخرجوه من مفاهيم الدين والأخلاق والمعنويات والروح وأسلموه للفلسفة المادية.

ولقد جرت محاولة وفشلت لأنها لم تجد أمامها طريقاً مفتوحاً، هي محاولة الفكر الباطني المجوسي والفلسفات الغنوصية واليونانية في محاولة احتواء الإسلام، متعللة باسم الفكر الحر، وكان الإسلام أقدر على دحرها وتدميرها وتزييف دعواها.

٥- ما أخطر ما أفرزت حركة الفكر الحر: نظرية الشك الفلسفي التي تثير الشكوك ولا تثبت شيئاً» والتي تقول باللاأدرية، وتنكر الأصول الأساسية للعقائد والوحي والنبوة، هذه النظرية التي تثير الشكوك حول النصوص الدينية ومصادرها وأصالتها.

والشك الفلسفي الذي اتخذه كثيرمن المفكرين الغربيين دعاة المادية وانتقل إلى بعض من يكتبونه بالعربية ممن مروا علي معهد الدراسات الشرقية، هو شك حقيقي لا يصطنعه صاحبه تمهيداً للوصول إلى الحقيقة وليس هو وسيلة إلى غاية أساسها المعرفة ولكنه شك حقيقي أصيل عميق مستكن في أعماق النفس، ومن ثم فصاحبه يبدأ شاكاً وينتهى شاكاً وهو حالة ريب وهو غاية في ذاته وليس وسيلة إلى غاية أخرى يهدف إلى تحقيقها، وقوامه الشعور بالحيرة والتردد والغلو في الشعور، ويوصف في دراسات الفسلفة بأنه مرض عقلي حين يصبح الشك عادة تسيطر على صاحبها وتستعبده فيركز الرغبة في الشك في مزاولة الشك نفسه.

ولقد أمضى الدكتور طه حسين أكثر من أربعين عاماً يزاول هذه الأسلوب في الأدب العربي والكتابات الإسلامية يشك في كل شيء ولا يثبت شيئاً، يثير الشبهة

واحدة تلو الأخرى حول كل أمر دون أن يصل إلى يقين ما.

وفي منهج الفلسفة التلمودية أن لايهدي الحائر إلى شيء ما وأن تثار دائماً أمامه الشبهات والشكوك حتى يزداد حيرة إلى حيرة، وهو المنهج الذي سارت عليه علوم الاجتماع والأخلاق والنفس مما نراه الآن رائجاً في سوق الفكر الوافد وهذا الشك الفلسفي يختلف عن الشك المنهجي: الذي يفرضه صاحبه بإرادته ورغبة منه في امتحان مقولاته واختبار معرفته وتطهير عقله من كل ما يحيره من مغالطات وأضاليل، وهو يمكن صاحبه من البدء بدراسة موضوعه وكأنه لايعلم شيئاً فلا يتأثر بالأخطاء، وهو خطوة تسلم إلى اليقين أو تؤدى إلى المعرفة الصادقة فهو وسيلة وليس غاية في ذاته، وقد عرفه علماء المسلمين أمثال الغزالي وغيره بل وعرفه الأنبياء ونجد في حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أمثله منه.

ولقد جاء الإسلام باليقين الحق، والإيمان الكامل على نحو مختلف عن أساليب الفلسفات المضطرب، ولقد جاء الإسلام يعرف بالحق الذي يمكن التدليل عليه بألف دليل لأنه الحق الذي لايصادم العقل أو الوجدان أو الفطرة أو العلم: الحق الذي أقام السموات والأرض.

ولقد عاشت الفلسفات تاريخاً طويلاً مليئاً بالشكوك والشبهات وعجز العقل بمفرده عن الاهتداء إلى الحقيقة، ومن ثم فإن الإسلام ينظر إلى الفلسفات على أنها مجرد نظريات أو فروض قد تصدق وقد تخطىء، قد تلتقى بالحقيقة وقد تختلف عنها ولكن الإيمان بالله الواحد المتمثل في الدين الحق لايخطىء أبداً لأنه يعتمد على المصدر الثابت الأصيل.

ولقد خالف الإسلام الفلسفات اللاهوتية في أسلوبها ومداخلها فهي حين تدعو إلى الإيمان أولاً ثم بعد ذلك البحث، يقدم الإسلام الدليل على وجود الله قبل الإيمان ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ ومن مفهوم الإيمان الإسلامي نشأ العلم واتجه العقل إلى البحث عن عالم الغيب وإعطاء صورة كاملة له، وهداه إلى البحث عن مدخور الأرض وثمارها وكنوزها.

ولقد حاولت الفلسفة في تاريخها الطويل أن تهتدي إلى ما وصل إليه الدين، ولكنها حين قصرت نفسها على المفهوم المادي الحسي وأنكرت ما وراء المادة عجزت عن أن تصل إلى شيء، وحل ذلك الظلام القائم الذي تمر به النفس البشرية اليوم وهي تنكر عالم الغيب بكل ما فيه ومن ثم فإنها تشطر المعرفة فتقف عند العالم المادي وحده، وتتجاهل ما وراءه من عوالم هو مرتبط بها أشد الارتباط، وهي مؤثرة فيه كل التأثير، وبذلك تحس النفس بالخلخلة الشديدة التي تتمثل في الغربة والضياع والملل والغثيان لأنها تميت جانباً حياً في وجودها نفسه وتتجاهله تماماً.

والإسلام يدعو المسلم إلى أن يثبت قوائم فكره ويعرف نقطة البدء الحقيقية التي منها يتجه وإليها ينتهى، وهي الله تبارك وتعالى، ثم يؤمن بعد ذلك بأن معطيات الدين الحق هي اليقين الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما الفلسفات وهي فروض ونظريات فإن عليه أن يؤمن بأنها قد تلتقى مع الحقيقة الأزلية فتصدق وقد تختلف معها فتخيب، وعلى المسلم أن يتيقن من التفرقة العميقة بين العلم التجريبي (الذي يقوم في المعامل على الأنابيق) وبين الفلسفات التي هي فروض العقول المتصدرة لدراسات الحياة والوجود.

ومن هنا فإن كل ما يقول به فلاسفة المدرسة الاجتماعية أو التحليل النفسي أو الأخلاقي أو غيرها إنما هي فروض تقوم على أساس نظرية أولية للفلاسفة، يجب التعرف على مصدرها، وهي في جميع الأسماء التي تتصدر الآن للفلسفة أمثال فرويد وماركس وسارتر ودور كايم وماركوز: نظرة مادية قاصرة تستمد وجودها من المذهب الحسي الذي لايؤمن إلا بعالم الواقع الحسي القائم مادياً أما العالم الآخر فإنه في نظرهم غير موجود تماماً وبذلك فإن نظرتهم ناقصة ومبتورة وعاجزة عن أن تقدم شيئاً لأنها لاتعتمد على كل الأبعاد الحقيقية للرؤيا، أما نظرة المسلم فواسعة وشامله وجامعة لأنها تربط بين عالم الواقع وعالم الغيب وتستمد نظرتها من وجود يبدأ من الأزل إلى الأبد، ويضم عوالم ما قبل الإنسان المعاصر منذ خلق الله الحياة والإنسان وإلي ما بعد الحياة والموت والبعث وعالم الآخرة كله بجنته وناره. وذلك هو

الفرق البعيد والعميق بين نظرة الفكر الغربي ونظرية الفكر الإسلامي، ولا ريب أن النظرة الواسعة البارحة ذات الأبعاد العميقة هذه أقدر على الرأي الأصيل والنظرة الصائبة.

ومن هنا فإن الشك الفلسفي الذي هو ثمرة الفكر الحر ليس إلا سما زعافاً يرمى إلى تدمير العقل البشري والنفس البشرية بالقضاء على اليقين والإيمان والسكينة النفسية التي هي أعظم معطيات الفكر الرباني ولا ريب أن الشك في العصر الأخير قد استطاع أن يسيطر على أفق الفكر لعدة أسباب:

أولاً: لأنه اتشح برداء العلم، ولأن علم النفس حل محل فلسفة الأخلاق وكان أخطر معطيات علم النفس التفرقة بين العقل والوعي والباطن، مما تطرق الشك معه إلى قيمة الفكرة وأصبح الناس لايرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها فيما مضى، وانقسمت الخلية الواحدة التي أقامها الدين إلى شطرين: الفكر شيء والعمل شيء آخر، وهذا أخطر ما حل بالنفس البشرية فقد ربط الدين بين القول والعمل ﴿ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

ثانياً: أعلن علم النفس عن طريق الجبرية التي ألقته المادية في أحضانها بأن الإنسان مسير أمام جملة عوامل وأن هناك مؤثرات ودوافع تدفع الإنسان إلى أعمال منها الرغبة والعاطفة والمزاج وبذلك خالف الفكر الغربي مفهوم الإسلام والدين الحق الذي يرى أن للإنسان إرادة حرة، وأن لهذه الإرادة قوة قادرة على التماس طريق الحق والخير وأن تدافع عن نفسها الأهواء والمطامع والشهوات، ولا ريب أن التناكر بين الفكرة والسلوك كان بعيد الأثر في تلك الأعاصير التي تكاد تفتك بالنفس الإنسانية اليوم وهي القلق والتمزق والصراع والغربة.

ثالثاً: أخطر ما ألقاه الفكر المادي ونظرية الشك: إلى الإنسان أنه غير ملزم وغير مسئول أمام الأخطاء والانحرافات لأن الجماعة هي المسئولة عن ذلك وبذلك تضاءل الفرد أمام هذا السلطان ولم يعد له مكانته الأولى.

رابعاً: أنكر رجال الفلسفة المادية قوة الخلق في الفرد وقوة الخلق في الجماعة فأدى ذلك إلي الاستهتار بالمثل العليا. بينماجاءت الأديان إلى تقرير أصالة الرأي والشرف والصدق في حياة الفرد، أما الفلسفات فقد أنكرت ما للفرد من وزن في حياة الجماعة، وأصبح الفرد يحتمى في نتائج هذه النظريات فيرى نفسه غير مسئول عن الحالة السيئة التي وجد نفسه فيها.

خامساً: إن إنكار النظرية المادية لفلسفة الخلق انتقص مكانة الفرد وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطاناً من الجماعة، وجاء علم الاجتماع بعد علم النفس ومصدرهما واحد (والقائمين عليهما فرويد ودور كايم يهوديان) فأنكر مسئولية الفرد ودعا إلى تلاشيها في الإرادة الجماعية كل هذا كان من شأنه أن يدمر الوجود الإنساني ويملأه بالشكوك والشبهات.

سادساً: كان للعلوم الوضعية في مجال الإنسانيات: (الأخلاق والاجتماع والنفس) في منطوقها المادي أثرها البعيد في توسيع دائرة الشك والارتياب لأنها عزلت الإنسان عزلاً تاماً عن المورد الرباني الأصيل الذي يستمد أصوله من الدين الحق ويجعله محصوراً في دائرة العلم البشري المادي، القائم على الجبرية.

فعلم النفس: علم وضعي يسير في نطاق ضيق من التجارب التي تختلف على عقل الإنسان وحسه، وهو لذلك غير قائم على تقديم مثل أعلى يثبت قيم الأشياء، ولأنه يعالج الحالات الشاذة ويستمد منها قوانين يطبقها على الأسوياء (انتفعنا في هذا الجانب بدراسة الأستاذ أحمد خاكي).

(٣)

طرحت قضية الفكر الحر: أسلوب الشك الفلسفي منطلقاً لها فعندما غاب اليقين بالله والإيمان به نشأ طابع جديد من طوابع الأدب والفكر هو طابع «التشاؤم».

ولقد ساد التشاؤم الأدب الأوربي والغربي كله وأصبح ظاهرة واضحة له، وذلك

نتيجة أمرين: أمر قديم لم يستطع الفكر الغربي أن يتجاوزه أو يتخلص منه وهو: عقيدة الخطيئة الأصيلة التي تطارد المؤمنين بها والتي يردها الإسلام ليس عن المسلم فحسب بل عن الإنسانية كلها، والمادية التي عزلت الإنسان وحبسته في الدائرة الضيقة المظلمة فحرمته الأمل والسكينة وانتظار رحمة الله أو طلب هداه.

وقد أشار الباحثون إلى سيادة الوجدان المتشائم للمجتمع الغربي كله رغم قوته المادية وجبروته الآلي، وإن سيادة هذاالوجدان تمتد بكل أبعادها ومظاهرها إلى الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق والسياسة (وفي مسار هذه الأيدلوجية السوداوية المتشائمة تنتشر على أوسع نطاق في عالم الغرب أفكار عن «لامعقولية الحياة» و«عبث الوجود» وأصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر يؤمن بالتطور الإنساني والتقدم الاجتماعي لصناعة خاصة، هذا بالإضافة إلى إنكار طوابع الدين والروح والعقيدة، وفي مقدمة هؤلاء شوبنهور وهارتمان ونيتشه الذين يسمون: «مشاعل فلسفة التشاؤم» التي تبغض الإنسانية-قال شوبنهور في كتابه (العالم إرادة وفكر): إن كل الآمال في تحقيق أشياء أفضل خادعة، وقال هارتمان: الخرافات الثلاثة هي: إمكان تحقيق السعادة على الأرض، التقدم الاجتماعي، السعادة في الحياة الأخرى، إن تطور اللاوعي في أساس العالم سوف يبلغ ذروته بدمار العالم، وأعطى نيتشة لنزعته التشاؤمية أقصى حد من العدوانية والبغض للبشرية، ويعتبر الباحثون الغربيون «الوجودية» على أعلى مراحل فلسفة التشاؤم، سواء المؤمنة منها أم الملحدة، حيث لاسبيل إلى القول بأن فكرة الخطيئة المسيحية هي وحدها مصدر النزعة التشاؤمية لدى الوجودية، ويقول كارل باسيرز: إن الإنسان يواجه أربعة مواقف أساسية في العالم لايستطيع أن يغيرها أو يتجاوزها:

(الموت - الألم - الصراع - الإثم)

ولكن الفكر الإسلامي يدحض هذا المفهوم، بالإيمان فإن المؤمن القوى يواجه الإثم ويتحرر منه ولا يرى الحياة ميدان صراع ولكن مجال إخاء ومحبة وتعاون، ومن ثم فهو لايتألم إذا رأي غيره أحسن حظاً من رزق الدنيا، أما الموت فإن المسلم يراه

نهاية مرحلة من الحياة وليس نهاية الحياة، إنما نهاية مرحلة النضال من أجل تحقيق المجتمع الرباني، هذا المفهوم محجوب تماماً عن الفكر الحر، لأن الفكر الغربي كله يقوم على الأساس المادي الذي يحجز نفسه في (دنيا) ليست متصلة بالسماء وليس لها صلة بأي حياة أخرى، وتسود العالم الغربي كتابات عن توقعات مظلمة للحضارة وللبشرية نتيجة هذا الفهم، ويقال عن الجنون الذي أصاب البشرية والذي سينتهى بها إلى حرب كلية شاملة تدمر كل شيء، ويركزون على ما يسمى بالدافع الداخلي لدى الإنسان الذي يدفعه إلى إفناء ذاته، هذا الدافع الناشيء عن نزوعه الطبيعي للقتال وعن الاختلاف بين مستوى تطوره العقلي ومستوى تطوره الأخلاقي، ويرون أن هذه المفارقة هي أصل البلاء ومصدر المتناقضات المتطاحنة في حياة الإنسان وأن الآلة التي صنعها الإنسان قد انقلبت عليه وأصبحت وحشاً مدمراً يحاول أن يقضى على عقله وقلبه ويحيله إلى أداة طيعة.

وهكذا نرى الغرب وهو في أوج الرخاء المادي الذي جلبه بالسحت من بلاد الخامات ومصادر الثروة (وكلها بلاد الإسلام) لايجد متعته الحقه حيث تطارده آفة التمزق النفسي والصراع والغربة والغثيان فيجعل كل ما يعيش فيه من رغد حرماناً وقسوة، وحين امتلأت أوعية الرغبات المادية بالطعام والشراب والجنس فرغت الحياة من كل معنى ولم يعد لها طعم أو هدف وحل التشاؤم بشبحه الرهيب على متاع الحياة كلها بسهراته الراقصة وأضوائه الكاشفة فصيرها قتاماً نفسياً وظلاماً روحياً وإحساساً بالغربة وفقداناً للذات والهدف والغد وخوفاً رهيباً من الموت، وتلك هي فلسفة الوجودية التي عادت تدمر المجتمع الغربي بعد أن دمرته الرأسمالية الفردية والماركسية الجماعية، ومنه انبثقت ظواهر جديدة منها الهيبية وغيرها.

ومصدر ذلك كله دعامة كبرى في الفكر الغربي: هي الفكر الحر، ولقد تحقق عنها هذا المفهوم الذي يملأ كل عقل غربي ونفس غربية اليوم «إن الإنسان يسير في طريق لا نهاية له إلا الدمار الشامل وأن أبواب الأمل في حياة هادئة تخلو من التدمير موصدة في وجهه.

بقى أن نقول إن الفكر الغربي قد رمانا بدائه ، وطرح كل هذه السموم في أفق الفكر الإسلامي والثقافة العربية، وقد استطاعت أن تجد متأثرين بها من الذين ليست لديهم مناعة من عدوى الأوبئة العالمية، هؤلاء الشباب الغض الذين لاتزال لديهم منطقة فارغة من الإيمان لم يملأوها بفكرهم الأصيل، المستمد من التوحيد الخالص واليقين الكامل بالله تبارك وتعالى، وهؤلاء سيقاسمون مثل هذا الصراع، وهم قادرون بعد المعرفة الخروج منه والتحرر.

﴿ الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ ذلك أن الإسلام هو الذي يعطى الإيمان واليقين وسكينة النفس، وإن النفس الإنسانية إذا حجبت نفسها عن العقيدة والدين دخلت في مرحلة القلق والتمزق وتلك هي إحدى تبعات « الفكر الحر» الذي أثار الشكوك حول كل شيء ولم يقدم لنا بديلاً عن الشبهات التي أثارها.

(٤٦)

البطـــــــولة

يقدم الفكر البشري للإنسان مفاهيم متعددة للبطولة منها ما يقوم على المجد الشخصى ومنها ما يقوم على المجد الوطني، ومنها ما يقوم على التبريز والشهرة في ميادين الفن والجريمة والجنس وغيرهما مما يلفت النظر ويثير المشاعر ويهز النفوس، ويعجب الشباب في سن المراهقة ويأخذ بألباب البسطاء، وهي فنون من البطولة تستهدف الغنى أو الشهرة أو المكانة، وكلها لاتعمد للبقاء إلا ساعات قليلة أو أيام وسنوات معدودة، حيث يتغلب غيرها ويبرز سواها، أما البطولة في مفهوم الإسلام فهي شيء يختلف عن ذلك تماماً، لا هو بريق خلب، ولا محاولة لكسب وقتي، ولا مطمع دنيوي ولكنه عمل في سبيل الله يبقى على الأيام ويستهدف رضوان الله ولا يقصد متاع الدنيا أو يستهدف غايتها المحدودة.

والإسلام يذكر الأبطال على أنهم بشر فلا يرفعهم إلى مرتبة الآلهة أو أنصاف الآلهة كما تفعل الأمم الأخرى، وهو يفرق بين ثلاثة أشياء تفريقاً واضحاً: بين الألوهية،وبين النبوة،وبين البطولة. فالله سبحانه وتعالى هو خالق الكون والسيد الأكبر المتصرف الذي لايدانيه أحد من خلقه، والنبي بشر مرسل موحي إليه يتميز عن البشر بهذه الصلة الربانية التي تفرده بالعصمة، أما البطل فهو الإنسان الذي بلغ درجة كبرى من الإيمان وقام بعمل عظيم.

والعظمة كلمة مقصورة على الله تبارك وتعالى وليس في الإسلام ما يسمى تمجيد البطولة أو تقديس البطل أو عبادة الفرد، وأبطال الإسلام ليسوا أنبياء وليسوا معصومين ولكنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، والإسلام يركز مفهوم البطولة على عمل البطل لا على البطل نفسه ويحتم توجيه العمل البطولي خالصاً لله وحده، فإذا كان من أجل مطمع دنيوي، كمال أو شهرة أو مجد فردي فإن ذلك يفسد

تحرره، ولا يجعله خالصاً لله وحده.

ومن هنا فإن الإسلام لايقر تخليد البطولة بالتماثيل والأحجار كما تفعل الأمم الغربية ذلك أنه لايجسد البطل وإنما يكرم البطولة نفسها بالتنويه بها والدعوة إلى العمل بمثلها.

ولايقر الإسلام بطولة الاستعلاء والإبادة والتسلط والقتل والإفناء وكبت الأنفاس في سبيل السيطرة، ويجعل بطولة المسلم قائمة في إطار العمل المتحرر من المطمع أو الهوى أو الغاية الدنيوية.

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ وهكذا تختلف بطولة عمر بن الخطاب وصلاح الدين وخالد بن الوليد عن بطولة بسمارك وكرمويل ونابليون.

ولقد حرر الإسلام البطولة من الأساطير والخوارق وجعل البطل إنساناً عميق الإيمان، صادق الفطرة، لاتغريه مفاتن الدنيا، وقد تحرر من الأهواء فأصبح قادراً على أن يقدم نفسه فداء لفكرته ويضحي بنفسه في سبيل غاية عليا.

وكما حرر الإسلام فكرة البطولة من مفهوم الإغريقية فكذلك حررها من مفهوم الجاهلية، حررها من روح الاستعلاء والغرور التي نجدها في الشعر الجاهلي، وحررها من الظلم والقسوة وإراقة الدماء،وجعلها بطولة رحيمة سمحاء معطية تعول على حماية الذمار وإطعام الفقير ورعاية اليتيم،وجعل أبرز معاني البطولة ممثلة في المروءة التي تنطوي تحتها معاني الكرم والنجدة وحسن الجوار وإغاثة الملهوف والحفاظ على الذمار والوفاء بالعهد.

وقد قدم القرآن المثل الأعلى للبطولة، كما قدم نماذجها ممثلة في أولئك الأنبياء والأبرار الكرام الذين آمنوا بالله وحملوا رءوسهم على أكفهم وجاهدوا في سبيل إحقاق الحق وقول الكلمة وتحرير العقل البشري من زيف الوثنية والعبودية لغير الله، بعيداً عن التفاخر والاستعلاء.

وجاء أبطال الإسلام في عصوره المختلفة أمراء وقضاة وعلماء وفرساناً، علماً على ذلك الفهم العميق للبطولة المتحررة من الظلم والعصبية والنفاق وتطبيقاً للمثل الأعلى للبطل الذي عرفوه في القرآن.

فالإسلام يرد عن البطولة ذلك الاستعلاء والظلم والصلف والعنف الذي نراه ممثلاً في تلك الصور التي يعرضها تاريخ الأمم، وهو في نفس الوقت يرد عن البطولة ذلك المفهوم الجبري الذي ينكر دور الإنسان في صناعة التاريخ، فالإنسان ليس نتيجة منفعلة، وليس شاهداً غير مريد، ولكنه فاعل ومريد وقادر على أن يغير ويحول مجرى الأمور، وأن إرادته الخاصة التي هي جزء من إرادة الله، لها قدرة الحركة، وعليها مسئولية العمل وجزاؤه.

أما النظرية المادية الغربية فإنها ترى أن الفرد نتيجة منفعلة وليست بسبب فاعل في الحوادث التاريخية،وأن العظيم لاينبغ في الأمة إلا إذا تمهدت له دواعي الظهور في تكوين الأمة،فالعوامل الاجتماعية إذن هي موضع البحث وليست عظمة العظماء ولا جهود الأفراد، ولا ريب أن هذا التفسير المادي إنما يهدف إلى تصوير الأنبياء على أنهم مصلحون تفرزهم المجتمعات وليسوا رسلاً يختارهم الحق تبارك وتعالى في الوقت الذي يختاره في البيئة التي يختارها. وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون من كتاب المسلمين ممن عجزوا عن التفرقة بين النبوة والعبقرية، أو بين النبوة والبطولة.

ولا ريب أن علامات النبوة تختلف عن شرائط البطولة والعظمة والنبوغ والعبقرية فالأولى ربانية المصدر والأخرى بشرية وفرق كبير بينهما والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ومع النبوة وحي وعصمة وهما مما لايوجد مع البطولة أو الزعامة - والأنبياء يختارهم الحق تبارك وتعالى ويعلمهم دون أن يخضعوا للمقاييس التي يضعها الناس للعظمة الفردية وسائط تتعلق بالغنى أو التربية أو الثقافة.

ومن هنا فإن النبي لايوصف بالعبقرية ولا بالزعامة السياسية ولا بالقيادة الحربية، والذين حاولوا أن يصفوا النبي ﷺ بصفة من هذه الصفات فاتهم أن الماديين هم الذين يطلقونها لأنهم لايؤمنون بالوحي، وقد تليق هذه الألقاب بأصحاب النبي ورجال الإسلام ولكنها لاتنسب إلى الرسول: الذي تتمثل عظمته في أنه نبي مرسل يوحى إليه مؤيد من الله ومعصوم.

وهذا ما يتمثل في ملاحظة العباس حين قال أبو سفيان وهو يستعرض كتائب المسلمين في طريقها إلى مكة: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً فقال العباس: إنها النبوة ياأبا سفيان.

ومدار النبوة على الوحي والإخبار عن الله تعالى.

أما العبقرية فأمر دون النبوة وليس مبناها على الوحي من الله أبداً، وإنما تقوم على نوع من الإلهام والقدرة على الابتكار وحل الأمور حلاً فيه حكمة البشر وحيلته، وهذا هو المعنى الذي وصف به الرسول عمر حين قال: قد كان محدثون - أي ملهمون في إصابة الحق والصواب وفي حل المعضلات - فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب.

وفي شأن البطولة فإن مفهوم الإسلام يتمثل في أن بطولة الأبطال إنما جاءت من الإسلام نفسه، من العقيدة التي غيرت النفوس وصبغت القلوب بصبغة الإيمان، وليس من المواريث العرفية أو آثار البيئة وهذا ما وقع فيه بعض دارسي البطولات والعبقريات حين ردوا ما في بطولة أبي بكر وعمر إلى طبائع النفس والتكوين الموروث وفي ذلك إنكار لدور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص ذلك أن تبريز عمر وأبي بكر وسعد وخالد وغيرهم لايرجع إلى ميراث في الشخصية، أو في البيئة إنما هو أثر تغيير الإسلام لشخصياتهم وتأثيره في تشكيليهم مرة أخرى، إن العقيدة الإسلامية هي التي حولت هذه الشخصيات وأعادت صياغتها من جديد في ضوء التوحيد الذي أخرجهم من شخصياتهم القديمة، ويظهر ذلك تماماً في تصرف المسلمين الذين قتلوا آباءهم وإخوتهم في الحرب، ويظهر في موقف الخنساء قبل الإسلام

وبعده.

(٣)

لقد حرر الإسلام مفهوم (البطولة) من الأسطورة كما حرره من وثنية التكريم، وذلك أن الإسلام قد ضرب قاعدة من أعظم قواعد تقدير البطولة في العصور السالفة وهي فكرة عبادة البطل أو تأليهه أو وضعه في مصاف القدرة الخارقة، فالبطل في الإسلام ليس مقدساً وليس أسطورياً.

والمثل الأعلى في البطولة الإسلامية هو النبي محمد ﷺ المؤيد بالوحي والذي لاينطق عن الهوى، ومع ذلك فقد أكد القرآن في أكثر من موضع أن النبي بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتوفاه الله وإن مفهوم الخلود الجاهلي والوثني لاينطبق عليه وإنما الخلود: خلود الأعمال والبطولة: بطولة الأعمال.

ولقد رفض الإسلام تأليه النبي تحرياً لمفهوم التوحيد والإيمان بالله الواحد الذي له وحده حق العبودية والقداسة والاستعلاء الذي لايصل إليه البشر، ومن هنا فقد حارب الإسلام مفهوم عبادة الفرد أو الغلو في تكريمه أو الإسراف في تقدير ذاته وجعل البطولة كلها والتكريم كله للعمل وحده، وبذلك حرر النفس من عبادة الفرد من الوثنية التي صنعت عشرات الآلهة وأنصاف الآلهة في الأمم الوثنية وابتدعت عبادة الأصنام والأوثان.

كذلك أنكر الإسلام المبالغات التي كانت تضفى على البطل من ميزات خارقة أو صفات عالية تفوق قدرات الإنسان الطبيعية وكلها تدخل في نطاق الأساطير.

وقرر الإسلام أن هذه النظرة إلى الإنسان تجافي الحقيقة، فإنه من المستحيل على الفرد مهما أوتى من قدرة وفطنة وذكاء، أن يكون له نفوذ الإله القادر الذي له وحده مقاليد الأمور، ولقد ارتبطت عبادة الفرد في بعض الأمم بالعبودية التي كانت تتيح للملوك والسادة والأمراء حق التصرف بالاستغلال أو الموت أو البيع، هذه العبودية التي انتشرت في العالم القديم: (بابل وأشور وسمرقند ومصر والهند

والصين) ثم بلغ هذا النظام العبودي أوجه عند الأغريق في القرن السادس ووصل في روما إلى أقصى صورة قبيل ظهور الديانه المسيحية.

وقد دافع فلاسفة اليونان الكبار عن هذه العبودية وأقرها أكبرهم: (أرسطو وأفلاطون) ودافعا عنها دفاعاً حاراً وقد بلغ عدد العبيد في روما عشرين مليوناً مقابل (٢١٤ ألف مواطن حر) وكان في أثينا أربعمائة ألف عبد بينما بلغ سكانها الأحرار ٢١ ألف مواطن.

وحيث قامت الحضارة الرومانية بمعابدها وأبنيتها الشاهقة على أساس العبودية وكذلك الأمر في الزراعة حتى توفى الأمبراطور أوغسطس عن أربعة آلاف عبد.

وقد حطم الإسلام مفهوم العبودية ودعا إلى الأخوة والمساواة وحرر معها مفهوم البطولة الذي كان مرتبطاً بالمفهوم العبودي.

ولقد أعطي الفكر الغربي لمفهوم البطولة صوراً مختلفة منها: القديس والعبقري والنابغة والبطل وأجرى ماكس شيلر الفيلسوف الألماني مقارنات واسعة بين هذه المفاهيم.

وجرت مناقشات واسعة حول التاريخ وصانعيه، واختلفت نظرية الغربيين الليبراليين أصحاب مفهوم الديمقراطية والفردية عن مفهوم الماركسيين الاجتماعيين أصحاب مفهوم التفسير المادي للتاريخ، وانقسم الرأي حول مفهوم توماس كارليل الذي أورده في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال) وبين مفهوم نيتشه الذي تحدث عن (الإنسان الأعلى) وعنه صدر مفهوم التفسير المادي.

أما عباد البطولة فيقولون: إن التاريخ في جوهره عبارة عن سير العظماء وأن التاريخ من صنع العباقرة، وأن العظيم هو البطل الذي غير مجرى التاريخ ويرى أصحاب نظرية التطور أن التاريخ سلسلة من الحوادث، وأن العظماء نماذج للبيئة التي يعيشون فيها وأن الظروف هي التي تخلقهم، وأبرز رجال النظرية المادية في البطولة (هربرت سبنسر) الذي يقول إن الإنسان خاضع لمحيطه ويطور بتطوره، وأن

التطور المادي هو أساس المجتمع.

ولا ريب أن كلا الرأيين ناقص ومسرف ومغال، فأحدهما يذهب إلى آخر الشوط في إعلاء البطولة والآخر يذهب إلى الغاية في دحضها وإنكارها ومفهوم الإسلام هو أقرب المذاهب كلها إلى الصدق والاعتدال.

فالإنسان مريد وفاعل وله إرادته المحدودة، داخل إرادة الله الكبرى وبها يستطيع أن يتحرك ويغير وفي حدود قدرته تكون مسئوليته وجزاؤه فهو ليس مجبوراً وشاهداً فحسب، ولكنه فاعل ومؤثر.

والإسلام لا ينكر البطل أو ينكر أثره في المجتمع، فهو ثمرة للمجتمع ومغير للمجتمع أيضاً وأن البطولة ترتبط في الإسلام بالهدف الأعلى وبإنكار الذات وتقوم على الأساس الأخلاقي.

ولا يصلح التفسير المادي للتاريخ في التطبيق على الإسلام، ولا في حياة الرسول ﷺ لأن العامل المادي هو واحد من عوامل كثيرة تصنع الحدث ولا ريب أن العوامل الروحية والمعنوية ذات أثر أكبر كثيراً من العوامل المادية والاقتصادية.

ولقد تنبه إلى هذا الأستاذ (أرمان) الذي تحدث عن حياة النبي ﷺ فقال: لقد أخفقت محاولاتي الكثيرة لإيجاد مؤرخ واحد يستطيع البرهنة على أن النبي محمد ﷺ كان وليد الحالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تسود الجزيرة العربية في القرن السابع بعد الميلاد ولم أجد بين المؤرخين أيضاً من يقدر على أن يقول: لو لم يبعث النبي محمد ﷺ لكان من الطبيعي أن يستعاض عنه بشخص يقوم بنفس المهمة التي اضطلع بها، فقد قام محمد ﷺ بأعمال خارقة حين جعل أبناء الصحراء أمة تمكنت من المحافظة على (المدينة) وقدمتها إلى نصف أرجاء المعموره. أ.هـ.

وقد رسم القرآن صورة للبطولة تحدد مفهومها، فكل الأبطال الذين عرضهم القرآن أبطال مقاومة لايستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رءوسهم للعدوان ولا يخافون، بل

يقفون دائماً موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرءوس.

فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة التقدم والبناء، ومن هنا فقد عجزت قوى العدوان عن أن تقتلهم أو تنتصر عليهم، وكانت المقاومة عندهم إيماناً من أعماق النفس وسلاحاً في اليد يعملان معاً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة.

لقد كان البطل دوماً في مفهوم الإسلام من صنع القيم الإسلامية نفسها وليس من صنع البيئة، ينطلق في وقت الأزمة من الأعماق، ويصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل في ضوء مفهوم الإسلام، مصححاً الطريق والمفاهيم ومحرراً الأمة من الجمود أو الخطأ أو البدعة أو الهوى.

ولقد كان الرسول ﷺ وسيظل النموذج الإسلامي الأعلى للبطل وكانت صورته دائماً وتجربته وعلمه موضع القدرة والأسوة طوال فترات التاريخ الإسلامي ومراحله، ولا يزال حتى اليوم موضع القدوة عند كل بطل وقائد، فهو الذي كان إذا اشتد البأس اتقى الناس به حتى لايكون أحد أقرب إلى العدو منه، وهو الذي وجده الناس عائداً من مصدر الصوت التي أفزع أهل المدينة ذات صباح على فرس عري عندما خرجوا يلتمسون الخبر وهو يقول: لن تراعوا لن تراعوا.

وهو الذي وقف في (حنين) كالطود بعد أن تفرق أنصاره على أثر هجمة مفاجئة من العدو ينادي الناس (إليّ إليّ) وهو الذي كان يفرق دائماً بين موقفه في الغار ولا قوة معه يلتمس نصر الله وموقفه في بدر ومعه القوة، وحيث توجد القوة فهو وجل أن يكله الله إليها، فهو يلتمس من الله نصراً مجرداً من الأسباب، وهو البطل الذي لم تذهله الأحداث والقائد الذي لم يهزم قط، وقد كوّن بمكة خلال ثلاثة عشر عاماً جيلاً من الأبطال، والمغاوير، رباهم على البطولة والإيمان، والتضحية، فكتبوا صفحات بارعة من المجد، وظل هذا الرعيل موضع إعجاب الأجيال ومازال، ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة وسر عظمة كل منتصر إنما كان في التماسه روح النبي ومفاهيمه وأسلوبه.

البطولة الإسلامية

يزخر تاريخ الإسلام بأحداث البطولة وهي تمتد عبر مراحله المتصلة، دون توقف، وهي في صورها القريبة لاتنفصل في مفهومها عن صورها الأولى، وكلها تستمد وجودها من مفهوم أساسي واضح: هو القيام بدور خلاق في سبيل دفع الأمة الإسلامية إلى الأمام نحو الحق والعدل والإيمان، وتتسم البطولة الإسلامية بطابع عملي إيجابي وحيث يكرم البطل فإنما يكرم عمله أساساً، وليس شخصه أو ذاته، تقديراً للخطوة التي حققها والدور الذي قام به، ومن هنا كان البطل دائماً خادماً لمجتمعه وفكرته وأمته يؤمن حق الإيمان بأن عمله مقدور في ميزان العمل الصالح على تعاقب الأجيال، ومن هنا فهو لايتطلع إلى الجزاء المادي أو المغنم أو الشهرة.

وقد عرف تاريخ الإسلام أبطالاً قاموا بأدوار على قدر عظيم من الأهمية دون ان يكشفوا عن شخصياتهم أو يبوحوا بأسمائهم، وقد سجل التاريخ هذه المواقف تحت أسماء مجهولة ومن هؤلاء «صاحب النقب» هذا البطل الذي استطاع أن يفتح ثغرة في سور دمشق، بعد أن حاصرها المسلمون طويلاً وحاولوا مرات متعددة أن يثلموا الجدار دون أن يتمكن واحد من أبطالهم إتمام هذا العمل، فقد كان لايكاد ينطلق أحدهم نحو الهدف حتى تنتاشه السهام والنبال فترغمه على العودة مرة أخرى دون أن يصل إلى السور، غير هذا البطل الذي لم يعرف التاريخ اسمه، ولم يكشف هو عن شخصيته، وقد اندفع فجأة - بعد أيام طويلة ظل القائد يحرض خلالها المسلمين على الاندفاع نحو السور - اندفع على رأس فرسه وسهام العدو تنوشه من كل مكان، دون أن يتوقف أو يرتد حتى بلغ الجدار فأحدث فيه ثقباً، ثم اخترقه إلى داخل السور، وكبّر، وكبر المسلمون وعبروا إليه، فلما انتهت الموقعة، ظن قائد الجيش محمد بن مسلمة أن «صاحب النقب» سوف يتقدم إليه دون جدوى، هنالك نادي في الجيش أن يتقدم صاحب النقب، فلم يتقدم أحد، ووعد ثم هدد، وبينما هو جالس في خيمته تقدم منه رجل ضامر نحيل، فقال: أيها القائد: هل تريد أن تعرف

صاحب النقب، قال: نعم. قال: أنا أدلك عليه إذا أعطيتني العهد أن لاتسألني عن اسمي. فقال القائد محمد بن مسلمة: لك علي عهد الله أن لاأسألك عن اسمك، قال: أنا هو: وانطلق خارجاً من خيمة القائد وضاع في غمار الجند.

* * * * *

ومعنى هذا أن مفهوم البطولة في الإسلام لم يكن: الإعلان والشهرة أو التطلع إلى الحظ العاجل والأجر السريع، ولكنه كان إيماناً صادقاً من أعماق النفس بأن الله وحده هو الذي يجزى على العمل.

ويزخر تاريخ الإسلام ببطولات كثيرة مجهولة: قام أصحابها بالعمل، دون أن يكشفوا عن هويتهم التماساً لرضاء الله وحده، وانصرافاً عن مطمع الظهور والإعلان، والشهرة،وكان هذا هو مفهوم الزهادة وإنكار الذات الذي يتمثل في إخفاء العمل وتحريره لوجه الله وإخلاصه للحق وحده.

ويجمع الإسلام في معنى البطولة قطاعات عدة:

- بطولة المفكر والمصلح.
- بطولة القائد المحارب.
- بطولة بناة الدول وخدام الحضارة.

والبطل في الإسلام خادم لقضية وهدف، ولا يقل عمل المصلح الذي يصحح المفاهيم، عن المحارب الذي يرد العدو، ويتساوى مداد العلماء بدماء الشهداء، وفي مجال الحرب تتمثل البطولة، ليس في أعمال القتل وحرق المدن، بل في البراعة في كسب المعارك بأقل تضحية ممكنة.

والبطولة أساساً: بطولة بناء ونمو وامتداد، تتمثل في مجال العمل مع إضافة الجديد، وقدرة العالم على توسيع آفاق الروابط بين الفكر والحياة، والمرونة في تحقيق التجديد والاجتهاد، وتتكشف في قدرة العالمين في مجال الحضارة والبناء والتعمير، وفي مجال التربية وبناء الأجيال وفي العمل على إضافة كشوف جديدة.

وتتركز البطولة في العمل نفسه لافي الفرد من حيث هو من أسرة معينة أو بلد معين، فليست بطولة عمر بن الخطاب أو خالد بن الوليد أو صلاح الدين مستمدة من ميراث فردي أو أسري، بل هي مستمدة من مفهوم الإسلام وعمل البطل، وهو دائماً دفع الجماعة إلي الأمام وتحريرها من الاستعباد وتخليصها من آثار الغزو وإتاحة الفرصة أمامها للحركة والتقدم، ولقد كان تاريخ الإسلام قائماً دوماً على القدرة المتجددة التي تبعث البطل الذي يقود المعركة ويواجه الأزمة، وكلما تجمعت التحديات في وجه المسلمين برز القائد الذي يحمل اللواء ويقود الجماعة في معركة مقاومة، وكانت الأحداث والأزمات قادرة دوماً على أن تدفع الأمة إلى الوحدة، والتجمع والتكتل، والتضحية حتى يتحقق النصر، ولقد عرف تاريخ الإسلام عدداً من النكسات ولكنها كانت كلها مقدمات للنصر المظفر والهزيمة الساحقة للعدو فقد كانت الجماعة دائماً قادرة على مواجهة الخطر مهما بلغ من الشراسة والعنف بالتماسك والتجمع والعودة إلى المنابع.

وكل أبطال القرآن أبطال مقاومة لايستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ولا يخافون، بل يقفون دائماً موقف الصمود والمقاومة رافعي الرؤوس، فقد كانت رسالتهم دائماً التقدم والبناء ومن هنا عجزت دائماً قوى العدوان عن أن تقتلعهم أو تنتصر عليهم، وكانت المقاومة عندهم إيمان من أعماق النفس وسلاح في أطراف اليد، يعملان معاً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة. لقد كان البطل دوماً في مفهوم الإسلام استجابة لحاجة الأمة والمجتمع ينبعث وقت الأزمة ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى رحلة جديدة.

ومن ثم اتصلت في تاريخ الإسلام روح البطولة التضحية والموت من أجل الحياة، وكانت مقاومة الظلم، هي أبرز صفحات الكفاح في مواجهة كل باغ وكل ظالم ومعتد، على أرض الإسلام، ولقد استمد المجاهدون الأبطال على مدى العصور أبرز مفاهيم البطولة من أسوة الرسول.

بطولة الحرب: تقوم أساساً على إنكار الذات ووفق قيم الأخلاق والأريحية: «لا

تجهز على جريح، ولا تقتل صبياً أو عجوزاً أو امرأة ولا تتعرض لعابد في صومعته».

بطولة العلماء في الدعوة إلي الاستمساك بالقيم وإذاعتها في الأمة خاصة في فترات المحن على أنها أعظم أسلحة النصر فإذا استطاع الغزاة أن يهدموا بيتاً أو يملكوا شبراً فإنهم لايستطيعون أن يملكوا النفوس الحرة، ولا أن يهزموا القوى المدحورة في أعماقها، ومن هنا كانت بطولة المؤمنين تدفع في طريقها كل ظلم وتحطم كل عدوان وكانت قادرة دائماً علي رد العدو وسحق الغزو.

ولقد كانت بطولة العلماء دائماً في أن يبثوا في نفوس الأمة أن تكون متأهبة لخطر العدو الذي يتحين الفرصة ويترقب لحظة الغفلة.

أما بطولة بناء الدول فإنما يتمثل في بناء الجيوش وتأهيلها لتكون على أهبة العمل ليس عدواناً ولكن اتقاء للعدوان.

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ ومن قول الرسول ﷺ : «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» من رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر».

وقول عمر: علموا أولادكم السبحاحة والرماية وركوب الخيل.

ومن خلال القيم التي ترسمها البطولة الإسلامية وجد المسلمون دائماً القوة على العمل، ومن هنا كانت محاولة الغزاة والخصوم تدمير هذه المقومات أو صرف الناس عنها.

ولقد حول الإسلام مفهوم الفروسية والفتوة من المجد الفردي والقبلي إلى مجد الإيمان برسالة ومبدأ وغاية كبرى، ويرسم تاريخ الإسلام للبطولة مخططاً واضحاً: قوامه «الموت من أجل الحياة» فترى عمر بن الخطاب يرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يستقدمه وقد خشى عليه وباء الطاعون فترى أبا عبيدة يرفض ويقول: «دعني يا أمير المؤمنين بين جندي» ويخشى عمر ما عرفه الناس عن بطولة خالد

والمثنى الخارقتين فيعزلهما في أوج النصر عن مكان القيادة في الجيش ويقول: خشيت أن يوكل الناس إليهما وأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع. فلما علم بعض الناس الخلاف حاولا إثارة الفتنة. فقال خالد: أما وعمر حي فلا، إننا نسمع ونطيع لقادتنا» ويذهب عقبة بن نافع فاتحاً حتى يصل إلى المحيط الأطلنطي على شواطيء المغرب فيغرس حافر فرس فيه ويقول: «والله لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لذهبت فاتحاً في سبيلك».

ويرى أبو محجن ميمنة المسلمين في معركة القادسية تنكسر وهو مقيد في محبسه، فيطلب إلى زوج القائد إطلاقه، ويتعهد بأن يعود إلى القيود وينظر القائد سعد فإذا محارب يزلزل كالصواعق ويضرب كالرعد، ثم يعلم بعد المعركة أنه أبا محجن الذي اعتقله لأنه شرب مسكراً، فيرسل في طلبه ليؤمنه بأن لايقيم عليه الحد أبداً فيسرع أبو محجن ويقول: وأنا والله لن أشربها أبداً، فقد كنت أشربها أنفة حتى لاتقول العرب إني أخاف الحد. وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا: «خاف الله» ولقد حفل تاريخنا بهذه الصور، بطولة في خلق وإنكار للذات مع طلب الموت، وجمع بين بطولة الحرب وبطولة الإيمان وهكذا تمثل في الإسلام صورة من البطولة تختلف عن بطولات الأمم، إيماناً بالله، وتواضعاً ورحمة، وإنكاراً للذات.

(٤٧)

الطبيعـــة

الطبيعة مصطلح غريب على هذا الكون الظاهر ويختص بالحركة الجارية من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح والبرد والدفء.

والطبيعة أساساً هي من صنع الله تبارك وتعالى لاقدرة لها على القيام والحركة بنفسها وهي مخلوقة ولها أجل مسمى ولها مبدأ ونهاية، وعقيدة المسلم أن الله تبارك وتعالى خلقها من العدم وأنه سينهى هذا الكون في وقت حدده بعلمه ثم يعيد خلق هذه الأكوان مرة أخرى، وأن هذه الأفلاك والكواكب كلها مسخرة لخدمة الإنسان متحركة بإرادة الله ليست معبودات تعبد وليس لها إرادة في منع أو عطاء، وليس لها تداخل في نظام الكون من ناحية حساب معين أو تدخل في حظوظ المخلوقات، ومن قال سقينا بنوء كذا فقد أشرك بالله، كذلك فنحن منهيون عن تقليد الطبيعة أو صنع ما يشابهها أو تزيينها، وكل ما قاله الفلاسفة الماديون عن قدرة الإنسان على صنع كون إذا ما أعطوا المواد الأولية كاذب ومردود، وأنه لاسبيل للإنسان إلى صنع مثل هذا الكون ﴿ فارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ .

ولقد عرض القرآن الكريم صورة حية للطبيعة غاية في الروعة: روعة البيان وروعة الحكمة سبيلاً إلى الغاية الكبرى في ترقية مستوى الإنسان الروحي والنفسي بالكشف عن هذا السر الخالد.

هذه الطبيعة بأبعادها المتصلة بالكون وبالإنسان وبالحياة الأخرى معروضة في صورة «مجردة عن الأساطير، متحررة من الخرافات».

هذه الطبعية التي خلقها الله للإنسان ومنحه حق الانتفاع بشمسها ونهارها وسلوك طرقها وتعميرها واستخراج كنوزها، هذا السحاب المسخر بين السماء والأرض

ينزل الماء فتحيا الأرض وتخرج ثمارها، وهذه الشمس والقمر والنجوم مسخرات ولتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر.

وهذا البحر الذي سخره الخالق تبارك وتعالى لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وهذه الجبال الرواسي التي أقامها الله على الأرض حتى لاتميد بكم وعلامات وبالنجم هم يهتدون.

وبعد أن فصل ذلك كله، دعا الإنسان إلى التفكير والتأمل والنظر: هل من خالق غير الله، هذا الخلق المتقن، وهذه الصنعة البارعة، أين منها هذا الإنسان، أين من تلك الجبال الشم العالية وتلك السموات والنجوم، وهذه البحار العميقة، وقد أعطاه الحق تبارك وتعالى أمانة الحياة وسخر له هذا كله ليركب البحر، والجو، وليستخرج من الأرض كنوزها ويغرس شجرها، ويستنبت ثمارها ويبني تلك الجواري في البحر ولقد أعطاه العقل والإرادة ليذلل هذا الكون كله فيكون قادراً على امتلاكه والسيطرة عليه وإدارته، ثم هو بعد ذلك كله مسئول عن هذه الأمانة وفي هذا يقول الأستاذ محمد المبارك: «وهكذا جاء الإسلام بنظرة إلى الطبعية والكون والحياة شاملة ممتدة الأفق، متحررة من خرافة العصور السابقة وخيالية المذاهب الفنية والفلسفية تحيط بالفكر والعاطفة والعقل والقلب.

وكذلك أزال القرآن ما بين الإنسان والطبيعة، من عوائق، كان الاعتقاد بها يحول بينه وبين صحة النظر وصدق الفكر، فغدت الطبيعة عريانة متجردة، إنها طبيعة يستطيع العقل إدراكها فهي معقولة مطردة الأسباب منظمة الحوادث وكذلك موقف الرسول من الشمس عندما كسفت يوم وفاة ابنه إبراهيم: فقد خرج غاضباً يجر رداءه، ودعا الناس إلى المسجد وقال لهم: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتكسفان لموت أحد».

وخلص الإسلام البشرية من تصورات الجاهلية التي كانت تقول إن للشيطان على البشر سلطاناً وإن الجن يتصرفون في الكون لأنهم شركاء الله، وأن الملائكة أرباب أو بنات له، دحض القرآن ذلك كله وكشف عن زيفه ونهى عن اتخاذ الملائكة أرباباً

ووصفهم بأنهم عباد مكرمون، ونهى عن اعتبار الجن شركاء لله.

وإذا استعرضنا كل ما ورد في القرآن الكريم في وصف الكون ومشاهده وحوادثه لانجد أثراً للتداخل خارج عن الطبعية ولا لأسباب غير تلك التي أودعها الله فيها : فالرياح تسوق السحب،والسحب تتراكم فيتقاطر الماء من تراكمها،ويهبط الماء إلى الأرض فيسقى الزرع،أو يسلك في باطن الأرض ثم يخرج ينابيع تسقى النبات،والنبات يكبر ويثمر ويهيج،ثم يذبل ويكون حطاماً.

فهل في هذا العرض تدخل لغير قوة الله الخالقة المدبرة لهذه القوانين والسنن المطردة.

ولم يذكر القرآن ناحية من نواحي الطبيعة إلا ذكر معها فائدة للإنسان منها ويجمع ذلك ما ورد في سورة لقمان:

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ .

لقد أزال القرآن ما بين الإنسان والطبيعة من حواجز وسلطه عليها ودفعه إلى استثمارها فكان بذلك مجافياً لنظرة التزمت المخالفة للفطرة الطبيعية،ولذلك أطلق القرآن على متع الطبيعة والنعم المبثوثة فيها ألفاظاً محببة،فسماها تارة بالطيبات وأخرى زينة الله،واستنكر موقف المبتعدين عن استثمارها والاستفادة منها.

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ واعتبر ما في الكون نعماً من الله على الإنسان.

فالكون والطبيعة إذن في نظر الإسلام مسرح واسع للتفكير وهدف للتسخير والاستثمار وموطن للجمال والمتعة.

والمعروف أن الكتب الدينية قبل القرآن لم تعط عن الكون فكرة واضحة أو مفصلة،ولقد كانت نظرة العرب مبعثرة مجزأة، تشوبها الخرافات والأساطير، أما نظرة اليونان فكانت مضطربة غاية الاضطراب بعيدة عن روح الواقع والتجربة.

ولا شك أن نظرة الإسلام: أكثر عمقاً وأوسع أفقاً،وليس في الإسلام أولية وسابقة للطبيعة على الفكر أو للفكر على الطبيعة، ويرى الإسلام أن مثل هذا جدل عقيم.

(٢)

إن أكبر معطيات الإسلام للبشرية: هو تجاوز النظرة المادية في الطبيعة والحياة والإنسان إلى أبعاد الكون الواسعة إلى الله الخالق القدير، والكون في نظر الإسلام كما بدأ من الله فهو ينتهي إلى الله وبذلك تختلف نظرة الإسلام عن نظرية كلا الفريقين: الماديين والروحيين على السواء، فالماديون يحددون نظرتهم بحدود الكون المادي ويقفون عند علاقة مادة جافة غير أخلاقية، أما الروحيون فإنهم يذهبون بعيداً، أما نظرية الإسلام فهي واقعية ثابتة، مستمدة كنقطة البدء فيه اوالنهاية من الله تبارك وتعالى الخالق المبدع،فهي في كل حالة من حالاتها تذكر الله منزل المطر ومجرى السحاب، وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وأهم مزايا النظرة الإسلامية الفصل شبه التام بين عالم الشهادة وعالم الغيب والإيمان بأن لكل منهما آفاقه ووسائل إدراك حوادثه وإدراك حقائقه، أما عالم الشهادة فعن طريق العقل والنظر والسمع وأما عالم الغيب فعن طريق الإيمان بالوحي.

ونظرة الإسلام الغيبية تتضمن الإيمان بالله الخالق وبالحياة الأخرى، وبذلك العالم الآخر الذي يخفي على حواسنا ولكنه موجود.

وأبرز ما تمثل النظرة الإسلامية إلى الكون أن يرد إلى الله الأمر كله،فالإسلام ينهى المسلم عن أن ينسب فعل الله إلى غير الله وهو يأثم أكبر الإثم إن فعل، من مثل ما يقال إن الطبيعة فعلت وصنعت، والطبيعة مخلوقة لله.

وعن الله عز وجل قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب أما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب.

ولذلك نُهِيَ المسلم عن أن يقول: إن الطبيعة منحت أو الطبيعة حرمت، فما النوء الذي كانت العرب تنسب له المطر إلا مظهر من مظاهر ما تعود الفرنجة أن يسموه بالطبيعة.

وقد تنبه كثيرمن العلماء الغربيين إلى هذه التفرقة الواضحة بين مفهوم الإسلام للطبيعة ومفهوم الفكر الغربي وفي هذا يقول دكتور البرت ديتريش تحت عنوان نظرة المسلم إلى الطبعية: إن الطبعية للمسلم مجموعات المخلوقات بأسرها وقوانينها مظاهر تتجلى فيها إرادة الله خالقها لذا كان يتهيأ أن يقود التبحر في فهمها والإطلاع على دقائقها واستكشافها إلى معرفة إرادة الله تعالى على أحسن السبل وقد نتج عن نظرة المسلمين هذه خير للعلوم وقد لاقت في القرآن والحديث حافزاً، فكلاهما يدعو المؤمن إلى تأمل الطبيعة فيرى من خلال نظمها وقوانينها عمل الله خالقها، وإذا سمع المسلمون قول النبي «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» فهموا حالاً من ولاته أن استقرار الأدوية وطرق العلاج هي إسهام في إتمام مشيئة الله فكان أن تقدست الأبحاث الطبية وهذا القول يصح في بقية العلوم.

ومما يتصل بمفهوم الإسلام للطبيعة حقيقة كبري هى مقدمة كل الحقائق وهو إن ما عرفه الإنسان من سنن الكون في هذا العصر ليس معناه أن هذه السنن جديدة بميلاد معرفتها، ولكنها قديمة وقائمة وحية ومتفاعلة منذ عصور طويلة، ولكن الإنسان لم يخترع شيئاً ولكنه اكتشف هذا الشيء، والإنسان لم يخترع الغلاف الجوي للأرض ولكنه اكتشفه واكتشف معه أنه يستطيع أن يحمل الصواريخ والطائرات، ولقد كان هذا الغلاف الجوي بكل إمكانياته المتاحة موجوداً منذ بدء الخليقة، ولكنه كان فوق قدرة العقل فلم يستطع أن يصل إليه ثم زادت قدرة العقل واتسع فأصبح الطيران شيئاً يقبله العقل، وكذلك الأمر في كل معطيات العلم التي تبدو الآن وكأنها بسائط ولو أنها قيلت للأجيال السابقة لعجبوا لها وسخروا من حدوثها، ليس هذا هو قدرة العلم ولكنها «قدرة اله» فالعلم لم يخترع أمواج الأثير ولم يضع في خاصيتها نقل الأصوات من مكان إلى آخر، ولكن ذلك هو خلق الله منذ خلق الأرض ولكن

العلم والعقل اكتشف هذا فقط، كذلك فالعلم لم يخترع القنبلة الذرية فهناك تفجر ذري منذ خلق الله السموات والأرض وهو الشمس، ولكن العلم اكتشفه، إنها قدرة الله التي صنعت وعلم الله الذي أوجد ثم هي إرادة الله التي أتاحت للإنسان أن يكتشف هذا السر أو ذلك ﴿ وما أوتيم من العلم إلا قليلاً ﴾ ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ .

وليس أجمل في هذا المقام من أن نذكر ما قاله جيمس أبردين زائر القمر: فقد قال أحسست بأن الله مد يده وساعدنا في رحلتنا، منظر الأرض من الفضاء بحجم كرة السلة ثم رأسها كبدر، رأيت القارات على سطح الأرض بجمالها الرائع وبالألوان الطبيعية الموجودة على سطح الأرض ورأيت البياض الناصع الذي يلف الكرة الأرضية، وقد ظلت تصغر وتصغر حتى أصبحت بحجم حبة الزيتون.

ولقد زادت الرحلة إيماني بالله ورسخت في نفسي الإيمان بوجوده في كل مكان وليس في الأرض أو القمر فقط وإن الإنسان مهما بعد عن الأرض فإنه يشعر بأن الله موجود هناك يجيب الدعوات».

(٣)

وهكذا نحن نجد أن الحقائق العلمية التي تتناثر كل يوم، إنما تضيف قوة إلى إيمان المؤمنين وتقدم عن طريق العلم والمنهج العقلي حججاً جديدة دافعة على وجود الله، تكون حجة على أهل البغي والإلحاد وليزداد الذين آمنوا إيماناً.

وعندما تقرأ ما وصل إليه العلم عن طريق المجاهر والتلسكوبات عن الفضاء والنجوم والكواكب والمجرات يداخلنا العجب في سعة الكون وفي قدرة الله بل في ازدياد هذه الكواكب ونموها المتزايد مما أشار إليه القرآن الكريم في قوله: ﴿ وإنا لموسعون ﴾ فالمجرة الواحدة تحتوى ما يقرب من ١٥٠ مليون نجم ومن المجرات الآن ما أصبح يرى يزيد على ١٥٠ مليون مجرة، والضوء ينطلق بسرعة ١٨٦ ألف

ميل في الثانية والمسافة التي يقطعها الضوء في سنة يسميها العلماء سنة ضوئية، والمسافة بيننا وبين أقرب النجوم: أربع سنوات ضوئية (أي أن أبعد النجوم عنا داخل هذه المجرة القريبة = ٢٢٠ ألف سنة ضوئية).

عالم يفوق الخيال وبلا نهاية.

وإذا قرأت مثلاً أن العالم (رون برواند) أعلن أنه وثلاثة من زملائه اكتشفوا لأول مرة سحابة من الغاز تتكون من مادة أساسية في خلق الحياة ويبلغ حجمها (٥٠٠ ضعف) حجم المجموعة الشمسية كلها، ولكن وزنها يزيد عن وزن الكرة الأرضية وأن هذه السحابة تبعد عن الأرض التي نعيش فيها ٣٠ ألف سنة ضوئية، هذه المادة أو الجزيء كما يطلق عليها العلماء قد ساعد منذ ملايين السنين في خلق الحياة من نبات وحيوان على الأرض وأن هذه السحابة في طريقها الآن للتكثف والتركيز لتتحول بعد عمر طويل إلى نجوم وكواكب جديدة مثل الأرض، إذا قرأت هذه ذكرت قول الله تبارك وتعالي:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

وعندما تسمع هذه المعادلة يتولاك الدهش: أن قشرة الأرض قريبة إلى مدى عشرة أقدام وأن المحيط لو كان أعمق مما هو بضعة أقدام لما كان لدينا أوكسجين ولا نبات وقد رأينا الأرض تدور كل أربع وعشرين ساعة وأن هذا الدور لو تأخر لما أمكن وجود الحياة، ولو زادت سرعة الأرض حول الشمس أو نقصت لتغير تاريخ الحياة أن وجدت تغيراً تاماً، وأن هذه الشمس لو كانت قريبة من الأرض أكثر مما هي الآن لاحترق الزرع والنبات ولو كانت أبعد قليلاً لمات الزرع والنبات من البرد، وأن الغازات التي بالهواء تصل إليها بنسب دقيقة، وأن أقل تغيير فيها يكون قتالاً.

ولو علمنا أن سقف الأرض (أي غلافها الجوي) الممتد إلى علو نحو ألف كيلو متر فوق سطحها، هذا السقف يمسك الهواء بقوة ومن خصائص الهواء ميله الشديد

للهروب والانطلاق، وأن حفظ الله للأرض بهذا الغلاف الجوي يؤدى من الخدمات أو الآيات مالا يمكن حصره، فالهواء فيه الأوكسجين اللازم للنفس وفيه ثاني أكسيد الكربون اللازم للنباتات ومنه ينزل المطر وفيه يسرى الصوت،ومن أين لهذا الغلاف الجوى أن يحفظ سطح الأرض من وصول الأشعة الكونية والأشعة فوق البنفسجية ويحمى أهل الأرض من برودة الفضاء الكوني القاتل كما ينظم درجات الحرارة على الأرض ويجعلها داخل حدود لاتفنى معها الحياة وليس لكوكب آخر في مجموعتنا الشمسية غلاف كوني كغلاف الأرض، ولا غلاف مائي كبحر الأرض وهما يؤديان من الوظائف العظمى ما جعل الخالق تبارك وتعالى يقسم بهما في سورة الطور إشارة لأهميتهما: ﴿ والسقف المرفوع والبحر المسجور ﴾ .

هذا هو بعض ما تفتق عنه العلم الحديث وهو كاف وفوق الكفاية لذوي الألباب في معرفة الله والإيمان به واليقين الذي لايعتريه شك ولا ريب في أن ذلك كله خلق الخالق: في اتفاق وإحكام وتقدير وأنه سبحانه وتعالى خلق الكون من العدم وأنه يديره لحظة بعد أخرى وأنه يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴿ لاتأخذه سنة ولا نوم ﴾ ومن هنا ينكشف لنا فساد نظريات الصدفة، ونظريات الطبيعة الجامدة المنفصلة عن الخالق.

وإذا كانت نظرية الصدفة قد قال بها العلم في القرن التاسع عشر فإنه قد تراجع عنها اليوم بعد انفلاق الذرة ولكن الخطر هو خطر الفلاسفة الماديين الذين لايزالون يتمسكون بها بعد أن زيفها العلم، يقول: كريس موريسون من كبار العلماء في كتابه (العلم يدعو إلى الإيمان).

أكثر من دليل ينفى الصدفة عن الخلق ويعدها من عبث التفكير الذي لايجمل بالعلماء والدارسين،لأنه لايصح أن يصدر عن أبسط العقول تفكيراً وأقلها قدرة على البحث والاستنتاج،فالشمس لها درجة معينة من الحرارة ولها بُعد معين عن الكرة الأرضية، هل هذه صدفة، لو ازدادت درجة الحرارة بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة فإن كل ما على الأرض من نبات يفنى وكل إنسان يموت احتراقاً أو

تجمداً وللقشرة الأرضية سمك معين ولو كانت أسمك مما هي عليه ببضعة أقدام لامتصت ثاني أكسيد الكربون ولما أمكن وجود النبات الذي عليه تتوقف دورة الحياة أ.هـ.

وهذا تجاوب مع قوله تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ وليس أبلغ من ترابط الخلق بين الطبيعة والإنسان في قول العلماء:

إن العين لها شبكة تتلقى الصور والمرئيات والشمس تبعث أشعتها إلى الأرض لتكمل دور شبكة العين فتحقق لها الرؤيا، ليس هناك صدفة، بل قصد واع وتدبير محكم، في عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات.

ولقد أشار دارون في كتابه حياة ورسائل: إلى هذا المعنى وبه يدحض من حاولوا نسبة القول بالصدفة إليه حين قال:

إن ثمة مصدراً آخر للاعتقاد في وجود الله يرتبط بالعقل، وله في نظري أهمية أكبر بكثير من المصادر المتعلقة بالمشاعر والأحاسيس،وهذا المصدر يأتي من الصعوبة البالغة أو بالأحرى استحالة تمثل هذا الكون الفسيح الرائع الذي يشمل الإنسان بقدرته على النظر إلى الماضي البعيد وإلى المستقبل البعيد أيضاً. على أنه ظهر نتيجة للمصادفة، وحين أفكر بهذه الطريقة أشعر بأنه لابد لي من البحث عن علة أولى لها عقل بصير وهذا يعطيني الحق في أن أوصف بأني مؤمن بالله».

ومن ذلك كله نصل إلى صحة مفهوم الإسلام وخطأ نظرية الصدفة. كذلك خطأ نظرية (أزلية الكون) إذ أن كل شيء مخلوق له بداية ونهاية، والكون مخلوق لله.

ولعل أعظم ما يدعو الإسلام إلى الاعتصام به في مجال دراسة الطبيعة والعلم كله أن معرفة القوانين والنواميس والسنن لاتغنى عن تأصيل نسبها، ونسبتها إلى صانع الطبيعة وخالق الكون ومنشئ القوانين: هذا الإله القادر الخالق، والذي له وحده خرق هذه القوانين وتعطيل مفعولها إذا شاء.

وهنا نجد أنفسنا إزاء مفهوم آخر أشد خطورة وخاصة في مجال الأدب والفن: تلك هي نظرية المحاكاة وما يتصل بها من وجهة نظر الفلسفة اليونانية عن الفرق بين الجمال الطبيعي والجمال الفني.

وهي نظرية ترمى إلى تعليق الطبيعة الربانية ومحاولة مضاهاتها أو ادعاء التفوق عليها أو تصوير الناس بصورة خيراً مما هم في الحقيقة أو شراً مما هم فيه سواء عن طريق الشعر في باب المدح أولاً أو في باب الهجاء ثانياً.

كذلك ما يتصل بالفن ومحاكاة واقع الحياة، أو رسم الحياة بصورة مطابقة أو مخالفة للأصل الذي نراه في الواقع، ويرى أرسطو أن أساس الفن هو المحاكاة.

وتتعدد الآراء والمذاهب منذ أرسطو إلى اليوم حول علاقة الفن بالطبيعة وتحاول أكثر الآراء رفض الطبيعة وإعلاء شأن الفن دون أن يكون في قدرة هؤلاء جميعاً باحثين وفنانين إلى إلقاء نظرة مؤمنة تخشع لها القلوب إزاء صنع الله وقدرته العالية التي تتمثل في الطبيعة والخلق جميعاً كما تحاول بعض الآراء عبادة الطبيعة وتمجيدها دون تقدير مفهوم العلاقة بين عبادة الله وحده والتدبر في خلقه مما يحقق للنفس المؤمنة تقدير صنع الله.

أما وجهة النظر الإسلامية في علاقة الفن بالطبيعة فهي بعيدة عن كل هذا الاضطراب، حيث تبدأ من نقطة الإيمان بالله خالق الطبعية وخضوع الفن لهذا الإيمان.

فالإسلام يحرم تحريماً قاطعاً النقل عن الطبيعة، انطلاقاً من مفهوم التحرر من عبادة ما سوى الله، وانتقالاً بالبشرية من عصور الوثنية إلى عصر التوحيد الخالص.

وبهذا يرفض المفهوم الإسلامي نظرية المحاكاة أو التقليد، ويتجه إلى أفق التجويد والتعبير غير المباشر عن العلاقة بين الفن والطبيعة.

وقد تحقق ذلك بالنهج الذي اختطه الفن الإسلامي، التعبير عن طاقاته الفنية،

في مجال الخطوط وطرز الأشكال التجريدية الهندسية، وقد جرى هذا في نفس الوقت الذي آمن فيه الفنان المسلم بنظام الله وقدرته وفي هذا يقول الدكتور عماد الدين خليل: «إن الفنان المسلم يحمل ما يمكن أن نسميه موقفاً عادلاً ومزدوجاً تجاه قضية الفن والطبيعة يحمل رفضاً للنزعة الشيئية المباشرة التي عبرت عن نفسها بالمذاهب الواقعية والطبعية لأنها تقوده إلى التقليد والنسخ وتقضى على الإبداع والابتكار، ولأنها تخضع عنق الإنسان لقوى الأرض وطينها وتمنعه من التطلع إلى السماء، إى الآفاق البعيدة، إلى ما وراء الملموس والمنظور لأنها تحيله إلى آلة رصد وتسجيل وتصده عن تفجير إرادته وإبداعه لصياغة مادة الأرض فوق ما يطمح ويتذوق وما يشتهى، كما أن هذه النزعة تقوده بالضرورة إلى الإذعان لفكرة أن التخبط في الوحل والتمرغ في القمامة والركض وراء نداءات الجنس والطعام هي القضايا الأساسية وربما الوحيدة التي يجب أن يدلى الفن بدلوه فيها، وأن لايبعد عنها إلى آفاق أكثر نأياً عن حدود الواقعية والطبعية، إلا أن الفنان المسلم يحمل من جهة أخرى قبولاً لقيم الطبيعة وانسجاماً مع نواميس الكون: ونظمه وعناقاً لقدر الله وقضائه وفرحاً واستبشاراً بحكمه وركضاً إلى مصائرنا المجهولة وأحلامنا المشتهاة.

وحقيقة موقف الإسلام من علاقة الفن بالطبيعة هي فيما يأتي:

أولاً: ينطلق الفن الإسلامي من توحيد الله المطلق والشعور بالتكامل بين مخلوقاته والفنان المسلم لاينافس خلق الله ويرفض رفضاً تاماً ما يراه الفن الغربي الوثني من نقائص يتوهم أنه يستطيع إتمامها، والفن الإسلامي لايرفض الطبيعة ولا يعبدها، ولا يؤمن بأنه يستطيع أن يتفوق عليها ويرى ذلك مخالفاً تماماً لعقيدته وإيمانه في قدرة الله التي لاتباري والتي تقف البشرية أمامها موقف العجز الكامل، فالفنان لايستطيع أن يكون خالقاً، ولا جوز له أن يكون مقلداً للطبيعة»وليس هناك أكبر خطأ من القول بأن الطبيعة قاصرة وأن الإنسان يستطيع أن يكمل نقصها كما يقولون، إذ ليست الطبيعة بكل أشكالها سوى صور من خلق الله وقدرته الفذة المعجزة.

ولعل هذا الانحراف إنما يرجع إلى فساد الفطرة وعجز العقلية المادية من صحة النظر إلى الطبيعة والحكم عليها،وفي الطبيعة ملايين الصور المتجددة المتغيرة التي تشهد بقدرة الله التي لا حد لها وبالإعجاز الرباني في لوحات الطبيعة التي يعجز الفنان مهما كانت مقدرته عن تقليدها أو محاكاتها:

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

إن الفرق بين نظرة الإسلام الطبيعية ونظرة الفكر الغربي تتمثل في عاملين هامين:

الأول: التكامل الجامع الذي يمثل النظرة الإسلامية.

والثنائية والانشطار والذي تمثل النظرة الغربية.

والثاني: الإيمان بالله الواحد، واعتباره نقطة البدء في منطلقات الفكر والحياة والكون وإسلام الوجه له في عظيم صنعه والنظر إلى الطبيعة على أنها كتابُ الله الصامت وآيته الكبرى التي تهدى إلى الحق، ومن هنا فإن الفن والأدب ينطلقان إلى غاية موحدة بعيدة عن الوثنية والمحاكاة، منفصلة تماماً عن رفض الطبيجعية أو عبادة الطبيعة أو محاكاة الطبعية فالطبيعة لله والأدب والفن لله، ومن هنا لايقع الكاتب المسلم أو الفنان المسلم في مدلهمة الصراع الوثني الخطير.

كذلك فإن المفهوم الإسلامي يرفض النظرية الغنوصية: التي تعتمد في تفسير الطبيعية على الرياضيات، ومنها تتصل بنظرية وحدة الوجود الفاسدة التي تنكر وجود الله تبارك وتعالى الفرد المنفصل عن الكون.

وهكذا نجد أن مفهوم الإسلام يرفض التفسير اليوناني المنطقي والمشائية الأرسطية والاتجاه الغنوصي الفيثاغورثي الذي يجرى في ركاب الفلسفة الباطنية،

ويرفض مفهوم الإسلام نظرية الفيض الأفلوطينية والنظرية الإشراقية أيضاً ويصدر عن مفهوم قرآني رباني قائم على التوحيد الخالص بعيداً عن تفسيرات ابن سينا والفارابي والحلاج وغيرهم من ناحية وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وهرمس جميعاً.

وذلك إيماناً بأن مفهوم الإسلام القرآني القائم على التوحيد هو وحده الذي فتح الطريق أمام العلوم التجريبية وأن ثمرة العلوم هي معرفة الله سبحانه والإيمان به وإسلام الوجه له، والتماس سبيل العمل والكسب في الحياة وفق منهجه الأصيل لقيام المجتمع الرباني في الأرض: أمانة الإنسان ومسئوليته وجزاءه، «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» وإن الحياة الدنيا هي دار عمل وتحصيل واستعداد وتأهل لحياة أخرى أعظم منها هي ثمرة هذه الحياة الدنيا وحصيلتها ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار﴾ .

وإن بناء الكون قائم على رحمة الله، وإن رحلة الناس في هذه الدار هي التعرف على سر رحمة الله وخلقه وأن هذا البناء قائم على إرادة الله الحق والخير وأن ما يبدو فيه من القبح هو مما كسبت أيدى الناس ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ .

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ﴾ .

وبالجملة فإن القرآن ينظر إلى الطبيعة: تلك النظرة الموضوعية المتحررة من الأساطير، الرابطة للحوادث، الناظمة لها في سببية عامة، وهو يلفت نظرنا إلى الخلق الأول والنشأة الأولى ويضعنا أمام اعتقاد لامحيص عنه هو أن هذا الكون الدقيق العظيم المنظم المطرد لم يوجد مصادفة ولا عبثاً ولكنه منبثق عن قوة خالق حكيم عليم خبير، «وأن إلى ربك المنتهى»

ولا يقف القرآن بنا عند النظرة المادية إلى الكون بل هو يدعونا إلى الانتقال من الكون إلى موجده ومن الإنسان إلى خالقه ومن الدنيا إلى الحياة الأخرى، ويجعل الفكر والذكر هما أكبر معطيات الإنسان لينظر في الكون وفي نفسه فيعرف ربه

فيؤمن به ويعلن عبوديته الخالصة لله ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ﴾ وتكون عبادته في خلقه، عدالة ورحمة وعطاءً وخروجاً من النفس، وانتقالاً من الأنانية إلى الغيرية ومن الانتقام إلى المغفرة، تسامياً وارتفاعاً عن مادية الإنسان إلي روحانيته ومن أرضيته إلى سمائه العليا وهي الدار الآخرة.

(٤٨)

الفـــــــن

يقوم المفهوم الإسلامي للفن على استحالة التناقض مع الفطرة فإذا كانت الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة دين الإسلام في شيء فإذا خالفت الفنون الدين في أصوله ودعت صراحة أو ضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها وعاقت الإنسان عن أن يعمل بالفضائل التي جاء الدين لايجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح، إذا خالفت الفنون الدين في شيئ من هذا أو في شيء غير هذا فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليهاالناس والخلق (محمد أحمد الغمراوي).

مفهوم الفن في الاسلام يقوم علي أساس أنه عنصر من عناصر الفكر يتكامل مع الادب والاجتماع والأخلاق والدين والحضارة، وهو في الإسلام له طابعه الأصيل الواضح المباين لمفهوم الفن في الثقافات والحضارات الأخري، وقوامه الأخلاق وطابعه التوحيد يتسامى بالغرائز ويرتفع بالنفس الإنسانية إلي الكمال دون أن يبعد عن الواقع والفن في نظر الإسلام أداة تجميل الحياة ووسيلة الإسعاد الروحي والنفسي بتحرير الإنسان من عالم الأهواء والغرائز وإطلاقه في نظرة حرة إلى الكون والوجود يعرف فيها قدرة الله وعظمته ويزداد بها إيماناً.

وقد كان الفن اليوناني بطابعه المادي الوثني يجعل الأولوية للتماثيل المجسمة، إعجاباً بالأجساد وعبادة لصور الجمال ومظاهر القوة،ولكن الفن الإسلامي مستمداً من مقوماته الأساسية يجعل البيان والشعر والأدب في مقدمة قائمة الفنون، الكلمة البليغة والفكرة الموحية، وذلك انتقالاً من عالم المادة إلى عالم الفكر، فالتأمل أوسع العوالم، والتفكر في خلق الله أعظم معطيات العقل والروح: ﴿ ن * والقلم وما

يسطرون ﴾ وبذلك أصبح رائد الفن: البيان الذي يتمثل في أسمى صورة بالقرآن الكريم وبذلك رفع الإسلام الفكر البشري إلى الأمام انتقالاًمن مفهوم الماديات في الفن إلى مفهوم المعنويات، وسلك المعنويات والماديات في إطار جامع متكامل، وبذلك فقد حرر البشرية من مفهوم المادية الخالصة التي تقدس الجسد والشهوات والغرائز والوثنيات وتقيم لها المهرجانات والطقوس، ودفع البشرية إلى الانتقال من تجسيد البطولة في صورة مادية إلى تكريم عمل الإنسان نفسه.

أبرز سمات الفن في الفكر الغربي لاتجد في مجال الفكر الإسلامي مجالاً لها.

أولاً: المسلم لايعبد الجسد الجميل عبادة وثنية بحيث تقدم له القرابين وكل ما يتصل بذلك من أساطير الحب والجمال عند الأغريق وهي حافلة بالمباذل لاتجد في أفق المجتمع الإسلامي قبولاً.

ثانياً: الإسلام لايقر الصراع بين الآلهة والإنسان أو بين القدر والإنسان، على النحو الذي يقوم عليه الفن الغربي، ولا يؤمن المسلم بأن الإنسان يثبت ذاته بمصارعة القدر والآلهة ولا بأن البطل الصالح يتحطم على يد القدر والآلهة وكل هذه المعاني المأسوية مستمدة من فكرة «الخطيئة» الأصيلة.

ثالثاً: المسلم لايؤمن بتعدد الآلهة ولا تجسيد الإله في صورة وثن حسي ملموس كالتماثيل العديدة في العقائد الغربية، في ذلك الخلط العجيب بين المسيحية والهلينية.

رابعاً: المسلم لايؤمن بعبادة الطبيعة أو المحسوسات.

ومن هنا فإن مفهوم الفن في الإسلام محدد من كثير من هذه القيم التي يقوم عليها الفن الغربي والتي تتعارض أساساً مع الإيمان بالله الواحد.

٢- كذلك فإن الإسلام لايقر تجسيد البطولة في صورة مادية، ليس فقط حفاظاً على مفهوم التوحيد من خطر الاتصال بالتماثيل والأصنام التي كانت تمثل عبادات ما قبل الإسلام، ولكنه ارتفاعاً بالنفس الإنسانيه من أن تتمثل في مفهوم مادي،

بينما جاء الإسلام محرراً للبشرية من التجزئة بين الماديات والمعنويات.

والفنان المسلم له طابعه المبدع،متحرراً من الخضوع للمذاهب الوثنية التي تقوم بتقليد الطبيعة أو التفوق عليها، ولذلك فهو قد طرق آفاقاً أخرى غير هذه الآفاق، في التعبير عن المعاني فأوجد أنواعاً من الخطوط والدوائر والزخارف والوحدات المتشابكة والمتداخلة.

وقد أبدع الفن الإسلامي في مجال رسوم الحيوان والطير، وتصوير الأحياء، وغزا الفنان المسلم جميع فروع الفن الإسلامي من مخطوطات وأخشاب وعمارة وزجاج ومعادن وعاج وزخرف ومنسوجات كما زينوا كتب العلم والأدب والدين والتاريخ بصور تفسر بعض ما تتضمنه من بحوث وأحداث، وقد خلق الفنان المسلم من الحروف العربية ذات الأشكال المتباينة والأوضاع المختلفة طرازاً زخرفياً يتمثل فيه الجمال والقوة، وأقام فن (الرقش) أو الأرابسك على وحدات متناسقة على نحو غاية في البهجة والرونق الجميل.

وهكذا حقق الفن الإسلامي مذهباً جديداً مستمداً من حقائق الإسلام، فكان فناً منطلقاً وتجريدياً معبراً وليس جامداً، وأن المرقشة في الفن الإسلامي حيث لا مبدأ لها ولا منتهى، إنما تتمثل مفهوماً من مفاهيم التوحيد لأنها تسعى وراء الله الذي هو الأول والآخر ومنه تنتهي الأسباب وإليه تنتهي المسببات،والرقش حين يمتد بلا نهاية إنما يسعى وراء الصورة المثلى،وهذه اللانهائية إنما تحمل دلالات هامة للروح الإسلامية التي آمنت بالله غير المنظور وغير المحدود وإليه اتجهت قلوب المؤمنين لترتفع إلى مستوى هذا المثل الأعلى عن طريق العمل الصالح أو طريق الاجتهاد والإبداع (بتصرف عن بشر فارس ومحمد عبد العزيز مرزوق).

وينطلق الفن الإسلامي من مفهوم الفكر الإسلامي الذي «يرتكز إلى حد بعيد على القاعدة والعقل ويبتعد عن الهوى والأسطورة والارتجال» ولقد كان قبول الفن الإسلامي لنظام التوحيد مصدر المحافظة على الوحدة والمتانة والشخصية وبقيت بذلك الروح الإسلامية هي المنبع الأساسي للمصادر الجمالية والدلالات العميقة

للمشاعر المبدعة.

٣- وقد شهد جوستاف لوبون وبرجسون وهاملتون جيب على أن الفن الإسلامي يحمل شخصية مستقلة متماسكة جديرة الإعجاب، وأن الحد الذي وقف عنده الفن الإسلامي في إبراز عملية الخلق هو حد (الإسلام) الذي جاء على مبدأ التوحيد ولذلك فهو يرفض كل شريك لله في قدرته الخالقة.

وقد أشار الباحثون إلى أن الخط في الفن الإسلامي كالكلمة في الشعر يسير وفق تأثير داخلي من الرسام، فكما أن الشعر يستعمل الكلمة حسب وزن الشعر وقافيته، كذلك الرسام المسلم يكيف الشكل وفق صيغة موزونة موفقة وبخطوط لينة مناسبة بانتظام تشكل تناظراً مضطرداً بحركة دائمة لاتقف عند حد، واللون في الفن الإسلامي مرتبط بروح الأمة ومناخ الحياة التى تعيشها.

(٢)

يتميز الذوق الإسلامي بعدة ملامح لها أثرها في الفن الإسلامي:

المسلمون لم يخلقوا من الحجارة ما خلقته الأمم الأخرى من فراعنة ورومان من تماثيل وهياكل وأوابد الحضارة الإسلامية لم تسجل بالصخور بل بالأعمال الحية، كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز: يستأذنه في أن يبني لمدينته سوراً. فقال عمر: حصن مدينتك بالعدل، وتمثل الهياكل الرومانية والأهرام، في ظل مفهوم العبودية المرير الذي تحطمت فيه مناكب البشر تحت أثقال الصخور. ولذلك فإن العرب أخذاً من هذا المفهوم لم يتعلقوا بالآثار الضخمة وإنما تعلقوا بالأطلال التي تحمل ريح الأحباب، وفن العمارة الإسلامي لم يتميز بالضخامة مثلما تميز بالجمال والرقة،والذوق العربي لم يتعلق بالتصوير كفن من الفنون الجميلة، لأن الروح العربية (العميقة الاستمداد من الحنيفية الإبراهمية إلى الإسلام في عصر محمد) لاتميل إليه كفن يمسح الأشكال الحية الجميلة بحيويتها ويحيلها إلى صور جامدة، وأن الفن الذي

تعلق به العرب هو «الشعر» لأنه أرضى نزعتهم في الحيوية والاستثارة،والموسيقى امتداد للشعر، وحضارة المسلمين والعرب حضارة أعمال خالدة لاآثار خالدة، وفنونهم فنون عواطف جياشة،لافنون أخيلة جامدة (عبد السلام العجيلي بتصرف).

٢- والفن الإسلامي لايهدر كرامة الفرد ولا يهدر حق الجماعة، ومن النقوش الكثيرة في الإسلام إذا ما نظرت إلى الجزء الصغير وجدت له ذاتيته ووجوده وحدوده ولكن في نفس الوقت يمكن أن يكون جزءاً في كل كبير، وذلك أن الإسلام كما يخدم الجماعة يخدم الفرد، ويوجد هذا التناسق في مجتمعنا الحي بين الفردية والجماعية، كما يوجد في الفن بين الجزء الصغير والجزء الكبير احترام الإسلام للفرد واحترام الإسلام للجماعة في القرآن (عبد العزيز كامل).

(٣)

يرفض الإسلام، النقل المباشر عن الطبيعة وهو ما يطلق عليه في الفن الغربي «المحاكاة».

«فقد قرر الإسلام وأكد التحريم القاطع للنقل المباشر عن الطبيعة، ذلك النقل الفج الذي يعيد نسخ المخلوقات الحية على سطوح الجدران والمعابد واللوحات، وينبثق هذا التحريم من فكرة (التحرر الوجداني) العميقة الشاملة التي أراد بها الإسلام أن ينقل الإنسان من عصور الوثنية والتعبد القريب الملاصق إلى سماوات التوحيد الخالص.

ولما كان إقفال أي باب أمام قدرات الإنسان التعبيرية في أي مجال من مجالات الحياة كفيل بفتح باب آخر للتعويض عن الباب المسدود فقد وجد الفنان المسلم آفاقاً جديدة للفن بعيدة عن ما حرمه الله، وقد جاء هذا التحريم لنقل صور الخلائق والوثنيات نقلاً مباشراً ساذجاً من الطبيعة إلى عالم الفن دون أي قدر من التجريد أو إعادة الصياغة في أمة على أعتاب عصر حضاري - كان يعني أن المسلم

سيفتح أبواباً وأبواباً للتعبير عن طاقاته الفنية بما ينسجم وتصوره الجديد، وفعلاً فتح بعض الأبواب فجاءت طرز الخطوط والأشكال التجريدية الهندسية كما جاءت المساجد بقبابها ومنابرها ونظمها العمرانية الرائعة.

إن رفض الفن الإسلامي إذن نظرية المحاكاة أو التقليد (التي هي أساس الفن الإغريقي والغربي) للنقل المباشر من الطبيعة قد فتح الطريق أمام التجريد وإعادة الصياغة. فالفنان المسلم يحمل موقفاً عادلاً مزدوجاً تجاه قضية الفن والطبيعة، يحمل رفضا للنزعة الشيئية المباشرة التي عبرت عن نفسها بالمذاهب الواقعية والطبيعية لأنها تقوده إلى التقليد والنسخ ويقضى على الإبداع والابتكار، ولأنها تخضع عنق الإنسان لقوى الأرض وطينها وتمنعه من التطلع إلى السماء، إلى الآفاق البعيدة، إلى ماوراء الملموس والمنظور، ولأنها تحيله إلى آلة رصد وتسجيل وتصده عن تفجير إرادته وابداعه لصياغة مادة الأرض وفق ما يطمح، كما أن هذه النزعة تقوده بالضرورة إلى الإذعان لفكرة أن التخبط في الوحل والتمرغ في القمامة والركض وراء نداءات الجنس والطعام هي القضايا الأساسية ربما الوحيدة التي يجب أن يدلى الفن بدلوه فيها.

والفن الإسلامي يؤمن بأنه ليس ثمة عجز في الطبيعة يكمله الفنان، وليست الطبيعة إلا واحدة من آيات قدرة الله التي تنبثق في كل لحظة عن ملايين الصور فهو لايواجهها بالجمود أو يواجهها بالإعجاب بها وإنما يواجهها بالاعتراف بقدرة الله القادر فليست الطبيعة معبوداً كما هي في الفن الغربي وليس الفنان بقادر على أن يصنع ما يضاهيها وليس في تصور المسلم فعل نمائي تقوم به الطبيعة في ذاتها ولذاتها إذ ليست الطبيعة بكل أشكالها سوى صور من خلق الله وقدرته الفذة المعجزة ومن ثم فإن القول بأن الطبيعة عجزت عن الكمال قد توحى بأحد شيئين كلاهما يرفضه تصورنا:

أحدهما: أن الطبيعة مستقلة بذاتها عن أي توجيه خلاق خارج نطاق العالم.

ثانيهما: أن الإنسان قد يتفوق أحياناً على الآلهة أو الإله التي خلقت طبيعة

ناقصة لم تستطع إتمامها فجاء الإنسان لكي يتمها.

كذلك ليس في التصور الإسلامي عصيان وتمرد تقوم به الطبيعة ضد خالقها، كل هذه مفاهيم وثنية ومادية غربية أفسدت مفهوم الفن، والإسلام منها براء، والفنان المسلم لايقول كما كان يقول أرسطو: من شأن الفن أن يصنع ما عجزت الطبيعة عن تحقيقه، بل يقول مردداً قول القرآن عن صانع الطبيعة الله تبارك وتعالى: ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾.

كذلك فإن فن النحت يحمل أيضاً عدداً من المحاذير التي تعود إلى الوثنية، ذلك أن فلسفة الفن في الغرب تنطلق من تصور خاطئ لموقف الإنسان في الكون ولصراع معطياته الخلاقة مع خلق الله،واعتقاده بأن في إمكان أعماله الفنية أن تحصل وحدها على الخلود في عالم فان» يزول فيه الإنسان والأشياء، إن هذه الفلسفة تقودنا هي الأخرى إلى الوثنية بطرفيها: (التعدد) الذي هو ضد التوحيد المطلق والإذعان لقيم وضعية عن طريق التشبث بها علها تمنح الإنسان الخلود بدلاً من الإسلام لله وانتظار وعده العظيم بخلود الإنسان، والفنان المسلم يحذر أن تخطر له يوماً خاطرة أنه في معطياته الفنية إنما ينافس خلق الله أو يسعى جاهداً لإكمال النقائص التي لم تستطع الآلهة إتمامها، كما توهم بعض الغربيين وكأنهم بهذا يحملون حساً وتصوراً طفوليين يعود بنا إلى عصور البشرية الأولى.

فالفنان المسلم لايجاوز طريقه المستقيم وليس في عمله رفض وعداء للطبيعة أو محاولة للتفوق عليها وعلى صانعها وليس له إعجاب بها يتجاوز لحظات الاستغراق والتأمل انتقالاً بالخطأ إلى إجلال الطبيعة أو تقديسها وعبادتها. (عن عماد الدين خليل بتصرف).

(٤)

حظى الخط من عناية الفنان المسلم بنصيب وفير، وكان للخطاطين مركز ممتاز، لقد خلق من تلك الحروف ذات الأشكال المتباينة والأوضاع المختلفة طرازاً زخرفياً تبدو فيه صور من الجمال شتى،بعضها يفيض بالقوة وبعضها يفيض بالرقة والأناقة، أوحت إليه الحروف العربية برؤوسها وسيقانها وأقواسها ومداراتها بعناصر زخرفية ما كان يرسمها حتى تبعث فيه تلك اللذة البريئة التي يحسها الفنان عندما يشاهد آثارها جميعاً، وقد بلغ في «الخط + الزخرفة» شأوا بعيداً قلّ ما يشهد به، إن كلمة «الآرابسك» علم في تاريخ الفن على نوع معين من الزخرفة ابتدعه الفنان المسلم ومجالها رسم الوحدات الزخرفية وتوزيعها والتأليف بينها وتنسيقها ورسم الأزهار والأشجار والأوراق والسيقان والطيور الحيوان.

والبعد عن الطبيعة في الفن الإسلامي ناشئ من تلك العقيدة التي يؤمن بها كل مسلم أشد الإيمان، ذلك أن البقاء لله وحده وأن العالم بمن فيه وما به مآله إلى الزوال ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فليس من اللائق أن يخلد رجال الفن بأعمالهم الفنية ما كتب الله عليه الفناء، وعلى الفنان المسلم ألا يرسم بريشته ما يضاهي به خلق الله (الشخصيات - التماثيل الطبيعية) كأن يرى في عمله كله أن المخلوقات كلها يستوى لديه الحيوان والإنسان والنبات والجماد باعتبار أنها لاتثبت على صورة واحدة بل تتغير من حال إلى حال، وليس لها جميعاً إلا وجود زائل صائر إلى الفناء أما الخالق وحده فهو الحي الباقي.

٢- إن الإسلام لم يستخدم الفنون الجميلة في دعوته كما فعلت الوثنية المسيحية ولم ينكرها كما أنكرتها اليهودية ولكنه أثر فيها ببعض توجيهاته ونظمه (عبد العزيز مرزوق) وهناك قانون الأفقية في الفن الإسلامي: الذي جعل الفنان المسلم

ينفر من الاتجاه الصعودي باستثناء المأذنة التي تشق في سموقها الأقبية الغالية في بناء المسجد، فحين يخطط زوايا يؤثر المنفرجة، وحين يبرز استدارات فإنه يطوقها بإطار مربع، وحين يقيم قباباً فإنه يهتم بتصغير نسبها حتى لاتفسد أفقية البناء بل يوزع تكورها على فصوص أو يقضى عليه بأن يستبدل بها تقاطع العقود أو يهبط به إلى مستوى القبوات. (محمود عبد العزيز سالم).

٣- الخصائص الجمالية في الفن الإسلامي توجد موزعة على جبهات أربع «الخط، اللون، النور، العمق» الخط تأكيد على معنى الرسم ويمتاز الخط في الفن الإسلامي بالوضوح والثبات والانتظام والرقش يمتد بلا نهاية ساعياً وراء الصورة المثلى مؤكداً على بساطة الوجود داعياً بإلحاح إلى الله.

٤- اتجه الفنان المسلم إلى الزخرفة الهندسية: وبعث فيها روحاً بدت في ثوب من الجمال قشيب لم يكن لها قبل الإسلام.

وكان الفنان المسلم يصور دائماً من عقيدة مؤداها: أن الثبات وعدم التغير من صفات الحق وحده دون مخلوقاته التي من شأنها التغير والآية الكريمة: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ تكشف عن السر النفساني الذي تقوم عليه الزخرفة الإسلامية المعروفة باسم الأرابسك: ذلك بأن المسلمين جميعاً يعتقدون بأن البقاء لله وحده وأن العالم بمن فيه مآله إلى الزوال ﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وقد انعكست هذه العقيدة على الفن الإسلامي بأوضح صوره، إذ كان الفنان المسلم يرى أنه ليس من اللائق أن يخلد بفنه شيئاً في هذا العالم الذي كتب عليه الفناء فليست به حاجة إلى تخليد جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلاً صحيحاً ما دامت سائرة إلى الزوال، لذلك كان يأخذ من عناصر الطبيعة ما يريد ثم يهذب ما شاءت له ميوله ومواهبه ثم يكون من هذه العناصر المهذبة زخرفة لا تمت إلى الطبيعة بصلة قوامها أغصان نباتية متشابكة يتفرع بعضها من بعض وأوراق شجر مختلفة يخرج بعضها من بعض وأزهار وفواكه وحيوانات منسقة قد تتخلل الأغصان.

(٥)

مفهوم الإسلام للجمال: أن يكون الجمال معنوياً لا مادياً، وأن تكون الأخلاقية سابقة على الجمالية في الحياة، والجمال المعنوى في مفهوم الإسلام يزيد على جمال اللذة والغريزة، وهو دعوة لكل من يعمل بالأدب أو الفن، أن تكون وسيلة تعبيره عالية، موحية، مرتفعة بالنفس الإنسانية إلي آفاق الخير والإيمان، ولذلك فإن الفن الإسلامي يتحرك داخل إطار أخلاقي تنسجه القيم المعنوية وتحيطه الضوابط عن أن ينحرف،ولذلك فإن الإسلام يقرر التوازن بين الروحي والمادي ويجعل أولوية الخلقي على الجمالي، فالقيم والضوابط مقدمة على النزعة الجمالية الصرفة، حتى يمكن أن يقال إن الثقافة الإسلامية هي ثقافة القيم وهي عكس النزعة الإغريقية، التي أطلقت الجسد العاري وقدمت الجمال المادي على حساب الخلق،ولذلك فالفكر الإسلامي يرفع النزعة الغربية السارية اليوم التي تهدف إلى توجيه الفن إلى إشعال الغرائز الجنسية وذلك بابتكار الألحان المثيرة والرقصات الخليعة والقصة المكشوفة، ويرى أن مهمة الفن هو السمو إلى آفاق النفس وإسعاد «الإنسان» بتحريره من أهوائه وغرائزه، والفن الصحيح يسمو بالأخلاق كما يهذبها ويصقلها، ومن الحق أن يقال إن شعوباً أضاع ذاتيتها وكيانها ومقدراتها لأنها أطلقت الفن من الضوابط الأخلاقية، وفي مقدمة ذلك اليونان والرومان فإنها عندما فصلت الفن عن الدين والأخلاق تسرب إليها الانحطاط ودبت في جسمها عوامل الفناء،ولقد تبين لكل المصلحين أن الفن إذا لم يكبح بلجام الأخلاق يقضى حتماً إلى فساد الأخلاق، وأن الفن إذا كانت غايته الفن وحده فإنه يهدم نفسه ويهدم أمته، ومن هنا كان للقانون الأخلاقي هو أساس الفن الإسلامي، والالتزام الأخلاقي يفرض أن تكون الأخلاقية مقدمة على الجمالية وأن تكون الجمالية في إطار الأخلاق، ذلك لأن قانون الأخلاق هو الديدبان القائم على حراسة المجتمع، ويرى الإسلام أن كل العناصر (أدب وشعر وفن ورسم وموسيقى) لابد أن تتحرك في إطار العقيدة وفي ضوابط الأخلاق، وأن مهمة الفن ووظيفته الأصلية هي تهذيب النفوس، ولذلك يجب أن يخضع الفن للغاية

العليا من وجوده.

(٦)

في الإسلام كل المعطيات تتحرك في دائرة الإسلام الثابتة والمرنة في نفس الوقت والفن واحد من هذه المعطيات يبدأ من نقطة النفع والمصلحة ويتحرك إلى غايته دون أن يكون مطلقاً بغير هدف أو هادفاً إلى غاية غير الحق والخير.

والإسلام لايقر هوايات الترف المطلقة، ولا الوسائل الدافعة إلى الإباحة والانحلال، والفنان الذي لايتحرك في إطار الوجهة العامة «فهو نشاز في جوقة أمته، أو هادم لوحدتها أو خارج على حدود مجتمعها أو مفسد لمثلها الأعلى أو مبلبل لخواطرها».

والعقلية الإسلامية هي عقلية راشدة «تحسن التتلمذ على الطبيعة في تقدير لباب الأشياء ولا تستهويها حياة القشور المزوقة والثرثرة والجدليات، ولا الاستعراضات المسرحية والانطلاق وراء النوازع والشهوات أو التحلل من قيود الاجتماع بحجة الحرية الفكرية».

والإسلام لايقر الصور الفنية المنحرفة التي تزلزل وتفسد عقلية ومشاعر الناس وتأخذهم إلى حياة اللذة والجموح الذي لاتحتمه الحياة العملية، ولا عبرة بتلك العبارات البراقة الخادعة التي ينظمها أولئك الغربيون من دعاة الفن للفن، من أن الفن له مطلق الحرية، أو أن الفن ليس مصلحاً، أو أن الفن تنحني أمامه الحياة فذلك زيف يراد به تقديس الباطل وإعلاء الفاسد، وما دام الفن ليس منطلقاً من الفطرة، مطيعاً للحق والخير فهو باطل وفاسد، والإسلام لايقر إطلاق الفن من قيد الأخلاق أو من دائرة الخير والحق، والفنان ليس مؤهلاً لأن تكون له قداسة من أي نوع، لا هو ولا الأديب أو الشاعر، وليس مطلوباً من الأدب أو الفن أن يصور الرذيلة بحيث يغرى بها الذين لم يعرفوها، وإنما تكون دعوة الفن موازية لدعوة

الخير والفضيلة والهدى، داعية إلى تطهير النفوس وتنقية القلوب وتحرير العقول من أهواء الشهوات والإباحيات والمحرمات.

ونحن نعرف أن الأمم لا تهزم إلا من انحراف فنونها وآدابها وخروجها على الضوابط والقيم، ولقد دمرت الفنون المحرمة اليونان والرومان والفرس والفراعنة وكل المجتمعات لأنها خرجت عن الضوابط والحدود التي رسمها لها الدين الحق، وإن الفن الغربي المادي اليوم ليسير في نفس الطريق الذي سار فيه الفن الروماني الوثني هادماً كل القيم متحللاً من كل الضوابط قائما على الإباحية والشذوذ والتشاؤم وكلها تصدر عن الفكرة الغربية المضمرة «الخطيئة الأولى» التي لايعرفها الإسلام ولا يقرها.

وعلى الفنان الحق أن يبحث في تراث قومه ومجتمعه عن ينابيع وحيه وأن لايقترض أساطير الآخرين وفلسفاتهم وأوهامهم، إن الآداب العالمية مليئة بالوثنيات والأساطير والرموز والقضايا الفلسفية التي هي غريبة عن أمتنا وفكرنا، ولا نفع لنا فيها. وليكن الفنان على يقين من ضوابط أربعة لابد من حياطتها والحفاظ عليها:

١- اليقين باليوم الموعود: يوم الحساب.

٢- الخضوع للحق تبارك وتعالى.

٣- العمل بما جاء في القرآن.

٤- النظر إلى محمد ﷺ كنبي بشر اصطفاه الله ليبلغ رسالته، وأن يفرق بين الألوهية والنبوة، وأن يفرق بين النبوة المعصومة والبشرية التي تخطئ وتصيب.

والإسلام لايقر العري ولا التماثيل العارية، ولا يقر الترف ولا استعمال الأواني الذهبية أو الموسيقى الصاخبة أو الأضواء الكاشفة التي تتمثل في المهرجانات اللاهية، وإنما يعرف البساطة والتواضع والسلام بعيداً عن كل المظاهر البراقة.

ويؤمن الفنان المسلم بأن الفن أداة لغاية الإنسان السامية، وأنه يسير دوماً وفق مجموعة السنن الأخلاقية، والقيم العليا التي ترفع الإنسان فوق المادية والأهواء

والفردية الأنانية وفوق اللذات والشهوات العاجلة، والفن بوصفه أداة يجب أن يخدم الغاية الكبرى وأن يسير وفق سنن الله، غير منحرف لفساد أو متحيز لهوى،إيماناً بأن الحياة الدنيا ليست في ذاتها غاية ولا نهاية.

(٧)

القرآن والفــن

يقدر الإسلام الفن الجميل لأنه يقر حق الإنسان في زينة الحياة الدنيا ومتاعها من غير سرف ووفق ضوابط سمحة، دون الجمود أو الانحراف،ويرتبط الفن في مفهوم القرآن بالأخلاق والتربية وإيجابية بناء المجتمع،ولذلك فهو يثرى النفس الإنسانية ويتسامى بها إلى أن يحقق القوة والحركة والتقدم في الحياة، وتقدير القيم الأساسية: التوحيد والحق والخير والجمال والعدل.

والفنان في مفهوم الإسلام ليس بعيداً عن الحب والعاطفة الحية ولكنه يتمثل ذلك في إطاره الواسع الرفيع، فهو يرفض إثارة الطاقة الغريزية الكامنة في أجواء النفس الإنسانية،ولكنه يلطفها ويعليها ويسمو بها، ويجعل هذا قاعدته الأساسية في الرسم والغناء والموسيقى والشعر، وفق قاعدة التحرر الكامل والالتقاء الواسع بمختلف العواطف والمشاعر، وضوابطه فيها الأخلاق والدين والكرامة والمروءة والأريحية والتسامي.

وقد عنى القرآن بالفن الجميل، ووجه الأنظار إلي مفهوم الجمال والزينة في المخلوقات ممتزجة في نفس الوقت بناحية المنفعة، ولفتة القرآن إلى الفن واضحة وممثلة في عبارة: ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ وقد أباح الإسلام الاستمتاع بالجمال والزينة وفق دائرة الاعتدال: ﴿ يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين ﴾ ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ .

وبذلك دعا القرآن إلى تهذيب الذوق وتربية حاسة الجمال، ودعا إلى التأمل في مظاهر الجمال، هذا التأمل الذي ينمي قوة الملاحظة وقوة الفكر وقوة التدبر، وهي العمد التي يقوم عليها الفن.

وقد تأثرت الفنون الإسلامية بجوهر العقيدة التي رسمها القرآن والسنة، وكان لهذه المبادئ والأسس أثر كبير في صياغة الفنون الإسلامية بما ألبسها شخصية مستقلة انفردت بها بين الفنون الأخرى، وانطلاق الفن في جو الحضارة الإسلامية مستمد من مفهوم الإسلام نفسه الذي يجعل مثله الأعلى زهداً في زينة الحياة أو إسرافاً في متعة الحياة بغير ما أحل الله.

فقد كان مفهوم الإسلام مطابقاً لفطرة الإنسان ونزعاته وما ركب فيه من غرائز وميول، فلم يحاول كبتها بل أتاح له فرصة تلبية ما تنطوي عليه النفس البشرية من غرائز وميول مع الاعتدال والتوازن، وقد يقبل الإسلام مباهج الحياة ومتعها ما دامت لا تتعارض مع أصوله ولا تخرج عن دائرة الاعتدال والتوازن، وبذلك لم يجد المسلمون في دينهم ما يحول بينهم وبين الفنون الجميلة.

وقد وقف الإسلام إزاء (الفن) موقفاً مختلفاً عن موقف اليهودية والمسيحية، فاليهودية قد عادت عداء سافراً مظاهر الفنون، والمسيحية دعت إلى ترك الدنيا والتجرد منها والانقطاع إلى الآخرة والإقبال عليها، ويقول محمد عبد العزيز مرزوق: إن المسيحية لم تبدع فناً جميلاً وعندما ثبتت أصولها واعترفت الدولة الرومانية بها استعانت بالفن الروماني في نشر عقائدها، أما الإسلام فلم ينكر الفنون الجميلة كما أنكرتها اليهودية ولم يستند إليها في نشر دعوته كما استخدمتها المسيحية، ولكنه تضمن توجيهات مختلفة كان لها أبعد الأثر في تكوين الفن الإسلامي وفي نضوجه، وقد حذق المسلمون ما أخذوه من فنون الأمم السابقة عليهم وتمثلوه وأضافوا إليه وهذبوه ثم برز الفن الإسلامي وله طابعه الخاص الذي أخذ يؤثر بدوره في الفنون التي عاصرته والتي جاءت من بعده.

(٨)

يتصل الفن الإسلامي في جوهره بالقرآن والتوحيد،وإطاره أخلاقي، بينما يقوم الفن الغربي على أساس الارتباط بين الوثنية والمادية. فالفن الأوربي وثني المصدر استمد مصادره من الصراع بين الآلهة والإنسان أو الصراع بين القدر والإنسان،وكل المسرحيات اليونانية والفن اليوناني في النحت والرسم قائم على هذا الصراع، وتقع المأساة حين يتحطم البطل على يد القدر أو يد الآلهة الجبارة - في نظرهم - التي لاترحم والآلهة في تقديرهم شريرة وظالمة، يقول الدكتور هاس : «كان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المناسب، وليس ذلك إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة والرقص وكان التثقيف الذهني الذي يحتوي علي الشعر والغناء والفلسفة وعلوم الطبيعة لايتجاوز حداً خاصاً حتى لايكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم».

ويقول الراهب أوغسطين: إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل، وأن الفكرة التي كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هي احتكار القوة لها واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة روما».

فلما جاءت المسيحية دخلت الوثنية فيها وعلى حد تبعير (هوابر) بتأثير الدين تقلدوا وظائف رئيسية، ونشأ عن الاختلاط بين الوثنية والمسحيية دين جديد تتجلى فيه النظرية الوثنية سواء بسواء، وهنا يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على الوثنية قضاءاً تاماً ونشر عقائده خالصة».

وقد ورثت الحضارة الغربية مفهوم الوثنية المسيحية وورثت معها قيمها وأبرز هذه المفاهيم نبذ (الأخلاقية) ومن ثم طغت فكرة الفن للفن على المفاهيم الأخلاقية السائدة واشتدت الحرب عندما شرع الزهاد وحماة الفضائل في إدانة الفن على أنه لعب وحس شهواني يحول بين الإنسان وبين الاستقامة ومن ثم شن رجال الفن حرباً

ضروساً ضد التقشف والزهد وظهرت نظريات زولا وأوسكار وايلد، وبذلك اتسعت الهوة بين الفن والأخلاق.

وفي مفهوم الإسلام أن الفن والأدب يقوم على أساس الالتزام الأخلاقي ويتحرك طليقاً في دائرته، ولذلك لم يقم أي صراع في الفكر الإسلامي بين الفن والأخلاق أو بين وحدة الفن والأخلاق أو انفصالهما لأن مفهوم الفكر الإسلامي قائم أساساً على التكامل الجامع فلا الفن يستقل عن الأخلاق ولا علاقة الفن بالأخلاق علاقة خضوع أو قسر أو إيقاف له عن انطلاقته وليس في تحريك الفن الإسلامي في دائرة الأخلاق ما يحول بينه وبين تحقيق هدفه من إبراز حقيقة الشر والخير بل هو في التحرر من إبراز الصورة في قالب الإغراء بها والحض عليها وحدود أخلاقية العمل الفني أن لايهاجم القواعد التي يقوم عليها المجتمع ولا يحاول أن يبرر الرذيلة أو يهدم نظم الدين والعدالة والتوحيد، والفن في الإسلام متحرر من المادية الخالصة، جامع بين الروح والفكر، بعيداً عن مفهوم الأوثان والتماثيل والأحجار.

(٤٩)

القصـــة

لا شك أن «القصة» بمختلف أسمائها وفنونها (رواية وأقصوصة ومسرحية وملحمة ودراما وملهاة) هي فن غربي خالص مستحدث يختلف اختلافاً كبيراً عما عرف في الأدب العربي من فنون يمكن أن توصف بأنها قصة بين ما عرف عن طابع القصص القرآني، يرجع هذا إلى خلافات عميقة في الذاتية والمزاج النفسي والطابع الاجتماعي أو الآداب الشرقية والآداب الغربية قديمها وحديثها وبين الأدب العربي الذي صاغه القرآن والإسلام.

وقد بدأت القصة الحديثة ترجمة من الأدب الغربي، تعريباً وتمصيراً، حيث كانت تترجم القصة ثم تغير معالم البلاد وأسماء الأبطال، ويبقى جوهر القصة وحوادثها كما هي في الأصل الأجنبي ثم ارتقى هذا الاتجاه حتى أصبح (قصة مصرية) أو قصة مكتوبة باللغة العربية، بينما ظل المضمون متمثلاً في (جو وأحداث وتحديات) المجتمع الغربي وإلى وقت قريب جداً، بل إلى اليوم لا تزال القصة تستوحي (ذوق) (وتصرف) المجتمعات الأوربية بكل أخلاقياتها ومفاهيمها وحلول مشاكلها التي تختلف في جوهرها عن ذوق وتصرف وأحداث المجتمعات العربية والإسلامية.

ولا ريب أن هناك فروقا عميقة بين استجابات النفس العربية والإسلامية للأحـداث وبين استجابات النفس الغربية، وخاصة في المسائل الكبرى: كالخيانة الزوجية واضطراب الأسرة واليتامى وعلاقة الجنس بالمال، وعديد من هذه المسائل، يقف منها المجتمع العربي الإسلامي موقفاً مغايرا في تصرفاته لموقف المجتمع الغربي.

ومن هنا فقد مضت القصة المكتوبة بالعربية في هذا الاتجاه منذ أن ترجمت ثم مصرت ثم أصبحت قصة تخضع للنموذج الفني الغربي الذي فرض عليها والمتمثل في ثلاث مراحل:

١- حادث أو أزمة.

٢- عقـــدة.

٣- نهاية أو حـل.

وهو ما أطلق عليه فن بناء القصة وهي حكاية لاتقوم عمدها إلا على رجل وامرأة وحب وخيانة أو خداع وغدر، وهي أساساً مستمدة من خيال الكاتب أو لها أصل يسير ثم نميت بالخيال حتى أصبحت ذات أبعاد صنعها الكاتب صنعاً وليست هي من الواقع في شيئ، وهي كلما بعدت عن الواقع بالغرابة والابتكار كانت أقرب إلى هوى القارئ، ولقد كانت المترجمات المكشوفة من القصص الفرنسية التي صدرت سنوات طويلة وبأعداد هائلة من كتاب المارون السوريين هي الرصيد الذي استمد منه كتاب القصة أعمالهم فيما بعد، مع التصرف بالإضافة أو الحذف ولكن العبرة في كل ما نقول هو أن (الحادث) أو التصرف ليس مستمداً من طبيعة النفس العربية ولا من واقع المجتمع العربي وليس متفقاً إطلاقاً مع القيم التي قام عليها الأدب العربي.

وقد وقفت الحياة الاجتماعية الإسلامية في نظر المستشرقين حائلاً دون ظهور القصة الواقعية، التي تقوم أساساً على الجريمة الخلقية أو الاغتصاب أو الغواية والإغراء، ويقول جب: إنه لا ينتظر أن يكون للقصة مستقبل في الطور الأدبي الحديث ما دامت الحياة الإسلامية محافظة على تقاليدها الموروثة، ويقول عنان: استطعنا أن نقطع بأن المجتمع الإسلامي لايمكن متى بقى تطوره وتقدمه محصورين في المبادئ الإسلامية الخالدة أو التقاليد التي كانت أثراً لهذه المبادئ أن يظهر كتاب القصة العربية يوماً بمادة واسعة أو غزيرة كالتي يقدمها المجتمع الغربي إلى كتاب الغرب أو أن يغدو الأثر الذي يفسحه للمرأة ذات يوم وحياً للجمال والفن».

وخير ما عبر عنه كاتب عن علاقة القصة بالمجتمع هو ما قاله (واسرمان) حين قال: ما دام العنصر الشهواني خفياً فلا وسيلة لتأليف القصة، فالقصة التي يبحث

عنها التغريب والغزو الثقافي ليست هي قصة الواقع أو القصة الأصيلة التي لا انتفاع فيها، ولكنها القصة الصارخة ذات الأحداث والخفايا والمؤامرات التي تقع بين رجل وامرأة تحت اسم الحب أو الشهوة أو الغيرة وتدور فيها المحاورات حول تبرير الاغتصاب أو خداع النفس الساذجة حتى تقع في الفخ، وحيث يقع التنافس بين رجلين على امرأة، أو بين زوج وعاشق، أو إغراء امرأة لرجل متزوج أو تجمع عدد من المحبين حول امرأة غانية وصراعهم معها.

والقصة على هذا النحو عمل مفتعل، ليست هي الحقيقة، ولا الواقع، ولا هي بهما أشبه، وإنما هي «أداة» من أدوات الغزو النفسي والاجتماعي للمجتمعات والشباب والفتيات الغريرات،وهي حين تقوم على ذلك البناء «الفني» إنما تلتمس قواعد التحليل النفسي التي أذاعها فرويد وفرضها على الآداب بعامة وعلى القصة بالذات وفرويد يرى أن سلوك الإنسان كله في مختلف ظروف حياته وأوضاعها «جنس» حتى في مجال الدين نفسه!

وإذا كان المجتمع الإسلامي يحول دون ظهور هذه القصة فيجب إغراق المجتمع الإسلامي بالقصص الأجنبي المكشوف والإباحي بالترجمة حتى تقرأه الفتيات في خدورهن والشباب في فراغهم، ومن ثم تتطلع النفوس إلى هذه الصور البراقة تحت تأثير الغريزة وفي مجتمعات تتباعد فيها فرصة الزواج المبكر وتتكاثر فيها وسائل الاختلاط وتضعف فيها الضوابط الدينية والحدود الأخلاقية. فإن ذلك كله من شأنه أن يكون معواناً لظهور القصة من خلال أحداث المجتمع التي تبدأ تقليداً للقصة الأجنبية، مسرحية، كانت أو تمثيلية أو فيلماً سينمائياً وقد دخلت المجتمعات الإسلامية من وقت طويل بمؤثرات «الحضارة الغربية» في دور الأندية الليلية، ودور البغاء، وحانات الخمر وصالات الرقص، وأمكن أن تقع القصة وأن تنتهي ولادتها ونموها، في ضوء القصة الغربية الإباحية التي ترجمت بأعداد ضخمة ووزعت في كل مكان بأزهد الأثمان.

غير أنه لم تلبث ولادة القصة إلا قليلاً حتى انفجر فعلاً رد الفعل لهذه الدعوى

بين العاملين في مجال الأدب العربي الذي سار بدون القصة في الماضي ولم ينقص ذلك من قدره ونموه، وبدا أن التطلع إلى إيجاد القصة إنما هو تمحل لشيء غير طبيعي وتقليد ضار من شأنه أن يقوض دعائم الحياة الاجتماعية في الشرق، ومن ثم فقد تبين بعد قليل أن القصة الغربية بما فيها من تزييف وإباحة وتحلل وعدم ملاءمة للتقاليد الاجتماعية العربية والإسلامية قد أثرت تأثيراً هداماً في حياة مصر الاجتماعية، وقد وصف كتاب القصة بأنهم مقلدون لايعرفون ما يضر مجتمعهم وما ينفعه وأنهم يتابعون الغرب في السطو على آثاره وينقلون نقلاً لايلتفت إلى فوارق المجتمعات وتباين للعادات، وأنهم يغرون الشباب باحتقار فنون الكتابة العليا كالمقال والرسالة والقصيدة.

وكشفت المساجلات عن أن فن القصة على النحو الذي فرضه أصحاب منهج النقد الأدبي الوافد، هو فن دخيل لايتفق مع الذوق ولا المزاج ولا القيم العربية الإسلامية، وأن النفس العربية قد عبرت عن نفسها بأساليب أخرى ليست القصة واحدة منها وأن القصة على هذا النحو هي أدب مستورد وقد وصفت القصص الأولى التي كتبت أمثال زينب وإبراهيم الكاتب وغيرها بأنها لاتمثل طبيعة المجتمع التي صدرت عنه.

وقد كشف كثير من الباحثين ذلك الخطأ المدمر الذي يقاس فيه أدبنا بأدب الانجليز والفرنسيين والألمان، وإنما الحق أن يقاس الأدب على مزاج الأمم التي يصدر عنها، وأن من شأن الأدب العربي أن يعبر عن عقول أهله وأحلامهم وشهواتهم وما يجري في خواطرهم.

ولقد أحصى المؤرخون أنه قد ترجم إلى الأدب العربي من الآداب الأجنبية خلال نصف قرن أكثر من عشرة آلاف قصة أجنبية، وأن هذه الترجمات كانت في أغلبها فاسدة في اللغة، وفاسدة في الموضوع والحوار وقد ساهم في ترجمة القصص المكشوفة كتاب ذوي أسماء لامعة أمثال طه حسين «وكان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون في صورة جذابة».

فقد نقلت من آداب الأمم الغربية أسوأ آثارها، من الفرنسية روايات اسكندر ديماس، ومن الإنجليزية القصص الخرافية، وقال (جب) في صراحة إن القصص التي ترجمت لم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبي للبلاد، وزج (محمد عثمان جلال) باللغة العامية على ألسنة أشخاص لايعقل أن ينطقوا بها وقدم حواراً بالعامية لأبطال لهم وقار فلم يحالفه التوفيق.

(٢)

اتجهت القصة الغربية بعد الحرب العالمية الأولى وجهة الاستهتار الجنسي وكان لطغيان القسم النسوى في العالم الغربي واستهتاره أثره في جر المؤلفين الغربيين إلى أن تكون فكرتهم في رواياتهم كلها عن العلاقات بين الجنسين وعن استهتار المجتمع الحاضر بروابط الأسرة.

وهكذا تغشى الغرب نوبة عصبية من تيار التأخر إلى حال الإنسان الأول في ثوب منمق من العلم والمدنية أشبه بفعل الخمر أو المخدر، وقد غلب حب المادة على كتاب القصة الغربية فشقوا الطريق إليها على أنقاض الأخلاق، وغلبتهم مهمة تسلية الجماهير، وتأثروا بمذهب نوردو (الصهيوني اليهودي) الذي يقول إنني أقيس نجاح الشخص في الحياة بالثروة التي يجمعها،كما أنه مما ساعد على ذلك علم النفس ومذهب فرويد واستخدامه في القصص، ومن شأن القصة أن تنقل الناس من عالم الواقع الصحيح الذي يحبونه إلى عالم الوهم والخيال، وهو نوع من الاستهتار العقلي يبعثه الروائيون في نفوس الجماهير السهلة الانقياد في قالب منمق يعطى فكرة أن الحياة لهو وغرور وأنها أقرب إلى الاستهانة والتغلغل في السقوط الأدبي، مع تبرير السقوط والفاحشة والتماس الأعذار للساقطين والمنحلين ما كان أحد يستطيع أن يلتمسها لنفسه منفرداً مثل قصة مانون ليسكو وغادة الكاميليا وغيرها من القصص التي تلتمس الأعذار المسمومة للساقطين وللساقطات تجدها وقد أثرت أثراً بليغاً في نفوس النشء فجعلتهم يستهترون ويسرقون وينتحرون.

ويعزو الباحثون فشل الأجيال إلى انتشار مثل هذه القصص النفسية المخنثة والعقلية الضعيفة التي أوحتها التجارة الرخيصة في الحكايات الغرامية والقصص البوليسية ويصف البعض القصة اليوم بأنها نوع من تجارة الخمور التي تتولى الشركات تعبئتها وتوزيعها بالملايين تحت مختلف العناوين والمغريات.

ويشبه هذا الرأي الذي يعلنه الدكتور حسين الهواري ما يقوله ميشيل أوبري من أن كتّاب الغرب لا يرتفعون عن الماديات في كل ما يؤلفون أو يكتبون وهم أقرب إلى الحياة المادية منهم إلى الحياة الروحية، وذلك لأن الغربيين قد ولدوا في المادة وعاشوا معها ولها وقد أخذ الشرقيون منهم حب هذه المادة والتهالك عليها ولما لم يأخذهم النضوج في كل نواحي الحياة فقد أقبلوا على كل ما يصوره لهم الغرب من فلسفة أو علم أو أدب في نهم شديد دون النظر إلى ما يلائم حياتهم من صالح ومفيد، ومن العجيب أن كتابنا لم يترجموا من الأدب الغربي إلا كل ما هو مسرف في الإباحة والكشف مثل: مارسيل بروست، وتوماس مان وأندريه جيد والدس هكسلي ولورنس، وكلها قصص تدور حول اللذة الجنسية وقد ظاهر هذه الاتجاه الكتاب الموالون لمنهج الغرب الوافد بفلسفة خطيرة ترمي إلى القول بأن وصف نقائص الناس ومثالبهم هي طابع الأدب الصريح الحر وهم في ذلك قد جروا وراء دعوة فرويد ومفاهيمه التي أصبحت قاعدة القصة وأساساً للأدب الغربي، ولا ريب أن تيار القصة هو من أقوى التيارات التي سيطرت عليها الصهيونية العالمية لتوجيه الرأي العام العالمي وجهة التدمير والانحلال التي تستهدفها وقد سار كتاب القصة باللغة العربية في هذا الاتجاه مقلدين لأنهم لم يكونوا يرسمون صور مجتمعهم أو يستجيبون لأوضاع بيئتهم بقدر ما كانوا يترجمون هذه القصص ويغيرون أسماءها ومواقعها.

وقد أغرق الكتاب المارون المقادمون إلى مصر من الشام: الأدب العربي بسيل من القصص يطفح بالإباحة والفساد من أمثال نجيب الحداد وإلياس فياض وفرج أنطون وطانيوس عبده وإلياس أبو شبكة وخليل بيدس وأمين الحداد، وقد أطلق هؤلاء

على أنفسهم ألقابا تنم عن التبعية المحضة فهذا (ديموسيه الشرق) وهذا (موباسان العصر) وهذا (جوركي النيل) وقد ألقت هذه القصص إلى صغار المتعلمين وفتيات الأسر من وراء الجدران قدراً كبيراً من الرؤى الجنسية المسرفة وقدراً من اللذات الخيالية التي تتمثل في صور الترف وملامح القصور والرياش والعطور والخمور مما كان له أثره البعيد في خلق ظاهرة جديدة في المجتمع: هي ظاهرة وباء الحلم الكاذب الذي يشقى ويبعد عن الواقع،وكان لهذه الأكاذيب فعل السحر في نفوس الشباب الغرير والفتيات مما أفسد نظرتهم إلى الحياة وحال بينهم وبين رؤية الواقع أو الانطلاق في طريق واضح حتى وقف بينهم وبين الحقائق البديهية جيل من هذه الأكاذيب القصصية، وهكذا تكون في المجتمعات الإسلامية والعربية ما يمكن أن يسمى (المرض القصصي): هذا المرض الذي لايزال قائماً يفتك بالأسر والشباب كل الفتك.

وكانت هناك قوى كثيرة تجاهد في سبيل تغذية اتجاه كتابة القصة،بالمسابقات ومختلف وسائل الإغراء، وكان من نتيجة وباء القصص ما سجلته الأحداث التي وقعت في عشرات الأسر، وقد أشار إلى هذا كثير من مؤرخي الأدب، فقال أحدهم: لماذا هذا الاهتمام بالقصة، وما هذا التطلع إلى القصة سوى مثل آخر على التقليد الأحمق للغرب وبما فيها ذلك التقليد الذي أحدث تلك الهوة في الحياة الشرقية، أن القصة الغربية بما تتسم به من فتنة زائفة مبهرجة وبما فيها من مناقضة للأسس التقليدية التي تقوم عليها حياة الشرق قد أدت إلى إفساد الحياة الاجتماعية في مصر وتخريبها فلماذا تضع الأفعى في جيبها.

وعرض مصطفى صادق الرافعي لأثر القصة الغربية فكشف عن أن القصة صناعة لهو ومسلاة فراغ وهذا قد يكون له وجه في علاج الحياة العملية في تخفيف حطمة الاجتماع في أوربا وأمريكا، ولكن ما موضعه عندنا في الشرق، والشرق إنما يعمل في نهضته لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجوده السياسي عدماً إن هذه القصة لم تزد على ما تفعل المخدرات أن تكون مسكنات عصبية ثم تنقلب على نفسها

فتصبح مهيجات عصبية.

وقد وقف الأدب العربي موقفاً صريحاً إزاء تيار القصة الغربية (ترجمة وتعريباً وتمصيراً) وكشف عن رأيه في صراحة ووضوح وأعلن أن الفن القصصي ليس عربياً ولا إسلامياً وأنه فن وثني، وأنه يجري مع تطور الوثنية مرحلة بعد مرحلة، بتطور أشكالها ونظمها، وتجدد أربابها ومعابدها، وأن القصة في العالم الوثني هي الملهاة التي يقدمها أهل اليسار إلى المحرومين والفقراء.

والمعروف أن فن القصة الذي غزا الأدب العربي في العصر الحديث قد تشكل في تراثين: تراث الأسطورة اليونانية وتراث الأسطورة الشرقية القديمة وهما يقتربان من حيث إن طبيعة كل منهما تستمد من الوثنية وأنهما يتصلان بالشعوب الشرقية والشعوب الأوربية الآرية وأنهما لايتصلان بالأمة العربية التي لم يكن لها قبل الإسلام وثنية مغرقة في الإباحة كالوثنية المجوسية أو الأغريقية.

ومن هنا فإن الخلاف بين الأدب العربي وبين القصة الغربية وليدة الوثنية اليونانية بعيد المدى، وكذلك بالنسبة للأسطورة الشرقية ومنها (ألف ليلة) التي يحاول بعض الشرقيين اعتبارها أثراً قصصياً عربياً، وهذا الخلاف بين الأدب العربي والآداب الوثنية (شرقية وغربية) هو خلاف في الجوهر والصميم كما هو في الشكل والخصائص، وفي الدوافع والغايات من حيث إن دوافعه مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الدوافع التي يتولد منها الأدب الأوربي، وأبرز هذه المعالم هي الإيمان والتوحيد وسلامة النظرة وصدق التوكل على الله الخالق الرازق، وكلها تعطى الأدب طابعاً ملؤه الإشراق والتفاؤل والإقبال على الحياة والرضى بقضاء الله.

وفي ضوء إشراق الشمس ورحابة البادية يبدو الأدب العربي في حلة من الوضوح والإشراق، وتختلف تمام الاختلاف عن صورة الأدب الغربي والأدب الإغريقي وصورتهما متجهمة قوامها الرموز والإيماءات وتطبعها طوابع الخوف والألم والحرمان حتى يوصف بأنه أدب الثلوج والألم والشكوك، والقصة وهي قوام هذا الأدب لاتصور إلا الحرمان والألم والعذاب والغدر.

وإذا استعرضنا أربعة من أشهر القصص الأوربي هي: (البؤساء - لهيجو) و(النور والظلام - لتولستوى) و (دافيد كوبر فيلد - لدكنز) و (الجريمة والعقاب - لدستوفسكي) لوجدنا صورة هذه الآلام المكبوتة والنفس المضطربة والحياة المتجهمة: الظلم للفقراء والبرد للبؤساء والشقاء والجزع والآلام العصبية، ونوبات الصرع، فإذا عرضنا هذه النماذج على الأدب العربي لوجدناها غريبة عليه كل الغرابة مجافية لطوابع النفس الغربية التي تستمد من الإسلام الرحمة بديل الخوف والسكينة بديل الشقاء.

وليس شك كما يقول صادق الحكيم أن القصص التي تكتبها الشعوب الأوربية ليست سوى أناتها وصرخاتها من مشاكلها المعقدة التي لاتجد لها حلاً إلى اليوم،وأن عقدة القصة الأوربية تنحل من فورها في ضوء المجتمع الإسلامي وبمقاييس القواعد والآداب الإسلامية،لأن هذه العقيدة تجمع خيوطها دائماً في ظل مشاكل لا وجود لها في عقل المسلم.

ويرى كثير من الكتاب أن هدف القصة في الغرب هي إعطاء الشعوب جرعة من الخيال للتعويض عن الواقع، فحيث يعيش الناس في المناطق الباردة بين الغيوم والظلام والآلام، وبين الجبال الشاهقة والشمس الغائمة، يحتاج الناس إلى سخدر وإلى غيبوبة وأن القصة الخرافية الوثنية المستمدة من الأسطورة هي اللذة الكاذبة التي تعطى الوهم بدلاً من إعطاء الحقيقة، أما العربي فإنه يعيش في جو مختلف: ساطع باهر مضيء بعيداً عن الظلام والوحوش والأرواح الشريرة، والعربي فارس جعل رزقه تحت ظل رمحه، فهو مقتحم صريح يحيا الحياة في وضوح، ولذلك فهو بطبيعته وبذوقه الفني، ومزاجه النفسي، لايتقبل هذا الفن القصصي ولا يستجيب له.

ولقد عرف الأدب العربي «الصدق» القصصي فيما روى القرآن من قصص وما وجه إليه الفكر من التحرك داخل إطار الواقع مع استحباب الخيال المتسامي البديع الذي لايغرق في إدخال الشر والإباحة ولذلك فقد كان الإسلام حريصاً أن يعيش

المسلم في واقعه، وأن لايتخذ من وسائل الخداع الكاذبة المخدرة، سبيلاً إلى إخراجه إلى عالم الأوهام.

ولذلك فقد قدم القرآن القصة الصادقة، ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ بعيداً عن الأسطورة والخيال الوثني والوهم، كذلك فقد حرص علماء المسلمين إلى تحرير سيرة الرسول ﷺ من الأساطير والخرافات التي من شأنها أن تحجب الحقيقة عن الناس، وما زال مفهوم القصة في اللغة العربية هو الإخبار بالواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة، ولا يفهم منه تأليف الحكايات أو تلفيق الوقائع أو اصطناع الأخبار المكذوبة التي تصدر عن الكبت والظلم.

وإذا كانت كلمة القصة في اللغة العربية تعنى الواقع الملموس فإن معناها في اللغات الغربية مستمد من مدلول الخرافة فكلمة Story ترجع إلى الكلمة اليونانية Hstoria التي تعنى الخرافة والتي عرفها العرب قبل الإسلام بقولهم (أسطورة) وجمعها أساطير وقد أطلقت في القرآن الكريم على الخرافات التي ينكرها العرب في مقابل ما آمنوا به من أحسن القصص.

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ﴾ .

ولقد كشف كثير من الباحثين عن التعارض بين الفطرة التي هي سمة الأدب العربي وبين القصة التي عرفها الأدب الغربي وجرى تقليدها في الأدب العربي الحديث.

يقول صادق الحكم: إن القصة لطيفة التكلف في اختلاقها واتجاهها إلى التعقيد البسيط وتخفيف وطأة الواقع والإيهام بوجود ما ليس موجوداً لاتستطيع أن تعيش لحظة تحت شمس الصحراء القوية، إنه حقل من حقول الألغام في طريق الآداب العامة، وهو نوع من الاستهتار العقلى يبعثه الروائيون في نفوس الجماهير ساعة الانقياد في قالب منمق يعطي فكرة أن الحياة لهو وغرور، بينما لايرى المسلمون في الحياة هذا الرأي، وإنما يرونها أمراً جاداً يتحملون مسئولية السعي فيه والعمل

ويعرفون أن كل خطواته موضع محاسبة و،جزاء ولقد استعاض الأدب العربي عن هذا اللون بفنون شتى: منها براعة الحوار وفصاحة اللسان ودقة المناقلات والأجوبة المفحمة والمفارقات والنكات والبداءة وروح الفكاهة والمرح البريء، وفيها البساطة والسماحة والبشر وإشراقة التفاؤل.

ولعل من أعظم ما أعطى الإسلام للأدب العربي هو عمق المعرفة التي تدور على تحرير الأدب من الأساطير والخرافات وإيقافه عند الحقيقة دون مبالغة في تصوير الواقع على النحو الذي كان يعرفه الشعر الجاهلي أو الملاحم اليونانية،ولقد ظل الأدب العربي يحاذر من أهواء رجال الفن والشعر والقصة، الذين يعطون لأنفسهم من الحرية ما يدفعهم إلى تجاوز الحقيقة وتجاوز القيم الخلقية.

(٣)

ومن أخطر شبهات التغريب محاولة اعتبار كتاب (ألف ليلة وليلة) مثلاً للقصة العربية، أو أن ما ورد فيه من قصص ممثلاً لحياة العرب والمسلمين بينما تكشف أدنى مراجعة لمصادر ألف ليلة على أنه تراث إيراني وهندي ووثني سابق للإسلام وأنه لايمثل بحال صورة المجتمع الإسلامي العربي أو مفاهيم الفكر الإسلامي.

وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودي المتوفى في القرن الثالث الهجري في كتابه (مروج الذهب) عن كتاب قديم بالفارسية أو بالفهولية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره (شهر زاد) وخادمتها دنيا زاد.

وقد أشار إليه ابن النديم مؤلف (الفهرست) وقال إنه كتاب الحماقة والسيئات كما أشار إليه مؤرخون آخرون، وهي إشارات تمثل في جملتها طابع الرفض والامتهان لهذا المصدر، والنص على أنه مصدر ساقط في أنظار العلماء والباحثين.

ومعنى هذا كله أن كتاب ألف ليلة ليس قصصاً إسلامياً وأنه مصدر سابق للإسلام من أدب الهند والفرس، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من

وسائل الترف ويضيفون إليه حكايات جديدة كما أضيفت إليه في العهود الأخيرة - مسامرات أهل القاهرة وبغداد.

ولقد اهتم بإحياء كتاب ألف ليلة كوكبة من المستشرقين ودعاة التغريب، وكانت المحاولة ترمي إلى تصوير ماجاء به كأنه ممثلاً للمجتمع الإسلامي.

ولا ريب أن مفهوم الإسلام ومجتمعه يختلف اختلافاً كبيراً عماجاء في هذا القصص المجمع من الشعوب في عصور سابقة للإسلام وخاصة فيما يتعلق بالمرأة التي صورتها ألف ليلة على أنها جنس ومتاع رخيص.

وفي العصر الحديث استغل التغريب ودعاة مذهب النقد الأدبي الوافد: هذا التراث المضطرب المصدر لإفساد جوهر الأدب العربي والتأثير عليه وتهديم قيمه، وقد سبقهم إلى هذا جماعة المستشرقين والمبشرين ومعاهد الإرساليات ومطابع الشيوعيين في بيروت.

وقد اتكأ أكثر من مستشرق على كتاب ألف ليلة باعتباره مصدراً لما أسموه (الحب في الشرق) مستنتجاً إياها من خلال القصص التي لاتمثل الواقع العربي ولا النفس العربية الحقيقية ولا تمثل المجتمع الإسلامي.

فهذه الصورة التي يحتويها ألف ليلة سواء من ناحية الفساد والإباحة أو الترف والمجون أو الخلط بين المرأة: الحرة والغانية والأميرة والجارية ليست صورة إسلامية ولا عربية أصيلة.

ولذلك فإن ما كتبه المستشرق (لين) وغيره عن المجتمع الإسلامي اعتماداً على قصص ألف ليلة لايمثل حقيقة المجتمع الإسلامي.

وأبرز ما يختلف فيه الأدب العربي الإسلامي عن ألف ليلة هي فوارق الوثنية والإباحية الواضحة الصورة في هذه القصص، وغاية ما يقال في ذلك أن الإسلام عزل المجتمع الإسلامي عن الإباحيات والخيالات والخرافات وطبع الفكر والمجتمع بطابع التوحيد.

وإذا كان التغريب قد استغل هذه الأساطير وبعثها وأحياها من جديد وحشد لها حشوده من المبشرين والمستشرقين والشعوبيين والتغريبيين فإن أدباء الأصالة قد كشفوا أهداف هذا العمل.

ولا ريب أن الهدف واضح فإن الأوربيين المستعمرين يعلمون أن هذه العناصر الفاسدة الدخيلة على الحضارة الإسلامية من الزينة والإسراف في المتعة والتحلل هي التي ذهبت بالدولة الإسلامية ومن هنا فقد أشادوا بها وكتبوا فيها الشعر والقصص، وجاء دعاة التغريب من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهما فأعادوا شهر زاد الغاوية مرة أخرى.

فإن هذه القصص حين ابتعثت من جديد حاولت أن تنسب نفسها إلى تراث الأدب العربي وهو منها براء،لأنها تقوم أساساً على الأسطورة والخرافة التي قامت عليها الآداب القديمة: الإغريقية والوثنية والمجوسية واليهودية وقد أعجب العرب بهذه الأساطير كفنون غربية ولكنها لم تجد قبولاً أصيلاً في النفس العربية ذات المزاج الصريح الواضح الواقعي.

(٥٠)

المســـــرح

حاول دعاة مذهب النقد الغربي الوافد إثارة اتهام باطل لا محل له يرمى إلى انتقاص الأدب العربي لخلوه من المسرح والدراما والملاحم، غافلين عن أن لكل أدب فنونه التي تشكلها طبيعته وبيئته، وأنه ليس من الضروري لوصف الأدب العربي بالبراعة أو النبوغ أن يكون مماثلاً للأدب اليوناني أو الأدب الغربي في كل فنونه، ولقد كان «الشعر» هو ديوان العرب في بالجاهلية فلما جاء الإسلام شكل للأمة العربية مثلاً أعلى يستمد أسلوبه ومنهجه من القرآن، وقام على التوحيد ذي الطابع الواضح الصريح في العبارة والأداء، وجاءت القصة القرآنية على ذلك النحو الذي عرف عنها بعيدة عن الرموز والغموض والتفاصيل وبعيدة عن الكذب الفني والحيلة والتحوير الذي عرفته القصة اليونانية الغربية، ولذلك فلم يكن الأدب العربي في حاجة إلى المسرح الذي كان وليد المعبد والكنيسة والذي بدأ عند الأغريق أصلاً في أعياد باخوس إله الخمر ثم استعانت به الكنيسة بعد انتشار المسيحية في روما وباريس أثناء القرون الوسطى لعرض فكرتها عما ذهبت إليه من القول بصلب المسيح وآلام الشهداء.

أما المسلمون فإن لبساطة مفهومهم الإسلامي ووضوحه وامتداد طبيعتهم التي عرفت بالصراحة والوضوح لم توجد عندهم الحاجة إلى المسرح، ولذلك فقد انصرف العرب والمسلمون إبان حركة الترجمة عن نقل الأدب اليوناني واكتفوا بترجمة العلوم والفلسفات من يحث أنهم لم كونوا في حاجة إليه بوصفه أداة تعبير عن النفس اليونانية والإغريقية وحدها، ومن حيث أن لهم أداة تعبيرهم التي تحقق لهم ذلك عن طريق الشعر والنثر، ولعل سبباً هاماً حال بينهم وبين ترجمة الأدب اليوناني هو أنه كان ينطوى على خرافات وأساطير لها

جذورها الممتدة إلى عقائدهم الوثنية القائمة على تعدد الآلهة، وصراع الآلهة مع نفسها ومع الإنسان، ولتعارض هذه الصور والأفكار مع إيمان العرب والمسلمين بالخالق الواحد وإكباره وتعاليه عن مثل ما توصف به آلهة اليونان من صراع وشهوات، وما توصف به من ذكور وإناث، آلهات للصيد والخمروالحب، فقد نأى الأدب العربي عن ذلك وسما بالألوهية عن مضاهاة البشر التي لايقرها عقله ولا يرضاها مزاجه النفسي.

ولقد كان الأدب العربي واضحاً في التعبير عن النفس. وواضحاً في العقيدة وضوحاً لايقبل التأويل ولا يحتمل الشك ولا يقبل التجسيم،وكان هذا الوضوح هو لب العقيدة حيث لا يوجد ما يصعب فهمه أو يحتاج إلى مثل ما احتاجت إليه الوثنية القديمة والعقيدة المسيحية من بعد لعرضه وشرح تعقيداته وتفسيره وتعليله عن طريق المسرح حتى يمكن الاقتناع به وتقبله، ومن هنا فلم تكن هناك حاجة في البيئة العربية ولا في الأدب العربي ولا في العقيدة التي اعتنقها العرب والمسلمون إلى المسرح.

ولقد «فرض أدب القرآن طابعه على كل ما تخرجه القريحة العربية بعد أن بهرها بإعجازه في أسلوب الكتاب وتعاليمه: هذه التي أنشأت بعد ذلك فلسفة إسلامية تحترم العقيدة الدينية أكثر مما تتيحه لحياة الفكر المجرد والتنقيب عن متاهات النفس واستجلاء الغامض منها».

وهناك وجه آخر من وجوه الخلاف والتباين بين الأدب العربي وبين الدراما أو المسرحية اليونانية الغربية، ويتمثل ذلك في الصراع المأساوى الذي هو حياة الحدث في المسرح مما لايجد بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم، ذلك أن البطل المأسوى هو دائما في صراع من الآلهة بالقدر، والإنسان العربي في سلام مع الله الواحد الأكبر، وفي إيمان بالقدر لايحول دون السعي وإن كان يحول دون المصارعة والصراع، ومن هنا فإن العقل العربي «لايتصور الصراع بين الإنسان والله على نحو ما كان يتصور اليونانيون الذين يؤمنون بأن الحرب مع القدر وإن كانت نهايتها هي

الهزيمة المأساوية فإنها حرب تدل على شجاعة الإنسان وجبروته وعلو شأنه».

وصراع الإنسان مع الله - أمر لايفهم ولا يقبل مع التوحيد الذي هو قمة العقائد في الإسلام ولذلك فإن العرب لم يجدوا أنفسهم في يوم من الأيام في صراع مع القدر، ذلك لاختلاف طبيعة البيئة الصحراوية عندهم عن طبيعة البيئة الجبلية في اليونان ومن هنا فإنهم لم يعرفوا هذا اللون من الصراع حتى في فترة جاهليتهم السابقة على الإسلام.

بل إن الوثنية العربية لم تكن مؤهلة لهذه المفاهيم، إذ لم تكن وثنية أصيلة بل كانت صورة مشوهة من دين قائم على التوحيد، لذلك لم تكن لها جذور عميقة أو تقاليد قديمة كما كان لدى الوثنيات الأخرى، ومن هنا فقد ارتبط المسرح اليوناني بالأسطورة إلى حد بعيد، وجد المؤلفون إطاراً يصورون فيه الصراع بين الإنسان والقوى الإلهية، ولما كانت هذه النزعة وثنية في طابعها فإن الإسلام لم يقرها أو يقبلها.

كذلك لم يكن من الطبيعة العربية مثل هذه الاستعراضات التي تقوم علي الترانيم والأناشيد والرقص، ولقد استعانت الكنيسة المسيحية في القرن العاشر بالمسرح أيضاً في عرض فكرتها بعد أن سقط المسرح الوثني مع سقوط الإمبراطورية الرومانية فكانت تقدم القداس الديني ثم تتبعه بصورة تمثيلية طقوسية قصيرة كان يمثلها القساوسة بعد القداس في قلب الكنيسة ثم تطور إلى التمثيليات الدينية الطويلة التي تمثل على أعتاب الكنيسة أو في ساحتها وهي المعروفة بتمثيليات الأسرار عن معجزة ميلاد المسيح ثم آلامه وآلام الشهداء الذين أوذوا في سبيل الدفاع عن المسيحية، وقد كان المسرح وسيلة لتفسير نظريات المسيحية الفلسفية التي لم تكن من اليسير فهمها إلا بعرضها على هذا النحو.

(٢)

تقوم فلسفة المأساة الغربية على (الخطيئة والقصاص والغفران) وترى أن الإنسان مرتبط بخطيئة أولية وهي خطيئة آدم، وهناك مفهوم الصراع بين الآلهة والقدر وبين الإنسان والخطيئة. ويبدو البطل في صورة المتحدي لإرادة الله والمتحدي للقدر.

وفي رواية (فاوست) نجد أنه يتحدى إرادة الله ويتطاول على الشجرة المحرمة، وقد كانوا يرون أنه مجرم ومخطئ ويجب إرساله إلى الجحيم ثم تحول الرأي في المأساة مع تحول المجتمع الأوربي فقالوا: إنه صريع القدر.

ويمكن القول جملة بأن هذا اللون من الأدب غريب على الذوق العربي ومزاج النفس العربية، فهو خلاصة لمفاهيم دينية ووثنية أو غربية مسيحية تقوم على فلسفة أساسية: قوامها «الخطيئة» التي لايعترف بها الإسلام ولا يقرها والتي ليس لها أي صدى في الأدب العربي فضلاً عن صراع القدر وصراع الآلهة وكلاهما غريب عن النفس العربية بل إن نهاية القصص وخاتمة التراجيديا في مفهوم الأدب اليوناني والغربي يجب أن تكون شريرة، ومصدر هذا التراث اليوناني الغربي كله يرى أن الإنسان ثمرة الخطيئة وأن حياته تكفير عن هذه الخطئية وأنه لاقيمة لها بينما يرى الأدب العربي وفكره وآدابه بأن الإنسان كائن حي وحياته لها قيمتها الخالصة وأنه ليس مسئولاً عن خطيئة غيره، وأن الخطيئة التي تتردد في هذه الآداب هي خطيئة آدم وهذه في مفهوم الإسلام قد غفرها الله له ولم يجعل ذنبها لأحد من بعده.

وفي مفهوم الأدب العربي المستمد من الإسلام أن الخير لابد أن ينتصر في النهاية وأن الشر لابد أن ينهزم وينسحق،وإذا كان المسرح وليد المعبد والكنيسة فإنه يعد غريباً عن الأدب العربي حيث لم يعرف العرب هذه الأعياد الصاخبة المعروفة بمواكب خمر باخوس ولا ما يتصل من تماثيل وأناشيد وطقوس ورقص وإباحة،والعرب في صميم فكرهم أهل بديهة وارتجال، وفي بيناتهم أهل إيجاز واختصار، لايحتاجون إلى التحليل الطويل ولايهتمون بالتفاصيل التي تخرج عن جوهر الحدث أو الخبر، وقد علمهم ذلك القرآن ووضع لهم هذا المنهج، والمجتمع الإسلامي لايعرف التجسيم

ولا يجد فيه لذته الفنية، كما يفعل اليونان والغربيون، والفكر الإسلامي لايقر الأساطير ولا يقبل الخرافة ويعتمد على الحقيقة التي يقبلها العقل وتوافق الصدق الذي تؤكده طبائع الأشياء ويقف من الخالق سبحانه موقف التكريم ويسمو بمفهوم الألوهية عن مشابهة الخلق ولا يقر وجود أرباب.

ويصور هذا المعنى زكي طليمات تصويراً طيباً حين يقول:

الإسلام هو دين التوحيد فلا بدع أن يناهض الوثنية التي تقوم على تعدد الأرباب فلا غرابة في أن يعمل على محو أثارها المادية المجسمة واستئصال جذورها المعنوية في نفوس العرب، إن العقيدة الإسلامية في وقفتها الأولى لمحاربة الوثنية أحدثت في النفوس التشكيلية حدثاً ليس له مثيل إذ حولت مواضع الإلهام فيها من الطبيعة وصورها إلى الذهن وأخيلته

سبب آخر لايصرف الذهنية الإسلامية عن الأخذ بأسباب التعبير عن طريق المسرحية واتخاذ المسرح وسيلة للدعاية والتفسير، ذلك أن العقيدة الإسلامية على وضوح أركانها وجلاء تعاليمها ومنطق أحكامها عقيدة لايشوبها لبس ولا غموض يتطلبان تحايلاً في التفسير، فالوحدانية لاتقبل التأويل ولا تحتمل الشرك، ليس هناك أرباب ولا أنصاف أرباب كما هي الحال في الوثنية. كذلك لاتوجد عقدة يتعذر فهمها إذ لايوجد أب ولا ابن ولا روح قدس كما هو الحال في العقيدة المسيحية، وشعائر الإسلام على بساطته غنية على تقشف ظاهر فليس في حاجة إلى عازف يعزف على آلة موسيقية أو منشد ينشد نداءات كهنوتية أو راقص يدور على نفسه، مثل هذه العقيدة القوية في معنوياتها البسيطة في شعائرها القائمة على مناهضة كل مظهر من مظاهر تعدد الأرباب وما يتصل به من فنون السحر لإحياء طقوسه ومناسكه لايمكن أن يتمخض عن فن تمثيلي فإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب بطبيعة عقولهم ينظرون إلى الكليات عرفنا إلى أي مدى نجد التباين الضخم بين الأدب العربي وبين الآداب الغربية في مجال القصة والمسرح.

ومن ناحية أخرى فإن الصراع المأسوى أو الدرامي الذي هو عقدة المسرحية

والقصة لايجد بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم، ذلك أن البطل المأساوي هو هو في صراع دائم مع الآلهة والقدر، أما المسلم بحكم وحدانيته فإنه لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما كان يتصوره اليونان الذين يؤمنون بقوى متعددة ويؤمنون بأن الحرب مع القدر وإن كانت آخرتها الهزيمة المأساوية فإنها حرب تدل على تجبر الإنسان، إن الصراع مع الآلهة لايفهم أصلاً مع التوحيد، أما الإنسان العربي فهو في سلام مع الله الواحد الأكبر لايستطيع أن يتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما كان يتصوره اليونان.

ولا ريب أن رؤيا العربي واضحة غير مضببة، ولا يشوبها سحاب من الغمام وليست بين بين، وليست في صراع من الطبيعة وكل هذه الرؤيا تنعكس في الأدب العربي، وهي مضادة لرؤية الغربي.

يقول المرحوم على أحمد باكثير: إذا لم يوجد المسرح عند العرب في جاهليتهم، فأحرى ألا يوجد لديهم بعد الإسلام الذي قضى على تلك الوثنية وأعاد إليهم دين التوحيد كأصفى وأنقى ما يكون، وتقديس الأشخاص من مظاهر الوثنية والإسلام ينهى عن ذلك نهياً تاماً مما أدى إلى عدم ظهور (الدراما) لأن نشأة الدراما في عهودها الوثنية كانت تقوم على تقديس من كانوا ملوكاً أو أبطالاً ثم ألهوهم بعد وفاتهم.

(٣)

وقد أشار زكي طليمات في أكثر من بحث إلى أن المسرح باللسان العربي ليس فناً أصيلاً لا في الأدب العربي ولا في المجتمع العربي يقول: «فالمسرح لم يكن يوماً من الفنون التي عملت فيها الأقلام والقرائح».

كما أنه لم يؤلف شعبة من العرض الجماهيري أو لوناً من ألوان التسلية العامة التي يؤمها الجمهور، ومعلوم أن الشرق العربي لم يمارس هذا الفن إلا في أواسط

القرن الماضي، مارسه ضمن ما مارس من الوافدات والنحل الأوربية التي أفسحنا لها المجال في مجتمعنا بعد أن تهيأت دواعيه إلى اعتناق مظاهر الحضارة الأوربية وذلك بتأثير التطور العام والتبادل الاقتصادي ثم بدافع الأحداث السياسية الكبرى.

ويقول: إن المتقصى مدارج المسرح باللسان العربي وباللهجات الإقليمية منذ قيامه على أيدي الرواد الأول، يقف ولا شك أمام ظاهرة كابية اللون، إن هذا المسرح على الرغم من قيامه ما يقرب من قرن وربع القرن، وامتداد جذور له في التربة العربية ما برح يبدو لرجل الشارع وكأنه بضاعة مستوردة من الخارج أو هو زي من أزياء التعبير لاعهد له به ولكنه يتعاطاه من باب التظاهر بالإقبال على كل جديد وافد من أوربا، ولعل أبرز دوافع الاستجابة هي عامل التسلية وفضول المعرفة والتجربة إلا أنها دوافع يجمع بينها مظهر واحد تلحظه العين هو «قزقزة، ثمار الفول السوداني واللب، وعندنا أنه ليس رجل الشارع فقط بل هي الطبيعة الأعمق التي ترى في المسرح شيئاً معارضاً لفطرتها وطبيعتها الصريحة القوية المستعلنة في البيان العربي بغير حاجة إلى هذه الأساليب المعقدة.

ذلك أن المسرحية كما يقول زكي طليمات: مابرحت أجنبية القالب، أجنبية الصناعة. أجنبية الحبكة، نقول وستظل كذلك بكل ما يحاول الآن أرباب هذا الفن». ولعل أعمق العوامل لمعارضتها للفطرة الإنسانية وللطبيعة العربية الإسلامية أنها صورة وهمية ليست من واقع الحياة، وأنها تستعمل النصوص التاريخية بغير أمانة ويرى أصحاب هذا الشأن يأسهم من نجاح هذه المحاولة ذلك أن القالب الشكلي للمسرحية «أجنبي» من كل نواحيه «إذ أنه نقل نقلاً فوتغرافياً) سريعاً من غير تمعن عن المسرحية الغربية التي استوردناها مع كثير من النحل الغربية في أواسط القرن الماضي، ويقولون إنه على الرغم من المحاولة التي جرت خلال أكثر من مائة سنة، على استنبات المسرح في التربة العربية، فقد بقيت المسرحية على قالبها، غريبة المذاق عن رجل الشارع على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلوها لنشرها لأنها «تنبو عن مألوفة في التذوق وتتعالى على الأفق الذي ألف أن يتعاطى منه

الترفيه النفسي ولطائف التسلية».

يرى هذا الرأي زكي طليمات وتوفيق الحكيم وغيرهم من أساطين هذا الفن الوافد، يرون أن هذا المسرح قام دخيلاً في الأقطار العربية من غير تمهيد ولم يستند في قالب صياغته الشكلية على ركائز إننا نقلنا القالب الغربي المستورد نقلاً عفوياً واكتفينا في أمر تعريبه بمسحة سطحية أي أنه لم يعرب تعريباً جذرياً مستمداً من المزاج العربي العام في مفاهيمه الأدبية والتعبيرية والجماهيرية».

ولا ريب أن كل هذه الدراسات والمخاوف تكشف بوضوح عن أن المسرح ليس فناً أصيلاً في الأدب العربي وأنه يجافى المزاج العربي والوجدان الإسلامي.

(٤)

لاريب أن من أقوى عوامل التعارض بين الفن الإسلامي وبين المسرح روح الإباحية الواضحة في الآداب اليونانية والتي ورثها الأدب الغربي، ويقول أنيس فريحة إن مظاهر الإباحة والفسق والعربدة التي كانت تتمثل في طقوس هذا الفن هي ذات مغزى ديني وإن أشعار (البغاء المقدس) والذي يتضمن بيع النساء أجسادهن في أيام معدودات وشرائع ذبائح لعشتروت بأجورهن هي بقايا عادات قديمة سابقة عندما لم يكن زواج بالمعنى الذي نفهمه الآن، بل عندما كان الزواج اجتماعياً مشتركاً (النساء للرجال والرجال للنساء في القبيلة الواحدة) فكانت المرأة عذراء ومتزوجة في آن واحد والربة الأم عذراء ومتزوجة وعشيقة طاهرة وغير طاهرة ويقول: والظاهر أن النساء كانت في طور من أطوار حياتهن يقلدن هذه الربة الأم في بابل وأشور وسوريا وجبيل وفي باقوس في قبرص كانت كل عذراء تبيع نفسها قبل الزواج للبغاء، هذه الصورة المفزعة التي شخصتها الأديان وألغاها الإسلام إلغاء تاماً هي ثمرة الفنون الغربية المسرحية وغيرها، يوم كانت هياكل عشتروت وأفروديت الزهرة حافلة بالبغاء المقدس وهذا هو تراث الأسطورة الذي تحاول أن تجدده

المسرحية الغربية وتعتز به وهو بعيد كل البعد عن القيم التي قدمها الإسلام وحرر بها الإنسان من عبودية الوثن وعبودية الإباحية ورفعه إلى مستوى الكرامة.

ولقد وقف المسلمون عندما ترجموا الفكر اليوناني والفارسي والهندي موقف الإعراض التام عن هذه الآثار ورفضوها رفضاً تاماً لأنها لاتتفق مع طبيعتهم ولا قيمتهم ولا مفهومهم للحياة، وكذلك رفضوا الملاحم الأسطورية لأنها قائمة على شطحات الخيال والتهويل والإغراب.

ولقد كان الشعر الإغريقي الملحمي - كما يقول مفيد الشوباشي يصور عالماً وهمياً لاتكاد تقوم صلة بينه وبين الحياة الحقيقية للمجتمع الإغريقي وتصف آلهة وعمالقة وفرساناً يتميزون بقدرات غير آدمية ويتسامون وراء شهوات وأطماع وأحقاد ويأنفون أن تغلب عليهم الرحمة أو يمس قلوبهم حب أو حنان ويرتكبون في سبيل تحقيق غاياتهم آثاماً تتقزز منها النفوس.

ولا يعتدون على الأحياء فحسب، ولكنهم يمثلون بالجثث والمرأة قاسية كالرجل فهناك امرأة تشترك مع عشيقها في قتل زوجها والتنكيل بأبنائها وأخرى تتزوج بابنها وبينما كان ذلك الشعر يرسم تلك الصورة الشوهاء لمجتمعه حرص الشعراء العرب القدامى على تصوير عالمهم الحقيقي بما فيه من خير وشر وتحليل عواطفهم كما أحسوها ووصف الأحداث على نحو ما وقعت لهم.

(٥)

وإذا كان العرب قد رفضوا تماماً ترجمة هذه الألوان من المسرحيات والملاحم في عصر نهضتهم فإن محاولة الزج بها الآن في الآداب العربية لم تحقق نتائج ذات أهمية وظلت ظاهرة قلقة غريبة، لأنها لم تلتق بالنفس العربية ولا بالمشاعر والأشواق العربية.

وقد وجه سيد قطب إلى توفيق الحكيم رسالة مفتوحة عندما كتب مسرحية الملك

أوديب ناقلاً إياها عن اليونانية:

قال: إنك لم تهتد بعد إلى النبع الأصيل الذي تستقى منه، اتجهت وأنت تحاول وضع القالب الفني للمسرحية المصرية إلى الأساطير الإغريقية مستلهماً موضوعاتك، لماذا، لأن نشأة المسرح كانت إغريقية ولأن الأوربيين ورثة الأغريق قد جعلوا المسرح الأغريقي والتمثيلية الأغريقية والأساطير الأغريقية أساساً لأعمالهم.

لماذا لم ينقل العرب فيما نقلوا عن الأغريق، إن كتاب الجمهورية لأفلاطون قد ترجم إلى العربية وما أشك أن فيه من الأفكار حول تلك المدنية المثالية ما يشق على العقلية الإسلامية أن يسيغه ولكن ذلك لم يمنع من نقله.

إن الصعوبة الأساسية في الأساطير واستلهامها ليست في الحاجة إلى الفهم، ولكن الصعوبة الحقيقية كامنة في الشعور بها في أعماق الضمير.

لهذا لم يكن ممكناً أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الإغريقية المستمدة من هذه الأساطير ولا أن ينتقل إلى تراثهم.

الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية تدفعها حيوية عارمة إلى كل تصرفاتها، حيوية لا تعرف العدل والحق والخلق والضمير لأنها حيوية عاتية شهوانية باطشة، فليس لديها ما يمنع من صب كل هذه اللعنة على أوديب لمجرد شهوة حقد من أبولون، كذلك صنعت مع هرقل.

أما الإسلام فإنه ينبذ نهائياً فكرة الشهوة والظلم عن ذات الله.

(٦)

يقول لويس جاردية: إن صراع العواطف النفسي الذي يعتبر المادية الأساسية للدراما والتراجيديا وتحليل الطباع الذي تقوم عليه كل الكوميديات الكبيرة لم يكن قط من خصائص المجتمع الإسلامي الكبير، فهذا العراك بين الإنسان وقدره الذي مجده كتاب المسرح اليوناني لايتناسب مع مفهوم الحياة ولا مع العلاقات التي تربط

الإنسان بخالقه في المجتمعات العربية والإسلامية.

ويقول جوستان جرونيوم: إن الإسلام السني لم ينجح في خلق فن مسرحي رغم معرفته بالثقافة اليونانية والهندية، وهذا لايعود إلى سبب تاريخي قدر ما يعود إلى مفهوم الإنسان في الإسلام وهو مفهوم يمنع وقوع أي صراع درامي.

ولقد كشف الباحث التونسي الدكتور محمد عزيزة عن الأسباب الدينية الكامنة وراء استحالة قيام صراع بين الإنسان المسلم وخالقه فقال: إن الإسلام دين ودنيا وأنه قد نظم الأمور الدينية وقواعد الحياة والسلوك بالنسبة لكل فرد وبالنسبة للمجموعة كلها، وكل من يخرج عن مجموعة المسلمين ولو مقدار فارق شعره فإنه يموت كافراً.

إن صراع الإنسان مع القدر: أي مع التاريخ الدرامي شيء يصعب تصوره في إطار الإسلام، ذلك أننا لانواجه التاريخ إلا إذا أحسسنا بوجوده الموضوعي المستقل عن رغباتنا الشخصية والذي لايخضع لها.

أما بالنسبة للإسلام فالتاريخ لايتطور جدليا فهناك زمن بعيد عقد الله فيه ميثاقاً مع المؤمنين وقال الرب لعباده: ﴿ ألست بربكم قالوا: بلى ﴾ وبين فترة وأخرى تأتي الأنبياء والرسل يذكرون الناس بهذا الميثاق وهذا الزمن البعيد غير المحدود.

ومهما كانت الأحداث تبدو لنا من الوهلة الأولى مخالفة للمصالح العامة فإن الفكر الإسلامي لايشك لحظة واحدة في تخطيط الله غير المكشوف فهي حتمية متفائلة ترتكز على انسجام نظام الكون وتجعل الإنسان المسلم يتحرك بعيداً عن التناقضاتوالصراع.

وفي المفهوم الإسلامي للمجتمع فإن إرادة الفرد تنصهر برغبته في إرادة الجماعة وحيث يبدو أنها تسلبه كل شيء فهي توفر له كل شيء، وتعوضه عن ذلك، في مثل هذا النظام الاجتماعي لامكان للدراما لسبب بسيط هو أنها ليست لديها ما تقدمه.

ويقول: إن المجتمعات البشرية تمر بفترات أو مراحل عبر تطورها وتتميز المراحل البدائية بطغيان روح الجماعة على العلاقات جميعاً، ولهذا السبب فإن أبرز ما يميز حياة هذه الجماعة البدائية ومنها البدوية: غياب الصراع بين الأفراد والفئات منها، فالفرد هو مجرد لبنة صغيرة في بناء الجماعة يستمد منها عزها وكرامتها، ترتب على ذلك رأي عام جماعي ونظرة إلى العالم وتصور للكون جماعيان فكل فرد كأي فرد آخر، مثل هذه التربة غير صالحة لوجود أدب درامي وبالتالي مسرح، حتى لو عرفت الاستبطان الثابت مالم تتجاوزها إلى مرحلة اجتماعية أخرى هي أعلى منها، وذلك لسبب بسيط هوأن هذه الحياة تفتقر إلى كل مبررات الصراع بين فرد وفرد أو بين فرد وجماعة، أو بين جماعة وجماعة، وقد تصطرع كل الجماعة مع جماعة أخرى غريبة (مجتمع آخر، قبيلة مجاورة، شعب آخر) غير أن مثل هذا النوع من الصراع يستدعي (الملحمة) لا الدراما.

فالملحمة هي السجل الخالد للجماعة: أعمالها وبطولاتها ومآثرها وأمجادها، ولا يستدعي الدراما، والعربي كان لايزال بعيداً عن الإحساس بذاته المميزة عن ذات الجماعة لذلك لم يفكر بالأدب الدرامي.

إن اكتشاف الإنسان لنفسه كند للآلهة أو كشخصية مستقلة تقف وحدها تجاهها يعني القول بوجود إرادتين: إرادة الإنسان وإرادة الآلهة، وبالنسبة للإسلام فإن مثل هذه الثنائية ليست غير موجودة فحسب، بل وغير متصورة على الإطلاق، فالله تبارك وتعالى في الإسلام هو مصدر كل شيء وأساس كل شيء، وموقف الإنسان إزاء إرادة الله هو موقف العبودية والتسليم الكامل، ومن ثم فإن إرادة الإنسان هي جزء من إرادة الله الشاملة ومن شأن هذا المفهوم أن يحرر النفس المسلمة من كثير مما تقاسي النفس الغربية من العذاب والآلام والتمزق والفزع.

هذا الصراع هو جوهر المسرحية والعمل الدرامي، وهو غير متوفر إطلاقاً في أفق الإسلام أو المفهوم الإسلامي لعلاقة الإنسان بربه أو بالمجتمع الإسلامي نفسه.

وإذا كان هذا الصراع في الفكر الغربي من أربع أنواع فهي جميعاً تنصهر وتذوب

في مفهوم الإسلام الرحيم السمح الذي ينقذ الإنسان والبشرية من هذا الدمار النفسي.

أولا: الصراع بين الحرية البشرية والإرادة الإلهية الذي يصوره (برومثيوس) لا وجود له في الإسلام حيث إن الإرادة الإنسانية الحرة، تتحرك في إطار الإرادة الإلهية الكبرى وتخضع لها عن طواعية وتسليم ورضا كامل.

ثانياً: الصراع الذي يجسد المواجهه بين حرية الفرد وبين الكيان الاجتماعي لا وجود له في الإسلام حيث إن حرية الفرد تنمو بالغيرية والعطاء والإنفاق والرحمة حتى تنصهر تماماً في المجتمع دون أن تفقد وجودها ذاته.

ثالثاً: الصراع الذي يجسد المواجهة بين العقوبة البشرية وبين القدر لا وجود له في الإسلام حيث يؤمن المسلم بأن ما أصابه من شر فمن نفسه وما أصابه من خير فهو من رحمة الله الذي يطلب منه الهداية ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالمسلم يتحرك في الحياة فيخطئ ثم يلتمس من الله العفو والعافية.

رابعاً: الصراع الذي يجسد المتناقضات الداخلية في الإنسان، ولا وجود له حيث أن المسلم يؤمن بأنه جماع روح ومادة وشهوة وأشواق عليا وأنه قابل للرغبات الدنيا والمطامع الربانية فهو قادر على الموازنة بين ذلك وذلك دون أن يقع في التناقض أو الصراع.

ويتساءل الباحث عما إذا كان المسلم حسب حضارته ودينه يستطيع أن يحيا إحدى هذه الحالات الصراعية الأربع، هل يستطيع أن يضع المسلم حريته الشخصية أمام إرادة الله، أو أمام الكيان الاجتماعي لمدينتة أو يواجه بها منطق التاريخ والقدر أو أن يكتشف أخيراً في أعماقه إنساناً آخر يصارعه.

وتكون الإجابة أن أوجه الصراع المختلفة هذه التي يقاسيها الغربي وتتمثل في المسرحية والدراما بالذات لاتوجد في الفكر الإسلامي ولا في المجتمع الإسلامي ولذلك فإن الفكر الإسلامي لايعرف هذا اللون الذي يتعارض مع عقيدته وطبيعته

النفسية والعقلية والروحية.

وبعد فإن التغريب حين احتال إلى إدخال المسرحية إلى الأفق العربي الإسلامي وهي غريبة عنه غير مقبولة لديه، إنما كان يستهدف إدخال مفاهيم مسمومة تتعارض مع القيم الإسلامية الأصيلة عن طريق الفن والقصة والمسرح، نظراً للإقبال على هذا الفن والإعجاب به لغرابته، ولما كانت المسرحية هي حوار معد أساساً لإدخال فكرة ما إلى النفس والعقل فإن هناك محاذير كثيرة تواجه الشباب المسلم الذي لم يتحصن تحصيناً كافياً بالمفاهيم الإسلامية.

ومن ذلك مسرحيات سارتر وكامي وبيكيت ويونسكو التي تحاول أن تسخر من قيم الأخلاق والدين وتصف كل شيء بأنه غير مقدس، وتثير الشبهات في كل أفق سليم ولا شك أن مسرحيات العبث واللامعقول والرفض المكتوبة والمشاهدة تقدم سموماً كثيرة للعقل الذي لم تحصنه معطيات إسلامية كثيرة في طور النشأة.

ولعل أخطر ما يواجهنا هو التفرقة بين الواقع الإنساني القائم في المجتمع، والصورة الفنية الخيالية المنسوجه على هيئة مسرحية، ذلك أن هذا العالم الخيالي المزور الزائف مختلف عن عالم الواقع تماماً بل مضد له كثيراً، ولا شك أن في اعتباره حكماً على عالم الواقع تجاوز كبير وخطر مستطير، لأنه يخرج عن الحقيقة التاريخية وعن طبائع الأشياء ولأنه يتكئ على الجانب المظلم والإباحي من النفس الإنسانية ويسرف في الإباحية والتشاؤم ويركز على الأوضاع المسفة المنحلة.